

كتاب : الخاسن والمساوي

المؤلف : إبراهيم البيهقي

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الأمان من الخذلان. الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على محمد النبي الأمي الهاشمي الأبطحي المكي المدني الهادي المهدي السراج المضيء والقمر المنير النقي النقي وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار السادة الأطهار المقسطين الأبرار الذين خلقوا من طينة واحدة وجبلوا على فطرته ودرجوا على حوزته وميزوا بحكمته وعلى منهجته وملتوا بطاعته وسلم تسليماً كثيراً دائماً.

محاسن الكتب

قال الشيخ إبراهيم بن محمد البيهقي: قال مصعب بن الزبير: إن الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون ويحفظون أحسن ما يكتبون ويكتبون أحسن ما يسمعون، فإذا أخذت الأدب فنخذه من أفواه الرجال فإنك لا تسمع منهم إلا مختاراً.

وقال لقمان لابنه: يا بني تنافس في طلب الأدب فإنه ميراث غير مسلوب وقرين غير مغلوب ونفيس حظ في الناس مطلوب.

وقال الزهري: الأدب ذكر لا يحبه إلا الذكور من الرجال ولا يبغضه إلا مؤنثهم. وقيل: إذا سمعت أديباً فكتبه ولو في حائط، قال: وقال المنصور بن المهدي للمأمون: أيجسن بمثلي طلب الأدب؟ قال: لأن تموت طالباً للأدب خير من أن تعيش قانعاً بالجهل. قال: فألى متى يجسن بي ذلك؟ قال: ما حسنت بك الحياة.

وقال الزهري: ما سمعت كلاماً أوجز من كلام عبد الملك بن مروان لولده حيث يقول: اطلبوا معيشة لا يقدر عليها سلطان جائر. قيل ما هي؟ قال: الأدب.

وقال بزرجهر: يا ليت شعري أي شيء أدرك من فاته الأدب أم أي شيء فات من أدرك الأدب ومادته من الكتب! وقد أهدى بعض الكتاب إلى صديق له دفترًا وكتب له: هديتي هذه، أعزك الله، تزكو عن الإنفاق وتربو على الكد، لا تفسدها العواري ولا تخلقها كثرة التقلب، وهي أنس في الليل والنهار والسفر والحضر تصلح للدنيا والآخرة، تؤنس في الخلوة وتمتع في الوحدة، مسامر مساعد ومحدث مطواع ونديم صديق.

وقال بعضهم: الكتب بساتين العلماء.

وقال آخر: الكتاب جليس لا مؤنة له.

وقال الفضل بن سهل للمأمون وهو بدمشق بدير مران مشرف على غوطتها: يا أمير المؤمنين هل رأيت في

حسنها شبيهاً في شيء من ملك العرب؟ يعني العوطة. قال: بلى والله، كتاب فيه أدب يجلو الأفهام ويذكي القلوب ويؤنس الأنفس أحسن منها.

وقال الجاحظ: الكتاب نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والقعدة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربية، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والتزيل، الكتاب وعاء مليء علماً وظرفٌ حشي ظرفاً، إن شئت كان أعياناً من باقل وإن شئت كان أبلغ من سبحان وائل وإن شئت ضحكت من نوادره وإن شئت بكيت من مواعظه، ومن لك بواعظٍ مله وبناسك فاتك وناطقٍ أخرس، ومن لك بطيبٍ أعرابيٍّ وروميٍّ وهنديٍّ وفارسيٍّ ويونانيٍّ ونديميٍّ مولدٍ ووصيفٍ ممتع، ومن لك بشيء يجمع الأول والآخر والناقص والوافي والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده، وبعد فما رأيت بستاناً يحمل في ردن وروضة تنقل في حجر ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء غيره، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من في الأرض وأكنم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة، ولا أعلم جاراً أبر ولا خليطاً أنصف ولا رفيقاً أطوع ولا معلماً أخضع ولا صاحباً أظهر كفاية ولا عناية ولا أقل إملاً وإبراماً ولا أبعد عن مرء ولا أترك لشغب ولا أزهد في جدال ولا أكف عن قتال من كتاب، ولا أعم بياناً ولا أحسن مؤاتاة ولا أعجل مكافأة ولا شجرة أطول عمراً ولا أطيّب ثمراً ولا أقرب مجتنباً ولا أسرع إدراكاً ولا أوجد في كل إبان من كتاب، ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد المتراخية والسائرة والأمم البائدة ما يجمع من كتاب ولولا الحكم المخطوطة والكتب المدونة لبطل أكثر العلم ولغلب سلطان النسلن سلطان الذكر ولما كان للناس مفرغ إلى موضع استذكار، ولو لم يتم ذلك لحرمتنا أكثر النفع، ومن لك لا يبتدئك في حال شغلك ولا في أوقات عدم نشاطك ولا يجوجك إلى التجمل والتذمم، ومن لك بزائر إن شئت جعلت زيارته غيباً وورده خمساً وإن شئت لزمك لزوم ذلك.

والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك والصديق الذي لا يقلبك والرفيق الذي لا يملك والمستمخ الذي لا يؤذيك والجار الذي لا يستبطنك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ولا يعاملك بالمكر ولا يخذلك بالنفاق. والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك وشحد طباeck وبسط لسانك وجود بيانك وفخم ألفاظك وعمّر صدرك وحبك تعظيم الأقوم ومنحك صداقة الملوك، يطبعك في الليل طاعته بالنهار، وفي السفر طاعته في الحضر، وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يحقرك وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة وإن عزلت لم يدع طاعتك وإن هبت عليك ريح أعدائك لم يتقلب عليك، ومتى كنت متعلقاً به ومتصلاً منه بأدنى حبل لم يضرك منه وحشة الوحدة إلى جليس السوء، وإن أمثل ما يقطع به الفراع نهارهم وأصحاب الكفايات ساعة ليلهم نظرة في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد أبداً في تجربة وعقل ومروعة وصون عرض وإصلاح دين ومال ورب صنيعه وابتداء إنعام، ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه

إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك ونظرك إلى المارة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس ومن حضور أفاضلهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأحوالهم الرديئة وطرائقهم المذمومة وأفعالهم الخبيثة القبيحة لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمة وإحراز الأصل مع استفادة الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلا السلامة ثم الغنيمة وإحراز الأصل مع استفادة الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخر المنى وعن اعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما أشبهه، لقد كان في ذلك على صاحبه أسغى النعمة وأعظم المنة، وهو الذي يزيد في العقل ويشحذ به ويداويه ويهذب به وينفي الخبث عنه ويفيد العلم ويصادق بينك وبين الحجة ويقودك للأخذ بالثقة ويعمر الحال ويكسب المال، وهو منبهة للمورث وكنز عند الوارث غير أنه كنز لا زكاة فيه ولا حق للسلطان يخرج منه، هو كالضيعة التي لا تحتاج إلى سقي ولا إسجال بإيغاز ولا إلى شرط ولا أكار، وليس عليها عشر للسلطان ولا خراج، ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها وخلدت من عجيب حكمها ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدناها بما من غاب عنا وفتحنا بما كل منغلق علينا فجمعنا في قليلنا كثيرهم وأدر كنا ما لم ندركه إلا بهم لقد كان بُخس حظنا منه، وأكثر من كتبهم نفعاً وأشرف منها حظاً وأحسن موقفاً كتب الله عز وجل التي فيها الهدى والرحمة والإخبار عن كل عبرة وتعريف كل سيئة وحسنة، وما زالت كتب الله جل وعلا في الألواح والصحف والمصاحف، فقال جل ذكره: " أم لم يُنبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وقى " ، فذكر صحف موسى الموجودة وصحف إبراهيم البائدة، وقال: " ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه " ، وقال عز وجل: " ما فرطنا في الكتاب من شيء " ، وقال: " كراماً كاتبين " ، وقال: " وأما من أوتي كتابه وراء ظهره " ، وقال: " اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً " ، ولو لم تكن تكتب أعمالهم لكانت محفوظة لا يدخل ذلك الحفظ نسيان ولكنه تعالى جده علم أن نسخه أوكد وأبلغ وأهيب في الصدور فقال جل ذكره: " إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون " ، ولو شاء الله أن يجعل البشارات بالمرسلين على الألسنة ولم يودعها الكتب لفعل، ولكنه تبارك وتعالى علم أن ذلك أتم وأبلغ وأكمل وأجمع. وفي قول سليمان، عليه السلام: " اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم " ، وقد كان عنده من يبلغ الرسالة على تمامها من عفريت وإنسي وغيرهما، فرأى الكتاب أبهى وأحسن وأكرم وأفخم وأنبل من الرسالة، ولو شاء النبي، صلى الله عليه وسلم، أن لا يكتب إلى قيصر وكسرى والنجاشي والمقوقس وإلى بني الجُلندي وإلى العباهلة من حمير وإلى هوذة والملوك العظماء والسادة النجباء لفعل ولوجد المبلغ المعصوم من الخطأ والزلل والتبدل، ولكنه، عليه السلام، علم أن الكتاب أشبه بتلك الحالة وأليق بتلك المراتب وأبلغ في تعظيم ما حواه الكتاب، وحمله إن كثر ورقه فليس مما يميل لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة، فإن أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني ولا الثالث حتى يهجم على الرابع، فهو أبداً مستفيد ومستطرف، وبعضه يكون حائلاً لبعض، ولا يزال نشاطه زائداً متى خرج من أثر صار في خبر حتى يخرج من خبر إلى شعر ومن الشعر إلى النواذر ومن النواذر إلى نتف وإلى مواعظ حتى يفضي به إلى

مزح وفكاهة وملح ومضحك وخرافة. وكانوا يجعلون الكتاب نقراً في الصخور ونقشاً في الحجارة وحلقة مركبة في البنيان، وربما كان الكتاب هو الناقية وربما كان الكتاب هو الخفور إذا كان ذلك تاريخاً لأمر جسيم أو عهداً لأمر عظيم أو موعظة يرتجى نفعها أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره، كما كتبوا على قبة عُمدان وعلى باب القيروان وعلى باب سمرقند وعلى عمود مأرب وعلى ركن المشقر وعلى الأبلق الفرد من تيماء وعلى باب الرهاء، يعمدون إلى المواضع الرفيعة المشهورة والأماكن المذكورة ويضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور وأمنعها من الدروس وأجدر أن يراها من مرّ ولا ينسى على مرور الدهور، وعمدوا إلى الرسوم وقوش الخواتيم فجعلوها سبباً لحفظ الأموال والخزائن ولولاها لدخل على الناس الضرر الكبير، ولولا خطوط الهند لصاع من الحساب أكثره ولبطلت معرفة التضاعيف، ونفع الحساب معلوم والخلة في موضع فقلده معروفة. قال الله عز وجل: " هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب " ، ولولا الكتب المدونة والأخبار المجلدة والحكم المخطوطة التي تجمع الحساب وغير الحساب لبطل أكثر العلم، ولولا الكتاب لم يكن يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة في بياض يوم حتى تكون الحادثة بالكوفة غدوة فيعلمها أهل البصرة قبل المساء، وذلك مشهور في الحمام إذا أرسلت، وكانت العرب تعتمد في مآثرها على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك ديوانها على أن الشعر بقية فضيلة البيان على الشاعر الراغب وفضيلة الأثر على السيد المرغوب إليه، وكانت العجم تقيّد مآثرها بالبنيان فبنت مثل بناء أردشير وبناء إصطخر وبيضاء المدائن وشيرين والمدن والحصون والقناطر والجسور، ثم إن العرب شاركت العجم في البنيان وتفردت بالشعر، فلها من البنيان عُمدان وكعبة نجران وقصر مأرب وقصر شعوب والأبلق الفرد وغير ذلك من البنيان، وتصنيف الكتب أشد تقييداً للمآثر على مر الأيام والدهور من البنيان لأن البنيان لا محالة يدرس وتعفو رسومه والكتاب باقٍ يقع من قرن إلى قرن فهو أبداً جديد والناظر فيه مستفيد وهو أبلغ في تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير، وأهل العلم والنظر وأصحاب الفكر والعبر والعلماء بمخارج الملل وأرباب النحل وورثة الأنبياء وأعوان الخلفاء يكتبون كتب الظرفاء والملحاء وكتب الملاحى والفكاهات وكتب أصحاب المراء والخصومات وكتب أصحاب العصبية وحمية الجاهلية فمنهم من يفرط في التعلم في أيام جهله وهمول ذكره وحدائثه سنة، ولولا جيلاد الكتب وحسانها لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ونازعت إلى حب الأدب وأنفت من حال الجهل وأن تكون في غمار الحشوة ويدخل عليهم الضرر والحقارة وسوء الحال بما عسى أن يكون لا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير، ولذلك قال عمر بن الخطاب: تفقهوا قبل أن تسودوا. وفكاهة وملح ومضحك وخرافة. وكانوا يجعلون الكتاب نقراً في الصخور ونقشاً في الحجارة وحلقة مركبة في البنيان، وربما كان الكتاب هو الناقية وربما كان الكتاب هو الخفور إذا كان ذلك تاريخاً لأمر جسيم أو عهداً لأمر عظيم أو موعظة يرتجى نفعها أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره، كما كتبوا على قبة عُمدان وعلى باب القيروان وعلى باب سمرقند وعلى عمود مأرب وعلى ركن المشقر وعلى الأبلق الفرد من تيماء وعلى باب الرهاء، يعمدون إلى المواضع الرفيعة المشهورة والأماكن المذكورة ويضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور وأمنعها من الدروس وأجدر أن يراها من مرّ ولا ينسى على مرور الدهور، وعمدوا إلى

الرسوم ونقوش الخواتيم فجعلوها سبباً لحفظ الأموال والخزائن ولولاها لدخل على الناس الضرر الكبير، ولولا خطوط الهند لصاع من الحساب أكثره ولبطلت معرفة التضاعيف، ونفع الحساب معلوم والخلة في موضع فقدته معروفة. قال الله عز وجل: " هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب " ، ولولا الكتب المدونة والأخبار المجلدة والحكم المخطوطة التي تجمع الحساب وغير الحساب لبطل أكثر العلم، ولولا الكتاب لم يكن يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة في بياض يوم حتى تكون الحادثة بالكوفة غدوة فيعلمها أهل البصرة قبل المساء، وذلك مشهور في الحمام إذا أرسلت، وكانت العرب تعتمد في مآثرها على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك ديوانها على أن الشعر بقية فضيلة البيان على الشاعر الراغب وفضيلة الأثر على السيد المرغوب إليه، وكانت العجم تقيّد مآثرها بالبيان فبنت مثل بناء أردشير وبناء إصطخر وبيضاء المدائن وشيرين والمدن والحصون والقناطر والجسور، ثم إن العرب شاركت العجم في البيان وتفردت بالشعر، فلها من البيان عُمدان وكعبة نجران وقصر مأرب وقصر شعوب والأبلق الفرد وغير ذلك من البيان، وتصنيف الكتب أشد تقييداً للمآثر على مر الأيام والدهور من البيان لأن البيان لا محالة يدرس وتعفو رسومه والكتاب باقٍ يقع من قرن إلى قرن فهو أبداً جديد والناظر فيه مستفيد وهو أبلغ في تحصيل المآثر من البيان والتصاوير، وأهل العلم والنظر وأصحاب الفكر والعبر والعلماء بمخارج الملل وأرباب النحل وورثة الأنبياء وأعوان الخلفاء يكتبون كتب الظرفاء والملحاء وكتب الملاحى والفكاهات وكتب أصحاب المرء والخصومات وكتب أصحاب العصبية وحمية الجاهلية فمنهم من يفرط في التعلم في أيام جهله وحمول ذكره وحدائثه سنة، ولولا جيلاد الكتب وحسانها لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ونازعت إلى حب الأدب وأنفت من حال الجهل وأن تكون في غمار الحشوة ويدخل عليهم الضرر والحقارة وسوء الحال بما عسى أن يكون لا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير، ولذلك قال عمر بن الخطاب: تفقهوا قبل أن تسودوا.

وقال بعض الحكماء: ذهبت المكارم إلا من الكتب. وقال الله عز وجل: " اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم " ، فوصف نفسه تعالى جده بأنه علم بالقلم كما وصف نفسه بالكرم واعتد بذلك في نعمه العظام وأيديه الجسام ووضع القلم في المكان الرفيع ونوه بذكره وأقسم به كما أقسم بما يحظ به فقال: " ن والقلم وما يسطرون، والقلم أرجح من اللسان لأن كتابته تقرأ بكل مكان ويظهر ما فيه على كل لسان ويوجد مع كل زمان، ومناقلة اللسان وهديته لا تجاوزان مجلس صاحبه ومبلغ صوته، والكتاب يخاطبك من بعيد، وقد قالوا: القلم أحد اللسانين، وقالوا: كل من عرف النعمة في بيان اللسان كان أعرف لفضل النعمة في بيان القلم. وقد يعتري القلم ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه، فما أكثر من يعزم على عشرة أسواط فيضرب مائة لأنه ابتداء الضرب وهو ساكن الطباع فأراه السكون أن الصواب في الإقلال فلما ضرب تحرك دمه فأشاع الحرارة فيه وزاد في غضبه فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار، وكذلك صاحب القلم فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة. وقد قيل: القلم الشاهد والغائب يقرأ بكل لسان وفي كل زمان. وقالوا: ظاهر عقول الرجال في اختيارها ومدون في أطراف أقلامها، ومصباح الكلام

حسن الاختيار. وقالوا: القلم مجهز جيوش الكلام، يخدم الإرادة ولا يمل الاستزادة، ويسكت واقفاً وينطق سائراً على الأرض، بياضه مظلم وسواده مضيء، وقال الشاعر:  
قومٌ إذا خافوا عداوةَ معشرٍ ... سفكوا الدماً بأسنة الأقاليم  
ولمَشَقَّةٍ من كاتبٍ بمداده ... أمضى وأقطع من صنيع حسام  
وقال آخر أيضاً:

ما السيف والسيفُ سيفُ الكميِّ ... بأخوف من قلم الكاتب  
له غايةٌ إن تأملتَها ... ظهرت على سَوَعة الغائب  
أداة المنية في جانيه ... فمن مثله رهية الراهب  
سنان المنية في جانبٍ ... وسيف المنية في جانب  
ألم تر في صدره كالسنان ... وفي الردف كالمهف القاضب  
فيجري به الكف في حالةٍ ... على هيئة الطاعن الصَّارِب  
وقال آخر أيضاً ملغزاً:

وأعجف رجلاه في رأسه ... يطير حثيثاً على الأملس  
مطايه من تحته الإصبعان ... ولولا مطايه لم يلمس  
وقال آخر، سامحه الله:

وأعجف مُنْشَقَّ الشِّبَاةِ مَقْلَمٍ ... موشى القرا طاري الحشا أسود القم  
إذا هو أضحي في الدواة فأعجمٌ ... ويضحى فصيحاً في يدي غير أعجم  
يناجي مناجاةً أغرَّ مُرْزَأً ... متى ما استمع معروفه يتبسم  
وقال آخر، رحمه الله:

لك القلم الذي لم يجر لوماً ... بغاية منطق فكبا بعِي  
ومبتسمٌ عن القرطاس يأسو ... ويجرح وهو ذو بال رخي  
فما المقداد أعضب من شباهة ... ولا الصمصام سيف المذحجي  
وقال وأجاد:

أحسن من غفلة الرقيب ... ولحظة الوعد من حبيب  
والنغم والنقر من كعاب ... مصيبة العود والقضيب  
ومن بنات الكروم راحاً ... في راحتي شادنٍ ريب  
كتبُ أديب إلى أديب ... طالت به مدة المغيب  
فتمتت كفه سطوراً ... تنمقُ الصبر في القلوب  
ترك من سَطَّرت إليه ... أطرب من عاشق طروب  
وقال آخر:

إذا استمدت صرفت الطرف عن يدها ... خوفاً عليها لما أخشى من التهم

كأنما قابل القرطاس إذ مشقت ... منها ثلاثة أقلامٍ على قلم  
وقال أشجع في جعفر البرمكي:

إذا أخذت أنامله ... تُبين فضله القلما

تطأطأ كلُّ مرتفعٍ ... لفضل الكُتُبِ مذ نجما

يقدم ويؤخر، أراد: إذا أخذت أنامله القلم تبين فضله. وفي الخط قال: نظر المأمون إلى مؤامرة بخط حسن فقال: لله در القلم كيف يحوك وشي المملكة! وقال يحيى بن خالد البرمكي: الخط صورةٌ روحها البيان ويدها السرعة وقدمها التسوية وجوارحها معرفة الفصول، وقال في مثله، رحمه الله تعالى:

تقول وقد كتبت دقيق خطي: ... فديتك ممّ تجتب الجليلا؟  
فقلت لها:

نَحَلْتُ فصار خطي ... دقيقاً مثل صاحبه نجلا

وقال علي بن الجهم في صفة الكتب: إذا غشيني النعاس في غير وقت النوم تناولت كتاباً فأجد اهتزازي فيه من الفوائد والأريحية التي تعتادني وتعتريني من سرور الاستنباه وعز التبيين أشد إيقاظاً من نهيق الحمار وهدة الهدم، وإني إذا استحسنت كتاباً واستجدته رجوت فيه فائدةً، فلو تراني ساعة بعد ساعة أنظر كم بقي من ورقة مخافة استنفاده وانقطاع المادة من قبله، وإن كان الكتاب عظيم الحجم وكان الورق كبير القدر. وذكر له العيني كتاباً لبعض القدماء وقال: لولا طوله لنسخته، فقال: ما رغبني إلا فيما زهدت عنه، وما قرأت كتاباً كبيراً فأخلايني من فائدةٍ ولا أحصي كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كما دخلت فيها.

قال ابن داحية: كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لا يجالس الناس ونزل مقبرة من المقابر وكان لا يكاد يُرى إلا وفي يده كتاب يقرأ فيه، فسئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة فقال: لم أر أوعظ من قبر ولا آنس من كتاب ولا أسلم من الوحدة.

وقيل لابن داحية وقد أخرج إليه كتاب أبي الشمقمق وهو في جلود كوفية وورقتين طابقتين لا بخط عجيب فقال: لقد ضيع درهماه صاحب هذا الكتاب، وقال: والله إن القلم ليعطيكم مثل ما تعطونه ولو استطعت أن أتودعه سويداء قلبي وأجعله مخطوطاً على ناظري لفعلت.

وقال بعضهم: كنت عند بعض العلماء وكتبت أكتب عنه بعضاً وأدع بعضاً فقال لي: اكتب كل ما تسمع فإن أحسن ما تسمع خير من مكانه أبيض، وقيل:

أما لو أعني كل ما أسمع ... وأحفظ من ذاك ما أجمع

ولم أستفد غير ما قد جمعت ... لقليل هو العالم المنع

ولكن نفسي إلى كل نوعٍ ... من العلم تسمعه تجرع

فلا أنا أحفظ ما قد جمعت ... ولا أنا من جمعه أشبع

ومن لث في علمه هكذا ... ترى دهره الفهقري يرجع

إذا لم تكن حافظاً واعياً ... فجمعك للكتب لا ينفع  
وقال بعضهم: الحفظ مع الإقلال أمكن ومع الإكثار أبعد وهو للطباع مع رطوبة القضيبي أقبلي، ومنها قول  
الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبي خالياً فتمكنا  
وقيل: العلم في الصغر كالتقش في الحجر، فسمع ذلك الأحف فقال: الكبير أكثر عقلاً ولكنه أكثر شغلاً،  
وكما قال:

وإنّ من أدبته في الصبي ... كالعود يُسقى الماء في غرسه  
حتى تراه مورقاً ناضراً ... بعد الذي أبصرت من يبسه  
والصبيّ على الصبيّ أفهم وله آلف وإليه أنزع، وكذلك العالم على العلم والجاهل على الجهل، وقال الله  
تبارك وتعالى: " ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً " ، لأن الإنسان على الإنسان أفهم وطباعه بطباعه آنس،  
ومن التقط كتاباً جامعاً كان له غنمه وعلى مؤلفه غرمه، وكان له نفعة وعلى صاحبه كده، ومتى ظفر بمثله  
صاحب علم فهو وادعُ جاممٌ ومؤلفه متعوب مكدود وقد كفي مؤنة جمعه وتتبّعه وأغناه عن طول التفكير  
واستفاد العمر، كان عليه أن يجعل ذلك من التوفيق والتسديد إذا بالغ صاحبه في تصنيفه وأجاد في  
اختياره، قال أبو هفان:

إذا آنس الناس ما يجمعون ... أنست بما يجمع الدفتر  
له وطري وله لذتي ... على الكأس والكأس لا تحضر  
تدور على الشرب محمودةً ... لها المورد الحرقُ والمصدر  
يغنيهم ساحر المقلتين ... كشمس الضحى طرفه أحور  
وريجانهم طيب أخلاقهم ... وعندهم الورد والعبهر  
على أن هممتنا في الحروب ... فتلك الصناعة والمنتجر  
قال: لما قلتها عرضتها على ابن دهقان فقال: إذا سمع بما الخليفة استغنى بها عن الندماء. وأنشدنا غيره:

نعم الحداثّ والرفيق كتابٌ ... تلهو به إن خانك الأصحاب  
لا مفشياً سراً إذا استودعته ... وتنال منه حكمةٌ وصواب  
وقال آخر:

نعم الجليس بعقب قعدة ضجرةٍ ... للملك والأدباء والكتاب

ورقٌ تضمّن من خطوط أناملٍ ... مرعى من الأخبار والأدب  
يخلو به من ملّ من أصحابه ... فيقال خلوّ وهو في الأصحاب  
قال: وأنشدنا أبو الحسن علي بن هارون بن يحيى النديم، رحمه الله:  
إذا ما خلوت من المؤنسين ... جعلت الحداثّ لي دفتري  
فلم أخل من شاعرٍ محسنٍ ... ومن مضحكٍ طيبٍ مندر



ومن حكمٍ بين أثنائها ... فوائد للناظر المفكر

وإن ضاق صدري بأسراره ... وأودعته السرّ لم يظهر

وإن صرّح الشعر باسم الحبيب ... لما اختشيت ولم أحصر

وإن عدت من ضجرةٍ بالهجاء ... ولو في الخليفة لم أحذر

فناديت منه كريم المغيّب ... لندمانه طيّب المحضّر

فلست أرى مؤثراً ما حييت ... عليه نديماً إلى الخشر

وقال في الدهن:

إذا ما غدت طالّبة العلم ما لها ... من العلم إلا ما يخلّد في الكتب

غدوت بتشميرٍ وجدٍ عليهم ... ومحبّرتي سمعي ودفترها قلبي

وقال آخر:

يا أيها الطالب الآداب مبتدراً ... لا تسه عن حملك الألواح للأدب

فحملها أدبٌ تحوي به أدباً ... وسوف تنقل ما فيها إلى الكتب

وليس في كلّ وقت ممكناً قلمٌ ... ودفترٌ يا عديم المثل في الحسب

وكل ما تقدم ذكره من مناقب الكتب ووصف محاسنها فهو دون ما يستحقه كتابنا هذا فقد اشتمل على

محاسن الأخبار وظرائف الآثار وترجمناه بكتاب المحاسن والمساوي لأن المصلحة في ابتداء أمر الدنيا إلى انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشر والضارّ بالنافع والمكروه بالخبوب، ولو كان الشر صرفاً محضاً لهلك الخلق، ولو كان الخير محضاً لسقطت الحنة وتقطعت أسباب الفكرة، ومتى بطل التخيير وذهب التمييز لم يكن صبر على مكروه ولا شكرٌ على محبوب ولا تعامل ولا تنافس في درجة، وما توفيقنا إلا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محاسن رسول الله

صلى الله عليه وسلم

وافتحنا كتابنا هذا بذكر النبي، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين الأبرار الأخيار، لما رجونا فيه من الفضل والبركة واليمن والتوفيق، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وإخوته من النبيين وآله الطيبين أجمعين، اختار الله من خير أرومات العرب عنصراً ومن أعلى ذوات قريش فرعاً من أكرم عيّدان قصي مجدداً تم لم يزل بلطفه لنبيه، صلى الله عليه وسلم وآله، واختياره إياه بالآباء الأخائر والأمهات الطواهر حتى أخرجها في خير زمان وأفضل أوان، تفرّع من شجرة باسقة الندى، شامخة العلى، عربية الأصل، قرشية الأهل، منافية الأعطان، هاشمية الأغصان، ثمرتها القرآن، تندى بماء يبايع العلم في رياض الحلم، لا يذوي عودها ولا تجفّ ثمرتها ولا يضلّ أهلها، أصلها ثابت وفرعها نابت، فيا لها من شجرة ناضرة خضراء ناعمة غرست في جبل قفر وبلد وعر محل ضرع غير ذي زرع عند بيتك الحرم

وبلدك المكرّم فهو، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأخيار، كما قال بعض الحكماء: لئن كان سليمان، عليه السلام، أعطي الريح غدوها شهر ورواحها شهر لقد أعطي نبينا، صلى الله عليه وسلم، البراق الذي هو أسرع من الريح، ولئن كان موسى، عليه السلام، أعطي حجراً تنفجر منه اثنتا عشرة عيناً لقد وضع أصابعه، عليه وعلى آله السلام، في الإناء والماء ينبع من بين أصابعه حتى ارتوى أصحابه، رضي الله عنهم، وما لهم من الخيل، ولقد كان رديف عمه أبي طالب بذي الحجاز فقال: يا ابن أخي قد عطشت، فقال: عطشت يا عم؟ قال: نعم، ففني وركه فنزل وضرب بقدمه الأرض فخرج الماء فقال: اشرب، فاشرب حتى روي، ولئن كان عيسى، عليه السلام، أحيا النفس ياذن الله لقد رفع، صلى الله عليه وسلم، ذراعاً إلى فيه فأخبرته أنها مسمومة، وكان، صلى الله عليه وسلم، يخبر بما في الضمائر وما يأكلون فما يدخرون، ثم دعاؤه المستجاب الذي لا تأخير فيه، وذلك أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لما لقي من قريش والعرب من شدة أذاهم له وتكذيبهم إياه واستعانتهم عليه بالأموال دعا أن تجذب بلادهم وأن يدخل الفقر بيوتهم، فقال: اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف! اللهم اشدد وطأتك على مضر! فأمسك الله عز وجل عنهم القطر حتى مات الشجر وذهب الثمر وقلت المراعي فماتت المواشي حتى اشتبوا القد وأكلوا العلهز، فعند ذلك وفد حاجب بن زرارة إلى كسرى يشكو إليه الجهد والأزل ويستأذنه في رعي السواد وهو حين ضمن عن قومه وأرهنه قوسه، فلما أصاب مضر خاصة الجهد ونهكهم الأزل وبلغت الحجة مبلغها وانتهت الموعدة منتهاها دعا بفضله، صلى الله عليه وسلم، الذي كان نداهم به فسأل ربه عز وجل الخصب وإدراار الغيث فأتاهم منه ما هدم بيوتهم ومنعهم حوائجهم، فكلّموه في ذلك فقال: اللهم حوالينا ولا علينا، فأمر الله ما حوّلهم ودعا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، على المستهزئين بكتاب الله عز وجل، وكانوا اثني عشر رجلاً، فكفاه الله جل اسمه أمرهم، فقال: "إنا كفيناك المستهزئين"، وقصة عامر بن الطفيل ودعائه عليه، وناطقه، صلى الله عليه وسلم، ذئب، وأظلمت غمامة، وحن إليه عود المنبر، وأطعم عسكرياً من ثريدة في جسم قطاة، وسقى عامماً ووضأهم من ميضأة جسم صاع، ورسوخ قوائم فرس سراقه بن جشمع في الأرض وإطلاقه له بعد إذ أخذ موثقه، ومريه ضرع شاة حائل فعادت كالحامل، والتراق الصخرة بيد أربد، وما أراه الله عز وجل أبا جهل حين أهوى بالصخرة نحو رأس رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو ساجد فظهر له فحل ليلقم رأسه فرمى بالصخرة ورجع يشد إلى أصحابه قد انتقع لونه، فقالوا له: ما بالك؟ فقال: رأيت فحلاً لم أر مثله يريد هامتي.

وأما ما أراه الله أعداءه من الآيات فأكثر من أن يحصى، منها ما رواه وهب بن منبه عن الليث بن سعد قال: أتى أربد بن ربيعة وعامر بن الطفيل إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال أحدهما للآخر: أنا أشغله بالكلام حتى تقتله، فوقف أحدهما على النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما طال عليه انصرف فقال لصاحبه: ما صنعت شيئاً؟ قال: رأيت عنده شيئاً ورجله في الأرض ورأسه في السماء لو دنوت منه أهلكني، وأما أربد فأصابته صاعقة، وأنزل الله تعالى: "له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، وأما عامر فإنه قال لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: لنا أهل الوبر ولكم أهل المدر، فقال، صلى الله عليه وسلم:

لكم الأعنة، فقال: لأملأها خيلاً عليكم ورجلاً. فلما ولى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: اللهم اكفنيه، فأخذته غدة فقتلته.

وعن محمد بن عبد الله قال: بينا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قائم يصلي إذ رآه أبو جهل فقال لنفر من قريش: لأذهبن فأقتلن محمداً، فدنا منه قال: ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، قائم يصلي ويقرأ: " اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق " ، حتى بلغ آخرها، فانصرف أبو جهل وهو يقول: هذا وأبيكم وعيد شديد، فلقي أصحابه فقالوا له: ما بالك لم تقتله؟ قال: والله إن بيني وبينه رجلاً له كتيبت ككتيبت الفحل يعدني يقول: اذُنْ ادن.

وعن عبد الله أن أعرابياً جاء بعكّة من سمن فاشتراها أبو جهل فأمسك العكّة وأمسك الثمن، فشكاه الأعرابي إلى قريش فكلموه فأبى عليهم، فقال بعض المستهزئين: يا أعرابي أتحب أن تأخذ عكتك وثنها؟ قال: بلى، قال: أترى هذا الرجل المار؟ القه فكلمه، يعني النبي، صلى الله عليه وسلم، فأتاه الأعرابي وشكا إليه أمر العكّة، فخرج عليه، صلى الله عليه وسلم، حتى وقف بباب أبي جهل فناداه باسمه، فخرج إليه ترعد فرائصه، فقال له: أد هذا عكته وثنها، فدخل أبو جهل فدفع إلى الرجل العكّة، فخرج الأعرابي إلى قريش وأخبرهم بذلك، ثم خرج أبو جهل، فقالت له قريش: كلمناك أن تؤدي الأعرابي حقه فأيت ثم جاءك ابن عبد المطلب فدفعت إليه ذلك؟ فقال: إن معه لجمالاً فاتحاً فاه ينظر ما أقول فيلتقم رأسي فما وجدت بداً من إعطائه حقه.

وأما أنس الوحش به فمما حدثنا إسماعيل بن يحيى بن محمد عن سعيد بن سيف بن عمر عن أبي عمير عن الأسود قال: سأل رجل هند بن أبي هالة..... فقال: حدثنا بأعجب ما رأيت أو بلغك عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالت: كل أمره كان عجباً، وأعجب ما رأيت أنه كان لي ربائب وحش كنت آنس بهن وآلفهن فإذا كان يومه الذي يكون فيه عندي لم يزلن قياماً صواف ينظرن إليه ولا يلهيهن عن النظر إليه شيء ولا ينظرن إلى غيره، فإذا شخص قائماً سمون إليه بأبصارهن، فإذا انطلق مولياً لاحظنه النظر، فإذا غاب شخصه عنهن ضربن بأذناهن وآذانهن، وكان ذلك يعجبني.

وعن عبد الملك بن عمير أن النبي، صلى الله عليه وسلم، مر بظبية عند قانص فقالت: يا رسول الله إن ضرعي قد امتلأ وتركت خشفين جائعين فخلني حتى أذهب وأرويهما ثم أعود إليك فتربطني، فقال: صيد قوم وربطتهم! قالت: يا رسول الله فإني أعطيك عهد الله لأرجعن، فأخذ عليها عهد الله ثم أطلقها وأرسلها فما لبثت إلا يسيراً حتى جاءت وقد فرغت ما في ضرعها، فقال: صلى الله عليه وسلم: لمن هذه الظبية؟ قالوا: لفلان، فاستوهبها منه ثم خلى سبيلها وقال: لو أن البهائم تعلم ما تعلمون من الموت ما أكلتم سمناً. وأما محاسن شهادات السباع له بالنبوة فمن ذلك ما روي أن أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية خرجا من مكة فإذا هما بدئب يكد ظبية حتى إن نفسه كاد أن يبلغ ظهر الظبية أو شبيهاً بذلك إذ دخل الظبي الحرم فرجع الذئب، فقال أبو سفيان: ما أرض سكنها قوم أفضل من أرض أسكنها الله إيانا، أما رأيت ما صنع الذئب أعجب منه حين رجع! فقال الذئب: أعجب من ذلك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بالمدينة

يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار. فقال أبو سفيان: واللوات والعزى لئن ذكرت ذلك بمكة لنتركها خلواً.

وذكروا أن رافع بن عميرة بن جابر كان يرعى غنماً إذ غار الذئب عليها فاحتمل أعظم شاة منها فشد عليه رافع ليأخذها منه وقال: عجباً للذئب يحتمل ما حمل! قال: فأقعى الذئب غير بعيد وقال: أعجب منه أنت أخذت مني رزقاً رزقنيه الله تعالى. فقال رافع: يا عجباً للذئب يتكلم! فقال الذئب: أعجب من ذلك الخارج من تمامة يدعوكم إلى الجنة وتأبون إلا دخول النار. فأقبل الرجل إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، وقد جاءه جبريل، عليه السلام، فأنبأه بما كان، فقص النبي، صلى الله عليه وسلم، ما كان فآمن وصدق وقال:

رعت الضأن أحميها بنفسي ... من اللص الخفي وكل ذيب

فلما أن رأيت الذئب يعوي ... وبشرني بأحمد من قريب

يبشرني بدين الحق حتى ... تبينت الشريعة للمنيب

رجعت له وقد شممت ثوبي ... عن الكعبين معتمداً ركوي

فألفيت النبي يقول قولاً ... صواباً ليس بالهزل الكذوب

ألا بلغ بني عمرو بن عوف ... وأختهم جديلة أن أجيبي

دعاء المصطفى لا شك فيه ... فإنك إن تجيبي لا تخيي

ومن محاسن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبركته ما رواه محمد بن إسحاق عن سعيد بن مينا عن جابر بن عبد الله قال: عملنا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في الخندق وكانت عندي شويهة غير سمينة فقلت: والله لو صنعت هذه الشاة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم. قال: فأمرت امرأتي فطحنت شيئاً من شعر فصنعت له منه خبزاً وذبحت الشاة فشويحتها، فلما أمسينا وأراد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الانصراف قلت: يا رسول الله إني صنعت لك شويهة و شيئاً من خبز الشعير وأحب أن تنصرف معي إلى منزلي، وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وحده. فلما قلت له ذلك قال: نعم، ثم أمر بصارخ فصرخ: انصرفوا إلى بيت جابر. فقلت: أنا لله وإنا إليه راجعون. وأقبل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والناس معه، فأخرجتها إليه فسمى ثم أكل وتواردها الناس كلما فرغ قوم قاموا وجاء قوم حتى صدر أهل الخندق عنها.

وروي عن محمد بن إسحاق أن ابنة لبشير بن سعد قالت: دعيتني أمي ابنة رواحة فأعطتني حفنة تمر في ثوبي وقالت: يا بنية اذهبي إلى أهلك بهذا. قالت: فأخذتها وانطلقت بها فمررت برسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأنا أتمس أبي فقال، عليه الصلاة والسلام: تعالي يا بنية، ما هذا معك؟ قلت: تمر بعنت به أمي إلى أبي بشير بن سعد. فقال: هاتي به. فصبيتها في كفي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فما مالاتهما، ثم أمر بثوب فبسط ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب ثم قال لإنسان عنده: ناد في أهل الخندق أن هلموا إلى الغداء. فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه وجعل هو يزداد حتى صدر أهل الخندق عليه وهو يسقط من أطراف الثوب.

ومن آياته، صلى الله عليه وسلم، ما لا يعرفها إلا الخاصة وهي محاسن أخلاقه وأفعاله التي لم تجتمع لبشر من قبله ولا تجتمع لأحد من بعده، وذلك أنا لم نر ولم نسمع لأحد قط صبره وحلمه ووفاءه وزهده وجوده ونجدته وصدق لهجته وكرم عشيرته وتواضعه وعلمه وحفظه وصمته إذا صمت ونطقه إذا نطق ولا كعفوه وقلة امتنانه، ولم نجد شجاعاً قط إلا وقد فر مثل عامر فر عن أخيه الحكم يوم الرِّقْم وعيينة فر عن أبيه يوم نثار وبسطام عن قومه يوم العظالي.

وكان له، صلى الله عليه وسلم، وقائع مثل أحد وحين وغيرهما فلا يستطيع منافق أن يقول هاب حرباً أو خاف.

وأما زهده، صلى الله عليه وسلم، فإنه ملك من أقصى اليمن إلى شحر عمان إلى أقصى الحجاز إلى عذار العراق ثم توفي، صلى الله عليه وسلم، وعليه دين ودرعه مرهون في ثمن طعام أهله، لم يبن داراً ولا شيد قصرًا ولا غرس نخلاً ولا شق نهرًا ولا استنبت عيناً واعتبر بردبه اللذين كان يلبسهما وخاتمه.

وكان، صلى الله عليه وسلم، يأكل على الأرض ويلبس العباءة ويجالس الفقراء ويمشي في الأسواق ويتوسد يده ولا يأكل متكياً ويقتص من نفسه، وكان، صلى الله عليه وسلم، يقول: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأشرب كما يشرب، ولو دعيت إلى ذراع لأجبت ولو أهدي إلي كراع لقبلت. ولم يأكل قط وحده ولا ضرب عبده، ولم ير، عليه الصلاة والسلام، أدار رجله بين يدي أحد ولا أخذ بيده أحد فانترع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسلها.

وأما كرمه، صلى الله عليه وسلم، في فتح مكة وقد قتلوا أعمامه ورجاله وأولياءه وأنصاره وأذوه وأرادوا نفسه فكان يلتقي السفه بالحلم والأذى بالاحتمال، وكان متى كان أكرم وعندهم أصفح كانوا الأم وعليه ألح، والعجب أنهم كانوا أحلم جيل إلا فيما بينهم وبينه فأنهم كانوا إذا ساروا إليه أفحشوا عليه وأفرطوا في السفه ورموه بالفرت والدماء وألقوا على طريقه الشوك وحنوا في وجهه التراب، وكان لا يتولى هذا منه إلا العظماء والأخوال والأعمام والأقرب فالأقرب، فإذا كانوا كذلك كان أشد للغيط وأثبت للحقد، فلما دخل، عليه السلام، مكة قام فيهم خطيباً فحمد الله، عز وجل، وأثنى عليه ثم قال: أقول كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.

وأما محاسن قوله الحق فإنه ذكر زيد بن صوحان فقال: زيد وما زيد، يسبقه عضو منه إلى الجنة، ففقطعت يده يوم نهاوند في سبيل الله ووعد أصحابه ببيضاء إصطخر وبيضاء المدائن وقال لعدي بن حاتم: لا يمنعك ما ترى، يعني ضعف أصحابه وجهدهم، فكأنهم ببيضاء المدائن قد فتحت عليهم، وكأنهم بالظعينة تخرج من الحيرة حتى تأتي مكة بغير خفير، فأبصر ذلك كله عدي وقال لعمار بن ياسر: تقتلك الفئة الباغية، فكان كما قال حتى قال معاوية: إنما قتله من أخرجه.

وضلت ناقته، صلى الله عليه وسلم، فأقبل يسأل عنها فقال المناقون: هذا محمد يخبرنا عن خبر السماء وهو لا يلدرى أين ناقته! فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن رجلاً يقول في بيته إن محمداً يخبرنا عن خبر السماء وهو لا يلدرى أين ناقته، ألا وإني لا أعلم إلا ما علمني ربي عز وجل وقد أخبرني أنها في وادي كذا

وكذا تعلق زمامها بشجرة. فبادر الناس إليها وفيهم زيد بن أرقم وزيد بن اللصيت فإذا هي كذلك. ولما استأمن أبو سفيان بن حرب إليه، عليه الصلاة والسلام، أمر عمه العباس أن يأخذه إلى خيمته حتى يصبح، فلما صار في قبة العباس ندم على ما كان منه وقال في نفسه: ما صنعت؟ دفعت يدي هكذا، ألا كنت أجمع جمعاً من الأحابيش وكنانة وألقاه بهم فلعلي كنت أهزمه! فناداه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من خيمته: إذا كان الله يمزيك يا أبا سفيان. فقال أبو سفيان: يا عباس أدخلني على ابن أخيك. فقال له العباس: ويلك يا أبا سفيان ما آن لك ذلك. فأدخله على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله قد كان في النفس شيء وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله حقاً. وقوله، صلى الله عليه وسلم، لما يكون من بعده مما حدث به محمد بن عبد الرحمن بن أذينة عن سلمان بن قيس عن سلمان بن عامر عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إني رأيت على منبري هذا اثني عشر رجلاً من قريش يخطب كلهم رجلاً من ولد حرب بن أمية وعشرة من ولد أبي العاص بن أمية. ثم التفت إلى العباس وقال: هلاكهم على يدي ولذلك. وأما جماله وبهاؤه ومحاسن ولادته، صلى الله عليه وسلم، فما روي عن عثمان بن أبي العاص قال: أخبرني أمي أنها حضرت آمنة أم النبي، صلى الله عليه وسلم، لما ضربها المخاض، قالت: جعلت أنظر إلى النجوم تتدلى حتى قلت لتقعن عليّ، فلما وضعته خرج منها نور أضاء له البيت والدار حتى صرت لا أرى إلا نوراً. قال: وسمعت آمنة تقول: لقد رأيت وهو في بطني أنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام، ثم ولد، صلى الله عليه وسلم، فخرج معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء كأنه يخطب أو يخاطب. وروي عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أشجع الناس وأحسن الناس وأجود الناس، ما مسست بيدي ديباجاً ولا حريراً ولا خزاً ألين من كف رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وعن جابر بن سمرة قال: رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في ليلة البدر وعليه حلة حمراء فجعلت أنظر إليه وإلى القمر فلهو أحسن في عيني من القمر. وعن جابر بن زيد عن أبيه قال: أتيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في مسجد الحيف فناولني يده فإذا هي أطيب من المسك وأبرد من الثلج. ومن فضله الذي أبرّ على جميع الخلائق ومحاسنه ما روي عن وهب بن منبه أنه قال: لما خلق الله عز وجل الأرض ارتجت واضطربت فكتب في أطرافها محمد رسول الله فسكنت. وأما عقله، عليه الصلاة والسلام، فقد روي أن عقول جميع الخلائق من الأولين والآخرين في جنب عقل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كرملة من بين جميع رمال الدنيا. ومن محاسنه، صلى الله عليه وسلم، الإسراء ما روي عن الحسن بن أبي الحسن البصري، رحمه الله، يرفعه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إني لنائم في الحجر إذ جاء جبريل، عليه السلام، فغمزني برجله فجلست فلم أر شيئاً ثم عدت لمضجعي، فجاءني الثانية فغمزني فجلست وأخذ بعضدي فخرج بي إلى باب الصفا وإذا أنا بدابة أبيض بين الحمار والبغل له جناحان في فخذيه يضع حافره منتهى طرفه، فقال لي

جبريل: اركب يا محمد، فدنوت إليه لأركب ففتح عني. فقال له جبريل، عليه السلام: يا براق ما لك فوالله ما ركبت خير منه قط! فركبت وخرجت ومعني صاحبي لا أفوته ولا يفوتني حتى انتهى بي إلى بيت المقدس فوجدت فيه نفراً من الأنبياء قد جمعوا لي فأمتهم، ثم أتيت ياناءين من حمر ولبن فناولت اللبن وشربت منه وتركت الخمر. فقال جبريل، عليه السلام: هديت وهديت أمتك وحرمت عليهم الخمر، ثم أصبحت بمكة. قال: فلما ذكر رسول الله ذلك ارتد كثير ممن كان آمن به وقالوا: سبحان الله! أذهب محمد إلى الشام في ساعة من الليل ثم رجع والعرير تطرد شهراً مدبرة وشهراً مقبلة! فبلغ ذلك أبا بكر، رضي الله عنه، فأقبل حتى جلس بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله ما يقول هؤلاء؟ يزعمون أنك حدثتهم بأنك قد أتيت الشام هذه الليلة ورجعت من ليلتك! قال: قد كان ذلك. قال: يا رسول الله فصف لي المسجد. فجعلت أصفه لأبي بكر، رحمه الله، وأنا أنظر إليه فكلما حدثته عن شيء قال: صدقت أشهد أنك رسول الله، حتى فرغت من صفته، فقال رسول الله يومئذ: فأنت الصديق يا أبا بكر.

### محاسن المعراج

عبدة بن سليمان عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك قال: أخبرنا نبي الله، صلى الله عليه وسلم، قال: بينا أنا بين اليقظان والنائم عند البيت إذ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فانطلق بي فشرح صدري واستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب فيه من ماء زمزم فغسل به ثم أعيد مكانه وحشي إيماناً وحكمة، ثم أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلقنا حتى أتينا السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. ففتح لنا، قالوا: مرحباً به ولنعم المحيي جاء. فأتيت على آدم فقلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم. فسلمت عليه فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. وانطلقنا حتى أتينا السماء الثانية فاستفتح جبريل، عليه السلام، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. ففتح لنا وقالوا: مرحباً به ولنعم المحيي جاء. فأتيت على يحيى وعيسى فقلت: يا جبريل من هذان؟ قال: عيسى ويحيى. قال: فسلمت عليهما فقالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم انطلقنا حتى أتينا السماء الثالثة فكان مثل قولهم الأول، فأتيت على يوسف فسلمت عليه فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم انطلقنا حتى أتينا السماء الرابعة، فأتيت على إدريس، عليه السلام، فسلمت عليه فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم أتينا السماء الخامسة فأتيت على هارون فسلمت عليه فقال مثل ذلك. ثم أتينا السماء السادسة فأتيت على موسى، عليه السلام، فقال مثل ذلك. ثم أتينا السماء السابعة فأتيت على إبراهيم، عليه وعلى آله السلام، فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم رفع لنا البيت المعمور فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لا يعودون فيه. ثم رفعت لنا سدرة المنتهى فإذا أربعة أثمار يخرج من أسفلها فقلت: يا جبريل ما هذه الأثمار؟ قال: أما النهران الظاهران فالنيل والفرات، وأما الباطنان فنهران في الجنة. ثم أتيت ياناءين من

حمر ولبن فاخترت اللبن. فقيل لي: أصبت أصاب الله بك أمتك على القطرة. وفرضت علي خمسون صلاة فأقبلت بها حتى أتيت على موسى، عليه السلام، فقال: بم أمرت؟ قلت: بخمسين صلاة كل يوم، قال: أمتك لا يطيقون ذلك فإني قد بلوت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك جل وعز فأسأله التخفيف. قال: فرجعت إلى ربي فحط عني خمساً، فأتيت على موسى، عليه السلام، فقال: بم أمرت؟ فأنبأته بما حط عني فقال مثل مقالته الأولى، فما زلت بين يدي ربي جل وعز أستحط حتى رجعت إلى خمس صلوات، فأتيت على موسى، عليه السلام، فقال: بم أمرت؟ فقلت: بخمس صلوات كل يوم. فقال: أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك جل ذكره وأسأله التخفيف. فقلت: لقد رجعت إلى ربي تبارك وتعالى حتى استحييت، لا ولكني أرضى وأسلم. فلما جاوزت نوديت أي قد خففت عن عبادي وأمضيت فريضتي وجعلت بكل حسنة عشرًا أمثالها.

وانظر إلى رونق ألفاظه، عليه السلام، وصحة معانيه وموضع ذلك من القلوب مع قلة تعميقه وبعده من التكلف كقوله، صلى الله عليه وسلم: زويت لي الأرض حياءً فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها، قوله زويت جمعت. ومثله: إن المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة في النار، ولا يكون الانزواء إلا بانحراف مع تقبُّض.

وقال: إن منبري هذا على ترعة من ترع الجنة، وهي الروضة تكون في المكان المرتفع. وقال: إن قريشاً قالت إني صنبور، وهي النخلة تبقى منفردة ويدق أصلها، تقول إنه فرد ليس له ولد فإذا مات انقطع ذكره.

وقال في أبي بكر، رضي الله عنه: ما أحد من الناس عرضت عليهم الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعنهم، أي لم ينتظر ولم يمكث، والكبوة مثل الوقعة. وقال في عمر، رحمه الله: لم أر عبقرياً يفري فريه، والعبقري السيد، يقال: هذا عبقري قومه أي سيدهم، ويفري فريه أي يعمل عمله.

وقال في علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه: إن لك بيتاً في الجنة وإنك ذو قرنيها، يريد أنه ذو طرفيها. وقال في الحسين بن علي، رحمهما الله، حين بال عليه وهو طفل فأخذ من حجره: لا تزرموا ابني، الأزرار القطع، يقال للرجل يقطع بوله أزرار.

وقال في الأنصار: إنهم كرشى وعييتي ولولا الهجرة لكنت امرأة منهم، أي من الأنصار، الكرش الجماعة، والعيبة أي هم موضع سري ومنه أخذت العيبة.

وقال، صلى الله عليه وسلم: لعن الله النامصة والتمصصة والواشرة والموتشرة والواصلة والموتصلة والواشمة والموتشمة، فالنامصة التي تتنف الشعر من الوجه، ومنه قيل للمنقاش المنماص، والتمصصة التي تفعل بها ذلك، والواشرة التي تشر أسنانها وذلك أنها تفلجها وتحدها حتى يكون لها أشر، والأشر تحدّد ورقة في أطراف الأسنان، والواصلة والموتصلة التي تصل شعرها بشعر غيرها، والواشمة المرأة تعزز ظهر كفتها ومعضمها بإبرة حتى تؤثر فيه وتحشوه بالكحل.

وذكر أيام التشريق فقال: هي أيام أكل وشرب وبعال، يعني النكاح. وقال: يحشر الناس يوم القيامة حفاة



بهماً، وهو البهيم الذي لا يخلط لونه لون سواه من سوادٍ كان أو غيره، يقول: ليس فيهم شيء من الأمراض والعايات التي تكون في الدنيا.

وقال في صلح الحديبية: لا إغلال ولا إسلال، الإسلال السرقة، والإغلال الخيانة.

وقال: اللهم إني أعوذ بك من وعناء السفر وكآبة المنقلب والخور بعد الكور، الخوب إذا كان بالباء والكون إذا كان بالنون تقول يكون في حالة جميلة فيرجع عنها، وإذا كانا جميعاً بالراء فهو النقصان بعد الزيادة.

وقال، عليه السلام: حَمَرُوا آئِنَتِكُمْ وَأَوْكُوا أَسْقِيَتِكُمْ وَأَجِفُوا الْأَبْوَابَ وَأَطْفَتُوا الْمَصَابِيحَ وَاكْفَتُوا صَبِيَانِكُمْ فَإِنَّ لِلشَّيْطَانِ انْتِشَاراً وَخَطْفَةً، يعني بالليل، التخميم التغطية، والإيكاء الشد، واسم الخيط الذي يشد به السقاء الوكاء، واكفتوا يعني ضمّوهم إليكم.

وقال في دعائه: لا ينفع ذا الجد منك الجد، بفتح الجيم الغنى والحظ في الرزق، ومنه قيل: لفلان في هذا الأمر جد إذا كان مرزوقاً.

وقال: إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لا تموت حتى تستوفي أو تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، قوله نفث في روعي بضم الراء، النفث شبيه بالنفخ، وروعي يقول في خَلْدِي.

وقال، عليه السلام: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن حال بينكم وبينه سحاب وظلمة أو هبوة فأكملوا العدة، هبوة يعني غبرة.

وقال، عليه السلام: إن العرش على منكب إسرافيل وإنه ليتواضع لله جل وعز حتى يصير مثل الوضع، الوضع ولد العصافير.

فقال، عليه السلام، حين سئل أين كان ربنا جل جلاله قبل أن يخلق السماوات والأرضين فقال: كان في عماء تحته هواء، العماء السحاب.

وقال، عليه السلام: عم الرجل صنو أبيه، يعني أن أصلهما واحد، وأصل الصنو إنما هو في النخل، قال الله عز وجل: " صنواً وغير صنوان " ، الصنوان المجتمع، وغير الصنوان المتفرق.

وقال: من تعلم القرآن ثم نسيه لقي الله عز وجل وهو أجذم، أي مقطوع اليد.

وقال لرجل أتاه وقال: يا رسول الله أيدالك الرجل امرأته بمهرها؟ قال لا إلا أن يكون مُلْفَجاً. فقال له أبو بكر، رضي الله عنه: بأبي وأمي أنت يا رسول الله! إنما نشأت فيما بيننا ونحن قد سافرنا وأنت مقيم فتراك

تكلم بكلام لا نعرفه ولا نفهمه! فقال، صلى الله عليه وعلى آله وسلم: إن الله عز وجل أدبني وأحسن أدبي، وهذا الرجل كلمني بكلامه فأجبتة على حسبه، قال: أيدالك الرجل امرأته بمهرها؟ أي يماطلها،

فقلت: لا إلا أن يكون ملفجاً، أي معدماً.

فكلامه، صلى الله عليه وسلم، وأخلاقه ومذاهبه تدل على أنه موافق لقول الله جل وعز: " الله أعلم حيث

يجعل رسالته " ، وكفوله: " ولقد اخترناهم على علم على العالمين " . وقال جل ذكره: " خذ العفو وأمر

بالعرف وأعرض عن الجاهلين " ، فلما علم أنه قد قيل أدبه قال: " وإنك لعلى خلق عظيم " ، فلما استحكمت له ما أحب قال: " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " .

### مساوى من تنبى

روي أن مسيلمة بن حبيب الكذاب كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك في آخر سنة عشر: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد فإني قد شوركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قریشاً قوم يعتدون.

فقدم عليه رسولان من قبل مسيلمة بهذا الكتاب. فقال: أما والله لولا أن الرسل لا يقتلون لضربت أعناقكما. ثم كتب: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من عباده من يشاء والعاقبة للمتقين. قيل وأتاه الأحنف بن قيس مع عمه فلما خرجا من عنده قال الأحنف لعمه: كيف رأيته؟ قال: ليس بمتمبِّ صادق ولا بكذاب حاذق. ومنهم طليحة تنبى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يقول إن ذا النون يأتيه، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: لقد ذكر ملكاً عظيماً.

فلما كان أيام الردة بعث أبو بكر، رحمة الله عليه، خالد بن الوليد إليه، فلما انتهى إلى عسكره وجده قد ضربت له قبة من أدم وأصحابه حوله، فقال: ليخرج إلي طليحة! فقالوا: لا تصغر نبياً هو طلحة، فخرج إليه فقال خالد: إن من عهد خليفتنا أن يدعوك إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، فقال: يا خالد اشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فلما سمع خالد ذلك انصرف عنه وعسكره بالقرب منه على ميل، فقال عيينة بن حصن لطلحة: لا أبا لك! هل أنت مرينا بعض نبوتك؟ قال: نعم. وكان قد بعث عيوناً له حين سار خالد من المدينة مقبلاً إليهم فعرّفوه خبر خالد، فقال: لئن بعثتم فارسين على فارسين أعرّين محجلين من بني نصر بن قعين أتوكم من القوم بعين. فهياًوا فارسين فبعثوهما فخرجا يركضان فلقيا عييناً لخالد مقبلاً إليهم فقالا: ما خبر خالد؟ أو قالوا: ما وراءك؟ قال: هذا خالد بن الوليد في المسلمين قد أقبل فزادهم فتنة، وقال: ألم أقل لكم؟ فلما كان في السحر فخص خالد إلى طليحة فيمن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما التقى الصفان تزل طليحة في كساء له ينتظر زعم الوحي، فلما طال ذلك على أصحابه وألح عليهم المسلمون بالسيف، قال عيينة بن حصن: هل أتاك بعد؟ قال طليحة من تحت الكساء: لا والله ما جاء بعد! فقال عيينة: تباً لك آخر الدهر! ثم جذبه جذبة جاش منها وقال: قبح الله هذه من نبوة! فجلس طليحة، فقال له عيينة: ما قيل لك؟ قال: قيل لي إن لك رحاً كرحاه، وأمرأ لا تنساه! فقال عيينة: قد علم الله عز وجل أن سيكون لك أمر لا تنساه هذا كذاب ما بورك لنا ولا له فيما يطالب. ثم هرب عيينة وأخوه فأدركوه وأسروه وأفلت أخوه وخرج طليحة منهزماً وأسلمه شيطانه حتى قدم الشام فأقام عند بني جفنة الغسانيين حتى فتح الله عز وجل أجنادين وتوفي أبو بكر وأسلم طليحة إسلاماً صحيحاً وقال:

وإني من بعد الضلالة شاهد ... شهادة حتى لست فيها بملحد  
ومنهم من تنبى بعد في أيام الرشيد رجل زعم أنه نوح، فقيل له: أنت نوح الذي كان أم نوح آخر؟ قال:  
أنا نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وقد بعثت إليكم لأفي الخمسين عاماً تمام الألف سنة،  
فأمر الرشيد بضربه وصلبه، فمر به بعض المخنثين وهو مصلوب فقال: صلى الله عليك يا أبانا، ما حصل في  
يدك من سفيتك إلا دقلها! وهو الذي يكون في وسط السفينة كجذع طويل.  
ومنهم رجل تنبى في أيام المأمون فقال للحاجب: أبلغ أمير المؤمنين أن نبي الله بالباب. فأذن له، فقال ثمامة:  
ما دليل نبوتك؟ قال: تحضر لي أمك فأواقعها فتحمل من ساعتها وتأتي بغلام مثلك. فقال ثمامة: صلى الله  
عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته أهون علي من إحضارك أمي ومواقعتها!

### محاسن أبي بكر

#### رضوان الله ورحمته عليه

روي عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: دخل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المسجد وأبو بكر عن  
يمينه وعمر عن شماله فقال: هكذا نبعت يوم القيامة.  
وقال، صلى الله عليه وسلم: إن الله تبارك وتعالى أيدي من أهل السماء بجبريل وميكائيل ومن أهل الأرض  
بأبي بكر وعمر، ورآهما مقبلين فقال: هذان السمع والبصر.  
وروي عن ابن عمر، رضي الله عنهما، أنه قال: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم.  
وروي عن عمر، رضي الله عنه، أنه قال: أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالصدقة ووافق ذلك مالاً  
عندي فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته، فجئته بنصف مالي، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ما  
أبقيت لأهلك؟ قلت: النصف، وجاء أبو بكر بكل ماله، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما أبقيت  
لأهلك؟ قال: الله حقاً ورسوله، فقلت: والله لا أسبقك إلى شيء أبداً.  
وعن عمر، رضي الله عنه، أنه قال: وددت أني شعرة في صدر أبي بكر، رضي الله عنه.  
وعن عطاء عن أبي الدرداء أنه مشى بين يدي أبي بكر، رضي الله عنه، فقال له رسول الله، صلى الله عليه  
وسلم: المشي بين يدي من هو خير منك، ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أحد  
أفضل من أبي بكر.  
وعن علي بن أبي طالب، رضوان الله ورحمته عليه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: يا علي هل تحب  
الشيخين؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: لا يجتمع حبك وحبهما إلا في قلب مؤمن.  
وعن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: رحم الله أبا بكر، زوجني ابنته وحملي إلى  
دار الهجرة وعتق بلالاً من ماله.  
وعن أنس عن أبي بكر، رضي الله عنه، قال: قلت للنبي، صلى الله عليه وسلم، ونحن في الغار: لو أن أحدهم

نظر في قدميه لأبصرنا، فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله جل وعز ثالثهما! وعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: خرج علينا رسول الله في مرضه الذي مات فيه وهو عاصب رأسه حتى صعده المنبر فقال: إني قائم الساعة على الحوض وإن عبداً عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختر الآخرة، فلم يفتن لها أحد إلا أبو بكر، رضي الله عنه فقال: بأبي أنت وأمي بل نفديك بآبائنا وأبنائنا وأنفسنا وأموالنا! وبكى، فقال: لا تبك يا أبا بكر، إن من آمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من الناس لاتخذت أبا بكر. ولكن أخي في الإسلام لا يبقى في المسجد باب إلا سدّ إلا باب أبي بكر. فبكى أبو بكر وقال: أنا ومالي لك يا رسول الله.

وعن ابن المنكر قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: دعوا لي صاحبي إني بعثت وقال الناس كلهم كذبت وقال لي صدقت، يعني أبا بكر، رضي الله عنه.

وعن محمد بن عبيد عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال: بعث رسول الله، صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل فجاؤ وقد ظهر، فقال: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، قال: لست أسألك عن النساء، قال: أبوها إذا تؤنس.

وعن الحسن قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: يجيء يوم القيامة رجل إلى باب الجنة ليس منها باب إلا وعليه ملك يهتف به هلمّ هلمّ ادخل، فقال أبو بكر، رضي الله عنه: إن هذا لسعيد، قال: هو ابن أبي قحافة.

وعن سليمان بن يسار أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: في المؤمن ثلاثمائة وستون خصلة من الخير إذا جاء بواحدة دخل الجنة، قال أبو بكر، رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي أفيّ منها شيء؟ قال: هي كلها فيك يا أبا بكر.

وعن ابن عمر، رضي الله عنه، قال: بينا النبي، صلى الله عليه وسلم، جالس وعنده أبو بكر، رضي الله عنه، وعليه عباءة قد خلّها في صدره بخلال إذ نزل عليه جبريل، عليه السلام، فقال: يا رسول الله ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلّها في صدره؟ قال: أنفق ماله عليّ قبل الفتح، قال: فأقرئه من الله عز وجل السلام وقل له يقول لك ربك تبارك وتعالى: أراض أنت عني في ففرك أم ساخط؟ فقال أبو بكر: أعلى ربي أغضب! أنا عن ربي راض.

وعن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: كنت جالساً عند النبي، صلى الله عليه وسلم، إذ طلع أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، فقال، عليه الصلاة والسلام: هذان سيّدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ممن مضى ومن بقي إلا النبيين والمرسلين، لا تخبرهما يا علي.

وعن جابر قال: كنت مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فسمعتة يقول: يطلع علينا من هذا الفج رجل من أهل الجنة، فطلع أبو بكر، رضي الله عنه، ثم قال يطلع علينا من هذا الفج رجل من أهل الجنة، فطلع عمر، رضي الله عنه، ثم قال: يطلع علينا من هذا الفج رجل من أهل الجنة، اللهم اجعله علياً! فطلع علي، رضي الله عنه.

وعن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله ما أحسن هذه الآية! قال: أيتها؟ قال قوله تبارك وتعالى: "

يا أيتها النفس مطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي " ، فقال: يا أبا بكر إن الملك سيقولها لك.

وقيل: إنه لما أسلم أبو قحافة لم يعلم أبو بكر، رضي الله عنه، بإسلامه حتى دخل على النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: ألا أبشرك يا أبا بكر بما يسرك؟ قال: مثلك يا رسول الله من يبشر بالخير، فما هي؟ قال: أسلم أبو قحافة! قال: يا رسول الله لو بشرتني بإسلام أبي طالب كان أقر لعيني فإنه أقر لعينك، فبكى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى علا بكأوه جزعاً لما فاتته من إسلام أبي طالب وقال: رحمك الله يا أبا بكر، ثلاثاً.

### محاسن عمر بن الخطاب

### رضوان الله ورحمته عليه

عن أبي هريرة، رحمه الله، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: بينا أنا نائم إذ رأيتني على قليب وعليها دلو، فنزعت ما شاء الله ثم أخذها مني أبو بكر، أو قال ابن أبي قحافة: فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعها ضعف والله جل وعز يغفر له، ثم أخذها عمر فلم أر عبقرياً من الناس يفري فرية حتى ضرب الناس بعطن. وروي أن امرأة في الجاهلية تسمى عاصية أسلمت فكرهت اسمها فأتت عمر، رحمه الله، فقالت: إني كرهت اسمي فسمني. فقال: أنت جميلة. ففضبت وقالت: سميتني باسم الإمام! ثم أتت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالت: بأبي أنت وأمي إني كرهت اسمي فسمني! فقال: أنت جميلة، فقالت: يا رسول الله إني أتيت عمر سماني جميلة ففضبت. فقال: أو ما علمت أن الله جل وعز عند لسان عمر ويده؟ وعن سعيد بن جبير في قوله عز وجل: "وصالح المؤمنين" ، قال: نزلت في عمر خاصة.

وعن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: رحم الله عمر لقول الحق وإن كان مرأاً، تركه الحق ما له من صديق.

وعن سعيد بن جبير قال: إن جبريل قال للنبي، صلى الله عليه وسلم: اقرأ على عمر السلام وأعلمه أن غضبه عز ورضاه حكم.

وعن عثمان بن مظعون قال: مر بنا عمر، رضي الله عنه، ونحن جلوس عند النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: هذا غلق باب الفتنة، لا يزال بينكم وبين الفتنة باب ما عاش هذا بين أظهركم أو ظهرانيكم، فقال بيمينه وشبك بين أصابعه.

وعن ابن عباس عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: جاءني جبريل، عليه السلام، حين أسلم عمر، رحمه الله، فقال لي: تباشرت الملائكة بإسلام عمر وعمر سراج أهل الجنة.

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: بينا أنا في الجنة إذ رأيت داراً فأردت أن أدخلها فسألت لمن هي فقيل هي لعمر بن الخطاب، فذكرت غيرته فرجعت، فقال عمر: يا رسول الله لست ممن يغار عليه.

وعن علي، رضي الله عنه: ما كنا نبعد أن السكينة كانت تنطق على لسان عمر.  
وعن عطاء عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين "، الآية، " ثم أنشأناه خلقاً آخر "، فقال عمر: تبارك الله أحسن الخالقين! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لقد ختمها الله عز وجل بما قلت يا عمر.  
وعن سعد بن أبي وقاص، رحمه الله، قال: استأذن عمر على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعنده نسوة من قريش قد علت أصواتهن فأذن له، فلما دخل بادرن الحجاب، فضحك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: أضحك الله سنك، بأبي أنت وأمي ممّ ضحكت؟ فقال: أعجب من اللواتي كن عندي لما سمعن صوتك بادرن الحجاب! فقال: أنت كنت أحق أن يهين يا رسول الله. ثم أقبل عليهن وأغلظ لهن وقال: أتمبني ولا تمبني رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ قلن: نعم إنك أفظ وأغلظ. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: يا عمر والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك.

محاسن عثمان بن عفان

رضي الله عنه ورحمه

عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في حائط من حيطان المدينة فجاء أبو بكر، رحمه الله، فقال: افتح له وبشره بالجنة، ثم جاء عمر، رحمه الله، فقال: افتح له وبشره بالجنة، ثم جاء علي، رضوان الله عليه، فقال: افتح له وبشره بالجنة، ثم جاء عثمان، رضي الله عنه، فقال: افتح له وبشره بالجنة، فلما جاء عثمان، رحمه الله ورحمهم أجمعين، وقد بدت من فخذ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ناحية فقال: افتح له وبشره بالجنة، فلما جاء عثمان، رحمه الله، غطاها، فقالوا: يا رسول الله ما لك لم تغطه حين جئنا؟ فقال: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟ وعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: إن الله جل وعز أمرني أن أزوج كريمي عثمان بن عفان، رحمه الله.

محاسن علي بن أبي طالب

رضوان الله عليه

عن أبي حيان التيمي عن أبيه عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: رحم الله علياً، اللهم أدر الحق معه حيث دار.

وعن علي قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: يا معشر قريش والله ليعثن الله عليكم رجالاً منكم قد امتحن الله قلبه للإيمان يضرب رقابكم على الدين. فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا. فقال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، ولكنه خاصف النعل، وأنا أخصف نعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وسلم.

وعن جابر قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لعليّ هذا وليكم بعدي إذا كانت فتنة. وعن مصعب عن أبيه قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: ما لكم ولعلي، من آذى علياً فقد آذاني.

وعن علي، رضي الله عنه، قال: هلك فيّ رجلان: عدو مبغض ومحب مفرط، قال: وقال ليحبيّ أقوام حتى يدخلهم حيي النار ويبغضني أقوام حتى يدخلهم بغضي النار، هم الرافضة والناصية. وعن أم سلمة قالت: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا يجب علياً منافق ولا يبغض علياً مؤمن. وعن عمرو بن الأصم قال: قلت للحسن بن علي، رضوان الله عليهما: هؤلاء الشيعة يزعمون أن علياً مبعوث الآن. قال: كذبوا والله ما أولئك بشيعة ولو كان كما يقولون ما أنكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه. وعن فاطمة، رضي الله عنها، قالت: دخل عليّ عليّ، رضي الله عنه، وأنا عند النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: ابشر يا أبا الحسن! أما إنك في الجنة وإن قوماً يزعمون أنهم يحبونك يرفضون الإسلام يرقون منه كما يمرق السهم من الرمية لهم نيزّ يقال لهم الرافضة فإن أدركتهم فقاتلهم فإنهم مشركون. قال: وحدثنا رجل حضر مجلس القاسم بن الجهم وهو والي الأهواز قال: حضر مجلسه رجل من بني هاشم فقال: أصلح الله الأمير! ألا أحدثك بفضيلة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه؟ قال: نعم إن شئت. قال: حدثني أبي قال: حضرت مجلس محمد بن عائشة بالبصرة إذ قام إليه رجل من وسط الحلقة فقال: يا أبا عبد الرحمن من أفضل أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح. فقال له: فأين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه؟ قال: يا هذا تستفتي عن أصحابه أم عن نفسه؟ قال: بل عن أصحابه. قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: " قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم " ، فكيف يكون أصحابه مثل نفسه؟ وعن عطاء قال: كان لعلي، رحمه الله، موقف من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوم الجمعة إذا خرج أخذ بيده فلا يخطو خطوة إلا قال: اللهم هذا علي اتبع مرضاتك فارض عنه، حتى يصعد المنبر.

وحدثنا إبراهيم بن أحمد الغضائري بإسناد يرفعه إلى أبي مالك الأشجعي رواه أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: هبط علي جبريل، عليه السلام، يوم حنين فقال: يا محمد إن ربك تبارك وتعالى يقرئك السلام، وقال: ادفع هذه الأترجة إلى ابن عمك ووصيك علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. فدفعها إليه فوضعها في كفه فانفلقت بنصفيين فخرج منها رقّ أبيض مكتوب فيه بالنور: من الطالب الغالب إلى علي بن أبي طالب.

أبو عثمان قاضي الري عن الأعمش عن سعيد بن جبير قال: كان عبد الله بن عباس بمكة يحدث على شفير زمزم ونحن عنده، فلما قضى حديثه قام إليه رجل فقال: يا ابن عباس إني امرؤ من أهل الشام من أهل حمص، إنهم يبرأون من علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه، ويلعنونه. فقال: بل لعنهم الله في الدنيا

والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً، ألبعد قرابته من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأنه لم يكن أول ذكران العالمين إيماناً بالله ورسوله وأول من صلى وركع وعمل بأعمال البر؟ قال الشامي: إنهم والله ما ينكرون قرابته وسابقته غير أنهم يزعمون أنه قتل الناس. فقال ابن عباس: ثكلتهم أمهاتهم! إن علياً أعرّف بالله عز وجل وبرسوله وبحكمهما منهم، فلم يقتل إلا من استحق القتل. قال: يا ابن عباس إن قومي جمعوا لي نفقة وأنا رسولهم إليك وأمينهم ولا يسعك أن تردني بغير حاجتي، فإن القوم هالكون في أمره ففرّج عنهم فرّج الله عنك. فقال ابن عباس: يا أخا أهل الشام إنما مثل علي في هذه الأمة في فضله وعلمه كمثل العبد الصالح الذي لقيه موسى، عليه السلام، لما انتهى إلى ساحل البحر فقال له: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً؟ قال العالم: إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً؟ قال موسى: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. قال له العالم: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً. فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها، وكان قد خرقتها لله جل وعز رضياً ولأهلها صلاحاً، وكان عند موسى، عليه السلام، سحطاً وفساداً فلم يصبر موسى وترك ما ضمن له فقال: أخرجتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمرأاً! قال له العالم: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال موسى: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً. فكف عنه العالم، فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله، وكان قلبه لله جل وعز رضياً ولأبويه صلاحاً، وكان عند موسى، عليه السلام، ذنباً عظيماً، قال موسى ولم يصبر: أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟ لقد جئت شيئاً نكراً! قال العالم: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغت من لدني عذراً. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه، وكان إقامته لله عز وجل رضياً وللعالمين صلاحاً، فقال: لو شئت لاتخذت عليه أجراً، قال: هذا فراق بيني وبينك. وكان العالم أعلم بما يأتي موسى، عليه السلام، وكبر على موسى الحق وعظم إذ لم يكن يعرفه هذا وهو نبي مرسل من أولي العزم ممن قد أخذ الله جل وعز ميثاقه على النبوة، فكيف أنت يا أخا أهل الشام وأصحابك؟ إن علياً، رضي الله عنه، لم يقتل إلا من كان يستحل قتله، وإني أخبرك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان عند أم سلمة بنت أبي أمية إذ أقبل علي، عليه السلام، يريد الدخول على النبي، صلى الله عليه وسلم، فنقر نقراً خفياً فعرف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، نقره فقال: يا أم سلمة قومي فافتحي الباب. فقالت: يا رسول الله من هذا الذي يبلغ خطره أن استقبله بمحاسني ومعاصمي؟ فقال: يا أم سلمة إن طاعتي طاعة الله جل وعز، قال: "ومن يطع الرسول فقد أطاع الله" قومي يا أم سلمة فإن بالباب رجلاً ليس بالخرق ولا النزق ولا بالعجل في أمره يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يا أم سلمة إنه إن تفتحي الباب له فلن يدخل حتى يخفى عليه الوطاء، فلم يدخل حتى غابت عنه وخفي عليه الوطاء، فلما لم يحس لها حركة دفع الباب ودخل فسلم على النبي، صلى الله عليه وسلم، فردّ عليه السلام وقال: يا أم سلمة هل تعرفين هذا؟ قالت: نعم هذا علي بن أبي طالب. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: نعم هذا علي سيط لحمه بلحمي ودمه بدمي وهو مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي يا أم سلمة، هذا علي سيد مبجل مؤمل المسلمين وأمير المؤمنين وموضع سرّي وعلمي وبابي الذي أوي إليه، وهو الوصي على أهل بيتي وعلى



الأخيار من أمّتي، وهو أخي في الدنيا والآخرة وهو معي في السّناء الأعلى، اشهدي يا أم سلمة أن علياً يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين. قال ابن عباس: وقتلهم الله رضي ولأمة صلاح ولأهل الضلالة سخط. قال الشامي: يا ابن

عباس من الناكثون؟ قال: الذين بايعوا علياً بالمدينة ثم نكثوا فقاتلهم بالبصرة أصحاب الجمل، والقاسطون معاوية وأصحابه، والمارقون أهل النهروان ومن معهم. فقال الشامي: يا ابن عباس ملأت صدري نوراً وحكمة وفرجت عني فرج الله عنك، أشهد أن علياً، رضي الله عنه، مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة. اس من الناكثون؟ قال: الذين بايعوا علياً بالمدينة ثم نكثوا فقاتلهم بالبصرة أصحاب الجمل، والقاسطون معاوية وأصحابه، والمارقون أهل النهروان ومن معهم. فقال الشامي: يا ابن عباس ملأت صدري نوراً وحكمة وفرجت عني فرج الله عنك، أشهد أن علياً، رضي الله عنه، مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

ويروي أن ابن عباس، رحمه الله، قال: عقم النساء أن يجتن بمنزل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ما رأيت محرّباً يُزَنّ به لرأيته يوم صفين وعلى رأسه عمامة بيضاء وكان عينيه سراجاً سليط وهو يقف على شذمة بعد شذمة من الناس يعظهم ويحضهم ويحرضهم حتى انتهى إليّ وأنا في كثف من الناس فقال: معاشر المسلمين استشعروا الخشية وأكملوا اللأمة وتجليوا بالسكينة وعضوا الأصوات واحظوا الشرر وأطعنوا الوجع وصلوا السيوف بالخطى والرماح بالنبل، فإنكم بعين الله ومع ابن عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تقاتلون عدو الله عليكم بهذا السواد الأعظم والرواق المطّنب، فاضربوا ثججه فإن الشيطان راكس في كسره مفترش ذراعيه قد قدّم للوثبة يداً وأخّر للتكوص رجلاً، فصمداً صمداً حتى ينجلي لكم الحق وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم.

وعن ابن عباس أنه قال: لقد سبق لعلي، رضي الله عنه، سوابق لو أن سابقة منها قسمت على الناس لوسعتهم خيراً.

وعنه قال: كان لعلي، رضي الله عنه، خصال ضوارس قواطع سطة في العشيرة وصهر بالرسول وعلم بالتنزيل وفقه في التأويل وصبر عند النزال ومقاومة الأبطال، وكان ألدّ إذا أعضل، ذا رأي إذا أشكل. قيل: ودخل ابن عباس على معاوية فقال: يا ابن عباس صف لي علياً، قال: كأنك لم تره؟ قال: بلى ولكني أحب أن أسمع منك فيه مقالاً، قال: كان أمير المؤمنين، رضوان الله عليه، غزير الدمعة طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جش، يدنينا إذا أتيناها ويجيبنا إذا دعوناها، وكان مع تقربته إيانا وقربه منا لا نبدأ بالكلام حتى يتبسم فإذا هو تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، أما والله يا معاوية لقد رأيت في بعض مواقف وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وهو قابض على حيته يبكي ويتململ تلملم السليم وهو يقول: يا دنيا إياي تغرّين؟ أمثلي تشوقين؟ لا حان حينك بل زال زوالك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعيشك حقير وعمرك قصير وخطرك يسير، آه آه من بُعد السفر ووحشة الطريق وقلة الزادا! قال: فأجهش معاوية ومن معه بالبكاء.

وقال خزيمية بن ثابت ذو الشهادتين يصف محاسن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومن حضره، كرم الله

وجهه، في قصيدة له:

رأوا نعمةً لله ليست عليهم ... عليك وفضلاً بارعاً لا تنازعه  
فعضوا من الغيظ الطويل أكفهم ... عليك ومن لم يرض فالله خادعه  
من الدين والدنيا جميعاً لك المنى ... وفوق المنى أخلاقه وطبائعه

وروي أن عدي بن حاتم دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال: يا عدي أين الطرقات؟ يعني بنيه طريفاً  
وطارفاً وطرفة. قال: قتلوا يوم صفين بين يدي علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. فقال: ما أنصفك ابن أبي  
طالب إذ قدّم بينك وآخر بنيه! قال: بل ما أنصفت أنا علياً إذ قُتل وبقيت! قال: صف لي علياً. فقال: إن  
رأيت أن تعفيني. قال: لا أعفيك. قال: كان والله بعيد المدى وشديد القوى، يقول عدلاً ويحكم فضلاً،  
تتفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته، وكان  
والله غزير الدمعة طويل الفكرة، يحاسب نفسه إذا خلا ويقلب كفيه على ما مضى، يعجبه من اللباس  
القصير ومن المعاش الخشن، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويدنينا إذا أتينا، ونحن مع تقريبه لنا وقربه  
منا لا نكلمه لهيبته ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته، فإن تبسّم فعن اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، يتحجب إلى  
المساكين، لا يخاف القويّ ظلمه ولا ييأس الضعيف من عدله، فأقسم لقد رأيت له ليلة وقد مثل في محرابه  
وأرعى الليل سرباله وغارت نجومه ودموعه تتحادر على لحيته وهو يتململ تملل السليم ويبكي بكاء  
الحزين، فكأنني الآن أسمع وهو يقول: يا دنيا أليّ تعرضت أم إليّ أقبلت؟ غرّي غيري، لا حان حينك، قد  
طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعيشك حقير وخطرك يسير، آه من قلة الزاد وبعد السفر وقلة الأيسر!  
قال: فوكفت عينا معاوية ينشّفهما بكمّته ثم قال: يرحم الله أبا الحسن! كان كذا فكيف صبرك عنه؟ قال:  
كصبر من ذبح ولدها في حجرها فهي لا ترقأ دمعته ولا تسكن عبرتها. قال: فكيف ذكرك له؟ قال: وهل  
يتركني الدهر أن أنساه! وهذا الخبر أتم من خبر ابن عباس، رحمه الله.

محاسن من أمسك عن الوقوع في أصحاب النبي

صلى الله عليه وسلم

قال: قدم عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان فقال له يحيى بن الحكم عم عبد الملك بن مروان،  
قال: ما تقول في علي وعثمان؟ قال: أقول ما قال من هو خير مني فيمن هو شر منهما: إن تعذبهم فإنهم  
عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم.  
عصام بن يزيد قال: كنت عند حمزة حتى أتاه رجل فسأله عن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم،  
فقال: تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون.  
وروي أنه كتب إسماعيل بن علي إلى الأعمش أن اكتب إلينا بمناقب علي ووجوه الطعن على عثمان، رضي  
الله عنهما، فكتب: لو أن علياً لقي الله جل وعز بحسنات أهل الدنيا لم يزد ذلك في حسناتك، ولو لقيه

عثمان، رضي الله عنه، بسيئات أهل الأرض لم يتقص ذلك من سيئاتك.  
وعن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر قال: كان إياس بن معاوية لي صديقاً فدخلنا على عبد الرحمن بن القاسم بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، وعنده جماعة من قريش يتذاكرون السلف، ففضل قوم أبو بكر وقوم عمر وآخرون علياً، رضي الله عنهم أجمعين، فقال إياس: إن علياً، رحمه الله، كان يرى أنه أحقّ الناس بالأمر، فلما بايع الناس أبا بكر ورأى أنهم قد اجتمعوا عليه وأن ذلك قد أصلح العامة اشترى صلاح العامة بنقض رأي الخاصة، يعني بني هاشم، ثم ولي عمر، رحمه الله، ففعل مثل ذلك به وبعثمان، رضي الله عنه، فلما قتل عثمان، رحمه الله، واختلف الناس وفسدت الخاصة والعامة وجد أعواناً فقام بالحقّ ودعا إليه. وقيل إنه حضر مجلس عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، جماعةً من أهل العلم فذكروا علياً، رضي الله عنه، وعثمان وطلحة والزبير، رضي الله عنهم أجمعين، وما كان بينهم فأكثرُوا وعمر ساكت، قال القوم: ألا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا أقول شيئاً، تلك دمَاء طهر الله منها كفيّ فلا أغمس فيها لساني.

## مساوي تلك الحروب

ومن تقص علي بن أبي طالب رضوان الله ورحمته وبركاته عليه

أبو نعيم قال: حدثنا عبد الجبار بن العباس الهمداني عن عمار الدُهني عن سالم بن أبي الجعد قال: ذكر النبي، صلى الله عليه وسلم، بعض أمهات المؤمنين فضحكت عائشة، رضي الله عنها، فقال: انظري يا حميراء أن لا تكوني أنت هي، ثم الفت إلى علي، رضوان الله عليه، فقال: انظري يا أبا الحسن إن وليت من أمرها شيئاً فافرق بها. وقال الزهري: لما سارت عائشة ومعها طلحة والزبير، رضي الله عنهم، في سبع مائة من قريش كانت تنزل كل منزل فتسأل عنه حتى نبحتها كلاب الحوآب فقالت: ردوني، لا حاجة لي في مسيري هذا، فقد كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فماني فقال: كيف أنت يا حميراء لو قد نبحت عليك كلاب الحوآب أو أهل الحوآب في مسيرك تطلين أمراً أنت عنه بمعزل؟ فقال عبد الله بن الزبير: ليس هذا بذلك المكان الذي ذكره رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ودار على تلك المياه حتى جمع خمسين شيخاً قساماً فشهدوا أنه ليس بالماء الذي تزعمه أنه نهيته عنه، فلما شهدوا قبلت وسارت حتى وافت البصرة، فلما كان حرب الجمل أقبلت في هودج من حديد وهي تنظر من منظر قد صير لها في هودجها، فقالت لرجل من ضبّة وهو أخذ بخطام جملها أو بعيرها: أين ترى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه؟ قال: ها هو ذا واقف رافع يده إلى السماء، فنظرت فقالت: ما أشبهه بأخيه! قال الضبي: ومن أخوه؟ قالت: رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: فلا أراي أقاتل رجلاً هو أخو رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فنبذ خطام راحلتها من يده ومال إليه.

وعن الحسن البصري، رحمه الله، أن الأحنف بن قيس قال لعائشة، رحمها الله، يوم الجمل: يا أم المؤمنين هل عهد عليك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هذا المسير؟ قالت: اللهم لا. قال: فهل وجدته في شيء من كتاب الله جل ذكره؟ قالت: ما نقرأ إلا ما تقرؤون. قال: فهل رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم،

استعان بشيء من نساته إذا كان في قلة والمشركون في كثرة؟ قالت: اللهم لا. قال الأحنف: فإذا ما هو ذنبنا؟ قال: وقال الحسن البصري: تقلدت سيفي وذهبت لأنصر أم المؤمنين فلقيني الأحنف فقال: إلى أين تريد؟ فقلت: أنصر أم المؤمنين. فقال: والله ما قاتلت مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المشركين فكيف تقاتل معها المؤمنين؟ قال: فرجعت إلى منزلي ووضعت سيفي.

## مساوي من عادى علي بن أبي طالب

رضي الله عنه

قال: ولما فرغ أمير المؤمنين، عليه السلام، من قتال أهل الجمل دخل عليه عبد الله بن الكواء وقيس بن عبادة السكري فقالا: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرت يضرب الناس بعضهم رقاب بعض أراًياً رأيته حين تفرقت الأمة واختلفت الدعوة، فإن كان رأياً رأيته أجبتك في رأيك، وإن كان عهداً عهدته إليك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأنت الموثوق به المأمون فيما حدثت عنه. فقال: والله لئن كنت أول من صدق به لا أكون أول من كذب عليه، أما أن يكون عندي عهد من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيه فلا والله لو كان عندي ما تركت أخا تيم وعدي على منبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولكن نبينا، عليه السلام، لم يُقتل قتلاً ولم يمِت فُجاعةً ولكنه مرض ليالي وأياماً فأتاه بلال ليؤذنه بالصلاة فيقول: اتأبأ بكر وهو يرى مكاني، فلما قبض، صلى الله عليه وسلم، نظرنا في الأمر فإذا الصلاة علم الإسلام وقوام الدين فرضينا لديانا من رضيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لدينا فولينا أمورنا أبا بكر فأقام بين أظهرنا الكلمة واحدة والدين جامع، أو قال: الأمر جامع لا يختلف عليه منا اثنان ولا يشهد منا أحد على أحد بالشرك، وكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني وأضرب الحدود بين يديه بسيفي وسوطي على كراهة منه لها، وود أبو بكر لو أن واحداً منا يكفيه، فلما حضرت أبا بكر، رحمه الله، الوفاة ظننت أنه لا يعدل عني لقرايتي من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسابقتي وفضلي، فظن أبو بكر أن عمر أقوى مني عليها، ولو كانت اثره لاثر بها ولده، فولّى عمر على كراهة كثير من أصحابه، فكنت فيمن رضي لا فيمن كره، فوالله ما خرج عمر، رحمه الله، من الدنيا حتى رضي به من كان كرهه، فأقام عمر، رحمه الله، بين أظهرنا الكلمة واحدة والأمر واحد لا يختلف عليه منا اثنان، فكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني وأضرب الحدود بين يديه بسوطي وسيفي، أتبع أثره أتباع الفضيل أمه لا يعدل عن سبيل صاحبيه ولا يحيد عن سنتهما، فلما حضرت عمر، رضي الله عنه، الوفاة ظننت أنه لا يعدل عني لقرايتي وسابقتي وفضلي، فظن عمر أنه إن استخلف خليفة يعمل بخطية لحقته في قبره فأخرج منها ولده وأهل بيته وجعلها شورى في ستة رهط، منهم: عبد الرحمن بن عوف، فقال: هل لكم أن أدع لكم نصبي على أن أختار الله ورسوله؟ قلنا: نعم. فأخذ ميثاقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه، وأخذنا ميثاقه على من يختار الله ورسوله، فوقع اختياره على عثمان، رضي الله عنه، فظرت فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي وإذا ميثاقي قد أخذ لغيري، فاتبعت عثمان وأديت إليه حقه على أثره منه وتقصير عن ستة صاحبيه، فلما قتل عثمان، رضي الله عنه،

نظرت فكنت أحق بها من جميع الناس. فقالوا: صدقت وبررت، فأخبرنا عن طلحة والزبير بما استحلتت قتالهما وقد شركك في الهجرة مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفي الشورى من عمر، رحمهم الله. فقال: قد شركاني في الهجرة وفي الشورى ولكنهما بايعاني بالحجاز وخلعاني بالعراق ولو فعلا ذلك بأبي بكر وعمر لقاتلتهما. فقالوا: صدقت وبررت وأنت أمير المؤمنين.

قال: ولما كان حرب صفين كتب أمير المؤمنين، رضوان الله عليه، إلى معاوية بن أبي سفيان: ما لك يُقتل الناس بيننا؟ ابرز لي فإن قتلتني استرحت مني وإن قتلتك استرحت منك. فقال له عمرو بن العاص: أنصفك الرجل فابرز إليه. قال: كلا يا عمرو، أردت أن أبرز له فيقتلني وتتب على الخلافة بعدي! قد علمت قريش أن ابن أبي طالب سيدها وأسدها. ثم أنشأ يقول:

يا عمرو قد أسرت همة غادرٍ ... برضاك لي تحت العجاج برازي  
ما للملوك وللبراز وإهما ... حتفُ المبارز حطفةً من بازي  
إن التي مئتت نفسك خالياً ... قتلي جزاك بما نويت الحجازي  
فلقد كشفت قناعها مذمومةً ... ولقد لبست لها ثياب الحجازي  
فأجابه عمرو بن العاص:

معاويَ إني لم أجن ذنباً ... وما أنا بالذي يُدعى بخازي  
فما ذنبي بأن نادى عليّ ... وكبش القوم يدعى للبراز  
فلو بارزته للقيت قرناً ... حديد الناب شهماً ذا اعتزاز  
أجبتاً في العشيرة يا ابن هندٍ ... وعند الباه كالتيس الحجازي

ثم كتب معاوية إلى علي، رحمه الله: أما بعد فإننا لو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنبها بعضنا على بعض وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا ما نرّم به ما مضى ونصلح ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على أن تلزمني لك طاعة فأبيت ذلك علي وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس وإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو ولا خاف من الفناء إلا ما أخاف، وقد والله رقت الأجناد وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد مناف ليس لأحد منا على أحد فضل نستذلّ به عبداً أو نسترقّ به حراً.

فأجابه علي: من علي بن أبي طالب إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد فقد جاعني كتابك وتذكر أنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنبها بعضنا على بعض، وأنا وإياك نلتمس غايةً لم نبلغها بعد، فأما طلبك الشام فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك عنه أمس، وأما استوارنا في الخوف والرجاء فلست بأمضى على الشك مني على اليقين وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة، وأما قولك إنا بنو عبد مناف فكذلك نحن وليس أمية كهاشم ولا حرب كعبد المطلب ولا أبو سفيان كأبي طالب ولا الطليق كالمهاجر ولا الحق كالمطل، في أيدينا فضل النبوة التي قبلنا بها العز ونفينا بها الخزي.

عن الشعبي أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ناس فلما رآه مقبلاً استضحك فقال: يا أمير المؤمنين أضحك الله سنك وأدام سرورك وأقر عينك، ما كل ما أرى يوجب الضحك! فقال معاوية: خطر

ببالي يوم صفين يوم بارزت أهل العراق فحمل عليك علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فلما غشيك طرحت نفسك عن دابتك وأبدت عورتك كيف حضرك ذهنك في تلك الحال، أما والله لقد واقفته هاشمياً مناقياً ولو شاء أن يقتلك لقتلك! فقال عمرو: يا معاوية إن كان أضحكك شأني فمن نفسك فاضحك، أما والله لو بدا له من صفحتك مثل الذي بدا له من صفحتي لأوجع قذالك وأيتم عيالك وأنهب مالك وعزل سلطانك، غير أنك تحرزت منه بالرجال في أيديها العوالي، أما إني قد رأيتك يوم دعاك إلى البراز فاحولت عينك وأزبد شدقك وتنشّر منخراك وعرق جبينك وبدا من أسفلك ما أكره ذكره. فقال معاوية: حسبك حيث بلغت لم نرد كل هذا.

قال: وذكر أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: زعم ابن النابغة أني تلعباة تمزاحة ذو دعابة، أعافس وأمارس، لا رأي لي في الحروب، هيهات يمنع من العفاس والمراس ذكر الموت والبعث، فمن كان له قلب ففي هذا عن هذا واعظ، أما وشر القول الكذب إنه ليحدث فيكذب ويعد فيخلف، فإذا كان البأس فأعظم مكيدته أن يمنح القوم استه.

قال: وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله يوم صفين: تبين لي هل ترى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه؟ قال عبد الله: فظرت فرأيتته فقلت: يا أبت ها هو ذاك على بغلة شهباء عليه قباء أبيض وقلنسوة بيضاء. قال: فاسترجع، وقال: والله ما هذا بيوم ذات السلاسل ولا بيوم اليرموك ولا يوم أجنادين، وددت أن بيني وبين موقفي بُعد المشرقين. فنزل سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو قالا: والله لئن كان صواباً إنه لعظيم مشكور، ولئن كان خطأً إنه لصغير مغفور. فقلت له: يا أبت فمن يمنعك من الذي فعلا؟ فوالله ما يحول بينك وبين ذلك أحد! فقال: إن يرجع الشيخ ولم يُعذر إذ نزل القوم بضنك فانظر، ثم تأمل بعد هذا أو ذر.

وقال بعض الشعراء في معاوية ومحاربتة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب:

قد سرت سير كليب في عشيرته ... لو كان فيهم غلامٌ مثل جساس

الطاعن الطعنة النجلاء عاندها ... كطرة البرد أعياء فتقها الآسي

عبد الله بن السائب قال: جمع زياد أهل الكوفة يحرضهم على البراعة من علي، كرم الله وجهه، فملاً منهم المسجد والرحبة، قال: فغفوت غفوة فإذا أنا بشيء له عنق مثل عنق البعير أهمل أهدب، فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا القنّاد ذو الرقبة بُعثت إلى صاحب القصر. فانتبهت فرعاً، فما كان بأسرع إذ خرج علينا خارج من القصر فقال: انصرفوا فإن الأمير في شغل عنكم اليوم، فإذا هو قد فليج، فقال عبد الله في ذلك: ما كان منتهياً عما أراد بنا ... حتى تأتي له القنّاد ذو الرقبة فأسقط الشقّ منه ضربةً ثبتت ... لما تناول ظلماً صاحب الرّحبه أراد أنه قتل في رحبة المسجد.

الأصمعي قال: سمع عامر بن عبد الله بن الزبير ابنه ينال من عليّ، رضي الله عنه، فقال: يا بني إياك وذكر عليّ، رضي الله عنه، فإن بني أمية تنقصته ستين عاماً فما زاده الله بذلك إلا رفعة.

قال: وقال عبد الملك بن مروان للحجاج بن يوسف: جئني دماء آل أبي طالب فإني رأيت بني حرب لما قتلوا الحسين، عليه السلام، نزع الله ملكهم.

## محاسن الحسن والحسين

### ابن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم

روي عن أنس بن مالك أنه قال: لم يكن في أهل بيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أحد أشبه به من الحسن، عليه السلام، وكان قال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ابني هذا سيد لعل الله جل وعز أن يصلح به بين فئتين من المسلمين. وكان بينه وبين أخيه الحسين، عليه السلام، طَهْرٌ واحد، وكان أسخى أهل زمانه.

وذكروا أنه أتاه رجل في حاجة فقال: اذهب فاكتب حاجتك في رقعة وارفعها إلينا نقضها لك. قال: فرفع إليه حاجته، فأضعفها له، فقال بعض جلسائه: ما كان أعظم بركة الرقعة عليه يا ابن رسول الله. فقال: بركتها علينا أعظم حين جعلنا للمعروف أهلاً، أما علمت أن المعروف ما كان ابتداء من غير مسألة؟ فأما من أعطيته بعد مسألة فإنما أعطيته بما بذل لك من وجهه، وعسى أن يكون بات ليلته متملماً أرقاً يميل بين اليأس والرجاء لا يعلم لما يتوجه من حاجته أبكابة الرد أم بسرور النجاح فيأتيك وفرائضه ترعد وقلبه خائف يخفق، فإن قضيت له حاجته فيما بذل لك من وجهه فإن ذلك أعظم مما نال من معروفك.

قيل: وكان لرجل علي ابن أبي عتيق مال فتقاضاه فقال له: اثني العشية في مجلس الولاية فسألني عن بيت قريش. فوافاه الغريم في ذلك المجلس، فقال له: إنا تلاحينا في بيت قريش ورضينا بك حكماً، فقال: آل حرب، قال: ثم من؟ قال: آل أبي العاص، والحسن بن علي، رضي الله عنه، حاضر، فشق ذلك عليه، فقال الرجل: فأين بنو عبد المطلب؟ قال: لم أكن أظن أن تسألني عن غير بيت الآدميين فأما إذا صرت تسألني عن بيت الملائكة وعن رسول الله رب العالمين وسيد كل شهيد والطيور مع الملائكة فمن يساوي هؤلاء فخراً إلا وهو منقطع دونهم. قال: فالجلى عن الحسن، عليه السلام، ثم قال: إني لأحسب أن لك حاجة. قال: نعم يا ابن رسول الله، لهذا علي كذا وكذا، فاحتملها عنه ووصله بمثلها، قال: وأتاه رجل آخر فقال: يا ابن رسول الله إني عصيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فقال: بنس ما صنعت، فماذا عصيته؟ قال: قال، عليه السلام: شاوروهن وخالفوهن، وإني أطعت صاحبتي فاشتريت غلاماً فأبى. قال له: اختر واحدة من ثلاث، إن شئت ثمن الغلام. قال: بأبي أنت وأمي قف على هذه ولا تجاوزها! قال: اعرض عليك الثلاث! فقال: حسبي هذه، فأمر له بثمن الغلام.

وذكروا أن رجلين أحدهما من بني هاشم والآخر من بني أمية قال هذا: قومي أسمح، وقال هذا: قومي أسمح، قال: فسل أنت عشرة من قومك وأنا أسأل عشرة من قومي. فانطلق بني أمية فسأل عشرة فأعطاه كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، وانطلق صاحب بني هاشم إلى الحسن بن علي، رضي الله عنه، فأمر له بمائة وخمسين ألف درهم، ثم أتى الحسين، عليه السلام، فقال: هل بدأت بأحد قبلي؟ قال: بدأت بالحسن، قال:

ما كنت أستطيع أن أزيد على سيدي شيئاً، فأعطاه مائة وخمسين ألفاً من الدراهم، فجاء صاحب بني أمية فحمل مائة ألف درهم من عشرة أفسس، وجاء صاحب بني هاشم فحمل ثلاثمائة ألف درهم من نفسين، فغضب صاحب بني أمية فردها عليهم فقبلوها، وجاء صاحب بني هاشم فردها عليهما فأبيا أن يقبلاها وقالوا: ما كنا نبالي أخذتها أم ألقيتها في الطريق، وكان الحسن بن علي، رضوان الله عليهما، أشبه برسول الله، صلى الله عليه وسلم، من صدره إلى قدمه، وكان أيضاً أحد الأجواد، دخل على أسامة بن زيد وهو يجود بنفسه ويقول: واكرباه واحزنناه! فقال: وما الذي أحزنك يا عم؟ قال: يا ابن رسول الله ستون ألف درهم دين علي لا أجد لها قضاء. قال: هي علي. قال: فك الله رهائك يا ابن النبي، صلى الله عليه وسلم، الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

## مساوي قتلة الحسين بن علي

### رضوان الله عليهما

حدثنا عبد الله بن أحمد بن إبراهيم عن يحيى بن معين عن الحجاج عن أبي معشر قال: لما مات معاوية بن أبي سفيان وذلك في النصف من رجب سنة ستين ورد خبره على أهل المدينة في أول شعبان وكان على المدينة يومئذ الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وكان غلاماً حدثاً يتخرج، فلما جاءه ما جاءه ضاق به صدره فأرسل إلى مروان بن الحكم، وهو الذي صرف به مروان عن المدينة، وكان في مروان حدة، فقال له الوليد: يا أبا عبد الملك إنه قد جاءنا اليوم شيء لم نكن نستغني معه عن استشارتك. قال: وما هو؟ قال: موت أمير المؤمنين. قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات، رحمه الله! قال: نعم. قال: أتطيع أمري؟ قال: نعم. قال: أرسل إلى الحسين بن علي وإلى عبد الله بن الزبير فإن بايعا فحل سبيلهما وإن أبيا فاضرب أعناقهما، فأرسل إلى الحسين، رضوان الله عليه، وإلى عبد الله بن الزبير، رحمه الله، وبدأ بالحسين، عليه السلام، فمر الحسين في المسجد فأشار إليه ابن الزبير وهو قائم يصلي، فأتاه فقال للحرس: تأخر أيها العبد. فتأخر الحرس. فقال له: يا أبا عبد الله أتدري لأي شيء دعيت؟ قال: لا. قال: مات طاغيتهم فدعوك للبيعة فلا تباع وقل له بالغداة على رؤوس الملأ. قال: فدخل الحسين، عليه السلام، فقال له الوليد: يا أبا عبد الله دعوناك خير. قال: أي شيء هو؟ قال: مات أمير المؤمنين وقد عرفتم ولي عهدكم ومفزعكم وقد بايع أهل الشام والناس فادخل فيما دخل فيه الناس. قال: نعم بالغداة إن شاء الله. قال: لا بل الساعة. قال: ومثلي يبايع في جوف البيت! بالغداة أبايعك على رؤوس الناس. قال: لا بل الساعة. قال: ما أنا بفاعل. وخرج من عنده. فأرسل إلى ابن الزبير فقال: يا أبا بكر دعوناك خير. قال: وما هو؟ قال: مات أمير المؤمنين. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمة الله عليه! قال: فيجعل يردد الترحم عليه وقد نظر ابن الزبير قبل ذلك إلى مروان وهو يناجي الوليد فتلا هذه الآية: " فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين " ، فقال: يا أبا بكر قد عرفتم ولي عهدكم ومفزعكم وقد بايع أهل الشام والناس فادخل فيما دخل فيه الناس. قال: نعم بالغداة إن شاء الله. قال: لا بل الساعة قال: ومثلي يبايع في جوف البيت! أبايعك على رؤوس الملأ.



قال: لا بل الساعة قال: ما أنا بفاعل. فقال مروان للوليد: ما تصنع؟ أطعني واضرب أعناقهما، لئن خرجا من البيت لا تراهما أبداً إلا في شر. وكان الوليد متحرراً، فقال: ما كنت لأقتلها. فقال ابن الزبير لمروان: يا ابن الزرقاء أوتقدر على قتلنا؟ فقال مروان: إنه والله لو أطاعني ما خرجت ولا صاحبك من البيت حتى تضرب أعناقكما.

قال: فدعا الحسين، عليه السلام، برواحله فركب يتوجه نحو مكة على المنهج الأكبر وركب ابن الزبير، رحمه الله، دواب له وأخذ طريق الفرع فأتى الحسين، عليه السلام، عبد الله بن مطيع وهو على بئر فنزل إليه وقال: يا أبا عبد الله أين تريد؟ قال: العراق، مات معاوية وجاعني أكثر من حمل صُحُف. قال: لا تفعل فوالله ما حفظوا أباك وكان خيراً منك، والله لئن قتلوك لا تبقى حرمةً بعدك إلا استحللت.

فمر الحسين، عليه السلام، حتى نزل مكة فأقام بها هو وابن الزبير، رحمه الله، وقدم عمرو بن سعيد بن العاص في رمضان أميراً على المدينة وعلى الموسم وعزل الوليد بن عتبة، فلما استوى على المنبر رعب فقال أعرابي: ما جاءنا والله بالدم. قال: فتلقيه رجل بعمامته فقال: ما عمّ الناس والله. ثم قام وخطب، فناولوه عصا لها شعبتان فقال: تشعب الناس والله. ثم خرج إلى مكة فقدمها قبل التروية بيوم، وخرج الحسين، عليه السلام، فقيل له: خرج الحسين. فقال: اركبوا كل بعير وفرس بين السماء والأرض في طلبه فاطلبوه. قال: فكان الناس يتعجبون من قوله هذا، فطلبوه فلم يدركوه، فأرسل عبد الله بن جعفر ابنه عوناً ومحمداً ليردّا الحسين، فأبى الحسين أن يرجع وخرج بابني عبد الله معه، ورجع عمرو بن سعيد إلى المدينة وبعث بجيش يقاتلون ابن الزبير، وقدم الحسين، عليه السلام، مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليأخذ عليهم البيعة، وكان على الكوفة حين مات معاوية النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري، فلما بلغه خبر الحسين، عليه السلام، قال: لابن بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أحب إلينا من ابن بنت بجدل. فبلغ ذلك يزيد فأراد أن يعزله فقال لأهل الشام: أشيروا علي من استعمل على الكوفة؟ فقالوا: أترضى برأي معاوية؟ قال: نعم. قالوا: فإن العهد يامارة عبيد الله بن زياد على العراقيين قد كتب في الديوان، فاستعمله على الكوفة. فقدم الكوفة قبل أن يقدم الحسين، عليه السلام، وقد بايع مسلم بن عقيل أكثر من ثلاثين ألفاً من الرجال من أهل الكوفة، فخرجوا معه يريدون عبيد الله بن زياد، فجعلوا كلما انتهوا إلى زقاق انسلّ ناس منهم حتى بقي في شردمة قليلة وجعل الناس يرمونه بالأجر من فوق البيوت، فلما رأى ذلك دخل دار هانيء بن عروة المرادي وكان له فيهم رأي، فقال له هانيء: إن لي من ابن زياد مكاناً وسوف أمارض له، فإذا جاء يعودني فاضرب عنقه. فقيل لابن زياد: هانيء بن عروة شاكٍ يقىء الدم، وكان شرب المغرة فجعل يقينها، فجاء ابن زياد يعوده، وقال: هانيء لمسلم: إذا قلت اسقوني ولو كانت فيه نفسي فاضرب عنقه. فقال: اسقوني، فأبطأوا عليه، فقال: ويحكم اسقوني ولو كانت فيه نفسي! قال: فخرج ابن زياد ولم يصنع الآخر شيئاً، وكان أشجع الناس ولكن أخذته كبوة. فقيل لابن زياد: والله إن في البيت رجلاً متسلحاً، فأرسل ابن زياد إلى هانيء فدعا، فقال: إني شاكٍ. فقال: اتوني به وإن كان شاكياً. قال: فأسرجت له دبة فركب وكانت معه عصاً وكان أعرج فجعل يسير قليلاً قليلاً ثم يقف ويقول: ما لي ولا ابن زياد! فما زال حتى دخل عليه. فقال: يا هانيء ما

كانت يد زياد عندك بيضاء؟ قال: بلى. قال: فيدي؟ قال: بلى. فتناول العصا التي كانت في يد هانيء فضرب بها وجهه حتى كسر جبهته ثم قدمه فضرب عنقه ثم أرسل إلى مسلم بن عقيل، فخرج عليهم بسيفه فما زال يناوشهم ويقاتلهم حتى جرح وأسر فعضش وقال: اسقوني ماء، ومعه رجل من آل أبي معيط ورجل من بني سليم. فقال: شمر بن ذي جوشن: والله لا نسقيك إلا من البئر. وقال المعيطي: والله لا نسقيه إلا من الفرات. فأتاه غلام له يابرق من ماء وقدح قوارير ومنديل فسقاه، فتمضمض فخرج الدم فما زال يمج الدم ولا يسبغ شيئاً حتى قال: أخره عني، فلما أصبح دعاه عبيد الله ليضرب عنقه، فقال له: دعني أوصي. فقال: أوص. فظفر في وجوه الناس فقال لعمر بن سعد: ما أرى هاهنا أحداً من قريش غيرك فلان مني حتى أكلمك. قال: فدنا منه. فقال له: هل لك في أن تكون سيد قريش؟ قال نعم. قال: إنَّ حسيناً ومن معه وهم تسعون إنساناً بين رجل وامرأة في الطريق فارددهم واكتب إليه بما أصابني. ثم أمر عبيد الله فضرب عنقه.

فقال عمر: أتدري ما قال؟ قال: اكتبتم على ابن عمك! قال: هو أعظم من ذلك، قال: اكتبتم على ابن عمك! قال: هو أعظم من ذلك. قال: أي شيء هو؟ قال: أخبرني أن حسيناً قد أقبل ومعه تسعون إنساناً بين رجل وامرأة. فقال: أما والله لو إلي أسر لرددتهم! لا والله لا يقاتلهم أحد غيرك. فبعث معه جيشاً، وجاء الحسين، عليه السلام، الخبر وهو بشراف فهم أن يرجع ومعه خمسة من بني عقيل فلقيه الجيش على خيولهم بوادي السباع، فقال بنو عقيل: أترجع وقد قتل أخونا؟ فقال الحسين، عليه السلام: ما لي عن هؤلاء من صبر، يعني بني عقيل. فأصاب أصحابه العطش فقالوا: يا ابن رسول الله اسقنا! فأخرج لكل فرس صحيفة من ماء فسقاهم بقدر ما يمك رمق أحدهم، ثم قالوا: سر بنا، وأخذوا به على الجرف حتى نزلوا كربلاء، فقال: هذا كرب وبلاء. فنزلوا وبينهم وبين الماء يسير، قال: فأراد الحسين، عليه السلام، وأصحابه الماء فحاولوا بينهم وبينه. فقال له شمر بن ذي جوشن: لا تشرّبون أبداً حتى تشرّبون من الحميم. فقال العباس بن علي للحسين، عليه السلام: يا أبا عبد الله ألسنا على الحق؟ قال: نعم. فحمل عليهم فكشفهم عن الماء حتى شربوا وأسقوا، ثم بعث عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد أن قاتلهم. فقال الحسين، عليه السلام: يا عمر اختر مني إحدى ثلاث: تتركني أرجع كما جئت، وإن آبيت هذه فسيرني إلى الترك أقاتلهم حتى أموت، وإن آبيت هذه فابعث بي إلى يزيد لأضع يدي في يده، وأرسل إلى ابن زياد بذلك.

فهم أن يسيره إلى يزيد، فقال له شمر بن ذي جوشن: قد أمكنك الله منه، أو قال: من عدوك، وتسيره إلى الأمان إلا أن ينزل على حكمك! فأرسل إليه بذلك، فقال: لا حياً ولا كرامة انزل على حكم ابن سميّة. وكان مع عمر ابن سعد قريب من ثلاثين رجلاً من أهل الكوفة فقالوا: يعرض عليكم ابن ابنة رسول الله، عليه وعلى آله السلام، ثلاث خصال لا تقبلون منها شيئاً! فتحولوا مع الحسين، عليه السلام، فقاتلوا حتى قتلوا وقتل الحسين، رضي الله عنه، وجميع من معه، رحمهم الله، وحمل رأسه إلى عبيد الله بن زياد فوضع بين يديه على ترس فبعث به إلى يزيد، فأمر بغسله وجعله في حريرة وضرب عليه خيمة ووكل به خمسين رجلاً. فقال واحد منهم: نمت وأنا مفكر في يزيد وقتله الحسين، عليه السلام، فبينما أنا كذلك إذ رأيت سحابة خضراء فيها نور قد أضاءت ما بين الخافقين وسمعت صهيل الخيل ومنادياً ينادي: يا أحمد اهبط، فهبط

رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومعه جماعة من الأنبياء والملائكة فدخل الخيمة وأخذ الرأس فجعل يقبله ويكي ويضمه إلى صدره، ثم التفت إلى من معه فقال: انظروا إلى ما كان من أمّتي في ولدي، ما بالهم لم يحفظوا فيه وصيتي ولم يعرفوا حقي؟ لا أناهم الله شفاعتي! قال: وإذا بعدة من الملائكة يقولون: يا محمد الله تبارك وتعالى يقرئك السلام وقد أمرنا بأن نسمع لك ونطيع فمرنا أن نقلب البلاد عليهم. فقال، صلى الله عليه وسلم: خلوا عن أمّتي فإن لهم بلغةً وأمدًا. قالوا: يا محمد إن الله جل ذكره أمرنا أن نقتل هؤلاء النفرا! فقال: دونكم وما أمرتم به. قال: فرأيت كل واحد منهم قد رمى كل واحد منا بحربة، فقتل القوم في مضاجعهم غيري فإني صحت: يا محمد! فقال: وأنت مستيقظ؟ قلت: نعم. قال: خلوا عنه يعيش فقيراً ويموت مذموماً، فلما أصبحت دخلت على يزيد وهو منكسر مهموم فحدثته بما رأيت فقال: امض على وجهك وتب إلى ربك.

أبو عبد الله غلام الخليل، رحمه الله، قال: حدثنا يعقوب بن سليمان قال: كنت في ضيعتي فصلينا العتمة وجعلنا ننذكر قتل الحسين، عليه السلام، فقال رجل من القوم: ما أحد أعان عليه إلا أصابه بلاء قبل أن يموت، فقال شيخ كبير من القوم: أنا ممن شهدتها وما أصابني أمر كرهته إلى ساعتها هذه، وخبا السراج فقام يصلحه فأخذته النار وخرج مبادراً إلى الفرات وألقى نفسه فيه فاشتعل وصار فحمة. قيل: ودخل سنان بن أنس على الحجاج بن يوسف فقال: أنت قتلت الحسين بن علي؟ قال: نعم. فقال: أما إنكما لن تجتمعا في الجنة، فذكروا أنهم رأوه موسوساً يلعب بيوله كما يلعب الصبيان. قال: وقال محمد بن سيرين: ما رؤيت هذه الحمرة في السماء إلا بعدما قتل الحسين، عليه السلام، ولم تطمئ امرأة بالروم أربعة أشهر إلا أصابها وضحٌ. فكتب ملك الروم إلى ملك العرب: قتلتم نبياً أو ابن نبي. وروي أنه لما قتل، رضي الله عنه، احمرّت آفاق السماء واقتسموا ورساً كان معه فصار رماداً، وكانت معه إبل فجزروها فصارت حمرة في منازلهم.

## مساوى الحرة

قال: ولما كان من أمر الحسين، عليه السلام، ما كان قدم عمرو بن حفص بن المغيرة وكان تزوج يزيد بن معاوية ابنته وأعطاه مالا كثيراً، فلما قدم المدينة جاءه محمد بن عمرو بن حزم وعبيد الله بن حنظلة وعبد الله بن مطيع ابن الأسود وناس من وجوه أهل المدينة قالوا: نشدك الله رب هذا البيت ورب صاحب هذا القبر ألا أخبرتنا عن يزيد؟ فقال: إنه ليشرب الخمر وينادم القردة ويفعل كذا ويصنع كذا. فقالوا: والله ما لنا بأهل الشام من طاقة ولكن ما يحل لنا أن نبايع رجلاً على هذه الحال. فقال محمد بن عمرو لأهله: هاتوا درعي. ثم خرج فخرج أهل المدينة وخلعوا يزيد وأخرجوا عثمان بن محمد بن أبي سفيان وبني أمية من المدينة، وكان عثمان والي المدينة، ثم قال محمد بن أبي جهم لأهل المدينة: أطيعوا أمري اليوم واعصوني الدهر، اقتلوا سبعة عشر رجلاً من بني أمية لا تروا شراً أبداً. فأبى أهل المدينة أن يقتلوهم وأخذوا عليهم



فركله ورمى به من فوق السريبر فقال: لو قلتها ما أقاتلك. فقتل يزيد بن عبد الله، ثم أتى بمحمد بن أبي جهم فقال له: أنت القاتل اقتلوا سبعة عشر من بني أمية لا تروا شراً أبداً؟ قال: قد قلتها ولكن لا يطاع لتقصير أمر، أرسل يدي من عليّ وقد برئت مني الذمة. قال: لا حتى أقدمك إلى النار. فضرب عنقه، ثم جاؤوه بمعقل بن سنان وكان جالساً في بيته فأتاه مائة رجل من قومه فقالوا: اذهب بنا إلى الأمير حتى نبايعه. فقال: إني قد قلت له كلمة وإني أتخوفه. قالوا: لا والله لا يصل إليك أبداً. فلما بلغوا الباب أدخلوا معقلاً وغلّقوا الباب، فلما نظر إليه مسلم قال: إني أرى الشيخ قد لعب، اسقوه من الثلج الذي زودنيه أمير المؤمنين. قال: فحاضوا له ثلجاً بعسل فشربه. وقال: أشربت؟ قال: نعم. قال: والله لا تبوله من مثانتك أبداً. أنت القاتل اركب فيلاً أو فيلة وتكنّ أبا يكسوم؟ قال: أما والله لقد تخوفت ذلك منك ولكن

غلبتني عشيرتي. قال: فجعل يفزّر جبّة عليه من برود ويقول: أما والله يا أعداء الله ما شققتها جزعاً من الموت ولكني أحشى أن تسلبوا منها. فضربت عنقه. عشيرتي. قال: فجعل يفزّر جبّة عليه من برود ويقول: أما والله يا أعداء الله ما شققتها جزعاً من الموت ولكني أحشى أن تسلبوا منها. فضربت عنقه. ثم سار إلى مكة حتى إذا بلغ قفا المشلل دَنَفَ فدعا بمصين بن غير الكندي فقال: يا بردعة الحمار والله ما خلق الله أحداً هو أبغض إلي منك، ولولا أن أمير المؤمنين أمرني أن أستخلفك ما استخلفتك، أسمع؟ قال: نعم. قال: لا يكون إلا الوقاف ثم الثقاف ثم الانصراف، لا تمكن أذنيك من قريش. ثم مات مسلم، لا رحمه الله، فدفن بقفا المشلل، وكانت أم يزيد بن عبد الله بن زمعة بأسناده فخرجت إليه فبشته وأحرقته بالنار وأخذت أكفانه فشققتها وعلقتها بالشجرة.

قال أبو معشر: أقبلت من مكة حتى إذا كنت بقفا المشلل عند قبر مسلم إذا رجل من أهل الشام ثم حضر وقعة الحرّة يسايرني، فقلت له: هذا قبر مسلم بن عقبة. فقال: أحدثك بالعجب؟ كان مع مسلم رجل من أهل الشام يقال له أبو الغراء فإذا نصف شعره أسود ونصفه أبيض، فقلت له: ما شأنك؟ قال: لما كانت ليلة الحرّة جئت قبّاء فدخلت بيتاً فإذا فيه امرأة جالسة معها صبي لها وليس عليها شيء إلا درع وقد ذهب بكل شيء لها، فقلت لها: هل من مال؟ قالت: لا والله لقد بايعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على أني لا أزي ولا أسرق ولا أقتل ولدي. قال: فأخذت برجل الصبي فضربت به الحائط. فنشر دماغه، فخرجت فإذا نصف رأسي أبيض ونصفه أسود كما ترى.

### محاسن ما قيل فيهم من الأشعار

قال كعب بن زهير في الحسين بن علي، رحمة الله عليهما:  
مسح النبيّ جبينه ... فله بياضٌ في الحدود  
وبوجهه ديباجةٌ ... كرم النبوة والحدود  
قال: وأنشد الحميريّ في الحسن والحسين:  
أتى حسناً والحسينَ الرسولُ ... وقد برزا حجرةً يلعبان

فضمّهما وتفدّاهما ... وكانا لديه بذاك المكان  
ومر وتحتهما عاتقاه ... فنعيم المطية والراكبان  
قال: وقال المأمون: أنصف شاعر الشيعة حيث يقول:  
أنا وإياكم نموت فلا ... أفلح بعد الممات من ندما  
وقال المأمون:

ومن غاوٍ يغصُّ عليّ غيظاً ... إذا أدنيت أولاد الوصيِّ  
يحاول أن نور الله يطفى ... ونور الله في حصن أبيِّ  
فقلت أليس قد أوتيت علماً ... وبان لك الرشيد من الغوي  
وعرّفت احتجاجي بالثاني ... وبالمعقول والأثر القويِّ  
بأية خلّة وبأي معنى ... تفضّل ملحدين عليّ عليّ  
عليّ أعظم الثقلين حقاً ... وأفضلهم سوى حق النبيِّ  
قال غيره وأجاد:

إن اليهود بحبها لنبيها ... أمنت معرة دهرها الخوان  
وذوو الصليب بحب عيسى أصبحوا ... يمشون زهواً في قرى نجران  
والمؤمنون بحب آل محمد ... يرمون في الآفاق بالنيران  
وقال آخر، سامحه الله:

يا لك من متجرة كاسده ... بين شياطين عتت مارده  
إذا تذكّرت بني أحمدٍ ... تنافروا كالإبل الشارده  
فقل لمن يلحاك في حبهيم ... خانتك في مولدك الوالده  
وقال دعبل، رحمه الله تعالى:

قل لابن خائنة البعول ... وابن الجوادة والبخيل  
إن المذمة للوصيِّ ... هي المذمة للرسول  
أتذمّ أولاد النبي ... وأنت من ولد التُّغول  
الموصللي النصراني:

عدي ونعيم لا أحاول ذكرهم ... بسوءٍ ولكني محبٌ لهاشم  
وهل تأخذني في عليّ وحيه ... إذا لم أعث يوماً ملامة لائم  
يقولون ما بال نصارى تحبه ... وأهل التقى من معربٍ وأعاجم  
فقلت لهم إني لأحسب حبةً ... طواه إلهي في قلوب البهائم

وفي بني أمية قيل: دخل خالد بن خليفة الأقطع على أبي العباس وعنده علي بن هشام بن عبد الملك فأشار  
إلى أبي العباس وهو يقول شعراً:

إن تعاقبهم على رقة الذي ... ن فقد كان دينهم سامرياً  
كان فحلاً زمانهم يرمح لنا ... س فأضحى الزمان منهم خصياً

### محاسن السبق إلى الإسلام

روي عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: خرج أبو بكر، رضي الله عنه، يريد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قبل الإسلام وكان له صديقاً في الجاهلية فلقبه فقال: يا أبا القاسم قعدت في مجالس قومك واقموك بالعب لآبائها وأديانها. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إني رسول الله أدعوك إلى الله. فما كان إلا أن سمع أبو بكر كلام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فشرح الله صدره فأسلم، فانصرف عنه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وما بين الأخشين أحد أكثر سروراً بإسلام أبي بكر، رضي الله عنه، منه. ومضى أبو بكر حتى أتى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، ثم عثمان بن مظعون وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم مع أبي بكر فأسلموا.

وأما إسلام عمر، رضي الله عنه، فإن قريشاً بعثت بعمر، رضي الله عنه، ليقتل النبي، صلى الله عليه وسلم، فخرج عمر متقلداً سيفه في أثر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو يومئذ في دار في أصل الصفا، فلقبه نعيم بن عبد الله بن أسيد وقد أسلم فقال: يا عمر أين أراك تريد؟ قال: أريد محمداً هذا الذي سفّه عقولنا وشتم آلهتنا وخالف جماعتنا لأقتلنه! قال نعيم: لبس المشي والله مشيت يا عمر! ولقد أفرطت وأردت هلكة عدي بن كعب بمعادتك بني هاشم، أو ترى أنك آمن من أعمامه وبني زهرة وقد قتلت محمداً افتخاراً؟ حتى ارتفعت أصواتهما. فقال له عمر: والله لأظنك قد صبوت ولو أعلم ذلك منك لبدأت بك. فلما رأى نعيم أنه غير منته قال: أما إن أهلك قد أسلموا وتركوك وما أنت عليه. فلما سمع ذلك نغر وقال: أيهم؟ قال: خنتك وابن عمك وأختك. فانطلق إلى أخته وقد كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، اجتمع عليه طائفة من ذوي الفاقة من أصحابه فقال لأولي السعة: يا فلان فليكن عندك فلان، فوافق ابن عم عمر وخنته سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قد دفع إليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خباب بن الأرت مولى أم اعمار حليف بني زهرة، وقد أنزلت سورة طه، فأقبل عمر حتى انتهى إلى باب دار أخته ليتعرف ما بلغه، فإذا خباب عند أخته يدرس عليها سورة طه، وإذا الشمس كورت، فلما دخل عمر أحذرته أخته وعرفت الشر في وجهه وخبات الصحيفة، وراغ خباب فدخل البيت، فقال عمر لأخته: ما هذه الهينة؟ قالت: حديث نتحدث به بيننا، فحلف أن لا يبرح حتى يتبين شأنها. فقال له زوجها: إنك لا تستطيع أن تجمع الناس على هواك يا عمي إن كان الحق سواه. فبطش به عمر ووطئه وطأ شديداً. فقامت أخت عمر تحجر بينهما فنفحها بيده فشجها. فلما رأت الدم قالت: هل تسمع يا عمر؟ رأيت كل شيء بلغك عني مما يذكر من تركي آلهتك وكفري باللات والعزى فهو حق وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فاتم أمرك واقض ما أنت قاض. فلما رأى عمر ذلك سقط في يده فقال لأخته: رأيت ما كت تدرسين آنفاً؟ أعطيك

موتقاً لا أمحوه حتى أردّه إليك ولا أخونك فيه. فلما رأت أخته حرصه على الكتاب رجّت أن يكون ذلك لدعوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالت له: إنك نجسٌ ولا يمسه إلا المطهرون. فقام واغتسل من الجنابة وأعطاهام موتقاً، فاطمأنت به ودفعت إليه الصحيفة، فقرأ طه حتى بلغ: " إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى " ، وقرأ: " إذا الشمس كورت " ، حتى انتهى إلى قوله: " علمت نفسٌ ما أحضرت " ، فأسلم عند ذلك وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وخلع الأنداد وكفر باللات والعزى، فخرج خيَّاب وكان داخلاً في البيت مكبراً وقال: ابشر بكرامة الله يا عمر فإن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دعا أن يُعزَّ الله بك الإسلام. فقال عمر: دلوني على المنزل الذي فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فقال له خيَّاب: هو في الدار التي في أصل الصفا. فأقبل عمر وقد بلغ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن عمر يطلبه ليقنته ولم يبلغه إسلامه، فلما انتهى عمر إلى الباب ليستفتح رآه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، متقلداً سيفه فأشفقوا منه، فلما رآه حمزة وحده قال: افتحوا فإن كان الله يريد بعمر خيراً اتبع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وصدقه، وإن كان غير ذلك قتلناه بسيفه ويكون قتله علينا هيناً. فابتدره رجال من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ورسلهم، صلى الله عليه وسلم، يوحى إليه، فسمع صوت عمر فخرج ليس عليه رداء حتى أخذ بمجمع رداء عمر وقميصه وقال له: أما والله ما أراك تنتهي يا عمر حتى ينزل الله جل وعز بك من الزجر ما أنزله بالوليد بن المغيرة. ثم قال: اللهم اهد عمر. فضحك عمر وقال: يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت محمد عبده ورسوله فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها من وراء الدار والمسلمون يومئذ بضعة وأربعون رجلاً وإحدى عشرة امرأة، ثم قال عمر: يا رسول الله نحن بالإسلام أحق أن نبادى منا بالكفر فليظهروا دين الله عز وجل بمكة. فخرج عمر وجلس في المسجد وصلى علانية وأظهر الإسلام، فلم يزل الدين عزيزاً منذ أسلم عمر، رضي الله عنه.

وأما إسلام عثمان فإنه روي أن عثمان بن عفان، رحمه الله، قال: دخلت على جدتي بنت عبد المطلب أعودها فإني لعندها إذ جاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يعودها فجعلت أنظر إليه وقد نشر من شأنه حينئذ شيئاً، فأقبل علي فقال: ما شأنك يا عثمان؟ فجعل لي إلى الكلام سبيلاً، فقلت: أعجب منك ومن مكانك فينا وفي قومك وما يقال عليك، فقال: لا إله إلا الله، فالله يعلم أي اقشعرت. ثم قال: " وفي السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون " ، فقام فقامت في أثره، عليه السلام، فأسلمت.

### مساوي من ارتد عن الإسلام

منهم جبلة بن الأيهم الغساني، لما افتتحت الشام ونظر جبلة إلى هدي المسلمين ووقارهم أحب الدخول في الإسلام فسار نحو المدينة إلى عمر بن الخطاب، رحمه الله، فلما بلغ عمر قدومه قال للمهاجرين: استقبلوه وأظهروا تعظيمه وتبجيله فإنه قريب العهد بالملك. فاستقبله الناس وأظهروا بره، وأقبل جبلة حتى دخل على



عمر، رضي الله عنه، فقرب مجلسه وأدناه ووعد من نفسه خيراً، فأسلم وأقام بالمدينة حتى إذا حضر أوان الموسم حج عمر، رحمه الله، وخرج معه جبلة، فيينا هو يطوف بالبيت محرماً وعليه إزاران قد تردى بواحد وأتزر بالآخر إذ وطىء رجل طرف إزاره فأنحلّ عنه حتى بدت عورته، فغضب ووثب على الرجل فلطمه، فتعلق به الرجل وجماعة معه وانطلقوا به إلى عمر، رضي الله عنه، وشهدوا عليه. فقال عمر: أقد الرجل أو استوهبه منه. فقال جبلة: وكذلك هذا الدين لا يفضل فيه شريف على وضيع ولا ملك على سوقة؟ قال عمر: قال الله تعالى، وقوله الحق: " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " ، إن الناس شريفهم ووضيعهم في الحق سواء. فانصرف جبلة، فلما جنّ عليه الليل خرج في حشمه وعياله حتى لحقوا بأرض الشام مرتداً عن الإسلام، فكتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح فأمره أن يستتبع جبلة فإن تاب وإلا ضرب عنقه، وبلغ ذلك جبلة فخرج من أرض الشام حتى دخل أرض الروم وأتى الملك فأخبره بأمره ورجوعه إلى النصرانية، فسّر الملك بقدمه واستخلفه على ملكه وجعله جائز الأمر في سلطانه، فأقام عنده، فلما ولي معاوية بن أبي سفيان بعث رجلاً من الأنصار يقال له تميم بن بشر إلى قيصر ملك الروم في بعض أموره، قال تميم: فلما دخلت على قيصر أبلغته الرسالة وجلست عنده فحدثني ملياً ثم قال: هل لك في لقاء رجل من العرب من أهل بيت الملك؟ فقلت: ومن هو؟ قال: جبلة بن الأيهم. قلت: إن لي في ذلك أملاً وإني لرجل من قومه، فبعث معي رجلاً حتى أدخلني عليه وهو في مجلس له يغشى العيون حسنه وكثرة تصاويره، مطلية حيطانه بماء الذهب والفضة، يتلألأ تالؤلأ وحواله نفر من بطارقة الروم، فسألني من أنا، فانتسبت له، فقال: حيّك الله فإننا بنو عم. ثم أمر جلساءه فخرجوا من عنده وخلا بي يسألني عن العرب وأماكنها، فخبرته بجميع ما سألني عنه، فبكي حتى اخضلت لحيته الدموع ثم أنشأ يقول:

تنصرت بعد الدين من عار لطمّة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضررٌ  
تكتنفي منها لجاحٍ ونحوة ... فبعث بها العين الصحيحة بالعمور  
ويا ليت أمني لم تلدني وليتني ... ثويتُ أسيراً في ربيعة أو مضر  
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة ... ولم أنكر القول الذي قاله عمر  
ويا ليت لي بالشّام أدنى معيشة ... أجالس قومي في العشيات والبكر  
أدين لما دانوا به من شريعة ... وقد يجلس العير الضجور على الدبر  
قال: ثم دعا بغداداه فتغدينا، فلما فرغنا خرجت علينا جارتان في يد إحداهما بربطٌ وفي يد الأخرى مزمار  
فجلستا، ثم خرجت علينا جارتان في يد إحداهما جام فيه مسك مسحوق وفي يد الأخرى جام مملوء ماء  
ورد، ثم أقبل طائران كانا شبيهين بطاؤوسين أو تدرجين فسقطا في الجام واحتملا المسك بجناحيهما فرشاه  
علينا، وقال جبلة للمغنيين: غنيانا، فغنتاه:

لمن الدار أقفرت بمعان ... بين أعلى اليرموك فالمسربان  
ذاك معنى لآل جفنة في الده ... ر وحقٌ تصرف الأزمان  
قد أراني هناك حقاً مكيناً ... عند ذي التاج مقعدي ومكاني  
قال: ثم بكى حتى اخضلت دموعه لحيته، ثم قال: غنياني، فغنتاه:

لله درُ عصابة نادمتهم ... يوماً مجلّق في الزمان الأول  
أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل  
يسقون من هبط اليريص عليهم ... بردى يُصقّق بالرحيق السلسل  
يُغشون حتى ما تهرّ كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل  
بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شمّ الأنوف من الطراز الأول  
ثم قال لي: ما فعل ابن الفريعة؟ يعني حسان بن ثابت. قلت: حيّ إلا أنه كُفّ بصره. فوجد من ذلك وجداً  
شديداً وبكى وقال لحادم له: انطلق فأتني بأربعمائة دينار، فأتاه بها، فناولنيها وقال: أوصلها إلى حسان. ثم  
ودّعته وخرجت حتى أتيت معاوية فأخبرته بجواب رسالة قيصر ثم سرت من الشام حتى أتيت المدينة ولقيت  
حسان ودفعت إليه الدنانير، فقال:

إن ابن جفنة من بقية معشر ... لم يغدّهم آباؤهم باللوم  
لم ينسني بالشأم إذ هو ربها ... يوماً ولا متنصراً بالروم  
يعطي الجزيل فما يراه عنده ... إلا كبعض عطية المذموم  
ما جنته إلا وقرب مجلسي ... ودعا بأفضل زاده المطعوم

### محاسن المفاخرة

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أنا سيد ولد آدم ولا فخر.  
وقال يوسف، عليه السلام: اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليهم.  
قيل: وسمع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رجلاً ينشد:  
إني امرؤٌ حميريّ حين تنسني ... لا من ربيعة آباتي ولا مضر  
فقال: ذلك ألام لك وأبعد من الله ورسوله، وقال: صلى الله عليه وسلم: إذا اختلف الناس فالحق مع مضر،  
وقال:

إذا مضر الحمراء كانت أرومي ... وقام بنصري خازمٌ وابن خازم  
عطست بأنفي شامخاً وتناولت ... يداي الثرياً قاعداً غير قائم

شعيب بن إبراهيم قال: حدثني سيف بن عمر عن علي بن يزيد عن عبد الله بن الحارث عن المطلب بن  
ربيعة قال: مر العباس بنفر من قريش وهم يقولون: إنما مثل محمد، صلى الله عليه وسلم، في أهله كمثل نخلة  
نبتت في كِبا، فبلغ ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فوجد منه وخرج حتى قام فيهم خطيباً فقال:  
أيها الناس من أنا؟ قالوا: أنت رسول الله.

قال: فأنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله عز وجل خلق خلقه فجعلني من خير خلقه ثم جعل الخلق  
الذين أنا منهم فرقتين فجعلني من خير الفرقتين ثم جعلهم شعوباً فجعلني من خيرهم شعباً ثم جعلهم بيوتاً  
فجعلني من خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم والداً، وإني مباح، قم يا عباس، فقام عن يمينه، ثم قال: قم  
يا سعد، فقام عن يساره، ثم قال: يقرب امرؤ من الناس عمّاً مثل هذا أو خالاً مثل هذا.

حدثنا سنان بن الحسن التستري قال: حدثنا إسماعيل بن مهران الإشكري قال: حدثنا أحمد بن محمد عن أبان بن عثمان عن عكرمة عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: لما أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يعرض نفسه على القبائل خرج وأنا معه ومعه أبو بكر، وكان أبو بكر عالماً بأنساب العرب، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب عليهم الوقار والسكينة، فتقدم أبو بكر وسلم عليهم فردوا عليه السلام، فقال: ممن القوم؟ فقالوا: من ربيعة. فقال: أمن هامتها أم من لهازمها؟ قالوا: بل من هامتها العظمى. قال: وأي هاماتها؟ قالوا: ذهل. قال: أذهل الأكبر أم ذهل الأصغر؟ قالوا: بل ذهل الأكبر. قال: أمنكم عوف الذي كان يقول لا حرّ بوادي عوف؟ قالوا: لا. قال: أمنكم بسطام بن قيس صاحب اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: أمنكم جسّاس بن مرّة حامي الذمار ومانع الجار؟ قالوا: لا. قال: أمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: فأنتم أحوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: أصهار الملوك من لحم؟ قالوا: لا. قال: فليست ذهل الأكبر إذا أنتم ذهل الأصغر، فقام إليه غلام أعرابي حسن بقل وجهه فأخذ بزمام ناقته ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، على ناقته يسمع مخاطبته، فقال: لنا على من سالنا أن نسأله ... والعيبُ لن نعرفه أو تحمله

يا هذا إنك سألتنا أي مسألة شئت فلم نكتمك شيئاً فأخبرنا ممن أنت؟ فقال أبو بكر، رضي الله عنه: من قريش. قال يخ بخ أهل الشرف والرئاسة، فأخبرني من أي قريش أنت؟ قال: من تميم بن مرّة. قال: أمنكم قصي بن كلاب الذي جمع القبائل من فهر فكان يقال له جمّع؟ قال أبو بكر: لا. قال: أمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف؟ قال أبو بكر: لا. قال: أمنكم شيبه الحمد الذي كان وجهه قمراً يضيء ليلة الظلمة الداجية مطعم طير السماء؟ قال: لا. قال: أفمن المغيضين بالناس أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الرفادة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا. قال: أما والله لو شئت لأخبرتكم أنك لست من أشرف قريش، فاجتذب أبو بكر زمام ناقته منه كهينة المغضب، فقال الأعرابي:

صادف درّ السيل درّ يدفعه ... في هضبة ترفعه وتضعه

فتبسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال علي: فقلت: يا أبا بكر إنك لقد وقعت من هذا الأعرابي على باقعة! فقال: أجل يا أبا الحسن ما من طامة إلا فوقها طامة وإن البلاء موكل بالمنطق.

محاسن كلام الحسن بن علي

رضي الله عنه

قيل: وأتى الحسن بن علي، رضي الله عنهما، معاوية بن أبي سفيان وقد سبقه ابن عباس فأمر معاوية فأنزل، فبينما معاوية مع عمرو بن العاص ومروان ابن الحكم وزياد بن أبي سفيان يتحاورون في قديمهم وحديثهم ومجدهم، فقال معاوية: أكثرتم الفخر فلو حضركم الحسن بن علي وعبد الله بن العباس لقصّرا من أعتكما

ما طال. فقال زياد: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين، ما يقومان مروان ابن الحكم في غرب منطقته ولا لنا في بواذخنا؟ فابعث إليهما في غدٍ حتى نسمع كلامهما. فقال معاوية لعمرو: ما تقول؟ قال هذا: فابعث إليهما في غدٍ، فبعث إليهما معاوية ابنه يزيد، فأتياه ودخلا عليه وبدأ معاوية فقال: إني أُجلكما وأرفع قدركما عن المسامرة بالليل ولا سيما أنت يا أبا محمد فإنك ابن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسيد شباب أهل الجنة. فتشكرا له، فلما استويا في مجلسهما وعلم عمرو أن الحلة ستقع به قال: والله لا بد أن أقول فإن قهرت فسييل ذلك وإن قهرت أكون قد ابتدأت. فقال: يا حسن إنا تفاوضنا فقلنا إن رجال بني أمية أصبر عند اللقاء وأمضى في الوغى وأوفى عهداً وأكرم خيماً وأمنع لما وراء ظهورهم من بني عبد المطلب. ثم تكلم مروان فقال: وكيف لا تكون كذلك وقد قارعناكم فغلبناكم، وحاربناكم فملكناكم، فإن شئنا عفونا وإن شئنا بطشنا. ثم تكلم زياد فقال: ما ينبغي لهم أن ينكروا الفضل لأهله ويجحدوا الخير في مظانته، نحن أهل الحملة في الحروب ولنا الفضل على سائر الناس قديماً وحديثاً. فتكلم الحسن، رضي الله عنه، فقال: ليس من العجز أن يصمت الرجل عند إيراد الحجة ولكن من الإفك أن ينطق الرجل بالخنا ويصور الباطل بصورة الحق. يا عمرو أفتخاراً بالكذب وجراية على الإفك! ما زلت أعرف مثالبك الخبيثة أبديها مرة وأمسك عنها أخرى فتأبى إلا أنهماكاً في الضلالة، أتذكر مصايح الدجى وأعلام الهدى وفرسان الطراد وحتوف الأقران وأبناء الطعان وربيع الضيفان ومعدن النبوة ومهبط العلم وزعمتم أنكم أحمى لما وراء ظهوركم وقد تبين ذلك يوم بدر حين نكصت الأبطال وتساورت الأقران واقتحمت الليوث واعتزكت المنية وقامت رجاؤها على قطبها وقرت عن نابها وطار شرار الحرب فقتلنا رجالكم ومن النبي، صلى الله عليه وسلم، على ذرايكم فكنتم لعمري في هذا اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم من بني عبد المطلب! ثم قال: وأما أنت يا مروان فما أنت والإكثار في قريش وأنت طليق وأبوك طريد يقلب من خزاية إلى سوءة ولقد جيء بك إلى أمير المؤمنين، فلما رأيت الصرغام قد دميت برائته واشتبتك أنيابه كنت كما قال:

ليثٌ إذا سمع الليوث زئيره ... بصصنَ ثم قذف بالأبعار  
ويروى رمين بالأبعار.

فلما منّ عليك بالعمو وأرخصي خناقك بعدما ضاق عليك وغصصت بريقك لا تقعد معنا مقعد أهل الشكر ولكن تساوبنا وتجارينا ونحن ممن لا يدركنا عار ولا يلحقنا خزاية! ثم النفث إلى زياد فقال: وما أنت يا زياد وقريشاً لا أعرف لك فيها أدباً صحيحاً ولا فرعاً نابتاً ولا قديماً ثابتاً ولا منبتاً كريماً بل كانت أمك بغياً تداولها رجال قريش وفجار العرب فلما ولدت لم تعرف لك العرب والداً فادّعاك هذا، يعني معاوية، بعد ممات أبيه، ما لك افتخار تكفيك سمية ويكفيننا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأبي علي بن أبي طالب سيد المؤمنين الذي لم يرتد على عقبيه وعمي حمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار وأنا وأخي سيدي شباب أهل الجنة! ثم النفث إلى ابن عباس فقال: يا ابن العم إنما هي بغاثة الطير انقضت عليها أجدل. فأراد ابن عباس أن يتكلم فأقسم عليه معاوية أن يكف فكف ثم خرجا، فقال معاوية: أجاد عمرو الكلام لولا أن حجته دحضت وتكلم مروان لولا أنه نكص. ثم النفث إلى زياد وقال: ما دعاك إلى محاورته؟ ما كنت إلا كالحجل

في كف البازي، فقال عمرو: ألا رميت من ورائنا؟ قال معاوية: إذا كنت شريككم في الجهل، أفاخر رجلاً رسول الله جده وهو سيد من مضى ومن بقي وأمه فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين؟ ثم قال لعمرو: والله لئن سمع به أهل الشام لفي السوءة السوءة. فقال عمرو: لقد أبقى عليك ولكنه طحن مروان طحن الرحي بثقالها ووطئها وطء البازل القُرَاد بمنسمه. فقال زياد: قد والله فعل ولكن معاوية يأبي إلا الإغراء بيننا وبينهم، لا جرم والله لا شهدت مجلساً يكونان فيه إلا كنت معهما على من فاخرهما. فخلا ابن عباس بالحسن فقبل بين عينيه وقال: أفديك يا ابن عم، والله ما زال بحرك يزخر وأنت تصول حتى شفيتني من أولاد البغايا. ثم إن الحسن، رضي الله عنه، غاب أياماً ثم رجع حتى دخل على معاوية وعنده عبد الله بن الزبير، فقال معاوية: يا أبا محمد إني أظنك تعباً نصباً فأت المنزل فأرح نفسك فيه. فقام الحسن، فلما خرج قال معاوية لعبد الله بن الزبير: لو افتخرت على الحسن فإنك ابن حوارى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وابن عمته ولأبيك في الإسلام نصيب وافر. فقال ابن الزبير: أنا له! فرجع وهو يطلب ليلته الحجج، فلما أصبح دخل على معاوية، وجاء الحسن فحيّاه معاوية وسأله عن مبيته فقال: خير مييت وأكرم مستفاض. فلما استوى في مجلسه قال ابن الزبير: لولا أنك خوّر في الحرب غير مقدم ما سلّمت لمعاوية الأمر وكنّت لا تحتاج إلى اختراق السهوب وقطع المفاوز تطلب معروفه وتقوم ببابه، وكنّت حريّاً أن لا تفعل ذلك وأنت ابن علي في بأسه ونجدته، فما أدري ما الذي حملك على ذلك، أضعف رأي أم وهن نخيزة، فما أظن لك مخرجاً من هاتين الخلتين، أما والله لو استجمع لي ما استجمع لك لعلمت أي ابن الزبير وأي لا أنقص عن الأبطال، وكيف لا أكون كذلك وجدتي صفيّة بنت عبد المطلب وأي الزبير حوارى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأشد الناس بأساً وأكرمهم حسباً في الجاهلية وأطوعهم لرسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ فالتفت إليه الحسن وقال: أما والله لولا أن بني أمية تنسبني إلى العجز عن المقال لكففت عنك قهواناً، واكن سابين ذلك لك لتعلم أي لست بالعي ولا الكليل اللسان، إياي تعير وعليّ تفتخر ولم يكن لجذك بيت في الجاهلية ولا مكرمة فروعته جدتي صفيّة بنت عبد المطلب فبذخ على جميع العرب بها وشرف بمكانها، فكيف تفاخر من هو من القلادة واسطتها ومن الأشراف سادتها؟ نحن أكرم أهل الأرض زنداً، لنا الشرف الثاقب والكرم الغالب، ثم تزعم أي سلّمت الأمر لمعاوية، فكيف يكون ذلك ويحك كذلك وأنا ابن أشجع العرب وقد ولدني فاطمة سيدة نساء العالمين وخير الإمام؟ لم أفعل ذلك ويحك جنباً ولا ضِعفاً ولكنه بايعني مثلك وهو يطلبني بيرةً وبداجيني المودة ولم أثق بنصرته لأنكم أهل بيت غدر، وكيف لا يكون كما أقول وقد بايع أبوك أمير المؤمنين ثم نكث بيعته ونكص على عقبيه واختدع حشاية من حشايا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليضلّ بها الناس، فلما دلف نحو الأعتة ورأى بريق الأستة قُتل مضيعةً لا ناصر له وأُتي بك أسيراً قد وطنتك الكمأة بأظلافها والخيّل بسنابكها واعتلاك الأشر فغصصت بريقك وأفيعت على عقبيك كالكلب إذا احتوشته الليوث؟ فتحن

ويحك نور البلاد وأملاكها وبنا تفخر الأمة وإلينا تُلقى مقاليد الأزمة، أنصول وأنت تختدع النساء ثم تفتخر على بني الأنبياء؟ لم تزل الأقاويل منا مقبولةً وعليك وعلى أيبك مردودةً، دخل الناس في دين جدّي طائعين

وكارهين ثم بايعوا أمير المؤمنين، رضي الله عنه، فسار إلى أبيك وطلحة حين نكثا البيعة وخذعا عرس رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقتل أبوك وطلحة وأُتي بك أسيراً، فبصبت بذنك وناشدته الرحم أن لا يقتلك فعفا عنك، فأنت عتاقة أبي وأنا سيدك وسيد أبيك، فذق وبال أمرك! فقال ابن الزبير: اعذر يا أبا محمد فإنما حملني على محاورتك هذا وأحب الإغراء بيننا فهلاً إذ جهلت أمسكت عني فإنكم أهل بيت سجيّكم الحلم والعمو! فقال الحسن: يا معاوية انظر هل أكيع عن محاورة أحد، ويحك أتدري من أي شجرة أنا وإلى من أنتمي؟ انتّه قبل أن أسمك بميسم تتحدث به الركبان في الآفاق والبلدان، فقال ابن الزبير: هو لذلك أهل. فقال معاوية: أما إنه قد شفى بلابل صدري منك ورمى مقتلك فصرت كالحجل في كف البازي يتلاعب بك كيف أراد فلا أراك تفتخر على أحد بعدها. ويحك نور البلاد وأملاكها وبنا تفخر الأمة والينا تُلقى مقاليد الأزمة، أنصو وأنت تختدع النساء ثم تفتخر على بني الأنبياء؟ لم تنزل الأقاويل منّا مقبولةً وعليك وعلى أبيك مردودةً، دخل الناس في دين جدّي طائعين وكارهين ثم بايعوا أمير المؤمنين، رضي الله عنه، فسار إلى أبيك وطلحة حين نكثا البيعة وخذعا عرس رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقتل أبوك وطلحة وأُتي بك أسيراً، فبصبت بذنك وناشدته الرحم أن لا يقتلك فعفا عنك، فأنت عتاقة أبي وأنا سيدك وسيد أبيك، فذق وبال أمرك! فقال ابن الزبير: اعذر يا أبا محمد فإنما حملني على محاورتك هذا وأحب الإغراء بيننا فهلاً إذ جهلت أمسكت عني فإنكم أهل بيت سجيّكم الحلم والعمو! فقال الحسن: يا معاوية انظر هل أكيع عن محاورة أحد، ويحك أتدري من أي شجرة أنا وإلى من أنتمي؟ انتّه قبل أن أسمك بميسم تتحدث به الركبان في الآفاق والبلدان، فقال ابن الزبير: هو لذلك أهل. فقال معاوية: أما إنه قد شفى بلابل صدري منك ورمى مقتلك فصرت كالحجل في كف البازي يتلاعب بك كيف أراد فلا أراك تفتخر على أحد بعدها.

وذكروا أن الحسن بن علي دخل على معاوية فقال متمثلاً:

فيم الكلام وقد سبقت مبرّزاً ... سيق الجواد من المدى والمقيس

فقال معاوية: إياي تعني؟ أما والله لأنبّتك بما يعرفه قلبك ولا ينكره جلساؤك، أنا ابن بطحاء مكة، أنا ابن أجودها جوداً وأكرمها جدوداً وأوفاهها عهداً، أنا ابن من ساد قريشاً ناشئاً وكهلاً. فقال الحسن، رضي الله عنه: أجل إياك أعني، أفعليّ تفتخر يا معاوية؟ أنا ابن ماء السماء وعروق الثرى وابن من ساد أهل الدنيا بالحسب الثابت والشرف الفائق والقديم السابق، أنا ابن من رضاه رضي الرحمن وسخطه سخط الرحمن، فهل لك أبّ كأبي وقديم كقديمي؟ فإن قلت لا تُغلب وإن قلت نعم تكذب. فقال معاوية: أقول لا تصديقاً لقولك. فقال الحسن:

الحقّ أبلج ما تخون سبيله ... والصدق يعرفه ذوو الألباب

تخون أي ما تخون من سلكتها، قال: وقال معاوية ذات يوم وعنده أشرف الناس من قريش وغيرهم: أخبروني بخير الناس أباً وأماً وعمماً وعمماً وخالاً وخالةً وجداً وجدّة. فقام مالك بن العجلان فأوماً إلى الحسن فقال: ها هوذا أبوه علي بن أبي طالب، رضوان الله عليهم، وأمه فاطمة بنت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وعمه جعفر الطيار في الجنان، وعمته أم هانئ بنت أبي طالب، صلى الله عليه وسلم، وخاله القاسم

بن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وخالته بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، زينب، وجده رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وجدته خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها. فسكت القوم ونهض الحسن، فأقبل عمرو بن العاص على مالك فقال: أحب بني هاشم حملك على أن تكلمت بالباطل؟ فقال ابن العجلان: ما قلت إلا حقاً وما أحد من الناس يطلب مرضاة مخلوق بمعصية الخالق إلا لم يعط أمنيته في دنياه وختم له بالشقاء في آخرته، بنو هاشم أنضرهم عوداً وأوراها زنداً، كذلك يا معاوية. قال: اللهم نعم.

قيل: واستأذن الحسن بن علي، رضي الله عنه، على معاوية وعنده عبد الله ابن جعفر وعمرو بن العاص، فأذن له، فلما أقبل قال عمرو: قد جاءكم الأفة العبي الذي كان بين لحية عبله. فقال عبد الله بن جعفر: مه فوالله لقد رمت صخرة مللمة تنحط عنها السيول وتقتصر دونها الوعول ولا تبلغها السهام، فإياك والحسن إياك، فإنك لا تزال راتعاً في لحم رجل من قريش ولقد رميت فما برح سهمك وقدحت فما أورى زندك. فسمع الحسن الكلام، فلما أخذ الناس مجالسهم قال: يا معاوية لا يزال عندك عبدٌ راتعاً في لحوم الناس، أما والله لو شئت لكونن بيننا ما تتفاقم فيه الأمور وتحرج منه الصدور، ثم أنشأ يقول:

أتأمر يا معاوي عبد سهم ... بشتمي والملا منا شهود  
إذا أخذت مجالسها قريش ... فقد علمت قريش ما تريد  
قصدت إليّ تشمتني سفاهاً ... لضغن ما يزول وما يبید  
فما لك من أب كأي تسامي ... به من قد تسامي أو تكيد  
ولا جدُّ كجدي يا ابن هندٍ ... رسول الله إن ذكر الحدود  
ولا أمّ كأمي من قريش ... إذا ما يحصل الحسب التليد  
فما مثلي تُهكّم يا ابن هندٍ ... ولا مثلي تجاربه العبيد  
فمهلاً لا تمج منا أموراً ... يشيب لها معاوية الوليد

وذكروا أن عمرو بن العاص قال لمعاوية ذات يوم: ابعث إلى الحسن بن علي فمره أن يخطب على المنبر فلعله يحصر فيكون ذلك مما نعيّره به، فبعث إليه معاوية فأصعد المنبر وقد جمع له الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس من عرفني فأنا الذي يُعرف ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي بن أبي طالب بن عم النبي، صلى الله عليه وسلم، أنا ابن البشير النذير السراج المنير، أنا ابن من بعث رحمة للعالمين وسخطاً على الكافرين، أنا ابن من بعث إلى الجن والإنس، أنا ابن المستجاب الدعوة، أنا ابن الشفيح المطاع، أنا ابن أول من ينفذ رأسه من التراب، أنا ابن أول من يقرع باب الجنة، أنا ابن من قتلت معه الملائكة ونصر بالربع من مسيرة شهر. فافتت في هذا الكلام ولم يزل حتى أظلمت الدنيا على معاوية، فقال: يا حسن قد كنت ترجو أن تكون خليفة ولست هناك. فقال الحسن: إنما الخليفة من سار بسيرة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعمل بطاعة الله، وليس الخليفة من دان بالجوهر وعطل السنن واتخذ الدنيا أباً وأماً، ولكن ذاك ملك أصاب مُلكاً يمتّع به قليلاً وكان قد انقطع عنه واستعجل لذته وبقيت عليه تبعته فكان كما قال الله جل

وعز: وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاعٌ إلى حين، ثم انصرف، فقال معاوية لعمر: والله ما أردت إلا هتكى! ما كان أهل الشام يرون أن أحداً مثلي حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا.

قيل: وقدم الحسن بن علي، رضوان الله عليه، على معاوية، فلما دخل عليه وجد عنده عمرو بن العاص ومروان بن الحكم والمغيرة بن شعبة وصناديد قومه ووجوه اليمن وأهل الشام، فلما نظر إليه معاوية أقعده على سريره وأقبل عليه بوجهه يريه السرور بمقدمه، فلما نظر مروان إلى ذلك حسده وكان معاوية قال لهم: لا تحاوروا هذين الرجلين فلقد قلداكم العار وفضحاكم عند أهل الشام، يعني الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وعبد الله بن العباس، رضي الله عنهما، فقال مروان: يا حسن لولا حلم أمير المؤمنين وما قد بنى له آباؤه الكرام من المجد والعلاء ما أقعدك هذا المقعد ولقتلك وأنت له مستوجب بقودك الجماهير، فلما أحسست بنا وعلمت أن لا طاقة لك بفارسان أهل الشام وصناديد بني أمية أذعنت بالطاعة واحتجرت بالبيعة وبعثت تطلب الأمان، أما والله لولا ذلك لأريق دمك، وعلمت أنا نعطي السيوف حقها عند الوغى، فاحمد الله إذ ابتلاك بمعاوية فعفا عنك بجلمه ثم صنع بك ما ترى، فنظر إليه الحسن فقال: ويحك يا مروان لقد تقلدت مقاليد العار في الحروب عند مشاهدتها والمخاذلة عند مخالطتها، نحن، هبيلتك الهوابل، لنا الحجج البوالغ ولنا إن شكرتم عليكم النعم السوايع، ندعوكم إلى النجاة وتدعوننا إلى النار، فشتان ما بين المنزلتين، تفخر ببني أمية وترعم أنهم صبر في الحروب أسد عند اللقاء، ثكلتك أمك أولئك البهاليل السادة والحماة الذادة والكرام القادة بنو عبد المطلب، أما والله لقد رأيتهم وجميع من في هذا البيت ما هالتهم الأهوال ولم يجيدوا عن الأبطال كالليوث الضاربة الباسلة الحنقة، فعندها وليت هارياً وأخذت أسيراً فقلدت قومك العار لأنك في الحروب خوَّار، أيراق دمي زعمت؟ أفلا أرقت دم من وثب على عثمان في الدار فذبحه كما يذبح الجمل وأنت تنغو نغواء النعجة وتنادي بالويل والثبور كالأمة اللكعاء، ألا دفعت عنه بيدٍ أو ناضلت عنه بسهم؟ لقد ارتعدت فرائصك وغشي بصرك فاستغثت بي كما يستغيث العبد بربه، فأنجيتك من القتل ومنعتك منه ثم تحث معاوية على قتلي، ولو رام ذلك معك لذبح كما ذبح ابن عفان، أنت معه أقصر يداً وأضيق باعاً وأجبن قلباً من أن تجسر على ذلك ثم ترعم أي ابتليت بجلم معاوية، أما والله هو أعرف بشأناه وأشكر لما وليناه هذا الأمر فمتى بدا له فلا يغضين جفنه على القذى معك، فوالله لأنحن أهل الشام بجيش يضيق عنه فضاؤها ويستأصل فرسانها ثم لا ينفعلك عند ذلك الهرب والروغان ولا يرد عنك الطلب تدريجك الكلام، فحنن من لا يجهل آباؤنا القدماء الأكابر وفروعنا السادة الأخيار، انطق إن كنت صادقاً. فقال عمرو: ينطق بالحنى وتطق بالصدق. ثم أنشأ يقول:

قد يضطر العير والمكواة تأخذه ... لا يضطر العير والمكواة في النار

ذق وبال أمرك يا مروان. وأقبل عليه معاوية فقال: قد كنت نهيته عن هذا الرجل وأنت تأتي إلا الهماكاً فيما لا يعينك، اربع على نفسك فليس أبوك كأبيه ولا أنت مثله، أنت ابن الطريد الشريد وهو ابن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الكريم، ولكن ربّ باحث عن حنيفة وحافر عن مدينته. فقال مروان: ارم من دون



بيضتك وقم بحجة عشيرتك. ثم قال عمرو: طعنك أبوه فوفيت نفسك بخصييك فلذلك تحذره. وقام مغضباً. فقال معاوية: لا تُجار البحور فتغمرك ولا الجبال فتبهرك واسترح من الاعتذار.

قيل: ولقي عمرو بن العاص الحسن بن علي، رحمه الله، في الطواف فقال: يا حسن أزعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك؟ فقد رأيت الله جل وعز أقامه بمعاوية فجعله راسياً بعد ميله وبيناً بعد خفائه. أفرضي الله قتل عثمان أم من الحق أن تدور بالبيت كما يدور الجمل بالطحين؟ عليك ثياب كغزقيء البيض وأنت قاتل عثمان، والله إنه لألم للثعث وأسهل للوعث أن يوردك معاوية حياض أهلك. فقال الحسن، عليه السلام: إن لأهل النار علامات يُعرفون بها وهي الإلحاد لأولياء الله والموالاتة لأعداء الله. والله إنك لتعلم أن علياً، رضي الله عنه، لم يترتب في الأمر ولم يشك في الله طرفة عين. وإيم الله لتنتهين يا ابن أم عمرو أو لأقرعن جبينك بكلام تبقى سمته عليك ما حييت! فإياك والإبراز عليّ فإني من قد عرفت لست بضعيف الغمزة ولا بهش المشاشة ولا بمريء المأكلة، وإني من قريش كأوسط القلادة، يُعرف حسبي ولا أدعي لغير أبي، وقد تحاكت فيك رجال قريش فغلب عليك الأمهم نسباً وأظهرهم لعنة، فإياك عني فإنك رجس، وإنما نحن بيت الطهارة، أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيراً.

قيل: واجتمع الحسن بن علي وعمرو بن العاص فقال الحسن: قد علمت قريش بأسرها أنني منها في عزّ أرومتها لم أطع على ضعف ولم أعكس على خسف، أُعرف بشيبي وأدعي لأبي. فقال عمرو: قد علمت قريش أنك من أقلها عقلاً وأكثرها جهلاً، وأنّ فيك خصالاً لو لم يكن فيك إلا واحدة منهنّ لشملك خزيتها كما اشتمل البياض الحالك، لعمر الله لتنتهين عما أراك تصنع أو لأكبسن لك حافة كجلد العائط أرميك من خللها بأحرّ من وقع الأثافي أعرك منها أديمك عرك السلعة، فإنك طالما ركبت صعب المنحدر ونزلت في عراض الوعر التماساً للفرقة وإرصاداً للفتنة ولن يزيدك الله فيها إلا فظاعة. فقال الحسن، عليه السلام: أما والله لو كنت تسمو بحسبك وتعمل برأيك ما سلكت فحجّ قصدٍ ولا حللت رابية مجدٍ. وإيم الله لو أطاعني معاوية لجعلك بمنزلة العدو الكاشح، فإنه طالما طويت على هذا كشحك وأخفيت في صدرك وطمح بك الرجاء إلى الغاية القصوى التي لا يورق بها غصنك ولا يخضّر لها مرعاك. أما والله ليوشكنّ يا ابن العاص أن تقع بين لحبي ضرغام من قريش قويّ متمنّع فروسٍ ذي لبد يضغظك ضغظ الرحي للحب لا ينجيك منه الروغان إذا التقت حلقتنا البطان.

محاسن كلام عبد الله بن العباس

رضي الله عنه

أبو المنذر عن أبيه عن الشعبي عن ابن عباس أنه دخل المسجد وقد سار الحسين بن علي، رضي الله عنه، إلى العراق فإذا هو بابن الزبير في جماعة من قريش قد استعلاهم بالكلام، فجاء ابن عباس حتى ضرب بيده بين عضدي ابن الزبير وقال: أصبحت والله كما قال الأول:

يا لك من حمرة بمعمر ... خلا لك الجو فيبضي واصفري  
ونقري ما شئت أن تنقري ... قد رُفِعَ الفُحُّ فماذا تخذري

خلت الحجاز من الحسين بن علي وأقبلت تهدر في جوانبها. فغضب ابن الزبير وقال: والله إنك لترى أنك أحق بهذا الأمر من غيرك. فقال ابن عباس: إنما يرى من كان في حال شك وأنا من ذاك على يقين. فقال: وبأي شيء تحقق عندك أنك أحق بهذا الأمر مني؟ قال ابن عباس: لأنا أحق ممن يدل بحقه، وبأي شيء تحقق عندك أنك أحق بها من سائر العرب إلا بنا؟ فقال ابن الزبير: تحقق عندي أي أحق بها منكم لشرفي عليكم قديماً وحديثاً. فقال: أنت أشرف أم من قد شرفت به؟ فقال: إن من شرفت به زادني شرفاً إلى شرف قد كان لي قديماً وحديثاً. قال: أفمّني الزيادة أم منك؟ قال: بل منك. فتبسم ابن عباس، فقال: يا ابن عباس دعني من لسانك هذا الذي تقلبه كيف شئت، والله لا تحبوننا يا بني هاشم أبداً. قال ابن عباس: صدقت، نحن أهل بيت مع الله عز وجل لا نحب من أبغضه الله تعالى. فقال: يا ابن عباس ما ينبغي لك أن تصفح عن كلمة واحدة؟ قال: إنما أصفح ممن أقرّ وأما ممن هرّ فلا، والفضل لأهل الفضل. قال ابن الزبير: فأين الفضل؟ قال: عندنا أهل البيت لا تصرفه عن أهله فظلم ولا تضعه في غير أهله فتدم. قال ابن الزبير: أفلمت من أهله؟ قال: بلى إن نبذت الحسد ولزمت الجدد. وانقضى حديثهما، وقام القوم ففترقوا.

وروي عن ابن عباس أنه قال: قلمت على معاوية وقد قعد على سريره وجمع أصحابه ووفود العرب عنده، فدخلت فسلمت وقعدت، فقال: من الناس يا ابن عباس؟ فقلت: نحن. قال: فإذا غبت؟ قلت: فلا أحد. قال: ترى أي قعدت هذا المقعد بكم؟ قلت: نعم، فمن قعدت؟ قال: بمن كان مثل حرب بن أمية. قلت: من أكفأ عليه إناؤه وأجاره بردائه. قال فغضب وقال: وار شخصك مني شهراً فقد أمرت لك بصانك وأضعفتها لك. فلما خرج ابن عباس قال لخاصته: ألا تسألوني ما الذي أغضب معاوية؟ إنه لم يلتق أحد من رؤساء قريش في عقبه ولا مضيق مع قوم إلا لم يتقدمه أحد حتى يجوزه، فالتقى حرب بن أمية مع رجل من بني تميم في عقبه فتقدمه التميمي، فقال حرب: أنا حرب بن أمية، فلم يلتفت إليه وجازه، فقال: موعدك مكة. فبقي التميمي دهنراً ثم أراد دخول مكة فقال: من يجيرني من حرب بن أمية؟ فقالوا: عبد المطلب. قال: عبد المطلب أجلّ قدراً من أن يجير علي حرب، فأتى ليلاً دار الزبير بن عبد المطلب فدقّ عليه، فقال الزبير للغيداق: قد جاءنا رجل إما طالب حاجة وإما طالب قرى وإما مستجير وقد أعطيناه ما أراد قال: فخرج إليه الزبير، فقال التميمي:

لاقيت حرباً في الثنية مقبلاً ... والصبح أبلج ضوعه للساري  
فدعاً بصوتٍ واكتنى ليروعني ... ودعا بدعوته يريد فخاري  
فتركنه كالكلب ينيح وحده ... وأتيت أهل معالم وفخار  
ليثاً هزبراً يُستجار بقربه ... رحب المباءة مكرماً للجار  
ولقد حلفت بزمزم وبمكة ... والبيت ذي الأحجار والأستار  
إن الزبير لمانعي من خوفه ... ما كبر الحجاج في الأمصار

فقال: تقدّم فإننا لا نتقدّم من نُجيرِه. فتقدم التميمي فدخل المسجد، فرآه حرب فقام إليه فلطمه، فحمل عليه الزبير بالسيف فعدا حتى دخل دار عبد المطلب فقال: أجرني من الزبير، فأكفأ عليه جفنةً كان هاشم يطعم فيها الناس، فبقي هناك ساعة ثم قال له: اخرج. فقال: كيف أخرج وتسعة من ولك قد احتبوا بسيفهم على الباب؟ فألقى عليه رداءً كان كساه إياه سيف بن ذي يزن له طرطان خضراوان، فخرج عليهم فعلموا أنه قد أجاره فنفروا عنه.

قال: وحضر مجلس معاوية عبد الله بن عباس وابن العاص، فأقبل عبد الله بن جعفر فلما نظر إليه ابن العاص قال: قد جاءكم رجل كثير الخلوات بالثمني والطربات بالتعني، محبّ للقيان، كثير مزاحه، شديد طمّاحه، صدوفٌ عن السنان، ظاهر الطيش، لين العيش، أخذ بالسلف، منفاق بالسرف. فقال ابن عباس: كذبت والله أنت وليس كما ذكرت، ولكنه لله ذكور، ولنعمائه شكور، وعن الخنا زجور، جواد كريم، سيد حلِيم، ماجد لهميم، إن ابتداءً أصاب، وإن سئل أجاب، غير حصر ولا هيّاب، ولا فحاش عيّاب، حلّ من قريش في كريم النصاب، كاهنبر الضرغام، الجريء المقدام، في الحسب القمقام، ليس يدّعي لدعيّ، ولا يديني لدينيّ، كمن اختصم فيه من قريش شرارها فغلب عليه جزّارها، فأصبح ألأمها حسباً وأدناها منصباً، ينوء منها بالذليل ويأوي منها إلى القليل، يتذبذب بين الحيين كالساقط بين الفراشين، لا المضطر إليهم عرفوه ولا الطاعن عنهم فقدوه، وليت شعري بأي قدم تتعرض للرجال وبأي حسب تبارز عند النضال، أبنفسك فأنت الوغد الزنيم أم بمن تنتمي إليه، فأهل السفه والطيش والدناءة في قريش، لا بشرف في الجاهلية شهروا، ولا بقديم في الإسلام ذكروا، غير أنك تتكلم بغير لسانك، وتطق بغير أركانك، والله لكان أبن للفضل وأطهر للعدوان أن يتزلك معاوية منزلة البعيد السحيق، فإنه طالما سلس داؤك، وطمح بك رجاؤك إلى الغاية القصوى التي لم يخضّر بها رعيك ولم يورق بها غصنك. قال عبد الله بن جعفر: أقسمت عليك لما أمسكت فإنك عني ناضلت ولي فاوضت.

قال ابن عباس: دعني والعبد فإنه قد كان يهدر خالياً إذ لا يجد مرامياً، وقد أُتيح له ضيغم شرس، وللأقران مفترس، وللأرواح محتلس. فقال عمرو بن العاص: دعني يا أمير المؤمنين انتصف منه فوالله ما ترك شيئاً. قال ابن عباس: دعه فلا يُبقي المبقي إلا على نفسه، فوالله إن قلبي لشديد، وإن جوايي لعديد، وبالله الثقة، فأني كما قال نابغة بني ذبيان:

وقبلك ما قُذعتُ وقادعوني ... فما نزر الكلام ولا شجاني

يصدّ الشاعر العرّاف عني ... صدود البكر عن قرم هجان

محاسن كلام غائمة بنت غانم

في شرف بني هاشم وفخرهم

قيل: ولما بلغ غائمة بنت غانم سبّ معاوية وعمرو بن العاص بني هاشم قالت لأهل مكة: أيها الناس إن قريشاً لم تلد من رُقم ولا رُقم، سادت وجادت، وملكت فملكتم، وفُضلت ففضلتم، واصطُفيت فاصطُفت، ليس فيها كدر عيب ولا أفن ريب، ولا حشروا طاغين ولا حادوا نادمين، ولا المغضوب عليهم ولا الضالين، إن بني هاشم أطول الناس باعاً وأجمل الناس أصلاً وأحلم الناس حلماً وأكثر الناس عطاءً، منّا عبد مناف الذي يقول فيه الشاعر:

كانت قريشٌ بيضةً فتفلقت ... فالخ خالصها لعبد مناف  
وولده هاشم الذي هشم الثريد لقومه، وفيه يقول الشاعر:  
هشم الثريد لقومه وأجارهم ... ورجال مكة مسنتون عجاف  
ثم منا عبد المطلب الذي سقينا به الغيث، وفيه يقال الشاعر:  
ونحن سنيّ الخُل قام شفيعنا ... بمكة يدعو والمياه تغور  
وابنه أبو طالب عظيم قريش، وفيه يقول الشاعر:  
آتيته ملكاً فقام بحاجتي ... وترى العليّج خائباً مذموماً  
ومنا العباس بن عبد المطلب أردفه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأعطاه ماله، وفيه يقول الشاعر:  
رديف رسول الله لم أر مثله ... ولا مثله حتى القيامة يوجد  
ومنا حمزة سيد الشهداء، وفيه يقول الشاعر:  
أبا يعلى لك الأركان هدّت ... وأنت الماجد البرُّ الوصول  
ومنا جعفر ذو الجناحين أحسن الناس حسناً وأكملهم كمالاً، ليس بغدّارٍ ولا ختار، بدّله الله جل وعز له بكل يد له جناحاً يطير به في الجنة، وفيه يقول الشاعر:  
هاتوا كجعفرنا الطيار أو كعلينا ... أليسا أعزّ الناس عند الخلاق  
ومنا أبو الحسن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أفرس بني هاشم وأكرم من احتفى وتنعل بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومن فضائله ما قصّر عنكم أنباؤها، وفيه يقول الشاعر:  
وهذا عليّ سيد الناس فاتقوا ... علياً بإسلام تقدم من قبل  
ومنا الحسن بن علي، رضي الله عنه، سبط رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسيد شباب أهل الجنة، وفيه يقول الشاعر:

ومن يك جده حقاً نبياً ... فإن له الفضيلة في الأنام

ومنا الحسين بن علي، رضوان الله عليه، حملة جبريل، عليه السلام، على عاتقه وكفى بذلك فخراً، وفيه يقول الشاعر:

نفى عنه عيب الآدميين ربه ... ومن مجده مجد الحسين المطهّر

ثم قالت: يا معشر قريش والله ما معاوية بأمر المؤمنين ولا هو كما يزعم، هو والله شانيء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إني آتية معاوية وقائلة له بما يعرف منه جبينه ويكثر منه عويله. فكتب عامل معاوية إليه

بذلك، فلما بلغه أن غامّة قد قربت منه أمر بدار ضيافة فظّفت وألقى فيها فرش، فلما قربت من المدينة استقبلها يزيد في حشمه ومماليكه، فلما دخلت المدينة أتت دار أخيها عمرو بن غانم فقال لها يزيد: إن أبا عبد الرحمن يأمرك أن تصيري إلى دار ضيافته، وكانت لا تعرفه، فقالت: من أنت كلاك الله؟ قال: يزيد بن معاوية. قالت: فلا رعاك الله يا ناقص لست بزائد، فتمعر لون يزيد، فأتى أباه فأخبره، فقال: هي أسنّ قريش وأعظمهم. فلما قال يزيد: كم تعدّ لها يا أمير المؤمنين؟ قال: كانت تعدّ على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أربعمائة عام وهي من بقية الكرام. فلما كان من الغد أتتها معاوية فسلم عليها، فقالت: على المؤمنين السلام وعلى الكافرين الهوان. ثم قالت: من منكم ابن العاص؟ قال عمرو: ها أنا ذا. فقالت: وأنت تسبّ قريشاً وبني هاشم وأنت أهل السب وفيك السبّ وإليك يعود السبّ يا عمرو، إني والله لعارفة بعيوبك وعيوب أمك وإني أذكر لك ذلك عيباً عيباً. ولدت من أمة سوداء مجنونة حمقاء تبول من قيام ويعلواها اللثام، إذا لامسها الفحل كانت نطقها أنفذ من نطقته، ركبتها في يوم واحد أربعون رجلاً، وأما أنت فقد رأيتك غاويّاً غير راشد ومفسداً غير صالح، ولقد رأيت فحل زوجتك على فراشك فما غرت ولا أنكرت، وأما أنت يا معاوية فما كنت في خير ولا ربيت في خير فما لك ولبني هاشم، أنساء بني أمية كنسائهم أم أعطى أمية ما أعطى هاشم في الجاهلية والإسلام؟ وكفى فخراً برسول الله، صلى الله عليه وسلم. فقال معاوية: أيتها الكبيرة أنا كافٌّ عن بني هاشم. قالت: فإني أكتب عليك عهداً، كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دعا ربه أن يستجيب لي خمس دعوات فأجعل تلك الدعوات كلها فيك. فخاف معاوية وحلف لها أن لا يسبّ بني هاشم أبداً. فهذا آخر ما كان بين معاوية وبني هاشم من المفاخرة، والله أعلم.

### محاسن مجالس أبي العباس السفاح في المفاخرة

قيل: كان أبو العباس يطيل السهر ويعجبه الفصاحة ومنازعة الرجال، فسهر ذات ليلة وعنده أناس من مضر وفهر وفيهم خالد بن صفوان بن الأهمم التميمي وناس من اليمن فيهم إبراهيم بن مخزوم الكندي، فقال أبو العباس: هاتوا واقطعوا ليلتنا بمحادثتكم. فبدأ إبراهيم بن مخزوم وقال: يا أمير المؤمنين إن إخوانكم هم الناس وهم العرب الأول الذين دانت لهم الدنيا وكانت لهم اليد العليا، ما زالوا ملوكاً وأرباباً، توارثوا الرئاسة كابراً عن كابر وآخراً عن أول، يلبس آخرهم سراويل أولهم، يعرفون بيت الحمد ومآثر الحمد، منهم النعمانات والمندرات والقابوسات، ومنهم غسيل الملائكة، ومنهم من اهتر لموته العرش، ومنهم مكلم الذئب، ومنهم من كان يأخذ كل سفينة غضباً ويجوي في كل نائبة نبأ، ومنهم أصحاب التيجان وكماة الفرسان، ليس من شيء وإن عظم خطره وعرف أثره من فرس رائع وسيف قاطع أو مجنّ واق أو درع حصين أو درّة مكنونة إلا وهم أربابها وأصحابها، إن حلّ ضيف أقروه، وإن سألهم سائل أعطوه، لا يبلغهم مكائر ولا يطاولهم مطاول ولا مفاخر، فمن مثلهم يا أمير المؤمنين؟ البيت يمان والحجر يمان والركن يمان والسيف يمان. فقال أبو العباس: ما أرى مضر تقول بقولك هذا وما أظن خالداً يرضى بذلك. فقال خالد: إن أذن أمير المؤمنين وأمنت المواخذة تكلمت. فقال أبو العباس: تكلم ولا ترهب أحداً. فقال خالد: يا أمير

المؤمنين خاب المتكلم وأخطأ المتفحّم إذ قال بغير علم ونطق بغير صواب، أو يفخر على مضر ومنها النبي، صلى الله عليه وسلم، والخلفاء من أهل بيته؟ وهل أهل اليمن يا أمير المؤمنين إلا دايغ جلدًا وقائد قردًا وحائك بردًا؟ دل عليهم الهدهد وغرقهم الجرذ وملكتهم أم ولد من قوم، والله يا أمير المؤمنين ما لهم ألسنة فصيحة ولا لغة صحيحة ولا حجة تدل على كتاب ولا يعرف بها صواب، وإنهم منّا لإحدى الخلتين إن حازوا ما قصدوا أكلوا وإن حادوا عن حكمنا قُتلوا. ثم التفت إلى الكندي فقال: أتفخر بأكرم الأنام وخيرها محمد، صلى الله عليه وسلم، وبه افتخر من ذكرت، فالمنّ من الله عز وجل عليكم إن كنتم أتباعه وأشياعه فمننا نبي الله المصطفى وخليفة الله المرتضى ولنا السوداء والعلوي وفينا الحلم والحجبا ولنا الشرف المقدم والركن المكرم والبيت المعظم والجناب الأخضر والعدد الأكثر والعز الأكبر، ولنا البيت المعمور والمشعر المشهور والسقف المرفوع وزمزم وبطحاوها وجبالها وصحراؤها وحياضها وغياضها وأحجارها وأعلامها ومنابرها وسقايتها وحجابتها وسدانة بيتها، فهل يعدلنا عادل ويبلغ فخرنا قائل، ومننا أعلم الناس ابن عباس أعلم البشر الطيبة أخباره الحسنه آثاره، ومننا الوصي وذو النور، ومننا الصديق والفاروق، ومننا أسد الله وسيف الله، ومننا سيد الشهداء وذو الجناحين، ومننا الكماة والفرسان، ومننا الفقهاء والعلماء، بنا عُرف الدين ومن عندنا أتاكم اليقين، فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اصطلمناه ومن فآخرنا فآخرناه ومن بدل سنننا قتلناه. ثم التفت إلى الكندي وقال: كيف علمك بلغات قومك؟ قال: أنا بها عالم. قال: ما الجحمة في لغتكم؟ قال: العين. قال: فما الميزم؟ قال: السنّ. قال: فالشناتر؟ قال: الإصبع. قال: فالصنابير؟ قال: الأذان. قال: فما القلوب؟ قال: الذئب. قال: فما الرُّب؟ قال: اللحية. قال: أفقرأ كتاب الله عز وجل؟ قال: نعم. قال: فإن الله عز وجل يقول: " إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا " ، وقال: بلسان عربي مبين، وقال جل ذكره: " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه " ، وقال عز وجل: " العين بالعين " ، ولم يقل الجحمة بالجحمة، وقال: " جعلوا أصابعهم في آذانهم " ، ولم يقل شناترهم في صنابيرهم، وقال: السن بالسن، ولم يقل الميزم بالميزم، وقال: فأكله الذئب، ولم يقل القلوب، وقال: لا تأخذ بلحيتي، ولم يقل بزبي، وأنا سائلك يا ابن محرمة عن ثلاث خصال فإن أنت أقررت بما قُهرت وإن جحدتها كفرت وإن أنكرت قتلت. قال: وما هي؟ قال: أتعلم أن فينا نبي الله المصطفى، صلى الله عليه وسلم؟ قال: اللهم نعم. قال: أتعلم أن فينا كتاب الله تعالى؟ قال: اللهم نعم. قال: أتعلم أن فينا خليفة الله المرتضى؟ قال: اللهم نعم. قال: فأني شيء يعدل هذه الخصال؟ قال أبو العباس: اكفف عنه فوالله ما رأيت غلبة أنكر منها، والله ما فرغت من كلامك يا أخا مضر حتى إنه سيُعرج

بسريري إلى السماء. ثم أمر لخالد بمائة ألف درهم. رى إلى السماء. ثم أمر لخالد بمائة ألف درهم. وعن أبي بكر الهذلي قال: اجتمعنا عند أبي العباس أهل البصرة وأهل الكوفة ولم يكن من أهل البصرة غيري وكان من أهل الكوفة الحجاج بن أرطاة والحسن بن زيد وابن أبي ليلى فتناكروا أهل الكوفة وأهل البصرة فقال ابن أبي ليلى: نحن والله يا أمير المؤمنين..... وكيف يكون لنا ذلك ولنا السنن والهند وكرمان ومكران والفرّض والعرض والديار وسعة الأثمار؟ فقال ابن أبي ليلى: نحن أعلم منهم علماً وأكثر منهم

فهماً، يقرّ بذلك أهل البصرة لأهل الكوفة. قلت: هم أكثر أنبياء وأقل أتقياء وأعظم كبرياء، منهم المعيرة الخبيث السريرة وبيان وأبو بيان، وتنسب فيهم الأنبياء والله ما أتانا إلا نبي واحد. قال الحسن بن زيد: أنتم أصحاب عليّ يوم سرنا إليه لقتله فكف الله أيدينا عنه وسار إلى الكوفة فقتلوه فأينا أعظم ذنباً؟ فقال الحجاج: والله يا أمير المؤمنين لقد بلغني أن أهل البصرة كانوا يومئذ عشرين ألفاً وكان أهل الكوفة خمسة آلاف، فلما التقت حلقنا البطان وأخذت الرجال أقرانها شدّت خيلهم في صعيد واحد. فقلت: وكيف يكون ذلك وخرجت ربيعة سامعة مطيعة تعين علياً وخرج الأحنف بن قيس في سعد والرّباب وهم السنام الأعظم والجمهور الأكبر يعين علياً؟ ولكن سل هؤلاء يا أمير المؤمنين كم كانت عدتهم يا أمير المؤمنين يوم استغاثوا بنا، فلما التقينا كانوا كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف. فقال ابن أبي ليلى: والله يا أمير المؤمنين إنا لأشرف منهم أشرفاً وأكثر منهم أسلافاً. قلت: معاذ الله يا أمير المؤمنين! هل كان في تميم الكوفة مثل الأحنف ابن قيس في تميم البصرة الذي فيه يقول الشاعر:

إذا الأبصار أبصرت ابن قيس ... ظللن مهابةً منه خشوعاً

وهل كان في قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم في قيس البصرة الذي يقول فيه الشاعر:

كل عام يحوي قتيبةً نهباً ... ويزيد الأموال مالاً جديداً

دوّخ الصغد بالقبائل حتى ... ترك الصغد بالعرء قعوداً

باهليّ تعصّب التاج حتى ... شبن منه مفارقٌ كنّ سوداً

وهل كان في أزد الكوفة مثل مهلب بن أبي صفرة في أزد البصرة الذي يقول فيه الشاعر:

إذا كان المهلب من ورائي ... هذا ليلى وقرّ له فؤادي

ولم أخش الدنيا من أناسٍ ... ولو صالوا بقوة قوم عاد

وهل كان في بكر الكوفة مثل مالك بن مسمع في بكر البصرة الذي يقول فيه الشاعر:

إذا ما خشينا من أميرٍ ظلامه ... أمرنا أبا غسان يوماً فعسكروا

وهل كان في عبد قيس الكوفة مثل الحكم بن المنذر بن الجارود في عبد قيس البصرة الذي يقول فيه

الشاعر:

يا حكم بن المنذر بن الجارود ... أنت الجواد بن الجواد الحمود

فضحك أبو العباس حتى ضرب برجله وقال: والله ما رأيت مثل هذه الغلبة قط!

محاسن الافتخار بالنبي

صلى الله عليه وسلم

قيل: كان علي بن عبد الله بن العباس، رضي الله عنه، عند عبد الملك بن مروان إذ فاخره عبد الملك فجعل يذكر أيام بني أمية، فبينما هو كذلك إذ نادى المنادي للأذان فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقال علي لعبد الملك:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيئا بماء فعادا بعد أبوإلا  
فقال عبد الملك: الحق في هذا أئين من أن يكابر.  
علي بن محمد النديم قال: دخلت على المتوكل وعنده الرضي فقال: يا علي من أشعر الناس في زماننا؟ قلت:  
البحريّ. قال: وبعده؟ قلت: ولد مروان بن أبي حفصة خدمك وعبيدك. فالتفت إلى الرضي وقال: يا ابن  
عم من أشعر زماننا؟ قال: علي بن محمد العلويّ. قال: وما تحفظ من شعره؟ قال قوله:  
لقد فاخرتنا من قريشٍ عصابةً ... بمطّ خدودٍ وامتداد الأصابع  
فلما تنازعنا القضاء قضى لنا ... عليهم بما نهوى نداء الصوامع  
يعني المساجد. قال المتوكل: وما معنى نداء الصوامع؟ قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.  
قال: وأبيك إنه لأشعر الناس.

### محاسن ما قيل في ذلك من الشعر

قال علي بن محمد العلويّ:

عصيت الهوى وهجرت النساء ... وكنت دواءً فأصبحت داء  
وما أنس لا أنس حتى الممات ... نزيب الأطباء تجيب الأطباء  
دعيني وصبري على نائباتٍ ... فبالصبر نلت الثرى والثواء  
وإن يك دهري لوى رأسه ... فقد لقي الدهر مني التواء  
ليالي أروي صدور القنا ... وأروي بهن الصدور الظماء  
ونحن إذا كان شرب المدام ... شربنا على الصافنات الدماء  
بلغنا السماء بأنسابنا ... ولولا السماء لجزنا السماء  
فحسبك من سوددٍ أننا ... بحسن البلاء كشفنا البلاء  
يطيب الثناء لآبائنا ... وذكر عليّ يزين الثناء  
إذا ذكر الناس كنا ملوكاً ... وكانوا عبيداً وكانوا إماء  
هجاني قومٌ ولم أهجهم ... أبي الله لي أن أقول الهجاء  
وقال غيره:

وإني من القوم الذين عرفتهم ... إذا مات منهم سيّدٌ قام صاحبه  
نجوم السماء كلما اقض كوكبٌ ... بدا كوكبٌ تأوي إليه كواكبه  
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ... دجى الليل حتى نظّم الجزع ثاقبه  
فلا توعديني يا شريح فإنني ... كليث عرينٍ فرّ عنه ثعالبه  
يمشي بأوصال الرجال إذا ستا ... قد احمرّ من نضح الدماء محالبه  
وقال آخر:



حلماء حين يقول قائلهم ... بيض الوجوه مقاولٌ لسن  
لا يفتنون ليعيب جارهم ... وهم لحفظ جواره فطن  
وأحسن من ذلك كله قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقد أتاه أعرابي فقال: بأبي أنت وأمي أكرم  
الناس حسباً! فقال: أحسنهم خلقاً وأفضلهم تقوى، فانصرف الأعرابي. فقال: ردوه، ثم قال: يا أعرابي  
لعلك أردت نسباً؟ قال: نعم. قال: يوسف صديق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن  
إبراهيم خليل الله فأين مثل هؤلاء الآباء في جميع الدنيا! ما كان فيها مثلهم أبداً. وقال الشاعر:  
ولم أر كالأسياط أبناء والدٍ ... ولا كأبيهم والداً حين ينسب  
ودخل عيينة بن حصن الفزاري على النبي، صلى الله عليه وسلم، فانتسب ثم قال: أنا ابن الأشياخ الأكارم،  
فقال، صلى الله عليه وسلم: أنت إذا يوسف صديق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن  
إبراهيم خليل الله، وقال، صلى الله عليه وسلم: خير البشر آدم، عليه السلام، وخير العرب محمد، صلى الله  
عليه وسلم، وخير الفرس سلمان، وخير الروم صهيب، وخير الحبشة بلال، رحمهم الله أجمعين.

### مساوي الافتخار

روي عن ابن عباس قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا تفخروا بآبائكم في الجاهلية، فوالذي  
نفسى بيده لما يُدحرج الجعل بأنفه خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية.  
قيل: وكان الحسن البصري يقول: ابن آدم لم تفتخر وإنما خرجت من مسيل بولين نطفة مشجت بأقدار؟  
وقال بعضهم لرجل يتبختر: يا هذا إن أولك نطفة قدرة وأحرك جيفة منتنة وأنت فيما بينهما وعاء عذرة  
فما هذه المشية؟ قال: وقيل لعامر بن قيس: ما تقول في الإنسان؟ قال: ما أقول فيمن إن جاع ضرع وإن  
شبع طغى.

وروي عن ابن عباس أنه قال: يتفاضلون في الدنيا بالشرف واليوتات والإمارات والعتاق والجمال والهيئة  
والمنطق ويتفاضلون في الآخرة بالتقوى واليقين، فأتقاهم أحسنهم يقيناً وأزكاهم عملاً وأرفعهم درجة  
أعقلهم، وقيل في ذلك:

يزين الفتى في الناس صحة عقله ... وإن كان محظوراً عليه مكاسبه  
يشين الفتى في الناس قلة عقله ... وإن كرم آباؤه ومناسبه

وقال بعض الحكماء: لا يكون الشرف بالحسب والنسب، ألا ترى أن أخوين لأب وأم يكون أحدهما  
أشرف من الآخر؟ ولو كان ذلك من قبل النسب لما كان لأحد منهم على الآخر فضلاً لأن نسبهما واحد  
ولكن ذلك من قبل الأفعال لأن الشرف إنما هو فيه لا في النسب، وقال الشاعر في ذلك:  
أبوك أبي والجد لا شك واحدٌ ... ولكننا عودان آسٌ وخروع

وبلغنا عن المدائني أنه قال: ليس الأسود بالشرف وإنما ساد الأحنف بن قيس بحلمه وحضين بن المنذر برأيه  
ومالك بن مسمع بمحبته في العامة وسويد بن منجوف بعطفه على أرامل قومه، وساد المهلب بن أبي صفرة

بجميع هذه الخصال.

قيل: وسمع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو خليفة صوتاً ولفظاً بالباب فقال لبعض من عنده: اخرج فانظر من كان من المهاجرين الأولين فأدخله. فخرج الرسول فأدخل بلالاً وصهيباً وسلمان، وكان أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو في عصابة من قريش جلوساً بالباب فقال أبو سفيان: يا معشر قريش أنتم صنديد العرب وأشرافها وفسانها بالباب ويدخل حبشيّ وفارسيّ وروميّ؟ فقال سهيل: يا أبا سفيان أنفسكم فلو موموا ولا تلو موموا أمير المؤمنين، دعا القوم فأجابوا ودعيتهم فأبيتهم وهم يوم القيامة أعظم درجات وأكثر تفضيلاً. فقال أبو سفيان: لا خير في مكان يكون فيه بلال شريفاً.

### مساوي أصحاب الصناعات

قال المأمون وذكر أصحاب الصناعات: السوقة سفل والصناع أنذال والتجار بخلاء والكتاب ملوك على الناس. وقال المأمون: الناس أربعة: ذو سيادة أو صناعة، أو تجارة أو زراعة، فمن لم يكن منهم كان عيلاً عليهم، وذكروا أن أبا طالب كان يعالج العطر والبزّ، وكان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بزّازاً، وكان عمر بن الخطاب بزّازاً، وكان عبد الرحمن بن عوف بزّازاً، وكان سعد بن أبي وقاص، رحمه الله، يأبر النخل، وكان أخوه عتبة، رحمه الله، نجاراً، وكان العاص بن هشام أخو أبي جهل بن هشام جزاراً، وكان الوليد بن المغيرة حداداً، وكان عقبة بن أبي معيط حماراً، وكان عثمان بن طلحة صاحب مفتاح البيت خياطاً، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزيت والأدم، وكان أمية بن خلف يبيع الثرم، وكان عبد الله بن جدعان نحاساً، وكان العاص بن وائل أبو عمرو بن العاص يعالج الخيل والإبل، وكان جرير بن عمرو وقيس أبو الضحاك بن قيس ومعمر بن عثمان وسيرين أبو محمد بن سيرين كلهم حدادين، وكان المسيب أبو سعيد زياتاً، وكان ميمون بن مهران بزّازاً، وكان مالك بن دينار وراقاً، وكان أبو حنيفة صاحب الرأي خزّازاً، وكان مجمع الزاهد حائكاً.

قيل: واتخذ يزيد بن المهلب بستاناً في داره بخراسان، فلما ولي الأمر قتيبة بن مسلم جعله لإبله، فقال له مرزبان مرو: هذا كان بستاناً وقد اتخذته لإبلك! فقال قتيبة: كان أبي أشربان وكان أبو يزيد بستانبان فمنهما صار ذلك كذلك.

### محاسن النتائج

ذكروا أن جرهم من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم وأن الملائكة من الملائكة كان إذا عصى ربه في السماء أهبطه إلى الأرض في صورة رجل في طبيعته ما في طبيعة بني آدم كما صنع بهاروت وماروت في خبرهما مع الزهرة حتى كان من شأنهما ما كان، فعصى بعض الملائكة ربنا جل ذكره فأهبطه إلى الأرض في صورة رجل فتزوج أم جرهم فولدت منه جرهم، فقال شاعرهم:  
لاهم إن جرهماً عبادكا ... الناس طرفٌ وهم تلالداكا

وكان ذو القرنين أمه قيرى آدمية وكان أبوه عيرى من الملائكة. وسمع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، رجلاً ينادي: يا ذا القرنين! فقال: فرغتم من أسماء الأنبياء فارتقيتم إلى أسماء الملائكة! وزعموا أن التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والإنس لقوله جل وعز: " وشاركهم في الأموال والأولاد " . ولأن الجنيات إنما يعرضن لصرعى رجال الإنس على جهة العشق وطلب السفاد وكذلك رجال الجن لنساء بني آدم، ومن زعم أن الصرع من المرّة فقد رد قول الله عز وجل: إن الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس " ، وقال جل ذكره: " وشاركهم في الأموال والأولاد " ، وقال عز وتعالى: " لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان " ، وكان عبد الله بن هلال سبط إبليس من قبل أمهاته. وروى أبو زيد النحوي أن سعلاة أقامت في بني تميم حتى ولدت فيهم ورأت ذات يوم برقاً من شق بلاد السعالي فحنت إلى وطنها وطارت إليهم.

وقد قيل إن الواقواق من نتاج ما بين بعض النبات وبعض الحيوان.  
وقد قيل إن الثعلب يسفد الهرة الوحشية فيخرج من بينهما ولد فيه مشابحة منهما، قال حسان بن ثابت:  
أبوك أبوك وأنت ابنه ... وبس النبي وبس الأب  
وأملك سوداء نوبية ... كأن أناملها العنظب

بييت أبوك بها مغدفاً ... كما ساور الهرة الثعلب  
وقد يولد من بين الكلاب والثعالب هذه الكلاب السلوقية الماهرة بالصيد.  
وقيل: إنه يخرج من بين الذئب والكلبة ولد يسمى الديسم، قال بشار:  
أديسم يا ابن الذئب من نجل زارع ... أتروي هجائي سادراً غير مقصر  
وزارع اسم كلب يعرف بزراع.  
وزعموا أنه يخرج من بين الذئب والضبع ولد يسمى السمع كالحية لا يعرف العلل ولا يموت إلا بعرض  
يعرض له وأنه أشدّ عدواً وأسرع من الريح، قال الشاعر:  
مسبلٌ في الحَيِّ أحوى رفلٌ ... فإذا يغزرو فسمعٌ أزلٌ  
ومن عجائب التركيب فوالج البخت إذا ضربت في إناث البخت لم يخرج الحوار إلا قصير العنق لا ينال كلاً ولا ماء، وإذا ضربت القوالج في العراب جاءت هذه الجوامز والبخت الكريمة، ومتى ضربت فحول العراب في إناث البخت جاءت هذه الإبل القبيحة المنظر.  
وقد قيل في الإبل: إن فيها عرقاً من سفاد الجن وإن فيها إبلاً وحشية هي من بقايا إبل وبار، لما أهلكهم الله جل وعز بقيت إبلهم، وإن الجمل منها ربما صار إلى أعطان الإبل فضرب في ناقة فتجيء منه هذه المهريّة والغسجدية التي تسمى الذهبية.

وزعموا أن ببلاذ الحبشة ذكر الضباع يعرض للناقة من الوحش فيسفدها فتلقح بولد على خلقة الناقة والضبع، فإن كان أنثى يعرض لها الثور الوحشي فيضربها فيصير الولد زرافة ويسمى بالفارسية اشتر كاوبلنك، أي خرج من بين الجمل والثور والضبع، وقد جحد الناس أن يكون الزرافة الأنتى تلحق من

الزرافة الذكر.

وأما النعام فإنها لا تقع إلا من ذكر النعام وإناثها.

ومن نتاج الطير ما رواه بعضهم أنه رأى طائراً له صوت حسن زعموا أنه من نتاج ما بين القمري والفاختة، وقُتِص الطير يزعمون أن أجناساً من الطير تلتقي على المياه فتسافد وأنهم لا يزالون يرون أشكالاً لم يروها قط فيقدرون أنها من تلاقيح تلك المختلفة.

### مساوي النتاج

فأما من يخرج من بين بني آدم فإنه إذا تزوج خراساني بهندية خرج من بينهما الذهب الإبريز غير أنه يحتاج أن يجرس ولدهما إذا كان أنثى من زناء الهند وإذا كان ذكراً من لواط رجال خراسان. ومن خبث النتاج ابن المذكورة من النساء والمؤنث من الرجال يكون أخبث نتاجاً من البغل وأفسد أعراقاً من السمع وأكثر عيوباً من كل خلق وأن يأخذ بأسوا خصال أبيه وأردى خصال أمه فتجتمع فيه خصال الدواهي وأعيان المساوي، وأنه إذا خرج كذلك لم ينجع فيه أدب ولم يطمع في علاجه طيب، وقد رأينا في دور تقيف فتى اجتمعت فيه هذه الخصال فما كان في الأرض يوم إلا وهم يتحدثون عنه بشيء يصغر في جنبه أكبر ذنب كان ينسب إليه، والخالسي من الناس الذي يخرج من بين الحبشي والبيضاء، والبيسري من الناس الذي يخرج من بين البيض والهند ويكون من أحسن الناس وأجملهم.

### محاسن الوفاء

قيل في المثل: هو أوفى من فكيهة، وهي امرأة من قيس بن ثعلبة كان من وفائها أن السليك بن السلكة غزا بكر بن وائل فخرج جماعة من بكر فوجدوا أثر قدم على الماء فقالوا: والله إن هذا لأثر قدم ترد الماء، فقعدوا له، فلما وافى حملوا عليه فعدا حتى ولج قبة فكيهة فاستجار بها، فأدخلته تحت درعها، فانزعوا حمارها، ونادت إخوتها فجاءوا عشرة فمعهوم منها. قال: فكان السليك يقول: كأني أجد خشونة استهت على ظهري حين أدخلتني درعها، وقال:

لعمر أليك والأنباء تمني ... لنعم الجار أخت بني عوارا

من الحفريات لم تفضح أخاها ... ولم ترفع لوالدها شنارا

فما ظلمت فكيهة حين قامت ... لنصل السيف وانتزعوا الخمارا

وقيل أيضاً: هو أوفى من أم جميل، وهي من رهط أبي هريرة من دوس، وكان من وفائها أن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي قتل أبا أزيهر رجلاً من الأزدي فبلغ ذلك قومه بالسراة فوثبوا على ضرار بن الخطاب ليقتلوه فعدا حتى دخل بيت أم جميل وعاد بها، فقامت في وجوههم ونادت قومها فمعهوها، فلما قام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بالأمر ظنت أنه أخوه فأنته بالمدينة، فلما انتسبت عرف القصة وقال: إني لست بأخيه إلا في الإسلام وهو غاز وقد عرفنا ممتك عليه، فأعطاها على أنها بنت سبيل.

ويقال: هو أوفى من السموأل بن عادياء، وكان من وفائه أن امرأ القيس بن حجر الكندي لما أراد الخروج إلى قيصر ملك الروم استودع السموأل دروعاً له، فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام فتحرز منه السموأل، فأخذ الملك ابناً له ذكروا أنه كان متصيدياً، فصاح به: يا سموأل هذا ابنك في يدي وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمي وأنا أحق بميراثه فإن دفعت إليّ الدروع وإلا ذبحت ابنك. فقال: أجلي، فأجله. فجمع أهل بيته وشاورهم، فكلّ أشار عليه أن يدفع الدروع وأن يستنقذ ابنه، فلما أصبح أشرف فقال: ليس إلى دفع الدروع سبيل فاصنع ما أنت صانع! فذبح الملك ابنه وهو ينظر إليه، وكان يهودياً، فانصرف الملك، ووافى السموأل بالدروع الموسم فدفعها إلى ورثة امرئ القيس وقال في ذلك: وفيت بأدرع الكندي، إني ... إذا ما خان أقوام وفيت وقالوا عنده كثر رغباً ... فلا وأيك أغدر ما مشيت بني لي عادياً حصناً حصيناً ... وبثراً كلما شئت استقيت وقال الأعمش في ذلك:

كن كالسموأل إذ سار الهمام له ... في جحفلٍ كسواد الليل جرار  
خيرَه خططي خسف، فقال له ... إذبح أسيرك إني مانعٌ جاري

وقيل: هو أوفى من الحارث بن عباد، وكان من وفائه أنه أسر عدي بن ربيعة ولم يعرفه، فقال: دلني على عدي. فقال: إن أنا دللتك على عدي أتؤمنني؟ قال: نعم، قال: فأنا عدي. فخلاه وقال في ذلك:  
هلف نفسي على عديّ وقد أس ... قب للموت واحتوته اليدان

ويقال: هو أوفى من عوف بن محلم، وكان من وفائه أن مروان القرظ غزا بكر بن وائل ففصّوا جيشه وأسره رجل منهم وهو لا يعرفه، فأتى به أمه فقالت: إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرظ! فقال لها مروان: وما ترجين من مروان؟ قالت: عظم فدائه. قال: وكم ترجين من فدائه؟ قالت: مائة بعير. قال مروان: ذلك لك على أن ترديني إلى جماعة بنت عوف بن محلم. قالت: ومن لي بمائة من الإبل! فأخذ عوداً من الأرض فقال: هذا لك بما. فمضت به إلى عوف فاستجار بجماعة ابنته، فبعث عمرو بن هند أن يأتيه به، فقال: قد أجارته ابني وليس إليه سبيل. فقال عمرو: قد آليت أن لا أعفو عنه أو يضع يده في يدي. فقال عوف: يضع يده في يدي وأن تكون يدي بينهما، فأجابه عمرو إلى ذلك، فجاء عوف بمروان فأدخله عليه فوضع يده في يده ووضع عوف يده بين أيديهما فعضا عنه.

ويقال: إن قباد أمر بقتل رجل من الطاعنين على المملكة، فقتل، فوقف على رأسه رجل من جيرانه وصنائه فقال: رحمك الله، إن كنت لتكرم الجار وتصبر على أذاه وتؤاسي أهل الخلة وتقوم بالنائبة والعجب كيف وجد الشيطان فيك مساعاً حتى حملك على عصيان ملكك فخرجت من طاعته المفروضة إلى معصيته وقديماً ما تمكّن ممن هو أشد منك قوة وأثبت عزماً! فأخذ صاحب الشرطة الرجل فحبسه وأنهى كلامه إلى قباد، فوقع: يُحسن إلى هذا الذي شكر إحساناً يُفضل به وتُرفع مرتبته ويُزاد في عطائه.

قيل: ولما قتل كسرى النعمان بن المنذر كذب إلى إياس بن قبيصة يأمره أن يبعث إليه بولد النعمان بن المنذر وتركته من المال والإبل والخيل والسلاح، وكان النعمان أودع ذلك هانيء بن مسعود، فبعث إليه إياس يعلمه بما كتب به كسرى، فأبى أن يسلم شيئاً من تركة النعمان، فكتب إياس إلى كسرى يعلمه ذلك، فأبى على نفسه ليستأصلن بكر بن وائل، فكتب إلى إياس يأمره بالمسير إليهم لخاربتهم فيمن معه من طيء وإباد وغيرهم، وكتب إلى قيس بن مسعود الشيباني المعروف بندي الجديين، وكان عاملاً على سفوان، يمنع العرب من دخول أطراف السواد ويأمره أن يسير بمن معه من قومه فيعين إياساً على محاربة بكر بن وائل، ثم عقد كسرى لقائد من قواده يسمى الهامرز في اثني عشر ألف رجل من أبطال أساورته ووجهه إلى إياس لمعاونته، ثم عقد أيضاً لهرمز جرابزين، وكان أعظم مرزبته في مثل ذلك، وأمره أن يقفو أثر الهامرز حتى يوافي إياس بن قبيصة، فسارت الجيوش إلى بكر بن وائل، وكانوا بمكان يسمى ذا قار منه إلى مدينة الرسول خمس مراحل مما يلي طريق البصرة، فأقبلت الجيوش حتى أناخت على بكر فأحدقت بهم، ثم إن عظماء بكر بن وائل اجتمعوا إلى هانيء بن مسعود المزدلف وقالوا: إن هذه الجيوش قد أحدقت بنا من كل ناحية فما ترى؟ قال: أرى أن تجعلوا حصونكم سيوفكم ورماحكم وتوطنوا أنفسكم على الموت. فقالوا: نعم والله لنفعلن! ثم إن قيس بن مسعود أقبل في سواد الليل من عسكر إياس حتى أتى هانيء بن مسعود فقال: يا ابن عم إنه قد حلّ بكم من الأمر ما قد ترون ففرّق خيل النعمان وسلاحه في أشدّاء قومك ليقنوا بذلك على القتال فهي مأخوذة لا محالة إن قتلوا وإن سلموا أمرتهم فردّوها عليك، وعليك بالجدّ والصبر، وإياك ثم إياك أن تخفر ذمتك في تركة النعمان حتى تُقتل ويقتل معك جميع قومك! قال له هانيء: أوصيت يا ابن عم محافظاً فوصلتك رحم وأرجو أن لا ترى منا تقصيراً ولا فتوراً، فانصرف قيس ذو الجديين من عند هانيء كئيباً حزيناً باكياً خائفاً من هلاك قومه حتى أتى عسكر إياس وكان يريه أنه مجامع له على حرب قومه خوفاً أن يجد عليه كسرى فيقتله، فلما أصبح هانيء بن مسعود دعا بجيّل النعمان وسلاحه ففرقه في أبطال قومه وأشدّائهم، فركبوا تلك الخيول، وكانت ستمائة فرس وستمائة درع، واستلأموا تلك الدروع، وكان ذلك في العام الذي هاجر فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة، واتفقت بكر بن وائل أن تجعل شعارها باسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، محمداً يا منصور، وذلك قبل أن يُسلموا، وبذلك الاسم نُصروا وقهروا عدوهم، وعمد رجل من أشراف بني عجل يقال له حنظلة بن سيّار إلى حزم رحلات النساء فقطعها كلها، أراد بذلك أن يمنع قومه من الهرب إن وقعت الهزيمة، فسَمّي بذلك مقطّع الوضين. وإن إياس بن قبيصة أرسل إلى بكر بن وائل يحثهم خصلة من ثلاث: إما أن يسلموا تركة النعمان، وإما أن يسيروا ليلاً في البراري فيعتلّ على كسرى أنهم هربوا، فإن أبوا هاتين الخلتين خرجوا إلى الحرب. فتوامروا بينهم فقالوا: إما أن نسلم خفارتنا فلا يكون ذلك وإن نحن لحقنا بالفلاة أفطينا إلى بلاد تميم فيقطعون علينا ويأخذون ما معنا ويأسروننا وليست لنا حيلة إلا القتال، فاخترنا القتال ووجهوا خمسمائة فارس من أبطالهم عليهم يزيد بن حارثة اليشكريّ وأمروهم أن يكمنوا للعجم، ثم زحف الفريقان بعضهم إلى بعض وتقدّم الهامرز فوقف بين الصفيين ونادى بالفارسية: مردى آمردى. فقال يزيد بن حارثة: ما يقول؟ قال: يدعو إلى البراز رجلاً لرجل. فقال: وأبيكم لقد أنصف! ثم خرج إليه فاختلف بينهما ضربتان فضربه يزيد ضربة

بالسيف على منكبه فقدّ درعه حتى أفضى السيف إلى منكبه فأبانه فخرّ ميتاً الهامرز أول قتيل بين الصّفين، وألقى الله عز وجل الرعب في قلوب العجم فولّوا منهزمين، ولحق حنظلة بن سيّار العجلي بمرمز جرابزين قائد العجم قطعنه طعنة خرّ منها ميتاً، ودفع هانيء بن مسعود فرسه في طلب إياس بن قبيصة حتى لحقه ومعه قيس بن مسعود ذو الجديين، فأراد هانيء قتل إياس فمنعه قيس وحال بينه وبين قتله، وأتبع العجم خمس مائة فارس من بني شيبان لا يلوون على شيء يقتلون يومهم ذلك من أدركوا منهم حتى جنهم الليل، وبلغت هزيمة الأعاجم كسرى بالمدائن، قال دغفل: فذكر هذا الحديث لرسول الله، صلى الله

عليه وسلم، فقال: هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبني نُصروا، يعني باسمه، صلى الله عليه وسلم، قال: وسقط في يد كسرى واغتاظ من ذلك غيظاً شديداً ووقعت الولولة والعويل بالمدائن، فندب كسرى الجنود وفرّق فيهم السلاح والمال لمعاودة حرب بكر بن وائل، تم إن بطارقة الروم خرجوا على ملكهم قيصر فقتلوه فاشتغل به عن معاودة حرب بكر بن وائل فكان هانيء بن مسعود المزدلف أحد الأوفياء. ليه وسلم، فقال: هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبني نُصروا، يعني باسمه، صلى الله عليه وسلم، قال: وسقط في يد كسرى واغتاظ من ذلك غيظاً شديداً ووقعت الولولة والعويل بالمدائن، فندب كسرى الجنود وفرّق فيهم السلاح والمال لمعاودة حرب بكر بن وائل، تم إن بطارقة الروم خرجوا على ملكهم قيصر فقتلوه فاشتغل به عن معاودة حرب بكر بن وائل فكان هانيء بن مسعود المزدلف أحد الأوفياء.

ومنهم الطائي صاحب النعمان بن المنذر، وكان من حديثه أن النعمان بن المنذر ركب في يوم بؤسه، وكان له يومان يوم بؤس ويوم سعد، لم يلقه في يوم بؤسه أحدٌ إلا قتله وفي يوم سعده أحدٌ إلا جباه وأعطاه، فاستقبله في يوم بؤسه أعرابي من طيء فقال: حيا الله الملك، إن لي صبية صغاراً لم أوص بهم أحداً فإن يأذن لي الملك في إتيانهم وأعطيه عهد الله إني أرجع إليه إذا أوصيت بهم حتى أضع يدي في يده. فرق له النعمان فقال: لا إلا أن يضمّنك رجل ممن معنا فإن لم تأت قتلناه، وشريك بن عمرو بن شرحبيل نديم النعمان معه، فقال الطائي:

يا شريك يا ابن عمرو ... هل من الموت محاله  
يا أخا كلّ مضامٍ ... يا أخا من لا أخا له  
يا أخا النعمان فكّ ال ... يوم عن شيخٍ غلاله  
إن شيبان قبيلٌ ... أحسن الناس فعاله

فقال شريك: هو علي أصلح الله الملك! فمرّ الطائي والنعمان يقول لشريك: إن صدر هذا اليوم قد ولى ولا يرجع! وشريك يقول: ليس لك عليّ سبيل حتى نمسي، فلما أمسوا أقبل شخص والنعمان ينظر إلى شريك، فقال: ليس لك عليّ سبيل حتى يدنو الشخص، فبينما هم كذلك إذ أقبل الطائي فقال النعمان: والله ما رأيت أكرم منكما وما أدري أيكما أكرم! لا أكون والله الأمّ الثلاثة، ألا إني قد رفعت يوم بؤسي! وخليّ سبيل الطائي، فأنشأ يقول:

ولقد دعيتي للخلاف عشيرتي ... فأبيت عند تجهر الأقبول

إني امرؤٌ مني الوفاء خليقةً ... وفعال كل مهذبٌ بذال

فقال النعمان: ما حملك على الوفاء؟ قال: ديني. قال: وما دينك! قال: النصرانية. قال: اعرضها علي!

فعرضها عليه فتنصر النعمان.

ومنهم وزير ملك الصين، وكان حديثه أن شمر بن أفرقيس بن أبرهة خرج في خمس مائة ألف مقاتل إلى أرض الصين، فلما قارب بلادهم بلغ ذلك ملك الصين فجمع وزراءه فاستشارهم، فقال رئيسهم: أيها الملك أتر في أثرًا وخلي ورائي. فأمر به فجدع أنفه، فقام هارباً مستقبلاً لشمر، فوفاه على أربعة منازل بعد خروجه من مفاوز الصين فدخل عليه وقال: إني أتيتك مستجيراً! قال شمر: ممن؟ قال: من ملك الصين لأني كنت رجلاً من خاصة وزرائه وإنه جمعنا لما بلغه مسيرك إليه فاستشارنا فأشار القوم جميعاً عليه بمحاربتك وخالفتهم في رأيهم وأشرت عليه أن يعطيك الطاعة ويحمل إليك الخراج، فاقمني وقال: قد مالأت ملك العرب، وكان منه إلي ما ترى ولم آمنه مع ذلك أن يقتلني فخرجت هارباً إليك، ففرح به شمر وأنزله معه في رحله وأوعده من نفسه خيراً، فلما أصبح وأراد أن يرحل قال لذلك الرجل: كيف علمك بالطريق؟ قال: أنا من أعلم الناس به. قال: فكم بيننا وبين الماء؟ قال: مسيرة ثلاثة أيام وأنا موردك يوم الرابع على الماء، فأمر جنوده بالرحيل ونادى فيهم أن لا تحملوا من الماء إلا لثلاثة أيام، ثم سار في جنوده والرجل بين يديه، فلما كان يوم الرابع انقطع بهم الماء واشتد الحر فقال: لا ماء وإنما كان ذلك مكرّ مني لأدفعك بنفسي عن ملكي! فأمر به فضربت عنقه، فعطش القوم، وقد كان المنجمون قالوا لشمر عند مولده أنه يموت بين جبلي حديد، فوضع درعه تحت قدميه من شدة الرمضاء ووضع ترساً من حديد على رأسه من حرّ الرمضاء، فذكر ما كان قيل له في ولادته وقال للقوم: تفرقوا حيث أحببتم فقد أورطتكم، فهلك وجميع من كان معه. وحكي أنه لما حمل رأس مروان بن محمد الجعدي إلى أبي العباس وهو بالكوفة قعد له مجلساً عاماً وجاءوا بالرأس فوضع بين يديه فقال لمن حضره: أمنكم أحد يعرف هذا الرأس؟ فقام سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة فأكبّ عليه وتأمله طويلاً ثم قال: هذا رأس أبي عبد الملك خليفتنا بالأمس، رحمه الله، وعاد إلى مجلسه، فوثب أبو العباس حتى خرج من المجلس وانصرف ابن جعدة وتحدث الناس بكلامه، فلامه بنوه وأهله وقالوا: عرضتنا ونفسك للبوار! فقال: اسكتوا فبحكم الله! ألتتم أشرت عليّ بالأمس بحران بالخلف عن مروان ففعلت ذلك غير فعل ذي الوفاء والشكر وما كان ليغسل عار تلك الفعلة إلا هذه، وإنما أنا شيخٌ هامةٌ فإن نجوت يومي هذا من القتل متّ غداً! قال: وجعل بنوه يتوقعون رسل أبي العباس أن تطرقه في جوف الليل، فأصبحوا ولم يأتهم أحد وغداً الشيخ فإذا هو بسليمان بن مجالد فلما أبصره قال: يا ابن جعدة ألا أبشرك بحسن رأي أمير المؤمنين فيك؟ إنه ذكر في هذه الليلة ما كان منك. فقال: أما ما أخرج هذا الكلام من الشيخ إلا الوفاء وهو أقرب بنا قرابة وأمسّ بنا رحماً منه بمروان إن أحسنّا إليه. قال: أجل. وذكر أن المنصور أرسل إلى شيخ من أهل الشام وكان من بطانة هشام بن عبد الملك بن مروان فسأله عن تدبير هشام في حروبه مع الخوارج فوصف الشيخ له ما دبّر، فقال: فعل، رحمه الله، كذا وصنع، رحمه الله،



كذا. فقال المنصور: قم عليك لعنة الله! تطأ بساطي وترحم على عدوي؟ فقام الرجل فقال وهو مول: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي! فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فرجع. فقال: أشهد أنك نهيض حرّة وغراس شريف، ارجع إلى حديثك. فعاد الشيخ في حديثه حتى إذا فرغ دعا له بمال فأخذه وقال: والله يا أمير المؤمنين ما لي إليه حاجة ولقد مات عني من كنت في ذكره فما أحوجني إلى وقوف على بابه أحد بعده ولولا جلاله أمير المؤمنين وإيثاري طاعته ما لبست نعمة أحدٍ بعده! فقال المنصور: إذا شئت لله أنت فلو لم يكن لقومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً وعزاً باقياً.

وعن أبي دقافة العبسي قال: حدثت المنصور بحديث العجلان بن سهل وكان دخل على عبد العزيز بن القعقاع، فبينما هو جالس إذ دخل رجل متلطح الثوب بالطين، فقال عبد العزيز: ما لك؟ قال: ركب هذا الأحول، يعني هشام بن عبد الملك، فنفرت ناقتي فسقطت، فانتزع العجلان سيفه فنفحه به ووثب الرجل فأخطاه السيف ووقع في وسادة ففقطعها وقال: يا لكع أعياك أن تسميه بأمر المؤمنين وباسمه الذي سماه به أبوه أو بكنته ونظرت إلى الذي يعاب به فسميته به، أما والله لو ددت أن السيف أخذ منك مأخذه! قال: فكان المنصور يستعديني هذا الخبر كثيراً ويقول: كيف صنع العجلان بن سهل؟ مع مثله يطيب الملك. قال: وأخبرنا عطاء قال: بينا عبد الله بن طاهر مقبل من منزل عبيد الله بن السري بمصر حتى إذا دنا من بابه إذا بشيخ قد قام إليه فناوله رقعة كانت معه وقال: أصلح الله الأمير! نصيحة واجبة فافهمها، فأخذ الرقعة ودخل، فما هو إلا أن دخل وخرج الحاجب فقال: أين صاحب الرقعة؟ فقام إليه الشيخ فأخذ بيده فأدخله إلى عبد الله فقال: قد فهمت رقعتك هذه وما تنصحت به إلينا فانصفتي في مناظرتك. فقال الرجل: ليقبل الأمير ما أحب. قال: أخبرني هل يجب شكر الناس بعضهم لبعض؟ قال: نعم. قال: وبم يجب؟ قال: يا حسان المحسن وبفضل المنعم. قال: صدقت، جئت إلي وأنا على هذه الحال التي ترى خاتمي بفرغانة وآخر بركة وحكمي ونهي وأمرني جائز فيما بين هذين الطرفين وقد جمع لي من العمل ما لم يجمع لأحد قط من ولاية المشرق والمغرب والشرطة وما خرج من هذه الطبقة ولست ألتفت إلا إلى نعمة هؤلاء القوم ومنّتهم، لا أستفيء إلا بظلمها ولا أعرف غيرهم سادة ولا كبراء ولا أئمة ولا خلفاء، فأردت أن أكفر هذه النعمة وأجحد هذا المعروف وأبايع رجلاً ما امتحن للتقوى ولا أفاد علماً للهدى ولا جرت له على ملي ولا ذمي يد سالفة ولا نعمة سائرة، افتري على الله جل ذكره، ولو فعلت هذا الذي دعوتني إليه كنت ترضى به في مكارم الأخلاق وشكر المنعمين قال: فسكت الرجل ولم يجر جواباً، وكان دعاه إلى بيعة ابن طباطبا. وقال بعضهم: إنه كان دسيس المأمون.

برون الكبير قال: وجّه إليّ المأمون وقد مضى من الليل الثلث فقال لي: يا برون قد أكثر علينا أصحاب الأخبار في أن شيخاً يرد خرابات البرامكة فيبكيهم ويندبهم وينشد أبياتاً من الشعر فاركب أنت وعليّ بن محمد ودينار بن عبد الله حتى تردوا هذه الخرابات فتصيروا من وراء جدرانها فإذا رأيتم الشيخ قد ورد وبكى وأنشد فأتوني به. قال برون: فركبت مع القوم حتى وردنا الخرابات، وإذا الخادم قد أتى ومعه زليّة رومية وكرسيّ جديد، وإذا شيخ وسيم جميل له صلعة وهامة فجلس يبكي ويقول:

ولما رأيت السيف قد قدّ جعفرًا ... ونادى منادٍ للخليفة في يحيى  
بكيت على الدنيا وأيقنت أنه ... قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا  
أجعفر إن تهلك فُربّ عظيمةٍ ... كشفت ونعمى قد وصلت بما نعمى  
فقل للذي أبدى ليحيى وجعفرٍ ... شماتته أبشر لتأتيهم العقبى  
لئن زال غصن الملك عن آل برمكٍ ... فما زال حتى أثمر الغصن واستعلى  
وما الدهر إلا دولة بعد دولةٍ ... تبدل ذا ملكٍ وتعقب ذا بلوى  
على أنها ليست تدوم لأهلها ... ولو أنها دامت لكنتم بما أولى  
بني برمك كنتم نجومًا مضيئةً ... بما يهتدي في ظلمة الليل من أسرى  
لأيكم أبكي ألفتلضل ذي الندى ... أم الشيخ يحيى أم لجبوسه موسى  
أم الملك المصلوب من بعد عزّةٍ ... أم ابكي بكاء المولود أم الثكلى  
لكلكم أبكي بعينٍ غزيرةٍ ... وقلبٍ قريحٍ لا يموت ولا يحيا

قال: فتراينا له ثم قبضنا عليه، فجزع وفرع وقال: من القوم؟ فقال برون: أنا حاجب أمير المؤمنين وهذا  
فلان وفلان. قال: وما الذي تريدون؟ قال برون: فأعلمته ما أمر به أمير المؤمنين من أخذه إلى مجلسه. قال:  
ذري أوص فإني لا آمنه، ثم تقدم إلى بعض العلافين في فرضة الفيل فأخذ بياضاً وأوصى فيه وصية خفيفة  
ودفعها إلى الغلام وسرنا به، فلما مثل بين يدي المأمون زبره وقال: من أنت وبماذا استوجب البرامكة ما  
تفعله في دورهم؟ قال: يا أمير المؤمنين للبرامكة عندي أيادٍ خضرة أفتأذن لي أن أحدثك؟ فقال: سديداً.  
قال: أنا يا أمير المؤمنين المنذر بن المعيرة من أهل دمشق كنت بها من أولاد الملوك فزال عني نعمتي كما  
تزول عن الرجال، فلما ركبتني الديون واحتجت إلى بيع مسقط رأسي ورؤوس آبائي أشاروا عليّ بالخروج  
إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعني نيف وثلثون امرأةً وصبياً وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يرهن  
حتى دخلت بغداد ونزلنا بباب الشام في بعض المساجد ودعوت بثوبيات لي قد كنت أعددتها لأستميح بها  
الناس وتركتهم جياعاً وركبت شوارع بغداد فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ قد طبّقوا طيالستهم  
بأحسن زي وزينة وبزة، وإذا خادمان على باب المسجد، فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين  
أيديهم وأنا أقدم وأوخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتني، فأنا لكذلك إذا أنا بخادم قد أقبل وقال  
للخادمين: ازعجا القوم، فازعج القوم وأنا معهم فأدخلونا دار يحيى بن خالد ودخلت معهم، فإذا يحيى  
جالساً على دكة له وسط بستان، فسلمنا وهو يعدنا مائة رجل وواحدًا، وبين يدي يحيى عشرة من ولده،  
وإذا غلام أمرد حين عدّ خداه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم متطقون في وسط كل خادم  
منطقة من ألف مثقال مع كل خادم مجمرة من ذهب ورجل من ذهب في كل مجمرة قطعة من العود كهياة  
الفهر قد ضم إليه مثله من العنبر السلطاني فوضعه بين يدي الغلام وجلس الغلام إلى جنب يحيى ثم قال يحيى  
للزبرقي القاضي: تكلم فقد زوجت ابنتي عائشة من ابن عمي هذا من بيت نار التوبّهار.

فخطب القاضي وشهد القاضي والنفر وأقبلوا علينا بالنتار ببندق المسك والعنبر، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ونظرت وإذا يجي في الدكة ما بين المشايخ ويجي وولده والغلام ونحن مائة رجل واثنا عشر رجلاً، فخرج إلينا مائة خادم واثنا عشر خادماً مع كل خادم صينية فضة عليها ألف دينار شامية، فوضع بين يدي كل رجل منا صينية، فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدي بين يدي يجي لا أجسر على الصينية، فغمز لي الخادم، فجسرت عليها وجعلتها في كمي وأخذت الصينية وقمت وأنا أمر طول الصحن والثفت ورائي هل يتبعني أحد، فإني لكذلك أطاول الالتفات ويجي يلحظني فقال للخادم: اتني بالرجل، فرددت إليه، فأمر، فسلبت الدنانير والصينية، ثم أمرني بالجلوس فجلست، فقال: من الرجل؟ فقصصت عليه قصتي. فقال: علي موسى، فأتي به، فقال: يا بني هذا رجل غريب فخذة إليك اخلطه بنفسك ونعمتك. فقبض عليّ موسى وأخذني إلى بعض دوره فقصف عليّ يومي وليتي، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له: إن الوزير أمرني بالقصف على هذا القتي وقد علمت تشاغلي في دار أمير المؤمنين فاقبض عليه وقاصفه، فلما كان من غد تسلمني أحمد، ثم لم أزل وأيدي القوم تتداولني عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني في الأموات هم أم في الأحياء، فلما كان في اليوم العاشر دُفعت في يدي الفضل فقصف عليّ، فلما كان في الحادي عشر جاءني خادم مع عشرة من الخدم فقالوا: قم عافاك الله فاخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: وا ويلاه سلبت الدنانير والصينية وقد تمزقت ثيابي واتسخت وأخرج على هذه الحالة! إنا لله وإنا إليه راجعون! فرفع لي الستر الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس، فقبل أن رُفع السابع قال لي الخادم: تمنّ ما شئت، ورفع لي ستر عن حجرة كالشمس استقبلني منها رائحة العود والندّ ونفحات المسك، وإذا أنا بصبياني يتقبلون في الحرير والديباج وأنا قد حمل إليّ ألف ألف درهم مبدرة وعشرة آلاف دينار وقبالتين بضيعتين وتلك الصينية مع الدنانير والبنادق، فبقيت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم من بيت نار النوبهار أو رجل غريب اصطنعوني، فلما جاء القوم البلية ونزلت بهم من الرشيد النازلة قصدي عمرو بن مسعدة وألزمي من الخراج في هاتين الضيعتين ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل عليّ الدهر كنت أنظر إلى خرابات القوم فأندبهم. فقال المأمون: علي بعمرو بن مسعدة، فلما أتي به قال له: يا عمرو أتعرف الرجل؟ قال: نعم هو من بعض صنائع البرامكة. قال: كم ألزمته في ضيعته؟ قال: كذا وكذا. قال: ردّ عليه كل ما استأديته إياه في سنيه وأوغر ضيعته تكونان له ولعقبه من بعده، فعلا نخب الرجل بالبكاء يرثي البرامكة، فلما طال بكأؤه قال له المأمون: فممّ بكأؤك وقد أحسنا إليك؟ قال: يا أمير المؤمنين هذا أيضاً من صنائع البرامكة، أرأيتك يا أمير المؤمنين لو لم آت خرابات القوم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري بأمر المؤمنين ففعل بي ما فعل من أين كنت أصل إلى ما وصلت إليه؟ قال إبراهيم بن ميمون: فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عينه واشتد حزنه على القوم وقال: صدقت لعمرى هذه أيضاً من صنائعهم، فعليهم فابك وإياهم فاشكر!

مساوي قلة الوفاء والسعاية

يقال: إن رجلاً رفع رقعة إلى عمر بن الخطاب، رحمه الله، يسعى فيها ببعض أصحابه، فوقع فيها: تقربت إلينا بما باعدك من الرحمن ولا ثواب لمن آثر عليه.

قيل: ورفع منتصح رقعة إلى عبد الملك بن مروان، فوقع فيها: إن كنت كاذباً عاقبناك، وإن كنت صادقاً مقتناك، وإن استقلتنا أقلناك. فاستقاله الرجل.

قيل: وكتب صاحب بريد همدان إلى المأمون بخراسان يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطأ على إخراج مائتي ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما، فوقع المأمون: إنا نرى قبول السعاية شراً كمن قبله وأجازه، فأنف الساعي عنك فلو كان في سعائته صادقاً لقد كان في صدقه لئماً إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر على أخيه.

قال: وقال المأمون لولده: يا بني نزهوا أقداركم وطهروا أحسابكم عن دنس الوشاة وتمويه سعائتهم فكل جانٍ يده في فيه وليس يشي إليكم إلا أحد الرجلين ثقة وظنين، أما الثقة فقد قيل إنه لا يبلغ ولا يشين بالوشاية قدره، وأما الظنين فأهل أن يتهم صدقه ويكذب ظنه ويردّ باطله، وما سعى رجل برجل إليّ قط إلا انحط من قدره عندي ما لا يتلافاه أبداً، فلا تعطوا الوشاة أمانيتهم فيمن يشون بهم، فقد قال بعض الملوك لرجل سعى بآخر: لو كنت أنت أنا ما كنت صانعاً به؟ قال: كنت أقتله. فقال: أما إذ لم تكن أنت أنا فإني غير قاتله ومع ذلك فلا تدعوا الفحص عما يلقي إليكم مما تحنون رجوع ضرره عليكم. عوانة قال: قام رجل إلى سليمان بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين عندي نصيحة. قال: وما نصيحتك هذه؟ قال: كان فلان عاملاً ليزيد والوليد وعبد الملك فخافهم فيما تولاه واقطع أموالاً جلييلة فمر باستخرجها منه. فقال: أنت شر منه وأخون حيث أطلعت على أمره وأظهرته ولولا أنني أنفرت أصحاب النصائح لعاقبتكم ولكن اخترت مني خصلة من ثلاث. قال: اعرضهن يا أمير المؤمنين. قال: إن شئت فتشت عما ذكرت فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أقلناك. قال: بل ثقلي يا أمير المؤمنين. قال: قد فعلت فلا تعودن بعدها إلى أن تظهر من ذي مروءة ما كتبه الله وستره.

## محاسن الشكر

قال بعض الحكماء: صن شكرك عمّن لا يستحقه واستر ماء وجهك بالقناعة. وقال الفضل بن سهل: من أحب الازدياد من النعم فليشكر، ومن أحب المنزلة عند سلطانه فليكفه، ومن أحب بقاء عزه فليسقط دالته ومكره. ومن ذلك قول رجل لرجل شكره في معروف: لقد ثبتت في القلب منك محبةٌ... كما ثبتت في الراحتين الأصابع قال: واصطنع رجل رجلاً فسأله يوماً: أتحنني يا فلان؟ قال: نعم أحبك حباً لو كان فوقك لأظلك ولو كان تحتك لأقلك.

وقال كسرى أنوشروان: المنعم أفضل من الشاكر لأنه جعل له السبيل إلى الشكر. واختصر حبيب بن أوس من هذا شيئاً في مصراع واحد فقال:

لهان علينا أن نقول وتفعلا

وقال بشار:

أثني عليك ولي حالٌ تكذبي ... فيما أقول وأستحي من الناس  
قد قلت إن أبا حفصٍ لأكرم من ... يمشي فخاصمني في ذاك إفلاسي  
ولأبي الهول في مثله:

فإني إذ مدحك يا ابن معنٍ ... رأني الناس في رمضان أزي  
فإن أك أبتُ عنك بغير شيءٍ ... فلا تفرح كذلك كان ظني  
ولآخر في مثله:

لحى الله قوماً أعجبتهم مدائحي ... فقالوا خفاتاً في ملامٍ وفي عتب:  
أبا حازمٍ تمدح، قلت معذراً: ... هبوني امرأً جربت سيفي على كلب  
ولبعض المحدثين:

عثمان يعلم أن الحمد ذو ثمنٍ ... لكنه يشتهي حمداً بمجانٍ  
والناس أكيس من أن يمدوا أحداً ... حتى يروا قبله آثار إحصان  
وقال آخر:

فلو كان يستغني عن الشكر سيداً ... لعزة ملكٍ أو علو مكان  
لما أمر الله العباد بشكره ... فقال اشكروني أيها الثقلان

الباهلي عن أبي فروة قال: أخبرني الحلبي قال: مكتوب في التوراة: اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من  
شكرك، فإنه لا زوال للنعم إذا شكرت ولا إقامة لها إذا كفرت والشكر زيادة في النعم وأمان من الغير.  
قيل وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: خمس يعاجل صاحبهن بالعقوبة: البغي والغدر وعقوق الوالدين  
وقطيعة الرحم وم معروف لا يشكر.

وفي حديث مرفوع: دعاء المنعم على المنعم عليه مستجاب.

وقيل: أنشد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الحطيئة هذا البيت وعنده كعب الأحبار:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

فقال كعب: يا أمير المؤمنين هذا البيت الذي قال مكتوب في التوراة! قال عمر: وكيف ذاك؟ قال: في  
التوراة مكتوب: من يصنع المعروف لا يضيع عندي، لا يذهب العرف بيني وبين عبدي.

قيل: ودخل أبو مسلم صاحب الدولة على أبي العباس وأبو جعفر المنصور عنده، فقال أبو العباس لأبي  
مسلم: يا عبد الرحمن هذا أبو جعفر عبد الله بن محمد مولاك! قال: قد رأيت مجلسه يا أمير المؤمنين ولكن  
هذا مجلس لا يقضى فيه حق غيرك.

فصل لكاثبه في مثله: ولست أقابل أياديك ولا أستديم إحسانك إلا بالشكر الذي جعله الله جل وعز للنعم  
حارساً وللحق مؤدياً وللمزيد سبباً.

وقيل لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: أليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً! وفي الحديث أن رجلاً قال في الصلاة خلف رسول الله، صلى الله عليه وسلم: اللهم ربنا لك الحمد حمداً زاكياً طيباً مباركاً فيه. فلما انصرف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: أيكم صاحب الكلمة؟ قال أحدهم: أنا يا رسول الله. فقال: لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرون أيهم يكتبها أولاً، وقيل: نسيان النعمة أول درجات الكفر، ولابن المقفع:

مننت على قومي فأبدوا عداوةً ... فقلت لهم كفؤ العداوة والشكر  
وقال آخر:

ألا في سبيل الله وُدٌ بذلته ... لمن لم يكن عندي لمعشاره أهلاً  
ولكن إذا فكّرت فيه وجدتني ... بحسني إليه قد أهدت به عقلاً  
وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: لا تدع المعروف لكفر من كفره فإنه يشكرك عليه أشكر الشاكرين،  
وقد قيل في ذلك:

يد المعروف غنمٌ حيث كانت ... تحمّلها شكورٌ أم كفور  
فعند الشاكرين لها جزاءٌ ... وعند الله ما كفر الكفور  
قال بعضهم: ما أنعم الله على عبد نعمةً فشكر ذلك إلا لم يحاسبه على تلك النعمة، وقال بعض الحكماء:  
عند التراخي عن شكر المنعم تحلّ عظام النعم.  
قيل: وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كثيراً ما يقول لعائشة، رضي الله عنها: ما فعل بيتك أو بيت اليهودي؟ فقول:

يجزيك أو يُثني عليك وإن من ... أثنى عليك بما فعلت كمن جزى  
فيقول، عليه وعلى آله السلام: قد صدق يا عائشة، إن الله جل وعز إذا أجرى لرجل على يدي رجل خيراً  
فلم يشكره فليس لله بشاكر.

قيل وقيل لذي الرمة: لم خصصت بلال بن أبي بردة بمدحك؟ فقال: لأنه وطأ مضجعي وأكرم مجلسي فحق  
لكثير معروفه عندي أن يستولي على شكري.  
ومنهم من يقدم ترك مطالبة الشكر وينسبه إلى مكارم الأخلاق، من ذلك ما قاله بزرجهر: من انتظر بمعرفه  
شكراً فقد استدعى عاجل المكافأة.

وقال بعض الحكماء: كما أن الكفر يقطع مادة الإنعام فكذلك الاستطالة بالصنعة تمحق الأجر.  
وقال علي بن عبيدة: من المكارم الظاهرة وسنن النفس الشريفة ترك طلب الشكر على الإحسان ورفع  
الهمة عن طلب المكافأة واستكثار القليل من الشكر واستقلال الكثير مما يبذل من نفسه.

## مساوي الشكر

قال بعض الحكماء: المعروف إلى الكرام يعقب خيراً والمعروف إلى اللئام يعقب شراً، ومثل ذلك مثل المطر  
يشرب منه الصداق فيعقب لؤلؤاً وتشرب منه الأفاعي فتعقب سماً.

وقال سفيان: وجدنا أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللثام.  
 قيل: وأثار جماعة من الأعراب ضبعاً فدخلت خباء شيخ منهم.  
 فقالوا: اخرجها. فقال: ما كنت لأفعل وقد استجارت بي. فانصرفوا، وكانت هزيلة فأحضر لها لقاحاً فجعل  
 يسقيها حتى عاشت، فنام الشيخ ذات يوم فوثبت عليه فقتلته، فقال شاعرهم في ذلك:  
 ومن يصنع المعروف في غير أهله ... يلاقي الذي لاقي مجر ام عامر  
 أعد لها لما استجارت بقره ... غداً من البان اللقاح الغزائر  
 وأسمنها حتى إذا ما تملأت ... فرته بأنياب لها وأظافر  
 فقل لذوي المعروف هذا جزاء من ... يجود بمعروفٍ إلى غير شاكر  
 قيل: وأصاب أعراي جرو ذئب فاحتمله إلى خبائه وقرب له شاة فلم يزل يمتص من لبنها حتى سمن وكبر ثم  
 شد على الشاة فقتلها، فقال الأعراي:  
 غذتك شوبهتي ونشأت عندي ... فما أدراك أن أبك ذيب  
 فجعت نسيّةً وصغار قوم ... بشاتم وأنت لهم ريب  
 إذا غلبت طباع الشر فيه ... فليس لغيرها فيه نصيب  
 ويروى: نشأت مع السخال وأنت جرو.  
 ويضرب المثل بسنمار، وكان بنى للنعمان بن المنذر الخورنق فأعجبه فكره أن يبني لغيره مثله فأمر به فرمي  
 من أعلاه حتى مات، ف قيل فيه:  
 جزتنا بنو سعدٍ بحسن بلاننا ... جزاء سنمارٍ ولم يك ذا ذنب  
 ويروى: وما كان ذا ذنب، وفي المثل: سمن كلبك يأكلك. وقال بعضهم:  
 وإني وقيساً كالمسمن كلبه ... فخذشه أنيابه وأظافره

### محاسن الدهاء والحيل

ذكروا أنه لم يكن في ملوك العجم أدهى من كسرى أنوشروان، وأن الخزر كانت تغير في سلطان فارس حتى  
 تبلغ همدان والموصل، فلما ملك أنوشروان كتب إلى ملكهم فخطب ابنته على أن يزوجه أيضاً ابنته  
 ويتوادعا ويتفرغا إلى سائر أعدائهما، فأجابته إلى ذلك، وعمد أنوشروان إلى جارية من جواريه نفيسة فرفها  
 إلى صاحب الخزر وأهدى معها ما يشبه أن يهدى مع بنات الملوك وزفّ صاحب الخزر إلى أنوشروان ابنته،  
 فلما وصلت إليه قال لوزرائه: اكتبوا إلى صاحب الخزر لو التقينا وأكدنا المودة بيننا، فأجابته إلى ذلك  
 ووعدته موضع الدرب، فالتقيا فكانا يخلوان في لداتهما، ثم إن أنوشروان أمر قائداً من قواده أن يختار ثلاثمائة  
 رجل من أشد أصحابه فإذا هدأت العيون أغار في ناحية من عسكر الخزر، ففعل ذلك، فلما أصبح بعث إليه  
 صاحب الخزر: ما هذا ينهب عسكري البارحة؟ فأنكر ذلك وقال: لم توت من قبلي. فأمهله أياماً ثم عاد إلى  
 مثلها، ففعل ذلك ثلاث مرات في كل ذلك يعتذر إليه أنوشروان ويسأله البحث فيبحث فلا يقف على

شيء، فلما طال ذلك دعا صاحب الخزر بقائد من قواده وأمره بمثل ذلك، فلما أصبح بعث إليه أنوشروان: ما هذا أتستريح عسكري البارحة؟ فأرسل إليه: ما أسرع ما ضجرت، قد فعل هذا بعسكري ثلاث مرات وإنما فعل بك مرة واحدة! فبعث إليه أنوشروان: إن هذا عمل قوم يريدون أن يفسدوا بيننا وعندي رأي إن قبلته. فقال: وما هو؟ قال: تدعني أبني حائطاً بيني وبينك وأجعل عليه باباً فلا يدخل عليك إلا من تحب ولا يدخل عليّ إلا من أحب. فأجابه إلى ذلك وتحمل ومضى، وأقام أنوشروان فأمر، فبني بالصخر والرصاص حائط عرضه ثلاثمائة ذراع حتى ألحقه برؤوس الجبال وجعل عليه أبواب حديد فكان يجرسه مائة رجل بعد أن كان يحتاج إلى خمسة آلاف رجل، فلما فرغ من السد وقيد الفند في البحر وأحكم الأمر سرّ سروراً شديداً فأمر أن ينصب على الفند سريريه ويفرش له عليه، ثم قام فرقى إليه وأغفى عليه، فطلع طالع من البحر سد الأفق بطوله وأهوى نحو الفند، فنار الأساورة إلى قسيهم، فانتبه الملك فقال: ما شأنكم؟ أمسكوا، لم يكن الله جل وعز ليلهمني الشخوص عن وطني اثني عشرة سنة فأسد ثغراً يكون عزاً لرعبتنا ورداً ومرتقى لعباده ثم يسلط عليّ دابة من دواب البحر. ففتح الأساورة وأقبل الطالع نحو الفند، فذكر الموبد أن الله جل وعز أنطق ذلك الحيوان فقال: أيها الملك أنا ساكن من سكان هذا البحر وقد رأيت هذا الفند مشدوداً سبع مرات وخراباً سبع مرات، وأوحى الله جل وعز إلينا معشر سكان هذا البحر أن ملكاً عصره عصرك وصورته صورتك يبعثه الله جل وعز يسد هذا الثغر إلى الأبد، وأنت ذلك الملك، فأحسن الله على البر معونتك.

ثم غاب عن بصره كأنما غاب في البحر أو طار في الجو، وسأل أنوشروان عند فراغه من ذلك السد من ذلك البحر، فقيل: هو ثلاثمائة فرسخ في مثلها وبينه وبين بيضاء الخزر مسيرة أربعة أشهر على هذا الساحل ومن بيضاء الخزر إلى الفند الذي بناه أسفندياذ مسيرة شهرين. فقال أنوشروان: لا بد من الوقوف عليه والنظر إليه. قالوا: أيها الملك إنه طريق لا يطمع في سلوكه لموضع فيه يقال له دهان شير، يريد فم الأسد، وفيه دردور لا يكاد تسلم فيه سفينة. قال أنوشروان: لا بد من ركوب هذا البحر والنظر إلى هذا السد.

فقالوا: أيها الملك اتق الله في نفسك وفيمن معك! فقال: أتوكل على الله الذي خلق هذا البحر وهو جل وعز ينحينا من دردوره ولا أحسب أني أمسح إيران شهر شرقه وغربه وأعرف عدد جباله وأوديته إلا بعد ركوب هذا البحر وسلوكه إلى البر. فهبت له السفن وركب معه علة من النساء حتى لججوا في البحر ووافوا ذلك الذي يعرف بدهان شير فدفعوا إلى دردور هائل فبقوا فيه متحيرين لا يرون مناراً يجعلونه علماً لهم ولا جبلاً يقيمونه أماراً لمنصرفهم، فرجعوا على الملك باللوم والعيب. فقال: أخلصوا نياتكم لله جل وعز وتضرعوا إليه، ففعلوا، ونذر أنوشروان إن نجاه الله جل ذكره ليصدّقن بخراج سبع سنين. قال: فرفعت له جزيرة تعلوها الأمواج وفوق الجزيرة أسد في عظم جبل يتشرب الماء مؤخره وينحط من فيه إلى ذلك الدردور، فبينما هم كذلك إذ بعث الله جل جلاله سمكة عظيمة فطفرت حتى صارت في في الأسد، فسكن الدردور ونفذت السفينة حتى وصل إلى ما أراد ثم انصرف إلى دار مملكته.

حماد قال: حدثني أبي قال: قال الأعشى في مدحه إياس بن قبيصة وذكره مسيره إلى الروم حيث لقيه كسرى



أبرويز بساتيديما، وهو جبل يزعم أهل العلم أنه دون الجبال وأنه لا بد من أن يراق عليه دم كل يوم. قال الواقدي: بل هو محيط بالدنيا، وزعموا أنه ليس في الأرض يوم إلا ويسفك عليه دم، وإنما سمي ساتيديما معناه سيأتي دماً، فكان من خبر إياس بن قبيصة أن كسرى أبرويز كان رجلاً سيء الظن وأنه بعث شهربراز إلى الروم في جيش عظيم فأعطي من الظفر ما لم يعط أحد كان قبله، وهو الذي أصاب خزائن الملك التي كانت تسمى كنج بادآورد، أي الكثر الذي جاءت منه به الريح، وكانوا حملوها ليحرزوها، فضربتها الريح في الجزر من خليج البحر فأخذها وبعث بها إلى كسرى، فحسده كسرى وحذره وبعث إليه برجل تقدم إليه في قتله، وكان الذي أتاه رجل من أهل أذربيجان، فلما رأى جماله وهيئته قال: لا يصلح قتل هذا في غير جرم ولا حق، فأخبره بما أمره به، فأرسل شهربراز إلى قيصر: إني أريد أن ألقاك. فالتقيا، فقال له: إن هذا الخبيث قد أراد قتلي وإني والله لأريدن منه مثل الذي أراد مني، فاجعل لي ما أطمئن إليه وأعطيك مثل ذلك، ولئن قتلته لنجعلن لي ما أغلب عليه من الكور وأجعل لك أن لا أغزوك أبداً ولا أتناول شيئاً من أرضك وأن أعطيك من بيوت أموال كسرى مثل ما تنفق في مسيرك هذا، فأعطاه قيصر ما سأل، وسار قيصر في أربعين ألف مقاتل وخلف شهربراز في أرض الروم وقد أخذ منه العهود والمواثيق، ولم يعلم كسرى بذلك حتى دنا منه قيصر، فلما بلغه ذلك علم أن شهربراز علم بما كان دبره من قتله، وكانت جنوده قد تفرقت في السواد وغيرها، وكان كسرى قد أبغضه أهل مملكته وملّوه وعرف حاله عند الناس، فاحتال بحيل الرجال واستعمل المكر والدهاء فبعث إلى قسّ عظيم من النصارى يتقّ ملك الروم بقوله فقال: إني أكتب معك كتاباً لطيفاً في تحرير وأجعله في قناة إلى شهربراز وجائزتك عليّ ألف دينار، وقد عرف كسرى أن القسّ يذهب بالكتاب إلى ملك الروم، فكتب إلى شهربراز: إني كتبت إليك وقد دنا قيصر مني وقد أحسن الله جل وعزّ إليّ بصنيعك ونفوذ تدبيرك وقد فرقت لهم الجيوش وأنا تاركه حتى يدنو مني وأثب عليه وثبة أستأصل شأفته بها، وإذا كان ذلك اليوم وهو يوم كذا وكذا فأغر أنت عليّ من قبلك منهم فإنك تبيدهم وتهلكهم، وأرجو أن تكون لملك قيصر مصطلاً. فخرج القسّ بالكتاب حتى لقي قيصر، وقد كانت صوّرت لقيصر أرض العرب والعراق وصوّرت له النهروان بغير حين المدّ، فلما انتهى إليه في المد وليس عليه جسر وقرأ الكتاب من يد القسّ وقال: هذا هو الحق، ورجع منهزماً مفلولاً واتبعه كسرى بإياس بن قبيصة الطائي فأدركهم بساتيديما مرعوبين مفلولين من غير لقاء ولا قتال، فقتلوا قتل الكلاب ونجا قيصر في خواص من أصحابه، فمدح الأعشى إياس بن قبيصة وكان قد أصابه مرض فقال:

ما تعيف اليوم في الطير الرّوح ... من غراب اليبين أو تيس برح  
جالساً في نفرٍ قد أيسوا ... في مقييل القدّ من صحب قزح

قال ابن الأعرابي وسأله حماد عن قوله: ما تعيف القوم في الطير الروح؟ فقال: تطير الأعشى من مرض إياس إلى الزجر والفأل فقال لنفسه ما تعيف منه، أي ما تكره منه، وهو آخر أمره إلى السلامة، فرجع قيصر وقد أتهم شهربراز فلم يزل به حتى أمكنته الفرصة منه فقتله وعامة رجاله وأفناهم.

قيل: ولما تشاغل عبد الملك بن مروان بمقاتلة مصعب بن الزبير اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم وقالوا له: قد

أمكنتك الفرصة من العرب فقد تشاغل بعضهم ببعض ووقع بأسهم بينهم فالرأي أن تغزروهم في بلادهم فإنك تذلهم وتنال حاجتك منهم، فنهاهم عن ذلك فأبوا عليه إلا أن يفعل، فلما رأى ذلك دعا بكلين فأرّس بينهما فاقبتلا قتالاً شديداً ثم دعا بثلعب فخلّاه بينهما، فلما رأى الكلبان الثلعب تركا ما كانا فيه وأقبلوا على الثلعب حتى قتلاه، فقال ملك الروم: هكذا العرب تقتتل بينها فإذا رأونا وهم مجتمعون تركوا ذلك وأقبلوا علينا، فعرفوا صدقه ورجعوا عما كانوا عليه.

وعن بكّار بن ماهويه قال: قال كسرى أرويز لمنجمه: كيف يكون أجلي؟ فقيل له: تقتل. فقال: والله لأقتلن قاتلي! فأمر بسم فخلط في أدوية وكتب عليه: هذا دواء الجماع من أخذ منه وزن كذا جامع كذا مرة، وصيّره في خزانة الطب، فلما قبله ابنه شيرويه قش خزانة أبيه فمرّ بذلك السم فقال في نفسه: بهذا كان يقوى أبي على الجماع وعلى شيرين وغيرها، فأخذ منه فمات من ساعته.

وعن الهيثم عن ابن عباس قال: كان الحجاج حسوداً لا تتم له صنعة حتى يفسدها، فوجه عمارة بن تميم اللخمي إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فظفر به وصنع به ما صنع ورجع إلى الحجاج بالفتح فلم ير منه ما أحب وكره منافرتة، وكان عاقلاً رقيقاً، فجعل يترقق به ويداريه ويقول: أنت أيها الأمير أشرف العرب فمن شرفته شرف ومن وضعته اتضع وما ينكر لك ذلك مع رفقك ويمنك ومشورتك ورأيك، وما كان هذا كله إلا بصنع الله عز وجل وتدبيرك، وليس أحد أشكر لصنيعك مني، ومن ابن الأشعث وما خطره! حتى عزم الحجاج على المضي إلى عبد الملك فأخرج عمارة معه، فوفد عليه وعمارة يومئذ على أهل فلسطين أمير، فلم يزل يلطف بالحجاج في مسيره ويعظمه حتى قدموا على عبد الملك، فلما قامت الخطباء بين يديه وأثت على الحجاج، قام عمارة فقال: يا أمير المؤمنين سل الحجاج عن طاعتي ومناصحتي وبلائي. فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين صنع وصنع، ومن بأسه ونجدته وعفافه ومكيدته كذا وكذا، هو أيمن الناس نقيبةً وأعلمهم بتدبير وسياسة، ولم يبق غاية في الثناء عليه. فقال عمارة: أرضيت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فرضي الله عنك، حتى قالها ثلاثاً في كلها يقول: قد رضيت، فقال عمارة: فلا رضي الله عن الحجاج يا أمير المؤمنين ولا حفظه ولا عافاه! فهو والله السيء التدبير الذي قد أفسد عليك أهل العراق وألب عليك الناس، وما أتيت إلا من قلة عقله وضعف رأيه وقلة بصره بالسياسة، ولك والله أمثالها إن لم تعزله! فقال الحجاج: مه يا عمارة! فقال: لا مه ولا كرامة يا أمير المؤمنين، كل امرأة له طالق وكل مملوك له حر إن سار تحت راية الحجاج أبداً! فقال عبد الملك: ما عندنا أوسع لك، فلما انصرف عمارة إلى منزله بعث إليه الحجاج وقال: أنا أعلم أنه ما خرج هذا عنك إلا معتبة ولك عندي الغنى ولك ولك. فأرسل إليه: ما كنت أظن أن عقلك على هذا. أرجع إليك بعد الذي كان من طعني وقولي عند أمير المؤمنين! لا ولا كرامة لك.

وعن الهيثم بن الحسن بن عمارة قال: قدم شيخ من خراطة أيام المختار فنزل على عبد الرحمن بن أبرى الخراعي، فلما رأى ما تصنع شيعة المختار به من الإعظام له جعل يقول: يا عباد الله أبا المختار يصنع هذا؟ والله لقد رأيت تبيع الإماء بالحجاز! فبلغ ذلك المختار فدعا به فقال: ما هذا الذي يبلغني عنك؟ قال: الباطل، فأمر بضرب عنقه، فقال: لا والله لا تقدر على ذلك! قال: ولم؟ قال: أما دون أن أنظر إليك وقد

فتحت مدينة دمشق حجراً حجراً وقتلت المقاتلة وسيبت الذرية ثم تصلبني على شجرة على نهر! والله إني لأعرف الشجرة الساعة وأعرف شاطيء ذلك النهر! قال: فالنفت المختار إلى أصحابه فقال لهم: أما إن الرجل قد عرف الشجرة، فحبس حتى إذا كان الليل بعث إليه فقال: يا أخا خزاعة ومزاح عند القتال! فقال: أنشدك الله أن أقتل ضياعاً! قال: وما تطلبها هنا؟ قال: أربعة آلاف درهم أقضي بها ديني. قال: ادفعوها إليه وإياك أن تصبح بالكوفة، فقبضها وخرج.

وعنه قال: كان سراقه البارقي من ظرفاء أهل المدينة فأسره رجل من أصحاب المختار فأتى به المختار وقال: أسرت هذا، فقال: كذبت والله ما أسرتي هذا إنما أسرتي رجل عليه ثياب بيض على فرس أبلق! فقال المختار: أما إن الرجل قد عاين، يعني الملائكة، خلّوا سبيله، فلما أفلت أنشأ يقول:  
ألا أبلغ أبا إسحاق عني ... رأيت الدُّهم بلقاً مصمات  
أري عيني ما لم تبصراه ... كالانا مولعٌ بالترهات  
كفرت بدينكم وجعلت نذراً ... عليّ قتالكم حتى الممات

وعنه قال: خرج الأخص بن جعفر المخرومي يتغدى في دير اللجّ وذلك في يوم شديد البرد ومعه حمزة بن بيض وسراقه البارقي، فلما كانا على ظهر الكوفة وعليه الوبر والخز وعليهما أطمار قال حمزة لسراقه: أين يذهب بنا هذا في هذا البرد ونحن في أطمارنا؟ قال سراقه: أن أكفكيه. فبينما هو يسير إذ لقيهم راكب مقبل فحرك سراقه دابته نحوه وافقه ساعةً ولحق بالأخص، فقال: ما خبرك به الراكب؟ قال: زعم أن خوارج خرجت بالقططانة، قال: بعيد. قال: إن الخوارج تسير في ليلة ثلاثين فرسخاً وأكثر، وكان الأخص أحد الجبناء فثنى رأس دابته وقال: ردوا طعامنا نتغدى في المنزل، فلما حاذى منزله قال لأصحابه: ادخلوا، ومضى إلى خالد بن عبد الله القسري فقال: قد خرجت خارجة بالقططانة، فنادى خالد في العسكر فجمعهم ووجه خيلاً تركض نحو دير اللج لتعرف الخبر، فانصرفوا وأعلموه أنه لا أصل للخبر، فقال للأخص: من أعلمك هذا؟ قال: سراقه، قال: وأين هو؟ قال: في منزلي، فأرسل إليه من أتاه به فقال: أنت أخبرته عن الخارجة؟ قال: ما فعلت أصلح الله الأمير، فقال له الأخص: أوتكذبن بين يدي الأمير؟ قال خالد: ويحك اصدقني! قال: نعم أخرجنا في هذا البرد وقد ظاهر الخز والوبر ونحن في أطمارنا هذه فأحببت أن أرد، فقال له خالد: ويحك وهذا مما يتلاعب به؟! وكان سراقه ظريفاً شاعراً وهو الذي يقول:

قالوا سراقه عتيت فقلت لهم: ... الله يعلم أي غير عتيت

فإن ظننتم بي الشيء الذي زعموا ... فقربوني من بنت ابن يامين

وذكروا أن شبيب بن يزيد الخارجي مر بسلام مستنقع في ماء الفرات فقال له: يا غلام اخرج إليّ أسألك، فعرفه الغلام، فقال: إني أخاف، أفأمن أنا إن خرجت حتى ألبس ثيابي؟ قال: نعم، فخرج وقال: والله لا ألبسها اليوم، فضحك شبيب وقال: خدعني ورب الكعبة! ووكل به رجلاً من أصحابه يحفظه ألا يصيبه أحد من أصحابه بمكروه.

قال: وكان رجل من الخوارج قال في قصيدة له:

ومنا يزيد والبطين وقعب ... ومنا أمير المؤمنين شبيب

فسار البيت حتى سمعه عبد الملك بن مروان فأمر بطلب قائله، فأُتي به، فلما وقف بين يديه قال: أنت القاتل: ومنا أمير المؤمنين شبيب؟ قال: لم أقل هكذا يا أمير المؤمنين، قال: فكيف قلت؟ قال: قلت ومنا أمير المؤمنين شبيب، فضحك عبد الملك وأمر بتخليه سبيله، فخلص بجملته وفطنته لإزالة الإعراب عن الرفع إلى النصب.

وزعموا أن عمرو بن معدي كرب الزبيدي هجم في بعض غاراته على شابة جميلة منفردة فأخذها، فلما أمعن بها بكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: أبكي لفرق بنات عمي، كن مثلي في الجمال وأفضل مني، خرجت معهن فانقطعنا عن الحي، قال: وأين هن؟ قالت: خلف ذلك الجبل ووددت إذ أخذتني أخذتني، فأخذ إلى الموضع الذي وصفته فما شعر بشيء حتى هجم على فارس شاك في السلاح فعرض عليه المصارعة فصرعه الفارس ثم عرض عليه ضرباً من المناوشة فغلبه الفارس في كلها، فسأله عمرو عن اسمه فإذا هو ربيعة بن مكدم، فاستنقذ الجارية منه.

وعن عطاء أن مخارق بن عفان ومعن بن زائدة لقياً رجلاً ببلاد الشرك ومعه جارية لم يريا مثلها شاباً وجمالاً فصاحا بما ليخلي عنها، ومعه قوس فرمى وهابا الإقدام عليه، ثم عاد ليرمي فانقطع وتره وسلم الجارية وأسند في جبل كان قريباً منه، فابتدرا الجارية وفي أذنها قرط فيه درة فانزعه بعضهما من أذنها، فقالت: وما قدر هذا؟ لو رأيتما درتين معه في قلنسوته، وفي القلنسوة وتر قد أعده فنسيه من الدهش! فلما سمع قول المرأة ذكر الوتر فأخرجه وعقده في قوسه، فوليا ليست لهما همة إلا النجاء وخليا عن الجارية.

قيل: واستودع رجل رجلاً مالاً ثم طالبه به فجحده، فخاصمه إلى إياس بن معاوية القاضي وقال: دفعت إليه مالاً في مكان كذا وكذا، قال: فأني شيء كان في ذلك الموضع؟ قال: شجرة، قال: فانطلق إلى ذلك الموضع وانظر إلى تلك الشجرة فلعل الله أن يوضح لك هناك ما تبين به حَقُّك أو لعلك دفنت مالك عند الشجرة فسيت فتذكر إذا رأيت الشجرة، فمضى، وقال إياس للمطلوب منه: اجلس حتى يرجع صاحبك، فجلس وإياس يقضي وينظر إليه بين كل ساعة ثم قال: ترى صاحبك بلغ موضع الشجرة؟ قال: لا، فقال: يا عدو الله أنت الخائن! قال: أقلني أقالك الله! فأمر بحفظه حتى جاء خصمه فقال له: خذ بحقك فقد أقر.

قال: واستودع رجل رجلاً كيساً فيه دنانير فغاب وطالت غيبته فشقَّ المستودع الكيس من أسفله وأخذ الدنانير وجعل مكانها دراهم وخيطه والخاتم على حاله، فجاء الرجل بعد ست عشرة سنة فقال: مالي. وطالب به، فأعطاه الكيس بخاتمه، فنظر إليه وإذا ماله دراهم، فأحضره مجلس إياس، فقال إياس للطالب: ماذا تقول؟ قال: أعطيته كيساً فيه دنانير، فقال: منذ كم؟ قال: فإذا ست عشرة سنة، قال: فضاً الخاتم، ففضاه، فقال: انثرا ما فيه، فنثراه، فإذا هي دراهم بعضها من ضرب عشر سنين وأكثر وأقل، فأقر بالدنانير وألزمه إياها حتى خرج منها.

قال: وأودع رجل رجلاً من أمناء إياس مالاً وحج، فلما رجع طالبه فجحده، فأتى إياساً فأخبره، فقال: أتعلم أنك أخبرت غيري بذلك؟ قال: لا، قال: فهل علم أنك أعلمتني؟ قال: لا، قال: أفنازعتك بحضرة أحد؟ قال: لا، قال: فانصرف واكتب أمرك ثم عد إلي، ودعا إياس أمينه ذلك فقال: قد حضر مال كثير وقد

رأيت أن أودعك إياه وأصيره عنك فارتد له موضعاً وأتني بمن يحمله معك. فمضى الأمين، وعاد الرجل إلى إياس فقال له: انطلق إلى صاحبك فطالبه بمالك فإن أعطاك وإلا فقل إنك تعلمني، فأتاه فقال له: اعطني مالي وإلا أتيت القاضي فأعلمته، فدفع إليه ماله، وصار إلى إياس فقال: قد رد مالي عليّ، وجاء الأمين إلى إياس في مواعده فانتهره وقال: اخرج عني يا خائن.

قال: وأراد معاوية أن يوجه ابنه يزيد إلى غزو الصائفة وكره يزيد ذلك وأنشأ يقول:

تجّيتي لا تزال تعدّ ذنباً... لتقطع وصل حبلك عن حبال  
فيوشك أن يريحك من أذاتي... نزولي في المهالك وارتحالي

وخرج وخرج الناس معه، وفيمن خرج أبو أيوب الأنصاري، فلما قرب من قسطنطينية اشتكى أبو أيوب فأتاه يزيد عانداً، فقال له: ما حاجتك؟ قال: أما دنياكم فلا حاجة لي فيها ولكن سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: يدفن بجنب قسطنطينية رجل صالح وقد رجوت أن أكونه فقدمني ما قدرت عليه، فمات فلما فرغ من جهازه ووضع على سريره قدم الكتائب بين يديه، فنظر قيصر ورأى أمراً عجيباً وشيئاً يحمل والناس بالسلاح تحته، فأرسل إليه: ما هذا الذي نرى؟ قال يزيد: هذا صاحب نبينا، صلى الله عليه وسلم، أوصى أن ندفنه إلى جنب مدينتكم ونحن ننفذ وصيته أو نموت دونه، فأرسل إليه: العجب من الناس! وماذكرونه من دهاء أيك وهو يبعثك في هذا البعث تدفن نيك بجنب مدينتي فإذا وليت عنه نبشته فطرحته للكلاب، فأرسل إليه يزيد: إني ما أردت أن أجنّته حتى أودع مسامعك كلامي، وكفرت بالذي أكرمت له هذا الميت، لئن تعرضت له لا تركت في أرض العرب نصرانياً إلا سفكت دمه واستصفيت ماله وسبيت حرمه، فأرسل إليه قيصر: كان أبوك أعرف لك مني وإني أحلف بحق المسيح، عليه السلام، لا يحرسه سنة أحد غيري.

وعن بعض مشايخ المدينة قال: كانت عند عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، رضوان الله عليهما، جارية مغنية يقال لها عُمارة، فلما وفد عبد الله على معاوية خرج بها معه فراره يزيد ذات يوم وأقام عنده، فأخرجها إليه فلما نظر إليها وسمع غناءها وقعت في نفسه فأخذ عليها ما لم يملك نفسه معه وجعل يمنعها من أن يوح به مكان أبيه مع يأسه من الظفر بها، فلم يزل يكاتمه إلى أن مات معاوية وأفضى إليه الأمر وتقلد الخلافة يزيد، فاستشار بعض من يتق به في أمرها فقال: إن أمر عبد الله لا يرام، وأنت لا تستجيز إكراهه ولا يبيعها بشيء أبداً وليس يغني في هذا الأمر إلا الحيلة، قال: اطلب لي رجلاً عاقلاً من أهل العراق ظريفاً أديباً له معرفة ودراية، فطلبوه فأتوه به، فلما دخل عليه استطقه فرأى بياناً وحلاوة وفقهاً، فقال له: إني دعوتك لأمر إن ظفرت به فهو حظوتك آخر الدهر ويدّ أكافيك عليها، ثم أخبره بأمره، فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد الله بن جعفر ما يرام ما قبله إلا بالخدعة وإن يقدر على ما سألت رجلاً فأرجو أن أكونه والقوة بالله، فأعني يا أمير المؤمنين بالمال، قال: خذ ما أحبيت، فأخذ واشترى من طرف الشام وثياب مصر ومنتاعها للتجارة ومن الرقيق والدواب وغير ذلك حاجته وشخص إلى المدينة فأناخ بعرضة عبد الله بن جعفر واكترى منزلاً إلى جانبه ثم توسل إليه وقال: أنا رجل من أهل العراق وقدمت بتجارة فأحبيت أن أكون في جوارك وكنفك إلى

أن أبيع ما جئت به، فبعث عبد الله إلى قهارمته وقال: أكرموا جارنا وأوسعوا عليه المنزل، فلما اطمأن العراقي وسلم عليه أياماً وعرفه نفسه هيأ له بغلة فارهة وثياباً من ثياب العراق وألطافاً وبعث بها إليه وكتب رقعة يقول فيها: يا سيدي أنا رجل تاجر ونعمة الله عليّ سابعة وعندني احتمال وقد بعثت إليك بشيء من اللطف وهو كذا ومن الثياب والعطر وبعثت إليك ببغلة خفيفة العنان وطية الظهر فاتخذها لرحلك وأنا أسألك بقربانتك من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلا قبلت هديتي ولم توحشني بردها فأني أدين الله عز وجل بحبك وحب أهل بيتك، وإن أفضل ما في سفري هذا أن أستفيد الأناجيد بك وأتشف بمواصلتك، وأمر عبد الله بقبض هديته وخرج إلى الصلاة، فلما رجع مرّ بالعراقي في منزله فقام إليه وقبل يده وسلم عليه واستكثر منه، فرأى أدياً وظرفاً وحلاوة وفصاحة فأعجب به وسرّ بنزوله عليه، فجعل العراقي يبعث كل يوم بلطف إلى عبد الله وبطرف، فقال عبد الله: جرى الله ضيفنا هذا خيراً فقد ملأنا شكرياً وأعياناً عن مجازاته، فإنهما لكذلك إذ دعاه عبد الله ودعا بعمارة وجواريه، فلما تعشيا وطاب لهما وسمع غناء عمارة تعجب وجعل يزيد في عجبه إذ رأى ذلك يسرّ عبد الله إلى أن قال له: رأيت مثل عمارة؟ قال: لا والله يا سيدي ما رأيت مثلها وما تصلح إلا لك وما ظننت أنه يكون في الدنيا مثل هذه حسن وجهه وحذق عمله!

قال: كم تساوي عندك؟ قال: ما لها ثمن إلا الخلافة، قال: تقول هذا لما ترى من رأيي فيها ولتجلب سروري! قال: والله يا سيدي إني لأحب سرورك وما قلت لك إلا الجدد، وبعد فأني رجل تاجر أجمع الدرهم إلى الدرهم طلباً للريح ولو أعطيتها بعشرة آلاف دينار لأخذتها، قال عبد الله: بعشرة آلاف دينار؟ قال: نعم، ولم يكن في ذلك الزمان جارية بعشرة آلاف دينار، فقال عبد الله كالملاح: أنا أبيعكها بعشرة آلاف دينار! قال: قد أخذتها، قال: هي لك، قال: قد وجب البيع، وانصرف العراقي. فلما أصبح لم يشعر عبد الله إلا والمال قد وافاه، فقال عبد الله: بعث العراقي بالمال؟ قالوا: نعم بعشرة آلاف دينار وقال هذه ثمن عمارة، فردها إليه وقال: إنما كنت أمزح معك وما أعلمك أن مثلي لا يبيع مثلها، قال: جعلت فداك إن الجد والهزل في البيع سواء! قال له عبد الله: ويحك لا أعلم موضع جارية تساوي ما بذلت ولو كنت بائعها من أحد لآثرتك ولكني كنت أمازحك وما أبيعها بملك الدنيا لحرمتها بي وموقعها من قلبي، قال له العراقي: فإن كنت مازحاً فأني كنت جاداً، وما اطلعت على ما نفسك، وقد ملكت الجارية وبعثت بالثمن وليست تحل لك وما من أخذها بدّ، فمنعه إياها، فخرج العراقي وهو يقول: أستحلفك في مجلس أمير المؤمنين، فلما رأى عبد الله الجد منه قال: بئس الضيف! ما طرفنا طارق ولا نزل بنا ضيف أعظم بلية علينا منك، تحلفني فيقول الناس اضطهده

وقهره وأجلاه إلى أن استحلفه، أما والله ليعلمنّ أي سألني في هذا الأمر الصبر وحسن العزائم وجميل العزاء! ثم أمر قهرمانه بقبض المال وتجهيز الجارية بما يشبهها من الثياب والخدم والطيب والمركب، فجهزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار، ثم سلمها إلى قهرمانه وقال: أوصل الجارية إليه مع ما معها وقل هذا لك ولك عندنا عوضٌ مما أطفئنا به، فقبض العراقي الجارية وخرج، فلما برز من المدينة قال لها: يا عمارة إني والله ما ملكتك قطّ ولا أنت لي ولا مثلي يشتري جارية بعشرة آلاف دينار، وما كنت لأقدم على عبد الله بن جعفر

فأسلبه أحب الناس إليه لنفسه ولكني دسيس من قبل أمير المؤمنين يزيد وأنت له وفي طلبك بعثني فاستتري مني فإن دخلني الشيطان في أمرك أو تآقت نفسي إليك فامتنعي، ثم مضى بها حتى ورد دمشق فتلقيه الناس يحملون جنازة يزيد وقد استخلف ابنه معاوية، فأقام الرجل أياماً ثم تطف لل دخول عليه فشرح له القصة، فقال: هي لك، فارتحل العراقي وقال للجارية: إني قلت لك ما قلت حين أخرجتك من المدينة لأني لم أملكك وقد صرت الآن لي وأنا أشهدك أني قد وهبتك لعبد الله بن جعفر، فخرج بها حتى قدم المدينة فنزل قريباً من عبد الله، فدخل عليه بعض خدمه فقال: هذا العراقي ضيفك الصانع بنا ما صنع لا حياه الله قد نزل! فقال: مه أنزلوا الرجل واكرموا مثواه، فأرسل إلى عبد الله: إن أذنت، جعلت فداك، لي في الدخول عليك دخلة خفيفة أشافهك فيها بحاجتي وأخرج. فأذن له، فلما دخل عليه خبّره بالقصة وحلف له بالخروج من الأيمان أنه ما رأى لها وجهاً إلا عنده وها هي ذه، فأدخلها الدار، فلما رآها أهل الدار والحشم تصايحوا ونادوا: عمارة عمارة! فلما رأت عبد الله خرت مغشياً عليها، وجعل عبد الله يمسح وجهها بكمه ويقول: يا حبيبي أحلم هذا؟ فقال له العراقي: بل ردها الله إليك بوفاتك وكرمك، فقال عبد الله: قد علم الله كيف كان الأمر، فالحمد لله على كل حال، ثم أمر ببيع عير له بثلاثة عشر ألف دينار وأمر بما للعراقي، فانصرف إلى العراق وافر العرض والمال. هره وأجاء إلى أن استخلفه، أما والله ليعلمنّ أني سأبلي في هذا الأمر الصبر وحسن العزائم وجميل العزاء! ثم أمر قهرمانه بقبض المال وتجهيز الجارية بما يشبهها من الثياب والخدم والطيب والمركب، فجهزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار، ثم سلمها إلى قهرمانه وقال: أوصل الجارية إليه مع ما معها وقل هذا لك ولك عندنا عوضٌ مما ألطفنا به، فقبض العراقي الجارية وخرج، فلما برز من المدينة قال لها: يا عمارة إني والله ما ملكتك قطّ ولا أنت لي ولا مثلي يشتري جارية بعشرة آلاف دينار، وما كنت لأقدم على عبد الله بن جعفر فأسلبه أحب الناس إليه لنفسه ولكني دسيس من قبل أمير المؤمنين يزيد وأنت له وفي طلبك بعثني فاستتري مني فإن دخلني الشيطان في أمرك أو تآقت نفسي إليك فامتنعي، ثم مضى بها حتى ورد دمشق فتلقيه الناس يحملون جنازة يزيد وقد استخلف ابنه معاوية، فأقام الرجل أياماً ثم تطف لل دخول عليه فشرح له القصة، فقال: هي لك، فارتحل العراقي وقال للجارية: إني قلت لك ما قلت حين أخرجتك من المدينة لأني لم أملكك وقد صرت الآن لي وأنا أشهدك أني قد وهبتك لعبد الله بن جعفر، فخرج بها حتى قدم المدينة فنزل قريباً من عبد الله، فدخل عليه بعض خدمه فقال: هذا العراقي ضيفك الصانع بنا ما صنع لا حياه الله قد نزل! فقال: مه أنزلوا الرجل واكرموا مثواه، فأرسل إلى عبد الله: إن أذنت، جعلت فداك، لي في الدخول عليك دخلة خفيفة أشافهك فيها بحاجتي وأخرج. فأذن له، فلما دخل عليه خبّره بالقصة وحلف له بالخروج من الأيمان أنه ما رأى لها وجهاً إلا عنده وها هي ذه، فأدخلها الدار، فلما رآها أهل الدار والحشم تصايحوا ونادوا: عمارة عمارة! فلما رأت عبد الله خرت مغشياً عليها، وجعل عبد الله يمسح وجهها بكمه ويقول: يا حبيبي أحلم هذا؟ فقال له العراقي: بل ردها الله إليك بوفاتك وكرمك، فقال عبد الله: قد علم الله كيف كان الأمر، فالحمد لله على كل حال، ثم أمر ببيع عير له بثلاثة عشر ألف دينار وأمر بما للعراقي، فانصرف إلى العراق وافر العرض والمال.

أبو محارب قال: قال معاوية بن أبي سفيان: إن عمرو بن العاص قد احتجنا عنا خراج مصر، فعزله واستعمل أبا الأعور السلمي، فبلغ عمراً الخبز فدعا وردان مولاه وقال له: ويحك عزلني أمير المؤمنين! قال: فمن استعمل؟ قال: أبا الأعور، قال: دعني وإياه أصنع له طعاماً ولا ينظر في كتابه حتى يأكل، قال: نعم، فلما قدم عليه أخرج الكتاب بتسليم العمل إليه، فقال عمرو: ما تصنع بالكتاب؟ لو جئتنا برسالة لقبنا ذلك منك، فقال وردان: ضع الكتاب وكل، فقال أبو الأعور لعمرو: انظر في الكتاب، قال: ما أنا بناظر فيه حتى تأكل، فوضعه إلى جانبه وجعل يأكل، فاستدار وردان فاتخذته، فلما فرغ أبو الأعور من غدائه طلب الكتاب فلم يجده فقال: أين كتابي؟ فقال له عمرو: أوليس جئتنا زائراً لنحسن إليك؟ قال: بل استعملني أمير المؤمنين وعزلك! قال: مهلاً لا يظهرن هذا منك فإنه قبيح ونحن نصلك ونحسن إليك، فرضي بالصلة، وبلغ معاوية الخبر فاستضحك وتعجب من فعله وأقرّ عمراً على عمله.

وعن الشعبي قال: كتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية، وكان خاف العزل: قد كبرت سني ورق عظمي واقترت أجلي وسفهني سفهاء قريش وأمير المؤمنين أولى بعمله. فكتب إليه معاوية: أما ما ذكرت من كبر سنك فأنت أكلت عمرك، وأما اقتراب أجلك فلو أستطيع دفع الموت عن أحد دفعته عن نفسي وعن آل أبي سفيان، وما ذكرت من سفهاء قريش فحلماؤها أنزلتكم هذه المنزلة، وأما العمل فاصبر رويداً يدرك الهيجاء حمل. فاستأذنه في القدوم عليه فأذن له، فوافاه، فقال له معاوية: يا مغيرة كبرت سنك واقترت أجلك ولم يبق منك شيء وسأستبدل بك، فانصرف فرأى أصحابه الكآبة في وجهه فقالوا: ما لك؟ قال: قال لي كيت وكيت، قالوا له: فما تريد أن تصنع؟ قال: ستعلمون، قال: فأتى معاوية فقال له: يا أمير المؤمنين إن الإنسان يغدو ويروح، ولست في زمن أبي بكر ولا عمر، فلو أنك نصبت لنا إنساناً نصير إليه بعدك، كان الرأي على أبي قد كنت دعوت أهل العراق إلى يزيد، قال: يا أبا محمد انصرف إلى عملك واحكم هذا الأمر لابن أخيك. قال: فأقبل على البريد يركض وقال: قد والله وضعت رجله في ركاب طويل الركض، قال: فذاك هو الذي بعث معاوية على أخذ البيعة ليزيد.

مساوي العيّ وضعف العقل

قال ثمامة صاحب الكلام: كان المؤمن قد همّ بلعن معاوية وأن يكتب بذلك كتاباً في الطعن عليه، قال: ففتأه عن ذلك يحيى بن أكنم وقال: يا أمير المؤمنين العامة لا تحمل هذا ولا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن يكون لهم نفرةً ونبوةً لا تستقال ولا يُدرى ما تكون عاقبتها، والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة وآمن في العاقبة وأجرى في التدبير، فركن إلى قوله، فلما دخلت عليه قال: يا ثمامة قد علمت ما كنا دبرناه في أمر معاوية وقد عارضنا رأياً هو أصلح في تدبير المملكة وأبقى ذكراً في العامة، ثم أخبرني أن يحيى بن أكنم حدّره وأخبره بنفور العامة عن مثل هذا الرأي، فقلت: يا أمير المؤمنين والعامة عندك في هذا الموضوع الذي وضعها فيه يحيى، والله لو بعثت إليها إنساناً على عاتقه سواداً ومعه عصاً لساق إليك منها عشرة آلاف! والله يا أمير المؤمنين ما رضي الله جل وعز أن سواها بالأنعام حتى جعلها أضل سبيلاً، فقال تبارك وتعالى: " أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو



يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً " ، والله لقد مررت يا أمير المؤمنين منذ أيام في شارع الخلد وأنا أريد الدار فإذا إنسان قد بسط كساءه وألقى عليه أدوية وهو قائم ينادي: هذا الدواء للبياض في العين والغشاوة والظلمة وضعف البصر، وإن إحدى عينيه لمطموسة والأخرى مؤلمة، وقد تألبوا عليه واحتفلوا إليه، فتزلت عن دابتي ودخلت بين تلك الجماعة فقلت: يا هذا أرى عينيك أحوج الأعين إلى العلاج وأنت تصف هذا الدواء وتخبّر أنه شفاء! فما بالك يا هذا لا تستعمله؟ قال: أنا في هذا الموضع منذ عشرين سنة ما رأيت شيئاً قط أجهل منك ولا أحق! قلت: وكيف ذاك؟ قال: يا جاهل أتدري أين اشتكت عيني؟ قلت: لا، قال: بمصر، فأقبل عليّ الجماعة فقالت: صدق والله أنت جاهل، وهّموا بي، فقلت: والله ما علمت أن عينه اشتكت بمصر! فتخلصت منهم بهذه الحجة. قال: فضحك المأمون وقال: ما لقيت من الله جل ذكره من سوء الثناء وقبح الذكر أكثر، قلت: أجل.

وقيل: إنه كان رجل من المعتزلة وكان له جار يرى رأي الخوارج، وكان كثير الصلاة والصيام حسن العبادة، فقال المعتزلي لرجلين من أصحابه: مرّا بنا إلى هذا الرجل فنكلمه لعل الله جل وعز ينقذه من الهلكة بنا ويهديه من الضلالة، فأتوه وكلموه فأصغى إلى كلامهم، فلما سكتوا انتعل وقام ومعه القوم حتى وقف على باب المسجد فرفع صوته بالقراءة واجتمع إليه الناس، وقعد الرجل وصاحبه، فقرأ ساعة حتى أبكى الناس ثم وعظ فأحسن ثم ذكر الحجاج فقال: أحرق المصاحف وهدم الكعبة وفعل وفعل فآلعه لعنه الله! فلعهن الناس ورفعوا أصواتهم، ثم قال: يا قوم وما علينا من ذنوب الحجاج ومن أن يغفر الله عز وجل له ولنا معه فإننا كلنا مذنبون، لقد كان الحجاج غيوراً على حرم المسلمين تاركاً للغدر ضابطاً للسييل عفيفاً عن المال لم يتخذ ضيعةً ولم يكن له مال فما علينا إن نترحم عليه فإن الله عز وجل رحيم يحب الرحمين، ثم رفع يده ودعا بالمغفرة للحجاج ورفع القوم أيديهم وارتفعت الأصوات بالاستغفار ملياً، قال الرجل المعتزلي وهو يلاحظني، فلما فرغ وانصرف ضرب بيده إلى منكبي وقال: هل رأيت مثل هؤلاء القوم لعنوه واستغفروا له في ساعة واحدة، أنهى عن دماء أمثال هؤلاء؟ والله لأجاهدكم مع كل من أعانني عليهم.

### محاسن التيقظ

قيل: كان أردشير من أشد خلق الله فحماً وبحثاً عن سرائر خاصته وعامته وإذكاءً للعيون عليهم وعلى الرعية، وكان يقول: إنما سمي الملك راعياً ليفحص عن دفتان رعيته، ومتى غفل الملك عن تعرفه ذلك فليس له من رسم الراعي إلا اسمه ومن الملك إلا ذكره، ويقال: إنه كان يصبح فيعلم كل شيء جرى في دار مملكته خير أم شر ويمسي فيعلم كل شيء أصبحوا عليه، فكان متى شاء قال لأرفعهم وأوضعهم: كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت، ثم يحدثه بكل ما كان فيه إلى أن أصبح، وكان بعضهم يقول: يأتيه ملك من السماء فيخبره، وما كان ذلك إلا لتيقظه وكثرة تعهده لأمر رعيته.

ويقال: إن الأمم كلها، أولها وآخرها، قديمها وحديثها، لم تخف ملوكها خوفها أردشير من ملوك العجم وعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من ملوك العرب والإسلام، فإن عمر، رضي الله عنه، كان علمه بمن نأى

من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه على مهاد، فلم يكن له في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي أمير ولا عامل إلا وله عليه عين لا يفارقه، فكان أخبار النواحي كلها عنده كل صباح ومساء، حتى إن العامل كان يتوهم على أقرب الخلق إليه وأخصهم به، فساس الرعية سياسة أردشير في الفحص عنها وعن أسرارها، ثم اقتفى معاوية فعله وطلب أثره، فاتنظم له أمره وطالت في الملك مدته.

وكذا كان زياد بن أبي سفيان يحتدي فعل معاوية كاحتذاء معاوية فعل عمر، رحمه الله، في تعرف أمور رعيته وممالكه، وفي ما يُحكى عنه أن رجلاً كلمه في حاجة له فتعرف إليه وهو يظن أنه لا يعرفه فقال: أصلح الله الأمير، أنا فلان بن فلان. فتبسم زياد وقال: أنت تعرف إلي وأنا أعرف منك بنفسك؟ والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأمك وجدك وجدتك وأعرف هذا البُرد الذي عليك وهو لفلان! فهت الرجل وأرعد حتى كاد يغشى عليه.

وعلى هذا كان عبد الملك بن مروان والحجاج ولم يكن بعد هؤلاء الثلاثة أحد في مثل هذه السياسة حتى ملك المنصور فكان أكبر الأمور عنده معرفة الرجال حتى عرف العدو من الولي والموادع والمسلم من المشاغب فساس الرعية على ذلك، ثم درست هذه السياسة حتى ملك الرشيد فكان أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً.

وعلى هذا كان المأمون في أيامه، والدليل على أمر المأمون رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء وأصحاب الحديث وهو بالشام خبر فيها عن عيب واحد واحد وعن نخلته وعن أموره التي خفيت أو أكثرها على القريب والبعيد، ولم يكن أحد من ذوي السلطان الأعظم أشد فحماً وبحثاً عن أمور الناس حتى بلغ هذا المبلغ في الاستقصاء وجعله أكبر شُغله وأكثره في ليله ونهاره من إسحاق بن إبراهيم.

حدثني موسى بن صالح بن شيخ قال: كلمته في امرأة من بعض أهلنا وسألته النظر لها فقال: يا أبا محمد من قصة هذا المرأة ومن فعلها، قال: فوالله ما زال يحدثني ويخبرني عن قصتها ويصف أحوالها حتى بُهت.

وحدث أبو البرق الشاعر قال: كان يجري عليّ أرزاقاً فدخلت عليه فقال بعد أن أنشدته: كم عيالك؟ تحتاج في كل شهر من الدقيق إلى كذا ومن الحطب إلى كذا، فأخبرني بشيء من أمر منزلي جهلت بعضه وعلمه كله.

وحدث بعض من كان في ناحيته قال: رفعت إليه قصة أسأله فيها أجراً وأرزاقاً، فقال: كم عيالك؟ فردت في العدد، فقال: كذبت، فهتّ وقلت: يا نفس من أين علم أي كذبت! فأقمت سنة أخرى لا أجسر على كلامه ثم رفعت إليه القصة، فقال: كم عيالك؟ فقلت: كذا، قال: صدقت، ووقع في القصة: يجري على عياله كذا وكذا.

ويقال: إن كسرى أبرويز كان نصب رجلاً يمتحن به من فسدت عليه نيته من رعيته وطعن في المملكة، فكان الرجل يُظهر التآله والدعاء إلى التخلي من الدنيا والرغبة في الآخرة وترك أبواب الملوك، وكان يقص على الناس ويبكيهم ويشوب كلامه في خلال ذلك بزم الملك وتركه شرائع ملته وسنن سيرته ودينه الذي كان عليه، وكان هذا الرجل يمثّل ما حدّه له أبرويز ليمتحن بذلك خاصته، وكان من يسعى يخبر أبرويز

بذلك، فيضحك ويقول: فلان في عقله ضعف وأنا أعلم أنه وإن كان يتكلم بما يتكلم لا يقصدني بسوء ولا المملكة بما يوهنها، ويظهر الاستهانة بأمره والثقة به والطمأنينة إليه، ثم توجه إليه في خلال ذلك من يدعوه فيأبى أن يجيبه ويقول: لا ينبغي لمن خاف الله أن يخاف أحداً سواه، فكان الطاعن على الملك والمملكة يكثر الخلوقة بهذا الرجل والزيارة له والأنس به، فإذا خلوا تذاكرا أمر الملك فابتدأ الناسك فطعن فيه وأعانته الخائن وطابقه على ذلك وشايعه، فيقول الناسك: إياك وأن يظهر هذا الجبار على كلامك فإنه لا يحتمل لك ما يحتمله لي، فحصى منه دمك، فيزداد الآخر إليه استنامة وبه ثقة، فإذا علم الناسك أنه قد بلغ من الطعن على الملك ما يستوجب به العقوبة في الشريعة قال لمن بحضرتة: إني قاعد غداً مجلساً للناس أقص عليهم فاحضروه، ويقول لمن هو أشد به ثقة: احضر أنت فإنك رجل رقيق عند الذكر حسن النية ساكن الريح بعيد الصوت وإن الناس إذا رأوك قد حضرت زادت نياتهم خيراً وسارعوا إلى استجابتي، فيقول الرجل: إني أخاف من هذا الجبار فلا تذكره إن حضرت، وكانت العلامة بينه وبين أبرويز أن أبرويز قد كان وضع عيوناً يحضرون متى جلس، فكان الناسك يقص على العامة ويهد في الدنيا ويرغب في الآخرة والخائن حاضر، فيأخذ الناسك في ذكر الملك، فينهض الخائن، وتحيء عيون أبرويز فتخبره بما كان، فإذا زال الشك عنه في أمره وجهه إلى بعض البلدان وكتب إلى عامله: قد وجهت إليك برجل وهو قادم عليك بعد كتابي هذا فأظهر بره والأنس به والثقة إليه والسكون إلى ناحيته فإذا اطمأنت به الدار فاقتله قتلة تحيي بها بيت النار وتصل بها حرمة النوبهار، فإن من فسدت نيته بغير علة في الخاصة والعامة لم يصلح بعله، ومن فسدت نيته بعله صلحت بخلافها.

قال: وحدثنا الوضاح بن محمد بن عبد الله قال: سمعت أبا بديل بن حبيب يقول: كنا إذا خرجنا من عند أبي جعفر المنصور صرنا إلى المهدي وهو يومئذ ولي عهد، ففعلنا ذلك يوماً فأبرز لي المنصور يده فانكببت عليها فقبلتها، فضرب يدي بيده، فعلمت أنه لم يفعل ذلك إلا لشيء في يده، فوضع في يدي كتاباً صغيراً تستره الكف، فلما خرجت قرأت الكتاب فإذا فيه: إذا قرأت كتابي هذا فاستأذن إلى ضياعك بالري، فرجعت فاستأذنت فقلت: يا أمير المؤمنين ضياعي بالري قد اختلت ولي حاجة إلى مطالعتها. فقال: لا ولا كرامة، فخرجت ثم عدت إليه اليوم الثاني فكلمته، فردّ عليّ مثل الجواب الأول، فقلت: يا أمير المؤمنين إنما أردت صلاحها لأقوى بما على خدمتك، فقال: إذا شئت، فقلت: يا أمير المؤمنين فلي حاجة أذكرها. قال: قلت: احتاج إلى خلوة، فنهض القوم وبقي الربيع، فقلت أحلني، قال: ومن الربيع؟ قلت نعم، فتحنى الربيع فقال: إن جدت لي بدمك ومالك، فقلت: يا أمير المؤمنين وهل أنا ومالي إلا من نعمتك؟ حققت دمي ورددت عليّ مالي وآثرتني بصحبتك، فقال: إنه يهجس في نفسي أن المرار بن جهور على خلعي وليس لي غيرك لما أعرف بينكما فإظهار إذا صرت إليه الواقعة في التنقص لي حتى تعرف ما عنده فإذا رأيته يهجم بخلعي فاكتب إليّ ولا تكتبني على بريد ولا مع رسول ولا يفوتني خبرك في كل يوم فقد نصبت لك فلاناً القطن في دار القطن فهو يوصل كتبك، قال: فمضيت حتى أتيت الري فدخلت على مرّار فقال: أفلت؟ قلت: نعم والحمد لله، ثم أقبلت أونسه بالواقعة في المنصور حتى أظهر ما كان المنصور ظن به، فكتبت إليه بذلك، فلما وصلت منه

إلى ما أردت أتيت ضياعي ثم رجعت إليه بعد أيام، فقال: نَجَّكَ اللهُ من الفاجر؟ قلت: نعم، وأرجو أن تقع عينه عليّ أبداً، فكنت أعرض به فيزيديني مما عنده، ثم قال لي: هل لك أن تخرج إلى متنزه طيب؟ قلت: نعم، فخرجت أنا وهو نتساير حتى صرنا إلى موضع مشرف قد بنيت له عليه قبة، فأحدّ النظر إلى ما هناك ثم قال: يا أبا بديل أتري الفاجر يظن أني أعطيه طاعة أبداً ما عشت؟ اشهد أني قد خلعتك كما خلعت خفي هذا من رجلي! قال: فرجعت إلى منزلي وأنا في كل يوم أكتب بخبره، قال: وقد كنت أعددت تسعة فرسان من بني يربوع ورجلاً من بني أسد فوإطأهم أن نبطش به وكتبت إلى المصمغان أن يأتيه في جنده إلى الموضع الذي اتفقنا عليه، قال: وأخذ المرار الدواء في ذلك اليوم، وسبق إليه الأسدي بالخبر وقال: احذر فقد اتخذ لك كيت وكيت، قال: فدخلت عليه فإذا هو على كرسي، فعرفت الشر في وجهه والمنكر في نظره، فقال: هيه يا أبا بديل مع إكرامي لك أردت أن تقتلني؟ قال فتضاحكت وقلت: بلغ من مكروه أن دس إليك هذا الأسدي، لقد علمت فيك حيلته! ثم حرّكه بطنه فقام إلى الخلاء وقال: لا ترم، فلما ولى وثبت وخرجت مسرعاً، فقال الحاجب: أسرعت. قلت: نعم في حاجة للأمير، وركبت فرسي فرأيت القوم قد وافوا كلهم إلا الأسدي، فعلمت أنه صاحبي، فلما خرج سألت عني فأخبر بمضيي، فوجه خيلاً في طلبي، فمال اليربوعيون فدفعهم، ومضيت حتى صرت إلى المصمغان وكتبت إلى أبي جعفر المنصور كتاباً مكشوفاً، فكتب: إني قد عرفت ما وصفته وقد صح الأمر، ثم كتب إلى خازم بن خزيمة فصار إليه حتى أخذه.

علي بن بريهة الهاشمي قال: قال صاحب عذاب أبي جعفر: دعاني أبو جعفر المنصور ذات يوم وإذا بين يديه جارية صفراء وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها: ويلك اصدقيني فوالله ما أريد إلا الألفة ولئن صدقتني لأصلن الرحم ولأتابعن البر إليه، وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله وهي تقول: ما أعرف مكانه، ودعا بالدّهق وأمر به فوضع عليها فلما كادت نفسها أن تتلف قال: امسكوا عنها، وكره ما رأى وقال لأصحاب العذاب: ما دواء مثلها إذا صار إلى مثل حائها؟ قالوا: الطيب تشمه والماء البارد يصب على وجهها وتسقى السويق، فأمر لها بذلك وعالج بعضه بيده وقال لأصحاب العذاب: ألا أعلمتموني بما ينالها فأكف عنها؟ قالوا: قد علمنا أنها لا تقوى على هذا ولكننا هبنك، فما زالوا يردون عليها نفسها حتى أفاق، وأعاد عليها المسألة فأبّت إلا الجحود، فقال لها: أتعرفين فلانة الحجامة؟ فاسود وجهها وتغيرت، فقالت: نعم يا أمير المؤمنين تلك في بني سليم، قال: صدقت، هي والله أمّي ابنتها بمالي ورزقي يجري عليها في كل شهر وكسوة شتائها وصيفها، أمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرف أخباركم، ثم قال: أوتعرفين فلاناً البقال؟ قالت: نعم هو في بني فلان، قال: هو والله مضاري بخمسة دنانير أمرته أن يتاع بها كل ما يحتاج إليه من السويق فأخبرني أن أمةً لكم يوم كذا وكذا من شهر كذا صلاة المغرب جاءت تسأله حناء وورقاً، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ فقالت: كان محمد بن عبد الله في بعض ضياعه بناحية البقيع وهو يدخل الليلة فأردنا هذا لتتخذ منه النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب، فأسقط في يدها وأذعنت بكل ما أراد.

قيل: وإن أبا جعفر كتب في حمل عبد الله بن الحسن وأهل بيته من المدينة إلى حضرته، فلما أخرجوا كثر عليهم البكاء، فقال عبد الله: أفيقوا من البكاء وأوغلوا في الدعاء، فإني أشهد الله على ما أردت من إحياء الحق وإماتة الباطل، فجرى القدر بما جرى، فجدى الحسن والحسين قتلا بسم وسيف، فالحمد لله الذي جعل مناينا جهاداً ولم يجعلها مهاداً.

وأخبرنا إبراهيم بن السندي بن شاهك وكان من العلماء بأمر الدولة قال: قال لي المأمون: بُئيت أنك عالم بأمر الدولة ورجال الدعوة. قلت: ذلك الذي يلزمي يا أمير المؤمنين بعد الفرض أن أعرف أيام موالي ومحاسن ساداتي، قال: فهات ما عندك، ثم أنشأ يحادثني ويسألني عن أمور خفية لم تخطر ببالي قط، فكان منها أن قال: ما اسم أم قحطبة بن شبيب؟ قلت: لا أعلم، قال: لبابة بنت سنان. ثم قال: ما اسم أبي عون؟ قلت: لا أدري، قال: فلان. فوالله ما زال يسألني عن خفي أمر الدولة ولا يجد عندي جواباً ولا يزيدني على أن تبسم، فكلما فعل ذلك زاد في عيني وضعفت عند نفسي، قال فكان آخر ما قال: أخبرك أن بعض أهلنا ذات يوم رأت وهي حامل متمّ كأنه أتاها آتٍ في منامها فقال لها: يولد في هذه الليلة خليفة ويموت خليفة ويستخلف خليفة، فمات الهادي في تلك الليلة واستخلف الرشيد وولدت أنا.

وعن إبراهيم بن السندي بن شاهك قال: لما اختار يحيى بن أكثم العشرة من الفقهاء وأحضرهم مجلس المأمون للمذاكرة الفقه جعل له يوماً في الجمعة يحضرون مجلسه، فقال لي المأمون: يا إبراهيم احضر فلست بدون أكبرهم، فكنت أحضر، وكان قد اختار من أيام الجمعة يوم الثلاثاء، قال: فحضرت يوماً فلما أمسك المأمون عن المسائل نهض القوم، وكان ذلك إذنه بانصرافهم، فوثبت معهم، فقال بيده: مكانك يا إبراهيم، فقعدت وقام يحيى وساءه تخلفي، فقال لي ودخل إبراهيم بن المهدي: هات ذكر من في عسكرنا ممن يطلب ما عندنا بالرياء، فقلت ما عندي، وقال إبراهيم ما عنده، فقال: ما أرى عند أحد ما يبلغ إرادتي، ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره حتى والله لو كان قد أقام في رحل كل رجل حولاً لما زاد على معرفته، وقال: إنه كان مما حفظت عنه في ثلب أصحابه أنه قال: تسيح حميد الطوسي وصلاة قحطبة وصيام النوشجاني ووضوء بشر المريسي وبناء مالك بن شاهك المساجد وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر وجمع الحسين بن قريش القيامي وقصص مرجاً وصدقة علي بن هشام وحملان إسحاق بن إبراهيم في سبيل الله وصلاة أبي رجاء الضحى، فقال لي رجل من عظماء العسكر حين خرجنا من الدار: هل رأيت أو سمعت قط أعلم برعيته وأشد تنقيراً من هذا؟ قلت: اللهم لا! فحدثت بهذا الحديث بعض أهل الخطر، فقال: وما تصنع بهذا وقد كتب إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء بمعايهم رجلاً رجلاً حتى إنه أعلم بما في منازلهم منهم؟ قال: وحدثنا سليمان بن علي النوفلي قال: سمعت عمرو بن مسعدة يقول: قال لنا المأمون يوماً من الأيام: من أنبل من تعلمون نبلاً وأعفهم عفة؟ قال: فقلنا وأكثرنا، فبعضنا مدحه وقرظه وقدمه على كل خليفة وإمام وعددنا ما نعرف من مكارم الأخلاق، فقال: ما كمال المناقب إلا لبني هاشم غير أننا لم نردها ولا أردنا خلفاءها، قال علي بن صالح: اعرف القصة في عمر بن الخطاب، رحمه الله، فأشاح بوجهه وأعرض وذكر كلاماً ليس من جنس هذا الكتاب فنذكره، ثم قال: ذاك والله أبو العباس عبد الله بن طاهر دخل مصر وهي كالعروس الكاملة فيها خراجها وبها أموالها حمة ثم خرج عنها فلو شاء الله أن يخرج عنها بعشرة آلاف ألف دينار لفعل، ولقد كان لي عليه عين ترعاه، فكتب إلي أنه عرضت عليه أموال لو عرضت عليّ أو بعضها لشهرت إليها نفسي، فما علمته خرج عن ذلك البلد إلا وهو بالصفة التي قدمه فيها إلا مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس، فمن رأى أو سمع بمثل هذا الفتى في الإسلام؟ فالحمد لله الذي جعله غرس يدي وخرّيج نعمتي.

وقال بشر بن الوليد: كان والله المأمون الملك حقاً، ما رأيت خليفة قط كان الكذب عليه أشد منه على المأمون، وكان يحتمل كل آفة تكون بالإنسان إلا الكذب، قال فقال لي يوماً: صف لي أبا يوسف القاضي فإني لم أره، فوصفته له، فاستحسن صفته وقال: وددت أن مثل هذا محضرتنا فنتزين به، ثم أقبل عليّ وقال: ما في الخلافة شيء إلا وأنا أحسن أن أدبره وأبلغ منه حيث أريد وأقوى عليه إلا أمر أصحابك، يعني القضاة، وما ظنك بشيء يتحرج منه علي بن هشام ويتوقى سوء عاقبته ويكالب عليه الفقهاء وأهل التصنع؟ قال قلت: يا أمير المؤمنين ما أدري ما تقصده فأجيب عنه! قال: لكني أدريه وأدريك ولا والله ما تجيبني عنه ولا فيه بجواب مقنع، ثم قال: ولينا رجلاً أشرت به قضاء الأبلّة وأجرينا عليه في الشهر ألف

درهم وما له صناعة ولا تجارة ولا كان له مال قبل ولا يتنا إياه..... وولينا رجلاً آخر قضاء دمشق وأجرينا عليه ألف درهم في الشهر أشار به إلي محمد بن سماعة، فأقام بها أربعة عشر شهراً، فوجهنا من يتبع أمواله في السر والعلانية ويتعرف حاله، فأخبر أنه وجد ما ظهر من ماله في هذا المقدار من دابة وغلّام وجارية وفرش وأثاث قيمته ثلاثة آلاف دينار، وولينا رجلاً أشار به إلي فلان فما وند فأقام بها أربعة وعشرين شهراً، فوجهنا من يتبع أمواله فأخبرنا أن في منزله خدماً وخصياناً بقيمة ألف وخمسة مائة دينار سوى نتاج قد اتخذ، فهات ما عندك من الجواب! فقلت: ما عندي يا أمير المؤمنين جواب، قال: ألم أعلمك؟ ثم قال: وأكبر من هذا وأطم أي فرغت إلي علي بن هشام في رجل أوليه القضاء فقال: قد أصبت واحداً والله يشهد أنه سري ورجوت أن يكون بحيث أحب، قلت: فاغذ به علي، قال: أفعل، ثم غدا، فقلت: أين الرجل؟ فقال: لم أجده في الفقه بالموضع الذي يجب أن يتصل صاحبه بأمر المؤمنين، قال: فأنكرت عليه وأظهرت الغضب، فقال: يا أمير المؤمنين إن الرجل الذي ذكرته لك بالأمس هو علي بن مقاتل وكان عندي من أهل العفاف والستر، فانصرفت بالأمس على أن أحضره، فوجهت إليه وأنا لا أشك أنه سيظهر الكراهية في ما أراد له أمير المؤمنين وإن كان يستبطن غيرها ويستعفي كفعل من يتصنع أو يكره ذلك بالحقيقة، فلما جاعني ألقيت إليه الذي أردته له فما تمالك أن وثب فقبل رأسي، فعلمت أنه لا خير عنده وأنه لو كان من أهل الفضل والخير لعدّ الذي دعي إليه إحدى المصائب، فلم أر لنفسي أن أحضره ولا أن يستعان بمثله، فقلت: جزاك الله خيراً عن إمامك أحسن ما جرى امرأ عن إمامه وهم دينك ونفسك، قال بشر: فهتّ وانقطعت ولم أحر كلمة.... فقال: لا ولكن إن أردت العفيف النظيف الزاكي النقي الطاهر فقاضي الري هو بالحالة التي فارقت عليها والله ما غير ولا بدّل، فأما قولكم في يحيى بن أكثم فما ندري ما عيبه إلا أن ظاهره أنه أعف خلق الله عن الصفراء والبيضاء، ميل إلينا من أموال الحشوية أربع مائة ألف دينار، فأني نفس تسخو بهذا؟ قال بشر: فقلت يا أمير المؤمنين ما لك في الخلفاء شبيه إلا عمر بن الخطاب فإنه كان يفحص عن عمّاله وعن دفين أسرار حكّامه فحصاً شافياً، فكان لا يخفى عليه ما يفيد كل امرئ وما ينفق، وكان من نأى عنه كمن دنا منه في بحثه وتنقيره، فقال المأمون: إن أهمّ الأمور كلها أمور القضاة والحكام إذ كنا قد ألزمتهم النظر في الدماء والأموال والفروج والأحكام فوددت أني أجد مائة حاكم وأني أجوع يوماً وأشبع يوماً.

حمدون بن إسماعيل النديم قال: حضر العيد فعني المعتصم بالله خيله تعبئة لم يسمع بمثلها ولم ير لأحد من ولد العباس شبيهة بها، وأمر بالطريق فمسح من باب قصره إلى المصلى ثم قسم ذلك على القواد وأعطى كل واحد منهم مصافه، فلما كان قبل الفطر يوم حضر القواد وأصحابهم في أجمل زي وأحسن هيئة فلزموا مصافهم منذ وقت الظهر إلى أن ركب المعتصم بالله إلى المصلى، فكان الموضع الذي وقع لإبراهيم بن المهدي من بعد الحرسيّ بجذاء مسجد الخوارزمي وإبراهيم واقف وأصحابه في المصاف، فلما أصبح المعتصم أمر القواد الذين لم يرتبوا في المصاف بالمصير إلى المصلى على التعبية التي حدّها، وليس ثيابه وجلس على كرسيّ ينتظر مضيّ القواد، فلما انقضى أمرهم تقدّم إلى الرجالة في المسير بين يديه فتقدّم منهم سبعة آلاف ناشب من الموالي كل ثلاثمائة منهم في زيّ مخالف لزيّ الباقيين وأربعة آلاف من المغاربة وأمر الشيعة فكانوا

وراءه بالأعملة وعدتهم أربعة آلاف، وركبت لا أدري منزلتي أين هي ولا أعرف مرتبتي ولم أعلم أين أسير من الموكب، فلما وضع رجله في الركاب واستوى على سرجه التفت إليّ وقال: يا حمدون كن أنت خلفي، فلزمت مؤخر دابته، فلما خرج من باب القصر تلقاه القواد وأصحاب المصافّ يخرج الرجل من مصافه فإذا قرب نزل وسلم عليه بالخلافة فيأمره بالركوب ويمضي حتى وصل إلى إبراهيم بن المهدي فنزل وسلم عليه بالخلافة فردّ عليه السلام فقال: كيف أنت يا إبراهيم وكيف حالك وكيف كنت في أيامك؟ اركب، فركب، فلما جاوزه التفت إليّ فقال: يا حمدون! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: تذكر، قلت: أي والله يا سيدي، وأمسك، فنظرت في ما قال فلم أجدي أذكر شيئاً في ذلك الموضع مما يشبه ما كنا فيه، فغصص عليّ يومي وما رأيت من حسنه وسروري بالمرتبة التي أهلني بها، وقلت: الخلفاء لا يعاملون بالكذب ولا يجوز أن يسألني عند انصرافي عن هذا الأمر فلا يكون له عندي جواب ولا حقيقة، وتخوفت أن ينالني منه مكروه، فلم أزل واجماً في طريقي إلى وقت انصرافه ثم أجمعت على مغالطته إن أمكنني وأعمل الحيلة في التخلص إن يسألني، فلما استقر في مجلسه وبسط السماط وجلس القواد على مراتبهم للطعام أقبلت أخدم وأختلف ليست لي همة غير ما كان قاله لي لا أغفل عن ذلك حتى انقضى أمر السماط ورفع الستر ونهض أمير المؤمنين ودخل الحجرة ومضى إلى المرقد، فلم ألبث أن جاء الخادم وقال لي: أجب أمير المؤمنين، فمضيت فلما دخلت ضحك إليّ وقال: يا حمدون رأيت؟ قلت: نعم يا سيدي قد رأيت، فالحمد لله الذي بلغ بي هذا اليوم وأرانيه فما رأيت ولا سمعت لأحد من الخلفاء والملوك بأجلّ منه ولا أجهى ولا أحسن، قال: ويحك رأيت إبراهيم بن المهدي؟ قلت: نعم يا سيدي، قال: رأيت سلامه عليّ وردّي عليه ونزوله إليّ؟ قلت: نعم، فقال: إنه لما كان من أمره ما كان، يعني الخلافة، قسم الطريق في يوم عيد من منزله إلى المصلّى كقسمتي إياه في هذا اليوم بين قواده، فوق موضع من الموضع الذي كان به هذا اليوم، فلما حاذاني نزلت فسلمت عليه فردّ عليّ مثل ما رددته حرفاً حرفاً على ما قال لي، قال: فدعوت له وانفرج عني ما كنت فيه وتخلّى عني الغمّ والكره، ثم قال: يا حمدون إني لم آكل شيئاً وأنا أنتظر أن تأكل معي فامض إلى حجرة الندماء فإنك تجد إبراهيم هنالك فاجلس إليه وعابته وضاحكه وأجر له هذا الحديث وقل له إنك رأيته في ذلك اليوم فعل بي فعلي به في هذا اليوم وانظر إلى وجهه وكلامه وما يكون منه فعرفنيه على حقيقته واصدقني عنه وعجل ولا تحبس، قلت: نعم يا سيدي، فمضيت وقد دُفعتُ إلى أغلظ مما كنت فيه لعلمي بأن إبراهيم لو كان من حجر لأثر فيه هذا القول وتغيّر وظهر منه ما يكره، وخفت أن يكون يأتي بما يسفك به دمه فمضيت حتى دخلت الحجرة فجلست إلى إبراهيم وفعلت ما أمرني به وأنا مبادر خوفاً من خادم يلحقني أو رسول فلا يمكنني معه تحسين الأمر وما يظهر لي منه، فقلت لإبراهيم: كيف رأيت يا سيدي هذا اليوم، أما أعجبك حسنه وما كان من تعبية أمير المؤمنين؟ قال: بلى والله إنه أعجبني فالحمد لله الذي بلّغنيه وأرانيه، وأطب في الدعاء للمعتصم، فلما أمسك قلت: يا سيدي أذكرك في أيامك وقد ركبت فعبيت شبيهاً بهذه التعبية وقسمت الطريق مثل هذه القسمة فوقع لأمر المؤمنين الموضع الذي



وقع لك واجتزت به فنزل إليك وسلّم فرددت عليه كرده عليك في هذا اليوم، قال: فوالله إن كان إلا أن قلت حتى اربدّ لونه وجفّ ريقه واعتقل لسانه وبقي لا يتكلم بحرف ملياً، ثم قال بلسان ثقيل: لكأني في ذلك الموضع في ذلك اليوم، فالحمد لله للذي رأيتُه لأمر المؤمنين، فعل الله به وفعل، قال: فتغنّمت ذلك وقمت وأنا ألنفت ونهضت حتى أتيت المعتصم، فقال لي: هيه يا حمدون! قفّلت: يا أمير المؤمنين أتيت إبراهيم وقلت له ما أمرتني به فأظهر سروراً ودعاء وقال كيت وكيت، فقال: والله قال بجياقي؟ قلت: وحياتك يا أمير المؤمنين، قال: فكيف رأيت وجهه؟ فلم أدر ما أقول قفّلت: يا أمير المؤمنين بالله لما تركني من وجه عمك الذي لا يتبين فيه فرح ولا حزن، فاستضحك ثم أمسك وتخلّص إبراهيم، ودعا بالطعام فأكلنا ثم رقد، فلما انتبه وجلس دعا بإبراهيم وسائر الندماء فشرب وبرّ إبراهيم وأطفاه. فع لك واجتزت به فنزل إليك وسلّم فرددت عليه كرده عليك في هذا اليوم، قال: فوالله إن كان إلا أن قلت حتى اربدّ لونه وجفّ ريقه واعتقل لسانه وبقي لا يتكلم بحرف ملياً، ثم قال بلسان ثقيل: لكأني في ذلك الموضع في ذلك اليوم، فالحمد لله للذي رأيتُه لأمر المؤمنين، فعل الله به وفعل، قال: فتغنّمت ذلك وقمت وأنا ألنفت ونهضت حتى أتيت المعتصم، فقال لي: هيه يا حمدون! قفّلت: يا أمير المؤمنين أتيت إبراهيم وقلت له ما أمرتني به فأظهر سروراً ودعاء وقال كيت وكيت، فقال: والله قال بجياقي؟ قلت: وحياتك يا أمير المؤمنين، قال: فكيف رأيت وجهه؟ فلم أدر ما أقول قفّلت: يا أمير المؤمنين بالله لما تركني من وجه عمك الذي لا يتبين فيه فرح ولا حزن، فاستضحك ثم أمسك وتخلّص إبراهيم، ودعا بالطعام فأكلنا ثم رقد، فلما انتبه وجلس دعا بإبراهيم وسائر الندماء فشرب وبرّ إبراهيم وأطفاه.

### مساوي التيقظ وتركه

قيل لبعض بني أمية: ما كان سبب زوال ملكهم؟ فقال: قلة التيقظ وشغلنا بلداتنا عن النفرغ لمهماتنا ووثقنا بكفائنا فأثروا موافقهم علينا وظلم عمالنا رعبتنا ففسدت نيّهم لنا وحُمل على أهل خراجنا فقلّ دخلنا وبطل عطاء جنودنا فرالت طاعتهم لنا واستدعاهم أعداؤنا فأعانوهم علينا وقصدنا بعاتنا فعبجزنا عن دفعهم لقلّة نصّارنا، وكان أول زوال ملكنا استتار الأخبار عنا فرال ملكنا عتّا بنا.

### محاسن الرسل

يقال إن ملوك العجم كانت إذا احتاجت إلى أن تختار من رعيّتها من تجعله رسولاً تمتحنه أولاً بأن توجهه إلى بعض خاصتها ثم تقدم عيناً على الرسول يحضر ما يؤدّيه من الرسالة ويكتب كلامه، فإذا رجع الرسول بالرسالة جاء العين بما كتب من ألفاظه وأجوبته فقابل بها الملك ألفاظ ذلك الرسول فإن اتفقت معانيها عرف بها الملك صحة عقله وصدق لهجته ثم جعله رسولاً إلى عدوه وجعل عليه عيناً يحفظ ألفاظه ويكتبها ثم يرفعها إلى الملك فإن اتفق كلام الرسول وكلام عين الملك وعلم أن رسوله قد صدقه عن عدوه ولم يزد عليه جعله رسولاً إلى ملوك الأمم ووثق به ثم بعد ذلك يقيم خبره مقام الحجة ويصدق قوله.

وكان أردشير يقول: كم من دم سفكه الرسول من غير حله ولا حقه وكم من جيوش قد قتلت وعساكر قد انتهكت ومال قد انتهب وعهد قد نقض بجناية الرسول وأكاذيبه، وكان يقول: على الملك إذا وجه رسولاً إلى ملك آخر أن يردفه بآخر وإن وجه رسولين أتبعهما بآخرين، وإن أمكنه أن لا يجمع بينهما في طريق ولا ملاقة وألا يتعارفا فيتفقا ويتواطأ في شيء فعل، ثم عليه إن أتاه رسول بكتاب أو رسالة من ملك في خير أو شر أن لا يحدث حدثاً في ذلك حتى يكتب إليه مع رسول آخر ويحكي به كتابه الأول حرفاً حرفاً، فإن الرسول ربما حرم ما أملي عليه وافتعل الكذب وحرّض المرسل على المرسل إليه وأغراه به وكذب عليه، ومنها قال أبو الأسود وقد سمع رجلاً ينشد:

إذا كنت في حاجةٍ مرسلًا ... فأرسل حكيمًا ولا توصه

فقال: قد أساء القول، أيعلم الغيب؟ إذا لو يوصه كيف يعلم ما في نفسه؟ ألا قال:

إذا أرسلت في أمر رسولاً ... فأفهمه وأرسله أديبا

ولا تترك وصيته لشيء ... وإن هو كان ذا عقل أريبا

وإن ضيعت ذاك فلا تلمه ... على أن لم يكن علم الغيوب

وقال يحيى بن خالد البرمكي: ثلاثة أشياء تذلّ على عقول الرجال: الهدية والرسول والكتاب.

## مساوي الرسول

وحكي عن الإسكندر أنه وجه رسولاً إلى بعض ملوك المشرق فجاءه رسوله برسالة فشكّ في حرف منها فقال له الإسكندر: وبك إن الملوك لا تخلو من مقومٍ ومسدّد إذا مالت بطانتها وقد جتني برسالة صحيحة الألفاظ بيّنة العبارة غير أن فيها حرفاً ينقضها، أفعلني يقين أنت من هذا الحرف أو أنت شكّ فيه؟ فقال الرسول: بل على يقين، قال: فأمر الإسكندر أن تكتب ألفاظه حرفاً حرفاً وتعاد إلى الملك مع رسول آخر فيقرأ عليه ويترجم له، فلما قرأ الكتاب على الملك فمرّ بذلك الحرف أنكره فقال للمترجم: ضع يدي على هذا الحرف، فوضعها، فأمر أن يقطع ذلك الحرف بسكين، فقطع من الكتاب، وكتب إلى الإسكندر: رأس المملكة صحة فطنة الملك وأسرّ الملك صدق لهجة رسوله إذ كان عن لسانه ينطق وإلى أذنه يؤدّي، وقد قطعت بسكيني ما لم يكن من كلامي إذ لم أجد إلى قطع لسان رسولك سبيلاً، فلما جاء الرسول بهذا إلى الإسكندر دعا الرسول الأول فقال: ما حملك على كلمة أردت بما فساد ملكين؟ فأقر الرسول أن ذلك كان لتقصير رآه من الوجه إليه، قال الإسكندر: فأراك سعيت لنفسك لا لنا فلما فاتك بعض ما أملت جعلت ذلك ناراً في الأنفس الخطيرة الرفيعة! ثم أمر بلسانه فنزع من قفاه.

## محاسن الحجاب

يقال إن ملوك العجم كانت تأخذ أبناءها بأن يعاملوها بما تعامل به عبيدها، وأن لا يدخل أحد من الولد عليها إلا عن إذنهما، وأن يكون الحجاب عليهم أغلظ منهم على من دونهم من بطانتها وخدمها لئلا تحملهم

الدّالة على تعدّي ميزان الحق، فإنه يقال إن يزدجرد رأى بهرام بموضع لم يكن له فقال له: مررت بالحاجب؟ قال: نعم، قال: وعلم بدخولك؟ قال: نعم، قال: فاخرج إليه فاضربه ثلاثين سوطاً ونحّه عن الستر ووكّل بالحجاب أزامرد، ففعل بهرام ذلك وهو إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة، ولم يعلم الحاجب فيم غضب عليه الملك، فلما جاء بهرام بعد ذلك ليدخل دفع أزامرد في صدره دفعة أوقذه منها وقال له: إن رأيتك بهذا الموضع ضربتك ستين سوطاً لجنايتك على الحاجب الأول وثلاثين لتلا تطمع في الجناية عليّ، فبلغ ذلك يزدجرد فدعا بازامرد فخلع عليه ووصله.

ويقال: إن يزيد بن معاوية كان بينه وبين أبيه باب، فكان إذا أراد الدخول عليه قال لبعض جواريه: انظري هل تحرك أمير المؤمنين، فجاءت الجارية حتى فتحت الباب ومعاوية قاعد في حجره مصحف وبين يديه جارية تصفّح عليه، فأخبرت يزيد بذلك، فجاء يزيد حتى دخل على معاوية، فقال: يا بني إنما جعلت بيني وبينك باباً كما بيني وبين العامة لتدخل عليّ وقت إذنك فهل ترى أحداً يدخل عليّ من ذلك الباب؟ قال: لا، قال: فكذلك إذنك.

وذكروا أن موسى الهادي دخل على المهدي وهو خليفة فزبره الحاجب وقال: إياك أن تعود إلى مثلها إلا بإذن أمير المؤمنين لخاصته.

وذكروا أن المأمون لما اشتد به الوجع سأل بعض بنيه الحاجب أن يدخله عليه ليراه، فقال: لا والله ما لي إلى ذلك سبيل ولكن إن شئت أن تراه من حيث لا يراك فاطلع عليه من ثقب في ذلك الباب، فجاء حتى اطلع عليه وتأمّله وانصرف.

وحكي عن إيتاخ أنه بصر بالوائق في حياة المعتصم واقفاً في موضع لم يكن له أن يقرب منه ولا أن يقف به فزبره وقال: تنحّ فوالله لولا أنني لم أتقدم إليك لضربتك مائة سوط.

وكانت الأعاجم تقول: ما شيء بأضيع للملكة ولا أضيع للرعية من صعوبة الحجاب، ولا شيء أهيب للرعية من سهولة الحجاب، لأن الرعية إذا وثقت من الوالي بسهولة الحجاب أحجمت عن الظلم، وإذا وثقت منه بصعوبة الحجاب هجمت على الظلم وركب القويّ منهم الضعيف، فخير خلال السلطان سهولة الحجاب.

قال: وقال خالد بن عبد الله القسريّ: لا يحجب الوالي إلا لثلاث خصال: إما رجل عيّ فهو يكره أن يعرف الناس منه ذلك، وإما رجل مشتمل على سوءة فهو يكره أن يطلع الناس على ذلك فيه، وإما رجل يكره مسألة الناس إياه.

قيل: واستأذن أبو سفيان بن حرب على عثمان بن عفان، رحمه الله، فحجبه، فقيل له: حجبت أمير المؤمنين، فقال: لا عدمت من قومي من إذا شاء حجبي.

قال: وقال الرشيد لبشر بن ميمون لما ولاه الحجابة: يا بشر صن طلاقة اسمك بحسن فعلك واحجب عني من إذا قعد أطال وإذا طلب أجال فكره، ولا تستخفنّ بنوي المروعة والحرمة فإنهم إن مدحوا تلبّوا وإن ذمّوا أزالوا.

وذكروا عن الربيع الحجاب أن المنصور دعا محمد بن عيسى بن علي إلى الغداء فقال: يا أمير المؤمنين قد أكلت، فلما خرج أخذه الربيع وحمله على ظهر رجل وضربه كما يضرب الصبيان، فظن أهل بيته أن المنصور أمره بذلك، فخرج يبكي إلى أبيه، فجاء أبوه عيسى بن علي فخلع سيفه بين يدي المنصور وصاح، فقال: ما أمرت بذلك ولم يفعل الربيع ذلك إلا لأمر، فلما سئل الربيع عن ذلك قال: أمرته أن يتغدى معك فقال قد أكلت، وإنما دعوته لتشرّفه وترفع منه ولم تدعه لتشبعه، فأدبته إذ لم يؤدّبه أبوه، فقال المنصور: أحسنت! قد علمت أنك لا تخطيء.

قال: وقال المهدي للفضل بن الربيع حين ولاه الحجة: إني موليك ستر وجهي وكشفه فلا تجعل الستر بيني وبين الناس سبب إراقة دمائهم بعبوس وجهك في وجوههم فإن لهم دالة الحرمة وحرمة الاتصال وقدّم أبناء الدعوة وثنّ بالأولياء واجعل للعامّة وقتاً إذا وصلوا أعجلهم ضيقه عن التلبث والتحكّث، وكان أول من حجبه الحسن بن عثمان ثم الفضل بن الربيع، وكان الهادي ولّى حجبته الفضل بن الربيع بعد الربيع وقال له: لا تحجب عني الناس فإن ذلك يزيل عني التركية، ولا تلق إليّ أمراً إذا كشفته وجدته باطلاً فإن ذلك يوهن الملك ويضرب بالرعية.

قيل: وقال الواثق لابن أبي دؤاد: من أولى الناس بالحجة؟ فقال: مولّي شفيق يصون بطلاقة وجهه من ولاه ويستعبد الناس لمولاه، فنظر إلى إيتاخ وكان واقفاً على رأسه فقال: قد ولّك أبو عبد الله الحجة، فكان إيتاخ يعرف ذلك له ويتقدّم بين يديه إلى أن يبلغ مرتبته.

قال: وقال رجل لزيد: إن حاجبك إنما يبدأ بالإذن لمعارفه، فقال: قد أحسن، المعرفة تنفع عند الكلب العقور والأسد المنصور وبين لحبي العبير الصوّول، كن من معارفه، فقد قيل: التعارف نسب وقبح الله معرفة لا تنفع.

وكان ليحيى بن خالد حاجبٌ قبل الوزارة، فلما صار إلى الوزارة رأى كأنه تتناقل عن حجابه فقيل له: لو اتخذت حاجباً غيره، قال: كلا، هذا يعرف إخواني القدماء، وقال الشاعر في مثله:

هشٌّ إذا نزل الوفود ببابه ... سهلُ الحجاب مؤدّبُ الخدام

وإذا رأيت شقيقه وصديقه ... لم تدر أيهما أخو الأرحام

وقال خيط القنديل في محمد بن عبد الله بن طاهر:

يا أيها الملك المحجوب أمله ... وراء بابك همٌّ غير مشترك

وكم أقول فلا يجدي فيجديني ... ولا أرى مدنياً من قبة الملك

وقد تحصّن مني في محصنةٍ ... خلقاء خلف وشيخ السمر والحسك

أصبحت كالشمس لا تخفى على أحدٍ ... لكنّ مطلعها في سرّة الفلك

يا ليت ريح سليمانٍ مسخرةً ... إليه تحملني أو منكبي ملك

فلست دون أناسٍ كان سهمهم ... سهم التّجريح فنالوا غاية الدّرك

فإن ظلمتُ ولم أنصف فقد ظلمت ... بنت النبي كما قد قيل في فدك

## مساوي الحجبة

قال ثمامة: جلس المأمون يوماً وقد حضر الناس فأمر عليّ بن صالح بإدخال إسماعيل بن موسى فغلط وأدخل إسماعيل بن جعفر، وكان المأمون من أشدّ الناس له بغضاً فرفع يده إلى السماء فقال: اللهم ابدلني بعليّ بن صالح مطيعاً ناصحاً فإنه بصداقته لهذا آثر هواه على هواي، فلما دنا قبل يده، فقال: هات حوائجك، فقال: ضيعتي بالفتنة فُهرتُما وُعصيت عليها، فأمر بردها عليه ثم قال: اذكر حاجتك، فقال: دينٌ كثير قد لحقني في جفوة أمير المؤمنين إياي، فأمر بقضاء دينه، وقال: حاجتك؟ قال: يأذن لي أمير المؤمنين في الحج؟ قال: قد أذنا لك، وحاجتك أيضاً؟ قال: وقف أبي كان في يدي فأخرج عني، قال: يردّ عليك إن رضي ورثة أهلك، ثم قال: الذي أمكننا في أمرك قد جدنا به ووقف أهلك إلى ورثته، ثم قال لعلي بن صالح: يا عبد الله ما لي ولك! متى رأيتني أنشط لإسماعيل بن جعفر وهو صاحبي بالأمس بالبصرة؟ قال: يا أمير المؤمنين ذهب عني إسماعيل بن موسى، قال: ذهب عنك ما كان يجب عليك حفظه وحفظت ما كان يجب أن لا تحفظه، فأما إذ أخطأت فلا تُعلم إسماعيل بن جعفر القصة، فظن أنه عنى إسماعيل بن موسى فأخبر إسماعيل بن جعفر حرفاً حرفاً فأذاعها إسماعيل وبلغ المأمون فقال: الحمد لله الذي وهب لي هذه الأخلاق التي أحتمل عليها علي بن صالح وأبا عمران الطوسيّ وحميد بن عبد الحميد ومنصور بن النعمان.

وحدثنا مسعود بن بشر عن ابن داحة قال: خرج إلينا يعقوب بن داود من عند المهدي ونحن على بابهِ فقال: ما صدر هذا البيت:

ومحترسٍ من مثله وهو حارس

فإن أمير المؤمنين سأل عنه فلم يكن عند أحد منهم جواب. فقلت: أنا أخبرك، قال البردخت الشاعر، والبردخت الفارغ بالفارسية:

أقلي عليك يا اللوم يا أم مالك ... وذمي زماناً ساد فيه الفلافس

كساعٍ إلى السلطان ليس بناصح ... ومحترسٍ من مثله وهو حارس

الفلافس من بني فمشل بن دارم كوفيّ وكان على شرطة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وقال الأشهب بن رميلة النهشلي:

يا حار يا ابن أبي ربيعة إنه ... يزيني إذا اختلط الظلام ويشرب

جعل الفلافس حاجبين لبابه ... سبحان من جعل الفلافس يحجب

فدعا به الحارث وقال: قد علمت أنه كذب عليك ولكن لا حاجة لي فيك فأخرج عني، وقال الشاعر في مثله:

سأترك هذا الباب ما دام إذنه ... على ما أرى حتى تلين قليلاً

إذا لم نجد للإذن عندك موضعاً ... وجدنا إلى ترك الجيء سبيلاً

وقال آخر:

سأترك باباً أنت تملك إذنه ... وإن كنت أعمى عن جميع المسالك

فلولا كنت بواب الجنان تركتها ... وحوّلت رجلي مسرعاً نحو مالك  
وكتب أبو العتاهية إلى أحمد بن يوسف:  
لئن عدت بعد اليوم إني لظالم ... سأصرف وجهي حيث تبغي المكارم  
متى ينجح الغادي لديك بحاجة ... ونصفك محجوب ونصفك نائم  
وكتب رجل إلى عبد الله بن طاهر:  
إذا كان الجواد له حجاب ... فما فضل الجواد على البخيل  
فأجابه:

إذا كان الجواد قليل مال ... ولم يقدر تعلل بالحجاب  
وكتب عبد الله بن محمد بن أبي عيينة إلى صديق له:  
أتيتك زائراً لقضاء حق ... فحال الستر دونك والحجاب  
ولست بساقطٍ في قدر قوم ... وإن كرهوا كما يقع الذباب  
وقال آخر:

وأحضر باب إبراهيم جهلاً ... بما فيه وأرشو الحاجين  
فأخرج إن خرجت بغير شيء ... وأدخل إن دخلت بدرهمين  
وقال آخر:

يدلّ على أنه كاتب ... سوادٌ بأظفاره راتب  
فإن كان هذا دليلاً له ... فإسكافنا كاتبٌ حاسب  
حجابٌ شديدٌ لأبوابه وليس لباب استه حاجب  
وقال آخر:

لقلع ضرسٍ وضمنك حبسٍ ... ونزع نفسٍ وردّ أمس  
وأكل كفٍ وضيقٍ خفٍ ... وفقد ألفٍ وإلفٍ فلس  
وقودٍ قرْدٍ ونسجٍ بردٍ ... ودبغٍ جلدٍ بغير شمس  
وشربٍ سمٍ وقتلٍ عمٍ ... وكلُّ غمٍ ويومٍ نحس  
ونفخٍ نارٍ وحملٍ عارٍ ... وبيعٍ جارٍ بربعٍ فلس

أيسر من وقفَةٍ ببابٍ ... يلقاك بوابه بعيس  
وقال:

لما رأيتك ذاهباً ... ورأيتني أجفئ ببابك  
عدّيت رأس مطيقي ... وحجبت نفسي عن حجابك  
وقال آخر:

لئن كان التشرف في الحجاب ... لقد أصبحت في الشرف اللباب

لقد عاتبت نفسي في وقوفي ... فقلت لها: وقتت بأيّ باب  
باب تُسلب الموتى عليه ... ويُستلب العراق من الكلاب؟  
منصور بن باذان:

أما وزمر ابن شيبه ... وقبح لحية عقبه  
كأنما شعر قردٍ ... ملصقٌ حول ذنبه  
ووجهه حين يبدو ... كقبح أول شره  
لئن أطلت حجاي ... ما أنت إلا ابن قحبه  
وكيف تبني المعالي ... يا نجل كلب لكلبه  
وهل يكون كريماً ... يا قوم حمّالٍ قربه!  
وله:

يا ذا الذي قصر في مجده ... وزاد في عدّة حجّابه  
أقسمت لا أقرب باب امريء ... يحجيني البوّاب عن بابه  
فأدخل الله رؤيس امريء ... يحجب مثلي في است بوّابه  
ولأبي عبد الله مريقة في علي بن أحمد المعروف بابن الحواري شاعر وكان حجبه فتعرض له وقد ركب فقال:  
أسأل الذي صرف الأعنّ ... ة بالمواكب نحو بابك  
وأراك نفسك دائماً ... ما لم يكن لك في حسابك  
وأذل موقفي العزي ... ز عليّ في أقصى رجائك  
ألا يطيل تجرّعي ... غصص المنية من حجّابك

### محاسن الولايات

قال إبراهيم بن السندي: بعث إليّ المأمون فأتيته فقال: يا إبراهيم إني أريدك لأمر جليل والله ما شاورت فيه  
أحداً ولا أشارك بك أحد، فاتق الله ولا تفضحني، فقلت: يا سيدي لو كنت شر خلق الله ما تركت موضع  
قادح فكيف وتبّي في طاعة أمير المؤمنين نية العبد الذليل لمولاه؟ قال: قد رأيت أن أوليك خبر ما وراء باب  
داري فانظر أن تعمل بما يجب عليك لله جل وعز ولي ولا تراقب أحداً، فقلت: يا سيدي فإني أستعين بالله  
عز وجل على مرضاته ومرضاتك، فبعثت أصحاب الأخبار في الأرباع ببغداد فرفع إليّ بعضهم أن صاحب  
ربع الحوض أخذ امرأة مسلمة مع رجل نصراني من تجار الكرخ فافتدى نفسه بألف دينار، فرفعت إليه ذلك  
فدعا عبد الله بن طاهر فقال له: انظر في هذا الذي رفعه إلي صاحب الخبر، فقراه وقال: رفع يا أمير المؤمنين  
الباطل والزور وأغراه بي فعمل قوله فيّ وملاً قلبه، فبعث إلي وقال: يا إبراهيم ترفع إلي الكذب وتحملني  
على عمالي؟ فكفيت رُقعةً دفعتها إلى فتح الخادم ليوصلها إليه قلت فيها: إنّما يحضر الأخبار في الأرباع المرأة  
والطفل وابن السبيل وغير ذلك، ولو كانت الأخبار لا ترفع إلا بشهود عدول ما صحّ خبر ولا كتب به،  
ولكن مجرى الأخبار أن يحضرها قوم على غير توطؤ، فإن أمرني أمير المؤمنين أن لا أكتب إليه بخبر إلاّ

بعدول وبرهان فعلت ذلك، وعلى هذا فلا يرتفع في السنة خبر واحد. فلما قرأ الرقعة فكّر فيها ليلته وجاءني رسوله مع طلوع الشمس، فأتيته من باب الحمام فلما رأي قال: اطمأنن. وقام فصلى ركعتين أطال فيهما ثم سلّم والنفت إليّ وليس في المجلس غيري فقال: يا إبراهيم إنما قمت للصلاة ليسكن بهرك ويقوى منتك ويُفرخ روعك فتمكن في قعودك، وكنت قاعداً على ركبتى، قتلّت: لا أضع قدر الخلافة يا سيدي ولا أجلس إلا جلوس العبد بين يدي مولاه. ثم قام فصلى ركعتين دون الأولين ثم قال: هذه رقتك تحت رأسي قد قرأتها أربع مرات وقد صدقت في ما كتبت به ولكني امرؤٌ أداري عمالي مداراة الخائف وبالله ما أجد إلى أن أحملهم على الحجّة البيضاء سبيلاً، فاعمل على حسب ذلك ولن هم تسلم منهم وفي حفظ الله إذا شئت. فانصرفت فدعوت أصحاب الأخبار فيقدمت إليهم في مداراة القوم والرفق بهم واللين لهم.

وعن إسحاق بن أيوب بن جعفر بن سليمان قال: دخل محمد بن واضح دار المأمون وخلفه أكثر من خمسمائة راكب كلهم راغبٌ إليه وراهب منه، وهو إذ ذاك يلي أعمالاً من أعمال السواد، فدعا به المأمون فقال: يا أمير المؤمنين اعفني من عمل كذا وكذا فإنه لا قوة لي عليه، فقال: قد أعفيتك، واستعفى من عمل آخر وهو يظن أنه لا يعفيه فأعفاه حتى خرج من كل عمل في يده في أقل من ساعة وهو قائم على رجله، فخرج وما في يده شيء من عمله، فقال المأمون لسلم الحوائجي: إذا خرج فانظر إلى موكبه واحص من معه، وكان المأمون قد رآه من مستشرق له حين أقبل، فخرج سالم وقد استفاض الخبر بعزله عن عمله فنظر فإذا لا يتبعه إلا غلام له بغاشية، فرجع إلى المأمون فأخبره، فقال: ويلهم لو تجملوا له ريشما يرجع إلى بيته كما خرج منه! ثم تمثل فيهم:

ومن يجعل المعروف في غير أهله ... يلاق الذي لاقى مجير ام عامر

ثم قال: صدق رسول الله وكان للصدق أهلاً حين قال: لا تنفع الصنعة إلا عند ذي حسب أو دين. وذكروا أنه كان سبب عزل الحجاج عن الحجاز أنه وفد وفد منهم فيهم عيسى بن طلحة بن عبيد الله على عبد الملك بن مروان فأثوا على الحجاج وعيسى ساكت، فلما قاموا ثبت عيسى حتى خلا له وجه عبد الملك فقام وجلس بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين من أنا؟ قال: عيسى بن طلحة بن عبيد الله، قال: فمن أنت؟ قال: عبد الملك بن مروان، قال: أفجهلتنا أو تغيرت بعدنا؟ قال: وما ذاك؟ قال: وليت علينا الحجاج يسير فينا بالباطل ويحملنا على أن ننني عليه بغير الحق، والله لئن أعدته علينا لعصينك، فإن قاتلتنا وغلبتنا وأسأت إلينا قطعت أرحامنا، ولئن قويننا عليك لعصينك ملكك! قال: فانصرف والزم بيتك ولا تذكرن من هذا شيئاً، قال: فقدم إلى منزله وأصبح الحجاج غادياً على الوفد في منازلهم يجزيهم الخير، ثم أتى عيسى بن طلحة فقال: جزاك الله عن خلوتك بأمر المؤمنين خيراً فقد أبدلني بكم خيراً لي منكم وأبدلكم بي غيري وولاني العراق.

وعن الوضّاحي عن معمر بن وهيب قال: كان عبد الملك عندما استعفى أهل العراق من الحجاج بن يوسف قال لهم: اختاروا أي هذين شئتم يعني أخاه محمد بن مروان أو ابنه عبد الله مكان الحجاج، فكتب إليه الحجاج: يا أمير المؤمنين إن أهل العراق استعفوا من سعيد بن العاص إلى عثمان بن عفان فأعفاهم منه



فساروا إليه من قابل فقتلوه، فقال عبد الملك: صدق ورب الكعبة، وكتب إلى محمد وعبد الله بالسمع والطاعة له.

## مساوى الولايات

قال: كتب عبد الصمد بن المعدل إلى صديق له ولي النقات فأظهر تيهًا:  
لعمري لقد أظهرت تيهًا كأنما ... توليت للفضل بن مروان منبرا  
وما كنت أخشى لو وليت مكانه ... علي أبا العباس أن تتغيرا  
بجفظ عيون النفط أحدثت نحوه ... فكيف به لو كان مسكاً وعبرا  
دع الكبر واستبق التواضع إنه ... قبيح بوالي النفط أن يتكبرا  
قال: وسئل عمّار بن ياسر عن الولايات فقال: هي حلوة الرضاع مرة الفطام، ولا بن المعتز في مثله:  
كم تائه بولاية ... وبغزله يعدو البريد  
سكر الولاية طيبٌ ... وخمارها صفع شديد  
ولغيره:

لا تجزعن فكلُّ وال يُعزل ... وكما عزلت فعن قريب يعزل  
إن الولاية لا تدوم لواحدٍ ... إن كنت تنكره فأين الأول  
وكذا الزمان بما يسرك تارةً ... وبما يسوءك مرةً ينتقل  
محاسن بعد المهمة

قال: حدثنا أحمد بن إسحاق التُّستري قال: دخل أحمد بن أبي دؤاد على الواثق فقال له الواثق: بالله يا أبا عبد الله إني حشيت في يميني فما كفارتها؟ فقال: مائة ألف دينار، فقال ابن الزيات: والله ما سمعنا بهذا في الكفارات إنما قال الله جل وعز، وتلا الآية في كفارة الأيمان، فقال: تلك كفارة مثله في بعد همته وجلالة قدره أو مثل آبائه، إنما تكون كفارة اليمين على قدر جلال الله من قلب الخالف بها ولا نعلم أحداً الله جل وعز في قلبه أجل من أمير المؤمنين فقال الواثق: تحمل إلى أبي عبد الله يتصدق بها.

قال: ودعا يحيى بن خالد البرمكي ابنه إبراهيم يوماً وكان يسمى دينار بني برمك لجماله وحسنه ودعا بمؤدبه وبمن كان ضم إليه من كتابه، وأجابه، فقال: ما حال ابني هذا؟ قالوا: قد بلغ من الأدب كذا وكذا ونظر في كذا وكذا قال: ليس عن هذا سألت، قالوا: قد اتخذنا له من الضياع كذا وغلته كذا قال: ولا عن هذا سألت إنما سألت عن بعد همته وهل اتخذتم له في أعناق الرجال منناً وحببتموه إلى الناس؟ قالوا: لا قال: فبئس العشراء أنتم والأصحاب، هو والله إلى هذا أحوج منه إلى ما قلتم! ثم أمر بحمل خمس مائة ألف درهم إليه ففرقت على قوم لا يدري من هم.

قال: وقال المأمون لولده وعنده عمرو بن مسعدة ويحيى بن أكثم: اعتبروا في علو المهمة بمن ترون من وزرائي وخاصتي، إنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندي إلا بأنفسهم، إنه من تبع منكم صغار الأمور تبعه التصغير

والتحقير وكان قليل ما يفتقد من كبارها أكثر من كثير ما يستدرك من الصغار، فترفعوا عن دناة المهمة وتفرغوا لجلال الأمور والتدبير واستكفوا الثقات وكونوا مثل كرام السباع التي لا تشتغل بصغار الطير والوحش بل بجليلها وكبارها، واعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم فإن قائدكم لا يقدمكم ولا يغني الولي عنكم شيئاً ما لم تعطوه حقه، وأنشده:

نحن الذين إذا تخمط عصبه ... من معشر كنا لها أنكالا  
ونرى القروم مخافةً لقرومنا ... قبل اللقاء تقطر الأبوالا  
نرد المنية لا نخاف ورودها ... تحت العجاجة والعيون تلالا  
نعطي الجزيل فلا نمنّ عطاءنا ... قبل السؤال ونحمل الأثقالا  
وإذا البلاد على الأنام تزلزلت ... كنا لزلزلة البلاد جبالا  
ولبعضهم في أبي دلف:

له هممٌ لامنتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجلُّ من الدهر  
له راحةٌ لو أن معشار جودها ... على البرّ كان البرّ أندى من البحر  
ولو أن خلق الله في مسك فارسٍ ... فبارزه كان الخليّ من العمر  
أبا دلفٍ بوركت في كل وجهةٍ ... كما بوركت في شهرها ليلة القدر  
ولغيره:

لا تهمد من بنيان قومٍ وجدتهم ... بنوا لك بنياناً وكن أنت بانيا  
وإن زهد الأقوام في طلب العلى ... فسام بكفّيك الندى والمعاليا  
عبد الله بن طاهر:

فتىّ خصه الله بالمكرمات ... فمازج منه الحيا والكرم  
إذا همّة قصرت عن يدٍ ... تناول بالمجد أعلى المهمم  
ولا ينكت الأرض عند السؤال ... ليثني زوّاره عن نعم  
بدا حين أثرى لإخوانه ... فقلل عنهم شباة العدم  
وذكره الحزم غبّ الأمور ... فبادر قبل انتقال التعم

قال: وحدّثنا بعض أهل ذي الرئاستين قال: كان ذو الرئاستين يبعث بي وبأحداث من أهل بيته إلى شيخ بخراسان ويقول: تعلموا منه الحكمة، فكنا نأتيه ونستفيد منه الآداب، فلما كان بعد ذلك قال لنا: أنتم أدباء وقد تعلمتم الحكمة ولكم نعمة فهل فيكم عاشق؟ فاستحيينا من قوله وسكتنا، فقال: اعشقوا فإن العشق يطلق لسان البليد ويسخي البخيل ويشجع الجبان ويبعث على النلطف وإظهار المروءة في المطعم والمشرب والملبس وغير ذلك، وانظروا أن تعشقوا أهل البيوتات والشرف. قال: فخرجنا من عنده وصرنا إلى ذي الرئاستين، فسألنا عما أفادنا فهبناه أن نخبره، فقال: تكلموا، فقلنا: تكلموا، فقلنا: إنه أمرنا بكذا وكذا، فقال: صدق وبرّ، أنعلمون من أين قال لكم ذلك؟ قلنا: يخبرنا به الوزير، فقال: كان لبهرام جور ابنٌ قد

رشحه للملك من بعده واعتمد عليه في حياته، وكان خامل المروعة ساقط المهمة فضم إليه عدة من المؤدبين والحكماء والعلماء ومن يتعلم الفروسية، فبينا بهرام في مجلسه إذ دخل عليه بعض أولئك المؤدبين المضمومين إلى ابنه، فسأله عن خبر ابنه وأين بلغ من الحكمة والأدب، فقال: أيها الملك قد كنت أرجو أن يتوجه أو يعي بعض ما ألقته وألقيه إليه حتى حدث من أمره ما آيسني منه، قال: وما هو؟ قال: بصر بابنة فلان المرزبان فهو بها فهو الآن يهذي بما ليله ونهاره، فقال: الآن رجوت فلاحه، اذهب فشجعه بمراسلة المرأة وخوفه بي، فذهب المؤدب فانتهى إلى ما أمره به، وبعث بهرام إلى أبي الجارية ودعاه فقال له: إني مزوج ابني ابنتك فأتما ومرها أن تراسل ابني وتطمعه في نفسها فإذا استحكم طمعه فيها ورجا الالتقاء تجت عليه وقالت: إني لا أصلح إلا للملك عظيم القدر بعيد المهمة حسن المودة أديب النفس شجاع البطش ولست كذلك ولا هناك، ثم عرفني الكائن منك في ذلك. فمضى المرزبان إلى ابنته فأعلمها بذلك وبما قاله له الملك، فراسلت الفتى وأطمعته ثم قالت له ما أمرها به أبوها، فلما سمع الفتى ذلك أنف أنفاً شديداً وتقاصرت إليه نفسه فأقبل على تعلم الأدب والحكمة والفروسية حتى صار رأساً في ذلك، فلما بلغ الغاية التي لا بعدها رفع قصته إلى أبيه يشكو تخلف حاله وقصور يده عما يشتهي، فوقع له أبوه يازاحة علته والتوسعة عليه، ثم بعث إلى المؤدب فدعاه فقال: قل لابني يرفع إلي قصة يسألني فيها إنكاحه ابنة المرزبان، فقال له المؤدب ذلك فكتب قصة رفعها إلى الملك يسأله ترويحاً منها وأن يصل جناحه بذلك وأنها ممن تصلح لمثله، فأمر الملك بإحضار المرزبان وسأله أن يزوج ابنته من ابنه ففعل، وجهزها الملك بأجل ما يكون من الجهاز وقال لابنه: إذا أنت خلوت بما فلا تُحدثن شيئاً حتى آتيك، فلما كان ذلك الوقت دخل الملك على ابنه فقال: يا بني إياك وأن تصغر شأن هذه المرأة عندك فإنها من أعظم الناس منة عليك، وإن الذي كان من مراسلتها إياك فإنما كان عن أمري وياذني وتدبيرى، فاعرف حقها وحق أبيها وأحسن معاشرتها وبرها، ثم خرج الملك وخلا الفتى بأهلها، ثم قال ذو الرئاستين: سلوا الآن الشيخ عن السبب الذي حمله على ما أمركم به، قال: فسألناه فحدثنا بحديث ذي الرئاستين.

### مساوي سقوط المهمة

قال: وكان القاسم بن الرشيد ساقط المهمة ديني النفس، وكان المأمون على أن يعهد إليه ويؤكد له ما كان الرشيد جعله له من ولاية العهد، وكان لا يزال يبلغه عنه ما يكره مرة في نفسه وأخرى في حشمه، قال: فرفع إليه في الخبر يوماً أنه قال لقوام حمامه: نوروا الناس بالجان، ففعلوا ذلك فلم يبق محتاج إلا جاء ينتور، فلما علم أنهم كثروا أخرج عليهم الأسد من باب كان يدخل منه إلى الحمام فخرج الناس عراً مغمى عليهم مع ما عليهم من التورة هاربين من الأسد فصاروا إلى شارع قصره وقد أشرف عليهم وهو يضحك، فحدثنا الحسن بن قريش قال: دعاني المأمون وقال: يا هذا ما لي ولهذا الفتى، إلى كم أحتمل منه هذا الأذى؟ قال: قتلته قومه يا أمير المؤمنين إن رأيت في ذلك صلاحاً، قال: نعم، فقلت: يا سيدي إنه عضو منك وأنت أولى الناس بتقويمه، قال: فجعل ينهاه ويأبى لا ينتهين، فلما كثر هذا من فعله عزم على خلعه فكتب إلى هرثمة بن أعين في ذلك كتاباً نُسخته: أما بعد فإن أمير المؤمنين يستوفى الله جل وعز في جميع أموره

ويستخيره فيها خاصتها وعامتها، لطيفها وجليلها، استخارة من يوقن أن البركة وخيرة البدء والعاقبة في قضائه وما يلهمه من إرشاد وتسديد رأي وإثبات صواب، وقد رأى أمير المؤمنين عندما استخار الله تبارك اسمه فيه من أمر القاسم بن الرشيد فيما كان إليه من ولاية العهد خلعه عن ذلك وصرفه عنه، فأظهر ذلك فيمن بحضورك وأمر بالكتاب إلى العمال في نواحي عملك وثورك وولاية الأمصار، فقد أمل أمير المؤمنين أن يكون ذلك توفيقاً من الله تبارك اسمه ورشداً ألهمه إياه إذ كان به توفيقه وعليه معوله وإليه رجوعه فيما يرم ويمضي، فامثل ما حدث لك أمير المؤمنين وانته إليه واكتب بما يكون منك فيه إن شاء الله.

قال: ونظر المأمون يوماً إلى ابنه العباس وأخيه المعتصم، فابنه العباس يتخذ المصانع ويبني الضياع والمعتصم يتخذ الرجال، فقال شعراً:

يبني الرجال وغيره يبني القرى ... شتان بين قرى وبين رجال  
قلق بكثرة ماله وضياعه ... حتى يفرقه على الأبطال  
وأنشده في مثله:

لما رأيتك لا تجود بنائل ... وتظنّ بالمعروف ظنّ الساقط  
ورأيت همّتك التي تعلو بها ... سوط الشريد وشمّ ريح الغائط  
وإذا تكلف حاجة ضيعتها ... بتغافل عنها كأنك واسطي  
لا للمكارم تشرّب بنهضة ... ولدى المكاره كالحمار الضارط  
أيست نفسي من رجائك دهرها ... ونقشت شبهك صورة في حائط  
وقال آخر، سامحه الله عز وجل:

إذا أنت لا تُرجي لدفع ملامة ... ولا أنت في المعروف عندك مطمه  
ولا أنت ذو جاهٍ يعاش بجاهه ... ولا أنت يوم الحشر ممن يشفع  
فموتك في الدنيا وعيشك واحدٌ ... وعود خلالٍ من نوالك أنفع  
ولآخر، سامحه الله وعفا عنه:

كلما قلت ويك للكلب إخساً ... لحظتني عينك لحظة تمه  
أتراني أظنّ أنك كلبٌ ... أنت عندي من أبعد الناس همّه

### محاسن كرم الصحبة

قال ابن طاهر: حدثني عن عبد الله بن مالك قال: كنت أتولى الشرطة للمهدي وكان يبعث إليّ في ندماء الهادي ومغنيه أي أضربهم وأحبسهم صيانة له عنهم، فبعث الهادي يسألني الرفق بهم والترفيه عنهم، فلا ألتفت إلى ذلك وأمضي إلى ما يأمر به المهدي، فلما ولي الهادي الخلافة أيقنت بالتلف فبعث إليّ يوماً فدخلت عليه متكفناً متحطاً، فإذا هو على كرسي والنطع والسيف بين يديه، فسلمت فقال: لا سلم الله عليك! تذكر يوم بعثت إليك في أمر الحراني لما أمر أمير المؤمنين، رضي الله عنه، بضربه فلم تجبني في فلان وفي فلان، وجعل يعدّ ندماءه، ولم يلتفت إلى قولتي؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أفتأذن لي في استيفاء الحجة؟

قال: نعم، قلت: نشدتك الله يا أمير المؤمنين أيسرك أن وليني ما ولايتي أبوك وأمرتني بأمر فبعث إلي بعض بنيك بأمر يخالف أمرك فاتبعته وأمره وعصيت أمرك؟ قال: لا، قلت: فكذلك أنا لك وكذا لأبيك وأخيك. فاستدناي فقبلت يده وأمر بخلع فضبت عليّ وقال: قد وليت ما كنت تتولاه فامض راشداً. فخرجت من عنده وصرت إلى منزلي مفكراً في أمره وأمره وقلت حدثت القوم الذين عصيته في أمرهم ندماً ووزراً وكتابه فكأنني بهم حين يغلب عليه الشراب وقد أزالوه عن رأيه فيّ وحملوه في أمره ما كنت أخوفه، قال: فإني جالس وبين يديّ بنية لي والكانون بين يدي ورقاق أشطره بكامخ وأسخره وأطعمه الصبية حتى توهّمت أن الدنيا قد اقتلعت بي وزلزلت لوقع حوافر الدواب وكثرة الضوضاء فقلت: هاه كان والله ما ظننت! فإذا الباب قد فتح وإذا الخدم قد دخلوا وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمار في وسطهم، فلما رأيتهم وثبت عن مجلسي مبادراً وقبلت يده ورجله وحافر حمارة، فقال: يا أبا عبد الله إني فكرت في أمرك فقلت يسبق إلى قلبك أي إذا شربت وجاعني أعداؤك أزالوا ما حسن من رأيي فيك فأقلقك وأوحشك فصرت إلى منزلك لأؤنسك وأعلمك أن السخيمة قد زالت عن قلبي فهات اطعمني ما كنت تأكل وافعل فيه ما كنت تفعل لتعلم أي قد تحرمت بطعمك وأنست بمنزلك فيزول خوفك ووحشتك. فأدريت إليه ذلك الرقاق والسكّرجة التي فيها الكامخ فأكل منها ثم قال: هاتوا الرزلة التي زللتها لأبي عبد الله من مجلسي، فأدخل إليّ أربعمائة بغل موقرة دراهم، فقال: هذه زلتك فاستعن بها على أمرك واحفظ هذه البغال عندك فلعلي أحتاج إليها لبعض أسفاري، وانصرف راجعاً. فأخبرني موسى بن عبد الله أن أباه أعطاه بستانه الذي كان وسط داره فبنى حوله معالف لتلك البغال وكان هو يتولى القيام عليها مدة حياة الهادي.

وحدث من حضر مجلس المأمون وقد أمر بإحضار العباس صاحب الشرطة ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد، فلما حضر قال: يا عباس خذ هذا إليك واستوثق منه ولا يفوتك وبكر به واحذر كل الحذر. قال العباس: فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر يتحرك فقلت في نفسي مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يحب أن يكون معي إلا في بيتي، ثم سألته عن قصته وحاله من أين هو، فقال: من دمشق، فقال: جرى الله دمشق وأهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ قال: لا تزيد أن تسألني، فقلت له: أتعرف فلاناً؟ فقال: ومن أين عرفت ذلك الرجل؟ فقلت: كانت لي قصة معه، فقال: ما أنا بمعرفك خبره أو تعرفني قصتك، فقلت: ويحك! كنت مع بعض الولاة بها فخرج علينا أهلها حتى أراد الوالي أن يدي في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وجميع أصحابه وهربت فيمن هرب، فإني لفي بعض الطريق إذا جماعة يعدون خلفي، فما زلت أحاضرهم حتى مررت على هذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره فقلت: أغني أغناك الله! فقال: لا بأس عليك ادخل الدار، فدخلت، فقالت لي امرأته: ادخل الحجلة، فدخلتها، وأتت الرجال خلفي فما شعرت إلا به وهم معه يقولون: هو والله عندك! فقال: دونكم الدار، ففتشوها حتى لم يبق إلا البيت الذي كنت فيه، فقالوا: هاهنا، فصاحت المرأة وانتهرتهم، فانصرفوا وخرج الرجل فجلس على باب داره ساعة وأنا قائم في الحجلة خائفاً، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك، فجلست، فلم ألبث أن دخل الرجل وقال: لا تخف فقد صرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى، فقلت

له: جزاك الله عني خيراً! ثم ما زال يعاشرين أحسن المعاشرة وأجملها ولا يفتر من القصف والأكل والشرب والفرح أربعة أشهر إلى أن سكنت الفتنة وهدأت، فقلت له: أتأذن لي في الخروج لأتعرّف خبر غلماني ومنزلي فلعلي أن أقف لهم على أثر أو خبر، فأخذ عليّ الموثيق بالرجوع إليه، فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا لا يعرفني ولا يعرف اسمي ولا مخاطبتي بغير الكنية، ثم قال لي: ما تعزم؟ فقلت: قد عزمت على الشخصوص إلى بغداد فإن قافلة تخرج بعد ثلاثة أيام وقد تفضلت عليّ هذه المدة فأسألك أن تعطيني ما أنفقه في طريقي وما ألبسه، فقال: بصنع الله عز وجل، ثم قال لغلام له أسود: انعل الفرس الفلاني، وتقدم إلى من في منزله بإعداد السفر، فقلت في نفسي: ما أشك إلا أنه يخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحي، فوقعوا يومهم ذلك في تعب وكد، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني في السحر وقال: يا أبا فلان قم فإن القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها، فقلت في نفسي: ما أعطاني شيئاً مما سألته، ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان إليّ خفتين مقطوعة جدداً ورائات وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي ثم قدّم البغل فحمل عليه الصناديق وفوقها مفرشان ودفع إليّ نسخة بما في الصناديق وفيها خمسة آلاف درهم وقدّم إليّ الفرس الذي كان أنعله بسرجه ولجامه وقال لي: اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس دوابك، وأقبل هو وامرأته يعتذران من تقصيرهما في أمري، وركب معي فشيّعني، وانصرفت إلى بغداد وأنا على مكافأته ومجازاته فعاقنا عن ذلك ما نحن فيه من الشغل بالسفر واتصالها والتنقل من مكان إلى مكان. فلما سمع الرجل الحديث قال: قد أتاك الله عز وجل بمن تريد مكافأته بلا مؤونة عليك، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا والله ذلك الرجل! ثم قال لي: ما أثبتك! فتعرّف إليّ وأقبل يذكرني بأشياء يتعرف بها إليّ حتى أثبتته وعرفته فما تمالكت أن قمت إليه فقبلت رأسه وقلت له: ما الذي أصارك إلى هذا؟ فقال: هاجت فتنة بدمشق مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إليّ وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وحملت إليه وأمرني عنده غليظ جداً وهو قاتلي لا محالة، وقد خرجت من عند أهلي بلا وصية وقد تعني من عبيدي من ينصرف إلى منزلي بخبري وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تنعم وتبعث إليه حتى يحضر فأتقدم إليه بما أريد، فإذا أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة لي. قال فقال العباس: بصنع الله، ثم قال: عليّ بجدّادين، فأتوا بهم، فحلّ قيوده وما كان عليه من أنواع الأنكال، ودعا بالحجام فأحضر وأخذ من شعره ثم قال: عليّ بمولاه، فأنفذ في طلبه من يحضره. قال الرجل: فلما أن أخذ شعري

أدخلني الحمام فطرح عليّ من ثيابه ما اكتفيت به ثم حضر مولاي وقعد بيكي، فقال العباس: عليّ بفرسي الفلاني والفرس الفلاني والبغل الفلاني، حتى عد عشرًا، ثم قال: عليّ من الصناديق والكسوة بكذا ومن صناديق الطعام بكذا، ثم أمر لي ببدره فيها عشرة آلاف درهم وكيس فيه خمسة آلاف دينار وقال لصاحب شرطته: خذه واعبر به إلى جسر الأنبار، فقلت له: إن أمري غليظ وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأردّ وأقتل، فقال: انج بنفسك ودعني أدبر أمري، فقلت: والله لا أبرح من بغداد أو أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت، فقال لصاحب الشرطة:

إن كان الأمر على هذا فليكن في موضع كذا وكذا فإن سلمت في غداة غدٍ فسيبيل المحبة وإن قلت كنت قد وقيتَه بنفسِي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله أن تذهب من ماله شيئاً قيمته درهم وتخلصه حتى تخرجه من بغداد. دخلني الحمام فطرح عليّ من ثيابه ما اكتفيت به ثم حضر مولاي وقعد يبكي، فقال العباس: عليّ بفرسي الفلاني والفرس الفلاني والبغل الفلاني، حتى عد عشرًا، ثم قال: عليّ من الصناديق والكسوة بكذا ومن صناديق الطعام بكذا، ثم أمر لي ببدره فيها عشرة آلاف درهم وكيس فيه خمسة آلاف دينار وقال لصاحب شرطته: خذه واعبر به إلى جسر الأنبار، فقلت له: إن أمري غليظ وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأردّ وأقتل، فقال: انج بنفسك ودعني أدبر أمري، فقلت: والله لا أبرح من بغداد أو أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتججت إلى حضوري حضرت، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على هذا فليكن في موضع كذا وكذا فإن سلمت في غداة غدٍ فسيبيل المحبة وإن قلت كنت قد وقيتَه بنفسِي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله أن تذهب من ماله شيئاً قيمته درهم وتخلصه حتى تخرجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة فصيرني في مكان يتق به وتفزع العباس لنفسه واغتسل وتحتط وتكفن. قال العباس: فلم أفرغ من ذلك حتى وافني رسل المأمون في السحر وقالوا: أمير المؤمنين يقول هات الرجل، فسكتّ وأتيت الدار وإذا أمير المؤمنين جالس عليه ثيابه أمام فراشه، فقال: الرجل! فسكتّ، فقال: ويحك الرجل! فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني، فقال: أعطي الله عهداً لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك! فقلت: لا والله ما هرب، فاسمع مني حديثي وحديثه ثم أنت أعلم بما تفعله في أمرنا، قال: قل، فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كذا وكذا، وقصصت عليه القصة وعرفته أي كنت أريد مكافأته فشغلت عن ذلك حتى إذا كان البارحة عرفته وعبرت به جسر الأنبار وقلت: أنا من سيدي أمير المؤمنين بين أمرين، إما تصفح عني وإما قلني وأكون قد كافيتَه ووقيتَه بنفسِي كما وقاني بنفسه. فلما سمع المأمون الحديث قال: ويحك! لا جزاك الله خيراً عن نفسك وعننا وعن هذا الفتى الحرّ، إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافيه بعد المعرفة بهذا! لم لا عرفني خبره فكنت أكافيه عنك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إنه والله هاهنا قد حلف أنه لا يبرح حتى يعرف سلامتي فإن احتيج إلى حضوره حضر، قال: وهذه والله منه أعظم من الأولى، فاذهب إليه الآن وطيب نفسه وسكن روعه وتعبه به إليّ حتى أتولي مكافأته عنك. فصرت إليه وقلت: ليسكن روعك إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت، فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء غيره، ثم قهياً للصلاة فصلى ركعتين ثم جننا فلما مثل بين يدي المأمون أدناه حتى أجلسه إلى جانبه وآنسه وحادثه حتى حضر الغداء، ثم قال: الطعام، فأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستغفاه، ثم قال المأمون: علي بعشرة أفراس بسروجها ولجمها وعشرة بغال بجميع آلتها وبعشر بدر وبعشر نخوت وعشرة مماليك بدواتهم وجميع آلتهم، فدفع ذلك إليه، وكتب إلى عامله بالوصاية عليه وأوغر خراجه وكتب إلى صاحب البريد أن تنفذ كتبه وصرفه إلى بلده. قال العباس: فكان إذا ورد له كتاب في خريطة يقول لي المأمون: يا عباس هذا كتاب صديقك.

وحدّث رجل عن جعفر العطار قال: بينما يجيى بن أكتهم يماشى المأمون في بستان موسى والشمس عن يمينه والمأمون في الظل وقد وضع يده على عاتق يجيى وهما يتحدّثان إذ رأى المأمون أن يرجع في الطريق الذي جاء منه، فلما انتهى إلى الموضع الذي قصده قال يجيى: إنك جئت وعن يسارك الشمس وقد أخذت منك فكن أنت الآن في منصرفك حيث كنت وأكون أنا حيث كنت أنت، فقال يجيى: والله يا أمير المؤمنين لو أمكنتني أن أفيك بنفسي من هول المطع لفعلت فكيف لا أصبر على أذى الشمس ساعة؟ فقال: والله لا بدّ من أن آخذ منها كما أخذت منك وتأخذ من الظل كما أخذت منه! فصار المأمون في موضعه وصر يجيى في موضع المأمون وتماشيا وأخذ بيده فوضعها على عاتقه حتى صار إلى المجلس.

وحدّث رجل من آل اسوار بن ميمون عن عمه عبد الله بن اسوار قال: دخلت على يجيى بن خالد البرمكي يوماً فقال: اجلس، وكت أحد كتابه فقلت: ليست معي دواة، فقال: ويحك! في الأرض صاحب صناعة تفارقه آله؟ وأغلظ لي في حرف علمت أنه أراد به خطي وأراني بعض الثقال في الكتاب ظهر لي به أنه أراد خطي على الأدب لا غير، ثم دعا بدواة فكتبت بين يديه كتاباً منه إلى الفضل ابنه، ورأى مني بعض الصجر في ما كتبت فتوهم أن ذلك من أجل الكلمة التي كلمني بها، فأراد أن يحو عن قلبي ما توهمه عليّ فقال: عليك دين؟ قلت: نعم، قال: من دينك؟ قلت: ثلاثمائة ألف درهم، فوقع بخطه إلى الفضل في الكتاب:

وكلّكم قد نال شيعاً لبطنه ... وشبع القتي لؤم إذا جاع صاحبه

ثم قال: إن عبد الله ذكر أن عليه ديناً يخرج منه ثلاثمائة ألف درهم فإذا نظرت في كتابي هذا وقيل أن تضعه من يدك فأقسمت عليك لما حملت ذلك إلى منزله من أخصّ مال قبلك. قال: فحملها الفضل إليّ وما أعلم لها سبباً إلا تلك الكلمة.

وحدّث إبراهيم بن ميمون قال: حدثني جبريل بن مجتيشوع قال: اشتريت ضيعة فنقدت بعض الثمن وتعذر عليّ بعضه فدخلت على يجيى وعنده ولده وأنا أفكر فقال لي: ما لي أراك مفكراً؟ فقلت: أنا في خدمتك وقد اشتريت ضيعة بسبع مائة ألف درهم ونقدت بعض الثمن وتعذر عليّ بعضه.

فدعا بالدواة وكتب: يعطى جبريل سبع مائة ألف درهم. ثم دفع الكتاب إلى ولده فوقع فيه كل واحد منهم بثلاثمائة ألف درهم، فقلت: جعلت فداك! قد أدّيت عامة الثمن وإنما بقي عليّ أقله، فقال: اصرف ذلك في بعض ما ينوبك. ثم صرت إلى الرشيد فقال: ما أبطأ بك؟ قلت: يا أمير المؤمنين كنت عند أهلك وإخوتك ففعلوا بي كذا وكذا، قال: فما حالي أنا؟ ثم دعا بدابته فركب إلى يجيى فقال له: يا أبت خيرني جبريل بما كان فما حالي من بين ولدك؟ فقال: يا أمير المؤمنين مرّ له بما شئت يحمل إليه، فأمر بحمل مال إلى جبريل.

وكان إبراهيم بن جبريل على شرطة الفضل فوجهه إلى كابل فافتتحها وغنم غنائم كثيرة ثم ولاه سجستان، فلما انصرف منها كان عنده من مال الخراج أربعة آلاف ألف درهم، فلما قدم بغداد وبنى داره في البغويين استزار الفضل بن يجيى ليريه نعمته عليه وأعد الهدايا والطرف وآنية الذهب والفضة والوصفاء والوصائف والدواب والقباب والثياب وما هتياً لثله ووضع الأربعة الآلاف الألف الدرهم في ناحية من الدار، فلما تغدّى الفضل قدّم إليه تلك الهدايا، فأبى أن يقبل منها شيئاً وقال: لم آتك لأسلبك! فقال: أيها الأمير إنهما نعمتك عليّ! قال: ولك عندنا مزيد. قال: فلم يزل يطلب إليه فأخذ من جميع ذلك سوطاً سجزيّاً، فقال:



هذا من آلة الفرسان، فقال إبراهيم: أيها الأمير فهذا المال من مال الخراج تأمر بقبضه؟ قال: هو لك، فأعاد عليه القول مراراً، فقال: ما لك بيت يسعه، فوهب له المال بعد أن كان قد صار إليه ألف ألف درهم.

قال: ودخل قوم من حاشية المنصور وخدمه عليه فرأى منهم رجلاً عليه سوادٌ خلقٌ فقال له: يا فلان ما لي أرى سوادك منقطعاً، أما تقبض رزقك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين ولكن أبي توفي وترك ديناً فبعت تركته في قضاء دينه وصرفت أكثر رزقي إلى حرمتي وولده من بعده، فقال: أعد علي ما قلت، فأعاده، فقال: ما أحسن ما فعلت! اغد علي في غدٍ، فغدا عليه فوجد الربيع جالساً على الكرسي، فقال: قد سألت عنك أمير المؤمنين فادخل، فدخل فوجده قائماً يصلي، فقضى صلاته وقال: ألم آمرك أن تغدو؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما قصرت في الغدو عند نفسي، قال: خذ ما تحت تلك المضربة، وإذا السراج يزهر وسرير صغير في ناحية اجلس ينام عليه، فرفعت المضربة فإذا دنانير، فجعلت أحتوها في كمي ثم دعوت له هو وخرجت، فبصر بصفرة دينار في ضوء السراج، فدعا لي فقال لي: انظر ما على السرير، فإذا دينار فأخذته، فقال: ادن مني، فدنوت منه فعرك أذني تعريكاً شديداً فقال: تترك ديناراً وفيه نفقة يومك؟ قال: فأخذت الدينار، ووزنت الدينانير وإذا هي ألف دينار عددها تسعمائة وتسعة وتسعون ديناراً في عافية وأخذت واحداً بعرك الأذن. قيل: وقال علقمة بن لبيد لابنه: يا بني إن نازعتك نفسك يوماً إلى صحبة الرجال لحاجتك إليهم فاصحب من إن صحبته زانك، وإن تخففت له صانك، وإذا نزلت بك نازلة مانك، وإن قلت صدق قولك، وإن صلت به شدد صولك. اصحب من إذا مددت يدك لفضل مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن بدت منك ثلثة سدها. اصحب من لا تأتيك منه البوائق ولا تخلف عليك منه الطرائق ولا يخذلك عند الحقائق. وقال بعض الحكماء: إذا رأيت كلباً ترك صاحبه وتبعك فارجمه بالحجارة فإنه تاركك كما ترك صاحبه. وقال آخر: اصحب من خولك نفسه ومملك خدمته وتخيّر لزمانه فقد وجب عليك حقه وذمامه، وكان يقال من قبل: صلتك، فقد باعك مروءته وأذلّ لقدرك عزّه.

وقال بعضهم: أنا أطوع لك من اليد وأذل من النعل.

وقال بعضهم: أنا أطوع لك من الرداء وأذل من الحذاء.

قيل: وقال ابن أبي دؤاد لرجل انقطع إلى محمد بن عبد الملك الزيات: ما خبرك مع صاحبك؟ قال: لا يقصر في الإحسان إليّ، قال: يا هذا إن لسان حالك يكذب لسان مقالك.

مساوي الصحبة قال: كان يوسف بن عمر يتولى العراقيين لهشام بن عبد الملك، وكان مذموماً في عمله فحدث المدائني قال: وزن يوسف بن عمر درهماً فنقص حبة فكتب إلى دور الضرب بالعراق فضرب أهلها مائة سوط.

قيل: وخطب في مسجد الكوفة فتكلم إنسان مجنون فقال: يا أهل الكوفة ألم أمهكم أن يدخل مجانينكم المسجد؟ اضربوا عنقه! فضربت عنقه.

قال: وقال لهمام بن يحيى وكان عامله: يا فاسق أخربت مهرجاننقذ! قال: إني لم أكن عليها إنما كنت على ماه دينار وتقول أخربت مهرجاننقذ! فلم يزل يوسف يعذبه حتى قتله.

قال وقال لكاتبه: ما حبسك عني؟ قال: اشتكيت ضرسني، قال: تشتكي ضرسك وتقعدي عن الديوان؟ ودعا له بالحجام وأمره بقلع ضرسين من أضراسه.

وعن المدائني قال: حدثني رضيعٌ كان ليوسف بن عمر من بني عبس قال: كنت لا أحجب عنه وعن حرمة فدعا ذات يوم بجوار له ثلاث ودعا بخصي أسود يقال له حديج فقرب إليه واحدة فقال لها: إني أريد الشخصوخ أفأخلفك أم أشخصك معي؟ فقالت: صحبة الأمير أحب إليّ ولكني أحسب أن مقامي وتخلفي أعفى وأخف عليّ، قال: أحببت التخلف للفجور! اضرب يا حديج، فضربها حتى أوجعها، ثم أمره أن يأتيه بأخرى قد رأت ما لقيت صاحبها، فقال لها: إني أريد الشخصوخ أفأخلفك أم أخرجك؟ قالت: ما أعدل بصحبة الأمير شيئاً بل يخرجنني، قال: أحببت الجماع ما تريد أن يفوتك! اضرب يا حديج، فضربها حتى أوجعها، ثم أمر بالثالثة أن يأتيه بها وقد رأت ما لقيت المقدمتان، فقال لها: أريد الخروج أفأخلفك أم أشخصك؟ قالت: الأمير أعرف أي الأمرين أخف عليه، قال: اختاري لنفسك، قالت: ما عندي لهذا اختيار فليختر الأمير، قال: قد فرغت أنا الآن من كل شيء ومن كل عمل ولم يبق عليّ إلا أن أختار لك! أوجع يا حديج، فضربها حتى أوجعها. قال الرجل: وكأنا يضربني من شدة غيظي عليه، فولّت الجارية وتبعها الخادم، فلما بعدت قالت: الخيرة والله في فراقك، ما تقرّ والله عين أحدٍ بصحبتك! فلم يفهم يوسف كلامها، فقال: ما تقول يا حديج؟ قال: قالت كذا وكذا، قال: يا ابن الحبيبة من أمرك أن تخبرني؟ يا غلام خذ السوط من يده وأوجع به رأسه! فما زال يضرب حتى اشتفت.

### محاسن السخاء

روي عن نافع قال: لقي يحيى بن زكرياء، عليه السلام، إبليس فقال له: أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك، قال: أحب الناس إليّ كل مؤمن بخيل وأبغض الناس إليّ كل منافق سخي، قال: ولم ذاك؟ قال: لأن السخاء خلق الله الأعظم فأخشى أن يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له. وقال، صلى الله عليه وسلم: السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار، ولجاهلٌ سخي أحب إلى الله تعالى من عابدٍ بخيل، وأدوى الداء البخل.

وعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: ما أشرقت شمس إلا وبجنتيها ملكان يناديان وإنهما ليعرفان الخلاق إلا الثقلين الجن والإنس: اللهم عجل لمنفق خلفاً، اللهم عجل لممسك تلفاً، وملكان يناديان: يا أيها الناس هلمّوا إلى ربكم فإن ما قلّ وكفى خير مما كثر وأهوى.

وعن الشعبي قال: قالت أم البنين بنت عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز: لو كان البخل قميصاً ما لبسته ولو كان طريقاً ما سلكته، وكانت تعتق كل يوم رقبة وتحمل على فرس في سبيل الله، وكانت تقول: البخل كل البخل من بخل على نفسه بالجنة.

قيل: وأعتقت هند بنت المهلب في يوم واحد أربعين رقبة.

وروي عن أم ذر قالت: أرسل ابن الزبير إلى عائشة بثمانين ومائة ألف درهم فدعت بطبق وهي يومئذ

صائمة فقسمته بين الناس حتى أمسيت وما عندها من جميع ذلك درهم واحد، فقالت: يا جارية هلمّي فطّريني، فجاءتها بجز زيت، فقالت لها: يا عائشة أما استطعت مما قسمت أن تشتري لحماً بدرهم؟ فقالت: لا تغضبي فلو ذكرتني لفعلت، وقيل: إنها تصدّقت بسبعين ألف درهم وإن درعها لمرقّع.

وقال بعض الحكماء: ثواب الجود خلف ومحبة ومكافأة، وثواب البخل حرمان وإتلاف ومذمة. وقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: يا علي كن شجاعاً فإن الله جل وعز يجب الشجاع، يا علي كن سخياً فإن الله عز وجل يحب السخاء، يا علي كن غيوراً فإن الله عز وجل يحب الغيور، يا علي وإن سائل سألك حاجة ليس لها بأهل فكن أنت لها أهلاً.

وقال، صلى الله عليه وسلم: السخاء شجرة في الجنة، أغصانها في الدنيا من أخذ منها بغصن قاده ذلك الغصن إلى الجنة.

قيل: وقال عبد العزيز بن مروان: لو لم يدخل على البخلاء في بخلهم إلا سوء ظنهم بالله عز وجل لكان عظيماً.

وقال، صلى الله عليه وسلم: تجافوا عن ذنب السخي فإن الله جل وعز يأخذ بيده كلما عثر. وقال بهرام جور: من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الأشياء فليظنر إلى ما جاد الله عز وجل به من المواهب الجليلة النفيسة والنسيم والريح وما وعدهم في الجنان فإنه لولا رضاه الجود لم يصطنعه لنفسه.

قال: وقال الموبد لأبرويز: أكتتم أنتم وآباؤكم تمّنون بالمعروف وترصدون عليه المكافأة؟ قال: لا، ولا نستحسن ذلك لخولنا وعبيدنا فكيف نرى ذلك لأنفسنا؟ وفي كتاب ديننا: إن من أظهر معروفاً خفياً لينطاول به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واستوجب أن لا يعد في الأبرار ولا يُذكر في الأتقياء والصالحين.

قال: وسئل الإسكندر: ما أكثر ما سررت به من ملكك؟ قال: اقتداري على اصطناع الرجال والإحسان إليهم.

قال: وقال أرسطاطاليس في رسالة له إلى الإسكندر: اعلم أن الأيام تأتي على كل شيء فتخلق الآثار وتميت الأفعال إلا ما رسخ في قلوب الناس وأودع قلوبهم محبة بماثره يبقى بها حسن ذكرك وكريم فعالك وشريف آثارك.

قيل: ولما قدم بزرجمهر إلى القتل قيل له: أنت في آخر وقت من أوقات الدنيا وأول وقت من أوقات الآخرة فتكلم بكلام تُذكر به، فقال: أي شيء أقول؟ الكلام كثير ولكن إن أمكنك أن تكون حديثاً حسناً فافعل.

قيل: وتنازع رجل من أبناء الأعاجم وأعرابي في الضيافة فقال الأعرابي: نحن أقرى للضيف، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأن أحدنا ربما لم يملك إلا بعيراً فإذا حل به ضيف نحر له، قال العجمي: فنحن أحسن مذهباً في القرى منكم، قال: وما ذاك؟ قال: نسمي الضيف مهمان، ومعناه أنه أكبر من في المنزل وأملكنا به.

قال بعض الحكماء: قام بالجود من قام بالجهود.

وقيل: من لم يرضنّ بالموجود هو الجواد.

وقال المأمون: الجود بذل الموجود، والبخل سوء الظن بالمعبود.

قيل: وشكا رجل إلى إياس بن معاوية كثرة ما يهب ويصل وينفق، فقال: إن النفقة داعية إلى الرزق، وكان جالساً بين بابين فقال للرجل: اغلق هذا الباب، فأغلقه، فقال: هل تدخل الريح البيت؟ قال: لا، قال: فافتحه، ففتحه، فجعلت الرياح تحترق في البيت، فقال: هكذا الرزق إنك إذا غلقت الباب لم تدخل الريح وكذلك إذا أمسكت لم يأتك.

قيل: ووصل المأمون محمد بن عباد المهلب بمائة ألف دينار ففرقها على إخوانه، فبلغ ذلك المأمون فقال: يا أبا عبد الله إن بيوت المال لا تقوم لهذا! فقال: يا أمير المؤمنين البخل بالموجود سوء الظن بالمعبود.

وعن أمية بن يزيد الأموي قال: كنا عند عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية فجاءه رجل من أهل بيته فسأله المعونة على ترويح، فقال له قولاً ضعيفاً فيه وعد وقلة طمع، فلما قام من عنده ومضى دعا صاحب خزانته وقال: أعطه أربعمائة دينار، فاستكثرناها وقلنا: كنت رددت عليه رداً ظننا أنك تعطيه شيئاً قليلاً فإذا أنت قد أعطيته أكثر مما أمل! فقال: إني أحب أن يكون فعلي أحسن من قولي.

وبحاثم يضرب المثل في السخاء، فحدثنا عن بعض رجالات طيء قال: كان حاتم جواداً شاعراً، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظفراً إذا قاتل غلب، وإذا غنم أنهب، وإذا سئل وهب، وإذا ضرب بالقدح سبق، وإذا أسر أطلق، وكان أقسم أن لا يقتل واحداً منه، ولما بلغ حاثماً قول التلمس:

وأعلم علم حتى غير ظنٍ ... وتقوى الله من خير العتاد

لحفظ المال خيرٌ من بغاه ... وطوف في البلاد بغير زاد

قليل المال تصلحه فيبقى ... ولا يبقى الكثير على الفساد

قال: ما له، قطع الله لسانه، حرّض الناس على البخل؟ أفلا قال:

فلا الجود يفني المال قبل فنائه ... ولا البخل في مال الشحيح يزيد

فلا تلتمس رزقاً بعيشٍ مقترٍ ... لكل غدٍ رزقٌ يعود جديد

ألم تر أن الرزق غادٍ ورائحٌ ... وأن الذي يعطيك غير بعيد

قيل: ولما مات حاتم خرج رجل من بني أسد يعرف بالخبيري في نفرٍ من قومه وذلك قبل أن يعلم كثير من العرب بموته فأناخوا قبره، فقال: والله لأحلفن للعرب أني نزلت بحاتم وسألته القرى فلم يفعل، وجعل يضرب برجله قبره وهو يقول:

أعجل أبا سفانةٍ فراكا ... فسوف أنبي سائلي ثناكا

فقال بعضهم: ما تنادي رمة! وياتوا مكائهم، فقام صاحب القول من نومه فزعاً فقال: يا قوم عليكم مطاياكم فإن حاثماً أنشدني:

أبا الخبيري وأنت امرؤٌ ... ظلوم العشيرة شتامها

أتيت بصحك تبغي القرى ... لدى حفرةٍ صحب هامها

تبغي لي الدم عند الميت ... وحولك غوثٌ وأنعامها

فإننا سنشبع أضيافنا ... ونأتي المطيَّ فنعتامها

قيل: ونزل على حاتم ضيف ولم يحضره قرى فحمر ناقة الضيف وعشاه وغداه ثم قال له: إنك أقرضتني ناقيتك فغديتك بما فاحتكم عليّ، قال: راحلتين، قال: لك عشرون أرضيت؟ قال: نعم وفوق الرضى، قال: فلك أربعون، ثم قال لمن بحضرته من قومه: من أتانا بناقة فله ناقتان بعد الغارة، فأتوه بأربعين فدفعها إلى ضيفه.

وحكوا عن حاتم أنه خرج في الشهر الحرام يطلب حاجةً، فلما كان بأرض عنزة ناداه أسير لهم: يا أبا سفانة أكلني الإسار، قال: ويلك والله ما أنا في بلادي وما معي شيء وقد أسأت أن توهمت بي! فذهب إلى العنزيين فسأوهمهم به واشتراه منهم وقال: خلوا عنه وأنا أقيم مكانه في قيده حتى أؤدي فداه، ففعلوا، فأتاهم بفدائه. وقيل في المثال: هو أجود من كعب بن مامة، وكان من إياد، وبلغ من جوده أنه خرج في ركب وفيهم رجل من أهل النمر بن قاسط في شهر ناجر، والنجر العطش، فصلوا وتصافوا ماءهم فجعل النمر يشرب نصيبه فإذا أصاب كعباً نصيبه قال: اعط أحك يصطح، فيؤثره على نفسه، حتى أضر به العطش، فلما رأى ذلك استحث راحلته وبادر حتى رفعت له أعلام الماء وقيل له: رد كعب فإنك وارد، فغلبه العطش فمات ونجا رفيقه.

وقيل في المثال: هو أسمح من لافظة، وهي العنز تُستدعى للحلب فتجيء إليه وهي تلفظ بجرّتها فرحاً بالحلب، وقال الشاعر:

يداك يدٌ خيرها يرتجى ... وأخرى لأعدائها غائظه

فأما التي خيرها يرتجى ... فأجود جوداً من اللافظة

وأما التي شرها يتقى ... فنفس العدوِّ بما فائظه

قيل: وخرج معاوية بن أبي سفيان ذات يوم فقام إليه رجل فقال: قد أملتك لمهمٍ فما عوضني من ذلك؟ قال: إبلاغك أمنيتك فتمنّ، قال: ألف دينار، قال: هي لك ومثلها استظهاراً لبقاء النعمة عليك. وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: يا بني إن ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم، ودوابكم تحت غيركم أحسن منها تحتكم، وكان يقول لولده: لا تتكلموا على ما سبق من فعلي وافعلوا ما ينسب إليّ، ثم قال متمثلاً:

إنما المجد ما بنى والد الصد ... ق وأحيا فعاله المولود

ويقول: ابتداء الفضل يدٌ موفورة والبذل بعد الطلب يدٌ مقبوضة.

فأما صلوات الخلفاء وسخاؤهم فإنه حدثنا هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي قال: حدثني علي بن صالح قال: كنت يوماً على رأس الهادي وأنا غلام وقد جفا المظالم ثلاثة أيام عاقر العقار فيها، فدخل عليه الحراني فقال: يا أمير المؤمنين إن العامة لا تقاد، أو قال: لا تقاد لما أنت عليه، لم تنظر في المظالم منذ ثلاثة أيام، فالفتت إليّ فقال: يا علي ائذن للناس عليّ بالجفلى لا بالنقرى، فخرجت من عنده وأنا أظير على وجهي لا أدري ما قال لي، فقلت: أرجع فأسأله عما قال فيقول تحجيني ولا تعلم كلامي؟ ثم أدركني ذهني فبعثت إلى أعرابي كان وفد علينا فسألته عن الجفلى والنقرى، فقال: الجفلى جفالة الرجال والنقرى

ترتيبهم، فأمرت بالاستور فرفعت وبالأبواب ففتحت فدخل الناس على بكرة أبيهم فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل، فلما تقوض المجلس قلت: يا أمير المؤمنين كلمتني بكلام لم أعرفه فبعثت إلى أعرابي كان عندي ففسره لي وفهمني فكافه عني يا أمير المؤمنين، فقال: نعم مائة ألف درهم تحمل إليه، فقلت: يا أمير المؤمنين أعرابي جلفٌ وفي عشرة آلاف درهم ما أغناه! فقال: ويحك أجود وتبخل؟

قال: وحدثنا عبد الله بن عمرو والبلخي عن ابن دأب أنه كان يأكل مع الهادي وينادمه وكان يدعو له بتكاءٍ وما كان يفعل ذلك في مجلسه بغيره، وكان لذيذ المفاكهة طيب المسامرة كثير النادرة جيد الشعر حسن الانتزاع، قال: فأمر له ذات ليلة بثلاثين ألف دينار، فلما أصبح وجهه قهرمانه إلى باب موسى وقال له: التق الحاجب فقل له يوجه إلينا بهذا المال، فلقني الحاجب فأتاه برسالته فتبسم وقال: هذا ليس إلي، فانطلق إلى صاحب التوقيع ليخرج إليك كتاباً إلى الديوان فتدبره ثم تفعل فيه كذا وكذا، فرجع إلى ابن دأب فأخبره، فقال: دعها ولا تعرض لها، قال: فبينما موسى في مستشرف له إذ نظر إلى ابن دأب قد أقبل وليس معه إلا غلام واحد، فقال لإبراهيم الحرائي: أما ترى ابن دأب ما غير من حاله شيئاً وقد بررناه بالأمس لنرى أثر ذلك عليه؟ فقال إبراهيم: إن أمرني أمير المؤمنين تعرضت له بشيء من أمره، قال: لا، هو أعلم بأمره، ودخل ابن دأب وأخذنا في حديثه إلى أن عرض له موسى بذكر ذلك فقال: أرى ثوبك غسلاً وهذا شتاء يحتاج فيه إلى الثوب الجديد اللين، فقال: يا أمير المؤمنين باعي قصير عما أحتاج إليه، قال: وكيف وقد صرفنا إليك من برنا ما ظننا أن فيه صلاح شأنك؟ قال: ما وصل إلي ولا قبضته، فدعا صاحب بيت مال الخاصة وقال: عجل له الساعة ثلاثين ألف دينار، فأحضرت وجلعت بين يديه.

وقال الحسن بن يحيى بن عبد الخالق: حدثني محمد بن القاسم بن الربيع قال: أخبرني محمد بن عمرو الرومي قال: حدثني أبي قال: جلس الهادي مجلساً خاصاً فدعا بإبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر وإبراهيم بن سلم بن قتيبة بن مسلم والحرائي فجلسوا عن يساره ومعهم خادماً للهادي أسود يقال له أسلم، إذ دخل صالح صاحب المصلى فقال هارون بن المهدي: انذن له، فدخل وسلم عليه وقبل يده وجلس عن يمينه بعيداً، فأطرق موسى ثم النفث إليه وقال: يا هارون كأي بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا وتؤمل ما أنت منه بعيد ودون ذلك خرط القناد، تؤمل الخلافة! قال: فبرك هارون على ركبته وقال: يا موسى إنك إن تجرت وُضعت، وإن تواضعت رفعت، وإن ظلمت خُنت، وإني أرجو أن يفضي إليّ الأمر فأُ نصف من ظلمت وأصل من قطعت وأصير أولادك أعلى من أولادي وأزوجهم بناتي وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدي، فقال له موسى: ذلك الظن بك يا أبا جعفر، ادن مني، فدنا وقبل يده ثم ذهب يعود إلى مجلسه، فقال: لا والشيخ الجليل والملك النبيل أعني أباك المنصور لا جلست إلا معي، فأجلسه في صدر المجلس معه ثم قال: يا حرائي اجمل إلى أخي ألف دينار وإذا افتتح الخراج فأحمل إليه النصف واعرض عليه ما في الخزانة خاصة وسائر الخزائن من مالنا وما أخذ من أهل بيت اللعنة فيأخذ منه ما أراد، قال: ففعل ذلك، فلما قام قال لصالح: أدن دابته إلى البساط، قال عمرو الرومي: وكان هارون يأنس به، قلت: يا سيدي ما الرؤيا التي قال لك؟ قال المهدي: رأيت في منامي كأنني دفعت إلى موسى قضيباً وإلى هارون قضيباً أورق من

قضيبي موسى وأعلى منه، فأما قضيبي هارون فأورق من أوله إلى آخره وكان قضيبي موسى دون قضيبي ذلك، فدعا المهدي الحكم بن موسى العنزي وهو الذي بنى أبوه واسطاً للحجاج فقال له: عبّر هذه الرؤيا، قال: يملكان جميعاً فأما موسى فتقل أيامه وأما هارون فيبلغ مدى آخر ما عاش خليفة وتكون أيامه أحسن أيام وأنصرها ودهره أحسن دهر، قال: فلم يلبث إلا أياماً يسيرة حتى مات موسى وتولى الأمر هارون فزوج حمدونة من جعفر بن موسى وفاطمة من إسماعيل ووفى بكل ما قال، فكان دهره أحسن الدهور. حدثنا محمد بن علي بن الحسين العلوي قال: كتبت عند عمر بن الفرج الرخجي في اليوم الذي عقد فيه المأمون لأخيه أبي إسحاق على ثغر المغرب ولابنه العباس على الشام والجزيرة ولعبد الله بن طاهر على الجند ومحاربة بابك وعند عمر جماعة من الهاشمين فتذاكرنا أمر هؤلاء الثلاثة فقال عمر: فرق أمير المؤمنين في هؤلاء الثلاثة ما لم يفرق مثله أحد منذ كانت الدنيا، أمر لأخيه أبي إسحاق بخمسة مائة ألف دينار ولابنه العباس بخمسة مائة ألف دينار ولعبد الله بن طاهر بخمسة مائة ألف دينار، فمن سخت نفسه بمثل هذا؟

وكان للبرامكة في هذا الشأن ما لم يكن لأحد من الناس منها، إنهم كانوا يخرجون بالليل سراً ومعهم الأموال يتصدقون بها، وربما دقوا على الناس أبوابهم فيدفعون إليهم الصرة فيها الثلاثة الآلاف إلى الخمسة الآلاف والأكثر من ذلك والأقل، وربما طرحوا ما معهم في عتب الأبواب، فكان الناس لا يعتيدهم ذلك يعدون إلى العتب إذا أصبحوا يطلبون ما ألقى فيها.

ومنهم خالد بن برمك فإنه حدثنا يوسف بن سلام الرعفراني قال: حدثني أبي قال: قال خالد بن برمك يوماً وهو بالري وأراد الخروج إلى مجلس له وإخراج دوابه إلى الخضرة ونحن قيام بين يديه: من يخرج مع هذه الدواب؟ قال أبي: أنا، وليس أحد يجتريء أن يتكلم، فقال: أخرج معها، فخرجت وكتبت أحسن إليها، فلما رددتها حمد أثري فيها، فقلت: أيها الأمير لي حاجة، فقال: وما حاجتك؟ قلت: ثلاثة آلاف درهم، قال: ثلاثة آلاف درهم؟ قلت: نعم، قال: أعطوها ثلاثة آلاف درهم، وقال لي: اشتريها الآن واعتقها، ثم قال: ما تريد؟ قلت: الحج أحج وتحج هي أيضاً، قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم، قلت: نحتاج إلى خادم يخدمنا، قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم لثمن الخادم، قلت: نحتاج إلى ثمن كسوة، قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم لكسوتهم، فلم أزل أقول وأعد شيئاً شيئاً حتى قلت: وأحتاج إلى منزل وأحتاج إلى فرس، وهو يقول أعطوه ثلاثة آلاف درهم، حتى أخذت ثلاثين ألف درهم.

قال: وحدثنا يزيد البرمكي قال: كسا خالد كل ثوب كان له حتى لم يبق عليه من كسوته إلا طيلسان خلق، فاتصل خبره في كسوته بامرأته أم خالد بنت يزيد وكانت بالري فبعثت إليه بكسوة من الري طيلسان مطبق لم أر مثله جودةً وحسناً وسعة، وكان خالد ذا بسطة في الجسم فكان يحتاج إلى أسبع ثوب وأتمه، فوضع بين يديه فظفر إليه ثم رفع رأسه إلي فقال: يا يزيد كيف ترى هذا الطيلسان؟ قلت: ما رأيت مثله وإن بالأمير إليه حاجة، قال خالد: اصنع به ماذا شئت، قلت: تلبسه أيها الأمير، قال: أنا والله إلى غير هذا أحوج، قلت: وما هو؟ قال: أن تقوم الساعة على شريف من أشرف الناس أو حرّ من أحرارهم فتتحفه به فيقوم فيلبسه كل يوم عيد أو يخرج إذا خرج نحو أهله فيلبسه عند قدومه عليهم فيقول هذا كسوة خالد،

هذا والله أفضل وأشرف من لبيسي إياه، قال: فكساه بعض عفاتة.

يجي بن خالد فإنه حدثنا علي بن الحسين الأشقر عن عبد الله بن أسوار قال: كنت أخط بين يدي يجي وكان خطي يعجبه، فبينما أنا جالس بين يديه إذ ناوله رجل كتاباً ففنى أعلاه وجعل يقرؤه، فدخل الفضل ابنه فسلم وجلس ثم أقبل على رجل يحدته وطرف يجي في الكتاب الذي بيده، فقال الفضل لذلك الرجل: إني لأعجب كثيراً من أمر نحن فيه! كان الرجل يصل الرجل بخمسين ألف درهم فتغنيه وعشيرته فيكتفون بها ونرى ذلك في وجوههم ويتبين عليهم أثره ونحن نصل الرجل بالخمسة المائة الألف الدرهم والأكثر فلا نرى ذلك في وجوههم! فالفتت إليه يجي وقطع قراءة الكتاب فقال: يا أبا العباس إذا كان أمل الرجل ألف ألف درهم وأعطيته خمس مائة ألف لم تقع منه موقعاً وإنما يرى في وجه الرجل ما بلغ به الأمل، فعجب أهل المجلس من كرمه وقوله وما زالوا يحكونه عنه.

وحدث ابن مزروع عن أبيه قال: كنت أسير في موكب يجي بن خالد فعرض له رجل من العامة ومعه كتاب فقال: أصلح الله الأمير، اختتم هذا الكتاب، فبادر إليه الشاكرية يزجرونه من حواشي موكبه، فقال: دعوه قبل أن لا تنتفع به، يعني خاتمته، واستدناه فختمه له، وتعجب مسايروه من اغتنامه المعروف وعمله بأفعال الرجال.

وحدث صالح بن سليمان قال: وذكر ليحيى وهو مجاور بمكة أن بجدة قوماً يصيدون السمك ويبيعونه ويشترون طعامهم به فإن لم يجدوا صيداً مكثوا أياماً لا يأكلون يشدّ الرجل على بطنه حجراً ولا يسألون الناس شيئاً وربما مات أحدهم جوعاً، فقال: هؤلاء أعجب قوم سمعت بهم، ينبغي أن نلتمس الثواب فيهم، فبعث فحُمّل إليه بعضهم فسأله عن حالهم فأخبره فقال: وكم أنتم؟ فذكر عدة، فقال: وكلكم على هذه الطريقة؟ قال: نعم، قال: فما يغنيكم؟ قال: تحفر لنا بركة يجتمع فيه ماء السماء فإن الماء يعز بالبلاد إلا على من كانت له مصنعة فيشرب منها ويبيع فضلها وينتفع بشمنه، قال: فبكم يكفي أحدكم في الشهر؟ قال: بأربعة دراهم لكل رجل وللمرأة ستة دراهم، قال: فإني قد أجريت لكل رجل عشرة دراهم ولكل امرأة ثمانية عشر درهماً، فهل تزوجون؟ قال: نعم، قال: فكم مهور نسائكم؟ قال: أربع مائة درهم، قال: فإني أمر بإعطائكم ما أجريت عليكم لسبع سنين ولمهور نسائكم عشرين ألف درهم، قال: من يدفع هذا المال إلينا؟ فأشار إلى غلام أمرد معه فقال: ادفع إلى هذا المال، فدفع إليه، فقال: أتأذن أن أشتري، أصلحك الله، من هذا المال تابوتاً أجعله فيه؟ قال: نعم، وأمر باتخاذ بركة لهم بلغت النفقة عليها عشرين ألف درهم. وحدثنا يزيد البرمكي قال: قدم الوافدي من المدينة بأسوأ حال فصار إلى يجي وهو لا يعرفه فوضع الطويلة على رأسه، فركب يجي وخرج فرآه جالساً على باب داره في زي القضاة، فقام الواقدي وأثنى عليه ودعا له، ومر يجي في موكبه إلى دار أمير المؤمنين ثم انصرف وإذا الواقدي في مجلسه ذلك، فقام إليه ودعا له وأثنى عليه، فدخل منزله وجلس الواقدي، فسأل يجي عنه وقال: من هذا الشيخ الرثّ الهياة؟ فلم يعرفه أحد. فقال: ويحكم لا أشك إلا أنه شيخ أصيل معه علمٌ وفقه، ودعا بكيس فيه أربعة آلاف دينار وأمر وكيلاً له أن يدفعها إليه، وكان قصارى الواقدي ومناه أن يصله بألف درهم، فخرج الرسول ووضع



الكيس في حجره، فلما رأى عظم الكيس أقبيل يدعوا ليحيى ويثني عليه ثم قام وانصرف إلى منزله وقد أخذته الرعدة والحرص أن يرى ما في الكيس فيعرف منتهاه، فلما صار إلى حجرته استعار من بعض جيرانه ميزاناً وصنجات ثم فتح الكيس وإذا أربعة آلاف دينار فكاد أن يغشى عليه من السرور، فرم من حاله واتخذ ثياباً سويةً وعمد على أن ينصرف إلى المدينة.

فلما كان من الغد بكرّ على يحيى ليودعه فدخل وأنشد فرآه عالماً فقيهاً مسامراً بليغاً فأعجب به، فقام ليودعه فقال: أقم عندنا ولك في كل حول هذا المقدار، فأقام عنده.

وحدثنا يعقوب بن إسحاق قال: رأى رجل من الموالي ليحيى رؤيا، وكان يحيى على حال الخوف والوجل من الهادي، فقص الرؤيا على أبيه، فقال: يا بني هذه والله رؤيا عجيبة وأخلق به لأن الرشيد في حجره وولاية العهد له، قال: يا أبت أفترى أن أخبره بما؟ قال: يا بني لا تفعل فإن السلطان غليظ عليه وهو يرميه بالزندقة وأنا أشفق عليه من إتيانه لأنه لا يقبل مثل هذا في هذا الوقت، فعصى الرجل أباه وأتاه، قال الرجل: فلما دخلت عليه رأيت المصحف بين يديه يقرأ فيه فعجبت مما قيل فيه، فلما خف من عنده دنوت منه فقصت عليه الرؤيا، فقال: يا ابن أخي ما أحسن بالرجل أن يلتبس الرزق بالأحسن الأجل وأقبح به أن يلتبسه على هذا وربما تذكره مما يشبهه! فخرجت من عنده وقد سقط وجهي، فأتيت أبي فأعلمته، فقال: بعداً لك وسحقاً! قد نصحت لك فلم تقبل، ثم أقبيل يشتمه وتشتمه أمه وأهله ويقولون: نشهد عليك أنك من الزنادقة المعطلين! قال: ثم لم يلبث أن توفي الهادي وأفضى الأمر إلى الرشيد وصار يحيى إلى ما صار إليه، فبينما هو في موكبه يوماً إذ بصر بي فوجه إليّ ودعاني، فدخلت عليه وهو على كرسي قد طرح ثوبه وجعل يمسح وجهه، فلما دنوت منه قال: أين كنت عنا؟ قلت: أعزك الله، والله ما لقيت منك ما يدعو إلى إتيانك! قال: ويحك إنك أتيتنا ونحن في حال كنا نتخوف الجلث أن يكون فيها من يسعي بنا والإخوان أن يسعوا بنا ويحتالوا علينا، ولم يكن الرأي أن أجيبك إلا بما أحببتك، ووالله ما فارقتي الفكر في العناية بك والإيجاب لك والمعرفة بحمك منذ وقعت عليك عيني. ثم أمر سالماً بإحضار عشرة آلاف درهم فأحضرت، وأمر بالكتاب إلى سليمان بن راشد بأرمينية فدفع المال إليّ وحملني وخلع عليّ وقال: اذهب فاصلح شأنك وتعال فتسلم كتبك، وأمر لي بعشر من دواب البريد، فانصرفت إلى منزلي وتحني دابة وعلي خلعة ومعني عشرة آلاف درهم، فقال أبي: ما هذا يا بني؟ فأعلمته الخبر، فما زلت وأهلي وأبي ندعو له ونشهد أنه من الصديقين والشهداء والصالحين، قتل لبعض جيراننا: ما أصنع بعشر دواب البريد؟ فقال: أكرها فإنك تصيب في السكك من تقصر به دابته عن حاجته فيكثري منك، قال: فلما كان من الغد عدت إليه فأخذت كتي وجوازي، فلما صرت إلى السكة وجدت رجلاً كبيراً قد وجّه إلى تلك الناحية ولم يكنف بما حمل عليه من الدواب، فأكرت منه ثمان دواب وخرجت على دابتي، أنا على دابة وغلامي على أخرى، ولم أزل في حشم المكثري حتى صرنا إلى أول العمل فإذا يحيى قد سبقني بالكتاب إلى سليمان أن رجلاً من حاله كيت وكيت وله عندي أيادٍ فاخترتك له فكن عند ظني بك في أمره وافعل به وافعل، قال: فوجه سليمان قائداً في جند عظيم لاستقبالي حتى إذا اتصل به دنوي استقبلني في وجوه أهل البلد، فلما دنا منا بادر إلى الرجل

المكثري مني ولم يشكّ أبي هو وسأله، فأعلمه المكثري أنه فلان بن فلان، فقال سليمان: توهمتك فلاناً! قال: لست هو لكنه ذاك، وأشار إليّ، فأقبل سليمان ركضاً إليّ وتضاءلت منه حياء لرتانة حالي، فسألني وأعلمني أنه وجه إليّ وكيله وحمل معه هدايا، قتل: ما وصل ذلك إليّ، فلما نزلنا وحططنا في بعض تلك المنازل إذا وكيله قد وافى بمداياه وإذا دواب وبغال موقرة وتحوت وثياب، فدخلت البلد وقد حسنت حالي ووكد عليّ في كتابه وليس عندي إلا إطلاق العمل لك، وهاهنا نشوى الكبرى ونشوى الصغرى وهما من أجل الأعمال بأرمينية ونواحيها وإن شئت أن تخرج إليها فاخرج وإن شئت فهاهنا من يبذل عنهما خمس مائة ألف درهم، قلت: لا والله أبقاك الله إلا الخمس المائة الألف عجلها لي فأنصرف إلى أب شيخ كبير وعيال قد خلّفتهم ورائي، قال سليمان: ذاك إليك، فلما خرج سليمان سألت عن نشوى ونشوى قال فقيل مقاطعتهما خمس مائة ألف درهم ويصير إلى المقاطع مثلها، ثم لم ألبث من الغد أن أتى رسوله بالمال فخرجت وأهديت إلى يحيى هدايا كثيرة وأطافاً جليلة مما كان برّني به سليمان، فلما دخلت إليه تبسم لي وقال: إنا لم نوجهك لنتفع بك وإنما وجهناك لنتفع بنا وسيصل معروفنا إليك فالزمنا، فكسبت تجاهه مع ما وصل إليّ منه ولم يزل يصلني به عشرين ألف ألف درهم.

وحدثني أيوب بن هارون بن سليمان بن علي قال: جاء يحيى ومعه ابنه جعفر إلى عبد الصمد بن علي فسلم عليه وبابه فتى من ولد عبد الله بن علي فقام إلى جعفر فقبل يده، فقال له: انتني وارفع إليّ حوائجك إلى أمير المؤمنين وقد أمرت لك بخمسة آلاف دينار، فقال يحيى: وقد أمرت لك بمثلها وأجريت عليك ثلاثة آلاف درهم في كل شهر فابعث بمن يقبض ذلك. فلما انصرف دعاه عبد الصمد فقال: لم فعلت ما فعلت؟ فقال: أنا ابن أهلك وإنما تصلني في السنة بأربعة آلاف درهم، وقد أغناني هذا وأبوه في ساعة واحدة فكيف تلومني على ذلك؟ وحدث يحيى بن محمد قال: لما خرج الرشيد إلى القاطول قال ليحيى: يا أبت لا تفجعني بك وكن معي في هذا الوجه لأنس بك، فعمد على الشخصوص معه، فقال لرجاء بن عبد العزيز وكان على نفقاته: كم عند وكلاتنا من المال؟ قال: سبع مائة ألف درهم، قال: فأقبضها إليك، فغدا إليه فقبل يده ومنصور بن زياد عنده، فلما خرج رجاء قال لمنصور: قد ظننت أن رجاء توّهم أنا وهبنا له هذا المال وإنما أمرناه بقبضه ليكون معنا في هذا الوجه، فقال منصور: فأنا أعلمه ذلك، قال إذن يقول: فقل له يقبل يدي كما قبلت يده، فلا تقل له شيئاً، وترك المال له. وكان يحيى يقول: اسرف فإن الشرف في السرف. ومنهم الفضل بن يحيى البرمكي، فإنه حدثنا محمد بن علي بن عيسى بن ماهان عن محمد بن زيد أنه قال: دخلت على الفضل بن يحيى وقد خرج من الحمام بعد العصر وهو يقول: أعوذ بالله من النار! فقلت: جعلت فداك! اشتر هذا الوجه الحسن من النار. فدعا بخمس مائة ألف درهم وقال: اشتر بها وجهي الساعة، فقلت: جعلت فداك! الوقت ضيق ولكن غداً إن شاء الله، فقال: لا والله إلا الساعة، فوجهت إلى القضاة في الجانبين بثلاثمائة ألف درهم وحملت إلى أبي محمد السمرقندي منها صدراً وأمرتهم عنه بتفريقه وفرقت البقية بحضرتي، فلم تغب الشمس حتى فرّق ذلك كله.

وحدث محمد بن الحسين بن مصعب قال: وقف الفضل بن يحيى بخراسان موقفاً لم يقفه أحد قط، خرج إلى

الميدان ليضرب بالصواعج فأمر بدفاتر البقايا التي على الناس فأحضرت وأمر الحاجب بالخروج إلى الناس وإعلامهم أنه قد وهبها لهم ثم أمر بها فضربت بالنار، وكان مبلغ ذلك أكثر من عشرين ألف ألف درهم. وحدث بعض الهاشميين عن خلف المصري قال: مررت يوماً بباب يحيى بن معاذ فوجدته مغلقاً ولم أر بالباب أحداً، فأنكرت ذلك، فدنوت إلى الباب واستفتحت ففتح لي ودخلت عليه وسألته عن حاله فذكر أنه تورى عن غرمائه، فقلت: وكم لديانك عليك؟ فقال: ثلاثمائة ألف درهم، ثم مضيت إلى الفضل بن يحيى فأخبرته فسكت، فلما انصرف إلى منزلي كتب إلي: إنك دللتنا على مكرمة فشكرناك على ذلك وأمرنا لك بمائة ألف درهم لدلائلك وبعثنا إليك بثلاثمائة ألف درهم لتوصلها إلى يحيى بن معاذ، فأوصلتها إليه فقبضى دينه بها.

قيل: ودفع حمزة بن جعفر بن سليمان إلى أبي النضير الشاعر رقعةً ليوصلها إلى الفضل يسأله فيها الإذن في ابتياع ضبعة بفارس، وكان مبلغ ما يوزن في ثمنها مائة ألف درهم، قال أبو النضير: فأخذتها منه فدفعتها إلى الفضل فظفر فيها ووضعها فاعتممت لما رأيت من قلة نشاطها، فلما أصبحت قيل لي: خزان بيت المال يطلبونك، فظننت أنه نظر لي بشيء في خاصتي، فأتيتهم فقالوا لي: أحضر من يحمل المائة الألف إلى صاحب الرقعة، فحملتها إلى حمزة، قال حمزة: فصرت إليه فقلت: أصلح الله الأمير! وصلت إلي صلتك ولا والله ما أدري كيف أشكرك إلا بقول أبي النضير فيك:

وللناس معروفٌ وفيهم صنائعٌ ... ولن يجبر الأحران إلا جداً الفضل  
إذا ما العطايا لم تكن برمكيةً ... فتلك العطايا ما تمرّ وما تُحلى

قال أبو النضير: فالتفت إلي الفضل فقال: يا أبا النضير جزاؤك عندي، فوصلني حتى أغاني.

وحدث أحمد بن علي الشريقي وغيره ممن ينزل بنهر المهدي قال: أقبل الفضل بن يحيى يوماً على نهر المهدي يريد منزله بباب الشماسية، فاستقبله فتى من الأبناء قد أملك ومعه جماعة كثيرة قد ركبوا معه في السواد والسيوف، وهكذا كانوا يفعلون، يركبون مع الرجل عند إملاكه ويستعيرون الدواب ويسيروا خلفه ويطرقون بين يديه، قال: فترجل الفتى للفضل وقبل يده ورجله، فسأله عن شأنه فأخبره، فقال: كم أصدقت أهلك؟ قال: أربعة آلاف درهم، فدعا قهرمانه وقال: احمل إليه الساعة أربعة آلاف درهم لصدّق أهله وأربعة آلاف درهم لشراء منزل ينزله وأربعة آلاف درهم لنفقة تحويل أهله وأربعة آلاف للنفقة على الوليمة وأربعة آلاف درهم ليتصرف بها في معيشتها، قال أحمد بن علي: فأشاروا على الفتى أن يسأله أن يأمر قواده وحشمه بإتيانه، فأمرهم بذلك فأتوه وجعلوا يطرحون العشرة الآلاف الدرهم والخمسة الآلاف الدرهم والأقل والأكثر في مجلسه حتى اجتمع له خمسون ألف درهم سوى ما أعطاه الفضل.

وحدث أحمد بن علي قال: حدثنا رجل من جيراننا أن الفضل بن يحيى مرّ به في يوم صائف منصرفاً من المدينة يريد منزله فقال الرجل: لا والله إن في منزلي قليل ولا كثير، فعطس الفضل، فقلت: يرحمك الله، وقد كان سمع يميني فأمر بعض غلمانه أن يحملني معه على دابته، فلما صار بي إلى قصره أخرج إليّ خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب، فانصرفت بها إلى منزلي، فقالت لي امرأتي: والله لقد خرجت من عندنا وما تملك قليلاً

ولا كثيراً، فمن أين سرقت هذا؟ قال: فأعلمتها القصة فلم تصدقني قولي واستراب الجيران بحالي وتناهى الخبر إلى السلطان فطمع فيّ وأخذني فحبسني، فقلت له: إنه كان من أمري كيت وكيت، فوقع خبري إلى الفضل فأمر بإحضاري، فلما أحضرت ورآني عرفني وأمر بإطلاقي ووصلني بخمسة آلاف أخرى وبعشرة أثواب وقال: تعهد بما نفعك، فلم يزل ينفعه حتى حدث من أمرهم ما حدث.

وعن أحمد بن محمد بن عبد الصمد أن رجلاً كان ينزل على نهر المهدي وكانت عليه نعمة فزالت فلم يقدر على شيء فمطر الناس ثلاثة أيام متتابعة فبقي في منزله لا يقدر على الخروج، فأضر به ذلك وأبلغ إليه الجوع وإلى عياله، فلما كان في آخر الليل جاء إلى البقال بقصعة له ليرهنها عنده على خبز، فانتهره البقال وقال: ما أصنع بهذه القصعة؟ وأبى أن يعطيه عليها شيئاً، قال: فعاد إلى منزله مغموماً لا حيلة له، فرفع يده إلى السماء وقال: اللهم سق لي في هذه الليلة عبداً من عبادك تحبه يفرج عني ما أمسيت فيه، فما شعرت إلا والباب يدق عليّ فإذا رجل على حمار قد حفّ به خدم، فقال لي: كم عيالك؟ قلت: كذا وكذا، فأعطاني كيساً قدرت أن فيه خمسة آلاف درهم، فقلت: الحمد لله الذي استجاب دعائي وفرج عني، فقال لي: وما كان قولك ودعاؤك؟ فخبرته الخبر بصنيع البقال وما دعوت الله جل وعز به، فاستحلفني أبي دعوت بهذا الدعاء، فحلفت له، فأمر لي بمائة ألف درهم، فسألت بعض أولئك الخدم عنه لأعلم هل يقدر على ما أمر لي به أم لا، فقال: هو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، فسكّت إلى ذلك وانصرفت إلى منزلي، ومضيت إلى قهرمانه لما أصبحت فقبضت منه المال.

وحدث خلف بن عمر المصري قال: كنا عند الفضل ذات ليلة فقال: أتعرفون رجلاً كانت عليه نعمة فرالت عنه حتى أردتها عليه؟ فقال الأشعري، وكان قاضياً: أعرف، أصلحك الله، رجلاً شريفاً من آل خالد بن عبد الله القسري بالكوفة قد أضرت به الحاجة، وسماه له، فكتب إلى عامل الكوفة: احمل لي فلاناً على البريد فقد بعثت بجوازه، فلم يعلم الخالدي حتى حمّله العامل على البريد ووجهه إليه، فلما قدم عليه دعاه وسأله عن حاله وأمر له بمائة ألف درهم وقال: أقم بما مروعتك حتى أنظر في أمرك وأدبر لك ما يصلح حالك، ثم ولاه كرمان، فصار إليها وحسنت حاله، ثم إن كتاب صاحب البريد بها ورد على الفضل بن يحيى بوفاة الكوفي فقال لنا: أتدرون ما قال الفارسي في مثل له؟ فذكر المثل بالفارسية ثم فسره بالعربية فقال: إلى أن يُدرك الحشيش قد مات الحمار، أردت بهذا الرجل الغنى فمات قبل ذلك، واغتم لوفاته ولما فاتته من الإحسان إليه بعد الذي قد كان أعطاه وأكبسه من مرافق العمل الذي ولاه، وتقدم بحمل جميع ما خلفه إلى أهله فحُمل إليهم.

وحدثنا أبو طالب الجعفري قال: حدثني سليمان بن أبي جعفر أن محمد بن إبراهيم الإمام ركب إلى الفضل بن يحيى يوماً وكان قد ركب دين وحمل حقة فيها جوهر، فلما وصل إليه قال: قد لزمني دين أحوجني إلى احتيال ألف ألف درهم، وعلمت أن التجار لا يسمحون بإخراج مثلها وإن وثقنا الرهن ولك معاملون وتجار مطيعون ومعني رهن فإن رأيت أن تأمر بقبضه وحمل هذا المال إلينا فأنت أولى بذلك، فقال الفضل: نعم لنا تجار يطيعونا ويسارعون إلى أمرنا، ولكن ما هذا الرهن؟ فوضع الحقة بين يديه، ففتحها حتى نظر

إليها فأعجب بالجوهر الذي فيها، ثم أمر بإعادتها إلى حائها وقال: ضع خاتمك عليها، فختمها، قال فقال الفضل: إن نُجح الحاجة أن تقيم في منزلي الذي أنا فيه، فقال: يشق عليّ المقام، فقال: وما يشق عليك؟ إن رأيت أن تلبس من ثيابنا شيئاً دعوت لك به وإلا فابعث إلى منزلك لتؤتي به، فأقام عنده، ونهض الفضل فدعا وكيله وأمر أن يحمل إلى منزل محمد بن إبراهيم ألف ألف درهم مبدرة ويضعها قبالة مجلسه ليراها إذا دخل، ففعل الوكيل ذلك، وانصرف محمد إلى منزله مع المغرب، فلما دخل وقعت عينه على المال فقال: ما هذا؟ قالوا: وجه به الفضل، قال: أحسن الله جزاءه فإنه وإن كان وجه بذلك على ما رهتاه فقد ظهر لنا من عنايته ما قدرناه فيه، قالوا: وما الرهن؟ قال: الحقّة، قالوا: قد ردها تحت خاتمك، فقال: أين هي؟ فأُتي بالحقة ففتحها حتى نظر إليها وفرح فرحاً شديداً فعدا إلى الفضل فوجده قد سبقه إلى دار أمير المؤمنين فتبعه فلم يزل واقفاً ينتظره حتى خرج الفضل من باب آخر فصار إلى منزله وشكر له ما كان منه وانصرف عنه، فلما دخل منزله وجد فيه ألف ألف درهم سوى الأولى، فقال: ما هذا؟ قالوا: بعث به الفضل، فأتاه فقال له: جعلت فداك! أما كان فيما وجهت به أمس كفاية حتى أردفته بمنله؟ فقال: إنه والله طالت عليّ ليلتي فركبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته حالك فأمرني بالتقدير لك فقدرت مائة ألف دينار، فما زال يقول ويماكسني حتى وقعت على ألف ألف فأمر لك بها فلم أنصرف إلى المنزل حتى حُمِلَ المال إليك، فقال محمد: لست أجد لك شكراً أقضي به حَقك غير أنه على ابن محمد بن علي وعليه من الأيمان المغلظة إن وقفت بباب أحد سواك أبداً حتى ألقى الله جل وعز ولا أسأل أحداً حاجة ما بقيت سواك، فكان لا يركب إلى أحد سوى الفضل ولا يقف بباب أحد غيره.

ومن كرمه ما حَدَّث به المأمون فكبر عنده واستحسنه وعجب من جوده وسعة صدره، فإنه بلغنا عن عمرو بن مسعدة قال: رفعت قصة إلى المأمون منسوبة إلى محمد بن عبد الله يمتّ فيها بجرمه ويزعم أنه من أهل النعمة والقدر وأنه مولى ليجي بن خالد وأنه كان ذا ضيعة واسعة ونعمة جلييلة وأن ضياعه قُبِضت فيما قبض للبرامكة وزالت نعمته بملول النعمة عليهم، فدفعها المأمون إلى ابن أبي خالد وأمره أن يضم الرجل إلى نفسه وأن يجري عليه ويحسن إليه، ففعل ذلك به وصاحت حاله وتراجع أمره وصار نديماً لابن أبي خالد لا يفارقه، فتأخر عنه ذات يوم لمولود ولد له، فبعث إليه فاحتجب عنه، فغضب عليه ابن أبي خالد وأمر بحبسه وتقييده وإلباسه جبة صوف، فمكث لذلك أياماً، فسأله المأمون عنه، فقص عليه قصته وعظم عليه جرمه وشكا ما يراه عليه من التيه والصلف والافتخار بالبرامكة والسمو بآبائهم، فأمره بإحضاره، فأحضر في صوفه، فأقبل عليه المأمون بالتوبيخ مصغراً لقدرة مسفهة لرأيه وعظّم في عينه إحسان ابن أبي خالد إليه مع طعن على البرامكة ووضع منهم، فأطنب في ذلك، فقال محمد: يا أمير المؤمنين لقد صغرت من البرامكة غير مصغراً ووضع منهم غير موضوع وذمت منهم غير مذموم، ولقد كانوا شفاء أسقامهم دهرهم وغيث إجداب عصرهم، كانوا مفرعاً للملهوفين وملجأً للمظلومين، وإن أذن لي أمير المؤمنين حدثته ببعض أخبارهم ليستدل بذلك على صدق قولي فيهم ويقف على جميل أخلاقهم ومحمود مذاهبهم في عصرهم والأفعال الشريفة والأيدى النفيسة! قال: هات، قال: ليس بإنصاف محدث مقيّد في جبة صوف، فأمر فأخذ

قيده، فقال: يا أمير المؤمنين ألم الجبة يحول بيني وبين الحديث، فأمر فخلع عليه، ثم قال: هات حديثك، قال: نعم يا أمير المؤمنين، كان ولائي وانقطاعي إلى الفضل، فقال لي الفضل يوماً بمحضر من أبيه وأخيه جعفر: ويحك يا محمد إني أحب أن تدعوني دعوة كما يدعو الصديق صديقه والخليل خليله، فقلت: جعلت فداك! شأنني أصغر من ذلك ومالي يعجز عنه وباعي يقصر عن ذلك وداري تضيق عنه ومُنّي لا تقوم له، قال: دع عنك ذلك فلا بد منه، فأعدت عليه الاستعفاء، فرأيتته جاداً في ذلك مقيماً عليه، وسألاً ذلك وأعلماه قصور يدي عن بلوغ ما يجب ويشبه مثله، فقال لهما: لست بقانع منه دون أن يدعوني وإياكما لا رابع معنا، فأقبل عليّ يحيى وقال: قد أبي أن يعفبك وإن لم يكن غيرنا فأقعدنا على أثاث بيتك فلا حشمة منا واطعمنا من طبيخ أهلِكَ فنحن به راضون وعليه شاكرون، فقلت: جعلت فداك! إن كنت قد عرضت عليّ ذلك وأبيت إلا هتكى وفضيحتي فالأقل أن تزجني حتى أتأهب، فقال: استأجل لنفسك، فقلت: سنة، فقال: ويحك أمعنا أمان من الموت إلى سنة؟ فقال يحيى: أفرطت في الأجل، ولكني أحكم بينكما بما أرجو أن لا يرده أبو العباس واقبله أنت أيضاً، فقلت: احكم وقلك الله للصواب وتفضل عليّ بالاستظهار والفسح في المدة، فقال: قد حكمت بشهرين، فخرجت من عندهم وبدأت برمّ داري وإصلاح آلتى وشراء ما أتجمل به من فرش وأثاث وغير ذلك وهو في ذلك لا يزال يذكرني ويعدّ الأيام عليّ، حتى إذا كانت الجمعة التي يجب فيها الدعوة قال لي: يا محمد قد قرب الوقت ولا أحسبه بقي عليك إلا الطعام، قلت: أجل يا سيدي، فأمرت باتخاذ الطعام على غاية ما انبسطت به يدي ومقدرتي، وجاءني رسوله عشية اليوم الذي في صبيحته الدعوة فقال لي: إلى أين بلغت وهل تأذن بالركوب؟ قلت: نعم بكر، فبكر هو ويحيى وجعفر ومعهم أولادهم وفتياتهم، فلما دخلوا أقبل عليّ الفضل وقال: يا محمد إن أول ما أبدأ به النظر إلى نعمتك كلها صغيرها وكبيرها، فقم بنا إليها حتى أدور فيها وأقف عليها، فقمت معه وطاف في المجلس ثم خرج إلى الخزانين وصار إلى بيوت الشراب وخرج في الاصطبلات ونظر إلى صغير نعمتي وكبيرها ثم عدل إلى المطبخ فأمر بكشف القدور كلها وأبصر قدراً منها، فأقبل على أبيه وقال: هذا قدرك الذي يعجبك ولست أبرح دون أن تأكل منه، ثم كره أن يأكل فينلم عليّ في أكله ويفسد طعامه، فدعا برغيف فغمسه في القدر وناول أباه ثم فعل ذلك بأخيه ودعا بخلال، وخرج إلى الدار ووقف في صحنها مفنناً طرفه في فنائها وبنائها وسقوفها وأروقها ثم أقبل عليّ وقال: من جيرانك؟ قلت: جعلت فداك! عن يميني فلان بن فلان التاجر، وعن شمالي فلان بن فلان الكاتب، وفي ظهر

داري رجل من بني برجا كبير فهو في بنائه لا يفتر ولا يقصر، فقال لي: أو تعرفه؟ قلت: لا، قال: كان ينبغي لك في قدرك ومملك من هذه الدولة ألا يجتريء أحد أن يشتري شيئاً في جوارك إلا بأمرك لا سيما إذا كان ملاصقاً لك ولا ترضى لنفسك إلا بخار تعرفه، فقلت: لم يعنيني من ذلك إلا ما كنت فيه من الشغل بهذه الدعوة المباركة، فقال لي: فأين الحائط الذي يتصل بداره؟ فأومأت إليه، فقال: عليّ بنجار، فأني به، فقال: افتح ها هنا باباً، فأقبل عليه أبوه وقال: نشدتك الله يا بني أن لا تهجم على قوم لا تعرف لهم سبباً، وأقبل عليه أخوه بمنل ذلك، فامتنع دون فتح الباب، فلما رأيتنه قد ردّ أباه وأخاه أمسكت عن مسألته، ففتح

الباب ودخل وأدخلني معه، فدخلت داراً حار بصري فيها من حسننها، كلها لؤلؤ تعشي العيون، فانتهى إلى رواق فيه مائة مملوك في قَدّ واحد وزى واحد عليهم الأقبية الديداج المنسوجة والمناطق المذهبة، فلما نظروا إلى الفضل عدوا ووقفوا بين يديه وإذا شيخ بهي قد خرج من بعض تلك المجالس فقبل يده فقال: مرّ بنا ننظر في مرافق هذه الدار، فما دخلت مجلساً من مجالسه إلا وقد فرغ تخشيبه بالفرش الذي لا يحيط به الوصف، وكذلك مرافقها من الستور والبسط وغير ذلك، ثم قال للشيخ: مر بنا إلى عند الدواب، فدخلنا إصطبلًا فيه أربعمائة رأس من الدواب والبغال وغيرها، فوجدت ذلك الاصطبل أحسن بناء من داري، ثم خرج نحو دور النساء والشيخ بين يديه، فلما انتهى إلى الباب وقف الشيخ ودخل الفضل وجذبي إلى نفسه وأنا معه حتى دخلت بعض تلك الدور فإذا فيها مائة وصيفة كأنهن الأقمار قد أقبلن في حليهن وحللهن فوقفن بين يديه، فقال: يا محمد هذه الدار أجلّ أم دارك؟ فقلت: يا سيدي وما أنا وما داري! هذه تصلح للأمير لا غيره على تخرج مني في قولي، فقال: يا محمد هذه الدار بما فيها من الدواب والرقيق والفرش والأواني لك ولك عندي زيادة، فقلت في نفسي: يهب لي ملك غيره! فعلم ما في نفسي، فقال: يا محمد إني لما سألتك هذه الدعوة تقدمت إلى هذا القهرمان بشراء البراح وأن يعجل الفراغ منه ومن بنائه وحولت إليها ما ترى، فبارك الله لك فيها! وانصرف بي إلى عند أبيه وأخيه وحدثهما بما جرى، فرأيت أخاه جعفرًا قد أمعض من ذلك وتغير وجهه تغيراً عرفته، ثم أقبل على أبيه يشكو الفضل ويقول: يتفرد بمثل هذه المكرمة من دوني فلو شاركني فيها لكانت يداً أشكرها منه، فقال: يا أخي بقي لك منها قطبها، قال: وما هو؟ قال: إن مولانا هذا لا يتهيأ له ضبط هذه الدار بما فيها إلا بدخل جليل فأعطه ذلك، فقال: فرجت عني يا أخ فرج الله عنك! فدعا من وقته بصكك لحمس قريات واحتمل عني خراجها، فخرج عني وأنا أيسر أهل زمان، فهل تلومني يا أمير المؤمنين على ذكرهم والقول بفضلهم؟ فقال المأمون: ذهب القوم والله بالمكارم! ثم أمر لحمد بمائة ألف درهم وتقدم إلى ابن أبي خالد بردّ مرتبته وتصويره في جملة خواصه. ري رجل من بني برجا كبير فهو في بنائه لا يفتر ولا يقصر، فقال لي: أوتعرفه؟ قلت: لا، قال: كان ينبغي لك في قدرك ومحلك من هذه الدولة ألا يجتريء أحد أن يشتري شيئاً في جوارك إلا بأمرك لا سيما إذا كان ملاصقاً لك ولا ترضى لنفسك إلا بجار تعرفه، فقلت: لم يعني من ذلك إلا ما كنت فيه من الشغل بهذه الدعوة المباركة، فقال لي: فأين الحائط الذي يتصل بداره؟ فأومأت إليه، فقال: عليّ بنجار، فأُتي به، فقال: افتح ها هنا باباً، فأقبل عليه أبوه وقال: نشدتك الله يا بني أن لا تهجم على قوم لا تعرف لهم سبباً، وأقبل عليه أخوه بمثل ذلك، فامتنع دون فتح الباب، فلما رأته قد ردّ أباه وأخاه أمسكت عن مسألته، ففتح الباب ودخل وأدخلني معه، فدخلت داراً حار بصري فيها من حسننها، كلها لؤلؤ تعشي العيون، فانتهى إلى رواق فيه مائة مملوك في قَدّ واحد وزى واحد عليهم الأقبية الديداج المنسوجة والمناطق المذهبة، فلما نظروا إلى الفضل عدوا ووقفوا بين يديه وإذا شيخ بهي قد خرج من بعض تلك المجالس فقبل يده فقال: مرّ بنا ننظر في مرافق هذه الدار، فما دخلت مجلساً من مجالسه إلا وقد فرغ تخشيبه بالفرش الذي لا يحيط به الوصف، وكذلك مرافقها من الستور والبسط وغير ذلك، ثم قال للشيخ: مر بنا إلى عند الدواب، فدخلنا إصطبلًا فيه أربعمائة رأس من الدواب والبغال وغيرها، فوجدت ذلك الاصطبل أحسن بناء من داري، ثم خرج نحو

دور النساء والشيخ بين يديه، فلما انتهى إلى الباب وقف الشيخ ودخل الفضل وجذبني إلى نفسه وأنا معه حتى دخلت بعض تلك الدور فإذا فيها مائة وصيفة كأنهن الأقمار قد أقبلن في حليهن وحللهن فوققن بين يديه، فقال: يا محمد هذه الدار أجل أم دارك؟ فقلت: يا سيدي وما أنا وما داري! هذه تصلح للأمير لا غيره على تخرج مني في قولي، فقال: يا محمد هذه الدار بما فيها من الدواب والرقيق والفرش والأواني لك ولك عندي زيادة، فقلت في نفسي: يهب لي ملك غيره! فعلم ما في نفسي، فقال: يا محمد إني لما سألتك هذه الدعوة تقدمت إلى هذا القهرمان بشراء البراح وأن يجعل الفراغ منه ومن بنائه وحولت إليها ما ترى، فبارك الله لك فيها! وانصرف بي إلى عند أبيه وأخيه وحدثهما بما جرى، فرأيت أخاه جعفرًا قد أمعض من ذلك وتغير وجهه تغيراً عرفته، ثم أقبل على أبيه يشكو الفضل ويقول: يتفرد بمثل هذه المكرمة من دوني فلو شاركني فيها لكانت يداً أشكرها منه، فقال: يا أخي بقي لك منها قطبها، قال: وما هو؟ قال: إن مولانا هذا لا يتهيأ له ضبط هذه الدار بما فيها إلا بدخل جليل فأعطه ذلك، فقال: فرجت عني يا أخ فرج الله عنك! فدعا من وقته بصكاك خمس قريات واحتمل عني خراجها، فخرج عني وأنا أيسر أهل زمان، فهل تلومني يا أمير المؤمنين على ذكرهم والقول بفضلهم؟ فقال المأمون: ذهب القوم والله بالمكارم! ثم أمر محمد بمائة ألف درهم وتقدم إلى ابن أبي خالد برد مرتبته وتصويره في جملة خواصه.

وحدثنا غيره قال: اصطحب رسول للفضل ورجل كوفي في طريق خراسان فأقبل الكوفي يسأل عن أفعال الفضل، فأخبره يأنابه الأموال الجليلة في العطايا، فقال له الكوفي: خبرني عن هذه الأموال التي يهبها يراها وينظر إليها؟ فقال: لا، قال: فمن هناك تمون عليه. فلما وصلا إلى الموضع دعا الفضل بالرسول وسأله عما رأى في طريقه وعما سمع، فأقبل يخبره حتى انتهى إلى خبر الكوفي فذكر له ما قال وكان متكياً فاستوى جالساً ثم قال: يا غلام انت صاحب بيت المال فاسأله عن حاصله، فقال: هو عشرة آلاف درهم، فقال تُحمل الساعة إلى دار العامة وتشقّ عنها البدر شقاً وتنشر في وسط الدار، قال: ففعل ذلك بها، ثم قال للرسول: هات صاحبك الكوفي، فأتي به، وأمر الفضل بتفريق ذلك المال على زواره رجلاً رجلاً واسماً اسماً على مقاديرهم وما وقع لكل رجل منهم، ثم أمر للكوفي بمائة ألف درهم وقال: هذه لك لتسببك إياي على هذا الفعل، ومما قيل في ذلك:

كريم كريم الأمهات مهذبٌ ... تحلب كفاه الندى وأنامله

هو البحر من أي النواحي أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحله

جواذ إذا ما جنت للعرف طالباً ... حباك بما تحوي عليه أنامله

ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها، فليتنق الله سائله

وللبحتري في ذلك:

لو أن كحك لم تجد لمؤمل ... لكفاه عاجل وجهك المتهلل

أو أن مجدك لم يكن متقادماً ... أغناك آخر سوددٍ عن أول

علي بن يحيى النديم قال: دعاني المتوكل ذات يوم وهو مخمور قال: أنشدني قول عمارة في أهل بغداد،



فأنشدته:

من يشتري مني ملوك المخرم ... أبع حسناً وابني هشام بلرهم  
وأعطي رجاءً بعد ذلك زيادةً ... وأمنح ديناراً بغير تنم  
وإن طلبوا مني الزيادة زدتهم ... أبا دُلفٍ والمستطيل ابن أكثم  
فقال المتوكل: ويلى على ابن البوال على عقبه يهجو شقيق دولة بني العباس! قلت: يا سيدي من شقيق  
دولة بني العباس؟ فقال: القاسم بن عيسى فهل عندك من مديحه شيء؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قول  
الأعرابي الذي يقول:

أبا دلفٍ إن السماحة لم تنزل ... مغللةً تشكو إلى الله غلها  
فبشرها ربي بميلاد قاسمٍ ... فأرسل جبريلاً إليها فحلها  
ولبكر بن النطاح في أبي دلف:

بطلٌ بصدر حسامه وسنانه ... أجلان من صدرٍ ومن إيراد  
ورث المكارم وابتناها قاسمٌ ... بصفائحٍ وأسنةٍ وجياد  
يا عصمة العرب التي لو لم تكن ... حياً إذاً كانت بغير عماد  
إن العيون إذا رأتك حدادها ... رجعت من الإجلال غير حداد  
وإذا رميت الثغر منك بعزمةٍ ... فتحت منه مواضع الأسداد  
وكان رمحك منقعٌ في عصفرٍ ... وكان سيفك سلّ من فرصاد  
لو صال من غضبٍ أبو دلفٍ على ... بيض السيوف لذبن في الأغماد  
أذكي ونورٌ للعداوة والهوى ... نارين نار دمٍ ونار رماد

وقال أبو هفان: أنشدته عبد العزيز بن أبي دلفٍ بسر من رأى فبرّني ثم قال: هل خلق مثله؟ قلت: لا.  
ولغيره في أبي دلف:

ولو يجوز لقال الناس كلهم ... لولا أبو دلفٍ ما أورق الشجر  
قرمٌ إذا ما حوى في كفه حجراً ... يفيض في كفه من جوده الحجر  
وأنشد أيضاً، رحمه الله:

خلٌ إذا جنته يوماً لتسأله ... أعطك ما ملكت كفاه واعتذرا  
يخفي صنائعه والله يظهرها ... إن الجميل إذا أخفيته ظهرا  
وأنشد:

يداك يدٌ غيبتها مرسلٌ ... وأخرى لأعدادها غائظه  
فأما التي سببها يرتحى ... فأجود بالمال من لافظه  
وأما التي شرّها يتقى ... ففس العدو بما فائظه  
آخر:

فتى عاهد الرحمان في بذل ماله ... فليس تراه الدهر إلا على العهد

فتى قصرت آماله عن فعاله ... وليس على الحر الكريم سوى الجهد  
آخر:

عاد السرور إليك في الأعياد ... وسعدت من دنياك بالأسعاد  
رفقاً بشكر جلّ ما أوليته ... رفقاً فقد أتهلته بأيادي  
ملاً النفوس مهابةً ومحبةً ... بدرٌ بدا متغمرًا بسواد  
ما إن أرى لك مشبهًا فيمن أرى ... أمّ الكرام قليلة الأولاد  
ولآخر:

إذا ما أتاه السائلون توقدت ... عليه مصايح الطلاقة والبشر  
له في ذرى المعروف نعمى كأنها ... مواقع ماء المزن في البلد القفر

### محاسن صلوات الشعراء

قيل: دخل جرير على عبد الملك بن مروان وقد أوفده إليه الحجاج بن يوسف، فدخل محمد بن الحجاج  
فقال: يا أمير المؤمنين هذا جرير مادحك وشاعرك، فقال: بل مادح الحجاج وشاعره، فقال جرير: إن رأى  
أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاده مدحة فيه، قال: هات ابدأ بالحجاج، قال: بل بك يا أمير المؤمنين، فقال:  
هات ابدأ بالحجاج، فأنشده:

صبرت النفس يا ابن عقيل ... محافظةً فكيف ترى الثوبا  
ولو لم ترض ربك لم ينزل ... مع النصر الملائكة الغضابا  
إذا شعر الخليفة نار حرب ... رأى الحجاج أتقبها شهابا

فقال: صدقت كذلك هو، ثم قال للأخطل: قم فهات مديحاً، فقام فأنشد وأجاد وأبلغ، فقال: أنت شاعرنا  
وأنت مادحنا، قم فاركبه، فألقى النصراني ثوبه وقال: خبّ يا ابن المراغة، فسأ ذلك من حضر من مضر  
وقالوا: يا أمير المؤمنين إن النصراني لا يركب الحنيف المسلم! فاستحيا عبد الملك وقال: دعه، قال جرير:  
فانصرفت أخزى خلق الله، حتى إذا كان يوم الوداع دخلت لأودعه فأنشدته:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

فقال: بلى نحن كذلك، أعد، فأعدت وأسفر لونه وذهب ما كان في قلبه، فالتفت إلى محمد بن الحجاج  
فقال: أترى أم حزرة يرويها مائة من الإبل؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين إن كانت من فرائض كلب فلم  
يروها فلا أرواها الله، فأمر لي بمائة من الإبل.

وحدثنا المدائني عن كيسان عن الهيثم قال: حج عبد الملك بن مروان ومعه الفرزدق، فبينما هو قاعد بمكة في  
الحجر إذ مر به علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وعليه مطرف خزّ، فقال عبد الملك: من هذا يا  
فرزدق؟ فأنشأ يقول:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلّ والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا النقي النقي الطاهر العلم  
إذا رأته قريشٌ قال قائلها: ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم  
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم  
ينمي إلى ذروة العزّ التي قعدت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم  
مشتقةً من رسول الله نبعته ... طابت عناصره والقيم والشيم  
في كفه خيزرانٌ ريحه عبقٌ ... من كف أروع في عرينه شمم  
ينشق نور الدجى عن نور غرّته ... كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم  
يغضي حياءً ويغضي من مهابته ... فما يكلمٌ إلا حين يبتسم  
من معشرٍ حبههم دينٌ وبغضهم ... كفرٌ وقربهم منجىٌ ومعتصم  
يستدفع السوء والبلوى بحبهم ... ويُسْتَرْبَ به الإحسان والنعم  
لا يستطيع جوادٌ بعد غايتهم ... ولا يداينهم قومٌ وإن كرموا  
إن عُدَّ أهل الندى كانوا أنمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم  
مقدّمٌ بعد ذكر الله ذكرهم ... في كل برٍ ومخونمٌ به الكلم

قال: فلما فرغ من شعره قال لهم عبد الملك: أوراظي أنت يا فرزدق؟ فقال: إن كان حبّ أهل البيت  
رفضا فنعم، فحرمه عبد الملك جائزته، فتحمل عليه بأهل بيته فأبى أن يعطيه، فقال له عبد الله بن جعفر بن  
أبي طالب: ما كنت تؤمل أن يعطيك؟ قال: ألف دينار في كل سنة، قال: فكم تؤمل أن تعيش؟ قال: أربعين  
سنة؟ قال: يا غلام علي بالوكيل، فدعاه إليه، وقال: اعط الفرزدق أربعين ألف دينار، فقبضها منه.

قيل: ودخل الفرزدق على سكينه بنت الحسين، فقالت له: من أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: كذبت، أشعر  
منك الذي يقول:

بنفسي من تجنّبهُ عزيزٌ ... عليّ ومن زيارته لِمَام

ومن أمسى وأصبح لا أراه ... ويطرفني إذا هجع النيام

فقال: أما والله لئن تركتني لأسمعك ما هو أحسن منه، فقالت: اخرجوه عني، ثم عاد من الغد فقالت: من

أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: كذبت، أشعر منك الذي يقول:

يا بيت عاتكة الذي أتعزّل ... حنر العدى وبه الفؤاد موكل

إني لأنحك الصدود وإنني ... قسماً إليك مع الصدود لأميل

فقال: أما والله لئن تركتني لأسمعك أحسن منه، فقالت: اخرجوه عني، ثم عاد من الغد وعندها جوار

كالتماثيل، فأخذت جارية منهن بقلبه، فقالت سكينه: من أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: كذبت، أشعر منك

الذي يقول:

إن العيون التي في طرفها حورٌ ... قتلنا ثم لا يمين قتلانا

فقال: يا بنت رسول الله إن لي حقاً يا قبالي عليك من مكة ولا أزال تدعيني أسمعك شعري ولا تزديني على

التكذيب مع أبي لأخاف لما بي أبي لا أبرح ميتاً ولي حاجة، قالت: فما هي؟ قال: إن أنا مت تأمرين بتكفيني في ثياب هذه، وأشار إلى الجارية، فقالت: هي لك، وضمت إليها جائزة وكسوة.

وعن أبي الزناد قال: اجتمع جرير والفرزدق وكثير ونصيب في منزل سكينه بنت الحسين، فخرجت جارية ومعها قرطاس وقالت: أيكم الفرزدق؟ فقال: ها أنا ذا، قالت: أنت الذي يقول:

أبيت أمّني النفس أن سوف نلتقي ... وهل هو مقدور لنفسي لقاؤها  
فإن ألقها أو يجمع الدهر بيننا ... ففيها شفاء النفس منها وداؤها  
قال: نعم، قالت: قولك أحسن من منظرِكَ! وأنت القائل:

ودّعني بإشارة وتحيةٍ ... وتكرني بين الديار قتيلا  
لم أستطع رد الجواب عليهم ... عند الوداع وما شفين عليلا  
لو كنت أملكهم إذا لم يبرحوا ... حتى أودّع قلبي المخبولا  
قال: نعم، قالت: أحسنت أحسن الله إليك! وأنت القائل:

هما دلتاني من ثمانين قامةً ... كما اقضَ باراً أقم الريش كاسره  
فلما استوت رجلاي في الأرض نادتا: ... أحيّ فيرجى أم قتيلا نحاذره  
فقلت: ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا ... ووليتُ في أعجاز ليل أبادره  
أحاذر بوّابين قد وكلاهما ... وأحمر من ساج تبصّ مسامره  
فأصبحت في القوم القعود وأصبحت ... مغلقةً دوبي عليها دساكره  
قال: نعم، قالت: سوءة لك! قضيت حاجتك فأفشيت عليها وعلى نفسك، فضرب بيده على جبهته وقال:

نعم فسوءة لي! ثم دخلت وخرجت وقالت: أيكم جرير؟ فقال: ها أنا ذا، قالت: أنت القائل:

رُزقنا به الصيد الغزير ولم نكن ... كمن نبهه محرومةً وحبائله  
فهيئات هيئات العقيق ومن به ... وهيئات حيّ بالعقيق نواصله  
قال: نعم، قالت: أحسن الله إليك! وأنت القائل:

كأن عيون المجنلين تعرّضت ... وشمساً تجلّى يوم دجن سحابها  
إذا ذُكرت للقلب كاد لذكراها ... يطير إليها واعتراه عذابها  
قال: نعم، قالت: أحسنت! وأنت القائل:

سرت الهموم فبتن غير نيام ... وأخو الهموم يروم كلّ مرام  
طرتك صائدةً القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجمي بسلام  
لو كان عهدك كالذي حدثني ... لوصلت ذاك فكان غير ذمام  
تجري السّواك على أغرّ كأنه ... بردٌ تحدر من متون غمام  
قال: نعم، قالت: سوءة لك! جعلتها صائدة القلوب حتى إذا أناخت ببابك جعلت دونهما حجاً، ألا قلت:

طرتك صائدة القلوب فمرحباً ... نفسي فداؤك فادخلي بسلام  
قال: نعم فسوءة لي! ودخلت وخرجت وقالت: أيكم كثير؟ فقال: ها أنا ذا، فقالت: أنت القائل:

وأعجبني يا عزّ مكن خلاتقّ ... حسان إذا عدّ الخلاتقّ أربع  
دُنُوكِ حتى يطمع الصبُّ في الصِّبا ... وقطعك أسباب الصبا حين تقطع

فوالله ما يدري كريمٌ مَطلته ... أيشند إن قاضاك أم يتضرع  
قال: نعم، قالت: أعطاك الله منك! وأنت القائل:  
هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ ... لعزة من أعراضنا ما استحلت  
فما أنا بالداعي لعزة في الورى ... ولا شامتٍ إن نعل عزة زلت  
وكت كذي رجلين، رجلٍ صحيحةٍ ... ورجلٍ رمى فيها الزمان فشلت  
قال: نعم، قالت: أحسن الله إليك! ثم دخلت وخرجت وقالت: أيكم نُصيب؟ فقال: ها أنا ذا، قالت: أنت  
القائل:

ولولا أن يقال صبا نصيبٌ ... لقلت بنفسي النشأ الصغارُ  
ألا يا ليتني قامرت عنها ... وكان يحلّ للناس القمار  
فصارت في يدي وقمرت مالي ... وذاك الربح لو علم التّجار  
على الإعراض منها والتواني ... فإن وعدت فموعدتها ضمّار  
بنفسي كل مهضومٍ حشاها ... إذا قهرت فليس لها انتصار  
إذا ما الزلُّ ضاعفن الحشايا ... كفاها أن يُلاث بها إزار  
ولورأت الفراشة طار منها ... مع الأرواح روحٌ مستطار  
قال: نعم، قالت: والله إن إحداهن لتقوم من نومتها فما تحسن أن تتوضأ! لا حاجة لنا في شعرك، ثم دخلت  
وخرجت وقالت: أيكم جميل؟ قلت: أنا، قالت: أنت القائل:  
لقد ذرفت عيني وطال سفوحها ... وأصبح من نفسي سقيما صحيحها  
ألا ليتنا كنا جميعاً وإن نمت ... يجاور في الموتى ضريحى ضريحها  
أطل نهارى مستهما ويلتقي ... مع الليل روي في المنام وروحها  
فهل لي في كتمان حبي راحة ... وهل تنفعي بوحه لو أبوحها  
قال: نعم، قالت: بارك الله فيك! وأنت القائل:

خليلي فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلاً بكى من حبّ قاتله قبلي  
أبيت مع الهلاك ضعفاً لأهلها ... وأهلي قريبٌ موسعون ذوو فضل  
فيا ربّ إن تملك بشينة لا أعش ... فواقاً ولا أفرح بمالي ولا أهلي  
ويا ربّ إن وقيت شيئاً فوقها ... حوف المنايا ربّ واجمع بها شملي  
قال: نعم، قالت: أحسنت أحسن الله إليك! وأنت القائل:  
ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً ... بوادي القرى إني إذا لسعيد  
لكل حديثٍ عندهن بشاشةٍ ... وكلّ قتيلٍ بينهنّ شهيد

ويا ليت أيام الصبا كنّ رجعاً ... ودهراً تولى يا بشين يعود  
إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي ... من الحب قالت ثابتٌ ويزيد  
وإن قلت ردّي بعض عقلي أعش به ... تناءت وقالت ذاك منك بعيد  
فما ذكر الخللان إلا ذكرهما ... ولا البخل إلا قلت سوف تجود  
فلا أنا مردودٌ بما جئت طالباً ... ولا حبه فيما يبيد يبيد  
يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ... ويجيا إذا فارقتها ويزيد  
قال: نعم، قالت: لله أنت! جعلت لحديثها ملاحه وبشاشه وقيلتها شهيداً. وأنت القائل:

ألا ليتني أعمى أصمّ تقودني ... بثينة لا يخفى عليّ مكانها  
قال: نعم، قالت: قد رضيت من الدنيا أن تقودك بثينة وأنت أعمى أصم؟ قال: نعم، ثم دخلت وخرجت  
ومعها مدهن فيه غالية ومندبل فيه كسوة وصرّة فيها خمس مائة دينار فصبت الغالية على رأس جميل حتى  
سالت على لحيته ودفعت إليه الصرة والكسوة وأمرت لأصحابه بمائة مائة.

وقال سوار بن عبد الله: قال رؤبة بن العجاج: أرسل إليّ سليمان بن علي وهو بالبصرة فقال: هذا رسول  
الأمير أبي مسلم قدم في إشخاصك، قلت: سمعاً وطاعة، أرجع إلى أهلي فأصلح من شأنني، قال: ليس إلى  
ذلك سبيل، ثم النفث إلى الحرسى فقال: هذا صاحبك فشأنك، فلم أهنه أن حملت على البريد فوافيت  
الأنبار مع الجمعة الأخرى فأدخلت سرادقاً فيه عشرة آلاف رجل في السواد واضعي أذقانهم على قوابع  
سيوفهم لا ينظر بعضهم إلى بعض إلا شزراً ولا يكلمه إلا همساً، ثم اخترق بي سرادق آخر مثل الأول على  
مثل حاهم، فقلت في نفسي: أحسبه تذكّر عليّ بعض قولي في بني أمية فأراد قتلي، فأيست عند ذلك من  
الحياة، ثم خرجت إلى سرادق ثالث فإذا قبة مضروبة في وسطه فدفعت إليه فلسمت بالإمارة عليه، فقال لي:  
أنت رؤبة ابن العجاج؟ قلت: نعم، جعلني الله فداك أيها الأمير! فقال: أنشدني قولك يرمي الجلاميد بجمود  
مدقّ، فحقق فيّ نفسي ما كنت قدّرت وظننت، ثم قلت: بل أنشدك، جعلت فداك:

ليبك إذ دعوتني لبيكا ... تطلب حقاً واجباً عليك

فسكت حتى فرغت منها ثم أقبل عليّ فقال: أنشدني قولك يرمي الجلاميد بجمود مدقّ، قلت بل أنشدك  
قولي:

ما زال ييني خندقاً ويهدمه ... وعسكراً يشرعه ويهزمه  
ومغنماً يجمعه ويقسمه ... مروان لما غره منجمه

فأمسك حتى فرغت ثم قال: أنشدني قولك يرمي الجلاميد بجمود مدقّ، فقلت بل أنشدك:

ما زال يأتي الأمر من أقطاره ... على اليمين وعلى يساره  
حتى أقرّ الملك في قراره ... مشمراً لا يُصطلي بناره  
فقال: أنشدني ويحك يرمي الجلاميد! فأنشدته:

وقاتم الأعماق خاوي المحترق ... مشتبه الأعلام لّاع الخفق

فأنصت حتى انتهيت إلى قولي:

يرمي الجلاميد بجلمودٍ مدقّ

فوقفت، فقال: إن أمير المؤمنين وجهني إلى خراسان وبها جبال الحديد من الرجال فدمّستها حتى جعلتها دهساً

فلم أجد لي مثلاً إلا قولك يرمي الجلاميد بجلمود مدقّ، أنا والله ذلك الجلمود، اذكر حاجتك، قلت:

جعلت فداك، حاجتي أن تردني إلى أهلي فقد خرجت من عندهم وهم على وجل، فقال: يا غلام عليّ

ببدرة، فكأنها لم تنزل بين يديه، فقال: يا أبا الجحّاف إنك أتيتنا والأموال مشفوهة وقد أمرنا لك بشيء وهو

زمر ولو أتيتنا ونحن على طمأنينة لأوطأت العرب عقيك، والدهر بيننا وبينك أطرق مستتبّ، ولك عودة

وعلينا معوّل. قال رؤبة: فوالله ما دريت بما أجيبه، ثم قال يردّ على السير الذي جاء عليه: فما شعري

سليمان في الجمعة الثانية إلا وأنا عنده فأخبرته الخبر فقال: يا أبا الجحّاف هذه ديتك وربحت نفسك.

قال: وحدثني عبد الله بن عمرو بن عبيد الله قال: حدثني عبيد الله قال: لما دخل مروان بن أبي حفصة على

المهدي وأنشده شعره الذي يقول فيه:

أتى يكون وليس ذاك بكائنٍ ... لبني البنات وراثته الأعمام

أجازه بسبعين ألف درهم، فقال مروان:

بسبعين ألفاً راشني من حياته ... وما نالها في الناس من شاعرٍ قبلي

فحدثنا إدريس بن سليمان بن يحيى بن يزيد بن أبي حفصة قال: كان سبب اتصال مروان بخلفاء بني العباس

أن جارية يمانية أهديت إلى أبي جعفر المنصور فأنشدته شعراً لمروان يمدح به السريّ بن عبد الله يذكر فيه

وراثته العباس، فسألها لمن الشعر فأخبرته، فأمر بإحضار مروان، فوافاه بالربذة حاجاً فلقى الربيع، والمنصور

عليل العلة التي مات فيها، فقال: كن قريباً حتى ندعو بك. فلم تنزل العلة تشتد به حتى مات قبل أن يصل

إليه مروان.

فقال له الربيع: الحق بالمهدي ولا تتخلف عنه. وانصرف مروان إلى اليمامة فجعلها طريقاً وعليها بشر بن

المنذر والياً، فأوفده بشر فيمن أوفده وأعطى كل رجل ألف درهم. فقدم مروان على المهدي وقد مدحه

بأربع قصائد قوله:

صحا بعد جهدٍ فاستراحت عواذله ... وأقصر عنه حين أقصر باطله

وقوله:

طاف الخيال وحيّه بسلام ... أنى ألم وليس حين لمام

وقوله:

اعص الهوى وتعزّ عن سعداكا ... فلمثل حلمك عن هواك فماكا

وقوله:

مرى العين شوقاً حال دون التجلد ... ففاضت بأسرابٍ من الدمع حشدي

حشدي من الحشاد، يريد أنه يخلطها به. قال إدريس: فأعطي مروان المهدي ثلاثين ألف درهم فانصرف إلى اليمامة ثم عاد في سنة أربع وستين ومائة فطلب الوصول بيعقوب بن داود، فأقام نحواً من سنة، وغضب المهدي على يعقوب بن داود. قال إدريس: فحدثني مروان قال: بينا أنا واقف على باب المهدي إذ خرج خالد بن يزيد بن منصور فقال: يا ابن أبي حفصة ذكرك أمير المؤمنين آنفاً وهو يراك أشعر الناس غير أنه يقول لا حاجة لنا فيما قبلك فانصرف عن بابنا. قال: فانصرفت مغموماً ثم تذكرت رجلاً أتحدث عنده وأتفرج به وآنس لديه، فأتيت يزيد بن مزيد فشكوت إليه ما قال لي خالد بن يزيد، فقال: أدلك على رجل صدوق له رقة لعله ينفعلك. قلت: ومن هو؟ قال: الحسن الحاجب. فغدوت إلى الحسن فشكوت إليه ما حكاه خالد من رأي أمير المؤمنين. فقال: قل في يعقوب بن داود. فقلت: بأبي أنت وأمي! أنت ترجو أن يكون ذلك مفتاحاً لما أنا فيه؟ قال: ذاك كما أقول لك. فانصرفت وقلت:

أتاني من المهدي قولٌ كأنما ... به احتز أنفي مدمن الضعن جادع  
وقلت، وقد خفت التي لا شوى لها ... بلا حدث: إني إلى الله راجع  
وما لي إلى المهدي لو كنت مدنياً ... سوى حلمه الصافي من الناس شافع  
ولا هو عند السخط منه ولا الرضى ... بغير الذي يرضى به الله صانع  
عليه من القوى رداءً يكتنه ... وللحق نورٌ بين عينيه ساطع  
يُغصّ له طرف العيون وطرفه ... على غيره من خشية الله خاشع  
هل الباب مفضٍ بي إليك ابن هاشم ... فعنري إن أفضى بي الباب ناصع  
أتيت امرأً أطلقته من وثاقه ... وقد أنشبت في أخدعيه الجوامع  
وجلّى ضباب العدم عنه وراشه ... وأمهضه معروفك المتتابع  
فقلت وزيرٌ ناصحٌ قد تتابعت ... عليه يانعام الإمام الصنائع  
وما كان لي إلا إليك ذريعة ... وما ملكٌ إلا إليه الذرائع  
وإن كان مطويماً على العدر كشحه ... فلم أدر منه ما تجنّ الأضالع  
وقل مثل ما قال ابن يعقوب يوسف ... لإخوته قولاً له القلب نائع  
تنفّس فلا تثريب إنك آمنٌ ... وإني لك المعروف والقدر جامع  
فما الناس إلا ناظرٌ متشوّفٌ ... إلى كلّ ما تسدي إليّ وسامع  
قال وقد قلت في قصيدة أخرى:

سيحشر يعقوب بن داود خائباً ... يلوح كتابٌ بين عينيه كافر  
خيانتته المهدي أودت بذكره ... فأمسى كمن قد غيبته المقابر  
بدا منك للمهدي كالصبح ساطعاً ... من الغش ما كانت تجنّ الضمائر  
وهل لبياض الصبح إن لاح ضوءه ... فجاب الدجى من ظلمة الليل ساتر  
أمنزلةً فوق التي كت نلتها ... تعاطيت، لا أفلحت مما تحاذر  
قال: ثم أتيت بها الحسن بعد يومين فقال: ما صنعت؟ فأنشدتكما إياه. قال: اكتبهما لي. فقلت: قد فعلت.



فقال: هاكما. فتناولهما وقال: لست واضعهما من يدي حتى أضعهما في يد المهدي. ثم مضى وأتيته من الغد فقال: ما وضعتهما من يدي حتى وضعتهما في يد المهدي فقرأهما فرق لك وأمر بإدخالك عليه فاحضر يوم الاثنين. فحضرت فخرج عليّ فقال: قد علم أمير المؤمنين بمكانك وقد أحبّ أن يجعل لك يوماً يشرفك فيه ويبلغ بك. قلت: فمتى بأبي أنت وأمي؟ قال: يوم الخميس. فعدت إليه يوم الخميس فإذا وجوه بني العباس يدخلون على المهدي، فلما تنام المجلس دعاني فدخلت، فسلمت فرد علي السلام، فقال: إنما حبسك عن الدخول انقطاعك إلى الفاسق يعقوب بن داود. فافتتحت النشيد بما قلت في يعقوب فأنشده ثم أشدته قولي فيه: طرفك زائرة فحيّ خيالها. فأعجب بذلك وقال: جزاك الله خيراً. فقلت: اشهدوا هذا والله الشرف، أمير المؤمنين يجزيني خيراً، ثم أنشدته: أعادك من ذكر الأجابة عائد، فلما صرت إلى قولي: أيادي بني العباس ييض سواغ ... على كل قوم بادئات عوائد فهم يعدلون السمك من قبة الهدى ... كما يعدل البيت الحرام القواعد

سواعد عزّ المسلمين وإنما ... ينوء بصولات الأكلف السواعد  
يزين بني ساقى الحجيج خليفة ... على وجهه نوراً من الحق شاهد  
يكون غراراً نومه من حذاره ... على قبة الإسلام والخلق راقد  
كأن أمير المؤمنين محمداً ... لرأفته بالناس للناس والد  
على أنه من خالف الحق منهم ... سقته به الموت الخوف الرواصد  
أشار إليّ فأمسكت. فقال: يا بني العباس هذا شاعركم المنقطع إليكم المعادي فيكم فأتوا إليه ما يسره.  
فقلت: ينبغي إذ سمعوا كلام أمير المؤمنين وعرفوا رأيه أن يصلوني من أمواهم. فقال: أنا فارض عليهم لك مالاً، ففرض على موسى ابنه خمسة آلاف درهم وعلى هارون خمسة آلاف ثم فرض على القوم على قدر حالهم حتى فرض عليهم سبعة وثلاثين ألف درهم والربيع يكتب كل ما فرض على كل رجل منهم. فقال أبو عبيد الله: يا أمير المؤمنين إنما نحن من أهلك فأدخلنا فيما أدخلتهم فيه، فجعل عليه ألفاً وعلى الربيع ألفين، فتمت أربعين ألفاً. فقلت: يا أمير المؤمنين من لي بهذا المال؟ قال: هذا، وأشار إلى الربيع، ثم قال: إن أمير المؤمنين يعطيك من صلب ماله، فأمر لي بثلاثين ألف درهم في ثلاث بدر، فحجىء بهن فطرحن قريباً، فدعوت وشكرت فقال: يا ابن أبي حفصة ستجنيك صلاتي وبري وبأتيك مني ما يؤدبك إلى الغنى.  
قلت: يا أمير المؤمنين قد رأيت من قبولك وبشرك وسرورك بما سمعت مني ما سأزداد به شعراً وستسمع ويبلغك، وقلت: يا أمير المؤمنين لا يبلغ ما أعطيتني لشاعر بعدي. قال: أجل. قلت: وآذني في زيارتك. قال: نعم. قلت: يا أمير المؤمنين لي عدو فيك وفي أهل بيتك فإن رأى أمير المؤمنين أن يجعل لأحد عليّ سلطان دونه. قال: لا سلطان عليك دون أمير المؤمنين. فقلت: اكتب إليّ بذلك كتاباً. فأمر بالكتاب بذلك، فانصرفت، فلما صرت خلف الستر خرج إليّ خادم بمندبل فيه أربعة أثواب: ثوب وشي وثوب خزّ وجبة بياض محشوة وقميص، فقال: ألبسوه وأعيدوه إلي، فلبست الخزّ والوشى على الثياب التي كانت عليّ وألقيت القميص على أحد منكبي والحبة على المنكب الآخر. فقال لي: يا ابن أبي حفصة أتدخل على أمير

المؤمنين هكذا وقد مثلت بنفسك؟ فقلت: والله لو كانت كرامة أمير المؤمنين أحد لما خلعت منها شيئاً أطيق حملة، ثم دخلت. فلما رأيته تبسم ثم قال: مطرف، فأبطأوا به، فقال: المطرف! وأنا قائم، ثم قال الثالثة المطرف، فلما أبطأوا انصرفت وقعدت خلف الستر، فلم ألبث أن رفع الستر وخرج أمير المؤمنين علي دابة، فقممت إليه، فلما رأيته قال: المطرف! فما برح حتى أتني به فنشر عليّ بين يديه، وأمر لي بعشرة من خدم الروم وقطيعه بناحية السواد، فبعت القطيعه من عيسى بن موسى بعشرين ألف درهم وبرذون بسرجه ولجامه. قال: فلم يزل مروان علي باب المهدي حتى هلك.

وعن عبد الله بن هارون قال: حدثني عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله عن المغيرة قال: دخل المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي وأبو السائب والعمامي ابن لؤلؤ الرطب وابن أخت الأحوص علي المهدي وهو بالمدينة فقال: أنشدوني. فأنشد المغيرة:

وللناس بدرٌ في السماء يرونه ... وأنت لنا بدرٌ على الأرض مقمر  
فبالله يا بدر السماء وضوءه ... تزال تكافي عشر ما لك أضمر  
وما البدر إلا دون وجهك في الدجى ... يغيب فتبدو حين غاب فتقمر  
وما نظرت عيني إلى البدر ماشياً ... وأنت فتمسي في الثياب فتسحر  
وأنشد ابن أخت الأحوص:

قالت كلابة: من هذا؟ فقلت لها: ... هذا الذي من أعدائه زعموا  
إني امرؤٌ لَجَّ بي حبٌّ فأحرضني ... حتى بليت وحتى شفني السقم  
وأنشده العمامي المخزومي:

رمى القلب من قلبي السواد فأوجعا ... وصاح فصيح بالرحيل فأسمعا  
وغرّد حادي الين وانشقت العصا ... فأصبحت مسلوب الفؤاد مفجعاً  
كفى حزناً من حادث الدهر أني ... أرى الين لا أسطيع للين مدفعا  
وقد كنت قبل اليوم بالين جاهلاً ... فيا لك بيناً ما أمرٌ وأوجعا  
وأنشده أبو السائب:

أصيخا لداعي حبّ ليلي فيمّا ... صدور المطايا نحوها فتسمعا  
خليلي إن ليلي أقامت فإنني ... مقيمٌ وإن بانّت فيينا بنا معا  
وإن انثت ليلي بربعٍ يحوزها ... قعيد كما بالله أن تنزعزعا  
فقال: والله لأغنينكم الليلة! ثم قال للمغيرة: هل لك من حاجة؟ فإنه بلغني أنك بعت جاريتك في دين كان عليك. قال: والله يا أمير المؤمنين لقد فعلت ذلك. قال: فلأردنهما عليك، فأجاز ثلاثة منهم بعشرة آلاف دينار إلا ابن لؤلؤ الرطب فإنه سار معه، فمرّ بدار فقال: لمن هذه الدار؟ فقال: للأحوص الذي يقول:  
يا بيت عاتكة الذي أتعزّل ... حنر العدى وبه الفؤاد موكل  
وأراك تفعل ما هويت وبعضهم ... مدق الحديث يقول ما لا يفعل

فقال: عزّ عليّ لم تأخذ شيئاً، ثم قال للربيع: اعنى ما تملك إن لم تعطه أنت عشرة آلاف دينار وأنا عشرة آلاف دينار، فقبضها وخرج.

قال: ودخل ابن الخياط على المهدي فمدحه فأمر له بخمسين ألف درهم، فلما قبضها فرقها بين الناس وأنشأ يقول:

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدي  
فلا أنا منه ما أفاد ذرو الغنى ... أفدت وأعداني فبلدت ما عندي  
فأعطاه لكل درهم ديناراً.

قال: ودخل سلم بن عمرو الخاسر على المهدي فقال:  
أليس أحق الناس أن يدرك الغنى ... مرجّي أمير المؤمنين وسائله  
لقد بسط المهدي عدلاً ونائلاً ... كأنهما عدل النبي ونائله  
فقال: أما ما ذكرت يا سلم من الجود فوالله ما تعدل الدنيا عندي خاتمي هذا، وأما العدل فإنه لا يقاس  
برسول الله، صلى الله عليه وسلم، أحد وإني لأتحراه جهدي، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أنواب،  
ثم وفد عليه في السنة الثانية فأنشده:

إن الخلافة لم تكن بخلافة ... حتى استقرت في بني العباس  
شدّت مناكب ملكهم بخليفة ... كالدهر يخلط لينه بشمس  
فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوباً، فلما كان في العام الثالث وفد عليه فأنشده:  
أفنى سؤال السائلين مجوده ... ملكٌ مواهبه تروح وتغتدي  
هذا الخليفة جوده ونواله ... نفذ السؤال وجوده لم ينفد  
فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوباً.

وعن أحمد بن بكر الباهلي قال: حدثني حاجب المهدي قال: قال لي المهدي يوماً نصف النهار: اخرج وانظر  
من الباب. فخرجت فإذا بشيخ واقف، فقلت: ألك حاجة؟ فقال: ما يمكن أن أخبر بحاجتي أحداً غير أمير  
المؤمنين، فتركته ودخلت على المهدي، فقال لي: اخرج فانظر من الباب، فخرجت فإذا الشيخ، فقلت: إن  
كان لك حاجة فاذكرها. قال: لا أذكرها إلا لأمير المؤمنين. ففعل هذا مرات، فقال المهدي: انظر من  
الباب. فقلت: شيخ قد سألتني غير دفعة عن حاجة فقال: ما يمكن أن أخبر بحاجتي أحداً دون أمير المؤمنين،  
فقلت: أيدخل؟ قال: نعم ومره بتخفيف، فخرجت وقلت له: ادخل وخفف. فدخل وسلم بالخلافة ثم قال:  
يا أمير المؤمنين إنا قد أمرنا بالتخفيف:

فإن شئت خففنا فكنا كريشة ... متى تلقها الأنفاس في الجو تذهب  
وإن شئت تهللنا فكنا كصخرة ... متى تلقها في حومة البحر ترسب  
وإن شئت سلمنا فكنا كراكب ... متى يقض حقاً من سلامك يعرب  
فضحك المهدي وقال: بل تكرم وتقضى حاجتك. فقضى حاجته ووصله بعشرة آلاف درهم.

قال المبرد: حدثني محمد بن عامر الحنفي قال: ذكروا أن فتياناً كانوا مجتمعين قد ائتمفوا في نظام واحد كلهم ابن نعمة وكلهم قد شرد عن أهله وقع بأصحابه، فذكر ذاكرٌ منهم وقال: كنا قد ائتمفنا داراً شارعها على أحد طرق بغداد المعمورة بالناس فكنا لا نستكثر أن تقع مؤونتنا على واحد منا إذا أمكنه ويبقى الواحد منا لا يقدر على شيء فيقوم أصحابه بأمره الدهر الأطول، فكنا إذا أيسرنا أكلنا من الطعام أطيبه ولبسنا من اللباس ألينه ودعونا الملهين والملهيات وكنا في أسفل الدار، وإذا عدمنا الطرب جلسنا في غرفة لنا نتمتع فيها بالنظر إلى الناس، وكنا لا نُخلّ بالبيذ في عسرٍ ولا يسرٍ ولو نبيع الثوب من الأثواب، فإننا لكذلك يوماً إذا بهتتْ يستأذن علينا، فقلنا له: اصعد وادخل، فإذا رجل حلو الوجه سريّ الهيئة تنبّء رؤيته أنه من أهل النعم. فأقبل علينا فقال: إني سمعت بمجتمعكم وحسن منادمتكم وصحة ألفتكم حتى كأنكم أدرجتم جميعاً في قلب واحد فأحييت أن أكون واحداً منكم وأن لا تحتشموني. قال: وصادف ذلك منا إقتاراً من القوت وإكثاراً من النيذ. فقال لغلام معه: هات ما عندك. فبهر عنا غير بعيد ثم أتى بسلة خيزران فيها طعام من جداء ودجاج وفراخ ورقاق وأشنان وأخلةً ومحب فأصبنا من ذلك الطعام ثم أفضنا في شرابنا وانبسط الرجل، فإذا هو أحلى خلق الله إذا حدث وأحسنهم استماعاً إذا حُدت وأمسكهم عن ملاحاة إذا خولف، ثم أفضينا معه إلى أكرم مخالعة وأجل معاشرة، فكنا ربما امتحناه بأن ندعوه إلى الشيء الذي نعلم أنه يكرهه فيظهر لنا أنه لا يجب غيره ويُرى ذلك في أسارير وجهه، فكنا نغني به عن حسن الغني ونتمثل بكلامه وتندارس أخباره، فشغلنا بظرفه وبما عاشرنا به عن وصفه والسؤال عن تعرف اسمه ونسبه، فلم يكن عندنا من أمره إلا معرفة الكنية، فإننا سألناه عنها فأبأننا أنه يكنى أبا الفضل، فقال لنا يوماً بعد اتصال الأنس: ألا أخبركم كيف عرفتمكم؟ قلنا له: إنا لنحب ذلك. فقال: أحييت جاريةً في جواركم وكانت مولاتما ذات حبايب فكانت تختلف بالرسائل بينها وبين حبايبها وكنت أجلس لها في الطريق ورأيت غرفتم هذه فسألت عن خبرها فخبرت عن ائتلافكم ومساعدة بعضكم بعضاً فكان الدخول عندي فيما أنتم فيه آثر عندي من الظفر بالجارية. فسألناه فخبّرنا بمكانها. فقلنا له: فإننا لنخدها لك حتى يظفرك الله بها. قال: يا إخواني إني والله على ما ترون من شدة الشوق إليها والكلف بها وما قلّرت فيها حراماً قط وما تقديري إلا مطاولتها ومصابقتها إلى أن يمّن الله جل وعز بثروة فأشتريتها. فأقام معنا شهرين ونحن به على غاية الاغباط ويقربه على غاية السرور، ثم احتبس عنا فتألنا لفراقه كل ممضٍ ولوعة مؤلمة ولم نعرف له منزلاً نلتمسه فيه فيكون فقدّه أخف علينا، فكدر عيشنا الذي كان صافياً قد طاب لبايه، وقبح ما كان قد حسن لنا يقربه وانصرام الغم بمحادثته، فكنا فيه كما قال القائل:

يذكرنيهم كلّ خيرٍ رأيتُه ... وشرٍ فما أهلك منهم على ذكر

فغاب عنا عشرين يوماً لا نلتذهن، ثم نحن يوماً مجتازون في الرصافة فإذا به وقد طلع في موكب نبيل وزي جليل فحيث بصر بنا انخطّ عن دابته وانخط غلمانته ثم قال: يا إخواني ما هنأني عيش بعدكم ولست أماطلكم بجديني وخبري حتى نبلغ المسقر، ثم مال بنا إلى مسجد فقال: أعرفكم أولاً نفسي، أنا العباس بن الأحنف وكان من خبري أي انصرفت من عندكم إلى منزلي والمسودة قد أحاطت بي فمضي بي إلى دار أمير المؤمنين

فصرت إلى يحيى بن خالد فقال: ويحك يا عباس إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخذك وحسن تأتيك! وإن الذي نديبتك له من شأنك، وقد عرفت خطرات الخلفاء، وإني أخبرك أن ماردة هي الغالبة على أمير المؤمنين وقد جرى بينهما عتب وهي بعزة دلالة المعشوق تأبى أن تعتذر وهو بعزة الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك، وقد رمت الأمر من قبلهما فأعياني وهو أحرى أن تستغزه الصباية، فقل شعراً تسهل به هذا السبيل، فقصي كلامه، ثم دعاه أمير المؤمنين فصار إليه، وأعطيت قرطاساً ودواة فاعتراي الزمع ونفر عني كل شيء من العروض ثم انفتح لي شيء من الأشياء والرسول ما تغبني فجاءتني أربعة أبيات رضيتهما وقعت صحيحة المعنى سهلة الألفاظ ملائمة لما طلب مني، فقلت لأحد الرسل: أبلغ الوزير قد قلت أربعة أبيات فإن كان فيها مقنع. وفي قدر ذهاب الرسول ومجيه حضرتي بيتان من غير ذلك الروي، فكتبت الأربعة الأبيات في صدر الرقعة وعقبت بالبيتين فكتبت:

العاشقون كلاهما متغضب ... وكلاهما متوجّد متجّب  
صدت مغاضبةً وصد مغاضباً ... وكلاهما مما يعالج متعب  
راجع أحبتك الذين هجرتم ... إن المتيم قلّ ما يتجيب  
إن التجيب إن تطاول منكما ... دب السلو له فعزّ المطلب  
ثم كتبت تحت ذلك:

لا بد للعاشق من وقفة ... تكون بين الوصل والصرم  
حتى إذا لهم تمادى به ... راجع من يهوى على رغم

قال: ووجهت بالكتاب فدفعه إلى الرشيد، فقال: والله ما رأيت شعراً أشبه بما نحن فيه من هذا، والله لكأني قصدت به. فقال يحيى: فأنت والله المقصود به يا أمير المؤمنين، هذا يقوله العباس بن الأحنف في هذه القصة. فلما قرأ البيتين وأفضى إلى قولي: راجع من يهوى على رغم، استفرغ ضاحكاً ثم قال: إني والله أراجعها على الرغم، وقال: يا غلام نعليّ، فهض وأذهله الجذل والسرور عن أن يأمر لي بشيء. فدعاني يحيى وقال: إن شعرك قد وقع بغاية الموافقة وأذهل أمير المؤمنين السرور عن أن يأمر لك بشيء. قلت: لكن هذا الخبر لم يقع مني بغاية الموافقة. قال: إذا أوقعه. ثم جاء إنسان فساره بشيء فهض ونهضت لهوضه. فقال: يا عباس أمسيت أنبل الناس، أتدري ما سارني به هذا الرسول؟ قلت: لا. قال: ذكر أن ماردة تغلت أمير المؤمنين لما علمت بمجيئه فقالت: كيف كان هذا يا أمير المؤمنين؟ فأعطاها الشعر وقال: هذا الذي جاء بي! قالت: فمن يقوله؟ قال: العباس بن الأحنف. قالت: فبكم كوفي؟ قال: ما فعلت شيئاً. قالت: إذاً والله لا أجلسن حتى يكافأ! فأمر المؤمنين قائم لقيامها وأنا قائم لقيامهما وهما يتناظران في صلتك، فهذا كله لك. قلت: ما لي من هذا إلا الصلة! فضحك وقال: هذا أحسن من شعرك. فأمر لي أمير المؤمنين بمال كثير وأمرت هي لي بمال دونه وأمر لي الوزير بمال دون ما أمرت به وحملت على ما ترون من الظهر. ثم قال لي الوزير: تمام اليد عندك أن لا تخرج من الدار حتى يؤثّل لك بهذا المال، فاشتريت لي ضياع ثعلّ عشرين ألف درهم ودفع إلى بقية المال. فهذا هو خبري الذي عاقني عنكم، فهلموا حتى أقاسمكم الضياع وأفرق بينكم المال. فقلنا: هناك

الله مالك، كلنا يرجع إلى نعمة من أبيه وأهله. فأقسم وأقسمنا فقال: أنتم إسوتي فيه. قلنا: أما هذا فنعم، فامضوا بنا إلى الجارية حتى نشتريها. قال: فمضينا إلى صاحبها، وكانت جارية جميلة حلوة لا تحسن شيئاً أكثر مما بها من الظرف، وكانت تساوي على وجهها خمسين ومائة دينار، فاستامت بما صاحبها خمس مائة دينار فأجبتها بالتعجب فحطت مائة. فقال لنا العباس: يا فتيان إني أحتشم والله أن أقول بعد ما قلتم ولكن هي جارية في نفسي بما يتم سروري، إن هذه الجارية أريد إثارة نفسي بها وأكره أن تنظر إليّ بعين من قد ماكس في ثمنها فدعوني أعطيها خمس مائة دينار. قلنا: قد حطت مائة! قال: وإن فعلت. فصادفت مولاتها رجلاً حراً وأخذت من الثمن ثلاثمائة وجهازها بالباقي فما زال لنا عشيراً حتى فرق بيننا وبينه الموت.

وعن المبرد قال: حدثني من اعتمد عليه أن مسلم بن الوليد كان يمدح من دون الخليفة وكان يقول: إن نفسي تدوب حسرات من أنه يحوي خزائن الخلفاء من لا يقاربني في أدب ولا يوازيني في نسب ولا يصلح أن يكون شعره خادماً لشعري. وكان إذا كسب جمع أصحابه فلم يخرج من منزله حتى يأتي على جميع ما معه، فلا يزال في أكل وشرب وقصف حتى يفنى ما معه، فعرف بذلك، وكانت البرامكة ويزيد بن يزيد الشيباني ومحمد بن منصور بن زياد يبرونه ويعطفون عليه ويتفقون من حاله. فخرج ذات يوم فلقي يزيد بن منصور الحميري باب الرشيد فسلم عليه فرد عليه السلام ورحب به وسأله عن شأنه فخره وسأله أن يقربه من الخليفة وأن يحتال حتى يعد في مازحته ومن يجري عليه أرزاقه. فقال له الحميري: سأأتى لوصولك إلى أمير المؤمنين. فدخل الحميري فأصاب أمير المؤمنين لقس النفس قد اشتمل عليه الفكر في سرعة تقضي أمور الدنيا وأنه لا يتشبث منها بشيء إلا كان كالظل الزائل والسراب الخادع. فقال له جعفر بن يحيى: يا أمير المؤمنين أفضن أن هذا الفكر يجس عليك الأيام ويمعك مما لا تستمتع به؟ إنما هذا الذي أتت فيه عارض عرض لك، وقد كان ملك من الملوك يقال له بهمان وكان من أجل ملوك العجم وكان حكيماً يقول: الهم مفسدة للنفس ومضلة للفهم ومشدهة للقلب، ومن أعظم الخطأ التشاغل بما لا يمكن دفعه، وقد قالت الحكماء: بالسرور يطيب العيش ومع الهم يتمنى الموت. وقال له سليمان بن أبي جعفر: يا أمير المؤمنين يروى عن لقمان الحكيم أنه قال: من يملك يستأثر، ومن لا يستشر يندم، والهم نصف الهرم، والفقر الموت الأكبر. قال: فكان الرشيد نشط واندفع عنه ما كان اعتراه من ذلك الفكر. فبتقدم إليه الحميري وقال: يا أمير المؤمنين خلفت بالباب أنفاً رجلاً من أحوالك الأنصار متقدماً في شعره وأدبه وظرفه، أنشدني قصيدة يذكر فيها أنسه وهوه ولعبه ومحادثته إخوانه ويذكر مجالس اتصلت له بأبلغ قول وأحسن وصف وأقرب رصف، يبعث والله على الصبابة والفرح ويباعد عن الهم والترح، وكأنه قد وفق بيمن أمير المؤمنين وسعادة جده لأن يكون مبرئاً من هذه الشكوى زانداً في سرور أمير المؤمنين مستدعياً له صلة رحمه والتشرف بخدمته. قال: فاستغزه السرور والقلق إلى دخوله عليه واستماع قصيدته وجعل يتابع الرسل بعضهم في إثر بعض حتى دخل. وكان حلوا الشمائل، فوصل إليه في وقت قد كان خرج فيه من رسم الشباب وشرته ولم يكن في عداد من قد اضطرب سناً، وكان ناهيك من رجل معه فهم وتجربة وتمييز ومعرف، فأمهل حتى سكن ثم أذن له في الجلوس والانبساط واستدعى منه أن يزيد في الأنس، فانبرى مسلم ينشد قصيدته،

فجعل الرشيد يتناولها ويستحسن ما حكاها من وصف شراب وهو دمامة وغزل وسهولة ألفاظ، فأمر له بمال وأمر أن يتخذ له مجلس يتحول إليه، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته، فسماه يومئذ بآخر بيت من قصيدته صريع الغواني، والرشيد الذي سماه بهذا الاسم، والقصيدة هي هذه:

أديرا علي الكأس لا تشربا قبلي ... ولا تطلبا من عند قاتلي ذحلي  
فما جرعي أبي أموت صباة ... ولكن على من لا يحل لها قتلي  
أحب التي صدت وقالت لتربها: ... دعيه الثريا منه أقرب من وصلي  
بلى ربما وكلت عيني بنظرة ... إليها تزيد القلب خبلا على خيل  
كتمت تباريح الصباة عاذلي ... فلم يدر ما بي واسترحت من العذل  
ومأخة شراهما الملك قهوة ... يهودية الأصهار مسلمة البعل  
ربية شمس لم تهجن عروقها ... بنار ولم يجمع لها سعف النخل  
بعثنا لها منا خطيبا لبضعها ... فجاء بها يمشي العرضة في مهل  
قد استودعت دنا لها فهو قائم ... بها شفقا بين الكروم على رجل  
فوافي بها عذراء خل أخو ندى ... جزيل العطايا غير نكس ولا وغل  
معتقة لا تشتكي دم عاصر ... حرورية في جوفها دمها يغلي  
أغارت على كف المدير بكونها ... فصارت له منها أنامل كالذبل

أماتت نفوسا من حياة قريبة ... وماتت فلم تطلب بوتر ولا تيل  
شققنا لها في الدن عينا فأسبلت ... كما أخضلت عين الخريدة بالكحل  
كأن فنيقا بالزلا شق نحره ... إذا أسفرت منها الشعاع على البزل  
ودارت علينا الكأس من كف طيبة ... مبتلة حوراء كالرشيا الطفل  
كأن ظباء عكفا في رياضها ... أباريقها أوجسن قعقة النبل  
وحن لنا عود فباح بسره ... فكان عليه ساق جارية عطل  
تضاحكه طورا وتبكيه تارة ... خدلجة هيفاء ذات شوى عبل  
إذا ما علت منا ذؤابة واحد ... تمشت به مشي المقيد في الوحل  
فلا نحن متنا مودة الدهر بغتة ... ولا هي عادت بعد عل ولا نهل  
سأنقاد للذات متبع الهوى ... لأمضي هما أو أصيب فتى مثلي  
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا ... وتغدو صريع الكأس والأعين النجل  
قيل: وأدخل الفضل بن يحيى أبا نواس إلى عند الرشيد فقال له الرشيد: أنت القائل:  
عنتت في الدن حتى ... هي في رقة ديني

أحسبك زنديقا! قال: يا أمير المؤمنين قد قلت ما يشهد لي بخلاف ذلك. قال: وما هو؟ قال قلت:  
أية نار قدح القادح ... وأي حد بلغ المازح

لله درّ الشيب من واعظ ... وناصحٍ لو قبل الناصح  
فاغد فما في الحق أغلوطةٌ ورح لما أنت له رائح  
من يتق الله فذاك الذي ... سيق إليه المتجر الرياح  
لا يجلي الحوراء من خدرها ... إلا امرؤٌ ميزانه راجح  
فاسم بعينك إلى نسوةٍ ... مهورهن العمل الصالح  
فقال الفضل: يا سيدي إنه ليؤمن بالبعث ويحمله الجون على ذكر ما لا يعتقد، ثم أنشد:  
لقد دار في رسم الديار بكائي ... وقد طال تردادي بها وعنائي  
كأنّ مريعٍ في الديار طريفةً ... أراها أمامي مرةً وورائي  
فلما بدا لي حانٍ لا قهرٍ كلابه ... عليّ ولا ينكرن طول ثوائي  
فما رمته حتى أتى دون ما حوت ... يميني وحتى ريطي وحذائي  
وكأس كمصباح السماء شربتها ... على قبلةٍ أو موعدٍ بلقاء  
أتت دونها الأيام حتى كأنها ... تساقط نورٍ من فوق سماء  
ترى ضوءها من ظاهر البيت ساطعاً ... عليك ولو غطيته بغطاء  
تبارك من سلس الأمور بقدره ... وفضل هاروناً على الخلفاء  
نراك بخير ما انطوينا على التقى ... وما ساس دنيانا أبو الأمان  
إمام يخاف الله حتى كأنما ... يؤمّل رؤياه صباح مساء  
أشمّ طوال الساعدين كأنما ... يناط نجادا سيفه بلواء

فخلع عليه الرشيد ووصله بعشرة آلاف درهم والفضل بمثلها، فظفر إلى جارية تخلف كأنها لؤلؤة فقال: يا  
أمير المؤمنين أنا ميت في ليلتي هذه فإذا متّ فمُر أن أدفن في بطن هذه الجارية. فقال له الرشيد: خذها لا  
بارك الله لك فيها! قال أبو نواس: فأخذتها وانصرفت بمثل الشمس حسناً وفي منزلي غلامٌ مثل القمر، فلقيني  
محمد بن يسير الشاعر فقال: أتيتك مهنتاً بما حباك به أمير المؤمنين. فقلت: نعمةٌ تتبعها نقمة. قال: ولم ذاك؟  
فقلت: عندي غلامٌ مثل القمر وهذه مثل الشمس وإن جمعتهما أتخوف ما تعلم وإن أفردت الجارية لم آمن  
عليها وغلامي لا بد منه. قلت: اجعلها عند بعض إخوانك إلى وقت حاجتك إليها. قلت: فلعل الحارس هو  
المتحرس منه. قال: فصيرها عند عجوز تثق بها، قلت: لعلي أسترعي الذئب! قال: ثم افترقنا، فالتقى معه أبو  
نواس بعد ثلاثة أيام فقال له: يا محمد بن يسير ما على الأرض شر منك، شاورتك في أمر فلم تفتح عليّ فيه  
شيئاً فلما فارقتك ازدحم عليّ الرأي المصيب. قال محمد فماذا صنعت؟ قال: زوجت الشمس من القمر  
فحصلتها لأقضي بهما وطري! قال: كان الشيء عليك حلال فجعلته حراماً. قال: يا أحمق شاورتك في  
الحلال والحرام! إنما قلت كيف الرأي في تحصيلهما! ثم أنشأ:  
زوجت هذاك بهذه لكي ... أنكح ننتين فنتين  
أنكح هذه مرةً ثم ذا ... أدبر رحماً بين صفتين



متعت نفسي بهما لذةً ... يا من رأى مطلع شمسين

وحدثنا محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان وهو أمير البصرة قال: كان بالبصرة رجل من بني تميم وكان شاعراً ظريفاً وكنيت أنس به فأردت أن أخدعه فقلت: يا أبا نزار أنت شاعر وظريف والمؤمن أجود من السحاب الحافل والريح العاصف فما يمنعك منه؟ قال: ما عندي ما أتحمّل به. قلت: أنا أعطيك نجيباً فارهاً ونفقة سابعة تخرج إليه وقد امتدحته فإنك إن حظيت بلقائه صرت إلى أمينتك. قال: والله أيها الأمير إني لا أظنك صادقاً. قلت: أجل، فدعوت بنجيباً فارهاً. فقال: هذه إحدى الحسينين فما بال الأخرى؟ فدعوت له بثلاثمائة درهم. قال: وهذه الثانية، قال: أحسبك أيها الأمير قصرت في النفقة. قال: هي لك كافية إن قبضت يدك عن السرف. قال: ومتى رأيت السرف في أكابر بني سعد فكيف في أصاغرها؟ فأخذ النجيبية والنفقة ثم عمل أرجوزة ليست بطويلة فأنشدنيها وحذف منها ذكرى. فقلت له: ما صنعت شيئاً. قال: وكيف ذلك؟ قلت: تأتي الخليفة وأنت وافد فلا تتني على أميرك! قال: أيها الأمير أردت أن تخدعني فوجدتني خداعاً. أما والله ما لكرامتي حملتني وجُدت لي بمالك الذي ما رامه أحد إلا جعل الله خدّه الأسفل ولكن لأذكرك! قلت: فأنشدني ما قلت. فأنشدني، فقلت: أعنت وأجدت. فتركتني وخرج حتى أتى الشام والمؤمن بسلغوس، فأخبرني قال: بينا أنا غزاة قرّة قد ركبت نجيبتي وليست أطماري وأنا أريد العسكر فإذا أنا بكهل على بغل فاره ما يقرّ قراره ولا يدرك خطاه، فتلقاني مكافحة ومواجهة وقال: السلام عليكم، بكلام جهوري ولسان بسيط. فقلت: وعليكم السلام. فقال: قف إن شئت. فوقفت، فضوعت منه رائحة المسك الأذفر. فقال: ممن؟ قلت: رجل من مضر. قال: ونحن من مضر، ثم ماذا؟ قلت: من بني تميم. قال: وما بعدهم؟ قلت: من بني سعد. قال: هيه، فما أقدمك؟ قلت: قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله أندى راحة ولا أوسع باحة ولا أطول باعاً ولا أمدّ يفاعاً منه. قال: فما الذي قصدته به؟ قلت: شعر طيب يلذّ على أفواه الرواة ويجلو في أذن المستمعين. قال: فأنشدني. فمضيت وقلت: يا ركيك أخبرك أي قصدت الخليفة بشعر قلته ومديح حبرته فتقول أنشدني؟ فقال: وما الذي تأمل فيه؟ قلت: إن كان على ما ذكر لي فألف دينار. قال: أنا أعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر جيداً والكلام عذباً وأضع عنك العناء وطول الترداد، متى تصل أنت إلى الخليفة؟ بينك وبينه عشرة آلاف راحم ونابل. قلت: فلي عليك الله أن تفعل؟ قال: لك الله عليّ أن أفعل. قلت: ومعك مال؟ قال: بغلي هذا خير من ألف دينار أنزل لك عن ظهره. قال: فغضبت وعارضتني مرةً مرةً بني سعد وخفة أحلامها وقلت: ما يساوي هذا البغل، هذا النجيب! قال: فدع عنك هذا ولك الله أن أعطيك ألف دينار، فأنشدته الأرجوزة وقلت:

مأمون يا ذا المن الشريفه ... وصاحب المرتبة المنيفه

وقائد الكتيبة الكثيفه ... هل لك في أرجوزة ظريفه

أظرف من فقه أبي حنيفه ... لا والذي أنت له خليفه

ما ظلّمت في أرضنا عفيفه ... أميرنا شكته خفيفه

وما اجتبي شيئاً سوى الوظيفة ... فالذئب والنعجة في سقيفه

واللص والتاجر في قطيفه

فوالله ما أتممت إنشادها حتى جاءني زهاء عشرة آلاف فارس قد سدّوا الأفق وهم يقولون: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فأخذني القلق، ونظر إليّ بتلك الحال وشملي قد تبدد فقال: لا بأس عليك! قلت: يا أمير المؤمنين أمعذري أنت؟ قال: نعم. ثم التفت إلى خادِم في جانبه وقال له: أعطه ما معك، فأخرج له كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار وقال: هاك سلام عليك، فكان آخر العهد به.

حدثنا إبراهيم بن عبد السلام عن الحسين بن الضحك قال: دخلت أنا ومحمد بن عمرو الرومي دار المعتصم بالله فخرج علينا كالحاً فجاء إيتاخ وقال: الملهون على الباب مخارق وعلويه وفلان وفلان. فقال: اغرب، عليك وعليهم لعنة الله! قال: فتبسمت إلى محمد وتبسم إليّ. فقال المعتصم: مم تبسمت يا حسين؟ قلت: من شيء خطر لي، قال: هاته، فأنشده:

انف عن قلبك الحزن ... بدنو من السكن  
وتمتع بكرّ طر ... فك في وجهه الحسن

فدعا بألفي دينار، ألف لي وألف لمحمد بن عمرو. فقلت: يا أمير المؤمنين الشعر لي فما معنى ألف لمحمد؟ قال: لأنه جاء معك. وأمر الملهين بالدخول فأدخلوا، فما زال ينشد الشعر، ولقد قام يريد البول فسمعتة يردد.

قال أبو العيناء: أنشدني المعتصم بعقب مدح جرى لبغداد:

سقاني بعينيه كأس الهوى ... فظلت وبي منه مثل اللمم  
بعيني مهارة شقيقته ... وشنب عذاب وفرع أحم

قال أبو العيناء: فتوهمت أنه يعني سر من رأى ويكني عنها بذلك الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين قال مروان في جدك قريش: الأبلج ذو البهاء غيث العفاة غد الأنواء وهم زمام الدولة الزهراء. فقال: قل يا أبا عبد الله في مدح بني هاشم لك ولغيرك فلقد أصبت مقالاً، فأنشده لمروان بن أبي حفصة:

إلى ملكٍ مثل بدر الدجى ... عظيم الفناء رفيع الدعم

قريع نزار غداة الفخار ... ولو شئتُ قلتُ جميع الأمم

له كفُّ جودٍ تفيد الغنى ... وكفُّ تبيدٍ بسيف النّقم

فقال: زدني، فأنشده:

انتجعي يا ناق ملك غالب ... قريش بطحاء أولي الأهاضب

والرأس ممدودٌ على المناكب ... مدّ القباطي على المشاجب

فقال: زدني، فأنشده:

يا قطب رجراجة الملحاء ... ومنزل البدر من السماء

والمحتدي في السنة العجفاء

فقال: حسبك يا أبا عبد الله. ثم التفت إلى جارية بين يديه فقال: عشر بدر ووصيفة وفرساً ومملوكاً وخمسين

ثوباً الساعة، فجيء بذلك كله، فأعطاه إياه وانصرف. فقال له الناس: يا أبا العيناء ما هذا؟ قال: مال الله

على يد عبد الله، الحمد لله والشكر لأمير المؤمنين ما دامت السماء وما حملت مقلتي الماء.  
قال أحمد بن أبي طاهر: أخبرني مروان بن أبي الجنوب قال: لما استنخلف المتوكل بعثت إليه بقصيدة مدحت فيها ابن أبي دؤاد وفي آخرها بيتان ذكرت فيهما ابن الزيات بين يدي ابن أبي دؤاد وهما:  
وقيل لي الزيات لاقى حمامه ... فقلت أتاني الله بالفتح والنصر  
لقد حفر الزيات بالعدر حفرة ... فألقي فيها بالخيانة والعدر  
فلما صارت القصيدة في يدي ابن أبي دؤاد ذكر لك للمتوكل وأنشده البيتين، فقال: احضرنيه. قال: هو باليمامة. قال: يُحمل. قلت: عليه دين. قال: كم؟ قلت: ستة آلاف دينار. قال: يعطاها. فأعطيت ذلك وحملت وصرت إلى سر من رأى وامتدحت المتوكل بقصيدة أقول فيها:  
رحل الشباب وليته لم يرحل ... والشيب حل وليته لم يحل  
فلما صرت من القصيدة إلى هذا البيت:  
كانت خلافة جعفر كنبوة ... جاءت بلا طلب ولا بتبخل  
وهب الإله له الخلافة منلما ... وهب النبوة للنبي المرسل  
فأمر لي بخمسين ألف درهم.

قال: وكان علي بن الجهم يقع في مروان ويثلبه حسداً لمزلته من أمير المؤمنين. فقال له المتوكل: يا علي أيكما أشعر؟ قال: أنا أشعر منه. قال: ما تقول يا مروان؟ قال: إذا حققت شعرك في أمير المؤمنين لم أبال بمن زيف شعري. ثم النفث مروان إلى علي فقال: يا علي أنت أشعر مني؟ قال: نعم، تشك في ذا؟ قال أمير المؤمنين: بيني وبينك. قال: هو يحاييك. فقال المتوكل: هذا من عيِّك. ثم النفث إلى حمدون النديم فقال: ذا حكم بينكما.

فقال: يا أمير المؤمنين تركني بين لحبي الأسد! قال: لا بد أن تصدقني قال: يا أمير المؤمنين أعرفهما في الشعر أشعرهما، فقال المتوكل: يا مروان اهجه. قال: لا أبدأه ولكن يقول. فقال علي: قد كظني النبيذ ولست أقدر أن أقول. قال مروان: لكني أقول:

إن ابن جهم في المغيب يعيبي ... ويقول لي حسناً إذا لاقاني  
وإذا التقينا فاق شعري شعره ... ونزا على شيطانه شيطاني  
إن ابن جهم ليس يرحم أمه ... لو كان يرحمها لما عاداني  
فقال المتوكل: يا مروان بجياتي لا تقصر! فقال:

يا عليُّ يا ابن بدرٍ ... قلت أمي قرشيه

قلت ما ليس بحقٍ ... فاسكتي يا نبطيه

اسكتي يا بنت جهمٍ ... اسكتي يا حلقيه

قال: فجعل المتوكل يضرب برجله ويضحك وأمر لي بألف دينار، قال مروان: صرت إلى المتوكل فقلت: سقى الله نجداً والسلام على نجد ... ويا حيداً نجدٌ على القرب والبعد

نظرت إلى نجدٍ وبغدادٍ دونها ... لعلني أرى نجداً وهيئات من نجد  
ونجدٌ بما قومٌ هواهم زيارتي ... ولا شيء أحلى من زيارتهم عندي  
قال: فلما تمت إنشادها أمر لي بعشرين ومائة ألف درهم وخمسين ثوباً وثلاثة من الظهر فرساً وبغلة  
وحماراً، فما برحت حتى قلت في شكره:  
تخيّر رب الناس للناس جعفرًا ... فملكه أمر العباد تخييراً  
فلما صرت إلى هذا البيت:

فأمسك ندى كفيك عني ولا تزد ... فقد خفت أن أظغي وأن أتجبرا  
قال: لا والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي ولا تبرح أو تسأل حاجة.  
قلت: يا أمير المؤمنين الضيعة التي أمرت بإقطاعي إياها من اليمامة ذكر ابن المدبر أنها وقف من المعتصم.  
قال: فأني أقبلتها بخراج درهم. قلت: لا يحسن أن يؤدي درهم. فقال ابن المدبر: فألف درهم. قلت: نعم.  
فأمضاها لي ثم قال: ليست هذه حاجة. قلت: فضياعي التي كانت لي وحال ابن الزيات بيني وبينها. فأمر  
بردها عليّ.

قال: وقال أبو يعقوب الخطابي: كنت جالساً عند معن بن زائدة وإذا عليه إزار يساوي أربعة دراهم، فقال:  
يا أبا يعقوب هذا إزارى وقد قسمت العام في قومك خاصة أربعين ألف دينار، فبينما نحن نتحدث إذ أبصر  
أعرابياً يحط به الآل من خوذة مشرفة له على الصحراء، فقال لحاجبه: إن كان هذا يريدنا فأدخله! فدخل  
الأعرابي وسلّم وأنشأ يقول:

أصلحك الله قلّ ما بيدي ... فلا أطق العيال إذ كثروا

أح دهرٌ رمى بكلّك له ... فأرسلوني إليك وانتظروا

قال: فاضطرب، وقال: أرسلوك وانتظروا! يا غلام ما فعل بغلتنا الفلانية؟ قال: حاضرة. قال: كم هي؟  
قال: ألف دينار. قال: اطرحها إليه. ثم قال: اذهب إليهم بما معك ثم إذا احتجت فارجع.

وعن أبي يعقوب الخطابي قال: دخل أعرابي معه صبي صغير في نطع إلى معن بن زائدة وقال:

سميتُ معنًا بمعنٍ ثم قلت له ... هذا سمّي امرئاً في الناس محمود

أنت الجواد ومنك الجود أوله ... لا بل يمينك منها صورة الجود

فأعطاه ألف دينار.

قال: ودخل يزيد بن يزيد الشيباني أحد الأجواد مسجداً باليمن فوجد في قبلته مكتوباً:

مضى معنٌ وخلاني بيّتي ... على معن بن زائدة السلام

فسأل عن قائله، فإذا هو معهم، فقال: يا غلام أمعك شيء؟ قال: نعم ألف دينار. قال: فادفعها إليه. فخرج  
الرجل وهو يقول: رحم الله أبا الوليد وصلني حياً وميتاً.

وحدثنا جعفر بن منصور بن المهدي قال: حدثني أبي قال: حج المهدي فنزل زبالة فدخل حسين بن مطير

الأسدي عليه فقال:

أضحت يمينك من جودٍ مصورةً ... لا بل يمينك منها صورة الجود

من حسن وجهك تضحي الأرض مشرقة ... ومن بنانك يجري الماء في العود  
فقال له المهدي: كذبت. قال: ولم ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: لقولك في معن بن زائدة:  
ألمّا على معن وقولا لقبره ... سقتك الغواذي مربعاً ثم مربعاً  
فيا قبر معن كيف وارىت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مترعا  
فلما مضى معن مضى الجود وانقضى ... وأصبح عرنين المكارم أجدعا  
فكنت لدار الجود يا معن عامراً ... فقد أصبحت قفراً من الجود بلقعا  
أبي ذكر معن أن يميت فعاله ... وإن كان قد لاقى حماماً ومصرعا  
فتى عيش في معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مرتعا  
فقال: يا أمير المؤمنين إنما معن حسنة من حسناتك وفعلة من فعلاتك، فأمر هل بألف دينار ثم قال: سل  
حاجتك. فقال:

بيضاء تسحب من قيام فرعها ... وتغيب فيه وهو جعداً أسحم  
فكأنها فيه نهاراً مشرقاً ... وكأنه ليلٌ عليها مظلم  
قال: خذ بيدها، لجارية كانت على رأسه، فأولدها مطير بن الحسين بن مطير.  
قال: ودخل مروان بن أبي حفصة على جعفر بن يحيى يسأله إيصاله إلى الرشيد وأنه قد مدحه بقصيدة  
ينشدها إياه وقد كان جعفر وصله بثلاثين ألف درهم كتب له بها إلى صالح الصيرفي وكانت فيها دراهم  
طرية، فقال:

ثلاثون ألفاً كلها طرية ... دعا لي بها لما رأى الصك صالح  
دعا بالزيوف الناقصات وإنما ... عطاء أبي الفضل الجياد الرواجح  
فقلت له لما دعا بزيوفه ... أأجد هذا منك أم أنت مازح  
فلما أنشده ذلك جعفرأ ضحك وقال: أنشدني مرثيتك في معن بن زائدة، فأنشده:  
كأن الشمس يوم أصيب معن ... من الظلماء ملبسةً جدولا  
وكان الناس كلهم لمعن، ... إلى أن زار حفرته، عيالا  
فقال جعفر: هل أثابك على هذه المرثية أحد من ولده وأهله؟ قال: لا. قال: فلو كان حياً ثم سمعها منك بكم  
كان يشيك؟ قال: بأربع مائة دينار. قال: أظن أنه كان لا يرضاها لك، قد أمرنا لك عن معن بأربعمائة كما  
ظننت وزدناك مثلها لما ظنناه به فيك فاغد على الخازن لقبضها منه.  
قال: ودخل أعرابي على داود بن يزيد بالسند فقال: أيها الأمير تأهب لمديحي. فتأهب ثم قال: لئن أحسنت  
لأحسنن إليك ولئن أسأت لأردن شعرك عليك، فقال:

أمنت بداود وجود يمينه ... من الحدث المخشي والبؤس والفقر  
وأصبحت لا أخشى بداود نبوة ... ولا حدثاناً إذ شددت به أذري  
فما طلحة الطلحات ساواه في الندى ... ولا حاتم الطائي ولا خالد القسري  
له حكم لقمان وصورة يوسف ... وملك سليمان وصدق أبي بكر

فتىّ قُرب الأموال من طلّ كفه ... كما يهرب الشيطان من ليلة القدر  
فقال: يا أعرابي أحسنت فاحتكم وإن شئت فاردد الحكم إليّ. فقال: ما عند الأمير ما يسعه حكمه. فقال:  
أنت في هذا أشعر. وأمر هل بعشرة آلاف درهم.  
قال: ودخل محمد بن الجهم على المأمون فقال: أنشدني أحسن ما سمعته في المديح. فقال: نعم يا أمير  
المؤمنين، قوله:

يجود بالنفس إذ ضنّ البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود  
فقال: أنشدني أحيث ما سمعته في الهجو، فقال قوله:  
قُبِحت مناظره فحين خيرته ... حسنت مناظره لقبح المخبر  
قال: فأنشدني أحسن ما سمعته في المراثي، فقال قوله:  
أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه ... فطيب تراب القبر دلّ على القبر  
ومثله:

على قبره بني القبور مهابةً ... كما قبله كانت على ساكن القبر  
قال: فأنشدني أحسن ما سمعته في الغزل، قال قوله:  
حبٌّ مُجدِّ وحيبٌ يلعب ... وأنت ملقى بينهم معذبٌ  
فاستحسن الأبيات ثم أمر بتقليدي الصيمرة والسيروان ومهرجانقذق والدينور ونهاوند، فانصرفت من عنده  
بولاية الجبل.

### مساوى منع الشعراء والبخل

قيل: كان أبو عطاء السندي بباب أمير المؤمنين أبي العباس وبنو هاشم يدخلون ويخرجون، فقال:

إن الخيار من البرية هاشمٌ ... وبنو أمية أزدل الأشرار  
وبنو أمية عودهم من خزوعٍ ... ولهاشم في الجمد عود نضار  
أما الدعاة إلى الجنان فهاشمٌ ... وبنو أمية من دعاة النار  
وبهاشم زكت البلاد وأعشبت ... وبنو أمية كالسراب الجاري  
فلم يؤذن له في الدخول على أبي العباس ولم يصله أحد من بني هاشم، فولّى وهو يقول:  
يا ليت جور بني مروان عاد لنا ... وأن عدل بني العباس في النار  
قال: وقال المؤمل الحاربي: شخصت إلى المهدي وهو بالري فامتدحته فأمر لي بعشرين ألف درهم، فرفع  
الخبر إلى المنصور فبعث قائداً إلى جسر النهروان يستبري القوافل، فلما وردت عليه قال: من أنت؟ قلت:  
أنا المؤمل أقبلت من عند الأمير من الري. فقال: إياك أردت! ثم أخذ بيدي فأدخلني على المنصور وهو بباب  
الذهب، فقال: أتيت غلاماً غراً فخدعته! فقلت: بل أتيت غلاماً غراً كريماً فخدعته فأنخدع. فقال: أنشدني  
ما قلته فيه، فأنشدته:

هو المهدي إلا أن فيه ... مشابه صورة القمر المنير  
تشابه ذا وذا فهما إذا ما ... أنارا يشكلان على البصير  
فهذا في الظلام سراج ليل ... وهذا بالنهار سراج نور  
ولكن فضل الرحمن هذا ... على ذا بالمنابر والسرير  
وبالملك العزيز فذا أمير ... وما ذا بالأمير ولا الوزير  
ونقص الشهر يخدم ذا وهذا ... منير عند نقصان الشهر  
فيا ابن خليفة الله المصطفى ... به تعلقو مفاخرة الفخور  
لقد سبق الملوك أبوك حتى ... تراهم بين كاب أو أسير  
وجئت وراءه تجري حثيثاً ... وما بك حين تجري من فتور  
فقال الناس ما هذان إلا ... كما بين الخلق إلى الجدير  
فإن بلغ الصغير مدى كبير ... فقد خلق الصغير من الكبير

فقال: ما أحسن ما قلت ولكن لا يساوي ما أخذت، يا ربيع خذ منه ستة عشر ألفاً وخله وما سواها. قال:  
فحط والله الربيع ثقلي حتى أخذ مني ستة عشر ألفاً فما بقيت معي إلا نفيقة، فأليت على نفسي أن لا  
أدخل العراق وللمنصور بها ولاية، فلما بلغني موت المنصور واستخلاف المهدي قدمت بغداد وقد جعل  
المهدي على المظالم رجلاً يقال له ابن ثوبان، فرفعت إليه قصة أذكر فيها خبري فعرضها على المهدي،  
فضحك حتى استلقى وقال: هذه مظلمة أنا بما عارف، ردوا عليه ماله وزيدوا له عشرين ألفاً، فأخذتها  
وانصرفت.

قيل: ودخل عون على عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين هذا جريو بالباب يريد الدخول عليك.  
فقال عمر: ما أدري أن أحداً من أمة محمد، صلى الله عليه وسلم، يجب عني. قال: إنه يريد إذناً خاصاً  
قال: أدخله. فخرج عون وأخذ بيده فأدخله، فشكا إليه طول المقام وشدة الحال وإلحاح الزمان وجهد  
العيال وسأله أن يأذن له في إنشاده شعراً. فقال: إن أمير المؤمنين لفي شغل عن الشعر. فقال: إنها رسالة من  
أهل الحجاز، قال: هاها، فقال:

قد طال قولي إذا ما كنت مجتهداً ... يا رب عاف قوام الدين والبشر  
خليفة الله ثم الله يحفظه ... عند المقام وإما كان في السفر  
إنا لندرجو إذا ما الغيث أحلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر  
بذ الخليفة أن كانت له قدراً ... كما أتى ربّه موسى على قدر  
ما زلت بعدك في دار تورقني ... قد طال في الحي إصعادي ومنحدري  
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت ... أم قد كفاني الذي بُنت من خبري  
كم بالمواسم من شعناء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر  
أمسى حزينا يبكي فقد والده ... كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر  
إن تسه عنه فمن يرجو لفاقته ... أو تنح عنه فقد أنحيت من ضرر

أنت المبارك والمهدي سيرته ... تعصي الهوى وتقوم الليل بالسور  
ما ينفع الحاضر المجهود بادينا ... ولا يعود لنا بادٍ على حضر

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها ... فمن لحاجة هذا الأرملة الذكر  
الخير ما دمت حياً لا يفارقنا ... بوركت يا عمر الخيرات من عمر  
فبكى عمر ثم رفع رأسه وقال: ما حاجتك يا جرير؟ قال: حاجتي ما عودتني الخلفاء قبلك. قال: وما ذاك؟  
قال: أربعمائة من الإبل برعاتها وتوابعها من الحملان والكسي. قال له عمر: أمن المهاجرين أنت؟ قال: لا.  
قال: فمن الأنصار؟ قال: لا. قال: فممن أنت؟ قال: من التابعين يا حسان. قال: إذاً نجري عليك كما نجري  
على مثلك. قال: فإنني لا أريد ذاك. قال: فما أرى لك في بيت المال غيره. قال: إنما جئت أسألك من مالك!  
قال: فإن لي كسوة ونفقة وأنا أقاسمكما. قال: بل أؤترك وأحمدك يا أمير المؤمنين. فانصرف من عنده وهو  
يقول:

وجدت رقى الشيطان لا تستفزه ... وقد كان شيطاني من الجن راقيا  
ولبعض الشعراء في مثله:

إن حراماً قبول مدحته ... ومنع ما يرتجى من الصغد  
كما الدنانير والدرهم في ال ... صرف حرام إلا يداً بيد  
وقال: أبو نجرة في مثله:

فلما أن بلونك ... ولم نلقك بالناشط

أطعنا فيك ميموناً ... فصورناك في الحائط

إذا لم تك نفاعاً ... فأنت النازح الشاحط

سواء أنت في عيني ... بجي كنت أو واسط

وروي في الحديث قال: لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً.

ويقولون: الشحيح أعذر من الظالم، وأقسم الله جل وعز بعزته لا يساكنه في جنته بخيل.

وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: من فتح له باب من الخير فلينتهزه فإنه لا يدري متى يُعلق عليه، وقال  
الشاعر في ذلك:

ليس في كل ساعة وأوان ... يتهباً صنائع الإحسان

فإذا أمكنت تقدّمت فيها ... حذراً من تعذر الإمكان

وسئل بعض الحكماء: من أكيس الناس في زماننا؟ فقال: ابن أبي دواد حيث يقول فيه الشاعر:

بدا حين أثرى ياخوانه ... قهّل عنهم شبه العدم

وحذّره الحزم صرف الزمان ... فبادر قبل انتقال النعم

فليس وإن بخل الباخلو ... ن يقرع سنأ له من ندم

ولا ينكت الأرض عند السؤال ... ليمنع سؤاله عن نعم



ولكن ترى مشرقاً وجهه ... ليرتع في ماله من عدم  
وفصل لبعضهم في هذا المعنى: إن لأيام القدرة على الخير غنائم فاصطنعها ما دامت راهنة لديك وأنت منها  
متمكن قبل أن تنقضي عنك.

وفي المثل السائر في البخل: هو أبخل من قاذر. وهو رجل من بني هلال ابن عامر بلغ من بخله أنه سقى إبله  
فبقي في أسفل الحوض ماء قليل فسلح فيه وقدر الحوض فسمي قاذراً، وذكروا أن بني فزارة وبني هلال  
تنافروا إلى أنس بن مدرك وتراضوا به، فقالت بنو هلال: يا بني فزارة أكلتم جلد الحمار! فقالت بنو فزارة:  
لم نعرفه. وكان سبب ذلك أن ثلاثة أنفار اصطحبوا، فزاري وثعلبي وكلاي، فصادوا حمار وحش، فمضى  
الفزاري في بعض حوائجه فطبخاه وأكلاه وخبياً للفزاري جلد الحمار، فلما رجع قال له: قد خبأنا لك  
فكل، فأقبل يأكل ولا يسيغه، فجعلوا يضحكان، ففطن وأخذ السيف وقام إليهما فقال لهما: إن أكلتماه وإلا  
قتلتكما، فامتنعا، فضرب أحدهما فأبان رأسه، وتناوله الآخر فأكل منه، فقال فيهم الشاعر:

نشدتك يا فزار وأنت شيخٌ ... إذا خبرت تحطيء في الخيار

أصبحانية أدمت بسمنٍ ... أحب إليك أم جلد الحمار

فقالت بنو فزارة: منكم يا بني هلال من سقى إبله فلما رويت سلح في الحوض وقدره بخلاً. فقضى أنس بن  
مدرك على الهالبيين وأخذ الفزاريون منهم مائة بعير. وكانوا تراهنوا عليها، وفي بني هلال يقول الشاعر:

لقد جلدت خزيًا هلال بن عامر ... بني عامر طراً بسلحة قاذر

فأفّ لكم لا تدركو الفخر بعدها ... بني عامر أنتم شرار المعاشر

وفي المثل: هو أبخل من نار الحباحب، وهو رجل كان في الجاهلية من بخله أنه كان يسرج السراج فإذا أراد  
أحد أن يأخذ منه أطفأه فضرب به المثل.

ومنهم صاحب نجيح بن سليف اليربوعي، فإنه ذكر أن نجيحاً خرج يوماً إلى الصيد فعرض له حمار وحش  
فاتبعه حتى دفع إلى أكمة فإذا هو برجل أعمى أسود قاعد في أطمار بين يديه ذهب وفضة ودر وياقوت،  
فدنا منه نجيح فتناول منها بعضها، فلم يستطع أن يحرك يده حتى ألقاها، فقال: يا هذا ما الذي بين يديك  
وكيف تستطيع حمله، ألك هو أم لغيرك؟ فإني أعجب مما أرى! أجواؤُ أنت فتجود لنا أم بخيل فأعذرک؟ فقال  
الأعمى: كيف تطلب مال رجل قد غاب منذ ستين وهو سعد بن خشرم بن شماس؟ فأنتي بسعد يعطك ما  
تشاء. فانطلق نجيح مسرعاً قد استطير فواده حتى وصل إلى محلته ودخل خبائه فوضع رأسه ونام لما به من  
الغم لا يدري من سعد، فأتاه آت في منامه فقال له: يا نجيح إن سعد بن خشرم في حي محلم من ولد ذهل  
بن شيبان، فخرج وسأل عن بني محلم ثم سأل عن خشرم فإذا هو بشيخ قاعد على باب خبائه، فحياه نجيح  
فردّ عليه. فقال له نجيح: من أنت؟ قال: خشرم بن شماس. قال: وأين ابنك؟ قال: خرج في طلب نجيح بن  
سليف اليربوعي وذلك أن آتياً أتاه في منامه فحدثه أن مالا له في نواحي بني يربوع لا يعلم له إلا نجيح،  
فضرب نجيح بطن فرسه وهو يقول:

أطلبني من قد عناني طلابه ... فيا ليتني ألقاك سعد بن خشرم

أتيت بني يربوع تطلبني به ... وقد جئت كي ألقاك حي الخلم  
فلما دنا من محلته استقبل سعداً فقال له: أيها الراكب هل لقيت سعداً في بني يربوع؟ قال: أنا سعد فهل  
تدلّ على نجيح؟ قال: أنا نجيح، وحديثه بالحديث ثم قال: الدال على الخير كفاعله، وهو أول من قاله.  
فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان، فتوارى الرجل حين أبصرهما وترك المال فأخذه سعد كله. فقال له نجيح: يا  
سعد قاسمني! فقال له: اطو عن مالي كشحاً، وأبى أن يعطيه. فانتضى نجيح سيفه فجعل يضربه حتى برد، فلما  
وقع قتيلاً تحول الرجل الحافظ للمال سعادة فأسرع في أكل سعد وعاد المال إلى مكانه، فلما رأى نجيح ذلك  
ولّى هارباً إلى قومه.

قال: وكان أبو عميس بخيلاً فكان إذا وقع الدرهم في يده نقره بإصبعه ثم يقول له: كم من مدينة قد دخلتها  
ويد قد وقعت فيها والآن استقر بك القرار واطمأنت بك الدار! ثم يرمي به في صندوقه فيكون ذلك آخر  
العهد به.

وقيل: ونظر سليمان بن مزاحم إلى درهم فقال: في شقّ لا إله إلا الله، وفي شقّ محمد رسول الله، صلى الله  
عليه وسلم، ما ينبغي أن يكون هذا إلا معادة، وقذفه في صندوقه.  
وذكروا أنه كان بالري عامل على الخراج يقال له المسيب فأتاه شاعر فامتدحه فسعل سعة فصرط، فأنشأ  
الشاعر يقول:

أتيت المسيب في حاجةٍ ... فما زال يسعل حتى صرط  
فقال غلطنا حساب الخراج ... فقلت من الصرط جاء الغلط  
فولع به الصبيان، فكان كلما مر قالوا: من الصرط جاء الغلط. فما زالوا يقولون ذلك حتى هرب منها من  
غير عزل.

وكان أبو الأسود الدئليّ بخيلاً وهو القائل لبنيه: لا تجاودوا الله فإنه أجود وأمجّد ولو شاء أن يوسع على  
الناس كلهم حتى لا يكون فقير لفعل. وسمع رجلاً يقول: من يعشي الجائع. فعشاه، ثم ذهب ليخرج فقال:  
هيئات تخرج فتؤذي غيري من المسلمين كما آذيتني! ووضع رجله في الأدهم حتى أصبح.

قال: وكان رجل يأتي ابن المقفع فيلحّ عليه ويسأله الغداء عنده فيقول: لعلك تظنّ أني أتكلف لك شيئاً!  
والله لا أقدم إليك إلا ما عندي. فلما أتاه إذ ليس في بيته إلا كسر يابسة وملح جريش. وجاء سائل إلى  
الباب فقال: وسع الله عليك، فلم يذهب، فقال: والله لئن خرجت إليك لأدقنّ ساقك. فقال ابن المقفع  
للسائل: لو عرفت من صدق وعيده ما أعرف من صدق وعده لم تردد كلمة ولم تقم طرفةً ببابه.

المدائني عن خالد كيلويه قال: كنت نجاراً حاذقاً فذهب بي إلى المنصور فقال: افتح لي باباً أنظر منه إلى  
المسجد وعجّل الفراغ منه. قال: ففتحت الباب وعلقت عليه باباً وجصصته وفرغت منه قبل الصلاة، فلما  
نودي بالصلاة جاء فنظر إليه فأعجبه عملي وقال لي: أحسنت بارك الله عليك! وأمر لي بدرهمين.  
قال: وقال المنصور للمسيب بن زهير: أحضرنى بناءً حاذقاً الساعة.

فأحضره، فأدخله إلى بعض مجالسه وقال: ابن لي يازائه طاقاً يكون شبيهاً بالبيت. فلم يزل يُوتى بالحص والآجر حتى بناه وجوده، ونظر إليه واستحسنه فقال للمسيب: اعطه أجره. فأعطاه خمسة دراهم فاستكثرها وقال: لا أرضى بذلك، فلم يزل حتى نقصه درهماً، وفرح بذلك وابتهج كأنه أصاب مالاً. وحكي عن المنصور أنه لدغ فدعا مولياً يقال له أسلم رقاءً فأمره أن يرقه فرقاء فبريء، فأمر له برغيف، فأخذ الرغيف فثقبه وصيره في عنقه وجعل يقول: رقيت مولاي فبريء فأمر لي برغيف! فبلغ المنصور ذلك فقال: لم أمرك أن تشنع عليّ! قال: لم أشنع إنما أخبرت بما أمرت. فأمر أن يصفع ثلاثة أيام في كل يوم ثلاث صفعات.

وعن الأصمعي قال: دخل أبو بكر الهجريّ ذات يوم على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين أتقض عليّ فمي وأنتم أهل بيت بركة؟ فلو أذنت يل لقبلت رأسك لعل الله يشد فمي. فقال المنصور: اختر ذلك أو الجائزة. فقال: يا أمير المؤمنين أهون عليّ من ذهاب درهم الجائزة أن لا يبقى في فمي حاكّة. ومنه مكاتبات: كتب أرسطاطاليس إلى رجل في رجل يصله بشيء فلم يفعل فكتب إليه: إن كنت أردت فلم تقدر فمعدور، وإن كنت قدرت فلم ترد فسيأتيك يوم تريد فيه فلا تقدر. قيل: وكتب إبراهيم بن سيابة إلى رجل صديق له كثير المال يستسلفه، فكتب إليه: العيال كثير والدخل قليل والمال مكذوب. فكتب إليه: إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً، وإن كنت صادقاً فجعلك الله معدوراً.

قال: وكتب بعضهم يصف رجلاً: أما بعد فإنك كتبت تسأل عن فلان فكأنك هممت أو حدثت نفسك بالقدوم عليه فلا تفعل، امتنع الله بك، فإن حسن الظن به لا يقع في الوهم إلا بخذلان الله، وإن الطمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلا بسوء التوكل على الله، وإن الرجاء لما يده لا ينبغي إلا بعد اليأس من رحمة الله، إنه يرى الإقتار الذي نهي الله عنه هو التبذير الذي يعاقب الله عليه، والاقتصاد الذي أمر الله عز وجل به هو الإسراف الذي يعذب الله عز وجل عليه، وإن بني إسرائيل لم يستبدلوا العلس بالمن والبصل بالسلوى إلا لفضل أحلامهم وقديم علم تدارسوه من آبائهم، وإن الصنعة مرفوعة والصلة موضوعة والهمة مكروهة والصدقة منحوسة والتوسع ضلالة والجود فسوق والسخاء من همزات الشياطين، وإن مؤاساة الرجل أخاه من الذنوب الموبقة وإفضاله عليه من إحدى الكبائر، وإن الله عز وجل لا يغفر أن يؤثر المرء في خصاصة على نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن آثر على نفسه فقد ضل ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً، كأنه لم يسمع بالمعروف إلا في الجاهلية الذين قطع الله أديارهم ونهى جل اسمه عن اتباع آثارهم، وإن الرجفة لم تأخذ أهل مدين إلا لسخاء كان فيهم، وإن الريح العقيم أهلكت عاداً وثموداً لتوسع كان فيهم، وهو يخشى العقاب على الإنفاق ويرجو الثواب على الإقتار ويعد نفسه العقوق ويأمرها بالبخل خيفة أن تمر به قوارع الدهور وأن يصيبه ما أصاب القرون الأولى، فأقم رحمتك الله، بمكانك واصبر على عسرك لعل الله أن يبدلنا خيراً منه زكاةً وأقرب رحماً.

ومنه فن آخر، وصف أعرابي رجلاً فقال له: بشر مُطمع ومطل مؤسس، فأنت منه أبداً بني اليأس والطمع، لا منع مريح ولا بذل سريع.

وقال أعرابي: أنا من فلان في أمانني تمببط العصم وخلف يذكر العدم، ولست بالحريص الذي إذا وعده الكذوب أعلق نفسه لديه وأتعب راحلته إليه.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: له مواعيد عواقبها المطل وثمارها الخلف ومحصولها اليأس.

ويقال: سرعة اليأس أحد النجحين.

وقال بعضهم: مواعيد فلان مواعيد عرقوب، ولمع الآل، وبرق الخلب، وأمانني الكمون، ونار الحباب، و صلفٌ تحته راعدة.

ولبعض الكتاب فصل في هذا المعنى: أما بعد فإن كثرة المواعيد من غير نجاح عار على المطلوب، وقتلتها عند الحاجة مكرمة من صاحبها، وقد رددتنا في حاجتنا هذه مع كثرة مواعيدك من غير نجاح لها حتى كأن قد رضينا بالعلل بها دون النجاح، كقول الأول:  
لا تجعلنا ككمون بمزرعةٍ ... إن فاته الماء أروته المواعيد

ولآخر منهم: ما رأيت مثل طيب قولك أمره سوء فعلك، ولا مثل بسط وجهك خالفه ضيق تنكيدك، ولا مثل قرب مواعيدك باعدها فرط مطلقك، ولا مثل أنس بديهتك أوحش منه قبيح عواقبك، حتى كأن الدهر أودعك لطيف الحيلة بالمكر بأهل الخلة، وكأنه زينك فيهم بالخدعة لتدرك منهم فرصة الهلكة. وقد قيل:  
وعد الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم مطل وتأجيل.

وقال بعضهم: وعدتنا مواعيد عرقوب، ومطلتنا مطل نعاس الكلب، وغررتنا غرور السراب، ومنيتنا أمانني الكمون.

ولبعضهم: أما بعد فلا تدعني متعلقاً بوعدك فالعذر الجميل أحسن من المطل الطويل، فإن كنت تريد الإنعام فأنجح وإن تعذرت الحاجة فأوضح وأعلمني ذاك لأصرف وجه الطلب إلى غيرك.  
وذكروا أن فتىً من مراد كان يختلف إلى عمرو بن العاص فقال له ذات يوم: ألك امرأة؟ قال: لا. قال:  
أفتزوج وعلي المهر؟ فرجع إلى أمه فأخبرها، فقالت:

إذا حدثتكَ النفس أنك قادرٌ ... على ما حوت أيدي الرجال فكذب

فتزوج ثم أتى عمرو بن العاص، فاعتلّ عليه ولم ينجز له وعده، فشكا ذلك إلى أمه، فقالت:  
لا تغضبني على امرئٍ في ماله ... وعلى كرائم مال نفسك فاغضب  
ولبعض الشعراء في هذا المعنى:

أروح وأغدو نحوكم في حوائجي ... فأصبح منها غدوةً كالذي أمسي

وقد كنت أرضى للصديق شفاعتي ... فقد صرت أرضى أن أشفّع في نفسي  
ولأبي نواس:

وعدتني وعدك حتى إذا ... أطمعني في كثر قارون

جئت من الليل بغسالةٍ ... تغسل ما قلت بصابون

وأنشد لأبي تمام:

يحتاج من يرتحي نوالكم ... إلى ثلاثٍ بغير تكذيب  
فكنز قارون أن يكون له ... وعمر نوح وصبر أيوب  
ولآخر:

إني لأعجب من قولٍ غررت به ... حلو يلدّ إليه السمع والبصر  
لو تسمع العصم في صم الجبال به ... ظلت من الراسيات العصم تنحدر  
كالخمر والشهد يجري فوق ظاهره ... وما لباطنه طعمٌ ولا حبر  
وكالسراب شبيهاً بالغدير وإن ... تبغ السراب فلا عين ولا أثر  
ولا يبيت العشب عن برق وراعدةٍ ... غراء ليس بما سيل ولا مطر  
ومما قيل من الشعر في البخل بالطعام لبعضهم:  
رأيت أبا عثمان يبذل عرضه ... وخيز أبي عثمان في أكرم الحرز  
يحن إلى جاراته بعد شبعه ... وجاراته غرثى تحنّ إلى الخبز  
ولآخر:

ما كنت أحسب أن الخبز فأكهةً ... حتى نزلت على عوف بن خنزير  
الحابس الروث في أعفاج بغلته ... بخلاً على الحبّ من لقط العصافير  
ولغيره:

نوالك دونه خرط القتاد ... وخيرك كالثريا في البعاد  
ترى الإصلاح صومك لا لنسكٍ ... وكسراً للرغيف من الفساد  
أرى عمر الرغيف يطول جداً ... لديك كأنه من قوم عاد  
ولآخر:

اللؤم منك على الطعام طباع ... فعيال بيتك ما حيت جياع  
وإذا يمرّ بباب دارك سائلٌ ... هرّت عليه نوابحٌ وسباع  
وعلى رغيفك حيةٌ مسمومةٌ ... وعلى خوانك عقرب وشجاع  
ولآخر:

يا تارك البيت على الضيف ... وهارباً منه من الخوف  
ضيفك قد جاء بزاد له ... فارجع فكن ضيفاً على الضيف  
إذ اشتهى الضيف طبيخ الشتا ... أتاه بالشهوة في الصيف  
وإن دنا المسكين من بابه ... شدّ على المسكين بالسيف  
ولآخر:

يكتب بالخبز على خبزه ... والله لا يأكله الجار  
ويسأل الخادم من بخله ... أي رغيف فيه آثار  
ويختم القدر على أهله ... ويشعب العظم بمسماز

والماء في منزله طرفةً ... يشر به الناس بمقدار  
ولآخر:

أرى ضيفك في الدار ... وكرب الموت يغشاه  
على خبزك مكتوب ... سيكفيكهم الله  
ولآخر:

لأبي نوحٍ رغيّفٌ ... أبدأً في حجر دايه  
أبدأً يمسحه الده ... ر بكمّ ووقايه

وله كاتبٍ سرّ ... خطّ فيه بعناية  
فسيكفيكهم ال ... ه إلى آخر آيه  
ولآخر:

الخبز يبطي حين يدعو به ... كأنه يقدم من قاف  
ويمدح الملح لأصحابه ... يقول هذا ملح سيراف  
سيان أكل الخبز في داره ... وقلع عينيه بخطاف  
ولآخر:

فتى لا يغار على عرسه ... ولكن يغار على خبزه  
فمنه يد الجود مقبوضةً ... وكفّ السماحة في عجزه  
ولآخر:

يصونون أثوابهم في التخوت ... وأزواجهم يخترقن السكك  
ينحون من رام رغفانهم ... ويدنون من رام حلّ النكك  
ولآخر:

ولو أن الذباب تراء يوماً ... عدت غرثي لصحفته تروم  
لنادى في العشيرة أدركوني ... ألا أين القماقم والقروم  
فيا ويل الذباب إن ادركوه ... وفي الهيجا عدوهم سليم  
ولآخر:

أما الرغيّف لدى الخوا ... ن فمن كريمات الحرم  
ما إن يُجسّ ولا يم ... سّ ولا يذاق ولا يشم  
فتراه أخضر يابساً ... بالي النقوش من الهرم  
ولآخر:

أتينا أبا طاهرٍ مفطرين ... غلى رحله فرجعنا صياما  
وجاء بخبزٍ له حامضٍ ... وقلت دعوه وموتوا كراما

وعن حذيفة بن محمد الطائي قال: قال الرشيد: لا أعرف لموَلد أهجى من قول أبي نواس:  
وما روّحتنا لتذبّ عنا ... ولكن خفت مرزئة الذباب  
شرايك كالسرّاب إذا التقينا ... وخيزك عند منقطع التراب  
ولآخر:

خان عهدي عمرو وما خنت عهده ... وجفاني وما تغيرت بعده  
ليس لي ما حييت ذنبٌ إليه ... غير أبي يوماً تغديت عنده  
الخليل بن أحمد:

كفّاه لم تخلقا للندی ... ولم يك بخلهما بدعه  
فكفّ عن الخير مقبوضةً ... كما انقبضت مائةً تسعه  
ولآخر:

أيت أبا عمرو أُرَجِّي نواله ... فزاد أبو عمرو على حزني حزنا  
فكنت كباغي القرن أسلم أذنه ... فأب بلا أذنٍ ولم يستفد قرنا

مساوي من استدعى الهجاء ومن هجا نفسه

قال أبو العتاهية: خرجت مع المهدي إلى الصيد فنفرق أصحابه وبقيت معه وقد أقبل علينا المطر، فانتهينا إلى  
ملاح معه زورق فقال لنا: ادخلا من هذا المطر. فدخلنا ووقعت الرعدة على المهدي من شدة البرد فقال له  
الملاح: هل لك أن ألقى عليك جبتي؟ فقال: نعم. فألقاها عليه. فما زال يتترقف حتى نام، ثم أقبل الخدم  
والعلمان وألقوا عليه الخنز والوشى، فلما انتبه أمر بدفع ذلك إلى الملاح وقال: يا أبا العتاهية ألا هجوتني!  
فقلت: يا أمير المؤمنين وكيف تطيب نفسي بهجائك؟ قال: فإني أسألك بالله، فقلت:

يا لابس الوشي على شبيهه ... ما أقيح الأشيب في الداح  
فنقر نقرة ثم قال: زدني، فقلت:

لو شئت أيضاً جُلت في خامية ... وفي وشاحين وأوضاع  
فقال: ويلك زدني، فقلت:

كم من عظيم الشأن في نفسه ... قد بات في جبة ملاح  
قيل: وشرب يزيد بن معاوية ذات يوم وعنده الأخطل فلما مثل قال: يا أخطل اهجنني ولا تفحش، فأنشأ  
يقول:

ألا اسلم سلمت أبا خالدٍ ... وحياك ربك بالعنقر

وروى عظامك بالخندري ... س قبل الممات ولم تعجز

أكلت الدجاج فأفيتها ... فهل في الحنايص من مغمز

ودينك حقاً كدين الحما ... ر بل أنت أكفر من هرمز

فرفع يده ولطمه وقال: يا ابن اللخناء ما بكل هذا أمرتك! قال: ودخل أبو دلامة على المنصور وعنده

المهدي وعيسى بن موسى، فقال له المنصور: اهج بعض من في المجلس. فقال في نفسه: من أهجو، الخليفة أم ابن أخيه؟ ما أحد أحق بالهجاء مني، فقال:  
ألا أبلغ لديك أبا دلامه ... فلست من الكرام ولا كرامه  
جمعت دمامةً وجمعت لؤماً ... غذاك اللؤم تتبعه الدمامه  
إذا لبس العمامة قلت قرءٌ ... وخنزيراً إذا وضع العمامه  
فضحك المنصور وأمر له بجائزة.

قيل: وأتى أعرابي عبد الله بن طاهر فقال: أيها الأمير اسمع مديحتي. فقال: لست أنحاش له. قال: فاسمع شعري في نفسي. قال: هات، فقال:  
ليس من بخلك أبي ... لم أجد عندك رزقا  
ذا لجدّي ولشؤمي ... ولحرفي المبقّي  
فجزاك الله خيراً ... ثم بعداً لي وسحقا  
فضحك ثم قال: تلطقت في الطلب، وأمر له بألف دينار.

### محاسن الرجال

مدح أعرابي رجلاً فقال: فتى آتاه الله الخير ناشئاً فأحسن لبسه وزين نفسه.  
ومدح أعرابي رجلاً فقال: كان والله للأخلاء وصولاً وللمال بدولاً، وكان الوفاء بهما عليه كفيلاً، فمن فضله كان مفضولاً.  
ومدح أعرابي رجلاً فقال: هو أكسبهم للمعدوم وآكلهم للمأدوم وأعطاهم للمحروم.  
ومدح أعرابي رجلاً فقال: ما زلت لأحسن ما يرجى من الإخوان منك راجياً وما زلت لأكثر ما أرجو منك مصداقاً.  
ومدح أعرابي رجلاً فقال: كان والله تعباً في طلب المكارم وغير ضالّ في مصالح طرقها ولا متشاغل عنها بغيرها.  
ومدح أعرابي رجلاً فقال: لسانه أحلى من الشهد وقلبه سجن للحقد.  
ومدح أعرابي رجلاً فقال: ذاك صحيح النسب مستحکم الأدب، من أي أقطاره أتيته قابلك بكرم فعال وحسن مقال.  
ومدح أعرابي رجلاً فقال: إذا أنبت الأصول في القلوب نطقت الألسن بالفروع، والله يعلم أي لك شاكر ولساني بثنائك ذاكر، وما يظهر الود السليم إلا من القلب المستقيم.  
ومدح أعرابي رجلاً فقال: كان إذا نزلت به النوائب قام إليها ثم قام بها ولم تقعه علات النفوس عنها.  
ومدح أعرابي رجلاً وفسراً فقال: كان والله طويل العذار أمين العثار، إذا رأيت صاحبه عليه حسبته بازياً على مرقب معه رمح يقبض به الآجال.



ومدح أعرابي رجلاً فقال: لا تراه الدهر إلا كأنه لا غنى به عنك وإن كنت إليه أحوج، وإذا أذنت غفر  
وكأنه المذنب، وإن احتجت إليه أحسن وكأنه المسيء.  
قال: وقال أعرابي لرجل: أما والله لقد كنت لجاماً لأعدائك ما تفعلّ شكيمته إذا كبح به الجموح أقمي على  
رجليه.

قال: ولقي أعرابي أعرابياً فقال: كيف وجدت فلاناً؟ قال: وجدته والله رزين الحلم واسع العلم خصيب  
الحنفة، إن فاخرته لم يكذب وإن مازحته لم يحفظ.  
ومدح أعرابي رجلاً فقال: كان يفتح من الرأي أبواباً منسلة ويغسل من العار وجوهاً مسودة.  
ومدح أعرابي قوماً فقال: أولئك غيوث جذب وليوث حرب، إن قاتلوا أبلوا وإن أعطوا أغنوا.  
ومدح أعرابي رجلاً فقال: ذاك من شجر لا يجف ثمره وماء لا يخاف كدره.

### مساوي الرجال

ذم أعرابي رجلاً فقال: يا نطفة الحمار ونزيع الطؤورة وشبيه الأحوال.  
وذم قوماً فقال: إن آل فلان قوم غدر شرابون للخمر، ثم هذا في نفسه نطفة حمار في رحم صناجة.  
وذم أعرابي رجلاً فقال: يقطع فماره بالمنى ويتوسد ذراع الهمة إذا أمسى.  
وذم أعرابي رجلاً فقال: ما قنع كميماً سيفاً ولا قرى يوماً ضيفاً ولا حمدنا له شتاء ولا صيفاً.  
وقال أعرابي لامرأته: أقام الله ناعيك وأشمت عاديك.  
وذم أعرابي رجلاً فقال: عليه كل يوم قسامة من فعله تشهد عليه بفسقه، وشهادات الأفعال أعدل من  
شهادات الرجال.  
وذم أعرابي رجلاً فقال: تسهر زوجته جوعاً إذا نام شبعاً، ولا يخاف عاجل عارٍ ولا آجل نار، كالبهيمة  
أكلت ما جمعت ونكحت ما وجدت.  
وذم أعرابي رجلاً فقال: ذاك أعيا ما يكون عند الناس أبلغ ما يكون عند نفسه.  
ولام أعرابي رجلاً فقال: تقطع أخاك لأبيك وأمك! فقال: إني لأقطع الفاسد من جسدي وهو أقرب إلي من  
أخي وأعر فعداً منه.  
وذم أعرابي قوماً فقال: يا قوم لا تسكنوا إلى حلاوة ما يجري من القول على السنة بني فلان، وأنتم ترون  
الدماء تسيل من أفعالهم، قد جعلوا المعاذير ستوراً والعلل حججاً.  
وذم أعرابي رجلاً فقال: إذا سأل ألحف وإذا سئل سوّف، يحسد أن يفضّل ويهد أن يفضّل.  
وذم أعرابي رجلاً فقال: يكاد أن يعدي بلؤمه من تسمى باسمه.  
وذم أعرابي رجلاً فقال: تعدو إليه مواكب الضلالة وترجع من عنده بهلاك الأنام، معدّم مما يجب مثرٍ مما  
يكره.  
وقال أعرابي لرجل: والله ما جفانكم بعظام ولا أجسامكم بوسام ولا بدت لكم نار ولا طلبتم بشار.

ورأى أعرابي رجلاً ظلوماً يدعو فقال: يا هذا إنما يستجاب لمظلوم أو مؤمنٍ ولست أحداً منهما، أراك تخفّ عليك الذنوب وتحسن عندك مقابح العيوب.

وذم أعرابي رجلاً فقال: فلان لا يستحيي من الشر ولا يجب أنه أحب الخبر، ولا يكون في موضع إلا حرمت فيه الصلاة، ولو قذف لؤمه على الليل طمس نجومه، ولو أفلتت كلمة سوء لم تصر إلا إليه. وسأل أعرابي رجلاً فقال: لقد نزلت بوادٍ غير ممتور وبرجل بك غير مسرور، فارتحل بندم أو أقم بعدم. وذم آخر رجلاً فقال: ما كان عنده فائدة ولا عائدة ولا رأي جميل ولا إكرام الدخيل. وقيل لأعرابي: ما بلغ من سوء خلقك؟ قال: تبدو لي الحاجة إلى الجار أو الصاحب في بعض الليل فأصيح غضبان عليه أقول كيف لم يعلمها؟ وذكر أنه تنافر رجلان من بني أسد إلى هرم بن سنان المويّ في الشرّ وعنده الحطيئة فقال أحدهما: إني بقيت زماناً وأنا أرى أني شر الناس والأمهم حتى أتاني هذا فزعم أنه شر مني، فقال هرم: أخبراني عنكما. فقال أحدهما: لم يمر بي أحد قط إلا اغتبتته ولا ائتمني إلا خنتته ولا سألتني إلا منعتته.

وقال الآخر: أما أنا فأبظر الناس في الرخاء وأجبنهم في اللقاء وأقلهم حياءً وأمنعهم خبائاً. فقال هرم: وأبيكما لقد ترددتما في الشر ولكن أخبركما بمن هو شر منكما! قالوا: ما ولدت ذاك النساء! قال: بلى، هذا الحطيئة هجا أباه وأمه ونفسه ومن أعطاه ومن أحسن إليه، فقال لأبيه: لحاك الله ثم لحاك حقاً... أباً ولحاك من عمّ وخال فبئس الشيخ أنت على النوادي... وبئس الشيخ أنت لدى المعالي جمعت اللؤم لا حياك ربي... وأبواب المخازي والضلال وقال لأمه:

تنحّي فاقعدي مني بعيداً... أراح الله منك العالمينا  
أغربالاً إذا استودعت سراً... وكانونا على المتحدثينا  
ألم أوضح لك البغضاء مني... ولكن لا إخالك تعلمينا  
وقال لنفسه:

أبت شفتاي اليوم إلا تكلما... بشرّ فما أدري لمن أنا قائله  
أرى لي وجهاً شوه الله خلقه... فقُبِح من وجهٍ وقبح حامله  
وقال لمن أعطاه:

سألتُ فلم تبخل ولم تُعطِ نائلاً... فسيان لا ذمّ عليك ولا حمد  
قيل: ولما حضرت الحطيئة الوفاة قيل له: أوص. فقال:  
الشعر صعبٌ وطويلٌ سلّمه... إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه  
زَلت به إلى الحضيض قدمه... والشعر لا يستطيعه من يظلمه  
يريد أن يعرّبه فيعجمه

فقيل له: أوص للمساكين بشيء. فقال: أوصيهم بالمسألة ما عاشوا فإنها تجارة لن تبور. قيل: أوص فقد

حضرك أمرك. فقال: مالي للذكور من ولدي دون الإناث. قيل له: إن الله عز وجل لم يأمر بهذا! قال: لكني أمر به. فقيل له: اعتق غلامك يساراً الأسود. قال: هو مملوك ما دام على ظهر الأرض عبي. قيل له: من أشعر الناس؟ فقال: هذا المحجن ما أطمع في خير، وأوماً إلى لسانه ثم جعل يبكي. فقيل له: ما يبكيك، أجزعاً من الموت يا أبا مليكة؟ قال: لا ولكن ويل للشعر من رواية السوء! ثم قال: أبلغوا الشمّاخ أنه أشعر غطفان على وجه الأرض، وإن متّ فاحملوني على حمار فإنه لم يمّت عليه كريم قط. وفي غير هذه الرواية أنه قال: احمّلوني على حمار فإنه لم يمّت عليه كريم قط لعلي أن أنجو، ثم أنشأ يقول:

لكل جديدٍ لذة غير أنني ... رأيت جديد الموت غير لذيد  
له نكهة ليست بطعم سفرجل ... ولا طعم تفّاح ولا بنيذ  
ثم خرجت روحه، فلما مات قال فيه الشاعر:  
لا شاعرٌ أأم من حطيه ... هجا بنيه وهجا المريه  
من لؤمه مات على فريه

قال: وقيل لمعاوية بن أبي سفيان: من رأيت شر الناس؟ فقال: علقمة ابن وائل الحضرمي، قدم على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأمرني أن أنطلق به إلى منزل رجل من الأنصار أنزله عليه، فانطلقت معه وهو على ناقته وأنا أمشي في ساعة حارة وليس عليّ حذاء، فقلت: احملي يا عم من هذا الحر فإنه ليس عليّ حذاء. فقال: لست من أرداف الملوك. قلت: أنا ابن أبي سفيان، قال: قد سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول ذلك. قال فقلت: الق إبي نعليك. قال: لا تقلهما قدماك، ولكن امش في ظلّ ناقتي وكفى لك بذلك شرفاً، وإن الظل لك لكثير. فما مرّ بي مثل ذلك اليوم. ثم أدرك سلطاني فلم أوأخذه بذلك بل أجلسه على سريري هذا وقضيت حوائجه.

ومنهم دريد بن الصمة بن غزية وكان من المعمرين قال: يا بني أوصيكم بالناس شراً، لا تتبعوا لهم خيراً، كلموهم نزرّاً والحظوهم شزرّاً ولا تقبلوا لهم عنزراً ولا تقبلوهم عثرة، ثم أنشأ يقول:

يا ربّ هبّ صالح حويته ... وربّ غيل حسن لويته  
لو كان للدهر بليّ أبليته ... أو كان قرناً واحداً كفيته  
اليوم يبني لدريد بيته

### محاسن ذكر النعم

يضرب المثل بخريم الناعم، وهو خريم بن عمرو من بني مرة بن عوف، قيل له الناعم لأنه كان يلبس الخلق في الصيف والجديد في الشتاء. وسأله الحجاج: ما النعمة؟ قال: الأمن فإني رأيت الحائف لا ينتفع بنفسه ولا بعيشه. قال: زدني. قال: الغنى فإني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش. قال: زدني. قال: الصحة فإني رأيت السقيم لا ينتفع بعيش. قال: زدني. قال: الشباب فإني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش. قال: زدني. قال: لا أجد مزيداً. قال: وقال زياد لجلسائه: من أنعم الناس عيشاً؟ قالوا: أمير المؤمنين. قال: هيهات فأين ما يلقي من الرعية؟

قالوا: فأنت أيها الأمير. قال: فأين ما يرد عليّ من الثغور والحراج؟ بل أنعم الناس عيشاً شاب له سدادٌ من عيشٍ وحظٌّ من دين وامرأة حسناء رضيها ورضيته لا يعرفنا ولا نعرفه.

قال وقال عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين ما بقي من شبابك وتلذذك؟ قال: والله ما بقي شيء يصيبه الناس من الدنيا إلا وقد أصبته، أما النساء فلا إرب لي فيهن ولا هن فيّ، وأما الطيب فقد شمته حتى ما أبالي به، وأما الثياب فقد لبست من لئنها وجيّدتها حتى ما أبالي ما ألبس، فما شيء ألدّ عندي من شربة باردة في يوم صائف ونظري إلى بنيّ وبنيّ يدرجون حولي، فأنت يا عمرو ما بقي من لذتك؟ قال: أرض أغرسها فأكل من ثمرها وأنتفع بعلّتها. ثمّ نفت معاوية إلى وردان فقال: يا وريد ما بقي من لذتك؟ قال: صنائع كريمة اعتقدها في أعناق الرجال لا يكافئوني عليها تكون لأعقابي من بعدي. فقال معاوية: تبا لهذا المجلس يغلبنا عليه هذا العبد! قال: وقال قتيبة بن مسلم لو كيع بن أبي سود: ما السرور؟ قال: لواء منشور وجلوس على السرير والسلام عليك أيها الأمير. وقال لخصين بن المنذر: ما السرور؟ قال: امرأة حسناء في دار قوراء و فرس بالفناء.

وقيل لرجل من بني قشير: ما السرور؟ قال: الأمن والعافية. قال: صدقت. وقد قيل: العيش في سعة الرزق وصحة الجسم وإقبال الزمان وعز السلطان ومعاشرة الإخوان.

وقيل: نعيم المتوسطين لون مشيع وكأس مترع وصديق ممتع وغنى مقنع. وقيل: راحة البدن النوم، وراحة الدار أن تسكن. وقال بعضهم: ليس سرور النفس بالجلدة إنما سرورها بالأمل. وقيل لبعضهم: أي الأمور أمتع؟ قال: الأمان، وأنشد في ذلك:

إذا تمنت بتّ الليل مغتبطاً ... إن المنى رأس أموال المفاليس

لولا المنى متّ من همّ ومن جزعٍ ... إذا تذكرت ما في داخل الكيس

وقيل لعبد الله بن الأهمم: ما السرور؟ قال: رفع الأولياء وحط الأعداء.

وقال بعضهم: السرور توقيع نافذ وأمر جائز. وقال عبد الرحمن بن أبي بكر: السرور إدراك الأمان. وقال آخر: السرور معانقة الأحبة والرجوع إلى الكفاية. وقال بعضهم: العيش محادثة الإخوان والانتقال إلى كفاية.

وقيل لطرفة: ما السرور؟ قال: مطعم شهوي ومركب وطّيّ وملبس دفيّ. وقيل للأعشى: ما السرور؟ فقال:

صهباء صافية تمزجها غانية بصوب غادية. وقيل للملك: ما السرور؟ فقال: حمى ترعاه وعدوّ تنعاه. وقيل

لراهب: ما السرور؟ قال: الأمان من الوجع إذا انقضت مدة الأجل. وقيل لبعضهم: ما السرور؟ قال:

زوجة وسيمة ونعمة جسيمة. وقيل لمغنّ: ما السرور؟ قال: مجلس يقلّ هذره وعودٌ يصفو وتره وعقول تفهم

ما أقول. وقيل لمظلوم: ما السرور؟ قال: كفاية ووطن وسلامة وسكن. وقيل لورّاق: ما السرور؟ قال:

جلود وأوراق وحبر برّاق وقلم مشّاق. وقيل لبعضهم: ما السرور؟ قال: بنون أغيط بهم أعدائي ولا تفرع معهم صفائي.

وقيل: لفتاة: ما السرور؟ فقالت؟ زوج يملأ قلبي جلالاً وعيني جمالاً وفنائي جمالاً. وقيل لطفيلي: ما

السرور؟ فقال: ندامى تسكن صدورهم وتغلي قدورهم ولا تُغلق دورهم. وقيل لقانص: ما السرور؟ فقال: قوس مأتورة وشرعة مشزورة ونبال مطرورة. وقيل لخبوس: ما السرور؟ فقال: فكاك يفجأ وإطلاق لا يرزأ. وقيل للوطي: ما السرور؟ فقال: شخص ناصر ودرهم حاضر. وقيل لعاشق: ما السرور؟ فقال: لقية تشفي من الفرقة واعتناق يداوي من الحرقه.  
وكان يقال إنه حكى عن الحكماء أن لنة الثوب يوماً ولنة المركب جمعة ولنة المرأة شهراً ولنة الضيعة سنة ولنة الدار الأبد.

### الشعر في هذا الفن

أطيب الطيبات قتل الأعادي ... واحتفالاً على متون الجياد  
وأيدٍ تحبو بمنّ كريماً ... إن عند الكريم تركو الأيادي  
ورسولٌ يأتي بوعد حبيبٍ ... وحيبٌ يأتي على ميعاد  
وللخليع:

أطيب الطيبات أمرٌ وهي ... لا يُردان في الأمور الجسام  
وامتطاء الخيول في كنف الأم ... ن بغير الإقدام والإحجام  
وسماع الصهيل في لجب المو ... كب تحت اللواء والأعلام  
الموصلي:

أطيب الطيبات طيب الزمان ... وندام المنعمات الغواني  
واحتساء العقار في غرة الصب ... ح على شدو ماهرات القيان  
وأمانٌ من الهموم ومالٌ ... ليس تفنيه نائبات الزمان

### محاسن الفقر

روي في الحديث أن الفقير الصبور يدخل الجنة قبل الغني الشكور بأربعين عاماً.  
وروي عن أبي الدرداء أنه قال: لأن أموت وعليّ أربعة آلاف درهم أنوي قضاءها أحبّ إليّ من أن أترك مثلها حاللاً.

وقال سلمان الفارسي: قد خشيت أن أكون قد تركت عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قيل: ولم ذلك؟ قال: لأنه قال من أراد أن يدخل الجنة فلا يكون زاده من الدنيا إلا كزاد الراكب، وأنا قد جمعت ما ترون. فقوّموا ما عنده فبلغ ثمانية عشر درهماً.

وكان يقال: من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فعلى الدنيا العفاء.  
وروي عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه كان من دعائه: اللهم أحيني مسكيناً وأمّتي مسكيناً واحشني في زمرة الفقراء، اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً. فسأل بعضهم: ما الكفاف؟ فقال: جوع يوم وشبع

يوم.

وروي أن عيسى بن مريم، عليه السلام، كان لا يأوي سقف بيت، فألجأه المطر ذات ليلة إلى غار، فدخله فإذا سجعٌ قد سبقه إليه، فكأن صدره ضاق فأوحى الله عز وجل إليه: يا عيسى ضاق صدرك فوعزني لأزوجتك أربعة آلاف حوراء ولأولمنّ عليك ألف عام.

قال: وكان الفضيل بن عياض يقول في دعائه: اللهم أجمعني وأجمع عيالي وتركتنا في ظلم الليل بلا مصباح وإنما تفعل هذا بأوليائك فبأي منزلة نلت هذا منك يا رب؟

### مساوى الفقر

قيل: أمر الله عز وجل موسى، عليه السلام، فقال: اتت كورة كذا وكذا، فقال: يا رب إني قتلت منهم نفساً وأنا خائف، فقال الله جل وعز: إني قد أمتّ أقرباءه. فصار إليها فأول ما استقبله قرابة للمقتول.

فقال: يا رب هذا أخوه! قال: يا موسى إني جعلته فقيراً والفقير ميت من العقل وعند الناس ميت وعند الحلال والحرام ميت والفقر الموت الأكبر.

وقيل: إنه إذا أيسر الفقير ابتلي به ثلاثة: صديقه القديم يجفوه وامرأته يتزوج عليها وداره يهدمها وبينها.

وكان في الجاهلية رجل حسن الحال وكان بنو عمه وأخواله يختلفون إليه فيعطيهم ويموتهم ويقوم بأمرهم، ثم اختل أمره فأتاهم فحرموه، فأتى أهله كئيباً، فقالت له امرأته: ما حالك؟ فقال: دعيني عنك، وأنشأ يقول:

دعي عنك عدلي ما من العدل أعجب ... ولا بد حالٌ بعد حالٍ تغلب

وكان بنو عمي يقولون مرحباً ... فلما رأوني مقترماً مات مرحب

كأن مُقلاً حين يغدو لحاجةٍ ... إلى كل من يلقي من الناس مذنب

وقال بعضهم: رب مغبوطٌ بميسرةٍ هي داؤه ومرحوم من عدم هو شفاؤه، والدنيا دول فما كان لك منها أتاك على ضعفك وما كان عليك لم تدفعه بقوتك، ومن عتب على الدهر طالت معتبته. وقال الأضبط:

إرض من الدهر ما أتاك به ... من قرّ عيناً بعيشه نفعه

قال: وسمع سفيان الثوريّ قوماً يقولون بعضهم لبعض: كيف حالك؟ فقال: لقد بلغني أن من كان قبلكم كان يكره أن يسأل أخاه عن حاله إلا من يكون مجمعاً على تغيير سوء حاله إذا أخبره.

قال: وقال أوس بن حارثة: خير الغنى القنوع وشر الفقر الخضوع.

قيل: ومرّ رجل من الأغنياء برجل من أهل العلم فتنحرك له وأكرمه، فقيل له: هل كانت لك إليه حاجة؟ قال: لا ولكن ذو المال مهيبٌ، وقال: فيه الشاعر:

أرى كل ذي مال يُجلّ ماله ... ومن ليس ذا مال يهان ويحقر

ويخذله الإخوان إن قل ماله ... وليس بمحبوب بلى هو يهجر

واقنع بالمال القليل تكراً ... لأغنى به عما لديك وأصبر

وذكروا أن زياد بن أبي سفيان أرق ذات ليلة وهو بالبصرة فبعث إلى غيلان بن خرشة الضبيّ وسويد بن منجوف السدوسي والأحنف بن قيس السعدي، فلما توافوا إليه قال: أتدرون فيم بعثت إليكم؟ إنه كان عندي ثلاثة من دهاقين كسرى يحدثون بما كانت الأكاسرة فيه من ملكها وعظيم شأنها، فتناصر إليّ ما نحن فيه فبعثت إليكم لتصفوا لي ما كانت العرب فيه من البؤس وشدة الحال لنقع بما نحن فيه فإن الغنى القناعة. قال غيلان: إن اقتصرت عليّ دون أصحابي حدثك. قال: هات. قال: أخبرني عم لي صدوق أنه خرج في سنة أصابت العرب فيها شدة حتى أكلوا القدّ من القحط واحمر أديم الأرض وآفاق السماء، قال: فطفت ثلاثاً ما أطعم فيهنّ شيئاً إلا ما يأكل بعيري من حشرات الأرض حتى أصابني الميّد فشددت على بطني حجراً من الجوع، فإني لكذلك في جوف الليل إذ دفعت إلى حيّ عظيم فسلمت. فقالوا: من هذا؟ قلت: طارق ليل يلمس القرى. فقالوا: والله ما أبقت لنا هذه السنة قرى ولا فضلاً. فقالت امرأة كانت إلى جانب القبة: يا عبد الله دونك القبة العظيمة فإن كان عند أحد خير فعندها. فأمتها فلما دفعت إليها سلمت فقال لي: من هذا؟ فقلت: طارق ليل يلمس قرى، فقال رجل منهم: يا فلان هل عندك قرى؟ قال: نعم، قد أبيت في ضرع فلانة رسلاً لطارق ليل. ثم ثار إليها فناداها فانبعثت وتفاجّت عن مثل الطيبي القبيص، فضرب زبونتها ثم حلب في علبه معه حتى علتها رغوّة اللبن، وكل ذلك بمراى مني ومسمع، فلقد سمعت الغناء الحداء فما سمعت شيئاً كان أحبّ إلى مسامعي من صوت شخبها في تلك العلبه، ثم أقبل بما يريدني فلما أهويت لآخذها عثر فانكفأت العلبه وذهب ما فيها، فوالله لقد فقدت الأهل والمال فما أصبت بشراً كان أفرع لقلبي ولا أعظم موقعاً عندي من انكفاء تلك العلبه على مثل الحال التي كنت فيها، فلما رأي صاحب القبة ورأى ما بي من شدة الجهد خرج حتى دخل في إبله وهو يقول: صدق أخو بني قيس في قوله: هم يطردون الفقر عن جارهم ... حتى يرى كالغصن الناضر فأخذ ناقة كوماه فكشف عن عرقوبيها ثم قال: دونك السنم، فلما وافى الودك بطني وحفوف الماء ولا عهد لي قبل ذلك بشيء منه حررت مغشياً عليّ، فوالله ما أيقظني إلا برد السحر. فقال زياد: قطني قد اكتفيت بهذا، هذا والله غاية الجهد فالحمد لله الذي منّ علينا بمحمد، صلى الله عليه وسلم، وهدانا إلى الإسلام وجعلنا ملوكاً. ثم قال: لا أب لثانتك فمن الرجل؟ فقال: عامر بن الطفيل. فقال أبو علي: والله كان لها ولأمثالها.

قال وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: لقد رأيتني في الجاهلية وأخيه لي وإنا لنعري ناضحاً لأبونا قد زودتنا أماناً يمتنيتها من الهبيد فإذا أسخنت علينا الشمس ألقيت الشملة على أختي وخرجت عرياناً أسعى فنظّل نعري ذلك الناضح فنرجع إلى أماننا من الليل وقد صنعت لنا لفيتة من ذلك الهبيد فنتعشى فواخصبناه! قال بعض جلسائه: فوالله لقد حسدته على ذلك.

قال: وسئل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عن جهد البلاء فقال: قلة المال وكثرة العيال. وكان الفضيل يقول: المال يسود غير السيّد ويقوي غير الأيّد.

وفي كتاب كليله ودمنة: الرجل إذا افتقر أهله من كان له مؤتمناً وأساء به الظن من كان يظن به حسناً،

وإن أذنب غيره ظنوه به، وإن كان لسوء الظن والتهمة موضعاً حملوا على ذلك الذي يفعله غيره، وأنشد في ذلك:

إذا قلّ مال المرء قلّ صديقه ... وأومت إليه بالعيوب الأصابع  
ولآخر:

إذا قلّ مال المرء قلّ حياؤه ... وضائق عليه أرضه وسماؤه  
وحار ولا يدري وإن كان حازماً ... أقدامه خيرٌ له أم وراؤه  
إذا قلّ مال المرء قلّ حياؤه ... ولا خير في وجهٍ يقلّ حياؤه  
وقيل لأعرابي: ما أشد الأشياء؟ قال: كبدٌ جائعةٌ تؤذي إلى أمعاء ضيقة.

وقيل لأعرابي: لم يقول أهل الحضرة باعك الله في الأعراب؟ قال: لأننا والله نعري جلده ونجبع كبده ونطيل كده.

ومما قيل فيه من الشعر:

أعظم من فاقةٍ وجوع ... مقام حرٍّ على خضوع  
فلا ترده ولا ترد ما ... أنيل بالذل والخشوع  
واطلب معاشاً بقدر قوتٍ ... وأنت في منزلٍ رفيع  
لعل دهرًا غداً بنحسٍ ... يعود بالسعد في الرجوع  
ولآخر:

الموت خيرٌ للفتى ... من أن يعيش بغير مال  
والموت خيرٌ للكري ... م من الضراعة للرجال  
ولآخر:

بخلت وليس البخل مني سجيةً ... ولكن رأيت الفقر شرّ سبيل  
لموت الفتى خيرٌ من البخل للفتى ... وللبخل خيرٌ للفتى من سؤال بخيل  
لعمرك ما شيء لوجهك قيمةً ... فلا تلق مخلوقاً بوجه ذليل  
ولا تسألن من كان يسأل مرةً ... فللموت خيرٌ من سؤال سؤل  
ولآخر:

لا تحسبن الموت موت البلى ... فإنما الموت سؤال الرجال  
كلاهما موتٌ ولكن ذا ... أشد من هذا للذّلّ السؤال  
ولآخر في معناه:

من كان في الدنيا أخصب ثروة ... فنحن من نظارة الدنيا  
نرمقها من كتبٍ هكذا ... كأننا لفظٌ بلا معنى  
ولآخر:

قد أراح الله من غ ... مٍ شديدٍ وعذاب



واسترحنا من عيالٍ ... وعبيدٍ ودواب  
وضياعٍ ونخيلٍ ... وحصادٍ وكراب  
واسترحنا من وقوفٍ ... لبني الدنيا باب  
وقنعنا وأقمنا ... وحططنا عن ركاب  
حبذا الوحلة إن كا ... ن بصيراً بالحساب  
ولآخر:

الحمد لله ليس لي مال ... ولاخلقٍ عليّ إفضال  
الخان بيتي ومشجبي بدني ... وخادمي والوكيل بقال  
ولآخر:

بقيت ومركبتي البرذون حتى ... أخفّ الكيس إغلاء الشعير  
وصرت إلى البغال فأعجزتني ... وصرت من البغال إلى الحمير  
فعرّزني الحمير فصرت أمشي ... أزجّي الرّجل تزجية الكسير  
ولآخر:

أتراني أرى من الدهر يوماً ... لي يوماً مطيةً غير رجلي  
وإذا كنت في جميع فقالوا ... قرّبوا للرحيل قرّبت نعلي  
حيثما كنت لا أخلّف رجلاً ... من رأني فقد رأني ورحلي  
أبو هفان:

يا مولج الليل في النهار ... صبراً على الدّلّ والصّعار  
كم من همارٍ له همارٌ ... ومن جوادٍ بلا همار  
الحمدوني:

تسامى الرجال على خيلهم ... ورجلي من بينهم حافيه  
فإن كنت حاملنا ربنا ... وإلا فأرجل بني الزانية

قال: وكان أعرابي بالبصرة في بيت فكان إذا خرج استوثق على غلق بابه فيظن جيرانه أن له مالاً فقال:

ليس إغلاقي لبائي أن لي ... فيه ما أخشى عليه السرقة  
إنما أغلقه كي لا يرى ... سوء حالي من يمرّ الطرقة  
ليس لي فيه سوى بارية ... وبلى أغلقتُ لبدّاً خلّقا  
منزلٌ داخله الفقر فلو ... دخل السارق فيه شرّقا  
ولآخر:

بييت يراعي النجم من جوع بطنه ... ويصبح يُلقى ضاحكاً متبسماً  
ولآخر:

وعاقبة الصبر الجميل جميلة ... وأحسن أخلاق الرجال النفضل  
ولا عار أن زالت على المرء نعمة ... ولكن عاراً أن يزول التجمل  
ولآخر:

كم من فقيرٍ بعد جهدي وحاجةٍ ... هو اليوم محسودٌ وقد كان يُرحم  
ولآخر:

قد يكثر المال يوماً بعد قلته ... ويكتسي الغصن بعد اليبس بالورق  
ولآخر:

كم من غنيٍّ رأيت الفقر أدركه ... ومن فقيرٍ غنياً بعد إقلال  
ولآخر:

كم من غني كان بالمال مشرياً ... هو اليوم مرحومٌ وقد كان يُحسد  
ولآخر:

كم من فتيٍّ كان ذا ثروةٍ ... رمته الحوادث حتى افتقر  
ولآخر:

إذا كان جدُّ المرء في الشيء مقبلاً ... تأتت له الأشياء من كل جانب  
وإن أدبرت دنياه عنه توعدت ... عليه وأعيته وجوه المطالب  
وإن قلَّ مال المرء أقصاه أهله ... وأعرض عنه كلَّ إلفٍ وصاحب  
وكذبه الأقوم في كلَّ منطقي ... وإن كان فيه صادقاً غير كاذب  
ولآخر:

متى ما يرى الناس الفقير وجاره ... يقولون هذا عاجزٌ وجليد  
وليس الغني والفقير من حيلة الفتي ... ولكن أحاطٍ قسّمت وجدود  
وقال عبد الأعلى القاضي: الفقير مرقته سلقه ورداؤه علقه وسمكته شلقه.  
ولآخر:

من كان ذا مالٍ كثيرٍ فلم ... يقنع فذاك الموسر المقتر  
الفقير في النفس وفيها الغنى ... وفي غنى النفس الغنى الأكبر  
وكتب بعضهم يستميح بعض الأغنياء:

هذا كتاب فتيٍّ أزرى الزمان به ... قد كاد تنفطر الأضلاع من هممه  
شطّت منازلُه عنه وضععه ... ريب الزمان فأبدى الضعف في كلمه  
يذري اللموع بعين غير جامدةٍ ... طوراً بدمعٍ ويكي تارةً بدمه  
أضحى ببابك محزوناً له أملٌ ... يرجو بجودك أن يفتك من عدمه  
يا ذا المقدّم في الأفعال من كرمٍ ... أنت المداوي صريع الدهر من سقمه  
ولآخر:

خُلِقَ واسعٌ ومالٌ قليلٌ ... واعتداءً من الزمان طويل  
ما احتيال الفتى بدولة دهرٍ ... وعليه النائبات تدول  
كلما رام هَمْصَةً أقعدته ... عائلات من الزمان تعول  
فيمن أثرى بعد الفقر أنشد لرجل من المحدثين:  
لئن كنتَ قد أعطيتَ خبزاً تجرّه ... تبدلته من فروةٍ وإهاب  
فلا تُعجبَن أن تملك الناسَ إنني ... أرى أمةً قد أدبرت لذهاب  
ولآخر:

تاه على إخوانه بالعنى ... فصار لا يطرف من كبره  
أعاده الله إلى حاله ... فإنه يحسن في فقره  
ولآخر دعبل:

عطاياه تغدو على سابعٍ ... وطوراً على بغلةٍ نديه  
فلو خُصَّ بالرزق بجل الكرا ... م ما نال خيطاً ولا هدبه  
ولكنه الرزق من يعي ... ش في رزقه الكلب والكلبه  
ولآخر:

كنت إذ كنتَ عديماً ... لي خلاً ونديماً  
ثم أثريت فأعرض ... ت ولم ترع قديماً  
صار ما نلت من الما ... ل لنا ذنباً عظيماً  
هكذا يفعل بالإخ ... وان من كان كريماً  
ولآخر:

صحبتك إذ أنت لا تُصحب ... وإذ أنت لا غيرك الموكب  
وإذ أنت تفرح بالزائرين ... ونفسك نفسك تستحجب  
وإذ أنت تكثر ذمَّ الزمان ... ومشيك أضعاف ما تركب

فقلت كريمٌ له همةٌ ... ينال فأدرك ما أطلب  
فقلت وأقصيتني جانباً ... كأني ذو عرّةٍ أجرب

### محاسن الثقة بالله عز وجل

قيل: خطب سليمان بن عبد الملك فقال: الحمد لله الذي أنقذني من ناره بخلافته. وقال الوليد بن عبد الملك:  
لأشفعن للحجاج بن يوسف وقرّة بن شريك. وقال الحجاج: يقولون مات الحجاج! فمه ما أرجو الخير كله  
إلا بعد الموت! والله ما رضي الله البقاء إلا لأهون خلقه عليه إبليس إذ قال: رب أنظرنى إلى يوم يبعثون.  
قال: فإنك من المظنرين إلى يوم الوقت المعلوم.

وقال أبو جعفر المنصور: الحمد لله الذي أجازني بخلافته وأنقذني من النار بما. وحدثنا إبراهيم بن عبد الله رُفِعَ الحديث إلى أنس بن مالك قال: دخلنا على فتى من الأنصار وهو ثقيل في مرضه فلم نخرج من عنده حتى قضي عليه، وإذا عجوز عند رأسه، فالتفت إليها بعض القوم وقال: استسلمي لأمر الله عز وجل واحتسي. قالت: أمات ابني؟ قال: نعم. قالت: أحق ما تقولون؟ قلنا: نعم. فمدت يدها إلى السماء ثم قالت: اللهم إنك تعلم أبي أسلمت لك وهاجرت إلى نبيك محمد، صلى الله عليه وسلم، رجاء أن تعينني عند كل شدة! اللهم فلا تُحملني هذه المصيبة اليوم! فكشف ابنها الثوب الذي سجنناه به عن وجهه وما برحنا حتى طعم وطعمنا معه.

وقيل: وبيننا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يعرض الناس إذا هو برجل معه صبي له. فقال له عمر، رضي الله عنه: ويحك ما رأيت غراباً أشبه بغراب من هذا بك! فقال: يا أمير المؤمنين والله ما ولدته أمه إلا وهي ميتة. فاستوى عمر، رحمه الله، جالساً وقال: ويحك حدثني! قال: خرجت في غزاةٍ وأمّه حامل به، فقالت: تخرج وتدعني على هذه الحالة حاملاً مثقلاً؟ فقلت: أستودع الله ما في بطنك. فغبت ثم قدمت وإذا بابي مغلق، فقلت: ما هذا وما فعلت فلانة؟ قالوا: ماتت. فذهبت إلى قبرها وكتت عنده، فلما كان من الليل قعدت مع بني عمي أتحدث وليس يسترنا من البقيع شيء، فرفعت لي ناراً بين القبور، فقلت لبني عمي: ما هذه النار؟ فقال أحدهم: يا أبا فلان نرى على قبر فلانة كل ليلة ناراً! فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لقد كانت صوامع قوامة عفيفة، والله لأنبشَنَ قبرها ولأنظرن ما حالها. فأخذتُ فأساً وأتيت القبر فإذا هو مفتوح والمرأة ميتة وهذا حي يدب حولها، فنادى مناد: أيها المستودع ربه وديعته خذ وديعتك، أما إنك لو استودعته أمه لوجدتها! فأخذته وعاد القبر كما كان، وهو والله يا أمير المؤمنين هذا.

### مساوي الثقة

قال: قال عيسى بن مريم، عليه السلام: يا معشر الخواريين إن ابن آدم خُلِقَ في الدنيا في أربعة منازل هو في ثلاثة منها واثق بالله عز وجل وهو في الرابع سيء الظن يخاف خذلان الله عز وجل إياه، فأما المنزلة الأولى فإنه خُلِقَ في بطن أمه خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، ينزل الله جل وعز عليه رزقه في جوف ظلمة البطن، فإذا خرج من ظلمة البطن وقع في اللبن لا يخطو إليه بقدم ولا ساق ولا يتناوله بيد ولا ينهض بقوة ويكره عليه إكراهاً ويوجره إيجاراً حتى ينبت عليه عظمه ودمه ولحمه، فإذا ارتفع من اللبن وقع في المنزلة الثالثة في الطعام بين أبويه يكتسبان عليه من حلال وحرام، فإن مات أبواه عن غير شيء عطف عليه الناس هذا يطعمه وهذا يسقيه وهذا يؤويه، فإذا وقع في المنزلة الرابعة واشتد واستوى وكان رجلاً خشي أن لا يرزق يشب على الناس يخون أماناتهم ويسرق أمتعتهم ويكابره على أموالهم مخافة خذلان الله عز وجل إياه.

### محاسن طلب الرزق

بلغنا عن ابن السمك أنه قال: لا تشتغل بالرزق المضمون عن العمل المفروض، وكن اليوم مشغولاً بما أنت عنه غداً مسؤول، وإيك والفضول فإن حسابها طويل.

وقال عمرو بن عتبة: من لم يقدمه الحرم أخره العجز.

وقال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم احدث لي سفراً أحدث لك رزقاً.

وفي بعض الحديث: سافروا تغنموا، وقال الكمي:

ولن يزيح هموم النفس إذ حضرت ... حاجات مثلك إلا الرّحل والجمل  
وقال الطائي:

وطول مقام المرء في الحيّ مخلقٌ ... لديباجتيه فاغترب تتجدد

فإني رأيت الشمس زبدت محبةً ... إلى الناس إذ ليست عليهم بسرمد

وقال بعض الحكماء: لا تدع الحيلة في التماس الرزق بكل مكان فإن الكريم محتال والديني عيال، وقال:

فسر في بلاد الله والتمس الغنى ... تعش ذا يسارٍ أو تموت فتعذرا

ولا ترض من عيشٍ بدونٍ ولا تتم ... وكيف ينالم الليل من كان معسرا

وتقول العرب: كلب جوال خير من أسد رابض. وتقول أيضاً: من غلى دماغه صائفاً غلت قدره شاتياً.

ووقع عبد الله بن طاهر: من سعى رعى، ومن لزم المنام رأى الأحلام.

وقال الكسروي: أخذ من توقيع أنوشروان بالفارسية هرك روز خرد هرك خسيذ خاف ويند، وأنشد:

كفى حزناً أن النوى قذفت بنا ... بعيداً وأن الرزق أعيت مذاهبه

ولو أننا إذ فرّق الدهر بيننا ... غني واحدٌ منا تمول صاحبه

ولكننا من دهرنا في مؤونةٍ ... يكالنا طوراً وطوراً نكاله

ولآخر:

إذا المرء لم يبيع المعاش لنفسه ... شكا الفقر أو لام الصديق فأكثر

وصار على الأذنين كلاً وأوشكت ... صلوات ذوي القربى له أن تنكراً

ولآخر:

ومن يك مثلي ذا عيالٍ ومقتراً ... من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذراً أو ينال غنيمةً ... ومبلغ نفسٍ عذرها مثل منجح

ولآخر:

وليس الرزق عن طلبٍ حيثٍ ... ولكن ألق دلوك في الدلاء

تجيء بمثلها يوماً ويوماً ... تجيء بحمأةٍ وقليل ماء

ولآخر:

وقد علمت وعلم المرء ينفعه ... أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى له فيعيني طلبه ... ولو قعدت أتاني لا يعيني

ولآخر:

لعمرك ما كل التبطل ضائرٌ ... ولا كل شغلٍ فيه للمرء منفعه  
إذا كانت الأرزاق في القرب والنوى ... عليك سواءً فاغتم لذّة الدّعه  
وإن ضقت فاصبر يفرج الله ما ترى ... ألا كل ضيق في عواقبه سعه

ولآخر:

سهّل عليك فإن الأمر مقدور ... وكل مستأنفٍ في اللوح مسطور  
يأتي القضاء بما فيه مدته ... وكل ما لم يكن فيه فمحذور  
لا تكذبن وخير القول أصدقه ... إن الحريص على الدنيا لمغرور

ولآخر:

لا يتعبنك شيءٌ أنت تطلبه ... وقد تقلمك المقدور والقلم

ولآخر:

لا تعبن على العباد فإنما ... يأتيك رزقك حين يؤذن فيه

ولآخر:

هي المقادير تجري في أعنتها ... فاصبر فليس لها صبرٌ على حال  
يوماً تريش خسيس القوم ترفعه ... دون السماء ويوماً تخفض العالي

ولآخر:

اصبر على زمنٍ جمّ تلونه ... فليس من شدةٍ إلا لها فرج  
تلقاه بالأمس في عمياء مظلمة ... ويصبح اليوم قد لاحت له السُّرج

ولآخر:

ألا رُبّ راجي حاجةٍ لا ينالها ... وآخر قد تُقضى له وهو آيس  
يجول لها هذا وتقضى لغيره ... فتأتي التي تُقضى له وهو جالس

ولآخر:

أطلب رزق الله من عند غيره ... وتصيح من خوف العواقب آمنا  
وترضى بصرفٍ وإن كان مشركاً ... ضميناً ولا ترضى بربك ضامنا  
كأنك لم تقنع بما في كتابه ... فأصبحت مدخول اليقين مبائنا

ولآخر:

إني لأكرم نفسي أن أدنسها ... بشين عرضي وبذل الوجه للناس  
والله ضامن رزقي ما حييت وما ... في ضمن ذي العرش من شكّ ولا باس  
إني رأيت سؤال الله مكرومةً ... وفي سؤال سواه أعظم الياس

قيل: ووجد في بعض خزائن ملوك العجم لوح من حجارة فيه مكتوب: كن لما لا ترجو أرجى منك لما  
ترجو، فإن موسى، عليه السلام، خرج يقتبس ناراً فودي بالنبوة. وأنشد:

ولما أن عييت بما ألقى ... وأعيتني المسائل والقروض  
ذكرت الله لا أرجو سواه ... وربُّ العرشِ ذو فرَجٍ عريضٍ  
ولآخر:

يا صاحب الغمِّ إن الغمَّ منقطعٌ ... أبشر بخيرٍ كأن قد فرَجَ الله  
اليأسَ يقطع أحياناً بصاحبه ... لا تيأسنَّ فإن الصانع الله

إذا ابتليت فتق بالله وارض به ... فكاشف الضرِّ والبلوى هو الله  
ولآخر:

كم رأينا من صحيحٍ قد هوى ... وأخي سقمٍ من السقم خرج  
لا تكن إن راب أمرٌ آيساً ... فلعند اليأس يأتيك الفرج  
ولآخر:

وإذا تصبك من الحوادث نكبةً ... فاصبر فكلُّ ضبايةٍ تتكشف

## مساوى طلب الرزق

لديك الجن:

احلُّ وامرؤٌ معاً ولن تارةً واخ ... شن ورشٌ أنت وانتدب للمعالي  
وأغث واستغث بربك في الأز ... ل إذا جلحت صروف الليالي  
لا تقف للزمان في منزل الضي ... م ولا تستكن لرقه حال  
وأهن نفسك الكريمة للمو ... ت وقحم بما على الأهوال  
فلعمري للموت أزين للح ... ر من النلِّ ضارعا للرجال  
أي ماء يدور في وجهك الح ... ر إذا ما امتهنته بالسؤال  
ثم لا سيما إذا عصف الله ... ر بأهل الندى وأهل النوال  
غاضت المكرمات وانقرض النا ... س وبادت سحائب الإفضال  
فقليل من الورى من تراه ... يُرتجى أو يصون عرضاً بمال  
وكذاك الهلال أول ما يب ... دو نحياً في دقة الخلخال  
ثم يزداد ضوعه فتراه ... قمراً في السماء غير هلال  
عاد تدميثك المضاجع للجن ... ب فعال الخريفة المكسال  
وآدرع يلمق اجتياح دجى اللي ... ل بطرفٍ مضبر الأوصال  
عاملٍ النتاج تطوى له الأر ... ض إذا ما استعدَّ للأنقال  
جرشعٍ لاحق الأياطل كالأع ... فر ضافي السيب غير مزال  
واتخذ ظهره من النل حصناً ... نعم حصن الكريم في الزلزال

لا أحب الفنى أراه إذا ما ... عضّه الدهر جاثماً في الضلال  
مستكيناً لذي الغنى خاشع الطر ... ف ذليل الإدبار والإقبال  
أين جوب البلاد شرقاً وغرباً ... واعتساف السهول والأجبال  
واعتراض الرقاق يوضع فيها ... بظباء النجاد والعمال  
ذهب الناس فاطلب الرزق بالسي ... ف وإلا فمت شديد الهزال

### محاسن استصلاح المال

روي عن عبد الله بن جعفر قال: بعثني علي بن أبي طالب إلى حكيم بن خزام يسأله سلف ثلاثين ألف درهم، فأتيته فانطلق بي إلى منزله فوجد في الطريق صوّفاً فأخذه ومرّ بقطعة كساء فأخذه فلما صار إلى منزله أعطاني طرف الصوف فجعلت أفنله ويرسل حتى فنلته، ثم دعا بغرارةٍ محرقةٍ فرقعها بالكساء وخاطها بالخيط وصيّر فيها ثلاثين ألف درهم وحملت معي.

قال: وأتى قومٌ قيس بن سعد بن عبادة يسألونه في حمالة فصادفوه في حائط له يتبع ما يسقط من الثمر فيعزل جيده عن رديّه ويجعل كل صنف منها على حدته، فهموا أن يرجعوا عنه وقالوا: ما نظن عند هذا خيراً، ثم عزموا على لقائه فأقاموا حتى فرغ من حائطه فكلموه فأعطاهم. فقال رجل من القوم له: لقد رأيتك تصنع شيئاً لا يشبه فعالك! وأخبروه فقال: إن الذي رأيتم من صنيعي قضيت به حاجتكم. عبد العزيز بن أبان عن هشام الثقفي عن رجل أتى طلحة بن عبيد الله يسأله حمالة فرآه يهناً بغيراً له فقال: يا غلام أخرج له بدرّة. فقبضها ثم قال: أردت أن أنصرف حين رأيتك تمناً البعير. فقال: إنا لا نضيع الصغير ولا يتعاطمنا الكبير.

وكان يقال: من أنفق ولم يحسب عطب ولم يشعر. وقيل: الإفلاس سوء التدبير. الأصمعي قال: سمعت بعض الهالبيين يقول لبيته: لا تشتروا الغنم فإنها مال الرقة ولا تشتروا البقر فإنها مال الذلّة واشتروا الإبل واقتنوها فإنها رقوء الدم وصدقات الحرائر وسفن البرّ وفيها قضاء الحقوق، ولا تتزوجوا المميتات فإنهن يضربن على رؤوسكم من كان قبلكم وتزوجوا المطلقات فإنهن أضعف نفساً وإنكم تضربون على رؤوسهن من كان قبلكم. وقال بعضهم في جمع القليل إلى القليل: رب كبير هاجه صغير ... وفي البحور تُغرق البحور وقال آخر:

قد يلحق الصغير بالجليل ... وإنما القرم من الأفيال

وسحق النخل من الفسيل

محاسن الدّين

قيل: قدم رجل مع إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة وهو على قضاء البصرة فأقام أكثر من سنة متعطلاً، فكثرت



عليه الدين لرجلٍ من أهل البصرة، فبوعده أن يقدمه إلى القاضي، فأتى الرجل إسماعيل فأخبره بما تخوّفه من حبس الرجل إياه. فقال: إذا قدّمك فأقرّ له بحقه ثم قل أبيع داري وأقضيه، فإنه سيقول: لا دار لك، قل فأبيع دابتي وضيعتي، فإنه سينكر أن يكون لك شيء. ففعل فجرى بينهما ما قاله القاضي. فقال القاضي: قد أقررت أنه لا شيء له، فكيف أحبسه؟؟ فحلّ سبيله.

قال: وكان لرجل من التجار صاحب عينةٍ على رجل من الجند مالٌ فخرج عطاء الجندي ولم يقض صاحبه. فأرسل إليه التاجر غلاماً يلزمه وعلى الغلام كساءً أحر فلزمه. فجعل الرجل يتلو: " وإن كان ذو عسرةٍ فنظرةٍ إلى ميسرةٍ ". والغلام يتلو: " إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها ". فلما طال ذلك على الرجل واشتد إلحاح الغلام عليه أتى صاحبه فقال:

مُنِع الرَّقَادُ فَمَا أَعْمَضُ سَاعَةً ... من غمّ تعذيب الكساء الأحر  
يتلو التي فيها الأمانة منهما ... لَوْماً وأتلو آية المتيسر  
فضحك الرجل ووهب له ما كان عليه من دينه.

مساوى الدّين

قال أبو اليقظان: كان الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي هب الشاعر يسلف الناس فإذا حلّ ماله ركب حماراً اسمه شارب الريح فيقف على غرمانه ويقول:

بني عمنا ردّوا الدراهم إنّما ... يفرّق بين الناس حبّ الدراهم

وكان رجل من بني الدئل عسر القضاء فإذا تعلق به غرماؤه فرّ منهم وقال:

فلو كنت الحديد لكسروني ... ولكني أشدّ من الحديد

فأقرضه الفضل بن العباس، فلما كان قبل المحل جاء فبنى معلماً على باب داره، وكان يقال له عقرب. فلقي كلّ واحد منهما من صاحبه شدةً فهجاه فقال:

قد تجرت في سوقنا عقربٌ ... يا عجباً للعقرب التاجر

قد ضاقت العقرب واستيقنت ... ليس لها دنيا ولا آخرة

فإن تعدّ ترجع بما ساءها ... وكانت النعل لها حاضره

كلّ عدوّ يتقى مقبلاً ... وتنتقى شرّها دابره

إن عدواً كيده في استه ... لغير ذي كيدٍ ولا بادره

قال: وقدّم أعرابيان غريماً لهما إلى قاض، فحلف ثم قال:

ألم تعلمنا أيّ طموحٍ عنانه ... وأني لا يقضي عليّ أمير

طمستُ الذي في الصكّ مني بحلقةٍ ... سيغفرها الرحمن وهو غفور

ولآخر:

أرى الغرماء قد كثروا وضجّوا ... إلى السلطان غير مُقصرينا

فإن سألو اليمين فقد رجحنا ... وإن سألو الشهود فقد خزينا

ولآخر:

الدين حقاً كاسمه دويُّ ... قد يخضعُ المرءُ له القويُّ  
كم من شريفٍ غاظه غيُّ

### محاسن إصلاح البدن

قال: جمع الرشيد أربعة من الأطباء: عراقياً ورومياً وهندياً وسوادياً، فقال: ليصف كل واحد منهم الدواء الذي لا داء فيه. فقال الرومي: الدواء الذي لا داء فيه حب الرشاد الأبيض. وقال الهندي: الماء الحار. وقال العراقي: الإهليلج الأسود. وكان السوادى أبصرهم فقال له: تكلم. فقال: حب الرشاد يولد الرطوبة والماء الحار يرخي المعدة والإهليلج يرقّ المعدة. قال: فأنت ما تقول؟ قال: الدواء الذي لا داء فيه أن تقعد على الطعام وأنت تشتهييه وتقوم عنه وأنت تشتهييه.

وقال بعضهم: سألت أسقف فارس فقلت: إنا قوم نغرب ويتغير علينا المياه فصف لنا ما نتعالج به. فقال: دعوا الأدوية وعليكم بالأغذية وما يخرج من الضرع والنحل، وعليكم بأكل اللحم وشرب ماء الكرم ودخول الحمام ولبس الكتان.

وعن الهيثم بن عدي قال: قلت لتياذوق وكان متطبب الحجاج: أوصني بشيء أحفظه عنك فإني مسافر. فقال: لا تنامن حتى تعرض نفسك على الخلاء، ولا تذوقن طعاماً وفي معدتك طعام، واتق ما تخرجه النعجة والنحلة، فإن اعتلت فأنا الضمين إلا علة الموت. وقال سواده: سألت بختيشوع ما معنى البلغم؟ فقال: تفسيره بلاء وغم.

وقال بعض الفلاسفة: ينبغي للعاقل أن يتقي البرد في أول الشتاء وفي آخره. فقيل له: ففي وسطه؟ قال: ذاك يتقيه العاقل والأحمق.

قيل: وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له: إياك أن تسير شبراً من الأرض وأنت حافٍ، ولا تذوقن نبتة ولا تشمنها حتى تعرفها، وإياك وأن تبول في شق الأرض فتخرج منه عليك داهية، ولا تشرب من فم قربة ولا إداوة حتى يكون الماء معيناً، واحذر مرافقة المعرفة ومن لا تعرف فلا تصاحبه، وإياك والسجود على بارية جديدة حتى تمسحها بكمك فرب شظية حقيرة فقأت عيناً خطيرة، ولا تظنن في بئر عادية، ولا تشهدن من الحيوان الكبار ما هو في النزع، واقبل وصيتي ترشد ولا تدعها فتدم.

قيل: ودخل أعرابي ذو كدنة على معاوية بن أبي سفيان فأعجبه فقال: يا أعرابي مم هذا السمن؟ قال: لا آكل حتى أجوع وأستوثق من أطرافي في الشتاء وأغفل غاشية الحجر.

وقال بعض الفلاسفة: اخضع للريح خضوعك للملك، وجاهد البلغم مجاهدة عدوك، ودار المرة مداراتك صديقك، وأنزل دمك في السنة مرة أو مرتين، وروّ مشاشتك من ماء لحوم الطير، وعليك بالشراب الأصفر فإنه حليف الروح.

وذكر أبو الحسين محمد بن أحمد بن يحيى بن أبي البغل عن أحمد بن أبي الأضبع وكان كاتباً لأحمد بن يحيى بن ماسويه قال: أكل الفالوذ لصاحب النبيذ عندنا من شر الطب.

وقيل: ما من أحد إلا وفيه أربعة عروق: عرق الجذام وعرق البرص وعرق العمى وعرق الجنون، فإذا تحرك عرق الجذام قمعه الله بالزكام فأذهبه، وإذا تحرك عرق البرص سلط الله جل وعز عليه الدماميل فأذهبته، وإذا تحرك عرق الجنون سلط الله عليه البلغم فقطعه، وإذا تحرك عرق العمى سلط الله عليه الرمد فأذهبه. وقد روي عن النبي، صلى الله عليه وسلم: لا تكرهوا أربعاً لأربع، لا تكرهوا الزكام فإنه يقطع عرق الجذام، وتكرهوا السعال فإنه يقطع عرق الفالج، ولا تكرهوا الرمد فإنه يقطع عرق العمى، ولا تكرهوا الدماميل فإنها تقطع عرق البرص.

وروي عن علي، رضي الله عنه، أنه قال: من ابتداء غداه بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعاً من السوء، ومن أكل إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير في جسده شيئاً يكرهه، ومن أكل سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه، واللحم ينبت اللحم، والثريد طعام العرب، والسواك وقراءة القرآن يذهبان بالبلغم، والبقر لحومها داء وألبانها دواء وسمنها شفاء، والسمك يذيب الجسد، والشحم يخرج مثله من الداء، ولن يتداوى الناس بمثل السم، ولن تستشفى النفساء بمثل الرطب، والمرء يسعى بجده والسيوف يقطع بجمده، ومن أراد البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء وليقلل من غشيان النساء. وخفة الرداء قلة الدين.

قيل: من بات واهندباء في جوفه بات آمناً من الديلة، ومن بات والفجل في جوفه بات آمناً من البشم، ومن بات والكرفس في جوفه بات آمناً من وجع الأضراس، ومن بات والجرجير في جوفه بات وعروق الجذام تتردد في صدره، ومن بات والكراث في جوفه بات آمناً من البواسير.

وقال بعض الفلاسفة: لا ينبغي للعاقل أن يستخف بالقليل من ثلاثة أشياء، بالقليل من النار والقليل من السلطان والقليل من السقم.

وقال أبو هفان: حدثني العباس بن المأمون قال: كنت عند المأمون ذات يوم وعنده الموبذ فسأله: ما أنفع الأشياء؟ فقال: الاقتصاد في الطعام والشرب فإن كثيره يتقل الجسم ويوهن العلم والفهم ويكثر صفاء البشرة ويفتح الأدوية ويحمد نار المعدة ويمحق شرف صاحبه. فقال المأمون: لو أسلمت يا موبذ ولم أستقضك كنت قد ضيعت حجة الله في أرضه.

الحسن بن علي بن زيد قال: سمعت علي بن الجعد يقول: لما قدم بختيشوع الأكبر على أبي جعفر من السوس أمر له بالطعام، فلما وضع بين يديه الخوان قال: الشرب. قيل له: لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين. قال: لا آكل طعاماً ليس معه شراب. فأخبر أمير المؤمنين بذلك، فقال: دعوه. فلما حضر العشاء فعل به مثل ذلك، فطلب الشراب، فقيل له: لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين. فتعشى وشرب ماء دجلة. فلما كان الغد نظر إلى مائه فقال: ما كنت أحسب شيئاً يجري مجرى الشراب فهذا ماء دجلة يجري مجرى الشراب. يريد في المنفعة أنه مثله.

### مساوي ما يفسد البدن

قال وقال رجل لعبد الملك بن أجمر: أشتهي أن أمرض. فقال له: كل سمكاً مالحاً واشرب نبيذاً حلواً واقعد في الشمس واستمرض الله عز وجل فإن لم تمرض فأنت حمار.

روي عن عائشة، رضي الله عنه، أنها دخلت على أم سلمة بعد رجوعها من وقعة الجمل وقد كانت أم سلمة حلفت أن لا تكلمها أبداً من أجل مسيرها إلى محاربة علي بن أبي طالب، فقالت عائشة: السلام عليك يا أم المؤمنين! فقالت: يا حائط ألم أهلك؟ ألم أقل لك؟ قالت عائشة: فإني أستغفر الله وأتوب إليه. كلميني يا أم المؤمنين، قالت: يا حائط ألم أقل لك؟ ألم أهلك؟ فلم تكلمها حتى ماتت، وقامت عائشة وهي تبكي وتقول: وا أسفاه على ما فرط مني.

قيل: وسئلت عائشة، رضي الله عنه، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقالت: وما عسيت أن أقول فيه وهو أحب الناس إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ لقد رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد جمع شملته على علي وفاطمة والحسن والحسين وقال: هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قيل لها: فكيف سرت إليه؟ قالت: أنا نادمة! وكان ذلك قدراً مقدوراً. وعن جميع بن عمير قال: قلت لعائشة حديثي عن علي، رضي الله عنه، فقالت: تسألني عن رجل سالت نفس رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في يده وولي غسله وتعميضة وإدخاله قبره، قلت: فما حملك على ما كان منك؟ فأرسلت خمارها على وجهها وبكت وقالت: أمرٌ كان قضي عليّ.

قال: وقال ابن المعافى لأبي مسلم صاحب الدولة: أيها الأمير لقد قمت بأمر لا يقصر بك ثوابه عن الجنة في إقامة دولة بني العباس، فقال: خوفي من النار والله أولى من الطمع في الجنة، إني أطفيت من أمية جمره وأهبت من بني العباس نيراناً، فإن أفرح بالإطفاء فوا حزناً من الإلهاب! وحدث أبو غنم عن أبيه قال: سمعت أبا مسلم بعرفات في الموقف يقول باكياً: اللهم إني تائب إليك مما لا أظن أن تغفره لي، قهلت: أيها الأمير أعظم على الله عز وجل غفران ذنب؟ فقال: إني نسجت ثوباً من الظلم لا يبلى ما دامت الدولة لبني العباس، فكم من صارخ وصارخة تلعني عند تقاقم هذا الأمر، فكيف يغفر الله عز وجل لمن هذا الخلق خصماً؟ قيل: ولما سخط عليه المنصور ووكل به شهرام المروزي قال له يوماً: الويل لك من الخليفة المنصور! فقال: الويل لي من ربي، وأين يقع ويل ساعة من عذاب الأبد؟

### مساوئ الندامة

قال: وإلى الكسعيّ يضرب المثل في الندامة وذلك أنه كان يرعى إبلاً له بوادٍ كثير العشب، فبينما هو كذلك إذ بصر بنبعة في صخرة فأعجبته، فقال: ينبغي أن تكون هذه قوساً، فجعل يتعهدا حتى إذا أدركت قطعها وجففها واتخذ منها قوساً فأنشأ يقول:

يا رب وقتني لنحت قوسي ... فإنها من لذتي لنفسي

وانفع بقوسي ولدي وعروسي ... أحتها صفراء مثل الورد

صلباء ليست كقسيّ النكس

ثم دهنها وخطمها بوتر ثم عمد إلى ما كان من برايتها فجعل منه خمسة أسهم فجعل يقلبها في كفه ويقول:

هن وربي أسهم حسانُ ... يلدُّ للرامي بما البنان  
كأنها قومها الميزان ... فأبشروا بالخصب يا صبيان  
إن لم يعقني الشؤم والحرمان

ثم خرج حتى أتى موارد حمر الوحش فكمن فيها فمرّ قطع منها فرمى عيراً فأخطه السهم حتى جازه  
وأصاب الجبل فأورى ناراً فظن أنه أخطأ فقال:  
أعوذ بالله العزيز الرحمان ... من نكد الجلد معاً والحرمان  
ما لي رأيت السهم بين الصوّان ... يوري شراراً مثل لون العقيان  
فأخلف اليوم رجاء الصبيان

ثم مكث على حاله فمر به قطع آخر فرمى عيراً منها فأخطه السهم فصنع صنيع الأول فقال:  
لا بارك الله الرحمن في رمي القتر ... أعوذ بالرحمن من سوء القدر  
أأخط السهم لإرهاق الضرر ... أم ذاك من سوء احتيال ونظر  
ثم مكث على حاله فمر به قطع آخر فرمى عيراً منها فأخطه السهم فقال:  
ما بال سهمي يوقد الحباحبا ... قد كنت أرجو أن يكون صائباً  
وأمكن العير وأبدى جانباً ... فصار رأبي فيه رأياً خائباً  
ومكث مكانه فمر به قطع آخر فرمى عيراً منها فأصرد السهم فصنع صنيع الأول فقال:

أبعد خمس قد حفظت عدّها ... أحمل قوسي وأريد ردها  
أحزى الله لينها وشدّها ... والله لا تسلم عندي بعدها  
ولا أرجي ما حبيت ردها

ثم عمد إلى القوس فضرب بها حجراً فكسرها ثم بات، فلما أصبح إذا الحمر مطرحة حوله واسهمه مضرحة  
بالدم، فندم على كسر قوسه وشدّ على إبهامه فقطعها، وأنشأ يقول:  
ندمت ندامة لو أن نفسي ... تطاوعني إذا لقطعت خمسي  
تبيّن لي سفاه الرأي مني ... لعمر أبيك حين كسرت قوسي  
وقال الفرزدق:

ندمت ندامة الكسعيّ لما ... غدت مني مطلقة نوار

وكانت جنتي فخرجت منها ... كآدم حين لجّ به الضرار

ومنه ما قيل في خفي حنين وكان حنين إسكافاً من الحيرة فساومه أعرابي بخفيه واختلفا في ذلك حتى أغضبه  
فأراد أن يغيظ الأعرابي، فلما ارتحل أخذ حنين الخفين فألقى أحدهما على الطريق وألقى الآخر في موضع  
آخر من طريقه، فلما مر الأعرابي رأى أحدهما فقال: ما أشبه هذا بخفّ حنين ولو كان معه أخوه نزلت  
فأخذته، ومضى، فلما انتهى إلى الآخر ندم على ترك الأول وأناخ راحلته فأخذه ورجع إلى الأول. وقد  
كمن له حنين فعمد إلى راحلته فذهب بها وما عليها، وأقبل الأعرابي وليس معه إلا الخفان، فقال له قومه: ما

الذي أتيت به؟ قال: أتيت بخفي حنين، فضربته العرب مثلاً. و قال الشاعر في مثله:  
لتقرن عليّ السنّ من ندمٍ ... إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقي

### محاسن الحنين إلى الوطن

قال الله تبارك وتعالى: " ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم " ، فقرن جل ذكره الجلاء عن الوطن بالقتل، وقال جل وتعالى: " وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا " ، فجعل القتال ثأراً للجلاء. وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: الخروج عن الوطن عقوبة.

وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: لولا حب الوطن لخرّب بلد السوء.  
وكان يقال: بحب الأوطان عمرت البلدان.

وقال جالينوس: يتروّح العليل بنسيم أرضه كما تتروح الأرض الجذبة ببلل المطر.  
وقال بقراط: يداوى كل عليل بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تنزع إلى غذائها.  
ومما يؤكد ذلك قول أعرابي وقد مرض بالحضرة فقال له قائل: ما تشتهي؟ قال: محضاً رويّاً وضباً مشويّاً.  
وحدث عن بعض بني هاشم قال: قلت لأعرابي: من أين أقبلت؟ قال: من هذه البادية! قلت: وأين تسكن منها؟ فقال: مساقط الحمى حتى ضرية لعمر الله ما نريد بها بدلاً ولا نبغي عنها حولاً نفتحها العداوات وحفّتها القلوات فلا يعلو لج تراهما ولا يتمرّ جناهما ولا يملوح ماؤها، ليس بها أذى ولا قدي ولا موم، فنحن فيها بأرفه عيش وأنعم معيشة وأرغد نعمة. قلت: فما طعامكم؟ قال: بخ بخ عيشنا عيش تعلل جاذبه وطعامنا أطيب طعام وأهنأه وأمرأه الفثّ والهبيد والصليب والعنكث والعلهز والذآين والينمة والعراجين والحسلة والضباب واليرابيع والقنفاذ والحيات وربما والله أكلنا القدّ واشتوينا الجلد فما نعلم أحداً أخصب منا عيشاً ولا أرخى بالاً ولا أعرم حالاً، أو ما سمعت قول شاعر وكان والله بصيراً بريق العيش ولذيذه؟ قلت: وما قال؟ قال قوله:

إذا ما أصبنا كل يومٍ مذيقةً ... وخمس تيمراتٍ صغارٍ كوانر

فنحن ملوك الناس خصباً ونعمة ... ونحن أسود الناس عند الهزاهر

وكم متمنّ عيشنا لا يناله ... ولو ناله أضحى به حقّ فاتر

فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعه ورزق من السعة وإياه نسأل تمام النعمة.

وقيل لأعرابي: كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله؟ فقال: وهل العيش إلا ذاك؟  
يمشي أحدنا ميلاً فيرفض عرفاً كأنه الجمّان، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه وتقبل عليه الرياح من كل جانب فكأنه في إيوان كسرى.

ذكر من اختار الوطن على الثروة - قال بعض الأدباء: عسرك في بلدك خير من يسرك في غربتك.  
وقيل لأعرابي: ما الغبطة؟ قال: الكفاية ولزوم الأوطان والجلوس مع الإخوان. قيل: فما الذلّة؟ قال: التنقل في البلدان والتنحي عن الأوطان.

وقال بعض الأدباء: الغربة ذلة فإن ردفتها علة وإن أعقبها قلة فبلك نفس مضمحلة.  
وقالت العرب: الغربة ذلة والذلة قلة.

وقال آخر: لا تنهض عن وكرك فتقصك الغربة وتضمك الوحدة.  
وشبّهت العرب والحكماء الغريب باليتيم اللطيم الذي ثكل أبويه فلا أم ترأم له ولا أب يجذب عليه.  
وكان يقال: الجالي عن مسقط رأسه كالعير الناشز عن موضعه الذي هو لكل سيع فريسة ولكل كلب  
قنيصة ولكل رام رمية.  
وكان يقال: الغريب عن وطنه ومحل رضاعه كالغرس الذي زايل أرضه وفقد شربه فهو ذاوٍ لا يثمر وذايل  
لا ينضر، وأنشد:

ومغترب بالمرج يبكي لشجوه ... وقد غاب عنه المسعدون على الحب  
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه ... تنفس يستشفي برائحة الركب  
ولآخر:

إذا ما ذكرت الثغر فاضت مدامعي ... وأضحى فؤادي نهباً للهماهم  
حينئذٍ إلى أرضٍ بها اخضرّ شاري ... وحلّت بها عني عقود التمام  
وألطف قومٍ بالفتى أهل أرضه ... وأرعاهم للمرء حقّ التقادم  
ولآخر:

أحن إلى أرض الحجاز وحاجتي ... خيامٌ بنجدٍ دونها الطرف يقصر  
وما نظري من نحو نجدٍ بنافعي ... أجل لا ولكني على ذاك أنظر  
أفي كل يوم نظرةً ثم عبرةً ... لعينيك يجري ماؤها يتحدر  
متى يستريح القلب؟ إما مجاورٌ ... حزينٌ وإما نازحٌ يتذكر  
الطائي:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول  
كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى ... وحينئذٍ أبداً لأول منزل

### مساوي من كره الوطن

قال بعض الفلاسفة: اطلبوا الرزق في البعد فإنكم إن لم تكسبوا مالاً غنمتم عقلاً كثيراً.  
وقال آخر: لا يألف الوطن إلا ضيق العطن.

وقيل لآخر: ما أصبرك على الغربة! فقال: انست بالنوائب حتى ما أعرف غيرها وغذيت بالمكاره فما أجد  
ضيرها.

ومدح أعرابي رجلاً فقال: خرّجته الغربة ودرّبته التجربة وضرسته النوائب.  
وقال آخر: ما حنّ أحد إلى بلد لا جمع فيه شمله إلا لوصمةٍ في عقله ولا تنزع نفسه إلى بلد قلّ به رفده إلا

لاستيلاء الموق عليه.

وقيل لآخر: ما العيش؟ فقال: دوران البلدان ولقاء الإخوان ومغازلة القيان واستماع الأغاني والنعمات من الزير والمثاني.

وقد قيل: من صبر على الغربة أمن من الكربة، وأفضل العدة الصبر على الشدة. وقالوا: لا توحشتك الغربة إذا أنست بالكفاية، ولا تجزع لفراق الأهل مع لقاء اليسار. وقيل الفقير في الأهل مصروم والغني في الغربة موصول. وقيل: أوحش قومك ما كان في إبحاشهم انسك واهجر وطنك ما نبت عنه نفسك. وقرئ على باب خان بطرسوس:

ما من غريبٍ وإن أبدى تجلده ... إلا تذكر عند الغربة الوطن  
الطائي:

لا يمنعتك خفض العيش تطلبه ... نزاع شوق إلى أهل وأوطان  
تلقى بكل بلادٍ إن حللت بها ... أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيران  
ولآخر:

نبت بك الدار فسر آمناً ... فللفتني حيث انتهى دار  
وروي عن كعب بن مالك أنه وصف وحشة المدينة لعبيدة النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: تنكرت البلاد  
فما هي بالبلاد التي نعرف، وتنكر الناس فما هم بالناس الذين نعرف. وفي معناه قال الشاعر:  
فما الناس بالناس الذين عهدتهم ... ولا الدار بالدار التي كنت أعرف  
وأنشد:

لا تقنعنّ ومطلبٌ لك ممكنٌ ... فإذا تضايقت المطالب فاقع  
وقال آخر:

كم المقام وكم تعتادك العلال ... ما ضاقت الأرض في الدنيا ولا السبل  
إن كنت تعلم أن الأرض واسعةٌ ... فيها لغيرك مرتادٌ ومرتحل  
فارحل فإن بلاد الله ما خلقت ... إلا ليسلك منها السهل والجبل  
الله قد عود الحسنى فما برحت ... عندي له نعمٌ تثري وتتصل  
إن صاق بي بلد هيا له عوضاً ... وإن نأى منزلٌ بي كان لي بدل  
وإن تعير لي عن وده رجلٌ ... أصفى المودة لي من بعده رجل  
لم يقطع الله لي من صاحبٍ أملاً ... إلا تجدد لي من بعده أمل  
لا تمتهن أبداً خديك من طمعٍ ... فما لوجهك نورٌ حين يبتدل

وابغ المكاسب من أركى مطالبها ... من حيث تحمل حتى ينفد الأجل  
ولآخر:



إذا ما أطل المرء مكتأً ببلدةٍ ... تقعبه من بعد حدّته نكس  
ولو أن هذي الشمس دام طلوعها ... أو البدر لم يُحجب ولا حُجبت الشمس  
فجّل طالباً للرزق في الأرض واغترب ... ففي كل أرضٍ للفتى الأكل والملبس  
ولآخر:

وإذا الديار تنكرت عن أهلها ... فدع الديار وأسرع التحويلا  
ليس المقام عليك حمماً واجباً ... في بلدةٍ تدع العزيز ذليلاً  
ولآخر:

إذا خفت من دارٍ هواناً فإنما ... ينجيك من دار الهوان اجتنابها  
ولآخر:

اصبر على حدث الزمان فإنما ... فرج الحوادث مثل حلّ عقال  
وإذا رأيت من ابن عمك جفوةً ... فاشدد يديك بعاجل الترحال  
إن المقام على الهوان مذلةٌ ... والعجز آفة حيلة المحتال

وقد قيل: في حب الوطن: أحق البلدان بتزعك إليه بلد امصّك حلب رضاعه.  
وقيل: احفظ بلداً أرشحك غذاؤه، واراع حمى أكّك فناؤه.  
وقيل: لا تشكون بلداً فيه قبائلك ولا أرضاً فيها قوايلك.

وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى أوطانها مشتاقّة وإلى مولدها تواقّة.  
قيل: ولما خرج الرشيد إلى خراسان وصار بعقبة همدان أنشأ يقول:

حتى متى أنا في حلّ وترحال ... وطول هم يادبار وإقبال  
ونازح الدار لا يفك مغترباً ... عن الأحبة لا يدرون ما حالي

في مشرق الأرض طوراً ثم مغربها ... لا يخطر الموت من حرص على بالي  
ولو قنعت أتاني الرزق في دعةٍ ... إن القنوع الغنى لا كثرة المال

وذكروا أن أبا دلفٍ لما ولي الشام طال مقامه فحنّ إلى وطنه فكتب لى يزيد بن مخش:  
أيزيد طالت غربةٌ ومقام ... وبكاً فأسعده البكاء حمام

أيزيد هل من مطعمٍ في أوبةٍ ... لمتيمٍ طالت به الأيام

لعب الفراق بنومه فأفاته ... طيب الكرى فلموعه تسجام

ما نام عنه وإن رقدتم شوقه ... والشوق يسري والعيون نيام

والشوق ألزمه البكاء فنفسه ... حرّى وأذبل جسمه التهمام

يا طانفاً أهدى السلام إلى فتى ... تهدي إليّ سلامك الأحلام

أنى وكيف ينام صبّ هائم ... أفضت إليه بسرّه الأقالام

يا جانب الأهواز جادك وابلّ ... وسقاك من ديم الربيع رهام

كم فيك من شجنٍ ومأنسٍ وحشيةٍ ... ومحجّبٍ تُشفى به الأسقام

فلئن أحلّكما الزمان ببلدةٍ من دولها القفرات والآكام  
وشواهقُ تزع السحاب شوامخُ ... ليست وإن دأب المطيّ ترام  
... أرى الأيام تجمع بيننا ... والدهر فيه مسرةً وغرام  
أيزيد ساعدك الزمان وخاننا ... والدهر ليس لحالتيه دوام  
تمسي ضجيع خريدةٍ ومضاجعي ... غضبٌ حديد الشفرتين حسام  
وتجر أذيال النعيم مرفلاً ... وأظل يكسوني الشحوب قتام  
متسرّلاً حلق الحديد يحفني ... لjubّ يضيق به الفضاء لهم  
من كل أشعث في الحديد مقنّع ... ذرب الحسام كأنه ضرغام  
والحرب حرفتنا وليست حرفةً ... إلا لمن هو في الوغى مقدم  
نعري السيوف فلا تزال عريّةً ... حتى تكون جفونهم الهام  
ما للزمان اعتاقنا من بينكم ... فجرت علينا للزمان سهام  
يا ليته إذ لم يدم إحسانه ... أن لا يكون لما أساء دوام  
فبلغ شعره المأمون فقال: حنّ القاسم بن عيسى إلى وطنه، فأمره بالانصراف.  
قال الأصمعي: قدم سعيد بن صمصم على الحسن بن سهل فأنشده القصيدة يصف فيها حنينه إلى سوء  
حاله بالبادية ويستميحه:

سقياً لحى باللوى عهدكم ... منذ زمانٍ ثم هذا ربيعهم  
عهدكم والعيش فيه غرّةً ... ولم يناو الحدّثان شعبهم  
ولم يبينوا لنوى قذافةٍ ... تقطع جبلي من وصال جبلهم  
فليت شعري هل لهم من مطلب ... أو أجدنّ ذات يوم بدلهم  
أو يعذرنّ بالبكاء إن بكى ... صبّ معنّى مستحقّ إثرهم  
مكلّفٌ بالشوق لا ينسأهم ... يمنحهم ودّاً ويرعى عهدهم  
وينذر النذور إن رأهم ... وعاد يوماً عيشه وعيشهم  
ولا رب العرش لا يلقاهم ... ولا يعود عيده وعيدهم  
وكيف يلقاهم كبيرٌ سنه ... وقد مضى الدهر وطاح نجمهم  
هيهات عدّ النفس عن ذكراهم ... واقصد لنحو آخرين غيرهم  
هذا وقد رأيتني فلم ألمّ ... رأيتني إذا لام الرجال رأيهم  
أدعو ابن سهل حسناً ومجده ... حين تعيّا بعيالي أمرهم  
أطل أدعو باسمه ودونه ... قومٌ كثيرٌ رغبةً تركتهم  
تخيلاً اخترته عليهم ... ولا بهم بأس ولا ذمتهم  
ناموا فلما أن رأيت نومهم ... عني تحملت فما أيقظتهم

يا ابن كرامٍ كبراً عن كابرٍ ... زانوك زيناً باقياً وزنتهم  
كانوا هم الأشراف سادوا كلهم ... ما في جميع العالمين مثلهم  
بنوا جميع الجند فيما قد مضى ... وأنت تبنيه كذاك بعدهم  
في شرفٍ مؤيدٍ أركانهُ ... لم يبنه بانٍ سواهم قبلهم  
فيا ابن سهلٍ وابن آباءٍ له ... كانوا مناجيب قديماً فضلهم  
والله ما تصيح بين معشرٍ ... إلا وأنت شمسهم وبلرهم  
والناس آخاذاً وماءً ناقعٌ ... وغدراً تجري وأنت بحرهم  
والناس أجناس كما قد مثلوا ... وفيهم الخير وأنت خيرهم  
حاشا أمير المؤمنين إنه ... خليفة الله وأنت صهرهم  
إليك أشكو صبيبةً وأمهم ... لا يشبعون وأبوهم مثلهم  
قد أكلوا الوحش فلم يشبعهم ... وشربوا الماء فطال شربهم  
وامتدقوا المذاق فيا دنياهم ... والمضغ إن نالوه فهو حسهم  
لا يعرفون الخير إلا ذكره ... والدهر هيهات فليس عندهم  
وما رأوا فاكهةً في عيصها ... ولا رأوها وهي تموي نحوهم  
وما لهم من كاسبٍ علمته ... على جديد الأرض غير جحشهم  
وجحشهم قد بات منهوي القرى ... ومثل أعواد الشكاعى كلبهم  
كأنني فيهم وإن وليتهم ... كانوا مواليً وكنت عبدهم  
مجتهداً بالنصر لا آلهم ... أدعو لهم يا رب سلم أمرهم  
وتارة أقول مما قد أرى ... يا رب باعدهم وباعد دارهم  
ياوون بالليل إذا ما أخرجوا ... وهي إلى ذرى اللهييم وهي قدرهم  
بها يطوفون إذا ما اجرنتموا ... وهي أبوهم عندهم وأمهم  
زغب الرؤوس قرعت هاماتهم ... من البلاء وأسماء سمعهم  
بل لو تراهم لعلمت أنهم ... قومٌ مساغيب قليل نومهم  
وكالسعالى في مسوكها. ... فلو يعضون لذكى سئهم  
قد جرّسوا الدهر وقد بلاهم ... هذا وهذا دأبه ودأبهم  
ولا يعيشون بعيشٍ سابغٍ ... ولا يموتون وذاك قصرهم  
وقد رجونا يا ابن سهلٍ نائلاً ... منك يرمّ فقرهم وبؤسهم  
فإنما أنت حيا أمثالهم ... فجد لهم بنائل لا تنسهم  
وأسدٍ نعماك إليهم واتخذ ... حمداً وشكراً كل ذاك عندهم  
هذا وأنت قد حرمت حظهم ... فلا تجودن لخلقٍ بعدهم



كتاب : الخاسن والمساوي

المؤلف : إبراهيم البيهقي

فقال له الحسن: سل ما شئت وتمن ما أحببت، فلو خرجت إليك من ملكي كله ما كافأتك. فقال: تشتري لي غنيمات وتردني إلى البادية. فقال: نحن إلى مكان تصفه بهذه الصفة. قال: الوطن الوطن. فاشتري له ألف شاة وأعطاه عشرين ألف درهم وردده إلى وطنه.

ومما قيل فيمن كره العربة قال ابن أبي السرج: قرأت على حائط خان بالأهواز:

إن الغريب ولو يكون ببلدة ... يُجى إليه خراجها لغريب  
وأقل ما يلقي الغريب من الأذى ... أن يُستدلّ وقوله مكذوب  
قال: وقرأت على حائط خان بعسكر مكرم من الأهواز:

إن الغريب إذا ينادي موجعاً ... عند الشدائد كان غير مُجاب  
فإذا نظرت إلى الغريب فكن به ... متراحماً لتباعد الأحباب  
قال: وقرأت على حائط خان ببغداد في الجانب الغربي:

غريب الدار ليس له صديق ... جميع سؤاله كيف الطريق  
تعلق بالسؤال بكل شيء ... كما يتعلق الرجل الغريق  
فلا تجزع فكل فتى ستأتي ... على حالته سعة وضيق  
قال: ووجدت على باب مكتوباً:

عليك سلام الله يا خير منزل ... رحلنا وخلفناك غير ذميم  
فإن تكن الأيام فرّقن بيننا ... فما أحدٌ من ربيها بسليم  
وأنشد:

أقمنا مكرهين بما فلما ... ألقناها خرجنا مكرهينا  
وما حب البلاد بنا ولكن ... أمرُ العيش فرقة من هوبنا  
ولآخر:

أقمت بأرضكم بالكره مني ... فلما طاب لي فيها المقيـل  
وأوطنت البلاد وحنّ قلبي ... بغزلانٍ بما أذف الرحيل  
ولآخر:

وإن اغتراب المرء من غير فاقه ... ولا حاجة يسموها لعجيب  
فحسب الفتى بخساً وإن أدرك الغنى ... ونال ثراءً أن يقال غريب  
ولآخر:

أي سرورٍ لعيش مغترب ... فردٍ وحيدٍ نأى عن الوطن  
لا تطمع النفس في هواه ولا ... يكحل عيناً بمنظرٍ حسن

ولآخر:

سل الله الإياب من المغيب ... فكم قد ردّ مثلك من غريب  
وسل الحزن عنك بحسن ظنّ ... ولا تيأس من الفرج القريب

ولآخر:

تصبر ولا تعجل ووقيت من الردى ... لعل إياب الطاعين قريب  
فقلت وفي قلبي جوى لفراقها ... ألا لا تعزّيني فلست أُجيب  
أعاذل حي للغريب سجية ... وكلّ غريب للغريب حبيب  
لئن قلت لم أجزع من البين إن مضوا ... لطيتهم إني إذاً لكذوب  
بلى غيّرات الشوق أضرمت الحشا ... ففاضت لها من مقلتي غروب

ولآخر:

إذا اغترب الكريم رأى أموراً ... محجلةً يشيب لها الوليد  
قال أبو الحسين محمد بن أحمد بن يحيى بن أبي البغل: أنشد أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب:

ما كنت أحسب أن يكو ... ن كذا تفرقنا سريعاً  
بخل الزمان عليّ أن ... نبقي كما كنّا جميعاً  
فأحلّني في بلدةٍ ... وأحلّك البلد الشسيعة  
قد كنت أنتظر الوصا ... ل فصرت أنتظر الرجوعاً

ولآخر:

إفان كانا لهذا الحب قد خلقنا ... داما عليه فتمّ الوصل واتفقا  
كنا كغصنين في عودٍ فغاهما ... ريب الزمان وصرف الدهر فافترقا  
فاصفرّ عودهما من بعد خضرته ... وأسقط البين من عوديهما الورقا

ولآخر:

أتظعنُ والذي تهوى مقيم ... لعمرك إن ذا خطبٌ عظيم  
إذا ما كنت للحدثان عوناً ... عليك وللفراق فمن تلوم

ولآخر:

لقد شفّني أني أدور ببلدةٍ ... أخلاي منها نازحون بعيد  
أقلّب طرفي في البلاد فلا أرى ... وجوه أخلاي الذين أريد

ولآخر:

قف بالمنازل وقفة المشتاق ... واسفح بما من دمعتك المهراق  
لا تبخلنّ على الديار بأدمعٍ ... يجرين بين محاجرٍ ومآقي  
تلك الديار كما عهدت عميرةً ... لكنها صفرٌ من الطراق

لم يبقها أمدٌ تقادم عهده ... فالدمع ينطق والرسوم بواقى  
لهفي على زمنٍ مضت أيامه ... والعيش غصٌّ مورق الأوراق  
أيامنا ما كانت إلا خلصةً ... كسف الهلال عراه وجه محاق  
أو نظرةً من خائفٍ لم ينجّه ... خوفٌ الحذار وشلة الإشفاق  
وكذاك أيام السرور قصيرةً ... لكن أيام البلاء بواقى  
كيف اللقاء وقد تطاوت النوى ... شتان بين مشائمٍ وعراق  
يا ليت شعري كيف عهدٍ أحبتي ... لما أظلمهم وشيك فراقى  
ظني بهم حسنٌ وكيف بأوبةٍ ... تروي غليلٍ متيمٍ مشتاق  
ومنها نجديات:

ألا هل أرى حوراً تبرقعن بالحمى ... وهل أجتني بالعين من خدهم وردا  
لعلي أرى نجداً ومن حلّ بالحمى ... فأحسب من نجدٍ على كبدي بردا  
خليلي قد داويت عقلاً سلبته ... بشحط النوى والبعد من قربهم عمدا  
فلم أر بعد الدار يشفي من الجوى ... ولا القرب أيضاً من ديارهم أجدى  
بلى إن في النأي التقطع والأسى ... وحبٌ سليمى القلب من بينهم أودى  
ولآخر:

نسيم الخزامى والرياح التي جرت ... بليل على نجدٍ تذكري نجدا  
أتاني نسيم السدر طيباً من الحمى ... فذكّرتي نجداً وقطّعتني وجدا  
ولآخر:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً ... بصحراء من نجران ذات ثرى مندي  
وهل أردنّ الدهر حصن مجاشعٍ ... وقد ضربته نفحةً من صبا نجد  
ولآخر:

أقول لصاحبي والعيس تحدي ... بنا بين المنيفة والضمار  
تمتع من شميم عرار نجدٍ ... فما بعد العشية من عرار  
ألا يا حبذا نفحات نجدٍ ... ورباً روضه غبّ القطار  
شهورٌ ينقضين وما شعرنا ... بأنصافٍ هن ولا سرار  
وأما ليلهن فخير ليلٍ ... وأنضر ما يكون من النهار  
قال: وقال الفتح بن خاقان: ورد عليّ أعرابي من البادية نجديةً فصيحٌ فبات ليلةً عندي على سطح مشرف  
على بستان، فسمع فيه صوت الدواليب فقال: ما أشبه هذا إلا بحنين الإبل، وأنشدني:  
بكرتُ نحنُ وما بها وجدي ... وأحنّ من شوقٍ إلى نجد  
فدموعها تحيا الرياض بما ... ودموع عيني أحرقت خدي

## محاسن الدعاء للمسافر

بأيمن طالع وأسّر طائر، لا كبا بك مركبٌ ولا أشتّ بك مذهبٌ ولا تعدّر عليك مطلب، سهّل الله لك السير ويسر لك القصد وطوى البعد بمسرة الظفر وكرامة المذخر بأيمن طائر وأسعد جدّ على الطائر الميمون والكوكب السعد.

وفي رسالة للبحرّي: إلى حيث تنقاصر أيدي الحوادث عنك وتتقاعس نوائب الأيام دونك.

فصل: وخصصت بسهولة المطلب ونجاح المنقلب، كان الله لك في سفرك خفيراً وفي حضرك ظهيراً.

آخر: بسعي نجيح وأوب سريع وسريع.

آخر: قصر الله محله وهدى رحله وسرّ بأوبته أهله ولا زال آمناً مقيماً وظاعناً.

آخر: بأسعد جدّ وأنجح مطلب وأسّر منقلب وأكرم بدأة وأحمد عاقبة.

فصل: فاشخص مصحوباً بالسلامة والكلاءة، آتياً بالنجح والغبطة، محوطاً فيما تطالعه بالعناية والشفقة في

ودائع الله وضمانه وكنفه وجواره وستره وأمانه وحفظه وذماره.

وقال رجل للنبي، صلى الله عليه وسلم: إني أريد سفراً. فقال: في حفظ الله وكنفه، زدك الله التقوى

ووجهك إلى الخير حيث كنت.

كتب أبو العيناء: استخلف الله فيك واستخلفه منك.

لابن أبي السرح:

في كنف الله وفي ستره ... من ليس يخلو القلب من ذكره

وأنشد الآخر:

فارحل أبا بشرٍ بأيمن طائرٍ ... وعلى السعادة والسلامة فانزل

## مساوئ الدعاء للمسافر

بالبارح الأشأم والسانح الأعضب والصرد الأنكد للسفر الأبعد، لا استمرّت مطيته واستتبت أمنيته، ولا تراخت منيته بنحسٍ مستمرٍ وعيشٍ مرٍّ، لا قرى إن استضاف ولا أمن إن خاف.

ويقال: إن علياً لما اتصل به مسير معاوية قال: لا أرشد الله قائده ولا أسعد راتده ولا أصاب غيثاً ولا سار

إلا ريثاً ولا وافق إلا ليتاً، أبعده الله وأسحقه وأوقد ناراً على أثره، لا حط الله رحله ولا كشف محله ولا

بشر به أهله، لا زكا له مطلب ولا رحب له فيه مذهب، لا سقاه الله غماماً ولا يسر له مراماً، لا فرّج الله

همه ولا سرّى غمّه، ولا حلّ عقده ولا أورى زنده، جعله الله سفر الفراق وعصا الشقاق، وأنشد:

بأنكد طائرٍ وبشرٍ قال ... لأبعد غايةٍ وأخس حال

بجدّ السند حيث يكون مني ... كما بين الجنوب إلى الشمال

غريباً تمتطي قدميك دهرأ ... على خوف تحنّ إلى العيال



الباهلي:

إذا اسقلت بك الرقاب ... فحيث لا درت السحاب

وحيث لا يُبتغي فلاحٌ ... وحيث لا يُرتحي إياب

ابن أبي السرح:

فسر بالبحوس إلى بلدةٍ ... تُعمّر فيها ولا ترزق

ولا تمرع الأرض من مهرها ... ولا يثمر الشجر المورق

تغيض البحار بما مرةً ... ويكدي السحاب بما المغدق

الباهلي:

أدنى خطاك الهند والصين ... وكلُّ نحسٍ بك مقرون

بحيث لا يأنس مستأنسٌ ... وحيث لا يفرج مخزون

تهوي بك الأرض إلى بلدةٍ ... ليس بها ماءٌ ولا طين

### محاسن الرؤيا

حدثنا أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد قال: كان المأمون يبطل الرؤيا ويقول: ليست بشيء ولو كانت على الحقيقة كنا نراها ولا يسقط منها شيء، فلما رأينا إنما يصح منها الحرف والحرفان من الكثير علمنا أنها باطل وأن أكثرها لا يصح، وكان بعث بابنه العباس إلى بلاد الروم فأبطأ عليه خبره فصلّى ذات يوم الصبح وخفق وانتبه ودعا بدابته وركب وقال: أحدثكم بأعجوبة، رأيت الساعة كأن شيخاً أبيض الرأس واللحية عليه فروة وكساؤه في عنقه ومعه عصاً وفي يده كتاب فدنا مني وقد ركبت فقلت: من أنت؟ فقال: رسول العباس بالسلامة، وناولني كتابه. فقال المعتصم: أرجو أن يخفق الله رؤيا أمير المؤمنين ويسره بسلامته. قال: ثم نهض فوالله ما هو إلا أن خرج فسار قليلاً إلا وبصر بشيخ قد أقبل نحوه في تلك الحال، فقال المأمون: هذا والله الذي رأيته في منامي وهذه صفته. قال: فدنا منه الرجل فتحاه خدمه وصاحوا به. فقال: دعوه. فجاء الشيخ، فقال له: من أنت؟ قال: رسول العباس وهذا كتابه. قال: فبهتتا وطال منه تعجبنا. فقلت: يا أمير المؤمنين أتبطل الرؤيا بعد هذه؟ قال: لا.

وحدثنا علي بن محمد قال: حدثني أبي عن محمد بن عبد الله قال: رأيت فيما يرى النائم في آخر سلطان بني أمية كأني دخلت مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فرفعت رأسي ونظرت إلى الكتاب الذي فوق الخراب فإذا فيه ما أمر به أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، فإذا قائل يقول: يمحي هذا الكتاب ويكتب مكانه اسم رجل من بني هاشم يقال له محمد. فقلت: فأنا محمد، فابن من؟ قال: ابن علي. قلت: فأنا ابن علي، فابن من؟ قال: ابن عبد الله. قلت: فأنا ابن عبد الله، فابن من؟ قال: ابن عباس. فلو لم أكن بلغت العباس ما شككت أني صاحب الأمر، فتحديث بهذه الرؤيا في ذلك الدهر ولا نعرف نحن المهدي فتحدث الناس بما حتى ولي المهدي فدخل مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فرفع رأسه فإذا اسم الوليد، وإني لأرى اسم الوليد في مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى اليوم، فدعا بكرسي فألقي له في

صحن المسجد، فقال: ما أنا ببارحٍ حتى يُمحي ويكتب اسمي مكانه.  
فأمر بأن يحضر العمّال والسلايم وما يحتاج إليه لذلك، فلم يبرح حتى غيّر وكتب اسمه.  
قال: ورأى رجل أبا دلف فيما يراه النائم فقال: ما حالك؟ فقال:  
فلو أنا إذا متنا تُرُكنا ... لكان الموت راحة كل حيّ  
ولكننا إذا متنا بعثنا ... ونسأل بعده عن كل شيء  
قال: ورأى رجل الحجاج بن يوسف فيما يراه النائم فقال له: ما حالك؟ فقال: ما أنت وذاك لا أم لك!  
فقال: سفية في الدنيا سفية في الآخرة!

وعن إسحاق بن إسماعيل بن علي قال: حدثني عمي عيسى بن علي قال: دخلت على المنصور فقال: يا أبا  
العباس أتذكر رؤياي بالشرأة؟ قلت: يا أمير المؤمنين أي الرؤيا؟ قال: مثلك ينساها؟ كان يجب أن تكتبها  
بقلم من ذهب في رقّ وتوصي بها بنيك وبني بنيك! قلت: فأخبرني بها يا أمير المؤمنين! قال: رأيت كأني بمكة  
إذ فُتح باب الكعبة فخرج رجل فقال: عبد الله بن محمد. فقمتم وقام أخي. فقال الرجل: ابن الحارثية.  
فدخل أخي فأبطأ هنيهة ثم خرج وفي يده لواء فخطا خطي خمساً ثم سقط اللواء من يده. ثم خرج الرجل  
بعينه فقال: عبد الله، فقمتم وقام عمي عبد الله بن علي وصعد الدرجة فرحمته ببعض أركاني فسبقت فإذا  
بأبي وإذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فقال لي الرجل: ابدأ برسول الله، صلى الله عليه وسلم،  
فسلمت عليه فدعا بلواء فعقده لي ثم قال: هاك فيك وفي ولدك حتى تقتلوا به الرجال. فخطوت خطي لو  
شئت أن أخبركم بما لأخبركم.

وحدثنا محمد بن يونس قال: أخبرني منصور بن أبي مزاحم عن طيفور مولى أبي جعفر قال: قال المنصور:  
رأيت في السنة التي ولي فيها هشام بن عبد الملك كأني راكب حمار أسود وعليه حمل تبن عظيم، وكان  
بالموصل رجلٌ يعبر الرؤيا، وحججت تلك السنة فرأيتُه بمنى وقصصت عليه الرؤيا. فقال: أخبرني لمن هذه  
الرؤيا. فقلت: لرجل من أئمة الناس. قال: ما قلت الحق، اصدقني وأصدقك! فقلت: لرجل من بني هاشم.  
قال: الآن جئت بالحق، إن صدقت الرؤيا صار صاحبها خليفةً. قال: فانسلكت كالهارب خوفاً أن يظهر من  
قولي وقوله شيء. قال: فبينما الربيع ذات يوم قد دخل فقال: يا أمير المؤمنين رجل بالباب معبر يستأذن.  
قال: أدخله. فأدخله فلما رآه تبسّم وقال: هذا صاحبي. فدنا منه وقبل يده. فقال: أتذكر رؤياي؟ قال:  
نعم، وهي التي حملتني إليك. قال: كيف كنت تأولتها؟ قال: قلت راكب حمار أسود والحمار جدّ الرجل  
وسواده سودد، قلت وكان على الحمار تبن فقلت الحنطة والشعير يخرجان من التبن وقعد عليه ومن صار  
مالكة فقد ملك الأقوات فهذا رجل يملك الناس. قال: لله أبوك ما أحسن ما عبرت وأسرع ما صححت!  
وأمر له بصلة وقال: أقم عندنا وحوّل عيالك فإننا نأمر لك بأرزاق تسعك وإياهم. ففعل ذلك.  
وبلغنا عن مزاحم مولى فاطمة قالت: كنت مع عمر بن عبد العزيز وهو نائم فانتبه وقال: يا فاطمة لقد  
رأيت رؤيا ما رأيت أحسن منها. قلت: حدثني بها يا أمير المؤمنين. قال: حتى أصبح. قال: فجاء المنادي  
فناداه بالصلاة فقام فصلى بالناس الفجر ثم رجع إلى مجلسه. فأتيته فقلت: يا أمير المؤمنين حدثني بالرؤيا.

فقال: رأيت كأني في أرض خضراء لم أر أرضاً أحسن منها، ورأيت في تلك الأرض قصور زبرجد ورأيت جميع الخلائق حول ذلك القصر، فبينما أنا كذلك إذ نادى مناد من القصر: أين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ فقام النبي، صلى الله عليه وسلم، فدخل القصر، فقلت: سبحان الله! إنا في ملا فيهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولم أسلم عليه! فلم ألبث إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين أبو بكر الصديق؟ فقام أبو بكر، رحمه الله، فدخل، فما لبث إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين عمر بن الخطاب؟ فقام عمر فدخل، فقلت: سبحان الله! إنا في جمع فيهم أبي ولم أسلم عليه! فما لبث إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين عثمان بن عفان؟ فقام عثمان، رحمه الله، فدخل، فما لبث إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين علي بن أبي طالب؟ فقام عليّ فدخل، فما لبث إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين عمر بن عبد العزيز؟ فقامت فدخلت فرأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، قاعداً ورأيت أبا بكر عن يمينه وعمر عن يساره وعثمان وعلياً بين يديه، فقلت: أين أقعد؟ لا أقعد إلا إلى جنب أبي، قال: فقعدت عند عمر بن الخطاب، فرأيت فيما بين النبي، صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر شاباً حسن الوجه، فقلت: يا أبة من هذا؟ قال: هذا عيسى بن مريم، عليه السلام. قال: فما لبث إلا قليلاً حتى سمعت منادياً ينادي: يا عمر بن عبد العزيز اثبت علي ما أنت عليه. قال: ثم قمت فخرجت فلم ألبث إلا قليلاً حتى خرج عليّ عثمان وهو يقول: الحمد لله الذي نصرني. ثم لم ألبث إلا قليلاً حتى خرج عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: الحمد لله الذي غفر لي!

## مساوي الرويا

روي عن عمر بن حبيب القاضي أن رجلاً كان بالبصرة وكانت له امرأة وله منها ابنان فمات وترك لهم شاة، فرأت المرأة في النوم كأن ابنها يقول: يا أمه أما ترين هذا الجدي قد أفنى علينا لبن هذه الشاة وليس بدّ من أن أقوم فأذبحه! فقالت: لا تفعل يا بني. قال: لا بد من أذبحه. فقام فذبحه وسمطه وشواه وأخرجه من التور فقعد هو وأخوه ياكلان، فكلمه أخوه بشيء، فأخذ السكين فشق بطنه، فانتهت فرعة وإذا ابنها يقول: يا أمه أما ترين هذا الجدي قد أفنى علينا لبن هذه الشاة أقوم فأذبحه؟ فقالت: لا تفعل يا بني. فجعلت تتعجب من تصديق الرؤيا فأخذت بيد أخيه فدخلت بيتاً وأغلقت الباب من داخل، فبينما هي مفكرة مغممة إذ غقت فرأت النبي، صلى الله عليه وسلم، في النوم، فقال: ما شأنك؟ فخبرته الخبر. فنادى: يا رؤيا! فإذا الحائط قد انصدع وخرجت امرأة جميلة بارعة الجمال. فقال لها النبي، صلى الله عليه وسلم: ما أردت إلى هذه المسكينة؟ قالت: لا والذي بعثك بالحق نبياً ما أتيتها في منامها! فنادى: يا أضغاث أحلام! فخرجت امرأة دونها. فقال: ما أردت إلى هذه المسكينة؟ قالت: رأيتهم بخير فحسدتم فأردت أن أغمهم. فقال، صلى الله عليه وسلم: ليس عليك بأس. فانتهت وأكلت مع ابنها ولم يزالوا بخير.

## محاسن الازكان

قال: نظر إياس بن معاوية إلى نسوة قد فزعن من بعير فأشار إليهن فقال: هذه بكر وهذه حامل وهذه مرضع. فقام إليهن رجل فسألن فكن كما قال. فقيل له: كيف علمته؟ قال: رأيتهن لما فزعن وضعت كل واحدة منهن يدها على أهم المواضع إليها، فوضعت الحامل يدها على بطنها، ووضعت المرضع يدها على ثديها، ووضعت البكر يدها على قبلها.

قال: ونظر إياس يوماً إلى رجل متأبط شيئاً فقال: معه سكر وقد ولد له غلام. فاتبعه الرجل فسأله فإذا هو كما قال. فقيل له في ذلك، فقال: رأيت الذباب قد أطافت به فقلت معه حلاوة وهو سكر، ورأيتة نشيطاً فقلت ولد له غلام.

### مساوي الازكان

قال: واستقبل إياس رجلاً فقال: خذوه فإنه سرق وسيأتي من يطلبه. فأخذوه فلم يتجاوز ساعة حتى جاء قوم يطلبونه فأخذوه فقيل له في ذلك، فقال: رأيته يرعد ويعدو مدلها متغير اللون يكثر الالتفات فزكت فيه هذا وأنه لص.

قال: ورأى رجلاً على عاتقه جرة عسل فقال: فيها سم أو حية. فنظروا فإذا حية، فسئل عن ذلك فقال: رأيت الذباب تحوم حوله ولا تسقط عليه فعلمت أنه حية أو سم.

### محاسن القائل والزجر

حدثنا الحسن بن وهب قال: حدثني صالح بن علي بن عطية قال: كان المنصور أزم خالد بن برمك ثلاثة آلاف ألف درهم ونذر دمه فيها وأجله ثلاثة أيام. فقال خالد ليحيى ابنه: إني قد طولبت بما ليس عندي وإنما يراد بذلك دمي فانصرف إلى حرمتك وأهلك فما كنت فاعلاً بعد موتي فافعله، ثم قال: يا بني ولا يمنعك ذلك من أن تلقى إخواننا فتعلمهم حالنا. قال يحيى: فأتيت إخوان والدي فمنهم من جبني بالرد ثم بعث إليّ بمال جليل، ومنهم من لم يأذن لي وبعث بمال في أثري لكيلا يُخبر به المنصور. قال: فدخلت على عمارة بن حمزة وهو مقابل بوجهه إلى الحائط فسلمت فرد رداً ضعيفاً. قال يحيى: فضاقت بي الأرض، ثم كلمته فيما كنت أتيته فيه. فقال: إن أمكننا شيء فسيأتيك.

فانصرفت عنه وصرت إلى أبي فأعلمته ذلك وقلت: أراك تتق من عمارة بما لا يوثق به. فوالله إني لفي ذلك الحديث إذ طلع علينا رسول عمارة بمائة ألف درهم ورسول صاحب المصلى بمائة ألف درهم ورسول مبارك التركي بمائتي ألف درهم. فجمعنا في يومين ألفي ألف درهم وسبع مائة ألف درهم وبقيت ثلاثمائة ألف درهم، فبعضد ذلك. قال يحيى: فوالله إني لما بالجرس مهموماً مغموماً إذ وثب إليّ زاجر فقال: فرخ الطير قف أحبرك! فطويته ولم ألتفت إليه، فلحقني وتعلق بي. فقلت: ويحك اذهب عني فإني مشغول عنك! فقال: أنت والله مهموم ووالله ليُفرجنّ همك وتمن باللواء غداً في هذا الموضع بين يديك. فأقبلت أعجب من قوله. فقال

لي: إن كان ذلك فلي عليك خمسة آلاف درهم! قلت: نعم. ولو قال خمسين ألف درهم لقلت نعم لبعده ذلك عني.

ثم مضيت فوالله ما انصرفت حتى ورد على المنصور الخبر بانتقاض أمر الموصل وانتشار الأكراد بها. فقال المنصور: ويحكم من لها! وكان المسيب بن زهير عند المنصور وكان صديقاً لخالد فقال: عندي والله من يكفيكه وأنا أعلم أنك ستلقاني بما أكره ولكني لا أدع على حال نصحك، فقال المنصور: قل فلست أرد عليك. قال: يا أمير المؤمنين ما ترميها بمثل خالد. فقال المنصور: ويحك وتراه يصلح لنا بعد ما أتيناها إليه؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين وأنا زعيمه بذلك والضامن عليه. فتبسم المنصور وقال: صدقت والله ما لها غيره، فليحضر غداً. فأحضر فصيح له عن الثلاث المائة الألف الدرهم الباقية عليه وعقد له. قال يحيى: فتمرّ والله بالزاجر واللواء بين يدي، فلما رأي قال: أنا هنا أنتظرك منذ غدوة! قال: فتبسمت إليه فقال: امض. فمضى معي ودفعت إليه الخمسة الآلاف الدرهم.

### مساوي الغال

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلية: حضرت مجلس المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين ألا أحدثك عن الفضل بن يحيى؟ قال: بلى. فقلت: دخلت دار الرشيد وإذا الفضل بن يحيى وإسماعيل بن صبيح وعبد الملك بن صالح في بعض تلك الأروقة يتحدثون، فلما بصر بي الفضل أوماً إلي وقال: يا إسحاق انتظرناك منذ الغداة لتساعد على ما نحن فيه من المذاكرة! فقلت: يا سيدي أنا السكيت إذا أجريت الجياد وفاز السابق والمصلّي. فقال: هيهات عندها مدحت نفسك ولما تكذّب.

فلما فرغ عبد الملك من حديثه قال الفضل: إن لقسّ حديثاً سمعته من الخليل بن أحمد فهل عند واحد منكم له ذكر؟ فسكت القوم. فقلت: يا سيدي ما نعرف له حديثاً إلا حديث خطبته بعكاظ. قال: ذاك شيء قد فهمته العامة واختبرته الخاصة. ثم أطرق ساعة. فقلنا: إن رأيت أن تحدثنا. فقال: حدثني الخليل بن أحمد أن قيصر ملك الروم بعث إلى قس بن ساعدة أسقف نجران وكان حكيماً طيباً بليغاً في منطقته، فلما دخل عليه ومثل بين يديه حمد الله وأثنى عليه، فأمره بالجلوس فجلس، فرحب به وأدنى مجلسه وقال: ما زلت مشتاقاً إليك معما أحببت من مناظرتك في الطب. فكان أول ما سأله عن الشراب لعجبه به، فقال: أي الأشربة أفضل عاقبة في البدن؟ قال: ما صفا في العين واشتد على اللسان وطابت رائحته في الأنف من شراب الكرم. قال: فما تقول في مطبوخه؟ قال: مرعى ولا كالسعدان. قال: فما تقول في نبيذ الزبيب؟ قال: ميت أحبي وفيه بعض المتعة وما يكاد يقوى شيء بعد الموت. قال: فما تقول في نبيذ العسل؟ قال: نعم شراب الشيخ للابردة والمعدة الفاسدة. قال: فما تقول في أنبذة التمر؟ قال: أوساخ يطيب مذاقها في اللهوات وتسوء عاقبتها في البدن وتولد الأرواح في البطن لرقبتها. قال: فمن أي شيء يكون الثمل الذي يذهب الغم ويطيب النفس؟ قال: زعموا أن العقل تصعده سورة الشراب إلى الدماغ الذي هو أصله بقوة الروح الذي جعل فيه، فإذا صعدت السورة إلى الدماغ الذي هو أصله فاحتوت عليه حتى تغشاه حجب العقل عن

منافعه فاحتجب البصر بغير عمى والسمع بغير صمم واللسان بغير خرس، والدليل على ذلك أن السكران لا يرى في نومه شيئاً ولا تصيبه جنابة فلا يزال العقل كذلك محتجباً حتى تفككه الطبيعة من إسهال السكر إما بقوة فيعجل وإما بضعف فيبطيء. قال: فمن أي شيء الخمار من بعد صحو السكران؟ قال: من إعياء الطبيعة عن مجاهدة السورة في افتكاك العقل وتخلّصه حتى يردّها النوم إلى هدوء وما أشبهه. قال: الصرف أفضل أم المزوج؟ قال: الصرف سلطان جائر والجائر مستفسد مذموم والمزوج سلطان عادل والعاقل مستصالح محمود. قال: فصف لي الأطعمة. قال: الأطعمة كثيرة مختلفة وجملة ما أمرك به الإمساك عن غاية الإكثار فإن ذلك من أفضل ما بلونه من الأدوية ورأس ما نأمر به من الحمية.

قال له: عمن حملت الحكمة؟ قال: عن عدة من الفلاسفة. قال: فما أفضل الحكمة؟ قال: معرفة المرء بقدره. قال: فما تقول في الحلم؟ قال: حلم الإنسان ماء وجهه. قال: فما تقول في المال وفضله؟ قال: أفضل المال ما أعطي منه الحق. قال: فما أفضل العطية؟ قال: أن يعطى قبل السؤال. قال: فأخبرني عما بلوت من الزمان وتصرفه ورأيت من أخلاق أهله. قال: بلونا الزمان فوجدناه صاحباً ولا يعتب من عاتبه، ووجدنا الإنسان صورة من صور الحيوان يتفاضلون بالعقول، ووجدنا الأحساب ليست بالآباء والأمهات ولكنها هي أخلاق محمودة، وفي ذلك يقول، أو قال أقول:

لقد حلبت الزمان أشطره ... ثم محضت الصريح من حلب  
فلم أر الفضل والمعال في ... قول الفتى إنني من العرب  
حتى نرى سامياً إلى خلق ... يذود محموده عن النسب  
ما ينفع المرء في فكاوته ... من عقل جدّ مضى وعقل أب  
ما المرء إلا ابن نفسه فيها ... يعرف عند التحصيل للثوب  
حتى إذ المرء غال مهجته ... ألفتته تربةً من التراب

ووجدنا أبلغ العظات النظر إلى محل الأموات، وأحمد البلاغة الصمت، ووجدنا لأهل الحزم حذاراً شديداً وبذلك نجو من المكروه، والكرم حسن الاصطبار، والعز سرعة الانتصار، والتجربة طول الاعتبار، قال: خبرني هل نظرت في النجوم؟ قال: ما نظرت فيها إلا فيما أردت به الهداية ولم أنظر فيما أردت به الكهانة، وقد قلت في النجوم:

علم النجوم على العقول وبال ... وطلاب شيء لا ينال ضلال  
ماذا طلابك علم شيء أغلقت ... من دونه الأفلاك ليس يُنال  
هيهات ما أحدٌ بغامض قدره ... يلدي كم الأرزاق والآجال  
إلا الذي فوق السماء مكانه ... فلوجه الإكرام والإجلال

قال: فهل نظرت في زجر الطير؟ قال: نحن معاشر العرب مولعون بزجر الطير. قال: فما أعجب ما رأيته منه؟ قال: شخصت أنا وصاحب لي من العرب إلى بعض الملوك فألفيناه يريد غزو قوم كانوا على دين النصرانية فخرج حتى إذا كان على فراسخ من مدينته أمر بضرب فساطيطه وأروقتة لتتوافي إليه جنوده

وضرب به فسطاط على شاطيء نهر وأمر بجاء فضرب لي ولصاحبي، فبينما نحن كذلك إذ أقبل طائران أسود وأبيض وأنا وصاحبي نرمقها حتى إذا كانا رأسه رفرفا وشرشرا ثم غابا ثم رجعا أيضاً حتى إذا كانا قريباً منه طويها ثم أقبلنا نحونا فوقها ثم رتعا. فقال صاحبي: ما رأيت كاليوم طائرين أعجب منهما فأيهما أنت مختار؟ فقلت: الأسود. قال: الأبيض أعجبهما إليّ، فما تأولت لهما؟ قلت: الليل والنهار يطويان هذا الرجل في سفره فيموت، وتأولت اختيارك الأبيض أنك تنصرف بيد بيضاء مخفقة من المال. فإذا هو قد غضب. فلما جن الليل بعث إلينا الملك لنسمر عنده فإذا صاحبي قد أحبره بالخبر، فسألني فأخبرته وصدقته. فغضب وقال: هذه حمية منك لأهل دينك. فقلت: أما أنا فقد صدقتك. فأمر بحبسي ومضى لوجهه، فلم يتجاوز إلا قليلاً حتى مات، فأوصى لي بعشرين ناقةً وقال: قاتل الله قساً! لقد محضني النصيحة. فانصرفت من سفري ذلك بعدة من الإبل وانصرف صاحبي مخففاً من المال.

قال الملك: وما رأيت أيضاً من الزجر أعجب؟ قلت: رأيت مرة عند الملك الهمام أبي قابوس وقد خرج عليه خارج من مضر يريد ملكه وقد حشد له فبعث إلى بعض عماله في توجيه أربعمئة فارس ووجهني مع الرسول وأمرنا بالشد على أيديهم في جمع الخيل والرجال، وكان الرسول شاعراً، فبينما نحن نسير إذ سحت لنا ظباء أعتزّ فيها تيس يقدمها، وكان أبو قابوس يواعد للقائه في يوم كذا وكذا، فنحن نقول إن كان الملك قد خرج في يوم كذا فهو اليوم في موضع كذا وقد أقبلنا ونحن نقود جيشاً عرمرماً، فأنشأ الرسول يقول: ألا ليت شعري ما تقول السوانح ... أغاد أبو قابوس أم هو رائح  
قال: فنظرت إلى التيس عند فراغه من هذا البيت قد دخل في مكنسه حتى توارى فيه، فدخلني من ذلك ما لم أقدر على أن أمسك نفسي حتى استرجعت.

فقال لي رفيقي: ما لك؟ قلت: إن صدق الزجر فصاحبك قد ثوى في التراب والتحف عليه أطباق الثرى. قال: كيف ذلك؟ قلت: وافق فراغك من البيت دخول التيس في مكنسه. فأعرض عني فلما أصبحت في اليوم الذي واعدنا للقائه لم يواف ولم يكن بأوشك من أن أتانا الخبر بهلاكه وعود ابنه، فأكرمه قيصر وأحسن جائزته.

قلنا: أيّد الله الوزير! لقد بلغت باستحقاق ولقد حزت قسبة الرهان في كل منقبة. فتبسم وقال: عز الشريف أدبه. وإذا رسول الرشيد قد وافاه فنهض نحوه وتصدع المجلس وانصرفنا. فلما مضى من الليل بعضه إذ أنا بطارق قد طرفني وبين يديه غلمان على أعناقهم البدر وإذا رسول الفضل وقد حمل إلي مائة ألف درهم وقال: الوزير يقرأ عليك السلام ويقول: ضجرت باستماع الحديث وأوجبت عليّ بذلك منّة وهذه صلة وتحة في جنب قدرك عندي فخذها ولا تعتد بها. فقلت: سبحان الله الذي خلق هذا الرجل وجبله على كرم بدّ به من مضى ومن غير! وإذا هو قد وجه إلى أصحابي الذين كانوا معي بمثل الذي وجه به إليّ، فغدوت إليه وأردت أن أشكره فقال: والله لئن ذهبت تكشف ما ستر الله لأجفونك! فكأما ألقمني بذلك حجراً، فاحتسني عنده فطعمت وشربت ورحت وقد حملني على عدة أفراس بسروج مذهبة ولجم مذهبة ووجه معي بعشرة تحوت ثياب وعشر بدر. قال فقال المأمون: ويحك يا إسحاق! ثواب حديثك

ضعف ما أمر لك به الفضل وقد أمرت لك بمائة ألف درهم. فقبضت ذلك وانصرف.

قال: وكان محمد بن حازم قال قصيدته التي يقول فيها:

فيا شامتاً مهلاً فكم من شماتة ... تكون لها العقبى لقاصمة الظهر

فاعتل محمد ولم يكن يرثه إلا أخوه وكان بسر من رأى، فوجهت إليه جاريتته تعلمه بشدة علته، فقدم أخوه ومحمد لمآبه فأدخل الجارية بيتاً في الدار ووطنها قبل وفاة أخيه. فلما مات حمل المال والأثاث والجارية إلى منزله بسر من رأى وأخذ في الشراب، فانصرف ليلةً ثملاً فأراد المبيت على سطح الدار فمنع من ذلك فامتنع، فلما صار في أعلى الدرجة سقط وانقص ظهره فجعلنا نتذكر شعر أخيه.

قيل: ووفدت عزة كثير على عبد الملك بن مروان، فلما دخلت سلّمت فردّ عليها السلام ورحّب بها وقال: ما أقدمك يا عزة؟ قالت: شدة الزمان وكثرة الألوان واحتباس القطر وقلة المطر. قال: هل تروين لكثير:

وقد زعمت أيّ تغيرت بعدها ... ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغير

قالت: لا أروي له هذا، ولكني أروي له قوله:

كأني أنادي صخرةً حين أعرضت ... من الصم لو تمشي بها العصم زلت

فقال: ما كنت لتصيري إلى حاجة أو تقي نفسك لي فأزوجك منه.

قالت: الأمر إليك يا أمير المؤمنين، ما كنت لأزهد في هذا الشرف الباقي لي ما دامت الدنيا أن يكون أمير المؤمنين وليي. فعظم بذلك قدرها عنده وأمر لها بمال وكتب إلى كثير وهو بالكوفة: أم اركب البريد وعجل فإني مزوجك عزة. فأتاه الكتاب وهو مضى من الشوق إليها فرحل فأقبل نحوها، فلما كان في بعض الطريق إذا هو بغراب على شجرة بانه وإذا هو ينتف ريشه ويطايره، وكان شديد الطيرة، فلما رآه تطير وهم بالانصراف ثم غلبه شوقه فمضى وهو مكروب لما رأى، حتى أتى ماءً لبني همد، فإذا هو برجل يسقي إبله فنزل عن راحلته واستظل بشجرة هناك فأبصر النهدي، فأتاه وسأله عن اسمه ونسبه فانسب، فرحب به، فأخبره عما رأى في طريقه، فقال: أما الغراب فغربة، وأنا البانة فبين، وأما تنف ريشه ففرقة. فاستطير لذلك، ومضى حتى دنا من دمشق فإذا بجنّازة فاستعبر وقال: أسأل الله خير ما هو كائن! فسأل عن الميت فإذا هي عزة، فخرّ مغشياً عليه، فعُرف وصب عليه الماء فكان مجهوده أن بلغ القبر، فلما دفنت انكب على القبر وهو يقول:

سراج الدجى ضمير الحشى منتهى المنى ... كشمس الضحى نوامة حين تصبح

إذا ما مشت بين البيوت تحزلت ... ومالت كما مال النريف المرنح

تعلّقتُ عزراً وهي رؤدٌ شباها ... علاقة حبٍ كاد بالقلب يرجح

أقول ونضوي واقفٌ عند رمسها ... عليك سلام الله والعين تسفح

فهلا فداك الموت من أنت دونه ... ومن هو أسوأ منك ذلاً وأقبح

على أم بكرٍ رحمةً وتحيّةً ... لها منك والنائي يودّ وينصح



منعمّة لو يدرج الذرُّ بينها ... وبين حواشي بردها كاد يجرح  
وما نظرت عيني إلى ذي بشاشةٍ ... من الناس إلا أنت في العين أملح  
ثم بكى حتى غشي عليه، فأفاق وهو يقول:  
ما أعيف النهدي لا در رده ... وأزجره للطير لا طار طاتره  
رأيت غراباً ساقطاً فوق بانهٍ ... ينتف أعلى ريشه ويطايره  
فقال غرابٌ اغترابٌ من النوى ... وبانهٍ بينٌ من حبيب تعاشره  
ثم لم يزل باكياً حتى أدركه الموت ولم ير ضاحكاً بعدها، وقيل فيه من الشعر:  
تنادى الطائران بين سلمي ... على غصنين من غربٍ وبان  
فكان البان أن بانت سلمي ... وفي الغرب اغتراب غير داني  
أحذه أبو الشيص فقال:

أشاقك والليل ملقي الجران ... غرابٌ ينوح على غصن بان  
أحصُ الجناح شديد الصياح ... يبكي بعينين ما تدمعان  
وفي نعبات الغراب اغترابٌ ... وفي البان بينٌ بعيد التداني  
ولآخر:

أقول يوم تلاقينا وقد سجت ... حمامتان على غصنين من بان  
الآن أعلم أن الغصن لي غصصٌ ... والبان بينٌ قريبٌ عاجلٌ داني  
فقتمت تحفضي أرضٌ وترفعني ... حتى وثبت وهذا السير إزكاني  
ولآخر:

أقول وقد صاح ابن دأية غدوةً ... بوشك النوى لا أخطأتك الشوابك  
أفي كل يومٍ رائعي منك روعةً ... بينونة الأحياب عرسك فارك  
فلا بضت في خضراء ما عشت بيضةً ... وضافت برحبها عليك المسالك

### محاسن الشعر في هذا الفن

لبعضهم:

وقالوا عقابٌ قلت عقبي لهم من النوى ... دنت بعد شحطٍ منهم وتروح  
وقالوا حمامٌ قلت حمٌ لقاؤها ... وعادت لنا ريح الوصال نفوح  
وقالوا دمٌ دامت مودة بيننا ... وطلحٌ فنيلت والمطيُّ طلوح  
وقالوا تغى هدهدٌ فوق أيكّةٍ ... فقلت هدىً تغدو بنا وتروح  
وحكي عن النعمان بن المنذر أنه خرج يتصيد ومعه عدي بن زيد فمرّ بآرام، وهي القبور، فقال عدي: أبيت  
اللعن، أتدري ما تقول هذه الآرام؟ قال: لا. قال: إنما تقول:  
أيها الركب المخبو ... ن على الأرض تمرون

فكما كنتم فكنا ... وكما نحن تكونون

قال: أعد. فأعاد، فرجع كثيراً وترك صيده. قال: ثم خرج معه خروجة أخرى فوقف على آرام بظهر الكوفة، فقال: آيت اللعن، أتدري ما تقول هذه الآرام؟ قال: لا. قال: فإنها تقول:

رُبَّ ركبٍ قد أناخوا عندنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال  
ثم أضحوا عصف الدهر بهم ... وكذاك الدهر حالاً بعد حال  
فانصرف وترك صيده.

عبد الله بن مسلم قال: حدثت عن معاوية أنه سأل عبيد بن شريفة الجرهمي عن أعجب شيء رآه فقال: نزلت بحمي من قضاة في الجاهلية فأخرجوا جنازة لرجل من بني عذرة فخرجت معهم حتى إذا واروه تنحيت جانباً وعيناي تذرفان ثم تمتلت بأبيات من شعر كنت رؤيتها قبل ذلك الزمان:

استقدر الله خيراً وارضين به ... فبينما العسر إذ دارت مياسير  
وبينما المرء في الأحياء مغتبطاً ... إذ صار في الرمس تعفوه الأعاصير  
يبكي الغريب عليه ليس يعرفه ... وذو قرابته في الحى مسرور  
حتى كأن لم يكن إلا تذكره ... والدهر أيما حال دهاير

قال: وإلى جانبي رجل يسمع ما أقول، فقال: أتدري من قاتل هذه الأبيات؟ قلت: لا والله. قال: والذي يُحلف به أنه لصاحب هذا القبر وهذا ذو قرابته أسرّ الناس بموته وأنت الغريب تبكي عليه! فعجبت مما ذكره في شعره والذي صار إليه من قوله كأنه نظر إلى نفسه بعد موته.

قال: ولما بعث أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، خالد بن الوليد إلى أهل الردة انتهى إلى حبي من تغلب فأغار عليهم وقتلهم، وكان رجل منهم جالساً على شراب له وهو يغني بهذه الأبيات:  
ألا عللاني قبل جيش أبي بكر ... لعل منايانا قريباً وما ندري

فوقف عليه رجل من أصحاب خالد فضرب عنقه وإذا رأسه في الجفنة التي كان يشرب منها، ولذلك قيل:  
إن البلاء موكل بالمنطق

وحدثنا الحسين بن الضحاک قال: شهدت الواثق وكان قاعداً في مجلس كان أول مجلس قعده فكان أول ما  
تغنى من الغناء في ذلك المجلس صوت إبراهيم بن المهدي فغنت به شارية جارية إبراهيم:

ما درى الحاملون يوم استقلوا ... نعشةً للشواء أم للقاء

فلتقل فيك باقياتٌ كما شئ ... ن صباحاً وعند كل مساء

قال: فبكى والله وبكىنا حتى شغلنا البكاء عن جميع ما كنا فيه، ثم اندفع بعض المغنين فغنى:

ودع هريرة إن الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

قال: فازداد والله في البكاء، ثم قال: أسمعت كاليوم قط تعزية بأب ونعي نفس؟ ثم ارفض ذلك المجلس.

وحدثنا ابن المكي عن أبيه قال: قال محمد الأمين في آخر أيامه: يا مكي والله أحب أن أقعد يوماً قبل أن يحال بيننا وبين ما نريد. فقلت: يا أمير المؤمنين افعَل ذلك، فقال: اغد عليّ في غد. قال: فانصرفت وغدا عليّ

رسوله في السحر فجنّت إليه وهو في صحن داره وعليه جبة وشي مذهبة تأتلق وعمامة مثلها ما رأيت لأحد  
قط مثل ذلك وتحت كرسى من ذهب مرصع بالجواهر.

فدعا بكرسى فجلست عليه عن يساره. ثم قال لخادم على رأسه: ادع لي فلانة وفلانة، حتى عدّ أربع جوار  
ما منهن جارية إلا وأنا أعرف حذقها وجودة غنائها. فخرجن وجلسن عن يمينه. ثم قال: يا غلام عليّ  
برطل، فأتي برطل وقده بلور مكمل بالجواهر. فالتفت إلى التي تليه فقال لها: غني، فضربت ضرباً حسناً  
وتغنت بشعر الوليد بن عقبة بن أبي معيط:

هم قتلوه كي يكونوا مكانه ... كما قتلت كسرى لبيل مرازيه

بني هاشم ردوا سلاح أحيكم ... ولا تنهبوه لا تحلّ مناهيه

قال: فرمى بالقدح في وسط الدار ثم قال: لعنك الله! ما هذا؟ قالت: لا والله يا سيدي ما جاء على لساني  
غير هذا. ثم التفت إلى الغلام فقال: اسقني. فأثاه بقدح مثل الأول. وقال للأخرى: غني. فغنت ما قيل في  
كليب واتل:

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً ... وأيسر ذنباً منك ضُرح بالدم

فرمى بالقدح في صحن الدار وكسره ثم قال: يا غلام عليّ برطل. وقال للثالثة: غني، فغنت:

أقتل عمراً لا أبا لك شاردأ ... وترعم بعد القتل أنك هارب

فلو كنت بالأقطار ما فتّ ضربتي ... وكيف نفوت الحين والدم طالب

قال: فرماها بالقدح وقال: يا غلام عليّ برطل. وقال للرابعة: غني. فغنت:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العوائل

قال: فالتفت إلي وقال: قد سمعت هذا أمر يريده الله جل وعز. قال: فما مضت أيام حتى رأيت رأسه بين  
شرفتين من شرف قصره.

### محاسن ترك التطير

روي عن عكرمة قال: كنا جلوساً عند ابن العباس وابن عمر فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خيراً!  
فقال ابن العباس: لا خير ولا شر، وأنشد في مثله:

ما فرق الأحباب بع ... د الله إلا الإبل

والناس يلحون غرا ... ب البين لما جهلوا

وما على ظهر غرا ... ب البين تطوى الرحل

ولا إذا صاح غرا ... بّ في الديار احتملوا

وما غراب البين ! ... لا ناقةً أو جمل

ولآخر:

أترحل عنم أنت صبّ بمثله ... وتلحي غراب البين إنك ذو ظلم

أقم فغراب الين غير مفرّق ... ولا نازل إلا على أفضل الحكم  
ولآخر:

غلط الذين رأيتهم بجهالة ... يلحون كلهم غراباً ينعق

ما الذنب إلا للجمال فإنما ... مما يشتت جمعهم ويفرق

إن الغراب يمينه يدي النوى ... وتشتت الشمل الجميع الأيتق

### محاسن المواعظ

قال: وحكي عن الأوزاعي قال: بعث إلي المنصور فقال: لم تبطء عنا؟ قلت: وما تريد منا؟ قال: لآخذ  
عنكم وأقتبس منكم. فقلت له: مهلاً فإن عروة بن رويم أخبرني أن نبي الله، صلى الله عليه وسلم، قال: من  
جاءته موعظة من ربه فقبلها شكر الله له ذلك، ومن جاءته فلم يقبلها كانت حجة عليه يوم القيامة، مهلاً  
فإن مثلك لا ينبغي له أن ينام. إنما جُعِلت الأنبياء رعاة لعلمهم بالرعية يجبرون الكسير ويسمنون الهزيلة  
ويردون الضالة فكيف من يسفك دماء المسلمين ويأخذ أموالهم! أعيذك بالله أن تقول إن قرابتك من رسول  
الله، صلى الله عليه وسلم، تدعوك إلى الجنة، إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كانت في يده جريدة  
يستاك بها فضرب بها قرن أعرابي فنزل عليه جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد إن الله تبارك وتعالى لم  
يبعثك جباراً مؤسماً مقنطاً تكسر قرون أمتك، ألق الجريدة عن يدك، فدعا الأعرابي إلى القصاص من نفسه  
فكيف بمن يسفك دماء المسلمين؟ إن الله عز وجل أوحى إلى من هو خير منك إلى داود، عليه السلام: يا  
داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق. وأوحى إليه: يا داود إذا أتك الخصمان فلا  
يكونن لأحدهما على صاحبه الفضل فأحوك من ديوان نبوتي.

اعلم أن ثوباً من ثياب أهل النار لو علق بين السماء والأرض لامت أهل الأرض من نتن ريجه، فكيف بمن  
تقمّصه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبال الدنيا لذابت كما يذوب الرصاص حتى تنتهي  
إلى الأرض السابعة، فكيف بمن تقلدها؟ قال: ودخل عمرو بن عبيد على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين إن  
الله عز وجل يقفك ويسألك عن مثقال ذرة من الخير والشر، وإن الأمة خصماً يوم القيامة، وإن الله جل  
وعز لا يرضى منك إلا ما ترضاه لنفسك، ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك وإن الله جل  
وعز لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية، يا أمير المؤمنين، إن وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور، والله  
ما يُحكّم وراء بابك بكتاب ولا بسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، قال: فبكى المنصور. فقال سليمان بن  
مجالد وهو واقف على رأس المنصور: يا عمرو قد شققت على أمير المؤمنين! فقال عمرو: يا أمير المؤمنين من  
هذا؟ قال: أحوك سليمان بن مجالد. قال عمرو: ويلك يا سليمان! إن أمير المؤمنين يموت وإن كل ما تراه  
ينفذ وإنك جيفة غداً بالفناء لا ينفعك إلا عمل صالح قدّمته، ولقرب هذا الجدار أنفع لأمر المؤمنين من  
قربك إذ كنت تطوي عنه النصيحة وتنتهي من ينصحه، يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلماً إلى شهورهم.  
قال المنصور: فأصنع ماذا؟ ادع لي أصحابك أولهم! قال: ادعهم أنت بعمل صالح تحدّثه ومر بهذا الخناق  
فليرفع عن أعناق الناس واستعمل في اليوم الواحد عمالاً كلما رابك منهم ريب أو أنكرت على رجل عزلته

ووليت غيره، فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليقربن به إليك من لا نية له فيه.  
وحدث محمد بن عبد الله قال: قال المنصور لجعفر بن حنظلة البهراني: عطني. قال فقلت: يا أمير المؤمنين أدركت عمر بن عبد العزيز ستين لم يتخذ مالا ولم ينشئ عينا ولم يستخرج أرضاً ولم يضع لبنة على لبنة ولا أحصي كم من ولده تحمل الحملات وحمل على الخيل، وولي هشام بن عبد الملك ثمان عشرة سنة ما منها سنة إلا وهو ينشئ فيها عيوناً ويتخذ فيها أموالاً ويقطع لولده القطائع، ولا أعرف اليوم من ولده رجلاً يشيع. فقال: والله لقد وعظت وأحسنت. قال جعفر: ففرحت أن نجعت عظتي في أمير المؤمنين. قال: فأطرق ساعة ثم قال: يا غلام ادع لي سليمان بن مجالد. فدعاه فقال: يا سليمان علق أصحاب قيليا بأرجلهم حتى يؤدوا ما عليهم. وكان قد جعلها لصالح ابنه، فعلمت أن عظتي لم تنفع قليلاً ولا كثيراً.

وحدث محمد بن عبد الله الخراساني قال: حدثني المفضل الضبي قال: سمعت المسيب بن زهير يقول: بينا المنصور يطوف بالبيت وأنا قدامه إذا رجل مستلم الركن فقلت له: تنح فقد جاء أمير المؤمنين، كرتين أو ثلاثاً، فلم يبرح حتى رمقه المنصور وسمعه وهو يقول: اللهم إني أشكو إليك ظهور الجور والبغي والفساد في الأرض وما يحول بين المرء وقلبه من الطمع. فلما سمعه قال لي: يا مسيب عليّ بالرجل. فقلت له: أما إذ قد ابتليت بك فأجب. قال: حتى أتم طوافي. فلما أتم طوافه قلت له: أجب الآن فقد فرغت من طوافك، قال: حتى أصلي ركعتين. قلت: نعم فصل. فصلى ركعتين ثم أدخلته على المنصور، فلما رآه قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته! قال: وعليك السلام، ما هذا الكلام الذي سمعتك تلفظ به آنفاً عند الركن؟ قال: أو سمعته يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: هو ذاك، أأنت بان عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أأنت الخليفة ما بقيت غاية إلا وقد بلغت، أتطمع أن تنال ما عند الله جل وعز بما أنت فيه؟ قال: وفيما أنا؟ قال: أخبرك بما لا تقدر أن تدفعه. قال: وما هو؟ قال: عمدت إلى الطين فأوقدت عليه فصيرت منه الآجر قم عمدت إلى الرمل وأوقدت عليه فصيرت منه الجص وصيرت بعضه فوق بعض فبنيت لك منها الحصون المشيدة والقصور العالية ثم غلقت عليها أبواب الحديد فاحتجبت عن الناس أجمعين ثم أقعدت على الأبواب أقواماً عبدوك من دون الله.

فلما قال له ذلك استوى جالساً ثم قال: أنا! قال: نعم أنت، أما سمعت الله جل ذكره يقول: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ما صلوا لهم ولا صلوا ولكنهم أمروهم فأطاعوهم في كل ما أرادوا ولم يخالفوهم، فكانت تلك ربوبتهم؟ ثم اتخذت بطانة بسيرة وقلت لا يدخل عليّ فلان وفلان، فرفع أولئك إليك من أمور المسلمين ما هان عليهم وخف عليك، فإذا جاء المظلوم إلى الباب لم يصل إليك فصار إلى بعض من يصل إليك فقال ارفع قصتي هذه إلى أمير المؤمنين، قال: نعم، فدفعها إليه فإذا هو يتظلم من بعض من يصل إليك، فأرسل إليه الظالم الذي ظلم صاحب القصة: والله لئن رفعت قصة فلان إلى أمير المؤمنين لأرفعن قصة فلان الذي ظلمته في كذا وكذا، فأمسك القصة ولم يرفعها، فعند ذلك اقتطعت حقوق الناس دونك وأنت محصور في قصرك تظن أنك في شيء أو على شيء والناس وراء بابك يقتلون ويؤكلون.  
والله لقد دُفعت إلى جزيرة من جزائر البحر وإذا ملك تلك البلاد مشرك وصنمه في كفه وتسمى البلاد

الصين فرأيت ذات يوم وهو يبكي في مجلسه، فقام إليه وجوه مملكته فقالوا: ما يبكيك أدام الله ملكك وأعزك أيها الملك، أليس قد مكن الله لك، أليس قد مهد الله لك؟ قال: أبكي الصمم قد اعتراني أخاف أن لا أسمع صوت مظلوم وصارخ بالباب، ألا وقد آليت عليكم أن لا يركب منكم الفيل ولا يلبس ثوباً أحمر إلا مظلوم حتى أعرفه. قال: فلقد والله رأيت يركب بالغداة والعشي يتصفح الوجوه هل يرى مظلوماً فينصفه، فهذا لا يعرف الله جل وعز ولا يريد بذلك رفعة عند الله جل وعز ولا زلفى لديه ولا رجاء ثواب ولا مخافة عقاب ولكن شفقةً على ملكه وخوفاً من أن ينتشر عليه أمره فيخاف أن يذهب ملكه، وهو مشرك يفعل هذا ويتفقد من نفسه ورعيته، وأنت ابن عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكنت أولى بهذا الفعل من ذلك المشرك! قال: صدقت قد عرفت الذي قلت وفهمت ما وصفت والأمر على ما ذكرت، ولكن كيف أصنع وقد بليت بأمر الأمة ودعوت الفقهاء فلاناً وفلاناً على أن أستعين بهم على ما أنا فيه فهربوا مني؟ قال: إنهم لم يهربوا منك ولكن لم يعلموا أنك تريد لهم للعمل بالحق وكان العمل معك ومعونتك أوجب عليهم من الصلاة والصيام والحج والنوافل ولكنهم هربوا خوفاً على أبدانهم من عذاب الله وذلك أنهم تخوفوا أن تحملهم على مثل رأيك. قال المنصور: فهذا عمي عيسى بن علي الضامن عليّ أنك إن تأتيني بهم أطلقت أيديهم في إنصاف الناس ولا أخالف أمرهم. فقال الرجل: أكذا يا عيسى أنت الضامن على ما قال الخليفة؟ قال: نعم. قال: الله، حتى قالها ثلاثاً. قال: وأقيمت الصلاة فافترقنا، فلما صلينا طلب الرجل فلم يوجد فكانوا يرون أنه الخضر، عليه السلام، أو ملك أرسل إليه.

وحكي عن الحجاج قال: حججت فنزلت ضرية فإذا أعرابي قد كور عمامته على رأسه وتنكب قوسه وصعد النبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنما الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر فخذوا من ممركم لمقركم ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، أما بعد فإنه لم يستقبل أحد يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله، فاستصلحوا لأنفسكم ما تقدمون عليه بما تظنون عنه وراقبوا من ترجعون إليه، فإنه لا قوي أقوى من خالق ولا ضعيف أضعف من مخلوق ولا مهرب من الله إلا إليه، وكيف يهرب من يتقلب في يدي طالبه، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

وقال بعض الأعراب: إن الموت ليقحم على الشيب تقحّم الشيب على الشباب، ومن عرف الدنيا لم يفرح فيها برحاء ولم يحزن فيها على بلوى، ولا طالب أغشم من الموت، ومن عطف عليه الليل والنهار أردياه، ومن وكل به الموت أفناه.

وقال أعرابي: كيف تفرح بعمر تنقصه الساعات وسلامة بدنٍ معروضٍ للآفات؟ ولقد عجبت من المؤمن يفر من الموت وهو سبيله إلى الثواب، ولا أرى أحداً إلا سيدركه الموت وهو منه آبق.

وقال عتيق بن عبد الله بن عامر بن الربير: كنت عند سليمان بن عبد الملك فدخل عليه عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين بالباب أعرابي له حزم ودين ولسان. فقال: يؤذن له. فلما دخل قال له سليمان:

تكلم. قال: يا أمير المؤمنين إني مكلمك بكلام فاحتمله إن كرهته فإن وراءه ما تحب. قال: يا أعرابي إنا

لنحتمل عمّن لا ينصح وأنت الناصح جيئاً والمؤمن غيباً. فقال: أما إذ أمنت بادره غضبك فإني سأطلق من لساني ما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله جل ذكره، وحق إمامتك يا أمير المؤمنين إنه قد تكفك قوم قد أسأؤوا الاختيار لأنفسهم فابتاعوا دنياك بدنيهم ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، حربٌ للآخرة سلم للنديا، فلا تأمنهم على ما ائتمنتك الله جل وعز فإنهم لا يألون للأمانة تضييعاً وللأمة خسفاً وعسفاً، وأنت مسؤول محاسب على ما اجترحت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غيباً بائع آخرته بدنيا غيره! فقال سليمان: يا أعرابي إن لسانك لأقطع من سيفك! قال: أجل يا أمير المؤمنين هو لك لا عليك. فقال له: هل لك حاجة في ذات نفسك؟ قال: لا حاجة لي في شيء خاص دون عام.

وعن أبي بكر الهذلي قال: بعث عمر بن هبيرة إلى الحسن البصري وابن سيرين والشعبي فقدموا عليه وهو بواسط، وكان رجلاً يحب حسن السيرة ويسمع من الفقهاء، فلما دخلوا عليه ألطفهم وأمر لهم بنزل وحسن ضيافة، فأقاموا على بابه شهراً، فغدا عليهم حسن بن هبيرة ذات يوم فقال: إن الأمير داخل عليكم، فجاء يوكأ على عكاز له حتى دخل فسلم ثم قال: إن يزيد بن عبد الملك عبد من عبيد الله أخذ عهودهم وأعطاهم عهده كي يسمعوا له ويطيعوا، وإنه يأتيني منه كتب أعرف في تنفيذها الهلكة فإن أطعته عصيت الله، فماذا تأمرون؟ فقال الحسن: يا ابن سيرين أجب الأمير. فسكت. فقال للشعبي: أجب الأمير. فتكلم بكلام هيبية، فقال: يا أبا سعيد ما تقول؟ فقال: أما إذ سألتني فإنه يحق عليّ أن أجيئك: إن الله جل وعز ماتعك من يزيد ولن يمنعك يزيد من الله، وإنه يوشك أن ينزل بك ملك من السماء فيستنزلك من سريرك وسعة قصورك إلى باحة دارك ثم يخرجك من باحة دارك إلى ضيق قبرك ثم لا يوسع عليك إلا عملك. يا ابن هبيرة إني أنمأك عن الله جل وعز، فإنما جعل الله جل وعز السلطان ناصراً لعباده ودينه فلا تركبوا عباد الله سلطان الله فتدلوهم فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. يا ابن هبيرة لا تأمن أن ينظر الله جل وعز إليك عند أقبح ما تعمل في طاعته نظرة مقت فيغلق عنك باب الرحمة. يا ابن هبيرة إني قد أدركت أناساً من صدور هذه الأمة كانوا فيما أحل الله لهم أزهدهم فيما حرم الله عليكم، وكانوا لحسناتهم أن لا تقبل أخوف منكم لسيئاتكم أن لا تغفر، وكانوا لثواب الآخرة أبصر منكم لمتاع الدنيا بأعينكم، وكانوا على الدنيا وهي عليهم مقبلة أشد إداراً من إقبالكم عليها وهي عنكم مدبرة. يا عمر إني أخوفك مقاماً خوفك الله جل وعز من نفسه فقال: ذلك أن خاف مقامي وخاف وعيدي. يا عمر إن تكن مع الله على يزيد يكفك الله بائقته، وإن تكن مع يزيد الله على الله يكلك الله إليه. قال: فبكى ابن هبيرة وقام في عبرته وانصرف وأرسل إليهم من الغد بجوائزهم وأعطى الحسن أربعة آلاف درهم وابن سيرين والشعبي ألفين ألفين. فخرج الشعبي إلى المسجد وقال: من قدر منكم أن يؤثر الله جل وعز على خلقه فليفعل، فإن ابن هبيرة أرسل إليّ وإلى الحسن وابن سيرين فسألنا عن أمر. والله ما علم الحسن شيئاً جهله ولا علمت شيئاً جهله ابن سيرين ولكننا أردنا وجه ابن هبيرة فأقصانا الله جل وعز وقصّر بنا، وأراد الحسن وجه الله فحياه تبارك اسمه وزاده.

وعن المدائني عن علي بن حرب قال: قال الشعبي: جمعنا عمر بن هبيرة بواسط وفيما الحسن البصري فقال:

أنا وليّ هذه الرعية وربما كان مني الشيء الذي لا أرضاه وأمر ترد عليّ من أمير المؤمنين أكره إمضاءها وإنفاذها. فقال الشعبي: لا عليك أيها الأمير، إنما الوالي والد يخطيء ويصيب، وما يرد عليك من رأي أمير المؤمنين فإن استطعت أن تردّه فاردده وإلا فلا ضير عليك. فقال: ما تقول يا أبا سعيد؟ فقال الحسن: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من استرعاه الله جل وعز رعية فلم يحط من ورائها بالنصيحة حرّم الله عليه الجنة، وأما رأي أمير المؤمنين فإذا ورد عليك فاعرضه على كتاب الله وإن وافقه فأمضه وإن خالفه فاردده، فإن الله جل وعز يمنعك من يزيد ولن يمنعك يزيد من الله. ثم أقبل الحسن على الشعبي فقال: ويلك يا شعبي! يقول الناس إن الشعبي فقيه أهل الكوفة فدخل على جبار من الجبابرة فيزين له المعصية! فقال: والله يا أبا سعيد لقد قلت وأنا أعلم ما فيه! قال: ذلك أو كد للحجة عليك وأبعد لك من العذر. قيل: ووجد في كتب بزرجهم صحيفة فيها: إن حاجة الله جل وعز إلى عباده أن يعرفوه، فمن عرفه لم يعصه طرفة عين. كيف البقاء بعد الفناء؟ كيف يأسى المرء على ما فاته والموت يطلبه؟ فقال كسرى: لم يكن من حق عليه أن يُقتل وأنا نادم على ذلك.

قيل: وحضرت الوفاة رجلاً من حكماء فارس فقبل له: كيف حالك؟ فقال: كيف يكون حال من يريد سفراً بعيداً بغير زاد ويقدم على ملك عادل بغير حجة ويسكن قبراً موحشاً بغير أنيس؟!

#### مساوي المواعظ

قال: لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز جزع عليه عمر جزعاً شديداً، فقال ذات يوم لمن حضره: هل من منشد شعراً أعزى به أو واعظ يخفف عني فأتعزى وأتسلى؟ فقال رجل من أهل الشام: يا أمير المؤمنين كلّ خليل مفارق خليله بأن يموت أو بأن يذهب إلى مكان. فتبسّم عمر، رحمه الله، ثم قال: ويحك! مصيبي فيك زادتي مصيبة. قيل: وأصيب الحجاج بمصيبة وعنده رسول عبد الملك بن مروان فقال: ليت أني وجدت إنساناً يخفف عني مصيبي! فقال رجل ممن حضر: أقول؟ قال: قل. فقال: كل إنسان يفارق صاحبه يموت أو يصلب أو يقع من فوق البيت أو يقع البيت عليه أو يسقط في بئر أو يغشى عليه أو يكون شيء لا يعرفه. فضحك الحجاج وقال: مصيبي في أمير المؤمنين أعظم حيث وجه بمثلك رسولاً!

#### محاسن ما قيل في المراثي

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي: أحسن مناطق الشعر المراثي والبكاء على الشيب، وكان بنو مروان لا يقبلون الشاعر إلا أن يكون راوية للمراثي، ويقولون: إن فيها ذكر معالي الأمور. وقيل لأبي عبيدة: ما أجود الشعر؟ فقال: النمط الأوسط، يعني المراثي.

قال: وسألت أعرابياً: ما أجود الشعر عندكم؟ قال: ما رثينا به آباءنا وأولادنا، وذلك أنا نقولها وأكبادنا تحترق.

قيل: وقال المأمون لبعض جلسائه: ما أحسن ما قيل في المراثي؟ فقال قوله:



فتى لم تكذب موته نادباته ... بما قلن فيه لا ولا المادح المطري  
فتى لم يزل مذ شدد عقد إزاره ... مشيد المعالي أو مقيماً على ثغر  
قال الأصمعي: قدم علينا أعرابي فأقام عندنا أياماً ثم رجع إلى البادية فسأل عن إخوانه وأترابه فأخبر أن  
الدهر أبادهم وأفناهم فبكى وأنشأ يقول:

ألا يا موت لم منك بدأ ... أتيت فما تحيد ولا تحابي  
كأنك قد هجمت على مشيبي ... كما هجم المشيب على شبابي  
قال أبو العيناء: ابن أبي طاهر أشعر الناس في بيته حيث يقول:  
اذهبا بي إن لم يكن لكما عق ... ر إلى ترب قبره فاعقراني  
وانصحا من دمي عليه فقد كا ... ن دمي من نداه لو تعلمان  
وقال في مثله:

إذا ما المنايا أخطأتك وصادفت ... حميمك فاعلم أنما سعود  
وإن امرأً ينجو من النار بعدما ... ترود من أعمالها لسعيد  
عبد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمداني في جملة كاتبة أحمد بن عبد العزيز:  
حسنت لفقذك كثرة الأحران ... بل هان بعدك نائب الحدثنان  
ما كان حقك أن تصير إلى البلى ... وأعيش لولا قسوة الإنسان  
ولآخر:

إذا ما الدهر جرّ على أناسٍ ... كلاكه أناخ بآخرينا  
فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا  
ولعبدة بن الطبيب في قيس بن عاصم:  
عليك سلام الله قيس بن عاصمٍ ... ورحمته ما شاء أن يترحمها  
سلام امريء وليته منك نعمة ... إذا زار عن شحط بلادك سلماً  
فما كان قيسٌ هللكه هلك واحدٍ ... ولكنه بنيان قوم قدما  
البيسامي يرثي عبيد الله بن سليمان بن وهب:  
قد انقضى العيش ومات الكمال ... وقال صرف الدهر أين الرجال  
هذا أبو القاسم في نعشه ... قوموا انظروا كيف تزول الجبال  
وله فيه:

لست مستسقياً لهبرك غيثاً ... كيف يظما وقد تضمن بحرا  
أنت أولى بأن تعزى من النا ... س فقد مات بعلك الناس طراً  
ولأبي الحسين بن أبي البغل:  
بعدت ديارك غير أني موجهٌ ... واله مني في الحشا متداني

فاذهب فقد عمرت بشخصك حفرةً ... فضلت على متشامخ البنيان  
ولئن صبرت فما صبرت تسلياً ... لكن ذلك غاية الوهان

### مساوي ما قيل في المراثي

القاسم بن عبيد الله عند موته:

لا تأمنن الدهر إني أمنتته ... فلم يبق لي حالاً ولم يرع لي حقاً  
قتلت صنائيد الرجال فلم أدع ... عدواً ولم أترك على ظهرها خلقاً  
وأفنيت دار الملك من كل بارع ... فشتتهم غرباً وشدتهم شرقاً

فلما بلغت النجم عزاً ورفعةً ... وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقاً  
رمانى الردى سهماً فأحمد جمرتي ... فهذا أنا ذا في حفرتي ميتاً ألقى  
ولم يغن عني ما جمعت ولم أجد ... لدى قابض الأرواح في فعله رفقا  
ولبعضهم في القاسم بن عبيد الله:

خرجت من الدنيا ذميماً إلى القبر ... فلا أحد يأسى ولا عبرة تجري  
وترت رسول الله في أهل بيته ... فكيف رأيت الله طالب بالوتر  
الجاحظ قال: مررت بقبرين مكتوب علي أحدهما: أنا ابن سافك الدماء، وعلى الآخر: أنا ابن ساجن الريح،  
فسألت عنهما فقيل: كان أحدهما حجماً والآخر حداداً.

قال الكسروي: مررت بناووس في الري فإذا عليه مكتوب:  
وما نارٌ بمحرقة جواداً ... وإن كان كان الجواد من الجوس  
ورأيت على ناووس ذكر أنه ناووس مهيار بن مهديروز:  
أيا ميتاً قد كان في أهل دينه ... مكان سنان الرمح لما تقدما  
لقد كنت أرجو الدهر أن يسعف النوى ... وأرجو المنايا أن توافيك مسلماً  
فإن بخست آمالنا فيك ضلّةً ... سعادة جدٍ ما أجل وأعظماً

### محاسن ما قيل في الشيب

قال: دخل منصور النميري على الرشيد فأنشده:

ما كنت أوفي شبابي كنه عزته ... حتى مضى فإذا الدنيا له تبع  
فبكى الرشيد وقال: يا نميري لا خير في دنيا لا يخطر فيها بحلاوة الشباب ويستمتع بأيامه، وأنشد:  
ولو ان الشيب رزء حل بي ... وقت ما استحققت شيباً لم أبل  
بل أتاني والصبا يرمقني ... مثل ما يأتي الكبير المكتهل  
وأنشد:

حسرت عني القناع ظلوم ... وتولت ودمعها مسجوم  
أنكرت ما رأيت برأسي فقالت ... أمشيبي أم لؤلؤ منظوم  
قلت شيباً وليس عيباً، فأنت ... أأنه يستثيرها المهموم  
واكتست لون مرطها ثم قالت ... هكذا من توسدته المهموم  
إن أمراً جنى عليك مشيب ال ... رأس في جمعه لأمر عظيم  
شد ما أنكرت تصرف دهرٍ ... لم يداوم وأي شيء يدوم  
لابن المعتز:

لما رأيت شيباً يلوح بعارضي ... صدت صدود مغاضبٍ متحمل  
نظرت إلي بعين من لم يعدل ... لما تمكن طرفها من مقتلي  
ما زلت أطلب وصلها بتذلل ... والشيب يغمزها بأن لا تفعلني  
ولابن المعتز أيضاً في الشيب:

قالت وقد راعها مشيبي ... كنت ابن عمٍ فصرت عما  
واستهزأت بي فقلت أيضاً ... قد كنت بنتاً فصرت أما  
كفّي ولا تكثري ملامي ... ولا تزيد العليل سقما  
من شاب أبصر الغواني ... بعين من قد عمي وصمّاً  
لو قيل لي اختر عمي وشيباً ... أيهما شئت قلت أعمى  
ولآخر:

رأت طالعاً للشيب أغفلت أمره ... ولم تتعهده أكف الخواضب  
فقالت: أشيباً ما أرى؟ قلت: شامة ... فقالت: لقد شامتك بين الحباب  
ولآخر:

شكوت من الشيب حتى ضجرت ... فدبّ إلى عارضي واشتعل  
وسود وجهي فسودته ... فعلت به مثل ما قد فعل  
ولآخر:

إذا راقهنّ خدين الشباب ... عطفن كما تعطف الوالده  
وإن هنّ عاينّ ذا شيبية ... فيا لك من مقل زاهده  
فويح الشباب وويح المشيب ... عدوان دارهما واحده  
لابن المعتز:

صرحت بالجفاء أم حباب ... حين باشرتها ببعض الخطاب  
قلت: لم ذا وقد رأيتك حيناً ... لا تملين عشرتي وعتابي؟  
قالت الشيب قد أذاك فأقصر ... عن عتابي فلست من أصحابي  
فبعللت بالخصاب لأحظى ... عندها ساعة بلون الخصاب

فرأته فأعرضت ثم قالت: ... ستر سوء على خراب يباب  
ولا بن المعتز أيضاً:

رفعت طرفها إليّ عبوساً ... واستثارت من المآقي الرسيما

ورأني أسرج العاج بالعا ... ج فظلت تستحسن الأبنوسا  
ليس شبيبي إذا تأملت شيباً ... إنما الشيب ما أشاب النفوسا  
وله:

ضحكت إذ رأته مشيبي قد لا ... ح وقالت قد فُضِّض الأبنوس

قلت: إن الشباب في لباق ... بعد، قالت: هذا شبابٌ ليس

قال: استقبل يونس النحوي عدواً له وهو يتهدى في مشيه ويقارب خطوه. فقال: يا يونس بلغت ما أرى!  
فقال: هذا الذي كنت آمله فقد بلغت فلا بلغت! فاستحسن ابن الزيات قوله فجعله شعراً وقال:

وعائب عابني بشيب ... لم يعد لما ألم وقته

فقلت إذ عابني بشيب: ... يا عائب الشيب لا بلغت

ولغيره:

إن المسيب رداء الحلم والأدب ... كما الشباب رداء الجهل واللعب

تعجبت إذ رأته شبيبي فقلت لها ... لا تعجبي من يطل عمرٌ به يشب

فيينا لكنّ وإن شيبٌ بدا أربّ ... وليس فيكنّ بعد الشيب من أرب

شيب الرجال لهم عزّ ومكرمة ... وشيكن لكن الذل فاكسبي

ولآخر:

الشيب في رأس الفتى حلمٌ به ... والشيب في رأس الفتاة قبيح

والخال في خدّ الفتى عيبٌ به ... والخال في خدّ الفتاة مليح

## محاسن الورع

محمد بن الحسين عن أبي همام وكان يخدم ضيعماً قال: كنت معه في طريق مكة، فلما صرنا في الرمل نظر إلى  
ما تلقى الإبل من شدة الحر فبكى.

فقلت له: لو دعوت الله أن يمطر علينا كان أخف على هذه الإبل. قال: فظفر إلى السماء وقال: إن شاء

ربي فعل. فوالله ما كان إلا أن تكلم حتى نشأت سحابة وهطلت.

وعن عطاء أن أبا مسلم الخولاني خرج إلى السوق ب درهم يشتري لأهله دقيقاً فعرض له سائل فأعطاه بعضه

ثم عرض له آخر فأعطاه الباقي وأتى إلى التجارين فملاً مزوده من نشارة الحشيب وأتى به منزله وخرج

هارباً من أهله، فأخذت المرأة المزود فإذا دقيق حواري فعجنته وخبزت. فلما جاء قال: من أين هذا؟ قالت:

الدقيق الذي جنت به.

وعن أبي عبد الله القرشي عن رجل قال: دخلت بئر زمزم فإذا أنا بشخص ينزع الدلو مما يلي الركن، فلما شرب أرسل الدلو فأخذه فشربت فضلته فإذا هو سويق لوزٍ لم أر سويق اللوز أطيب منه، فلما كانت القابلة في ذلك الوقت دخل الرجل وقد أسبل ثوبه على وجهه ونزع الدلو وشرب وأرسل الدلو، فأخذه وشربت فضلته فإذا هو ماء مضروب بالعسل لم أشرب شيئاً قط أطيب منه، فأردت أن آخذ طرف ثوبه فأنظر من هو ففانني، فلما كان في السنة الثالثة فعدت قبالة زمزم فلما كان في ذلك الوقت جاء الرجل وقد أسبل ثوبه على وجهه فدخل فأخذت طرف ثوبه، فلما شرب من الدلو وأرسلها قلت: يا هذا أسألك برب هذه البنية من أنت؟ قال: تكتم عليّ حتى أموت؟ قلت: نعم. قال: أنا سفيان، وهو الثوري، فتناولت فضلته فإذا هو ماء مضروب بالسكر الطبرزد لم أر قط أطيب منه، فكانت تلك الشربة تكفيني إذا شربتها إلى مثلها من الوقت لا أجد جوعاً ولا عطشاً.

وقال الأصمعي: رأيت أعرابياً يكدح جبينه بالأرض يريد أن يجعل سجادة فقلت: ما تصنع؟ قال: إني وجدتها نعم الأثر في وجه الرجل الصالح.

ومما قيل من الشعر من هذا الفن منهم بشار حيث يقول:  
كيف يبكي نخيسٍ في طولٍ ... من سيقضي ليوم حبسٍ طويلٍ  
إن في البعث والحساب لشغلاً ... عن وقوفٍ برسم دارٍ محيلٍ  
ولمحمد بن بشير:

ويلٌ لمن لم يرحم الله ... ومن تكون النار مثواه  
يا حسرتا في كل يومٍ أتى ... يذكرني الموت وأنساه  
كأنه قد قيل في مجلسٍ ... قد كنت أتيه وأغشاه  
صار البشري إلى ربه ... يرحمنا الله وإياه  
ولجرير:

إن الشقي الذي في النار منزله ... والفوز فوز الذي ينجو من النار  
يا رب قد أسرفت نفسي وقد علمت ... علماً يقيناً لقد أحصيت أثارها  
فاغفر ذنوباً إلهي قد أحطت بها ... رب العباد وزحزحني عن النار  
ولذي الرمة بيت:

إن تنج منها تنج من ذي عزيمةٍ ... وإلا فإني لا إخالك ناجيا  
ولآخر:

أستغفر الله مما يعلم الله ... إن الشقي لمن لم يرحم الله  
هبه تجاوز لي عن كل سيئةٍ ... وا سوءاته من حياتي يوم ألقاه  
ولإسماعيل بن القاسم:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا محالٌ في القياس بديع

لو كان جبك صادقاً لأطعته ... إن الحب لمن يحب مطيع  
ولآخر:

أيا عجباً كيف يعصي الإل ... ه أم كيف يجحده الجاحد  
وفي كل شيء له قدرة ... تدلّ على أنه واحد  
ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبداً شاهد  
ولأبي نواس الحسن بن هانيء:

سبحان من خلق الخل ... ق من ضعيف مهين  
يسوقهم من قرار ... إلى قرار مكين  
يجور خلقاً فخلقاً ... في الحجب دون العيون  
حتى بدت حركات ... مخلوقة من سكون  
ولآخر:

أخي ما بال قلبك ليس ينقى ... كأنك لا تظنّ الموت حقاً  
ألا يا ابن الذين مضوا وبادوا ... أما والله ما ذهبوا لتبقى  
وما لك غير تقوى الله زائداً ... إذا جعلت إلى اللهوات ترقى  
ولآخر:

يا قلب مهلاً وكن على حذر ... فقد لعمرى أمرت بالحنر  
ما لك بالترهات مشتغلاً ... أفي يديك الأمان من سقر  
ولآخر:

إن كنت توقن بالقيا ... مة واجترأت إلى الخطية  
فلقد هلكت وإن جحد ... ت فذاك أعظم للبلية  
ولآخر:

وأفنية الملوك محجبات ... وباب الله مبذول الفناء  
فمن أرجو سواه لكشف ضمير ... وبلوى حين أجهد في الدعاء  
وشكواني إلى ملك عظيم ... جليل لا يصم عن الدعاء

## مساوي من لم يتورع

ابن أبي العرجاء قال: أراد موسى بن داود بن علي بن عبد الله بن العباس الخروج إلى الحج فدعا بأبي دلامة فقال له: قمياً حتى تخرج معنا، وأعطاه عشرة آلاف درهم وقال: خلف لعيالك ما يكفيهم. وإنما أراد موسى أن يأنس به في طريقه ويجدته بنوادره وملحه ويسامره بالليل والنهار وينشده الأشعار. وكان أبو دلامة يفي بذلك كله مع ظرف كان فيه ولطف، وكان من ابراز الملوك. فلما حضر خروج موسى هرب إلى السواد بالكوفة فجعل يشرب من خمرها ويتمتع في نزهتها، وقد سأل عنه موسى فقبل له: استتر، فطلبه تحت كل

حجر فلم يقدر عليه فخاف أن يفوته الحج فلما أيس منه قال: اتركوه إلى نار الله وحرّ سقره، وخرج، فلما شارف القادسية نظر إلى أبي دلامة قد خرج من قرية يريد أخرى، فبصروا به وأتوه به. فقال: قيدوه وأقوه في الحمل، ففعل به ذلك، وأنشأ يقول:

يا معشر الناس قولوا أجمعين معاً ... صلى الإله على موسى بن داود  
أما أبوك فعين الجود تعرفه ... وأنت أشبه خلق الله بالجود  
تُبئت أن طريق الحج معطشة ... من الطلاء وما شربي بتصريد  
والله ما بي من خيرٍ فتطلبه ... في المسلمين ولا ديني بمحمود  
كأن ديباجتي خديّه من ذهب ... إذا تكسّر في أثوابه السود  
إني أعوذ بداودٍ وتربته ... من أن أحج بكره يا ابن داود

فقال موسى: أقوه من الحمل عليه لعنة الله ودعوه يذهب إلى سقر الله! فألقي عن الحمل ومضى موسى لوجهه. فما زال أبو دلامة بالسواد يشرب من خمرها ويتمتع في نزهتها حتى أتلف العشرة الآلاف الدرهم مع إخوانه وندمائه، وانصرف موسى فدخل عليه أبو دلامة يهنئه، فلما بصر به قال: يا محارف أتدري ما فاتك؟ فقال: والله يا سيدي ما فاتني ليل ولا نهار، يعني اللهو والقصف، ثم أنشده مديحاً له فيه، فاستحسنه وأمر له بجائزة.

قيل: وكان جندي بقزوين يصلي في بعض المساجد فافتقده المؤذن أياماً ففرع عليه الباب فخرج إليه. فقال له المؤذن: أبو من؟ قال: أبو الجحيم. قال: بس ردّ يا هذا الباب. قال وقيل للقيني: ما أيسر ذنبك؟ قال: ليلة الدير. قيل: وما ليلة الدير؟ قال: نزلت بديوانية فأكلت عندها طفيشلاً بلحم خنزير وشربت خمرها وسرقت كساءها وخرجت.

### ما قيل فيه من الشعر

قال بشار:

وإنني في الصلاة أحضرها ... ضحكة أهل الصلاة إن شهدوا  
أقعده في سجدة إذا ركعوا ... وأرفع الرأس إن هم سجدوا  
أسجد والقوم راكعون معاً ... وأسرع الوثب إن هم قعدوا  
فلست أدري إذا إمامهم ... سلّم كم كان ذلك العدد  
ولآخر:

نعم الفتى لو كان يعرف ربه ... ويقىم وقت صلاته حمّاد  
عدلت مشافره الدنان وأنفه ... مثل القدوم يسنه الحداد  
وابيض من شرب المدامة وجهه ... فيياضه يوم الحساب سواد  
ولآخر:

إن قرأ العاديات في رجب ... فليس يأتي بها إلى رجب  
بل هو لا يستطيع في سنة ... يختم تبت يدا أبي لهب

### محاسن صفة الدنيا

قال علي بن أبي طالب: الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها،  
مسجد أنبياء الله ومهبط وحيه ومصلى ملائكته ومنتجر أوليائه، اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة، فمن  
ذا يذمها وقد آذنت بينها ونادت بفراقها ونعت نفسها فشوقت بسرورها إلى السرور ببلائها إلى البلاء  
تخويفاً وتحذيراً وترغيباً وترهيباً، فأبها الدام للدنيا والمتعل بتغيرها متى غرتك، أبمصارع آباتك في البلى أم  
بمضاجع أمهاتك في الثرى؟ كم عللت بكفيك وكم مرّضت بيدك تبغي لهم الشفاء وتستوصف لهم  
الأطباء وتلتمس لهم الدواء لم ينفعهم تطلبك ذلك ولم يشفهم دواؤك! مثلت لك الدنيا مصرعك ومضجعك  
حيث لا ينفك بكاؤك ولا يغني عنك أحباؤك، ثم وقف على أهل القبور فقال: يا أهل الثروة والعز إن  
الأزواج بعدكم قد نُكحت والأموال قد قُسمت والدور قد سُكنت، فهذا خير ما عندنا فما خير ما  
عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما والله لو أذن لهم لقالوا: إن خير الزاد التقوى.  
وفي خبر أن علياً وقف على المقابر ثم قال: اعتبروا بأهل الديار التي طُبّق بالخراب فناؤها وشيد في التراب  
بناؤها، فمحلها مقترب وساكنها مغترب، لا يتزاورون تزاور الإخوان ولا يتواصلون تواصل الجيران، قد  
طحنهم بكلكله البلى وأكلتهم الجنادل والثرى. ثم قال: إن الأزواج بعدكم قد نُكحت، إلى آخر الخبر.

### مساوي صفة الدنيا

قال الحسن البصري: بينا أنا أطوف بالبيت إذا أنا بعجوز متعبدة، فقلت: من أنت؟ فقالت: من بنات ملوك  
غسان. قلت: فمن أين طعامك؟ قالت: إذا كان آخر النهار في كل يوم تجيئي امرأة متزينة فتضع بين يدي  
كوزاً من ماء ورغيفين. قلت لها: أتعرفين المرأة؟ قالت: اللهم لا. قلت: هذه الدنيا خلعت ربك جل وعز  
فبعث إليك بالدنيا فخدمتك على رغم أنفها.  
وزعموا أن زياد ابن أبيه مرّ بالحيرة فنظر إلى دير هناك فقال لحاجبه: ما هذا؟ قال: دير حرقة بنت النعمان  
بن المنذر. فقال: ميلوا بنا إليها نسمع كلامها. فجاءت إلى وراء الباب فكلّمها الخادم فقال لها: كلمي  
الأمير.

فقالت: أوجز أم أطيل؟ قال: بل أوجزي. قالت: كنا أهل بيت طلعت الشمس وما على الأرض أعزّ منا فما  
عابت تلك الشمس حتى رحمتنا عدونا.

قال: فأمر لها بأوساق من شعير. فقالت: أطعمتك يدّ شعبي جاعت ولا أطعمتك يدّ جوعي شبع. فسّر  
زياد بكلامها وقال لشاعر: قيد هذا الكلام لا يدرس. فقال:

سل الخير أهل الخير قدماً ولا تسل ... فتى ذاق طعم الخير منذ قريب



وفي مثل هذا قول أعرابي وقد دعا لرجل برّه: مسّتك يدٌ أصابت فقراً بعد غنى ولا مسّتك يدٌ أصابت غنى بعد فقر.

ويقال: إن فروة بن إياس بن قبيصة انتهى إلى دير حرقة بنت النعمان فألفاها وهي تبكي. فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: ما من دار امتلأت سروراً إلا امتلأت ثوراً، ثم قالت: فبيننا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتقسم

وقالت:

فأفّ لنديا لا يدوم نعيمها ... وأفّ لعيش لا يزال يهضم

قال: وقالت حرقة بنت النعمان لسعد بن أبي وقاص: لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة وعقد لك المن في أعناق الكرام، ولا أزال بك عن كريم نعمة، ولا أزالها بغيرك إلا جعلها السبب لردّها عليه.

قال وقال عبد الملك بن مروان لسلمة بن زيد الفهمي: أي الزمان أدركت أفضل وأي الملوك؟ فقال: أما الملوك فلم أر إلا ذاماً أو حامداً، وأما الزمان فيضع قوماً ويرفع آخرين وكلهم يذمّ زمانه لأنه يلي جديدهم ويطوي أعمارهم ويهرم صغيرهم وكل ما فيه منقطع إلا الأمل. قال: فأخبرني عن فهم. قال: هم كما قال الشاعر:

درج الليل والنهار على فه ... م بن عمرو فأصبحوا كالريم  
وخلت دارهم فأضحت يباباً ... بعد عزّ وثروة ونعيم  
وكذاك الزمان يذهب بالناس ... س وتبقى ديارهم كالرسوم  
قال: فمن يقول منكم:

رأيت الناس مذ خلقوا وكانوا ... يجيئون الغني من الرجال  
وإن كان الغني أقل خيراً ... بخيلاً بالقليل من النوال  
فما أدري علام وفيهم هذا ... وماذا يرتجون من البخال  
ألدنيا فليس هناك دنيا ... ولا يُرجى لحادثة الليالي  
قال: أنا وقد كتمتها.

قال: ولما دخل عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، المدائن نظر إلى إيوان كسرى فأنشده بعض من حضره قول الأسود بن يعفر:

ماذا أوّمل بعد آل محرّق ... تركوا منازلهم وبعد إياد  
أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد  
نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ... ماء الفرات يسيل من أطواد  
أرضٌ تحيّرها لطيب مقيلا ... كعب بن مامة وابن أمّ دؤاد  
جرت الرياح على محل ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعاد  
فأرى النعيم وكل ما يلهي به ... يوماً يصير إلى بلى ونفاد

فقال علي، رضي الله عنه: أبلغ من ذلك قول الله جل وعز: " كم تركوا من جناتٍ وعيونٍ وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ ونعمةٍ كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين " .  
وقال عبد الملك بن المعتز: أهل الدنيا كصورة في صحيفة كلما نُشر بعضها طوي بعضها. وقال: أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام.  
وقال بعضهم: طلاق الدنيا مهر الجنة.  
وذكر أعرابي الدنيا فقال: هي جمّة المصائب رنقة المشارب لا تمتعك الدهر بصاحب.  
وقال أبو الدرداء: من هوان الدنيا على الله جل وعز أنه لا يُعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها.  
وقيل: إذا أقبلت الدنيا على امرئ أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبتة محاسن نفسه.

### ما قيل فيه من الشعر

قال الأصمعي: ووجد في قبة لسليمان بن داود، عليه السلام، مكتوب:  
ومن يحمد الدنيا لشيء يناله ... فسوف لعمرى عن قليل يلومها  
إذا أدبرت كانت على الناس حسرةً ... وإن أقبلت كانت كثيراً همومها  
وكان إبراهيم بن أدهم ينشد:

نرّقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرّقع  
وقال أبو العتاهية:

يا من ترّقع بالدنيا وزينتها ... ليس الترفّع رفّع الطين بالطين  
إذا أردت شريف القوم كلهم ... فانظر إلى ملكٍ في زي مسكين  
ولآخر:

هب الدنيا تساق إليك عفواً ... أليس مصير ذاك الزوال  
فما ترجو بشيءٍ ليس يبقى ... وشيكاً ما تغيره الليالي  
محمود الورّاق:

هي الدنيا فلا يغفرك منها ... مخايل تستغفّر ذوي العقول  
أقل قليلها يكفيك منها ... ولكن ليس تقنع بالقليل  
تشيد وتبني في كل يومٍ ... وأنت على التجهّز والرحيل  
ومن هذا الذي يُبقي عليها ... مضاربه بمدرجة السيول  
ولآخر:

أيا دنيا حسرت لنا قناعاً ... وكان جمال وجهك في النقب  
دياراً طال ما حجبت وعزّت ... فأصبح إذنهما سهل الحجاب  
وقد كانت لها الأيام ذلّت ... فقد قرّنت بأيام صعب  
كأن العيش فيها كان ظلاً ... يُقلّبه الزمان إلى ذهاب

ولآخر:

دنيا تداولها العباد ذميمةً ... شبيت بأكره من نقيع الحنظل  
وثبات دنيا لا تزال ملمةً ... منها فجائع مثل وقع الجندل  
ولآخر بيت:

حتى متى أنت في دنياك مشغولٌ ... وعامل الله بالرحمان مشغول  
أبو نواس:

دع الحرص على الدنيا ... وفي العيش فلا تطمع  
ولا تجمع من المال ... فما تدري لمن تجمع  
ولا تدري أي أرض ... لك أم في غيرها تصرع  
قال: وقال الأصمعي قال أبو عمرو بن العلاء: بينا أنا أدور في بعض البوادي إذا أنا بصوت:  
وإنّ امرأً دنياه أكثر همّه ... لمتسك منها بجبل غرور  
قال: فنقشته على خاتمي.

قال: وسمع يحيى بن خالد البرمكي بيت العدويّ في صفة الدنيا حيث يقول:  
حتوفها رصدٌ وعيشها نكدٌ ... وشرّبها رنقٌ وملكها دول  
فقال: لقد انتظم في هذا البيت صفة الدنيا.  
قيل: وسمع المأمون بيت أبي نواس:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت ... له عن عدوِّ في ثياب صديق  
فقال: لو سئلت الدنيا عن نفسها لما وصفت كما وصفها به أبو نواس.  
وقال أبو حازم: الدنيا طالبة ومطلوبة وطالب الدنيا يطلبه الموت حتى يخرج منه وطالب الآخرة تطلبه  
الدنيا حتى توفيه رزقه.

قال: وقيل للحسن البصري: ما تقول في الدنيا؟ فقال: ما عسى أن أقول؟ حالها حساب وحرامها عذاب.  
فقيل: ما سمعنا كلاماً أوجز من هذا! قال: بلى كلام عمر بن عبد العزيز، كتب إليه عدي بن أرطاة وهو  
على حمص أن مدينة حمص قد تقدمت واحتاجت إلى إصلاح حيطانها، فكتب إليه: حصنها بالعدل ونقّ  
طرفها من الظلم.

### محاسن معرفة الأوائل

حدثنا زيد بن أكرم قال: حدثنا عبد الصمد عن سعيد عن المغيرة قال: سمعت سماك بن سلمة يقول: أول من  
خط بالقلم إدريس، عليه السلام. وهو أول من خاط الثياب ولبسها وكانوا من قبله يلبسون الجلود. وأول  
قرية بنيت في الأرض قرية تسمى ثمانين ابتناها نوح، عليه السلام. وأول من عمل الصابون سليمان بن  
داود، عليه السلام. وأول من باع فيمن يزيد حلساً وقدحاً رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وأول من

اتخذ القرايطيس يوسف، عليه السلام. وأول من خبز له الرقاق ثمرود بن كنعان لعنه الله وأول من حكم في الخنثى عامر بن الظرب العدواني. وأول من خضب بالسواد عبد المطلب بن هاشم. وأول من سنّ الدية من الإبل أبو سيارة العدواني وأقره رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في الإسلام. وأول من خلع نعله لدخول الكعبة الوليد بن المغيرة فخلع الناس نعالهم في الإسلام. وهو أول من قضى بالقسامة في الجاهلية فأقرها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في الإسلام. وهو أول من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية فأقرها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في الإسلام. وهو أول من قطع في السرقة في الجاهلية فقطع رسول الله في الإسلام. وأول من سلّم عليه بالإمرة المغيرة بن شعبة. وأول من أرّخ الكتب وختم على الطين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وأول من كتب بالعربية مرامر بن مروة من أهل الأنبار فانتشر من الأنبار في الناس. وأول من مشى الرجال معه وهو راكب الأشعث بن قيس. وأول من اتخذ المقصورة في المسجد معاوية بن أبي سفيان وذلك أنه بصر كلباً على منبره. وأول من لبس الخفاف وثياب الكتان زياد بن أبي سفيان، وأول من لبس الطيلسان جبير بن مطعم.

وأول من لبس الخز الطاروني عبد الله بن عامر فقال الناس: لبس الأمير جلد دب. وأول من نقش على الدراهم عبد الملك بن مروان وأول من سمي عبد الملك. وأول من ابنتى مدينة في الإسلام الحجاج بن يوسف بنى مدينة واسط، وهو أول من قعد على سرير في حرب وأول من اتخذ الحامل، فقال فيه حميد الأرقط:

أخزى الإله عاجلاً وآجلاً

أول عبدٍ عمل الخاملاً

عبد تقيفٍ ذاك أزلاً آزلاً

وهو أول من عُلق له الخيش ونقل له الثلج. وأول من أطعم على ألف مائدة على كل مائدة عشرة رجال وأجاز بألف درهم ولبس الدراريح السود المختار بن أبي عبيد. وأول من حذا النعال جذيمة الأبرش، وهو أول من وضع المنجنيق ورفعت له الشموع ونادم الفرقدين. وأول من حذا رجلٌ من مضر. وأول رأس حمل من بلد إلى بلد رأس عمرو بن الحمق الخزاعي. وأول من عمل له العرش زينب بنت جحش زوجة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال عمر بن الخطاب: نعم خباء الظعينة!

وأول من قطع فم بلخ سعيد بن عثمان بن عفان. وأول من ضرب بسيفه باب قسطنطينية وأذن في بلاد الروم عبد الله بن طليب من بني عامر بن صعصعة وكان مع مسلمة بن عبد الملك فأراد قيصر قتله فقال: والله لئن قتلني لا تبقى بيعة في بلدان الإسلام إلا هدمت! فكفّ عنه.

وأول من جمّع جمعة مصعب بن عمير جمّعهم بالمدينة وكانوا اثني عشر رجلاً.

وروى أبو هلال عن أبي حمزة قال: أول من رأينا بالبصرة يتوضأ بالماء عبيد الله بن أبي بكره فقلنا: انظروا إلى هذا الشيخ يلوط استه، أي يستنجي بالماء. وأول مولود ولد في الإسلام عبد الله بن الزبير. وأول من رشا في الإسلام المغيرة بن شعبة. وأول رام رمى في الإسلام سعد بن أبي وقاص. وأول قاضٍ قضى أبو قرّة الكندي. وأول من اتخذ الجمّازات أم جعفر.

## مساوي الأوائل

أول من اتخذ الود رجلٌ يقال له لَمَكٌ ولد له علي كبر سنه ابن فأصيب به واشتد وجده عليه فعمد إلى عود واتخذ كهياة الصبي شبه صدر العود بالفخذ وإبريقه بالقدم والملاوي بالأصابع والأوتار بالعروق ثم ضرب به، وكانت له ابنة يقال لها ملاهي، وهي أول من اتخذت المعازف والطبول. وأول من عمل الطنابير قوم لوط كانوا يستميلون بها الغلمان المرد. وأما الزمر وشبهه فللرعاء والأكراد. وكان أول من غنى من العرب جذيمة بن سعد الخزاعي وذلك بعد جرادتي عاد، وكان من أحسن الناس صوتاً فسمي المصطلق فغنى بالركبانية، ويقال إن أول من غنى باليمن رجل من حمير يقال له عنيس: وأول من غنى بالحرمين طويس. وأول امرأة قطعت يدها في الإسلام في السرق بنت سفيان بن عبد الأسد من بني مخزوم قطعها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال: لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعنها. ومن الرجال الخيار بن عدي بن نوفل.

## محاسن الدلائل

روي عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه: إن المؤمن إذا أتت عليه ستون سنة أحبه أهل السماء والأرض، وإذا أتت عليه سبعون سنة كتبت حسناته ومحيت سيئاته، وإذا أتت عليه ثمانون سنة غفر له ما تقدم من ذنبه، وإذا أتت عليه تسعون سنة شفع في أهل بيته وأهله، وإذا أتت عليه مائة سنة كتب اسمه عند الله عز وجل أسير الله في أرضه. وقال عمرو بن العاص: يتغير الغلام لسبع، ويحتمل لأربع عشرة سنة، ويتم خلقه لإحدى وعشرين، ويجتمع عقله لثمان وعشرين، وما بعد ذلك فتجارب. وقال وهشابور: يستحب من الربيع الزهرة، ومن الخريف الخصب، ومن الغريب الانقباض، ومن القاريء البيان، ومن الغلام الكياسة، ومن الجارية الملاحاة.

## ومنه باب آخر

قيل: إذا جارت الولاة قحطت السماء، وإذا منعت الزكاة هلكت الماشية، وإذا ظهر الربا ظهر الفقر والمسكنة، وإذا خفرت الذمة أديل العدو. وعن ابن عباس قال: إذا رأيتم السيوف قد أعريت والدماء قد أريقت فاعلموا أن حكم الله جل وعز قد ضييع وانتم من بعضهم بعض، وإذا رأيتم الرثاء قد فشا فاعلموا أن الربا قد فشا، وإذا منعتم القطر فاعلموا أن الناس قد منعوا ما عندهم من الزكاة فمنع الله جل وعز ما عنده.

## محاسن المشورة

كان يقال: إذا استبحر الرجل ربه واستشار نصيحة وأجهد رأيه فقد قضى ما عليه ويقضي الله جل وعز في أمره ما يجب.

وقال آخر: حسن المشورة من المشير قضاء لحق النعمة.

وقيل: إذا استشرت فانصح وإذا تركت فاصفح.

وقال آخر: من وعظ أخاه سرّاً زانه ومن وعظه علانية شأنه.

وقال آخر: الاعتصام بالمشورة نجاة.

وقال آخر: نصف عقلك مع أخيك فاستشره.

وقال آخر: إذا أراد الله بعبده هلاكاً أهلكه برأيه.

وقال آخر: إن المشورة تقوم اعوجاج الرأي. وقال: إياك ومشورة النساء فإن رأيهن إلى الإفث وعزمهن إلى الوهن.

وروي عن ابن عباس، رضي الله عنه، أنه قال: كان بين العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، مباحة فلقيت علياً، رحمه الله، فقلت له: إن كان لك في النظر إلى عمك حاجة فأتها وما أراك تلقاه.

فوجم لها ثم قال: تقدمني. فتقدمته فأذن له فاعتنق كل واحد منهما صاحبه وأقبل عليّ على يده ورجله يقبلهما ويقول: يا عم ارض عني رضي الله عنك! قال: قد رضيت عنك، ثم قال: يا ابن أخي قد كتشرت عليك بأشياء فلم تقبل مني فرأيت في عاقبتها ما كرهت وها أنا أشير عليك برأي آخر فإن قبلته وإلا نالك ما نالك. فقال: وما الذي كنت أشرت به يا عم؟ قال: أشرت عليك لما قبض رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن تسأله فإن كان الأمر فينا أعطانا وإن كان في غيرنا أوصى بنا. فقلت: إن منعناه لم يعطنا أحد بعده. فمضت تلك، فلما قبض رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أتانا سفيان بن حرب تلك الساعة فدعوناك إلى أن نبايعك فقلت: ابسط يدك حتى نبايعك، فإننا إن بايعناك لم يختلف عليك منافي وإن بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك قرشي وإن بايعتك لم يختلف قريش لم يختلف عليك أحد من العرب. فقلت: في جهاز رسول الله، صلى الله عليه وسلم، شغلٌ وليس عليّ فوت. فلم نلبث أن سمعنا التكبير من سقيفة بني ساعدة فقلت: ما هذا يا عم؟ فقلت: هذا ما دعوناك إليه فأبيته! قلت: سبحان الله ويكون هذا! قلت وهل رد مثل هذا؟ ثم أشرت عليك حين طعن عمر، رحمه الله، أن لا تدخل نفسك في الشورى فإنك إن اعتزلتهم قدّموك وإن ساويتهم تقلّموك. فدخلت معهم فكان ما رأيت. وها أنا أقول لك الآن: أرى هذا الرجل، يعني عثمان بن عفان، رحمه الله، يأخذ في أمور ولكأني بالعرب قد سارت إليه حتى يُنحر كما ينحر الجزور، والله لئن كان ذاك وأنت بالمدينة ليرمينك الناس بدمه ولئن فعلوا لا تنال من هذا الأمر شيئاً إلا بشر لا خير معه.

قال ابن عباس: فلما قتل عثمان، رضي الله عنه، خرج عليّ وهو على بغلة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأنا عن يمينه وابن القاريء عن يساره، وكان من أمر طلحة والزبير ما كان، وقتل طلحة عشية

ذلك اليوم وأنا أرى الكراهية في وجه عليّ، رضي الله عنه. فقال: أما والله لقد كنت أكره أن أرى قريشاً صرعى تحت بطون الكواكب، ولكن نظرت إلى ما بين الدفتين فلم أرى يسعني إلا قتالهم أو الكفر، ولن كان قال هؤلاء ما سمعت في طلحة لقد كان كما قال أخو جعفي:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه... إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر  
ورحم الله عمي فكأنما يطلع إلى الغيب من ستر رقيق، صدق والله ما نلت من هذا الأمر شيئاً إلا بعد شر لا خير معه.

قال: وقال ابن عباس لعلي، رضي الله عنه: اجعلني السفير بينك وبين معاوية في الحكمين فوالله لأفعلن له جبلاً لا ينقطع وسطه ولا ينتشر طرفاه.

قال علي، رحمه الله: لست من كيدك وكيد معاوية في شيء، والله لا أعطيه إلا السيف حتى يدخل في الحق. قال ابن عباس: وهو والله لا يعطيك إلا السيف حتى يغلب باطله حقا. قال علي، رضي الله عنه: وكيف ذاك؟ قال: لأنك تطاع اليوم وتعصى غداً وإنه يطاع فلا يعصى.

فلما انتشر على عليّ، رضي الله عنه، أصحابه وابن عباس بالبصرة قال: لله ابن عباس إنه لينظر إلى الغيب من ستر دقيق.

ومثله خبر عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين قال لأصحابه: دلوني على رجل أستعمله على أمرٍ قد أهمني. قالوا: فلان. قال: لا حاجة لنا فيه.

قالوا: فمن تريد؟ قال: أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم. قالوا: ما نعرف هذه الصفة إلا في الربيع بن زياد الحارثي. قال: صدقتم. فولاه.

ومنه خبر صاحب الأمين، فإنه حكى أنه كان بمدينة السلام شيخ من الكتاب مسنّ قد اعتزل لأمر وكان يوصف بمجودة الرأي، فدعاه محمد الأمين وشاوره في أمر أخيه المؤمن وما ينبغي أن يعامله حتى يقع في يده. فقال: إن استعجلت لم تنتفع بفعل ولا رأي، وإن تمهلت وقيلت مشورتي تمكنت من أخيك وذاك أنك تدعو بجُجاج خراسان إذا قدموا مدينة السلام وتجلس مجلساً حافلاً وتقول لهم: إن أخي كتب إلي يحمداكم ويذكر سمعكم وطاعتكم وجميل مذهبكم، وتجزيهم الخير ثم تقول: قد أسقطت عنكم خراج سنة، وأخوك في بلد رجال بلا مال وليس له في نقض قولك حيلة وسيناله من ذلك خلل شديد حتى ينتقض أكثر أمره، ثم تفعل مثل ذلك في السنة المقبلة وترفع عنهم خراج سنتين، فإن لم يأتوك بأخيك في وثاق وكنت حياً فاضرب عنقي.

فلم يقبل الأمين ذلك للأمر المقدور والقضاء السابق وعجل إلى خلع المؤمن في عقد الأمر لابنه حتى كان ما كان. وليس يبلغ شيء في الملك والدولة خاصة مبلغ الرأي لأن الرأي لا يحتاج إلى السلاح والسلاح يحتاج أهله إلى الرأي وإلا كانت عدتهم عليهم ضرراً إذا لم يصيخوا في استعمالها وجه الرأي.

مساوي من يستشير

قال بعض أهل العلم: لو لم يكن في المشورة إلا الاستحشار من صاحبها لك وظهور فقرك إليه لوجب أطراح ما تفيده المشورة وإلقاء ما تكسبه الإنسان، وما استشرت أحداً قط إلا كبر عندي وتصاغت له ودخلته العزة ودخلتني الذلة، فإياك والمشورة وإن ضاقت بك المذاهب واختلفت عليك المسالك وأذاك الاستبهاج إلى الخطأ الفادح، فإن صاحبها أبداً مستنل مستضعف، وعليك بالاستبداد فإن صاحبها أبداً جليل في العيون مهيب في الصدور، ولن تزال كذلك ما استغنت عن العقول، فإذا افتقرت إليها حقرتك العيون ورجفت بك أركانك وتضعضع شأنك وفسد تدبيرك واستحقرك الصغير واستخف بك الكبير وعُرفت بالحاجة إليهم، وقد قيل: نعم المستشار العلم ونعم الوزير العقل.

ومن اقتصر على رأيه دون المشاورة أبو جعفر المنصور، فإنه لما حدث من أمر إبراهيم ومحمد ابني عبد الله بن الحسن ما حدث أمسك المنصور عن المشاورة واستبد برأيه وأقبل على السهر والخلوة ولم يذكر أمرهما لأحد من أهله، وكان تحته مصلى قد تفرز لحمته وسداه وكان جلوسه ومبته عليه فلم يغيره، وعليه جبة خز دكنا قد درن جيبها فلم يغيرها حتى ظفر، وكان يقول في تلك الحال: إياك والمشورة فإن عثرتهما لا تستقال وزلتها لا تُستدرك، فكم قد رأيت من نصيح عاد نصحه غشاً! ومنهم الرشيد فإنه حكي عنه أنه بعث ذات ليلة إلى جعفر بن يحيى: إني قد سهرت فوجه إلي بعض سمارك. فوجه إليه بسمير له كوفي، فسامره ليلته، فلما أن رجع سأله جعفر عن خبره. فقال: سامرتك ليلتي كلها فأنشدته فما رأيت استحلى إلا بيتين من شعر أنشدتهما إياه فإنه أولع بهما وما زال يأمرني بتكريرهما عليه حتى حفظهما. فقال جعفر: وما هما؟ قال:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد ... وشفقت أنفسنا مما تجدد

واستبدت مرةً واحدةً ... إنما العاجز من لا يستبد

فقال له جعفر: أهلكني والله وأهلكت نفسك! قال: وكيف ذلك؟ قال: إنه كان لا غنى به عني وعن مشورتي ولم يكرر البيتين إلا وقد عزم على ترك مشاورتي والاستبداد بالرأي. فقتله بعد حول. وقال الشاعر في مثله:

بديته وفكرته سواء ... إذا ما نابه الخطب الكبير

وأحزم ما يكون الدهر رأياً ... إذا عمي المشاور والمشير

وصدرٌ فيه للهمم اتساعٌ ... إذا ضاقت بما فيه الصدور

ومنهم الشعبي، فإنه ذكر أنه كان صديقاً لابن أبي مسلم كاتب الحجاج وأنه لما قدم به على الحجاج لعنه، فقال له: أشرك عليّ. فقال: ما أدري بما أشير ولكن اعتنر بما قدرت عليه. وأشار عليه بذلك جميع أصحابه.

قال الشعبي: فلما دخلت خالفت مشورتهم ورأيت والله غير الذي قالوا، فسلمت عليه بالإمرة ثم قلت:

أصلح الله الأمير! إن الناس قد أمروني أن أعتنر بغير ما يعلم الله أنه الحق، وأيم الله لا أقول في مقامي هذا إلا الحق! قد جهدنا وحرّضنا فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وإن عفوت فبحلمك والرحمة لك علينا.

فقال الحجاج: أنت والله أحب إلينا قولاً ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دماننا ويقول: والله ما فعلت وما



شهدت، أنت آمن يا شعبي! فقلت: أيها الأمير اكتحلث والله بعدك بالسهر واستحلست الخوف وقطعت صالح الإخوان ولم أجد من الأمير خلقاً. فقال: صدقت فانصرف. فانصرفت.

### محاسن كتمان السر

قال: كان المنصور يقول: الملوك تحمل كل شيء من أصحابهم إلا ثلاثاً: إفشاء السر، والتعرض للحرم، والقدح في الملك. وكان يقول: سرّك من دمك فانظر من تملكه. وكان يقول: سرّك لا يطلع عليه غيرك. إن من أنفذ البصائر كتمان السر حتى يرم المبروم. وقيل لأبي مسلم صاحب الدولة: بأي شيء أدركت هذا الأمر؟ فقال: ارتديت بالكتمان واترت بالحزم وحالفت الصبر وساعدت المقادير فأدركت ظني وحزت حدّ بغيّتي، وأنشد:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه الملوك بني مروان إذ حشدوا  
مازلت أسعى عليهم في ديارهم ... والقوم في غفلة بالشأم قد رقدوا  
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا ... من نومة لم يمتها قبلهم أحد  
ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسد  
قال: وقال عبد الملك بن مروان للشعبي، لما دخل عليه: جنبي خصلاً أربعاً: لا تطريّني في وجهي، ولا تجرّين علي كذبة، ولا تغتابن عندي أحداً، ولا تفشين لي سراً.  
وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود.  
وأنشد المنقري في ذلك:

النجم أقرب من سرّ إذا اشتملت ... مني على السر أضلاع وأحشاء  
وقال غيره:

ونفسك فاحفظها ولا تفش للورى ... من السر ما يطوي عليه ضميرها  
فما يحفظ المكتوم من سر أهله ... إذا عقد الأسرار ضاع كبيرها  
من القوم إلا ذو عفافٍ يعينه ... على ذلك منه صدق نفس وخيرها  
قال وقال معاوية بن أبي سفيان: أعنت على عليّ، رضي الله عنه، في أربع خصال: كان رجلاً ظهره علنة أي لم يكتم سراً، وكنتم كنوماً لأمرى، وكان لا يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة، وكنتم أبادر إلى ذلك، وكان في أحببت جند وأشدّهم خلافاً، وكنتم في أطوع جند وأقلهم خلافاً، وكنتم أحب إلى قريش منه فقلت ما شئت من جامع إلي ومفرق عنه.

وكان يقال لكاتم سره: من كتمانته إحدى خصالتي وفضيلتي الظفر بحاجته والسلامة من شره. من أحسن فليحمد الله وله المنّة عليه، ومن أساء فليستغفر الله جل وعز وله الحجّة عليه.  
وقال بعضهم: كتمانك سرّك يعقبك السلامة وإفشاؤك سرّك يعقبك التبعة، والصبر على كتمان السرّ أيسر من الندم على إفشائه.

وقال بعضهم: ما أقيح بالإنسان أن يخاف على ما في يده اللصوص فيخفيه ثم يمكن عدوه من نفسه بإفشاء سره إليه وإظهار ما في قلبه له أو أن يظهره على سر أخيه، ومن عجز عن تقويم أمره فلا يلومن من لا يستقيم له.

وكان معاوية يقول: ما أفشيت سري إلى أحد إلا أعقبتني طول الندم وشدة الأسف، ولا أودعته جوانح صدري فخطمته بين أضلاعي إلا كسبني ذلك مجدداً وذكراً وسناً ورفعة. فقيل له: ولا ابن العاص؟ فقال: ولا ابن العاص. وكان يقول: ما كنت كاتمته من عدوك فلا تظهر عليه صديقك.

وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: من كتم سره كانت الخيرة في يده، ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن، وضع أمر أخيك على أحسنه ولا تظن بكلمة خرجت منه سوءاً إذا كنت واجداً لها في الخير مذهباً، وما كافات من عصي الله فيك بأكثر من أن تطيع الله جل ذكره فيه، وعليك ياخوان الصدق فإنهم زينة عند الرخاء وعصمة عند البلاء. وحدث إبراهيم بن عيسى قال: ذاكرت المنصور ذات يوم أمر أبي مسلم وصونه لذلك السر حتى فعل ما فعله. فقال:

تقسمني أمران لم أقتحمهما ... بحرصٍ ولم تعر كهما لي الكراكر  
وما ساور الأحشاء مثل دفينه ... من الهمة ردتها إليك المقادر  
وقد علمت أفناء عدنان أنني ... لدى ما عرا مقدامة متجاسر  
وقال غيره:

صن السر بالكتمان يرضك غبه ... فقد يظهر السر المضيع فيندم  
ولا تفشين سراً إلى غير أهله ... فيظهر خرق السر من حيث يكتم  
وما زلت في الكتمان حتى كأنني ... برجع جواب السائل عنك أعجم  
لأسلم من قول الوشاة وتسلمي ... سلمت وهل حي على الناس يسلم؟  
ولآخر:

أمني تخاف انتشار الحديث ... وحظي في ستره أوفر  
ولو لم أصنه لبقيا عليك ... نظرت لنفسي كما تنظر  
ولآخر:

لساني كتوم لأسراركم ... ودمعي نموم لسري مذيع  
فلولا الدموع كتمت الهوى ... ولولا الهوى لم تكن لي دموع  
ولآخر:

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها ... فسرك عند الناس أفشى وأضيع  
أبو نواس:

لا تفش أسرارك للناس ... وداو أحزانك بالكس  
فإن إبليس على ما به ... أرأف بالناس من الناس

وقال المبرد: أحسن ما سمعت في حفظ السر ما روي لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه:

فلا تفش سرّك إلا إليك ... فإن لكل نصيح نصيحا

فإني رأيت بغاة الرجا ... ل لا يتركون أديماً صحيحا

قال العتبي:

ولي صاحبٌ سري المكتم عنده ... مخاريق نيران بليل تُحرق

عظفت على أسرارهِ فكسوتها ... ثياباً من الكتمان ما تتحرق

فمن تكن الأسرار تطفو بصدرة ... فأسرار نفسي بالأحاديث تغرق

فلا تودعن الدهر سرّك جاهلاً ... فإنك إن أودعته منه أحمق

وحسبك في سرّ الأحاديث واعظاً ... من القول ما قال الأديب الموفق

إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه ... فصدر الذي يستودع السرّ أضيق

ولآخر:

ولربما اكتتم الوقور فصرّحت ... حرّكاته عن كتمانهِ

ولربما رزق الفتى بسكوته ... ولربما حرم الفتى ببيانه

ولآخر:

لا يكتتم السرّ إلا كل ذي خطرٍ ... والسرّ عند كرام الناس مكتوم

والسرّ عندي في بيت له علقٌ ... قد ضاع مفتاحه والباب مردوم

قال: ودخل أبو العتاهية على المهدي وقد ذاع شعره في عتبة فقال: ما أحسنت في حبك ولا أجهلت في

إذاعة سرّك. فقال أبو العتاهية:

من كان يزعم أن سيكتم حبه ... أو يستطيع الستر فهو كذوب

إذا بدا سرّ اللبيب فإنه ... يد إلا والفتى مغلوب

الحب أغلب للرجال بقهره ... من أن يرى للسرّ فيه نصيب

إني لأحسد ذا هوىً مستحفظاً ... لم تتهمه أعينٌ وقلوب

فاستحسن المهدي شعره وقال: قد عذرناك في إذاعة سرّك ووصلناك على حسن عذرناك على أن كتمان

ذلك أحسن من إذاعته.

وقال المهلب بن أبي صفرة: ما ضاقت صدور الرجال عن شيء كما ضاقت عن السرّ.

وقال زياد: لكل مستشير ثقة ولكل سرّ مستودع، وإن الناس قد أبدعت بهم خصلتان: إذاعة السرّ وترك

النصيحة، وليس موضع السرّ إلا أحد رجلين: رجل آخريّ يرجو ثواب الله، ورجل دنيوي له شرف في

نفسه وعقل يصون به حسه، وهما معدومان في هذا الدهر.

محاسن حفظ اللسان

قال أكنتم بن صيفي: مقتل الرجل بين فكيه، يعني لسانه. وقال الشاعر:

رأيت اللسان على أهله ... إذا ساسه الجهل ليثاً مغارا

ومنه قول أكنتم: رب قول أشد من صول. وقوله: لكل ساقطة لاقطة. الساقطة من الكلام لها لاقطة من الناس.

وقال المهلب لبنيه: اتقوا زلة اللسان فإني وجدت الرجل تعثر قدمه فيقوم من عشرته ويزل لسانه فيكون فيه هلاكه.

وقال يونس بن عبيد: ليست خلة من خلال الخير تكون في الرجل هي أخرى أن تكون جامعة لأنواع الخير كلها من حفظ اللسان.

وقال قسامة بن زهير: يا معشر الناس إن كلامكم أعثر من صمتكم فاستعينوا على الكلام بالصمت وعلى الصواب بالفكر.

وقال الجاحظ: جرى بين شهram المروزي وبين أبي مسلم كلام، فما زال أبو مسلم يقاوله إلى أن قال شهram: يا لقيط! فصمت أبو مسلم، وندم شهram، فما زال مقبلاً عليه معتذراً وخاضعاً متنعلاً. فلما رأى ذلك أبو مسلم قال: لسان سيق ووهم أخطأ وإنما الغضب شيطان وما جرأك غيري بطول احتمالي فإن كنت متعمداً للذنب فقد شاركك فيه، وإن كنت مغلوباً فالعذر سيقك، وقد غفرنا لك على كل حال. فقال شهram: أيها الأمير عفو متلك لا يكون غروراً. قال: أجل. قال: فإن عظم ذنبي لا يدع قلبي أن يسكن. ولج في الاعتذار. فقال لأبو مسلم: يا عجباً! كنت تسيء وأنا أحسن فإذا أحسنت أسيء.

وشتم رجل المهلب فلم يجبه. فقييل له: حلمت عنه؟ فقال: لم أعرف مساويه فكرهت أن أجهته بما ليس فيه. سلمة بن القاسم عن الزبير قال: حُملت إلى المتوكل فأدخلت عليه فقال: يا عبد الله الزم أبا عبد الله، يعني المعتز، حتى تعلمه من فقه المدنين. فأدخلت إلى حجرة فإذا أنا بالمعتز قد أتى في رجله نعل من ذهب، فعثر حتى دميت رجله، فأتي بإبريق من ذهب وطست من ذهب وجعل يغسل ذلك الدم وهو يقول:

يُصاب الفتي من عثرة بلسانه ... وليس يصاب المرء من عثرة الرجل

وعثرته من فيه ترمي برأسه ... وعثرته في الرجل تبراً على مهل

فقلت في نفسي: ضُمت إلى من أريد أن أتعلم منه.

وكان يقال: ينبغي للعاقل أن يحفظ لسانه كما يحفظ موضع قدمه، وقيل: من لم يحفظ لسانه فقد سلطه على هلاكه. وقال الشاعر:

عليك حفظ اللسان مجتهداً ... فإن جل الهلاك في زلة

ولآخر:

وجرح السيف تدمله فيرا ... وجرح الدهر ما جرح اللسان

جراحات الطعان لها التمام ... ولا يلتام ما جرح اللسان

ولآخر:

وجرح اللسان كجرح اليد  
ولآخر:

وجرح السيف بأسوه المداوي ... وجرح القول طول الدهر دامي

### مساوي جناية اللسان

أحمد بن إبراهيم الهاشمي قال: لما عفا أبو العباس السفاح عن سليمان بن هشام بن عبد الملك وعن ابنه قريهم وأدناهم وبسطهم حتى كانوا يسمرون عنده بالليل، وكان سليمان إذا دخل ثبيت له وسادة وكذلك لابنيه وربما طرحت لهم نمارق ونصبت لهم كراسي، فإنهم عنده ذات ليلة أو ذات يوم إذ دخل إليه أبو غسان الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين بالباب رجل مثلتم أناخ راحلته وقال: استأذن لي على أمير المؤمنين. فقلت: ضع عنك ثياب سفرك.

فقال: لا أخط رحلي ولا أسفر عمي حتى أنظر إلى وجه أمير المؤمنين. فقال أبو العباس: فهل سألته من هو؟ قال: قد فعلت فذكر أنه سديف مولاك. فقال: سديف سديف! ائذن له فدخل رجل أحم طويل يبتني عليه مطر حر ومعه محجن يتوكأ عليه، فلما نظر إلى أبي العباس سقر عن وجهه ثم سلم ودنا وقبل يده ثم انصرف إلى خلفه. فقام مقام مثله وأنشده:

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهايل من بني العباس  
لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة وغراس  
ولقد ساعني وساء سوائي ... قريهم من نمارق وكراسي  
أنزلوها بحيث أنزها الل ... ه بدار الهوان والإتعس  
واذكروا مصرع الحسين وزيد ... وقتيلاً بجانب المهراس  
والقتيل الذي بجران أمسى ... ثاويًا بين غربة وتناسي  
نعم شبيل المهراش مولاك لولا ... آوّد من حبات الإفلاس

فقام سليمان بن هشام فقال: يا أمير المؤمنين إن مولاك هذا مثل بين يديك يبعثك على قتلي وقتل ابني ويجدوك على طلب ثارك منا، وقد بلغني أنك تريد اغتيالي. فقال أبو العباس: والله ما كان عزمي أن أقتلك ولا أن أسيء بك ولا أطالبك بشيء مما طالبت به أهل بيتك، فأما إذ وقع في خلدك إني أعتالك فيا جاهل من يحول بين وبينك وبين قتلك حتى أعتالك؟ ثم أمر بقتله وقتل ابنه.

فقال سليمان لقاتله أبي الجهم: إنك قد أمرت بأمر لا بد لك من إنفاذه وحاجتي إليك أن تقدم ابني حتى أحتسبهما، ففعل.

وخرج سديف وقد وصله العباس بخمسة آلاف دينار وهو يقول: قد قرّت العينان واشتفت النفس فله الحمد والشكر! وحكي عن شيرويه بن أرويز أن رجلاً من الرعية وقف له يوماً وقد خرج من الميدان فقال: الحمد لله الذي قتل أرويز على يدك وملكك ما كنت أحق به منه وأراح آل ساسان من جبريته وعتوه وبخله ونكده، فإنه كان يأخذ بالإحنة، ويقتل بالظن، ويخيف البري، ويعمل بالهوى.

فقال شبرويه لبعض حجابيه: احمله إلي. فحمل. فقال له: كم كانت أرزاقك في حياة أبرويز؟ قال: كنت في كفاية العيش. قال: فكم رزقك بما سمعت اليوم؟ قال: ما زيد في رزقي شيء. قال: فهل وترك أبرويز فانتصرت منه بما سمعت من كلامك؟ قال: لا. قال: فما دعاك إلى الوقوع فيه ولم يقطع عنك مادة رزقك ولا وترك في نفسك، وما للعامّة والوقوع في الملوك وهم رعية؟ وأمر أن ينزع لسانه من قفاه، وقال: حق ما يقال: الخرس خير من البيان بما لا يجب. وقال بعض الشعراء في مثله:

يا ليت أي لا أموت بغصتي ... حتى أرى رجلاً يقول فيصدق  
احفظ لسانك لا تقول فتبتلى ... إن البلاء موكل بالمنطق

ولآخر:

لعمرك ما شيء علمت مكانه ... أحق بسجن من لسان مذلل  
على فيك مما ليس بعينك قوله ... بفقل شديد حيث ما كنت فاقفل  
ولآخر:

إذا الأمر أعياء اليوم فانظر به غداً ... لعل عسيراً في غدٍ يتيسر  
ولا تعد قولاً من لسانك لم يرض ... مواقعه من قبل ذلك التفكر

ولا تصر من حبل امريء في رضى امريء ... فيتصلا يوماً وحبلك أبتز

### محاسن الصدق

قال بعض الحكماء: عليك بالصدق فما السيف القاطع في كف الرجل الشجاع بأعز من الصدق، والصدق عز وإن كان فيه ما تكره، والكذب ذلّ وإن كان فيه ما تحب، ومن عرف بالكذب اتهم في الصدق. وقيل: الصدق ميزان الله الذي يدور عليه العدل، والكذب مكيال الشيطان الذي يدور عليه الجور. وقال ابن السماك: ما أحسبني أوجر على ترك الكذب لأني أتركه أنفة. وقال الشعبي: عليك بالصدق حيث ترى أنه يضرك فإنه ينفك، واجتنب الكذب حيث ترى أنه ينفك فإنه يضرك.

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا يصلح الكذب إلا في ثلاث: كذب الرجل لأهله ليرضيها، وإصلاح بين الناس، وكذب في حرب. وقال بعض الحكماء: الصدق عز والكذب خضوع.

وقال آخر: لو لم يترك العاقل الكذب إلا مروءةً لقد كان حقيقاً بذلك فكيف وفيه المأثم والعار! ومن المعروفين بالصدق أبو ذر الغفاري، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على أصدق ذي لهجة من أبي ذر.

ومنهم العباس بن عبد المطلب، حدثنا الحكم بن عيسى عن الأعمش عن الشعبي قال: اطلع العباس على النبي، صلى الله عليه وسلم، وعنده جبريل، عليه السلام، فقال له جبريل، عليه السلام: هذا عمك العباس؟

قال : نعم. قال: إن الله جل وعز يأمرك أن تقرأ عليه السلام، وتعلمه أن اسمه عبد الله الصادق وأن له شفاعة يوم القيامة. فأخبره، صلى الله عليه وسلم، بذلك، فتبسم العباس. فقال له النبي، صلى الله عليه وسلم: إن شئت أخبرتك مما تبسمت وإن شئت أن تقول فقل. قال: بل تعلمني يا رسول الله. قال: لأنك لم تحلف يميناً في جاهلية ولا إسلام برّة ولا فاجرة ولم تقل لسائل لا. قال: والذي بعثك بالحق ما تبسمت إلا لذلك.

ومنهم علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال يوم النهروان لأصحابه: شدوا عليهم فوالله لا يقتلون عشرة ولا ينجو منهم عشرة.

فشدوا عليهم فوالله ما قتل من أصحابه تمام عشرة ولا نجا منهم تمام عشرة.

ثم قال: اطلبوا ذا التدية. فطلبوه فقالوا: لم نجد. فقال: والله ما كذبت قط ولا كُذبت، والله لقد أخبرني رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه يقتل مع شر جيل يقتلهم خير جيل. ثم دعا بيلة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فركبها فسار حتى وقفت على قليب فيه قتلى فقال: اقلبوا القتلى واطلبوه بينهم. فإذا هو سبع سبعة، فلما أخرجه قال: الله أكبر! لولا أن تنكلوا فتركوا العمل لأخبرتكم بما جعل الله جل وعز لمن قتلهم على لسان نبيه، صلى الله عليه وسلم.

ومن الأخبار في مثله قيل: دخل هشام بن عروة على المنصور فقال له: يا أبا المنذر أتذكر حيث دخلت عليك أنا وأخي مع أبي الخلائف وأنت تشرب سويقاً بقصبة يراع فلما خرجنا من عنك قال أبي: استوصوا بالشيخ خيراً واعرفوا حقه فلا يزال في قومكم بقية ما بقي؟ قال: ما أثبت ذلك يا أمير المؤمنين. فلامه بعض أهله وقالوا: يذكرك أمير المؤمنين ما يمتّ به إليك وتقول له لا أذكره؟ فقال: لم أذكره ولم يعودني الله في الصدق إلا خيراً.

قال: قدم زياد على معاوية، فلما طال بهم المجلس حدثه زياد بحديث، فقال له معاوية: كذبت. فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين فوالله ما حللت للكلام حبوة إلا على بيعة الصدق ولم أكذب، وحياة الكذب عندي موت المروءة، فاستحياه معاوية وقال: يغفر الله لك يا أخي، فكأنني أرى بك حرب بن أمية في جميل شيمه وكرم أخلاقه.

قال: وكان الفضل بن الربيع يخاطب الرشيد فقال له الرشيد: كذبت. فقال: يا أمير المؤمنين وجه الكذب لا يقابل وجهك ولسانه لا يقابل جوابك.

### محاسن الكذب

روي عن المغيرة بن إبراهيم قال: لم يرخص لأحد في الكذب إلا للحجاج بن علاط، فإنه لما فتحت خيبر قال لرسول الله: إن لي عند امرأة من قريش وديعة فإن أذن لي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن أكذب كذبة فلعلي أن أستلّ وديعتي. قال: فرخص له. فقدم مكة فأخبرهم أنه ترك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أسيراً في أيديهم يأتمرون فيه، قائل يقول يقتل وقائل يقول لا بل يبعث إلى قومه فيكون ذلك منة.

فجعل المشركون يتباشرون بذلك ويؤتسون العباس عم النبي، صلى الله عليه وسلم، منه والعباس بريهم التجلد. وأخذ الرجل وديعته، فاستقبله العباس فقال: ويحك ما الذي أخبرت به؟! فأعمله السبب ثم أخبره أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد فتح خيبر واستنكح صفية بنت حبي بن أخطب وقتل أباهما وزوجها، وقال له: اكتب عليّ اليوم وغداً حتى أمضي، ففعل ذلك. فلما مضى أخبرهم العباس بالذي أخبره فكتبوا.

وروي أن رجلاً أتى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إني أستسرّ بخلال أربع: الزناء والسرق وشرب الخمر والكذب، فأيهن أحببت تركته لك سراً. فقال: دع الكذب. فمضى الرجل فهمم بالزناء فقال: يسألني رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإن جحدت نقضت ما جعلته له وإن أقررت حددت، فلم يزن، ثم همم بالسرقه وبشرب الخمر ففكر في مثل ذلك فرجع إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال له، عليه السلام: تركتهن أجمع.

ومن ملح الكذب قيل: إنه كان بين يحيى بن خالد البرمكي وبين عبد الله بن مالك الخزاعي عداوة وتحاسد وكان كل واحد منهما ينتظر لصاحبه الدوائر، فلما ولي عبد الله بن مالك أذربيجان وأرمينية ضاق برجل من الدهاقين بالعراق الأمر وتعذرت عليه المطالب فحمل نفسه على أن افتعل على لسان يحيى بن خالد إلى عبد الله بن مالك بالوصاية به وأكد بمعاونته كل التأكيد، ولم يعلم ما بينهما من التباعد، فشخص من مدينة السلام إلى أذربيجان وصار إلى باب عبد الله بن مالك بالكتاب، فأوصله الحاجب، فقال له عبد الله: أدخل صاحب هذا الكتاب. فأدخله. فقال له عبد الله: إن كتابك هذا مفتعل ولكنك قد تجشمت هذه الشقة البعيدة ولسنا نخيك. فقال الرجل: أما كتابي فليس بمفتعل وإن كنت إنما تقصده بهذه التهمة لتصرفه فإله جل وعز حسبي وعليه أتوكل. فقال عبد الله: أفترى أن تجس في دار وتزاح علتك إلى أن أكتب وأستطلع الرأي وأعرف نبأ هذا الكتاب فإن كان مزوراً عاقبتك وإن كان صحيحاً خيرتك بين الصلات والولايات فأياها اخترت سوغتك؟ قال: نعم. فأمر عبد الله بحبسها وإزاحة علتها وكتب إلى وكيله بالعراق: إن رجلاً يسمى فلان بن فلان أورد عليّ كتاباً من أبي عليّ يحيى بن خالد البرمكي فتعرف لي أمر هذا الكتاب واكتب إلي بالحل فيه.

فصار الوكيل بكتاب عبد الله إلى يحيى بن خالد فقرأه عليه، فدعا بالدواة وكتب إليه بخطه: فلان من أحص من يليني وأوجبهم حقاً وقد أخبرني صاحبك بشكك في أمره فأزل، جعلت فداك، الشك وليكن صرفه إلي معجلاً بما يشبهك.

فلما خرج الوكيل قال يحيى لأصحابه: ما تقولون في رجل افتعل عليّ كتاباً إلى عبد الله بن مالك وصل به من مدينة السلام إلى أذربيجان؟ فقالوا جميعاً: نرى أن تفضحه وتكشف ستره وتعلن أمره ليرتدع به غيره ويصير نكالاً وأحدوثاً للعالمين. قال: لا والله، وهذا رأيكم؟ قالوا: نعم. فقال: قبح الله هذا من رأي فما أقله وأندله! ويحكم هذا رجل ضاق به الرزق فأمل في خيراً ووثق بي وشخص إلى أذربيجان مع بعد شقتها وصعوبة طريقها أتشيرون عليّ أن أحرمه ما أمّله في حتى يسيء ظنه بي وقد عرفتم قدر عبد الله وحاله عند أمير المؤمنين وأني لم أكن أحتال لهذه المنزلة إلا بالخطير من المال، أفتريدون أن أرد الأمر بيني وبينه بعد الألفة



الواقعة إلى الحشمة؟ هذا والله النكد طول الأبد وغاية الضعف ونهاية الانتكاس! ثم أخبرهم بما كتب به إلى عبد الله فتعجبوا من كرمه واحتماله الكذب.

وورد الكتاب بخطه على عبد الله فدعا بالرجل وقد سقط في يده لاعتراض سوء الظن بقلبه، فلما دخل عليه قال. هذا كتاب أخي قد ورد عليّ بصحة أمرك وسألني تعجيل صرفك إليه. فدعا له بمائتي ألف درهم وبما يتبعها من الدواب والبغال والجواري والعلمان والخلع وسائر الآلة ثم أصدره. فلما حضر باب يحيى بن خالد أدخل ذلك أجمع إليه وعرضه عليه، فأمر له يحيى بمثل ذلك وأثبتته في خاصته.

قيل: وكان رجال من أهل المدينة من فقيهه وراويته وشاعر يأتون بغداد فيرجعون بحظوة وحال حسنة، فاجتمع عدة منهم يوماً فقالوا لصديق لهم لم يكن عنده شيء من الآداب: لو أتيت العراق فلعلك كنت تصيب شيئاً. فقال: أنتم أصحاب آداب تلتئمسون بما! قالوا: نحن نحتاج لك، فجهزوه وقدم بغداد وطلب الاتصال بعلي بن يقطين بن موسى وشكا إليه الحاجة! فقال: ما عندك من الأدب؟ قال: ليس عندي من الآداب شيء غير أنني أكذب الكذبة فأخيل إلى من سمعها أي صادق. وكان ظريفاً مليحاً، فأعجب به وعرض عليه مالاً فأبى أن يقبله وقال: لست أريد منك إلا أن تسهّل إذني وتدني مجلسي. قال: ذاك لك. فكان من أقرب الناس إليه مجلساً حتى عرف بذلك.

وكان المهدي غضب على رجل من القواد حتى استصفى ماله فكان يختلف إلى علي بن يقطين رجاء أن يكلم له المهدي، وكان يرى قرب المدني منه ومكانه، فأتى المدني القائد عشاء وقال له: ما البشري؟ فقال: لك البشري وحكمك، قال: قد أرسلني إليك علي بن يقطين وهو يقرئك السلام ويقول: قد كلمت أمير المؤمنين في أمرك ورضي عنك وأمر برد مالك وضياعك ويأمرك بالغدو عليه لتغدو معه إلى أمير المؤمنين متشكراً، فدعا له الرجل بألف دينار وثياب وكسوة وحمالان ودفعها إليه، وغدا على علي مع جماعة من وجوه العسكر متشكراً. فقال له علي: وما ذاك؟ فقال: أخبرني أبو فلان، وهو إلى جنبه، بكلامك لأمر المؤمنين في أمري ورضاه عني! فالفتت إلى المدني فقال: ما هذا؟ فقال: أصلحك الله! هذا بعض ذلك المتاع نشرناه. فضحك علي وقال: عليّ بدابتي، فركب إلى المهدي وحدثه بالحدث فضحك المهدي وقال لعلي: فإننا قد رضينا عن الرجل ورددنا عليه ماله فأجر على المدني رزقاً واسعاً واستوص به خيراً. فأجرى عليه ووصله، وكان يُعرف بكذاب الخليفة.

قال: وكتب عبد الملك بن مروان إلى عمر بن محمد صاحب البلقاء أن اخطب عليّ الشقراء بنت شبيب بن عوانة الطائية وهو يومئذ في بادية له ومعه عدة من أصحابه. فأرسل إليه عمر: إن أمير المؤمنين كتب إليّ أن اخطب عليه الشقراء ابنتك فاحضر فارسل إليه. فقال: ما لنا إليكم حاجة، فإن كانت لأمر المؤمنين إلينا حاجة فليأت أو يرسل رسولاً. فقال عمر: سيروا بنا إليه. فسار في جماعة من وجوه البلقاء. قال: فدفعنا إلى أعرايي بفناء خيمته فسلمنا فرد السلام، وتكلم عمر فقال الأعرايي: أرسول أمير المؤمنين أنت؟ قال: نعم، قال: فإننا قد زوجناه على صداق نساننا مائة من الإبل وما يتبعها من الثياب والخدم. فقلت: نعم. ثم جاءنا بثلاث جفان من كسور خبز ولبن فأكلنا ثم انصرفنا، فكتبت إلى عبد الملك بن مروان فأرسل إليه بمائة من

الإبل وعشرة آلاف درهم وما يتبع ذلك من الطيب والخدم والأثاث. فجهزها ثم حملها إلى عبد الملك وما معها من ذلك شيء إلا البعير الذي ركبته ومعها نسوة من بنات عمها. فلما وافت عبد الملك أمر فأدخلت إلى دار فأقامت أياماً ثم إن عبد الملك بنى بها فكان كثيراً ما يقول: ما رأيت مثل هذه الأعرابية ظرفاً وخلقاً ومنطقاً.

فاشتمد ذلك على عاتكة بنت يزيد بن معاوية فأرسلت إلى روح بن زنباع، وكان من أخص الناس بعبد الملك، فقالت: يا أبا زرعة قد علمت رأي أمير المؤمنين معاوية كان فيك ورأي يزيد من بعده وأن أمير المؤمنين قد أعجبه أمر هذه الأعرابية وغلبت على قلبه فشأنك في إفساد ذلك عنده. قال: نعم ونعمة عين. ثم خلا بعبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين كيف ترى الأعرابية؟ قال: قد جمعت ما جمع النساء الحاضرة والبادية. قال: يا أمير المؤمنين إنك من الأعرابية كما قال الأول: وإذا تسرك من تميم خلّة... فلما يسوءك من تميم أكثر فقال له: لا تقل ذلك، قال: كأنك بما قد حالت إلى غير ما هي عليه. فكثر ذلك منه. ثم إن عبد الملك دخل عليها فقال: يا شقراء أعلمت أن روحاً قال لي كذا وكذا؟ قالت: ولم ذاك وحال عشيرتي وعشيرته كما تعلم؟ قال: هو علي ما قلت لك وإن أحببت أسمعك ذلك منه! فقالت: قد أحببت.

فأمرها أن تجلس خلف الستر وأرسل إلى روح، فلما دخل عليه قال: هيه يا أبا زرعة والله لقد وقع كلامك مني موقعاً! قال: نعم يا أمير المؤمنين إن الأعرابية تنتكث كانتكاث الحبل ثم لا تلدي ما أنت عليه منها. فعجلت ورفعت الستر وقالت: أنت فلا حياك الله ولا وصل رحمك قد كان يبلغني هذا عنك فما كنت أصدق! فوثب روح وقال: يا هذه إن هذا أرسل إلي فأعلمني أنك خلف الستر وعزم علي أن أتكلم بهذا فلم أجد بداً من أبرّ عزيمته، وأما أنت فلا يسوءك الله! قالت: صدق والله ابن عمي وأنت الذي حملته على ما قال. فقال عبد الملك: ويلك يا شقراء ألا تقبلي منه! قالت: هو عندي أصدق منك. وجعل روح يقول وهو مولّ: هو والله الحق كما أقول. فخرج ووقع الكلام بينهما.

وقال خالد بن صفوان: دخلت على أبي العباس وهو خالي اجلس فقلت: يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تأمر بحفظ الستر لألقي إليك شيئاً أنصحك به أو قال فيه. فأمر بذلك. فقلت: يا أمير المؤمنين فكّرت في هذا الأمر الذي ساقه الله إليك ومنّ به عليك فرأيتك أبعد الناس من لذّاته وأتعب الخلق فيه؟ قال: وكيف ذاك يا خالد؟ قلت: باقتصارك من الدنيا على امرأة واحدة وتركك البيضاء المشتهاة لبياضها والخضرة التي تتراد لخضرتها والسمينة المشتهاة لوطائها وذكّرت الرشيقّة الرخيمة والجعدة السبطة، فقال: يا خالد هذا أمر ما مرّ بسمعي! فاستأذن في الانصراف فأذن له.

وخرجت إليه أم سلمة وهو ينكت بالقلم على دواة بين يديه، فقالت: يا أمير المؤمنين أراك مفكراً، أنتقص عليك عدو؟ قال: كلا ولكن كلام ألقاه إلي خالد بن صفوان فيه نصيحتي. وشرح ذلك لها. قالت: فما قلت لابن الزانية؟ قال: ينصحتني وتشتمينه! فقامت عنه وبعثت إلى مائة من مواليها فقالت: لهذا اليوم

اتخذتكم وأعددتكم! امضوا إلى خالد بن صفوان فحيث وجدتم خالداً فاهروا إلى أعضائه عضواً عضواً  
فرضوها. فطلبت ومررت بقوم أحدثهم إذ أقبل القوم فدخلت في جملتهم ولجأت إلى دار ووقعت البغلة  
فرضوها بالأعمدة وبقيت لا تظلني سماء ولا تقلني أرض.

فإني جالس ذات يوم إذ هجم عليّ قوم فقالوا: أجب أمير المؤمنين. فقممت ولا أملك من نفسي شيئاً حتى  
دخلت عليه وهو في ذلك المجلس وأنا أسمع حركة من وراء الستر فقلت أم سلمة والله. فقال: يا خالد من  
أين تُرى؟ قلت: كنت في غلة لي. ثم قال: الكلام الذي كنت ألقيته إليّ في بعض الأيام أعده عليّ. قلت:  
نعم يا أمير المؤمنين، إن العرب اشتقت اسم الضر من اسم الضرتين، وإن الضرائر شر الذخائر، والإماء آفة  
المنازل، ولم يجمع رجل بين امرأتين إلا كان بين جهرتين تحرقه واحدة بناها وتلحقها أخرى بشرارها. قال:  
ليس هذا هو! قلت: بلى. قال: ففكر. قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وأخبرت أن الثلاث إذا اجتمعن كن  
كالأنافي المحرقة، وأن الأربعة يتغايرن فلا يصبرن ويتعالين فلا يهوين، وإن أعطين لم يرضين. قال: لا والله ما  
هو هذا. قلت: يا أمير المؤمنين وأخبرت أن الأربعة همّ ونصب وضجر وصخب إنما صاحبهن بين حاجة  
تطلب وبلية تترقب، إن خلا بواحدة منهن خاف شر الباقيات، وإن آثرها كن له أعدى من الحيات،  
وأخبرت أن الجوّاري رجال لا خصى لهن وخرق لا حياة معهن. قال: لا والله ما هو هذا! قلت: بلى إن بني  
مخزوم ريحانة العرب وكنانة بيت قريش، وعندك ريحانة الرياحين وسيدة نساء العالمين، وحدثني أنك قم  
بالتزوج فقلت لك هيهات تضرب في حديد بارد ليس ذلك بكائن آخر الزمان المعين! قال: ويملك  
أستعمل الكذب؟ قلت: فمع السيوف لعب! قال: فاذهب فإنك أكذب العرب، قلت: فأيهما أصلح،  
أكذب أم تقتلني أم سلمة؟ فاستلقي ضاحكاً وقال: اخرج قبحك الله! وارتفع الضحك من وراء الستر  
وانصرف إلى منزلي فإذا خادم لأم سلمة ومعه خمس بدر وخمسة نخوت وقال: الزم ما سمعناه منك.

قال الأصمعي: قال الخليل بن سهل: يا أبا سعيد أعلمت أن طول رمح رستم كان سبعين ذراعاً من حديد  
مصمت في غلظ الراقود؟ قال: فقلت ها هنا أعرابي له معرفة فاذهب بنا إليه نحدثه بهذا. فذهبت به إلى  
الأعرابي فقال له ذلك فقال الأعرابي: قد سمعنا بهذا وقد بلغنا أن رستم هذا واسفنديار أتيا لقمان بن عاد  
بالبادية فوجداه نائماً ورأسه في حجر أمه فقالت لهما: ما شأنكما؟ فقالا: بلغنا شدة هذا الرجل فأتيناها،  
فأنتبه فرعاً من كلامهما فنفخهما فألقاهما إلى أصفهان فقبورهما اليوم بما. فقال الخليل: قبحك الله ما  
أكذبك! فقال: يا ابن أخي ما بيننا شيء إلا وهو دون الراقود.  
قيل: وقدم بعض العمال من عمل فدعا قوماً إلى طعامه وجعل يحدثهم بالكذب فقال بعضهم: نحن كما قال  
الله عز وجل: سماعون للكذب أكلون للسحت.

## ومن ذم الكذب

قيل: إنه وجد في كتب الهند: ليس لكذوب مروءة ولا لضجور رياسة ولا للملول وفاء ولا لبخيل صديق.  
وقال قتيبة بن مسلم لبيته: لا تطلبوا الحوائج من كذوب فإنه يقرّبها وإن كانت بعيدة ويبعدها وإن كانت

قريبة، ولا من رجل قد جعل المسألة مأكلة فإنه يقدم حاجته قبلها ويجعل حاجتك وقاية لها، ولا من أحق فإنه يريد نفعك فيضرك.

وقيل: أمران لا ينفكان من كذب: كثرة المواعيد وشدة الاعتذار.

وقال: كفاك موجحاً على الكذب علمك بأنك كاذب.

وقال رجل لأبي حنيفة: ما كذبت قط. فقال: أما هذه فواحدة.

وفي المثل: هو أكذب من أسير السند، وذلك أنه يؤخذ الخسيس منهم فيزعم أنه ابن الملك. ويقال: هو

أكذب من الشيخ الغريب، وذلك أنه يتزوج في الغربة وهو ابن سبعين سنة فيظن أنه ابن أربعين سنة. وقيل: هو أكذب من مسيلمة.

ومما قيل في ذلك من الشعر:

حسب الكذوب من البلى ... ية بعض ما يحكى عليه

ما إن سمعت بكذبة ... من غيره نسبت إليه

ولآخر:

لقد أخلفتني وحلفت حتى ... إخالك قد كذبت وإن صدقتا

ألا لا تحلفن على يمين ... فأكذب ما تكون إذا حلفتا

ولآخر:

كلام أبي خلفٍ كله ... نداء الفواخت جاء الرطب

وليس وإن كنّ يشبهه ... يقاربه أبداً في الكذب

ولآخر:

قد كنت أنجز دهرًا ما وعدت إلى ... أن أتلف الوعد ما جمعت من نشب

فإن أكن صرت في وعدي أخوا كذبٍ ... فنصرة الصديق أفضت بي إلى الكذب

### محاسن فضل المنطق

سئل بعض الحكماء عن المنطق والصمت فقال: إنك تمدح الصمت بالمنطق ولا تمدح المنطق بالصمت وما عبّر عن شيء فهو أفضل منه.

وسئل آخر عنها فقال: أخرى الله المساكنة فما أفسدها للسان وأجلبها للعي والحصر، والله للممارسة في

استخراج حق أسرع في هدم العي من النار في يابس العرفج. فقليل له: قد عرفت ما في الممارسة من الدم.

فقال: إن ما فيها أقل ضرراً من السكتة التي تورث عللاً وتولد أدواء أيسرها العي.

وقال بعض الحكماء: اللسان عضوٌ فإن مرنته مرن وإن تركته حزن.

### محاسن الصمت

الهيثم بن عدي قال بعض الحكماء: تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات رميت عن قوس واحدة فقال كسرى: أنا على ردّ ما لم أقل أقدر مني على رد ما قد قلت. وقال ملك الهند: إذا تكلمت بالكلمة ملكني وإن كنت أملكها. وقال قيصر: لا أندم على ما لم أقل وقد أندم على ما قد قلت. وقال ملك الصين: عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول.

وقال بعضهم: من حصافة الإنسان أن يكون الاستماع أحب إليه من المنطق إذا وجد من يكفيه، فإنه لن يعدم في الاستماع والصمت سلامة وزيادة في العلم.

وقال بعض الحكماء: من قدر أن يقول فيحسن قادر أن يصمت فيحسن، وليس كل من صمت فأحسن قادر أن يقول فيحسن.

وقال أبو عبيد الله كاتب المهدي: كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام. وكان يقال: من سكت فسلم كان كمن قال فغنم.

وقال علي بن عبيدة: الصمت أمان من تحريف اللفظ وعصمة من زيغ المنطق وسلامة من فضول القول. وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إن الله جل وعز يكره الانبعاث في الكلام، فرحم الله امرأً أوجز في كلامه واقتصر على حاجته.

قيل: وكلم رجل سقراط بكلام أطاله فقال: أنساني أول كلامك طول عهده وفارق آخره فهمي بتفاوته. قيل: ولما قدم ليقتل بكت امرأته، فقال: ما بيكيك؟ قالت: تُقتل ظلماً. قال: وكنت تحبين أن أقتل حقاً! قيل: ودخل رجل على معاوية ومعه ابن له يتوكأ عليه فقال: من هذا الغلام معك؟ قال: ابن لي يتيم. قال: حق لمن كنت أباه أن يكون يتيماً.

### محاسن الكلام في الحكمة

اصبر محتسباً مأجوراً وإلا صبرت مضطراً مأزوراً.  
المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين إن بقيت لم يبق الهمة.  
إذا حضر الأجل افتضح الأمل. الأمل يتخطى الأجل.  
من شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة.  
لا يُستبأ الدعاء بالإجابة وقد سدت طريقه بالذنوب.  
واجد لا يكتفي وطالب لا يجد.  
الحاسد مغتاض على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه.  
شكرك نعمة سائلة يقتضي لك نعمة مستأنفة.  
من قبل عطاءك فقد أعانك على الكرم.  
لولا من يقبل الجور لم يكن من يجور.  
من مدحك بما ليس فيك فحقيق بأن يذمك بما ليس فيك.

من تكلف ما لا يعنيه فاته ما يعنيه.  
من أحسّ بضعف حيلته عن الاكتساب بخل.  
عالم معاند خير من جاهل منصف.  
أطع من هو أكبر منك ولو بليلة.  
حافظ على الصديق ولو في حريق.  
أعظم المصائب انقطاع الرجاء.  
إذا كُفيت فاكثف.  
الليل أخفى للويل.  
عين عرفت فذرفت.  
لم يفتم من لم يمت.  
أصدع الفراق بين الرفاق.

### محاسن البلاغة

يقال في المثل: هو أبلغ من قُسِّ، وكان من حكماء العرب، وهو أول من كتب من فلان إلى فلان، وأقر بالبعث من غير نبي، وأول من قال البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه. وقال فيه الأعشى:  
وأبلغ من قسٍ وأجرا من الذي ... بذى الغيل من خفّان أصبح خادرا  
قال: وسئل أرسطاطاليس عن البلاغة فقال: أن تجعل في المعنى الكثير كلاماً قليلاً وفي القليل كلاماً كثيراً.  
ووصف آخر بلاغة رجل فقال: كيف قادهم الله بأزمة أنوفهم إلى مصارع حنوفهم.  
وقال اليوناني: البلاغة تصحيح الأقسام واختيار الكلام.  
وقال الرومي: البلاغة حسن الاقتصاد عند البديهة والاقبال عند الإطالة.  
وقال الهندي: البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة.  
وقال الفارسي: البلاغة أن تعرف الفصل من الوصل.  
وقال إبراهيم الإمام: يكفي من حظ البلاغة أن يُوتى السامع من سوء إفهام الناطق ولا يُوتى الناطق من سوء إفهام السامع.  
وسئل آخر عن البلاغة فقال: أن تجعل بينك وبين الإكثار مسورة للاختصار.  
وقال أحنف: البلاغة الوقوف عند الكفاية وبلوغ الحاجة بالاقتصاد.  
وقال معاوية لصحار العبدى: ما البلاغة؟ فقال: أن توجب فلا تبطيء وتقول فلا تخطيء.  
وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: أن لا تبطيء ولا تخطيء.  
وقيل: البليغ من أغنك عن النفسير.  
وقال خالد بن صفوان: ليست البلاغة بحفة اللسان ولا كثرة الهديان ولكنها إصابة المعنى والقصد للحجة.

## محاسن الأدب

قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: كفى بالأدب شرفاً أنه يدّعيه من لا يحسنه ويفرح إذا نسب نسب إليه، وكفى بالجهل حمولاً أنه يتبرأ منه وينفيه عن نفسه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه. فأخذ بعض المولدين معنى قوله فقال:

ويكفي حمولاً بالجهالة أنني ... أراع متى أنسب إليها وأغضب  
وقال، رحمة الله عليه: قيمة مل امريء ما يحسن. فرواه بعض المحدثين شعراً فقال:  
قال علي بن أبي طالب ... وهو اللبيب القطن المتقن  
كلّ امريء قيمته عندنا ... وعند أهل العلم ما يحسن  
وأنشد أبو الحسن بن طباطبا العلوي لنفسه:

حسودٌ مريض القلب يخفي أنيه ... ويضحى كتيب البال عندي حزينه  
يلوم على أن رحت في العلم راغباً ... وأجمع من عند الرواة فنونه  
فأعرف أبقار الكلام وعوفها ... وأحفظ مما أستفيد عيونه  
ويزعم أن العلم لا يجلب الغنى ... ويحسن بالجهل الذميمة ظنونه  
فيا لائمى دعني أعالى بقيمتي ... فقيمة كل الناس ما يحسنونه  
وقيل: الأدب حياة القلب ولا مثيية أعظم من الجهل. وأنشدنا الكسروي:  
عِيّ الشريف يزين منصبه ... وترى الوضع يزينه أده

قال: وسمع بعض الحكماء رجلاً يقول: إني غريب. فقال: الغريب من لا أدب له.  
وكان يقال: من قعد به حسبه فمض به أده.

وقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: العلم خير من المال لأن العلم يجرسك وأنت تحرس المال، والمال يبیده الإنفاق، والعلم يزكو على الإنفاق، والعلم حاكم والمال محكوم عليه.  
وقيل لبرزجمهر: الأدب أفضل أم المال؟ قال: بل الأدب. قيل له: فما بال الأدباء بباب الأغنياء ولا نرى الأغنياء بباب الأدباء؟ فقال: لعلم الأدباء بمقدار فضل المال وجهل الأغنياء بمقدار الأدب.  
وقال بعض الحكماء: إن كان الرزق لا بد مطلوباً بسبب فأفضل أسبابه ما افتتح بالأدب، ونظرنا فلم نره اجتمع لشيء من أصناف الصناعات كما اجتمع للكتابة لأنها لا تكمل لأحد حتى يبتدئها بريضة نفسه في الأدب فينفذ في الخط والبلاغة في الكتب والفصاحة في المنطق والبصر بصواب الكلام من خطابه والعلم بالشريعة وأحكامها والمعرفة بالسياسة والتدبير.

## المنظرات في الأدب

حدثنا أبو ناظرة البصري عن المازني قال: بينا أنا قاعد في المسجد إذا صاحب بريد قد دخل وهو يسأل عني ويقول: أيكم المازني؟ فأشار الناس إليّ، فقال: أجب، قلت: من ومن أجب؟ قال: الخليفة، فذعرت منه وكت رجلاً فاطمياً فظننت أن اسمي رُفِعَ فيهم فقلت: أصلحك الله! تأذن لي أن أدخل منزلي فأودع أهلي وأتأهب لسفري؟ فقال: افعل. فعلمت أنه لو كان شراً لما أذن لي فسكنت إلى قوله ودخلت المنزل فودّعهم وخرجت إليه، فحملني على دابة من دواب البريد حتى وافى بي باب الواثق، فما كان إلا قليلاً حتى أذن لي فدخلت إلى بهو وإذا رجل قاعد وعلى رأسه سبعون وصيماً. فذهبت أسلم عليه بالخلافة. فقيل لي: هذا بغا. ثم تقدمت إلى بهو آخر فإذا رجل قاعد على كرسي وبين يديه سبعون وصيماً. فذهبت أسلم عليه بالخلافة فقيل: هذا وصيف. حتى دفعت إلى الستر فما زال يقول: اذهب ادن ادن، حتى حاذاني بسريره، ثم قال: ما اسمك؟ قلت: بكر بن محمد. قال: ممن سمعتها؟ يعني اللغة. قلت: من مزاحم العقيلي، فقال حدثني. فلم أدر بما أحدثه وقلت: لعل حديثي على البديهة يعجبه، قلت: يا أمير المؤمنين قال رؤبة بن العجاج:

لا تعلوها وادلوها دلوا ... إن مع اليوم أخاه غدوا

فكانه فطن لما أردت فقال: أجل أتدري لم دعونك؟ قلت: لا. قال: وقع بيني وبين جارية لي شجار في بيت أردت لها إعرابه فامتنعت عليّ وقالت: سل المازني. قلت: فأسمعي يا أمير المؤمنين. قال: نعم. وأوماً إلى خادم بين يديه فضرب ستارة كادت عيني تلتمع من كثرة ذهبها ثم سمعت وراءها نقرأ لولا جلالة أمير المؤمنين لرقصت عليه، ثم غنت:

أظلم إن مصابكم رجلاً ... أهدى السلام تحيةً ظلم

فقال: كيف ما سمعت؟ قلت: صواب. قال: فقد أخطأنا إذاً، قلت: وكيف؟ قال أمير المؤمنين قلت:

أظلم إن مصابكم رجلاً ... أهدى السلام تحيةً ظلم

فقلت: وأصاب أمير المؤمنين. قال: فكاد يقوم إليّ فرحاً، ثم أدخل رأسه في الستارة فأوماً إليّ الخادم في الخروج فخرجت فناولني صرةً فيها خمسمائة دينار وحملت على البريد حتى رددت إلى منزلي بالبصرة. والشعر لأبي دهب الجمحي يقول فيه:

عُقم النساء فلا يلدن شبيهه ... إن النساء بمثله عُقم

فلا يلدن شبيهه أجود.

وحدثنا علي بن يزيد عن إسحاق بن المسيب بن زهير قال: حدثني المفضل قال: كنت يوماً عند الصراة ببغداد وكت في الصحابة فأتاني رسول المهدي فقال لي: أجب. فخفت أن يكون ساع سعي بي، فدخلت منزلي ولبست ثيابي وهممت أن أخبر أهلي ثم قلت: لم أعجل لهم المهم؟ إن كان خير سيأتيهم وإن كان غير ذلك فلا أكون عجلاً لهم. فمضيت حتى دخلت عليه وأنا مرعوب فسلمت عليه ورد السلام، وإذا عنده الفضل بن الربيع وعلي بن يقطين وغيرهما، فقال: إن هؤلاء زعموا أنك أعلم الناس بالشعر فأخبرني ما أشعر بيت قالته العرب؟ فوقعت في شيء لم أدر كيف هو فجهدت والله أن أنشده بيتاً من شعر فما قدرت عليه. فقال لي: ما لك لا تتكلم؟ فجرى على لساني ذكر الخنساء فقلت: لقد أحسنت الخنساء في قولها:



وإن صخرًا لمولانا وسيدنا ... وإن صخرًا إذا نشتوا لنحار  
وإن صخرًا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

قال: فاستبشر بذلك، وسر سروراً شديداً، ثم قال: أنت والله أعلم الناس وقد قلت هذا لهؤلاء فأبوا عليّ.  
فقال القوم: كان أمير المؤمنين أولى بالصواب. فقال لي: يا مفضل أسهرتني البارحة أبيات حسين بن مطير  
الأسدي. قلت: وأي أبياته؟ قال قوله:

وقد تعدد الدنيا فيضحى غنيها ... فقيراً ويغنى بعد بؤس فقيرها

وكم قد رأينا من تغير عيشة ... وأخرى صفا بعد اكدرار غدورها

قلت: مثل هذه فليسهرك يا أمير المؤمنين زادك الله توفيقاً وتسديداً! قال: حدثني يا مفضل. قلت: أي  
الأحاديث تحب؟ قال: أحاديث الأعراب.

فما زلت أحدثه حتى بلغت الشمس منه، ثم قال: ما لك، قلت: يا سيدي ما تسأل عن رجل مأخوذ بعشرة  
آلاف درهم ليست عنده! قال: عليك عشرة آلاف درهم؟ قلت: نعم. فقال: يا ربيع احمل إليه عشرة  
آلاف درهم لقضاء دينه وعشرة آلاف درهم بيني بما داره وعشرة آلاف ينفقها على عياله، فرجعت ومعني  
ثلاثون ألف درهم.

وقال النضر بن شميل: دخلت على المأمون بمرو وهو في بهو له في يوم صائف وعليّ قميص مرقوع فقال: يا  
نضر تدخل على أمير المؤمنين في خلقان ثيابك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين حرّ مرو وأنا شيخ كبير لا أحتمل  
الحر ولا البرد. ثم أنشدته:

لو يُشترى الشباب لا شترته ... شبابي النضر الذي أبلته  
بكل ما لي ثم ما استغليته

ثم أجرينا الحديث فقال: يا نضر أي النساء أحب إليك؟ قلت: البيضاء الفرعاء المديدة، فقال: حدثني هشيم  
بن بشير عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إذا تزوج الرجل  
المرأة لدينها وجمالها كان له فيها سداد من عوز. قلت: صدق هشيم. حدثني عوف عن الحسن بن علي بن  
أبي طالب، كرم الله وجهه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إذا تزوج الرجل المرأة لدينها كان  
له فيها سداد من عوز. قال: يا نضر والسداد خطأ؟ قلت: خطأ يا أمير المؤمنين! قال: وما يدريك؟ قلت:  
السداد بالفتح القصد في الدين وفي السبيل، والسداد البلغة، وكل شيء سددت به شيئاً فهو سداد. قال:  
أتعرف العرب ذلك؟ قلت: نعم هذا العرجي من ولد عثمان بن عفان، رحمه الله، حيث يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كرهية وسداد نعر

فاستوى جالساً وقال: قبح الله من لا أدب له! ثم أقبل عليّ فقال: أخبرني بأخلب بيت قائلته العرب، قلت:  
قول ابن يعض في الحكم بن مروان:

تقول لي والعيون هاجعة ... أقم علينا يوماً فلم أقم

متى يقل صاحب السرادق ه ... ذا ابن يعضٍ بالباب يبتسم

قد كنت أسلمت فيك مقتبلاً ... فهات أدخل وأعطني سلمي  
قال: لقد أحسن وأجاد، فأخبرني بأنصف بيت قالته العرب، قال: قول أبي عروبة:  
إني وإن كان ابن عمي واعداً ... لمداهن من خلفه وورائه  
ومفيده نصري وإن كان امراً ... متباعداً من أرضه وسماه  
فأكون والي سرّه وأصونه ... حتى يحين عليّ وقت أدائه  
وإذا الحوادث أجحفت بسوامه ... قرّبتُ جلتنا إلى جربائه  
وإذا دعا باسمي ليركب مركباً ... صعباً ركبت له على سيسائه  
وإذا رأيت عليه برداً ناضراً ... لم يلغني متمنياً لردائه  
فقال: لقد أحسن وأجاد، فأخبرني عن أعز بيت قالته العرب. قلت: قول راعي الإبل:  
أطلب ما يطلب الكريم من ال ... رزق لنفسي وأجل الطلبة  
وأحلب الثرة الصفي ولا ... أطلب في غير خلفها حلبا  
إني رأيت الفتى الكريم إذا ... رغبته في صنيعه رغبا  
والنذل لا يطلب العلاء ولا ... يعطيك شيئاً إلا إذا رهبا  
مثل الحمار الموقع السوء لا ... يحسن مشياً إلا إذا ضربا

فقال: والله لقد أحسن وأجاد. ودعا بالدواة فما أدري ما يكتب ثم قال: يا نصر كيف تقول من الإتراب؟  
قلت: أقول اترب القرطاس والقرطاس متروب. قال: فلم كسرت الألف؟ قلت: لأنها ألف وصل تسقط في  
التصغير. قلت: فكيف تقول من الطين؟ قلت: طن الكتاب والكتاب مطين. قال: هذه أحسن من الأولى. ثم  
دفع ما كتب إلى خادم ووجهه معي إلى ذي الرياستين الحسن بن سهل، فقال لي ذو الرياستين: ما الذي  
جرى بينك وبين أمير المؤمنين؟ فقد أمر لك بخمسين ألف درهم. فقصصت عليه القصة. فقال ويحك لحنت  
أمير المؤمنين. قلت: معاذ الله بل لحنت هشيماً لأنه كان لحانة، فوقع لي أيضاً من عنده بثلاثين ألف درهم  
فانصرفت بثمانين ألف درهم في حرف واحد سداد وسداد.

قال أبو سعيد الضريير: سمعت ابن الأعرابي يقول: بعث إليّ المأمون فصرت إليه وإذا هو مع يحيى بن أكثم  
يطوفان في حديقة، فلما نظر إليّ ولاني ظهره فجلست فلما أقبل قمت قائماً فأسرّ إلى يحيى بشيء ما فهمت  
كله إلا ما قال: ما أحسن أدبه! وقد أقبل إلى مجلسه ثم التفت إليّ فقال: يا محمد بن زياد من أشعر العرب في  
وصف الخمر؟ فقلت: الذي يقول:

تريك القذى من دونها وهي دونه ... إذا ذاقها من ذاقها يتمطق  
فقال: أحسن الناس قولاً في صفة الخمر الذي يقول:  
فتمشّت في مفاصلهم ... كتمشي البرء في السقم  
فعلت في البيت إذ مزجت ... مثل فعل الصبح في الظلم  
فاهتدى ساري الظلام بها ... كاهتداء السفر بالعلم

قلت: فائدة أمير المؤمنين. ثم قال: ما معنى قول هند:

نحن بنات طارق ... نمشي على غمارق

إن تقبلوا نعانق ... أو تدبروا نفارق

فراق غير وابق

ففكرت في نسبها ونسب أبيها فلم أجد طارقاً فقلت: ما أعرف طارقاً يا أمير المؤمنين. فقال: إنما قالت إنها في العلو والشرف بمنزلة الطارق وهو النجم، من قول الله، عز وجل، والسماء والطارق، قلت: فائدة يا أمير

المؤمنين ثانية. ثم التفت إلى يحيى بن أكنم فقال: أنا يؤبؤ هذا الأمر وابن يؤبئه. فلم أدر ما قال وقمت

لأخرج. فلما نظر إليّ وقد قمت رمى إليّ بعبرة كانت في يده بعنتها بخمسة آلاف درهم، قال: فرجعت إلى

كتبي فظرت فيها لأعرف ما قال فوقعت على هذه الأبيات لبعض الأعراب:

كأتما بنت أبي الحبريه ... قاعدة في إتبها لؤيليه

قد فاقت البؤبؤ والبؤبييه

فعملت أنه عنى السيد وابن السيد.

قال أبو عبد الله الأسواري: دخلت على المأمون في حديقة له وفي يده مقراص ذهب وهو يقرص به ما طال

من أوراق تلك الروضة ويقوم ما بدا من أغصانها، فسلمت وقلت: يا أمير المؤمنين، جعلت فداك، إنك

لمستهتر بهذه الحديقة حتى إنك لا تأمن عليها أحداً. قال: نعم يا أسواري فهل يحضرك في ذلك شيء؟ قلت:

نعم، وأنشدته:

أوائل رسلٍ للربيع تقدمت ... على طيب وجه الأرض خير قدوم

فراقت لها بعد الممات حدائق ... كوالس وكانت مثل ظهر أديم

إذا اقتصبها طرف البصير بلحظة ... توهمها مفروشة برفوم

كأن اخضرار الزهر والروض طالع ... عليه سماء زينت بنجوم

تردت بظلٍ دائمٍ فتضاحكت ... كضحك بروقٍ في بكاء غيوم

وأوردها فحل السحاب عرائساً ... ضعاف القوى من مرضعٍ وفطيم

إذا برزت منهن بكرٌ حسبتها ... تراك وإن أضحت بعين سقيم

كمثل نشاوى الراح يلثم ذاك ذا ... أو الريح جادت بينها بنسيم

تخال وقوع الطل فيهن أدمعاً ... رنت بعيونٍ غير ذات سجوم

قال: أحسنت يا أسواري، يا غلام اسقنا على هذا. ثم جلس على كرسي مغشّى بالحرير وإذا غلام قد أقبل

يهتز كأنه القضيبي المائل حين اخضر شاربه وبدا عذاره وفي يده كأسٌ وإبريق فصب في الكأس من الإبريق

ثم مزجه وناوله إياه، فأخذه في يده ساعة وجعل ينظر إلى الغلام ما يرد بصره عنه، ثم قال: يا أسواري هل

يحضرك في صفة مثل هذا شيء؟ قلت: نعم يا سيدي، وأنشدته:

نحاج مزجٍ شجّ كأسٍ رحيق ... ريق المهفهف فيه أعذب ريق

أذرى لخوف البين حرّ مدامعٍ ... في در خلدٍ فيه ذوب عقيق  
هو في تناهي صدق حسنٍ فائقٍ ... في حسن صورة يوسف الصديق  
قامت على رجلٍ به الدنيا لنا ... إن قام بالمنديل والإبريق  
فرأى على قلبي لواحظ طرفه ... وتلا كتاب الحب بالتحقيق  
إن دام ذا في حسنه أبداً لنا ... سمي فقيه العصر بالزنديق  
قال: فقال المأمون: أحسنت ويحك فمن صاحب هذه الأبيات؟ قلت: فلانٌ يا أمير المؤمنين. فقال: أشعر والله  
منه في هذا المعنى شيخ الشعراء أبو نواس حيث يقول:

كُفّي فلسّ لعاذلٍ بمطيقٍ ... بلغ الهوى بي غاية التحقيق  
قطع الهوى فرط الشباب بباطلٍ ... أيدي الزمان وألسن التصديق  
وجداولٌ موصولةٌ بجداولٍ ... من صوب غاديةٍ ولمع بروق  
تكسو مدامعه الرياض عرائساً ... من نرجسٍ متكاتفٍ وشقيق  
باكرتها قبل الصباح بسحرةٍ ... قبل ابتكار مجرة العيوق  
من كفٍ أحور ذي عذارٍ أخضرٍ ... يسبي القلوب بقده المشوق  
فكأن ما في الكأس من إبريقه ... نارٌ تسلل من فم الإبريق  
وكأنها والماء يأخذ جسمها ... درٌ ينثر فوق أرض عقيق  
وتضوع مسكاً في الزجاج أذفراً ... ذوب الشباب معصفاً بخلق  
قمرٌ عليه من البدائع حلةٌ ... يسقيك كأس هوى وكأس رحيق  
ما طاب عيش فتى يطيب بغيرها ... لا سيما إن شجها بالريق  
يغنيك عن ورد الرياض وزهرها ... منه تورّد خلد المعشوق  
قال فقلت: يا أمير المؤمنين قد حضرني في هذا المعنى شيء فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاده؟ قال:  
هات. فقلت:

جسمٌ مركّب في العين إنسيٌّ ... وفي اللطافة والأجناس عديٌّ  
ما يعرف الطرف من أعراض جوهره ... إلا الذي يخبر الفكر القياسي  
وكلٌّ من غاص في إدراك صورته ... فإنما نطقه في ذاك وهيّ  
حاز الحاسن والأنوار أجمعها ... فالحسن من حسنه في الخلق جزئيّ  
إذا العيون تراءته تراهقها ... من حسن صورته اللحظ الظلامي  
ما دبّ في فطن الأوهام من حسنٍ ... إلا وكان له الحظ الخصوصي  
كأن جبهته من تحت طرته ... بدرٌ يتوجه الليل البهيمي  
كأن عينيه خرطاً جزعني يمنٍ ... من كل حافاتها سهم صيبيّ  
كأن صدغيه قافاً كاتبٍ مشقاً ... من فوق ياقوته والحد وردى  
كأنما الثغر منه في تبسمه ... درٌ تغلق عنه البحر لجي

كأنما الردف منه إذ يمس به ... موجٌ يكفكفه الريح الجنوبي  
لو مس أجدال ماهان لفجرها ... بالماء يسعده الطلّ الغمامي  
أو لامس الماء لانسابت أنمله ... كالثلج حلّ به الودق السخامي  
جنسيُّ نورٍ على كنهيّ جوهرةٍ ... من روح قدسٍ أو الأنوار بريّ  
يسقي جوهرةً في جوف جوهرةٍ ... من نور جوهرةٍ واللون جنسي  
ماءٌ وماءٌ وفي ماءٍ يديرهما ... ماءٌ خلافيهما والطيب تيهي  
قد جلّ عن طيب أهل الأرض عنبره ... ومسكه فهو الطيب السماويّ  
إذا رأته عيون الخلق أحسرها ... نوراً ولاحظها الحسن الهوائيّ  
كادت محاسنه من لطف رفته ... تصير عيباً وما للعب كيهي  
سبحان خالقه ماذا أراد به ... لولاه لم يكن الفعل السريريّ  
إذا أدار علينا الكأس جشمه ... من ودّ أسرارنا ودّ حقيقي  
مصورٌ طرفت عين الزمان به ... واكتنه من جناح الخفض علويّ

قال: فتبسم المأمون وقال: أحسنت والله يا أسواري، فلمن هذا ويحك؟ قلت: لعبدك النظام. فقال: أحسن  
فيما وصف وأحسنت في تعبيرك عنه. ثم سقاني وأمر لي بخمسين ألف درهم وأمر للنظام بمثلها.  
أحمد بن القاسم قال: كنت أنا وعبد الله بن طاهر عند المأمون وهو مستلقٍ على قفاه فقال لعبد الله: يا أبا  
العباس من أشعر الناس في زماننا؟ فقال: أمير المؤمنين أعرف بهذا مني. قال: على حالٍ. قال الذي يقول:  
أيا قبرٍ معنٍ كنت أول حفرةٍ ... من الأرض خطت للمكارم أجمعاً  
قال أحمد: فقلت أشعرهم الذي يقول:

أشبهت أعدائي فصرت أحبهم ... إذ كان حظي منك حظي منهم  
فقال المأمون: أين أنتما عن قول أبي نواس:

يا شقيق النفس من حكمٍ ... نمت عن ليلي ولم أنم

قال: وقال المأمون لعبد الله بن طاهر في الحلية وقد ارتفعت أصوات العامة: يا أبا العباس سكن العامة. قال  
عبد الله: فوثب أنا ومن معي فارتفع من أصواتنا وضجيجنا أكثر مما كان، فقال لي: أتدلّ بالرياسة ولا بصر  
لك بالسياسة، هكذا تسكن العامة؟ هلا ناديت الأقربين لينادي الأقربون الأبعدين! قال: فوالله ما ميزت بين  
تأديبه وبين نغرانه.

قال: وقال الحسن بن الفضل بن الربيع: خرج علينا المهديّ منتكراً ومعه الربيع والمسيب بن زهير يطوف في  
الأسواق إذ نظر إلى أعراي ينشد فقال الربيع: أخبرني عن أرق بيت قالته العرب، قال: بيت امرئ القيس  
بن حجر:

وما ذرفت عينك إلا لتضربي ... بسهميك في أعشار قلبٍ مقتل

فقال المهدي: بيت قد داسه العامة وفيه غلطٌ. ثم قال للمسيب: هات ما عندك. فقال:

ومما شجاني أنها يوم أعرضت ... تولت وماء العين في الجفن حائر  
فلما أعادت من بعيد بنظرة ... إليّ التفاتاً أسلمتها الخاجر  
وسلمتها أيضاً. فقال: وإن هذا قريبٌ من ذاك. وخلفهم شابٌ من أهل المدينة له أدب وظرف وقدم متظلماً  
فطال مقامه على باب المهدي، فلما سمع ذلك منهم حمله ظرف الأدب على أن أدخل نفسه بينهم واتصل  
بهم وقال: أتأذنون أن أخوض معكم فيما أنتم فيه؟ قالوا: ماذا؟ قال قال الأحوص:  
إذا قلت إني مشغفٌ بلقائها ... فحمُّ التلاقي بيننا زادني وجداً

فقال المهدي: أحسنت يا فتى، فمن أنت؟ قال: أنا رجل من أهل المدينة. قال: وما أقدمك العراق؟ قال:  
مظلمة لي أنا مقيم عليها باب الخليفة منذ كذا وكذا وقد أضربني ذلك. فقال للربيع: عليك بالرجل.  
فأخذه معه وسامره أياماً ثم أمر بردَ مظلمته وقضى حوائجه وأمر له بصلة عشرة آلاف درهم.  
قال النضر بن شميل: حدثني الفراء عن الكسائي قال: دعاني الرشيد ذات يوم وما عنده إلا حاشيته فقال: يا  
علي أتحب أن ترى محمداً وعبد الله؟ قلت: ما أشوقني إليهما يا أمير المؤمنين وأسرّ إليّ معاينة نعمة الله جل  
وعز على أمير المؤمنين فيهما وبهما، فأمر بإحضارهما، فأقبلا كأنهما كوكبا أفتق يزنيهما هديهما ووقارهما، قد  
غضا أبصارهما وقاربا خطوهما، حتى وقفا بباب المجلس فسلما بالخلافة ثم قالوا: تمم الله على أمير المؤمنين نعمه  
وشفعها بشكره وجعل ما قلده من هذا الأمر أحمد عاقبة ما يؤول إليه أمر حمداً اختصه به وأخلصه له بالبقاء  
وكثره لديه بالنماء ولا كثر عليه منه ما صفا ولا خالط مسروره الردى، فقد صرت للمسلمين ثقة  
ومستراحاً إليك يفزعون في أمورهم ويقصدون في حوائجهم، فأمرهما بالدنو وصير محمداً عن يمينه وعبد الله  
عن يساره ثم التفت إليّ فقال: يا علي ما زلت ساهراً مفكراً في معاني أبيات قد خفيت عليّ. قلت: إن رأي  
أمير المؤمنين أن ينشدنيها؟ فأنشدني:

قد قلت قولاً للغراب إذ حجل ... عليك بالهود المسانيف الأول  
تعدّ ما شئت على غير عجل

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، إن العير إذا فصلت من خيبر وعليها النمر يقع الغراب على آخر العير فيطردها  
السواق، يقول هذا: تقدم إلى أوائل العير فكل على غير عجل، والقود الطوال الأعناق، والمانيف المقدمة.  
ثم أنشدني:

لعمرى لئن عشت من خشية الردى ... فماك الحمار إنني لجهول

قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كان الرجل من العرب إذا دخل خيبر أكبّ على أربع وعشر تعشير الحمار، وهو  
أن ينهق عشره فمقات متتابعات، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حمى خيبر. ثم أنشدني في قول الآخر:  
أجاعل أنت بيقوراً مضرمةً ... ذريعة لك بين الله والمطر  
قلت: نعم، كانت العرب إذا أبطأ المطر تشد العشر والسلع وهما ضربان من النبت، في أذنا البقر وأهلبوا  
فيه النار وشردوا بالبقر تفاعلاً بالبرق والمطر، ثم أنشدني:  
لعمرك ما لام الفتى مثل نفسه ... إذا كانت الأحياء تعدى ثيابها

وآذن بالتصفيق من ساء ظنه ... فلم يدر من أي اليمين جوابها  
قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كان الرجل إذا ضلَّ في المفازة قلب ثيابه وصاح كأنه يوميء إلى إنسان ويشد  
شدة ويصفق بيديه فيهتدي الطريق. ثم أنشدني:  
قوداء تملك رحلها ... مثل اليتيم من الأرانب  
قلت: نعم، يقول: هذه ناقة مثل اليتيم من الأكام، واليتيم الواحد من كل شيء، والأرانب الأكام. ثم  
أنشدني لآخر أيضاً:  
إلى الله أشكو هجمةً هجريةً ... تعاورها مرُّ السنين العوابر  
فعادت رذايا تحمل الطبن بعدما ... تكون قرىً للمعتفين المفاقر  
قلت: هذا رجل في بستانه نخيل أتى عليها الدهر فجفت فقطعها وصيرها أجذاعاً وسقفَ بها البيوت، فقال:  
هذه الأجذاع كانت تحمل الرطب، فأكل وأطعم الأضياف فجفت فقطعتها وسقفَ بها البيوت فهي تحمل  
الطين، يعني ما فوقها من اللبن والتراب وغير ذلك. ثم أنشدني لرجل آخر:  
وسربٌ ملاحٍ قد رأيت وجوههم ... إناثٌ أدانيه ذكورٌ أوأخره  
يعني الأضراس، ثم أنشدني لآخر:  
فإني إذاً كالثور يضرب جنبه ... إذا لم يعف شرباً وعافت صواحيه  
قلت: نعم، كانت العرب إذا أودت البقر الماء فشربت الثيران وأبت البقر ضربت الثيران حتى تشرب  
البقر، وهو كما قال: كالثور يُضرب لما عافت البقر. ثم أنشدني:  
ومنحدرٍ من رأسٍ برقاءٍ حطه ... مخافةً بين أو حبيبٍ مزابل  
قلت: نعم، يعني الدموع، والبرقاء العين لأن فيها سواداً وبياضاً، حطه أسأله، حبيب محبوب، مزابل مفارق.  
قال فوثب الرشيد فجذبني إلى صدره وقال: لله در أهل الأدب! ثم دعا بجارية فقال لها: اجملي إلى منزل  
الكسائي خمس بدر على أعناق خمسة أعبد يلزمون خدمته، ثم قال: استنشدهما، يعني ابنه، فأنشدني محمد  
الأمين:

وإني لعفُّ الفقر مشترك الغنى ... وتارك شكلٍ لا يوافقهُ شكلي  
وشكلي شكلٌ لا يقوم بمثله ... من الناس إلا كلُّ ذي نيقَةٍ مثلي  
ولي نيقَةٌ في المجد والبدل لم يكن ... تأنقها فيما مضى أحدٌ قبلي  
وأجعل مالي دون عرضي جنةً ... لنفسي وأستغني بما كان من فضلي  
وأنشدني عبد الله المأمون:

بكرت تلومك مطلع الفجر ... ولقد تلوم بغير ما تدري  
ما إن ملكت مصيبةً نزلت ... إذ لا يُحكّم طانعاً أمري  
ملك الملوك عليّ مقتدرٌ ... يعطي إذا ما شاء من يسر  
فلرب مغتبطٍ بمزنةٍ ... ومفجعٍ بنوائب الدهر  
ومكاشحٍ لي قد مدت له ... نحراً بلا ضرعٍ ولا غمر

حتى يقول لنفسه لهفأ: ... في أي مذهب غايةً أجري  
وترى قناتي حين يغمزها ... غمز الثقاف بطينة الكسر  
فقال: يا علي فكيف ترهما؟ فقلت:

أرى قمري أفقٍ وفرعي بشامةٍ ... يزينهما عرقٌ كريمٌ ومحتد  
يسدان آفاق السماء بشيمةٍ ... يؤيدها حزمٌ وعضبٌ مهند  
سليبي أمير المؤمنين وحائزي ... مواريث ما أبقى النبي محمد

ثم قلت: يا أمير المؤمنين زرع زكا أصله وطاب مغرسه وتمكنت عروقه وعذبت مشاربه، غذاهما ملك أعز  
نافذ الأمر واسع العلم عظيم الحلم والقدر، علاهما فعليا، وحكمهما فتحاكما، وعلمهما فتعلما، فهما  
يطولان بطوله ويستضيئان بنوره وينطقان بلسانه، ويتقلبان في سعادته، فما رأيت أحداً من أبناء الخلفاء  
أدرب منهما لساناً، ولا أعذب كلاماً، ولا أحسن ألفاظاً، ولا أشد اقتداراً على تأدية ما حفظا ورويا،  
فأسأل الله أن يزيدهما بالإيمان تأييداً وعزاً، ويمتج أمير المؤمنين بهما ويمتعهما بدوام قدرته وسلطانه ما بقي ليل  
وأضاء نهار.

فضمهما إلى صدره وجمع يديه عليهما فلم يبسطهما حتى رأيت دموعه تتحادر على صدره رقةً وإشفاقاً، ثم  
أمرهما بالخروج.

قال: ثم أقبل علينا وقال: كأنكم بهما وقد نجم القضاء ونزلت مقادير السماء وبلغ الكتاب أجله وانتهى  
الأمر إلى وقته المحدود وحينه المسطور الذي لا يدفعه دافع ولا يمنع منه مانع، وقد تشتت أمرهما وافترت  
كلمتهما وظهر تعاديهما وانقطعت الرقة بينهما حتى تسفك الدماء وتكثر القتلى وتتمك ستور النساء وتمنى  
كثير من الأحياء أنهم بمنزلة الموتى. قلت: يا أمير المؤمنين أو كائن ذلك؟ قال: نعم. قلت: لأمر رأيتته أو رؤيا  
أرئته أو لشيء تين لك في أصل مولدهما أم لأثر وقع لأمر المؤمنين في أمرهما؟ قال: بل أثر واجب صحيح  
حملته العلماء عن الأوصياء وحملته الأوصياء عن الأنبياء، عليهم السلام.

قال: وحدث الأصمعي أنه دخل ذات يوم على أمير المؤمنين الرشيد وكان لا يحجب عنه وكان في فرد  
رجليه خفّ وفي الأخرى جورب لعله كان يجدها، فسامره ساعة ثم نهض ليخرج فقال له الرشيد: يا أصمعي  
ماذا تشتهي أن يتخذ لك ليتقدم فيه وتتعدى معنا؟ فقال: أشتهي رفاقاً وجوزلاً شخصاً. فلم يعرف الرشيد  
ما قاله الأصمعي وكره أن يسأله عنه فتقدم إلى الطباخ أن يتبعه ويسأله من تلقاء نفسه ويوهمه أنه تقدم إليه  
فيه فلم يعرفه، فقال له: الرقاق معروف والجوزل الفرخ السمين. فمضى الطباخ وعرف الرشيد ذلك  
وأصلح للأصمعي ما طلبه وعاد فتعدى مع الرشيد. فلما أكل أمر بأن يحمل معه عشرون ألف درهم.  
وحدث الأصمعي قال: دخلت ذات يوم على الرشيد فقال لي: اكتب يا أصمعي ولو على تكّتك أو طرف  
ثوبك:

كن موسراً إن شئت أو معسراً ... لا بد في الدنيا من الهم  
وكلما زادك في نعمةٍ ... زاد الذي زادك في الغم



قال: فكتبت البيتين.

قال وقال الأصمعي: بينا أنا ذات يوم قد خرجت في المهاجرة والجو يلتهب ويتوقد حراً إذ أبصرت جارية سواده قد خرجت من دار المأمون ومعها جرة فضة تستقي فيها ماء وهي تردد هذا البيت بجلاوة لفظ وذراية لسان:

حرٌّ وجدٍ وحرٌّ هجرٍ وحرٌّ ... أي عيشٍ يكون من ذا أمرٌ

قال فقلت لها: يا جارية ما شأنك؟ فقالت: إني من دار أمير المؤمنين المأمون وأنا أحب عبداً له أسود وإنه قد هجرني ولا أحسن أن أخرج سري إلى أحد.

قال: فمضيت واستأذنت على المأمون، وإذا هو نائم فأذن لي، وقد كان أمر أن لا أحجب عنه على أي حال كان. فدخلت عليه وهو في مرقدته فقال: ما جاء بك يا أصمعي في هذا الوقت؟ قلت: يا أمير المؤمنين تهب لي جارتك السوداء وعبدك الأسود فلاناً؟ فقال: قد فعلت ذلك وهما لك افعل بهما ما شئت. فخرجت من عنده وأحضرتهمما وجمعت من أهل الدار من حضر وأعتقتهمما وزوجت الجارية من العبد ثم عدت إلى المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين إني فعلت كيت وكيت وإني أريد الآن ما أجهزهما به. فأمر لكل واحد منهما بعشرة آلاف درهم وأمر لي بمثل ذلك وخرجت من عنده وعاد هو إلى نومه.

وحدثنا عبد الله بن سلام قال: لما ولد العباس بن الفضل دخل الناس على الفضل بن يحيى يهنئونه به وفيهم أبو النضير، فوقف بين يديه وهو يقول:

ويفرح بالمولود من آل برمكٍ ... بغاة الندى والسيف والرمح والنصل  
وتنيسط الآمال فيه لفضله ...

فأرتج عليه فوقف لا يمكنه أن يجيزه. فقال له الفضل: يا أبا النضير تمم، قال: أعز الله الأمير. قال: ويحك فقل:

... ولا سيما إن كان من ولد الفضل

قال: هذا والله، أصلح الله الأمير، طلبته فلم أقدر عليه وتعلت بغيره.

قال: وقيل لأبي العيناء: ما بال العمى قد صار في صغاركم وكباركم حتى إنه يلحق الطفل منكم؟ فقال: نعم الطينة الملعونة والدعوة المشؤومة، وذلك أنه سلم بعض الخلفاء رجلاً من آل أبي طالب إلى جدنا الأكبر فقتله ودعا عليه فلحقتنا دعوته فما تراه فهو من تلك الدعوة.

واجتاز أبو العيناء ذات يوم فسمع غناء لم يعجبه فسأل أبو العيناء عن صاحب الغناء فلما قيل له إنه أبو الحمار قال: صدق الله إن أنكر الأصوات لصوت الحمير. وكان عمًا لحمد بن أحمد بن يحيى بن أبي البغل.

قيل: ولما صدر المعتصم بالله عن بلاد الروم وصار بناحية الرقة قال لعمرو بن مسعدة: يا عمرو أشرت عليّ بالرخجي فوليته الأهواز فقد قعد في سلة الدنيا يأكلها خضماً وقضماً. فقلت: يا أمير المؤمنين فأنا أوجه إليه رسولاً يبعث إليك بالأموال ولو على أجنحة الطير. قال: كلا ولكن اشخص إليه بنفسك كما أشرت به.

قال: ففكرت في أن أنزل عن الوزارة وأصير مستحسباً على عامل. فقلت: يا أمير المؤمنين أن أقع إليه. قال:

فضع يدك على رأسي أنك لا تقيم ببغداد إلا يوماً واحداً حتى تلحق به، فوضعت يدي على رأسه وحلفت له، وانحدرت إلى بغداد فسلمت على أهلي وإخواني وأخذت زللاً فعَلَّقت عليه الخيش وبسط لي فيه الطبري وملاّته بالثلج وسرنا.

فلما صرنا بين دبر العاقول ودبر هزقل إذا أنا برجل على الشط يصيح: يا ملاح رجل منقطع أريد دبر العاقول فاحملي بأجرك الله! فقلت: احمّلوه. فقال: يا مولاي هذا رجل من هؤلاء الشحاذين يؤذيك ويقدر عليك زلالك. فقلت: احمّله ويلك! ففرب إليه الزلال فحمّله في مؤخره. وحضر الغداء فتحويت أن لا أدعوه فقلت له: هلم. فقام حتى جاء فأكل أكل جائع ثم إلا أنه كان نظيف الأكل، فلما فرغ من الغداء أردت منه ما تفعله العامة بالخاصة أن يقوم فيغسل يده ناحية فلم يفعل. فغمزه الغلام وسائر العلّمان فلم يقيم. فتناومت عليه فلم يقيم. فقلت له: ما صناعتك؟ قال: حائك، جعلت فداك. فقلت: هذا أنا فعلته بنفسي. فقال لي: وأنت فما صناعتك؟ فقلت: كاتب. فقال: الكتاب خمسة، فأبهم أنت؟ فأورد علي شيئاً عجبت منه.

فقلت: عدّهم. قال: كاتب رسائل يجب أن يعرف الوصول والفصول والترغيب والترهيب والجوابات. قلت: نعم. قال: وكاتب خراج يجب أن يعرف المساحة والذراع والأشول والتقسيط، قلت: نعم. قال: وكاتب قاضٍ يجب أن يعرف الحلال والحرام والتأويل والتنزيل والحكم والمتشابه والمقالات والاختلافات. قلت: نعم. قال: وكاتب جندي يجب أن يعرف الحلّي والشيات. قلت: نعم. قال: وكاتب شرطة يجب أن يعرف الشجاج والجرحات. فأبهم أنت؟ قلت: كاتب رسائل. قال: فصدّق لك تكاتبه في الخجوب والمكروه تزوجت أمه كيف تكتب إليه مهنّة أو تعزية؟ قلت: هو والله إلى التعزية أقرب. قال: فكيف تعزّيه؟ قلت: لا أجد إلى ذلك سبيلاً. قال: فلست بكاتب رسائل! قلت: أنا كاتب خراج. قال: فولاك أمير المؤمنين بلدة وأمرك بالفوذ فخرجت إلى عمّلك فبثت عمّلك في العمل فجاء إليك قوم يتظلمون من عامل زاد عليهم في المساحة فخرجت معهم فوقّوا على قراح كأنه قاتل فيناً كيف تمسحه؟ قلت: اضرب وسطه في طرفيه. قال: تشنّى عليك القطوع. قلت: فكيف أمسحه؟ قال: لست بكاتب خراج! قلت: أنا كاتب قاضٍ. قال: فإن رجلاً خلف حرّة حاملاً وسرية حاملاً فولدتا في ليلة واحدة الحرة جارية والسرية غلاماً، فلما علمت الحرة بذلك حملتها الغيرة على أن وضعت الجارية في مهد السرية وأخذت الابن، فقالت السرية من الغد: الابن لي، فتحاكما في ذلك إلى القاضي وأنت حاضر فقال لك: اقض بينهما، بم كنت تقضي؟ قلت: لا علم لي بذلك. قال: لست بكاتب قاضٍ! قلت: أنا كاتب جندي. قال: الله أكبر! تقدم إليك رجلان من أهل عمّلك أو من أهل عسكرك أسماؤهما واحدٌ يقال لهذا أحمد ولهذا أحمد، هذا مشقوق الشفة من فوق وهذا من أسفل، كيف تحلّيهما؟ قلت: أكتب أحمد الأعمم وأحمد الأعم. قال: إذا يأخذ هذا عطاء هذا وهذا عطاء هذا. قلت: فكيف أصنع؟ قال: لست بكاتب جندي! قلت: أنا كاتب شرطة. قال: تقدم عليك رجلان قد شحّ الآخر موضحة وشحّ الآخر مأمومة كم بينهما من الإبل؟ قلت: لا أدري. قال: لست بكاتب شرطة!

فقلت: فسّر ما قلت. قال: أما الرجل الذي تزوجت أمه فتكتب إليه أن الأقدار تجري بخلاف محابّ المخلوقين، وستر في عافية خير من شائنة في أهلها، والله يختار للعباد، فحار الله لك في قبضها إليه، فإن القبور أكرم الأكفاء.

وأما القراح فتمسح اعوجاجه ثم تنظر مبلغ الطرفين فتضرب بعضه في بعض فإذا استوى في يلك عقده رجعت إلى المستوي فضربته فيه حتى يخرج سواء.

وأما الحرة والسرية فيوزن لبيهما فأيهما كانت أحدّ لبناً فالابن لها.

وأما الجند فتكتب هذا أدمم الأعلم وهذا أحمد الأفلج.

وأما الشجة ففي المأمومة ثلاثة وثلاثون من الإبل وفي الموضحة خمسة من الإبل فتردّ عليه ما بين ذلك.

قلت: أأست تزعّم أنك حائك؟ قال: أنا حائك كلام قعد بي الدهر فخرجت أريد بعض القرابة فصادفته قد صرف عن العمل فبقيت على هذه الحالة.

قال: فدعوت المزين فظفنه ودعوت له بثلاث خلع وصرت به إلى الرخجي وكلمته في أمره فوهب له خمسين ألف درهم وحمله على ثلاثة من الظهر ورجعت إلى أمير المؤمنين بالأموال، فقال: يا عمرو ما رأيت في طريقك؟ فأخبرته بقصة الرجل. فأطال التعجب منه وقال: ما فعل؟ قلت: يصير إليّ في كل يوم. قال: لما يصلح من الأعمال؟ قلت: للهندسة. قال: فوله. قال عمرو: فنظرت إليه بعد ذلك وهو يركب في موكب عظيم.

البيهقيّ قال البحريّ: كنت قاعداً مع المتوكل إذ مرت سحابة فقال قل فيها. فقلت:

أذت ارتجاعٍ بحنين الرعد ... جرورة الذيل صدوق الوعد

مسفوحة الدمع بغير وجد ... لها نسيم كنسيم الورد

ورثة مثل رنين الأسدولمع برقكسيوف الهند

جاءت به ريح الصبا من نجد ... فانتشرت مثل انتثار العقد

فأضحت الأرض بعيشٍ رغد ... كأنما غدرانها في الوهد

يلعبن من حباها بالترد

ثم أنشدته لمروان بن أبي حفصة:

لما سمعت ببيعةٍ لحمد ... شفت النفوس وأذهبت أحزانها

بايعت مغتبطاً ولو لم تنبسط ... كفيّ لبيعته قطعت بناها

حتى انتهيت إلى قوله:

رجحت زبيدة والنساء شوائلٌ ... والله أرجح بالتقى ميزانها

فصاح بي صيحة فقال: كذبت وألت يا عربدة! قل: رجحت قبيحة. ثم قال: أنشدني. فأنشدته للطائي:

لست لربيع عفا ولا قدمه ... ولست من كاتب ولا قلمه

فإن من يفخر الملوكة به ... ويستعير الكريم من كرمه

ألحقني بالملوك معتصمٌ ... بالله والمسلمون في عصمه

خُلقت من طين مباركةٍ ... فالبرُّ من خيمه ومن شيمه  
مازال إحسانه ونعمته ... عليّ حتى غرقت في نعمه  
فأسأل الله فضل نعمته ... والأمن من بأسه ومن نقمه  
فلما سمعها ارتاح وقال: أحسنت والله وما جزاؤك إلا أن أقطعك من موضعك إلى حيث تبلغ أمنتك، فسل  
تعط. قال: ففكرت ساعة ثم قلت: تعطيني فتراً في فتر من قلبك. فقال: أحسنت أحسنت! أنت والله في هذا  
أشعر من الطائي في شعره. ثم قال: أنشدني. فأنشدته للحسين بن الضحاك:  
كم لك لما احتمل القطين ... من زفرةٍ يتبعها الأنين  
وعبرةٍ تحدرها الشوون ... إني ببغداد لمستكين  
حظ الغريب الشوق والشجون ... يا لائمي لكل يوم هون  
إليك عني إني مفتون ... الشعر مني كاسدٌ ودون  
وحان من تحريكه تسكين ... قد ركبت أربابها الديون  
بضاعة أكسدها المأمون ... إمام عدلٍ للنتقى أمين  
قال: أحسنت يا أبا عبادة فماذا فعل به المأمون بعد إذ هجاه؟ قلت: أعيدك بالله من أن يجسر على هجاء  
المأمون. قال: فمن القاتل فيه:  
ولا فرح المأمون بالملك بعده ... ولا زال في الدنيا طريداً مشرداً  
قلت: يا أمير المؤمنين دعاه الموق والحين إلى هذا. قال: لا بأس فإنه قد تلا في هذا الكلام قوله:  
رأى الله عبد الله خير عباده ... فملكه والله أعلم بالعبد  
قال فقلت: يا أمير المؤمنين أتقلت ظهري بالفوائد، فقال: إنا نأخذ ونعطي ونأتي بما يحبي المهج.

### مساوي من الأدب

قال بعضهم: كثرة الأدب في غير طاعة الله قاتلة الذنوب. وقال: ما أحدٌ زيد في عقله إلا انقص من رزقه.  
وأنشد في ذلك:

ثنتان من أدوات العلم قد ثنتا ... عنان شأوي عما رمت من هممي  
أما الدواة فأضنى حبيها بدني ... وقلم المال مني حرفة القلم  
والعلم يعلم أي حين أندبه ... لدفع نائبةٍ خلواً من العصم  
ولآخر، وقيل إنه للخليل بن أحمد:  
ما ازددت في أدبي حرفاً أسرّ به ... إلا تبينت حرفاً تحته شوم  
إن المقدم في حذقٍ بصنعته ... أئى توجه فيها فهو محروم

### مساوي اللحن

قال يونس بن حبيب النحوي: أول من أسس العربية وفتح بابها ونهج سبيلها أبو الأسود الدئلي واسمه ظالم بن عمرو. فقال له الحجاج: أتسمعي ألحن على المنبر؟ قال: كلا، الأمير أفصح العرب. قال: أقسمت عليك! قال: حرفاً واحداً تلحن فيه. فقال: وما هو؟ قال: في القرآن. قال: ذاك أشنع له، فما هو؟ قال: تقول لو كان آباؤكم وأبناؤكم، حتى تبلغ: أحب إليكم من الله ورسوله، تقرأها بالرفع. قال فقال له: لا جرم لا تسمع لي لحناً أبداً. فنفاه إلى خراسان وعليها يزيد بن المهلب. فكتب يزيد إلى الحجاج: إنا لقينا العدو وفعلنا وصنعنا واضطربناهم إلى عرعة الجبل، فقال الحجاج: ما لابن المهلب ولهذا الكلام؟ فقيل: ظالم بن عمرو هناك. قال: فذاك إذاً.

قال وقال المأمون وقد سمع من بعض ولده كلاماً أسرع فيه اللحن إلى لسانه: ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده ويزين مشهده ويتملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه ويقلّ حجج خصمه بسكنات حكمته، أو يسرّ أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمته ولا يزال أسير كلمته؟ قاتل الله القائل حيث يقول:

ألم تر مفتاح القواد لسانه ... إذا هو أبدى ما يقول من الفم  
وكائن ترى من صامت لك معجب ... زيادته أو نقصه في التكلم  
لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده ... ولم يبق إلا صورة اللحم والدم  
وفي الحديث المرفوع: رحم الله عبداً أصلح لسانه.  
قيل: وكتب غسان بن ربيع إلى أبي عثمان بكر بن محمد المازني النحوي:  
تفكرت في النحو حتى مللت ... وأتعبت نفسي به والبدن  
وأتعبت بكرأ وأصحابه ... بطول المسائل في كل فن  
فكنت بظاهره عالماً ... وكت بباطنه ذا فطن  
خلا أن باباً عليه العفا ... ء للقاء يا ليته لم يكن  
وللواو بابٌ إلى جنبه ... من المقت أحسبه قد لعن  
إذا قلت هاتوا لماذا يقا ... ل لست بأتيك أو تأتين  
أجيبوا لما قيل هذا كذا ... على النصب قالوا لإضمار أن

قال: وكان الوليد بن عبد الملك لحانة فدخل عليه أعرابي فقال: من خنتك؟ قال: رجل من الحي لا أعرف اسمه. فقال عمر بن عبد العزيز: إن أمير المؤمنين يقول: من خنتك؟ فقال: ها هوذا بالباب. فقال الوليد لعمر: ما هذا؟ فقال: النحو الذي كنت أخبرك عنه. فقال: لا جرم لا أصلي بالناس حتى أتعلمه. وسمع إعرابي رجلاً يقول: أشهد أن محمد رسول الله. فقال: يفعل ماذا؟ قال وقال مولى لزياد: أيها الأمير أخذوا لنا هماراً وهشاً. فقال له: ما تقول ويحك؟ فقال: أخذوا لنا أبراً " يريد غيراً ". فقال زياد: الأول خير.

قال: وجاء رجل إلى زياد فقال: إن أبينا هلك وإن أحمينا غصبنا على ميراثنا من أبانا. فقال زياد: ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضيعت من ميراثك، فلا رحم الله أباك حيث ترك ولدك مثلك.

قال: وعزم رجل من أهل الشام على لقاء المأمون فاستشار رجلاً من أصحابه فقال: على أي جهة أصلح أن ألقى أمير المؤمنين؟ قال: على الفصاحة، قال: ليس عندي منها شيء وإني لألحن في كلامي كثيراً. قال: فعليك بالرفع فإنه أكثر ما يستعمل. فدخل على المأمون فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: يا غلام اصفع، فصُفِع. قال: بسمُ الله، فقال: ويحك من صبَّك على الرفع؟ قال: وكيف لا أرفع من رفع الله! فضحك وقضى حاجته.

قال: واختصم رجلان إلى عمر بن عبد العزيز فجعلوا يلحنان فقال الحاجب: قُما فقد أوديتما أمير المؤمنين. فقال عمر: أنت والله أشدُّ أذاءً إليَّ منهما.

وعن أبي داود قال: أرسل المعتصم إلى أشناس فطلب منه كلب صيد فوجه به إليه فردده وهو يعرج. فكتب إليه أشناس بشعر قاله:

الكلب أخذت جيداً مكسور رجلٍ جيت  
ردَّ جيداً كما كلبٌ كتَّ أخذت  
فكتب إليه المعتصم:

الكلب كان يعرجُ يوم الذي به بعثت  
لو كان جاء مخبراً خبيراً رجلُ كلبٍ أنت  
قال: وقال بشر المريسيّ وكان كثير اللحن: قضى لكم الأمراء على أحسن الوجوه وأهنؤها. فقال القاسم التمار: هذا على قوله:

إن سلمي والله يكلؤها ... ضنَّت بشيءٍ ما كان يرزؤها  
فكان احتجاج القاسم أطيّب من لحن بشر.

قال: وكان زياد النبطي شديد اللكنة وكان نحويّاً فدعا غلامه ثلاثاً فلما أجابه قال: فمن لدن دأوتك فقلت لي إلى أن جيني ما كت تصناً، يريد دعوتك وتصنع.

قال: ومروّ ماسرجويه الطيب بمعاذ بن سعيد فقال: يا ماسرجويه إني أجد في حلقي بحجاً، قال: هو من عمل بلغم، فلما جاوزه قال: تراني لا أحسن أن أقول بلغم، ولكنه قال بالعربية فأجبتة بخلافه.

وقال ثمامة: بكر أحمد بن أبي خالد يوماً يعرض القصص على المأمون فمرّ بقصة فلان اليزيدي وكان جائعاً فصخف وقال: فلان الشريدي، فضحك المأمون وقال: يا غلام ثريدة ضخمة لأبي العباس فإنه أصبح جائعاً. فحجل أحمد وقال: ما أما بجائع يا سيدي ولكن صاحب القصة أحق وضع على نسبته ثلاث تقطعات كأنثافي القدر، قال: دع هذا فالجوع اضطررك إلى ذكر الثريد والقدر. فجاؤوه بصحفة عظيمة كثيرة العراق والودك فاحتشم أحمد. فقال المأمون: بجياقي عليك إلا عدلت نحوها، فوضع القصص ومال إلى الشريد فأكل حتى انتهى، فلما فرغ دعا بطشت فغسل يده ورجع إلى القصص فمرّ بقصة فلان الحمصي فقال: فلان الحبيصي. فضحك المأمون وقال: يا غلام هات جاماً فيه خييص فإن طعام أبي العباس كان مشهوراً. فجعل أحمد وقال: يا أمير المؤمنين صاحب هذه القصة أحق فتح الميم فصارت كأنها ثنتان. قال: دع عنك هذا فلولا حمقه وحمق

صاحبه متّ جوعاً. فجاؤوه بجمام فيه خييص، فأتى عليه وغسل يده وعاد إلى القصص فما أسقط بحرف حتى فرغ.

حدثنا العباس بن جرير قال: كان للمهدي خصيّ كان معجباً فضمّ إليه معلماً نحويّاً يعلمه القرآن وكان الخصي عجبياً لا يُفصح فقال في هل أتى: يوماً عبوساً كمتريراً. وقال في الجن: نكعد منها مكاعد للسمع، فقال النحوي:

ولثقل الجبال أهون مما ... كلفوني من الخصيّ نجاح  
نقرّ النحو حين مرّ بلحيي ... ه فألفيته شديد الجماح  
قال في هل أتى فأوجع قلبي ... كمتريرا وكده بالصياح  
وقال رجل من الصالحين: لئن أعربنا في كلامنا حتى ما نلحن لقد لحنا في أعمالنا حتى ما نعرب. وأنشد في مثله:

أما تراني وأتوابي مقاربةً ... ليست بحرّ ولا من خرّ كتان  
فإن في المجد همّاتي وفي لغتي ... علويةٌ ولسان غير لحان

#### محاسن الشعراء

قال الخليل بن أحمد: الشعراء أمراء الكلام يجوز لهم شق المنطق وإطلاق المعنى ومدّ المقصور وقصر الممدود. وقال معمر بن المثنى أبو عبيدة: افتتح الشعر بامرئ القيس وختم بابن هرمة. وقال أبو عبيدة: الشعراء في الجاهلية من أهل البادية أهل نجد، منهم: امرؤ القيس، والنابعة، وزهير، ودريد بن الصمة، ومنهم كثير في الإسلام، فهؤلاء الشعراء الفحول الذين مدحوا وفخروا وذموا ووصفوا الخيل والمطر والديار وأهلها، وأشعر أهل المدن أهل يثرب وأهل الطائف وعبد القيس، وليس في بني حنيفة شاعر، وأشعر الشعراء ثلاثة: امرؤ القيس، والنابعة، وزهير ثم الأعشى. وأشعر الفرسان ثلاثة: عنتر بن شداد، ودريد بن الصمة، وعمرو بن معدي كرب، وأشعر الشعراء المقلين ثلاثة: المتلمس، والمسيب بن علس، وحصين بن حمام المري، وأشعر العرب واحدة طويلة جمعت جودة مع طول ثلاثة: طرفة بن العبد في قوله:

لخولة أطلالٌ بركة تهمد

والحارث بن حلزة في قوله:

أذنتنا بينها أسماء

وعمر بن كلثوم في قوله:

ألا هبي بصحنك فاصبحنا

وأشعر أهل زماننا ثلاثة: جرير، والفرزدق، والأخطل.

قيل: وسئل الأخطل: أيكم أشعر؟ فقال: أفخرنا الفرزدق، وأمدحنا وأوصفنا للخمير أنا، وأسهبنا وأنسبنا وأسبنا جرير، وأرجز الرجز في الإسلام وقبله العجاج، فإنه فتح أبواب الرجز واستوقف ووصف الديار

وأهلها ووصف الخيل والمطر ومدح ودم، فذهب في الرجز مذهب امرئ القيس في القصد وهو أرجز الرجاز، وقد قيل أرجز الرجاز ثلاثة: العجاج، وابنه رؤبة، وحميد الأرقط، وقال بعضهم: أبو النجم العجلي، وأجود الأراجيز قول رؤبة:

وقاتم الأعماق خاوي المخترق

وقول أبي النجم:

الحمد لله الوهوب الخجل

قيل وقال مسلمة بن عبد الملك لخالد بن صفوان: صف لنا جريراً والفرزدق والأخطل. فقال: أصلح الله الأمير! أما أعظمهم فخراً وأبعدهم ذكراً وأحسنهم غزلاً وأحلامهم معاني وعللاً، الطامي إذا زخر والحامي إذا زار والسامي إذا نظر، الذي إن أهدر قال وإن خطر صال وإن طلب نال، الفصيح اللسان السباق في الرهان فالفرزدق. وأما أعتكهم سترأ وأغرهم بحراً وأرقهم شعراً، والأغر الأبلق الذي إن طلب لم يسبق وإن طلب لم يلحق، الواصف للفرسان الناعت للأطعان بجلاوة وبيان فجزير، وأما أحسنهم نعتاً وأقلهم فوتاً وأمدحهم بيتاً، الذي إن هجا وضع وإن مدح رفع وإن حاز أفضع، البعيد المتان الماضي الجنان المداح للسلطان فالأخطل. وكلهم، أصلح الله الأمير، طويل النجاد رفيع العماد ذكي الفؤاد.

قال: فصف لنا الشعراء العشرة، فقال: قصتهم مفسرة، أما أحسنهم نسيباً وتشبيهاً وأشدهم تأليفاً فامرؤ القيس. وأما أفحلهم مقالاً وأنبههم رجالاً وأكرمهم فعلاً فهير. وأما أرجحهم كلاماً وأنبههم مقاماً وأشرفهم أياماً فأوس بن حجر. وأما أفصحهم لساناً وأثبتهم بنياناً وأشدهم إذعاناً فالنابغة، وأما أطردهم للصيد وأجحشهم في الكيد وأدرجهم في القيد فعدى بن زيد.

وأما أوصفهم للسلاح وأنعتهم للقداح والحرب ذات الكفاح فابن مقبل. وأما أوصفهم للسئين وأكسبهم للمنين وأمدحهم أجمعين فالخطيئة. وأما أهجهم للرجال وأبدعهم في المقال وأضربهم للأمثال فطرفة. وأما أعفهم عن الكاس وأحضهم على الباس وأصدقهم عند الناس فسلامة بن جندل.

قال: وقال العتابي في ذكر أبي نواس: لو أدرك الخيث الجاهلية ما فضل عليه أحد.

وقال أبو عمرو بن العلاء: أشعر الناس في صفة الخمر ثلاثة: الأعشى والأخطل وأبو نواس.

وقال إبراهيم النظام: كأنما كشف لأبي نواس عن معاني الشعر فاختار أحسنها.

وقال أبو عبيدة: أبو نواس للمحدثين كامريء القيس للأوائل هو فتح لهم هذه الفطن ودلهم على المعاني.

### وفي مدح الشعراء

قال: لما قال حسان بن ثابت للحارث بن عوف المري وهو مشرك:

وأمانة المريّ حيث لقيته ... مثل الزجاجة صدعها لم يجبر

قال الحارث للنبي، صلى الله عليه وسلم: يا محمد أجري من شعر حسان فوالله لو مزج به البحر لمزجه.

قال: وكان كعب بن مالك ينشد رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

قضينا من قمامة كل ريب ... وخير ثم أجمنا السيوف



نخبرها ولو نطقت لقات ... قواطعهن دوساً أو تقيفا  
فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: هو أسرع فيهم من السهم في غلس الظلام.  
قال: ولما أنشد عبد الله بن رواحة رسول الله، صلى الله عليه وسلم:  
فثبت الله ما أتاك من حسن ... تثبت موسى ونصراً كالذي نصرا  
أقبل عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، متبسماً ثم قال: وإياك فثبت الله، وهو الذي يقول يوم مؤتة:  
أقسمت يا نفس لتنزلنه ... طائفة أو لتكرهته  
ما لي أراك تكرهين الجنة  
قال: وحدا رجل برسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو يقول:  
تالله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا  
فأنزلن سكيناً علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا  
والمشركون قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنةً أبينا  
فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: من يقولها؟ قال: أبي. قال يرحمه الله.

#### مساوي الشعراء

قيل: ليس أحد من الناس أكل للسحت وأنطق بالكذب ولا أوضع ولا أطمع ولا أقل نفساً ولا أدنى همّة  
من شاعر. ولذلك قال أبو سعد المخزومي:  
الكلب والشاعر في حالةٍ ... يا ليت أي لم أكن شاعرا  
هل هو إلا باسطٌ كفه ... يستطعم الوارد والصادرا  
قال: ولما قال الهذيل الأشجعي في عبد الملك بن مروان:  
إذا ذاتُ دلّ كلمته بحاجةٍ ... فهمم بأن تقضى تنحج أو سعل  
قال عبد الملك: أخزاه الله! فلربما جاءني السعلة والنحنة وأنا وحدي في المتوضأ فأذكر قوله فأردها.  
قال: ولما قال الشاعر في شهر بن حوشب:  
لقد باع شهرٌ دينه بخريطةٍ ... فمن يأمن القراء بعدك يا شهر  
فحلف لا يمس خريطة حتى مات.  
وقال كعب بن جعيل: مكثت دهرًا أهجو الناس ولا أهجي حتى انبرى لي غلام من تغلب فقال:  
تسميت كعباً بشرّ العظام ... وكان أبوك يسمي الجعل  
وأنت مكانك من وائلٍ ... مكان القراد من است الجمل  
فما رفعت رأسي حتى الساعة.

#### ذكر من كره الشعر

قال إسحاق بن سليمان الهاشمي. دخلت على المنصور يوماً والإيوان قد غصّ بأهله، فقال: بلغني أنك تقول الشعر. قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فأنشديني شيئاً منه. فأنشدته قصيدة طويلة فيها مدح له. فلما فرغت قال: يا بني مالك وللمديح إياك وإياه واحذر الهجاء فإنهما لا يشبهانك وعليك من الشعر بالبيتين والثلاثة تقول ذلك تطرباً وتذكر فيه فضلاً وتحبباً.

قال: وقال معاوية بن أبي سفيان لعبد الرحمن بن الحكم: يا ابن أخي إنك قد لهجت بالشعر فإياك والتشبيب فتهجن به كريماً والهجاء فتشير به لئيماً، وإياك والمدح فإنه كسب الحسيس، ولكن افخر بماثر قومك وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وتؤدب به غيرك، فإن لم تجد بداً من المديح فقل كما قال الأول:

أحللت رحلي في بني ثعل ... إن الكريم للكريم محل  
قيل: وسئل رجل عن الشعر فقال: أسرى مروءة الدين وأدنى مروءة السري.

### في ذم الشعر

قال الأصمعي: أنشد رجلٌ بشاراً العقيلي بيت الطرماح:  
فما للنوى لا بارك الله في النوى ... وهمٌ لنا منها كهَمّ المباين  
فقال: إن هذا البيت لو وثبت عليه الشاة لأكلته، يعني إعادته النوى في البيت مرتين، فقلت: صدق بشار، إعادة الأسماء في بيت أكثر من مرة عي.

قال: وكتب محمد بن أبي عون إلى محمد بن عبد الله بن طاهر:  
قد بعثنا بزهرة البستان ... بكر ما قد أتى من الريحان  
ياسميناً ونرجساً قد بعثنا ... وبعثنا بسوسن البستان  
فقرأهما محمد وقال: ثلاث مرات قد. وكتب إليه:  
عون دقّ الإله من فيك أدنا ... ه وأقصاه يا عبي اللسان  
حشو بيتك فيه قدّ وقدّ ... قدك الله بالحسام اليماني

### ومنه مضاحيك الشعر

قيل: دخل رجل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين إني هجوت الروافض.  
قال: هات، فقال:

شمساً ورغماً وزيتوناً ومظلمةً ... من أن ينالوا من الشيخين طغيانا  
فقال: فسّر. قال: يا أمير المؤمنين أنت في مائة ألف أنت في مائة ألف لا تفهم هذا أفأفهمه وأنا وحدي!  
فضحك وأمر له بصلة.

الحمدوني قال: أتاني رجل فقال: قلت شعراً أحبّ أن أعرضه عليك، فقلت: هات. فقال:  
إن لي حباً شديداً ... ليس ينحيه الفرار

فقلت: نعم هو شعر. فقال:

إن من أفلت منه ... لابسٌ ثوب المخازي

فقلت: ذاك راء وهذا زاي! قال: لا تنقطه. فقلت: فهبني لم أنقطه ذاك مرفوع وهذا محفوض! قال: يا أحمق أنا أقول لا تنقطه وأنت تعجمه.

قال: وجاء رجل إلى حاجب إبراهيم بن إسماعيل عامل المدينة فقال: أدخلني عليه فإني قد مدحته ولك نصف ما يصلني منه. فقال: أنشدني ما قلت فيه. فقال: لا أفعل. قال: لا أدخلك. قال: فإني أنشدك. قال: هات. قال قلت:

كاد الأمير على تكرمه ... أن لا يكون لأمه بظر

فقال الحاجب: يا عاض بظر أمه كان يعطيك ستمائة سوط لي منها ثلاثمائة! امض إلى حرق الله وناره.

### محاسن المخاطبات

قال: ذكروا أن ابن القرية دخل على عبد الملك بن مروان، فبينما هو عنده إذ دخل بنو عبد الملك عليه، فقال: من هؤلاء الفتية يا أمير المؤمنين؟ قال: ولد أمير المؤمنين. قال: بارك الله لك فيهم كما بورك لأبيك فيك وبارك لهم فيك كما بورك لك في أبيك. فحشا فاه دراً.

قال: وقال عمارة بن حمزة لأبي العباس وقد أمر له بجوهر نفيس: وصلك الله يا أمير المؤمنين وبرك، فوالله لئن أردنا شكرك على إنعامك ليقصرن شكرنا عن نعمتك كما قصر الله بنا عن منزلتك. قال: ودخل شيب بن شيبه على المهدي فقال: يا أمير المؤمنين إن الله جل وعز حيث قسم الدنيا لم يرض لك إلا بأرفعها وأشرفها فلا ترض لنفسك من الآخرة إلا بمثل ما رضى لك من الدنيا، وأوصيك يا أمير المؤمنين بقوى الله فإنها عليكم نزلت ومنكم قبّلت وإليكم تُردّ.

قال: وقال إبراهيم الموصلي للهادي وقد غناه صوتاً أعجبه: إن من كان محله من الانبساط وتقارب الندام محلي جرّاه البسط على الطلب وبعثته المناذمة على الرجاء، وقد نصب لي أمير المؤمنين لقربي منه مشارع الرغبة وحنّني مكان حالي عنده على الكروع في النهل من يده. فقال له: سل حاجتك شفهاً فإني جاعل فعلي إجابتك إليه حاضراً. فسأله قيمة خمس مائة ألف درهم فأعطاه ألف ألف درهم. قيل: ودخل إسحاق بن إبراهيم الموصلي على الرشيد فقال: كيف حالك؟ فقال:

سوامي سوام المكثرين تجملاً ... ومالي كما قد تعلمين قليل

وأمره بالبخل قلت لها اقصري ... فذلك شيء ما إليه سبيل

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ... ورأي أمير المؤمنين جميل

أرى الناس خلان الجواد ولا أرى ... بخيلاً له في العالمين خليل

فقال الرشيد: هذا والله الشعر الذي صحّت معانيه وقويت أركانه ولذّ على أفواه القتالين وأسماع السامعين، يا غلام اجمل إليه خمسين ألف درهم. قال إسحاق: كيف أقبل صلتك يا أمير المؤمنين وقد مدحت شعري

بأكثر مما مدحتك؟ قال الأصمعي: فعلمت أنه أصيد للدرهم مني.

قال: وقال المأمون لإبراهيم بن المهدي: شاورت في أمرك فأشاروا عليّ بقتلك. فقال: أما أن يكونوا نصحوك فيما جرت به السياسة وحكمت به الرياسة فقد فعلوا ولكنك تأتي أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله، فإن عاقبت فلك نظير وإن عفوت فليس لك نظير، وإن جرمي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أنطق فيه بعذر وعتو أمير المؤمنين أجلّ من أن يفني به شكر. فقال المأمون: مات الحقد عند هذا العذر. فاستعبر إبراهيم وبكى، فقال له المأمون: ما لك؟ قال: الندم إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته في الإنعام عليّ. وحدثني سعيد بن مسلم قال: قال المأمون لإبراهيم بن المهدي بعد المؤانسة وإخراج ما كان في قلبه عليه: يا عم ما الذي حملك على منازعة من جرى قدر الله عز وجل له بتمام أمره وإصلاح شأنه؟ قال: طلب صلاح حالي يا أمير المؤمنين وتوفر ما تتسع به يدي على خاصتي وعمتي. قال: فقدر ما شئت وهو لك مشاهرة. قال: إذا تجدني بحيث تحب ويجري حكمك عليّ وفي كما يجري في أحد عبيدك. وقد قلت في ذلك:

أرى الحر عبداً للذي سيب كفه ... شره بما قد غاظه غاية الحمد

علي أن ملك الحر أسنى ذريعة ... إلى المجد من مال يسان ومن عبد

وإن خصّ بيع ملك حر بنعمة ... إذا قوبلت بالشكر قارنهما المجد

فقال: لئن كان ذلك كذلك إني لأهل أن أرفعك بمواد نعمتي عليك عن أن يقال هذا فيك أو تمتهتك عين أحد بذلة.

قال: ودخل المأمون ذات يوم إلى الديوان فنظر إلى غلام جميل على أذنه قلم فقال: من أنت يا غلام؟ قال: يا أمير المؤمنين الناشيء في دولتك والمتقلب في نعمتك والمؤمل لخدمتك الحسن بن رجاء. فقال المأمون: بالإحسان في البديهة تتفاضل العقول. يرفع عن مراتب الديوان إلى مراتب الخاصة ويعطى مائة ألف درهم معونة له. ففعل به ذلك.

قال: ودخل يزيد بن جرير على المأمون وكان وجد عليه فقال: أيزيد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين غذي نعمتك وخرّيج صنيعتك وغرس يدك الذي لم يشركك فيه مصطع ولم يسبقك إلى تخريجه أحد، ولم أزل يا أمير المؤمنين بغفوك بعد سخطك راجياً وبصيرة رأيك في الانفراد برديّ إلى ما عودتني واثقاً حتى أقامني الله جل وعز هذا المقام الذي فيه إدراكي أمني ونيلي محبتي، فإن رأى أمير المؤمنين أن يشهري برضاه كما شهري بسخطه فعل إن شاء الله! فقال: قد رضي عنك أمير المؤمنين.

قال: ووصف يحيى بن خالد الفضل بن سهل وهو غلام على الجوسية للرشيدي وذكر أده وحسن مذهبه وجودة معرفته فعمل على ضمه إلى المأمون.

فقال يوماً ليحيى: أدخل إليّ هذا الغلام الجوسي حتى أنظر إليه، ففعل يحيى ذلك، فلما مثل بين يديه وقف وتحير وأراد الكلام فأرتج عليه وأدركته كبوة، فنظر الرشيدي إلى يحيى نظر منكر لما كان تقدم من تفريطه إياه، فانبعث الفضل فقال: يا أمير المؤمنين إن من أبين الدلالة على فراهة المملوك شدة إفراط هيئته لسيدته. فقال له الرشيدي: أحسنت والله! لئن كان سكوتك لتقول هذا إنه لحسن وإن كان هذا شيء أدركك عند

انقطاعك إنه لأحسن وأحسن. ثم جعل لا يسأله عن شيء إلا رآه مقدماً فيه مبرزاً. فضمه المأمون في ذلك اليوم.

وقال الفضل بن سهل للمأمون وقد سأله حاجة لبعض أهل بيوتات دهاقين سمرقند ووعده تعجيل إنفاذها فتأخر ذلك عليه: يا أمير المؤمنين هب لوعدك تذكراً من نفسك وهنيء سائلك حلاوة نعمتك واجعل ميلك إلى ذلك في الكرم حائناً على اصطفاء شكر الطالبين لتشهد القلوب بحقائق الكرم والألسن بنهاية الجود. فقال: قد جعلت إليك إجابة سؤالي عني بما ترى فيهم وأخذتك بالتقصير فيما يلزمهم من غير استثمار ولا معاودة في إخراج الصكاك من أخضر المال متناولاً. قال: إذا لأتحدى معرفتي بما يجب لأمر المؤمنين الهناً بما يديم له حسن الثناء، ومن دعائهم طول البقاء.

قال: وقال الفضل بن سهل للمأمون: يا أمير المؤمنين اجعل نعمتك صائنة لماء وجوه خدمتك عن إراقتة في غضاضة السؤال. فقال المأمون: والله لا كان ذلك إلا كذلك.

قال: ودخل العتابي على المأمون فقال: يا أبا كلثوم خبرت بوفاتك فغممتني ثم جاءتني وفادتك فسررتني. فقال: يا أمير المؤمنين كيف أمدحك أو بماذا أصفك ولا دين إلا بك ولا دنيا إلا معك! فقال: سلمي عما بدا لك. قال: يداك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة.

قال: وتكلم المأمون يوماً فأحسن فقال يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك! إن خصنا في الطب فأنت جالينوس في معرفته، أو في النجم فأنت هرمس في حسابه، أو في الفقه فأنت علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في علمه، وإن ذكر السخاء كنت حاتماً في جوده، أو الصدق فأنت أبو ذر في صدق لهجته، أو الكرم فأنت كعب بن مامة في إثارة على نفسه، أو الوفاء فأنت السمؤال بن عاديا في وفائه. فاستحسن قوله وتامل وجهه.

قال: وقال إبراهيم بن المهدي للمأمون: يا أمير المؤمنين ليس للعافي بعد القدرة عليه ذنب، وليس للمعاقب بعد الملك عذر. قال: صدقت فما حاجتك؟ قال: فلان. قال: هو لك.

قال: وقال الواثق يوماً لأحمد بن أبي دؤاد وقد تضرّج بكثرة حوائجه: قد أخليت بيوت الأموال بطلباتك للاثنين بك والمتوصلين إليك! فقال: يا أمير المؤمنين نتائج شكرها متصل بك وذخائر أجرها مكتوب لك وما لي من ذلك إلا عشق الألسن لخلود المدح فيك. فقال: يا أبا عبد الله والله لا منعتك ما يزيد في عشقك وتقوى به متتك إذ كانا لنا دونك. وأمر فأخرج له ثلاثون ألف دينار يفرقها في الزوار.

قال: وقدم أبو وجزة السلمي على المهلب بن أبي صفرة فقال: أصلح الله الأمير! إني قطعت إليك الدهناء وضربت إليك أكباد الإبل من يثرب. فقال: هل أتيتنا بوسيلة أو قرابة أو عشرة؟ قال: لا ولكني رأيتك حاجتي أهلاً فإن قمت بما فأهل ذلك أنت وإن يحل دونها حائل لم أذم يومك ولم أياس من غدك. فقال المهلب: يعطى ما في بيت المال. فوجد فيه مائة ألف درهم فدفعت إليه، فأنشأ يقول:

يا من على الجود صاغ الله راحته ... فليس يحسن غير البنل والجود

عمّت عطايك من بالشرق قاطبةً ... وأنت والجود منحوتان من عُود

قال: ودخل الكوثر بن زفر على يزيد بن المهلب فقال: أصلحك الله! أنت أعظم قدراً من أن يستعان عليك

ويستعان بك، لست تفعل من المعروف شيئاً إلا وهو أصغر منك، وليس من العجب أن تفعل ولكن العجب أن لا تفعل. قال: سل حاجتك. قال: تحملت عن قومي عشر ديات وقد نهكتني. قال: قد أمرنا لك بها وأضعفناها بمثلها. فقال الكوثر: إن ما سألتك هو بوجهي لمقبول منك، وأما ما بدأتني به فلا حاجة لي فيه. قال: ولم وقد كفيتك ذل السؤال؟ قال: لأني رأيت الذي أخذته مني بمسألتي إياك أكثر مما نالني من معروفك فكرهت الفضل على نفسي. قال يزيد: فأنا أسألك بحقك عليّ فيما أملتني له من إنزالك إليّ إلا قبلتها. فقبلها.

### مساوي المخاطبات

قيل: دخل أبو علقمة النحوي على أعين الطيب فقال له: إني أكلت من لحوم هذه الجوازيء فطست طسأة فأصابني وجع ما بين الوابلة إلى دأية العنق ولم يزل يربو وينمو حتى خالط الخلب والشراسيف فهل عندك دواء؟ قال: نعم خذ خرفقاً وسلفقاً فرقرقه واغسله بماء روث واشربه. قال: لا أدري ما تقول! قال: ولا أنا أدري ما تقول.

وقال له آخر: إني أجد معمعة في بطني وقرقرة، فقال له: أما المعمعة فلا أعرفها، وأما القرقرة فهو ضراط لم ينضج.

قيل: وأتى رجل إلى الهيثم بن عريان بغريم له وقد مطله في حق له فقال: أصلح الله الأمير! إن لي على هذا حقاً قد غلبني عليه. فقال له الآخر: أصلحك الله! إن هذا باعني عنجداً وقد استنساته حولاً وشرطت أن أعطيه مياومة فهو لا يلقاني في لقم إلا اقتضاني. فقال له الهيثم: أمن بني شيبه أنت؟ قال: لا. قال: فمن بني هاشم؟ قال: لا. قال: فمن أكفائهم من العرب؟ قال: لا. قال: ويلى عليك انزع ثيابه يا حرسى! فلما أرادوا أن ينزعوا ثيابه قال: أصلحك الله! إن إزارى مرعب. فقال: دعوه فلو ترك الغريب في موضع لتركه في هذا الموضع.

قال: ومر أبو علقمة ببعض الطرق فهاجت به مرة فوثب عليه قوم وأقبلوا يعضون إبهامه ويؤذنون في أذنه. فأقلت من أيديهم وقال: ما لكم تتكاثرون علي كما تتكاثرون على ذي جنة؟ افرنقوا عني! فقال رجل منهم: دعوه فإن شيطانه هندي يتكلم بالهندية.

وقال مرة لحجام يحجمه: اشدد قصب الملازم وارهدف طبة المشارط وخفف الوضع وعجل النزع، وليكن شرطك وخزاً ومصك نمزاً، ولا تكرهن أيباً ولا ترددن أتياً. فوضع الحجام محامه في جونتته ومضى.

### محاسن المكاتبات

قال: وقال كعب العبسي لعروة بن الزبير: قد أذنبت ذنباً إلى الوليد بن عبد الملك وليس يزيل غضبه شيء فكتب إليه. فكتب: لو لم يكن لكعب من قديم حرمته ما يغفر له عظيم جريرته لوجب أن لا تحرمه الثقيؤ بظل عفوك الذي تأمله القلوب، ولا تعلق به الذنوب وقد استشفع بي إليك فوثقت له منك بعفو لا يخلطه

سخط، فحقق أمله فيّ وصدق تقتي بك مغتنماً للشكر مبتدئاً بالنعمة. فكتب إليه الوليد: قد شكرت رغبته إليك و عفوت عنه لمعوله عليك، وله عندي الذي تحب إن لم تقطع كتبك عني في أمثاله وفي سائر أمورك. قال: وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه: أما بعد فقد عاقني الشك عن عزيمة الرأي، ابتدأتني بلطف من غير خبرة ثم أعقتني جفاء من غير ذنب طمعني أولك في إختاك وأيسني آخرك من وفائك، فلا أنا في غير الرجاء مجمع لك اطراحاً ولا في غدو انتظار منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي فيك ما أقمنا على ائتلاف وافتراقنا على اختلاف.

قال: وسخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن الهيثم فعزله عن شرطة الكوفة فشكا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب إليه: فإن من حفظ نعم الله رعاية حتى ذوي الأسنان، ومن إظهار شكر الموهوب له صفح القادر عن الذنوب، ومن تمام السوود حفظ الودائع واستتمام الصنائع، وقد كنت أودعت العريان نعمة من نعمك فسلبتها عجلة سخطك، وما أنصفتك إذ غصبتك على أن وليته ثم عزلته وخليته، وأنا شفيعه فأحب أن تجعل له من قلبك نصيباً ولا تخرجه من حسن رأيك فيضيع ما أودعته ويتوى ما أفدته. فعفا عنه. قال: وغضب سليمان بن عبد الملك على أبي عبيدة موله فشكا إلى سعيد بن المسيب ذلك، فكتب إليه: أما بعد فإن أمير المؤمنين في الموضع الذي يرتفع قدره عن أن تعصيه رعيته وفي عفو أمير المؤمنين سعة للمسلمين. فرضي عنه.

قال: وطلب العتابي من رجل حاجة فقضى له بعضها وماطله ببعض. فكتب إليه: أما بعد فقد تركني منتظراً لرفدك وصاحب الحاجة محتاج إلى نعم هنيئة أو لا مريجة، والعذر الجميل أحسن من المثل الطويل، وقد كتبت:

بسطت لساني ثم أوتقت نصفه ... فنصف لساني بامتداحك مطلق

فإن أنت لم تجز عداقي تركني ... وباقي لسان الشكر باليأس موثق

قال: ولما بنى المهدي بريطة ابنة أبي العباس كتب إليه يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري: أدام الله لك جميل عاداته عندك وأوتر ما يجري به القدر لك ولا زالت يد الله تحوطك في المحبوب وتلدراً عنك المكروه، وهنت بهذه النعمة ومليتها أمناً من زوالها بطول البقاء والمدة. فقالت له ربيعة: ما لهذا الكلام ثم!

فقال: وكيف ونحن أطلقنا بإحساننا إليه وإنعامنا عليه لسانه فينا وسنزيده من الثواب لثناؤه علينا.

قال: وأمر الرشيد جعفر بن يحيى أن يعزل أخاه الفضل بن يحيى عن الخاتم ويقبضه إليه قبضاً لطيفاً، فكتب إلى أخيه: قد رأى أمير المؤمنين أن تنقل خاتم خلافته عن يمينك إلى شمالك، فكتب إليه الفضل: ما انتقلت عني نعمة صارت إليك ولا خصتك دوني.

أحمد بن يوسف الكاتب قال: أمرني المأمون أن أكتب إلى الآفاق في الاستكثار من المصاييح في المساجد، فلم أدر كيف أكتب لأنه شيء لم أسبق إليه فأسلك طريقته ومعناه، فأتاني آت في منامي وقال لي: اكتب: فإن فيها أنساً للمجتهدين، وإضاءاً للسانين، ونفياً لتكامن الريب، وتزويهاً لبيوت الله عز وجل عن وحشة الظلم. فكتب بذلك.

قال: وكتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون في رجل من بني ضبة يستشفع إليه في زيادة في منزلته وجعل كتابته تعريضاً: أما بعد فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين لتطولك في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك تعدي طاعته والسلام. فكتب إليه المأمون: قد عرفنا توطئتك له وتعريضك لنفسك وأجبنك إليهما ووافقناك عليهما. وحدثنا عبد الله بن ميمون قال: تأخر الجاري من الرزق لإبراهيم بن إسحاق الموصلية عنه في أيام المأمون فكتب إليه: يا أمير المؤمنين ما فوق جودك في العاجلة مرتقى لآمالنا ولا إلى غير دولتك متطلع لقلوبنا فلم تتأخر الإفادات عنا ويعسر نيل المحبوب علينا. فقال المأمون: ما سمعت في التصريح والإشارة بالطلب أحسن من هذا، وأمر بإخراج فائته ومجانزة ثلاثمائة ألف درهم.

قال: وأول المأمون على بعض ولده فكتب إليه إبراهيم بن المهدي: لولا البضاعة تقصر عن الهمة لأتعبت السابقين إلى البر وخفت صحيفتها وليس لي فيها ذكر فبعثت بالبتدإ به ليمنه وبركته والمختوم به لنظافته وطيبه جراب ملح وجراب أشنان.

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى صديق له بعث إليه بهدية: لو كانت التحفة على حسب ما يوجهه حتمك بنا أداء حتمك ولكنه على ما يخرج من حد الحشمة ويوجب الأفس، وقد بعثت إليك بكذا. وحدثنا أبو الودغ قال: أول كتاب ورد على المأمون بالخلافة كتاب الحارث بن سباع الخراساني، فإنه كتب إليه: قد أظننا أمير المؤمنين بخلافته تحت جناح الطمأنينة وبلغنا بها مدى الأمانة، فأدام الله له من كرامته ما يتطامن له أقصي وأداني رعيته وجعله أعز خليفة وجعلنا أسمع وأطوع رعيته. فقال المأمون للفضل بن سهل: أتعرف ما قيمة هذا الكلام؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: وما هي؟ قال: تلقيك به بالسرور. فأعجبه قوله واستحسنه.

قال: وكتب عبد الله بن طاهر إلى المأمون من خراسان: بعدت داري عن أمير المؤمنين وعن ظل جناحه وعن خدمته وإن كنت حيث تصرف لا أتفياً إلا به وقد اشتد شوقي إلى النظر إلى رؤيته المباركة والتزين بحضور مجلسه وتلقيح عقلي بحسن رأيه، فلا شيء عندي آثر من قربيه، وإن كنت في سعة من عيش وهبه الله جل ذكره لي به، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في المصير إلى دار السلام لأحدث عهداً بالنعم عليّ وأهتماً بالنعمة التي أقرها لدي فعل. فأجابه المأمون: قربك إلي يا أبا العباس حبيب وأنا إليك مشتاق وإنما بعدت دارك عن أمير المؤمنين بالنظر لك والتخير لحسن العاقبة، فالزم مكانك واتبع قول الشاعر:

رأيت دنو الدار ليس بنافعي ... إذا كان ما بين القلوب بعيدا

وحدثنا خصيف بن الحارث عن أبي رجاء قال: قدم مع المأمون رجل من دهاقين الشاش وعظمائهم على عدة سلفت من المأمون له من توليته بلداً وأن يضم إليه مملكته، فطال على الرجل انتظار خروج المأمون وأمره له بذلك، فقصد عمرو بن مسعدة وسأله إنفاذ رقعة إلى المأمون من ناحيته. فقال عمرو: اكتب ما شئت فإني أوصله. قال: فتول ذلك عني يكن لك عليّ نعمتان. فكتب عمرو: إن رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عبده من ربة المطل بقضاء حاجته أو يأذن له في الانصراف إلى بلده فعل إن شاء الله تعالى. فلما قرأ



المأمون الرقعة دعا عمراً فجعل يعجبه من حسن لفظها وإيجاز المراد فيها. قال عمرو: فما نتيجتها يا أمير المؤمنين؟ قال: الكتاب له في هذا في الوقت بما سأل لتلا يتأخر فضل استحساننا كلامه وبجائزة مائة ألف درهم صلة عن دناءة المطل وسماجة الإغفال. ففعل عمرو ذلك.

وحدثنا إسماعيل بن أبي شاذان قال: لما أصاب أهل مكة سنة ثمان ومائتين السيل الذي شارف الحجر ومات تحت هدمه خلق كثير كتب عبد الله بن الحسن العلوي وهو والي الحرمين إلى المأمون: يا أمير المؤمنين إن أهل حرم الله وجيران بيته وآلاف مسجده وعمرة بلاده قد استجاروا بفيء معروفك من سيل تراكمت أحداثه في هدم البنيان وقتل الرجال والنسوان واجتياح الأموال وجرف الأمتعة والأثقال، حتى ما ترك طارفاً ولا تالداً يرجع إليهما في مطعم وملبس، قد شغلهم طلب الغذاء عن الاستراحة إلى البكاء على الأمهات والأولاد والآباء والأجداد، فأجرهم يا أمير المؤمنين بعطقتك عليهم وإحسانك إليهم تجد الله مكافئك عنهم ومثييك عز الشكر لك منهم. قال: فوجه إلهيم المأمون بالأموال الكثيرة. وكتب إلى عبد الله: أما بعد فقد وصلت شكيتك لأهل حرم مكة إلى أمير المؤمنين فبئلافهم الله بفضل رحمته وأنجدهم بسبب نعمته وهو متبع ما أسلفه إليهم بما يخلفه عليهم عاجلاً وآجلاً إن أذن الله جل وعز في تثبيت عزمه على صحة نيته فيهم. قال: فكان كتابه هذا أسراً إلى أهل مكة من الأموال التي أنفدها إليهم.

قال أحمد بن يوسف: دخلت على المأمون يوماً ومعه كتاب يعجب به كتبه إليه عمرو بن مسعدة، فالتفت إليّ وقال: أحسبك مفكراً فيما رأيت. قلت: نعم، وقى الله أمير المؤمنين المكروه. قال: إنه ليس بمكروه ولكني قرأت كلاماً نظير الخبر خبرني به الرشيد، سمعته يقول: البلاغة التقرب من معنى البغية والتباعد من حشو الكلام ودلالة بالقليل على الكثير، فلم أتوهم أن هذا الكلام يسبك على هذه الصيغة حتى قرأت هذا الكتاب، والله لأقضي حق هذا الكلام، وكان الكتاب استعطافاً على الجند فيه كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبلي من أجناده وقواده في الطاعة والموالاتة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة جند، وقد تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم. قال: فأمر بإعطائهم لثمانية أشهر.

قال: ولما بعث طاهر بن الحسين برأس محمد الأمين كتب إليه: أتى الله أمير المؤمنين من شكره ما يزيد به في نعمته عليه وأياديه لديه، فقد كان من قدر الله جل وعز في إعانة أمير المؤمنين على الظفر بحقه وسلامة الأولياء ووفاء محمد بن الرشيد ما لا دافع له من القضاء في الخلق والاستبداد بالأمر لنفوذ مشيئته فيما أحب من إعزاز وإجلال وموت وحياء، فليهنئ أمير المؤمنين فوائده تطول الله عليه وليعزه عن أخيه الرضى بما يؤول إليه أهل الأرض والسماء من الانقراض والفناء. فكان المأمون يقول: والله لسروري بتعزيتته أوقع بقلبي من تمنتته.

قال: وكتب إليه الفضل بن سهل: أما بعد فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمية فقد فرق الكتاب بينه وبينه في الولاية والحرمة لقول الله جل وعز فيما اقتص علينا من نيا نوح حيث يقول: إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح، ولا صلة لأحد في معصية الله ولا قطيعة فيما كانت القطيعة في ذات الله. وكتبت إلى أمير المؤمنين: وقد قتل الله جل وعز المخلوع ورداه رداء نكته وعجل لأمر المؤمنين ما كان

ينتظر من وعده، فالحمد لله الذي رد إلى أمير المؤمنين معلوم حقه، وكبت المكايد له في خفر عهده ونقض عقده حتى رد بذلك أعلام الدين إلى سبيلها بعد دروسها والسلام.

قال: وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر: أما بعد فإن المأمون أحله الله دار كرامته رآك لأكثر الذي أنت له فيه أهلاً وقد جمع الله لك إلى حسن رأيه كان فيك جميل رأيي لما محضته من حسن الطاعة وكرم الوفاء وشكر الإحسان، وقد اتصلت الأخبار بأنك في كفاية من أولياء أمير المؤمنين وأموال خراسان وفي منعة من خاصتك وعامتك عن أن ينالك عدوك أو أحد ممن يخالفك بسوء، فكتب بشرح ذلك إلى أمير المؤمنين ليعرفه إن شاء الله. فلما وصل كتابه قال عبد الملك لكتابه إسماعيل بن حماد: ما تقول في هذا الكتاب؟ قال: كتاب تعريض بأنك خارج من طاعته مالك أمر نفسك دونه. قال: فأجبه عنه. فكتب إليه: أما بعد يا أمير المؤمنين فإن حزب الله وإن قلوباً وأنصار المؤمنين وإن ضعفوا فهم الغالبون، وما أنا بشيء في ملاقاته عدو أوثق مني بعز دولة أمير المؤمنين، فأما الأيدي فقليلة والأموال فنزرة وفي الله وفي أمير المؤمنين أعظم الغنى. فقبل عذره وحسن موقع كتابه منه.

قال: وكتب أحمد بن إسرائيل إلى الواثق، وقد عزله عن ديوان الخراج وأمر بتقييده ليصحح حساباته: يا أمير المؤمنين بم يستحق الإذلال من أنت بعد الله ورسوله موئل عزه وإليك مفرغ أمله، ولم تنزل نفسه راجية لا ابتداء إحسانك إليه وتتابع نعمك لديه، وعينه طامحة إلى تطولك عليه ورفعتك منه والزيادة في الضيعة إليه، فهب له يا أمير المؤمنين ما يزينك واعف عما لا يشينك، فما به عنك معدل ولا على غيرك معول. فأمر بإطلاقه.

قال: وكتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد يستعفيه من العمل: شكري لك على ما أريد الخروج منه شكر من نال الدخول فيه.

وكتب علي بن هشام إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي: ما أدري كيف أصنع، أغيب فأشتاق وألتقي فلا أشفي ثم يحدث لي اللقاء نوعاً من الحرقة للوعة الفرقة. وكتب معقل إلى أبي دلف: فلان جميل الحال عند كرام الرجال وأنت إن لم ترتبطه بفضلك عليه غلبك فضل غيرك عليه.

وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد فقد بان لنا من فضل الله جل وعز ما لا نحصيه لكثرة ما نعصيه وما ندري ما نشكر أجميل ما نشر أم قبيح ما ستر أم عظيم ما أبلى أم كثير ما عفا، غير أنه يلزمنا في الأمور شكره ويجب علينا حمده، فاستزد الله من حسن بلائه بشكرك إياه على حسن آلائه.

وكتب رجل إلى أخ له: أوصيك بتقوى الله الذي ابتدأك بإحسانه وأتم عليك نعمه بأفضاله وصبر عليك مع اقتداره ولا يغرك إمهاله فإنه ربما كان استدراجاً، عافانا الله وإياك من الاعتزاز بالامهال فإنه ربما كان استدراجاً، عافانا الله وإياك من الاعتزاز بالامهال والاستدراج بالإحسان.

قال: وكتب أبو هاشم الحرابي إلى بعض الأمراء: عوضني من أمل الأمير متأخر، والصبر على الحرمان متعذر. وكتب رجل إلى محمد بن عبد الله: إن من النعمة على المثني عليك أن يخاف الإفراط ولا يأمن التقصير ولا

يحذر أن تلحقه نقيصة الكذب ولا ينتهي من المدح إلى غاية إلا وجد في فضلك عوناً على تجاوزها، ومن سعادة جدك أن الداعي لك لا يعدم كثرة المادحين ومساعدة من النية على ظاهر القول.

وكتب رجل إلى أبي عبد الله بن يحيى: رأيتني فيما أتعاطاه من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر والقمر المضيء الزاهر الذي لا يخفى على ناظر، وأيقنت أني حيث أنتهي من القول منسوب إلى العجز مقصر عن الغاية فانصرفت عن إثناء عليك إلى الدعاء لك، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك.

قال: وكتب المهلب بن أبي صفرة إلى عبد الملك بن مروان لما هزم الشراة: أما بعد فإننا لقينا المارقة ببلاد الأهواز وكانت للناس جولة ثم تاب أهل الدين والمروءة ونصرنا الله جل وعز عليهم ونزل القضاء بأمر جاوزت النعمة فيه الأمل فصاروا ردية رماحنا وضرائب سيوفنا وقتل رئيسهم في جماعة من حماهم وذوي النيات منهم وجلا الباقون عن عسكرهم، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها تماماً وكمالاً، والسلام.

وكتب المهلب إلى الحجاج في فتح الأزارقة: الحمد لله الكافي بالإسلام ما وراءه الذي لا تنقطع مواد نعمته حتى يقطع من خلقه مواد الشكر، وإنا كنا أعطينا من الله جل وعز على عدونا حالين يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم، فلم يزل الله جل وعز يزيدنا وينقصهم ويعزنا ويخذلهم حتى بلغ الكتاب أجله وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

أخبرنا ابن أبي السرح أن الحجاج أغزى جيشاً فظفروا وأن صاحب جيشه كتب إليه: الحمد لله الذي جعل لأوليائه أمام نصره موعداً قوياً به قلوبهم وقدم إلى أعدائه بين يدي خذلانه إياهم وعيداً أربع به مفاصلهم وززع مع قلوبهم.

فلما بلغ هذا الموضوع طوى ما كان نشره من الكتاب ولم يقرأ ما بعده ثم الفت إلى الرسول فقال: غيرنا هذا الكلام المبتدأ به، إن العدو ولى من غير حرب! فقال: صدق الأمير صدق الله ظنه وأصاب أصاب الله رأيه.

قال: وكتب مروان بن محمد إلى عبد الله بن علي يوصيه بحرمة، فكتب إليه عبد الله: يا مائق إن الحق لنا في دمك والحق علينا في حرمك.

وكتب علي، رضوان الله عليه، إلى زياد ابن أبيه: لئن بلغتني عنك خيانة لأشدنّ عليك شدة أدعك فيها قليل الوفرة ثقيل الظهر.

قال: وكتب رجل إلى أبي مسلم حين خرج: أحسن الله لك الصحبة وعصمك بالقوى وأهملك التوفيق، إن الأرض لله يورثها من عباده من يشاء والعاقبة للمتقين، فسر فيها راعباً إلى الله ورسوله والرضى من هذه الأمة بالكتاب والسنة.

واعلم أن التقوى أس ما تبني عليه أمرك، فإن ضعف الأساس تداعى البنيان ودخل الأعداء من كل مكان، فيتألف الأعلام من الرجال وسرواتهم وتصفح عقولهم ومروءاتهم، فكلما ارتضيت رجلاً ففره عن عزائم رأيه واصرف نظرك إلى تصرف حاله، وإن وجدته على خلاف ما أنت عليه فلا تعجل باللقاء أمرك إليه فتدخل الوحشة منك والنفور عنك، لكن اقرعه بالحجة في رفق وسقه إلى شرك المحجة في لين حتى يتكشف لك ثوب الظلمة عن النور وتظهر لك وجوه الأمور، فإنه سيكثر أعوانك على الحق ويسهل لك منهاج الطرق.

فإذا كثرت العدة من أصحابك وأمكنتك الشدة على أعدائك فحارب الفئة الباغية والأئمة الطاغية الذين أباحوا همى المسلمين وأجروا عليهم أحكام الفاسقين وقادوهم بجرائم المهين واستذلوهم في البر والبحر. واعلم أن من عرف الله جل وعز لم ير لأهل البغي جماعة ولا لأئمة الضلالة طاعة. وكلما غلبت على بلدة فامسك عن القتل وأظهر في أهله العدل لتسكن إليك النفوس ويتوب نحوك الناس وينتشر فعلك في الخاصة والعامّة فتستدعي أهواءها وتستميل آراءها وتمسك إليك من الآفاق نفوس عرائن الكرم ومصايح الظلم من ذوي الأحساب الكريمة والبيوت القديمة التي شرفها الإسلام وزينها الإيمان لترزع بذلك لك الحبة في قلوب العباد ويكونوا لك دواعي في نواحي البلاد. تمم الله لك أمرك وأعلى كعبك.

قال: ولما استقامت المملكة لأبرويز وانقضى ما بينه وبين بهرام جوبين أمر أن تكتب تلك الحروب والوقائع إلى منتهائها ففعلت الكتابة ذلك وعرضته على أبرويز فلم يرض صدره. فقال غلام من أولاد الكتاب: إن أمر الملك كتبت صدره. فقال: شأنك.

فتناول القلم وكتب: إن الدهر لم يخل في تارات عقبه وتصرفه ووجوه تنقله في حالات من العجائب ولم تنصرم فيه فونها على طول مداه ولم يزل في تقلب عصريه وصفحات أزمنته وطبقات أحيائه تحدث فيه جلائل الأمور وغرائب الأنباء وتنجم فيه قرون وتعقب فيه أعقاب بعد أسلاف وتعفو آثار، وله في تلونه تصريف أنباء معجبة وأحاديث فيها معتبر وعظة ومختبر، ومن أعاجيب ذلك أمر بهرام بن بهرام ولقبه جوبين، فعرضه على أبرويز فأعجبه ذلك وأمر برفع درجته وتقديمه وتعظيمه.

## مساوي المكاتبات

قال الجاحظ: كتب ابن المراكبي إلى بعض ملوك بغداد: جعلت فداك برحمته. وقرأت على عنوان كتاب لأبي الحسين السمرري: للموت أنا قبله. وقرأت أيضاً على عنوان كتاب: إلى ذاك الذي كتب إليّ.

وكتب بعضهم إلى ابن له عليل: يا بني اكتب إليّ بما تشتهي. فكتب إليه: أشتهي قلسوة. فكتب إليه: إنما سألتك أن تخبرني بما تشتهي من الغداء.

فكتب إليه: أشتهي دهن خل وزيت. فكتب إليه: أنزل الله عليك الموت فإنك ثقيل! قال: وقش بشر بن عبد الله على خاتمه: بشر بن عبد الله بالرحمن لا يشرك. فقال أبوه: هذا والله أقبح من الشرك!

## محاسن الخطب

قال: خطب خالد بن صفوان خطبة نكاح فقال: الحمد لله جامعاً للحمد كله وصلى الله على محمد وآله. أما بعد فقد قلتم ما سمعنا وبذلتنا فقبلنا وخطبتم فأنكحنا فبارك الله لنا ولكم.

قال: وخطب محمد بن الوليد بن عتبة إلى عمر بن عبد العزيز أخته فزوجها وخطب فقال: الحمد لله ذي العزة والكبرياء، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء، وقد زوجتك على ما في كتاب الله جل وعز: إمساك

بمعروف أو تسريح بإحسان.

وخطب عبد الله بن جعفر فقال: الحمد لله الذي ليس من دونه احتراز ولا لذهاب عنه مجاز، السميع المنيع ذي الجلال الرفيع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في سلطانه ولا سمي له في برهانه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم. أما بعد فإن لكل شيء سبباً مضت به الأقدار وأحصيت فيه الآثار على وقوع أفضيته وحلول مدته، والصهر نسب شابك يجمع المختلف ويقرب المتولف، وفلان بن فلان قد بذل لكم الموجود ووعدكم الوفاء المحمود فأجيبوه إلى ما رغب فيه تحمدوا العاقبة وتذخروا الأجر للآخرة.

وخطب أبو عبيدة خطبة نكاح بالبصرة وحضره أعرابي فقال: الحمد لله أكثر مما حمدتم، وربنا أعظم مما صفتتم، ندع الفصول ونتبع الأصول كفعل ذوي العقول، وقد سمعنا مقالتيكم وشفّعنا خاطبكم وقبلنا ما بذلتكم، والسلام عليكم.

وخطب أعرابي إلى قوم فقال: الحمد لله ولي الأنعام وصلى الله على محمد خير الأنام وعلى آله وسلم. أما بعد فإنّ إليكم معشر الأكفء خاطب، وفي سبب الألفة بيننا وبينكم راغب، ولكم عليّ فيمن خطبت أحسن ما يجب للصاحب على صاحب، فأجيبوني جواب من يرى نفسه لرغبتني محلاً ولما دعيتني الطلبة إليه أهلاً. فأجابه أعرابي آخر: أما بعد فقد توصلت بجرمة وذكرت حقاً وأملت مرجواً، فحملك موصول، وعرضك مقبول، وقد أنكحنا وسلمنا والحمد لله على ذلك.

قال: وكان الحسن البصري يقول في خطبة النكاح بعد حمد الله والثناء عليه: أما بعد فإن الله عز وجل جمع بهذا النكاح الأرحام المنقطعة والأنساب المنفرقة وجعل ذلك في سنة من دينه ومنهاج واضح من أمره، وقد تزوج فلان بن فلان بفلانة ابنة فلان وبذل لها من الصداق كذا وكذا، فاستخيرا الله وردوا خيراً. قال: وحضر المأمون إملاًكاً فسأله بعض من حضر أن يخطب فقال: الحمد لله والمصطفى رسول الله، عليه وعلى آله السلام، وخير ما عمل به كتاب الله، قال الله جل وعز: " وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم " ، ولو لم يكن النكاح آية منزلة وسنة متبعة إلا لما جعل الله جل اسمه في ذلك من تأليف البعيد وإدناء الغريب لسارع إليه العاقل المصيب وبادر إليه المختار اللبيب، وفلان من قد عرفتموه في نسب لم تجهلوه يخطب إليكم فئاتكم فلانة ويبدل لها من الصداق كذا، فشفّعوا شافعنا وأنكحوا خاطبكم وقولوا خيراً تحمدوا عليه وتؤجروا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

### مساوي الخطب

قيل: واستعمل الوليد بن عبد الملك أعرابياً على بعض مدن الشام، فلما صعد المنبر قال: الحمد لله، أحمده وأستعينه، من يهد الله فليس بضال ومن يضلل فأبعده الله. أما بعد فوالله لقد ذكر لي أنكم تأتون الأندرين فتشربون من خمورها، وما الذي عرضكم أخزاكم الله لما يشين أعراضكم؟ فإن كنتم لا بد فاعلين فليشرب الرجل قعباً أو قعين أو ثلاثة إن كان طيباً. ولقد بلغني أنكم تأتون بالليل النساء اللواتي قد غاب أزواجهن،

وإني أعطي الله عهداً أني لا أجد رجلاً يأتي امرأة ليلاً إلا قطعت ظهره بالسياط، فإذا قدم عليهن أزواجهن فأتوهن حلالاً، وأيما رجل أصاب في بيته رجلاً فليأخذ سلبه. فقال له كاتبه: أيهما يأخذ سلب صاحبه أيها الأمير؟ فقال: أيهما غلب. فكانت المرأة تقول لزوجها: قد أحل لنا الأمير الزناء.

وحكي عن جحا أن أباه قال له: دع ما أنت عليه من الجنون والمجون والخلاعة وترزن حتى أخطب لك بعض بنات أهل الثروة والشرف. فقال: نعم يا أبته، فتزّين وتبخر وصار إلى مجمع الناس فقعد وهو صامت وقد حضر أشرف الناس وعظماؤهم، فقال له أبوه: تكلم يا بني، فقال: الحمد لله، أحمده وأستعينه وأشرك به حي على الصلاة حي على الفلاح. فقال أبوه: يا بني لا تقم الصلاة فأني على غير وضوء.

### محاسن الأمثال

آتيه في البردين، يعني قبل أن يشتد الحر وبعدهما يسكن، والمعنى فيه أيضاً: بالغداة والعشي، قال الشاعر:  
يسرن الليل والبردين حتى ... إذا أظهرن رفّعن الظلالا

وقولهم: همك في الأحمرين، يعنون اللحم والخمر.

وقولهم: إنه لطويل النجادين، يريدون كماله وقامه في جسمه.

وقولهم: إنه لغمز الرداء، أي كثير المعروف. وأنشد الأصمعي:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً ... غلقت بضحكته رقاب المال

وقولهم: إنه لسبط البنان، إذا كان شجاعاً سخياً.

وقولهم: شديد الجفن، إذا كان صبوراً على السهر.

وقولهم: إنه لطيب الحجزرة، إذا كان عفيفاً، قال النابغة:

رقاق النعال طيبٌ حجازكم ... يحيون بالريحان يوم السبابس

وقولهم: إنه لطاهر الثياب، أي ليس في قلبه غش، وقد روي في تفسير قول الله جل وعز: وثيابك فطهر، أي

طهر قلبك. وأنشد:

ثياب بني عوفٍ طهارى نقيّةً ... وأوجههم بيض المشافر غرّان

يعنون بثيابهم قلوبهم.

وقولهم: إنه لطيب الأثواب، أي طاهر الأخلاق. قال بعض الأنصار:

ومواعظٌ من ربنا تمّدي لنا ... بلسان أزهر طيب الأثواب

وقولهم: تحسبها حمقاء وهي بأحسن، يضرب مثلاً لمن يظن به الجهل فإذا اختبرته وجدته عاقلاً.

وقولهم: من أجذب انتجع، أي من احتاج طلب. ويقال: إن صعصعة ابن صوحان كان يأكل مع معاوية

فجعل معاوية يأكل من دجاجة بين يديه، فمدّ صعصعة يده فجذب الدجاجة، فقال له معاوية: انتجعت!

فقال: من أجذب انتجع.

وقولهم: من لي بالسانح بعد البارح، يضرب مثلاً لرجل يسيء إليه إنسان فيقال له: احتمل فإنه سيحسن

فيما بعد. وأصل ذلك أن رجلاً مرّت به طباءً بارحةً فتطيرٌ منها فقيل له: لا تنطير فإنها سوف تسنح لك، فقال: من لي بالسناح بعد البارح! وذلك أن العرب كانت إذا خرجت فمرّت بما طباء عن يمينها قالت: يمن وبركة، فإذا مرت عن يسارها تشاءمت بما وقالت: هذا يوم نحس. والسناح ما جاء عن يمينك. والبارح ما جاء عن يسارك. والقعيد ما جاء من ورائك. والناطح ما استقبلك.

### مساوي الأمثال

قولهم: ذهب منه الأطيبان، يعنون الشباب والطعم. وقالوا: هو الأكل والنكاح.

وقولهم: نعوذ بالله من الأمرين، يعنون الفقر والهزم.

ويقال: وقيت شرّ الأجوّفين، يعنون البطن والفرج.

وقولهم: أماطله العصرين، يعنون الغداة والعشي. وقال الشاعر:

أماطله العصرين حتى يملني ... ويرضى بنصف الدين والأنف راغم

وقولهم: أفناه الملوان، يعنون الدهر ومقاساة النعم.

وقولهم: أبلاه الجديدان، يعنون الليل والنهار. وقال الشاعر:

إن الجديدين في طول اختلافهما ... لا ينقصان ولكن يقص الناس

وقولهم: فلان قصير يد سرباله، أي أنه قليل المعروف. وأنشد الأصمعي:

لا تنكحي إن فرق الدهر بيننا ... قصير يد السربال مثل أبان

وقولهم: إنه لجعد البنان، وهو بخيل.

وقولهم: الحمى أضرعتني لك وإليك، يقول: الحاجة أذلتني إليك ولك.

وقولهم: من مدحنا فليقصد، يقول: من مدحنا فليقل الحق فإن المادح بالباطل غير ممدوح.

وقولهم: إنك تشجّ وتأسو، أي إنك تصلح وتفسد. وتأسو تداوي.

قال الشاعر:

يدّ تشجّ وأخرى منك تأسوي

وقولهم: سكت ألفاً ونطق خلفاً، يضرب مثلاً للرجل العي الذي يسكنه العي عن الكلام. والخلف من

الكلام الذي يشين صاحبه مثل خلف السوء، يقال: فلان خلف من أبيه إذا كان صالحاً، فإذا كان رديئاً قيل

خلف، قال لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجر

وقولهم: شر الرأي الدبري، يروى ذلك لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وهو أن يعرف

الرجل وجه نجاح حاجته بعد فوت الحاجة.

وقولهم: أحشك وتروثني، أي أوليك خيراً وتوليني شراً. والأصل في ذلك أن رجلاً كان يجتسّ لفرسه

وفرسه بقره فراث على رأسه، فقال له: أحشك وتروثني! وقولهم: إن الخبيث عينه فراره، أي يتبين الخبيث

في الخبيث من غير اختبار.

وقد قيل: إن الجواد عينه فراره، أي يتبين فيه الجودة من غير اختبار. يقال: فرس جواد بين الجودة. ونظر أعرابي إلى صياد فقال:

إن الخيـث عينه فراره ... في فمه شفرته وناره

ممشاه ممشى الكلب وازدجاره ... أطلس يخفي شخصه غباره

ويقال: إن رجلاً ضاف امرأة بالبادية وللمرأة ابنة فقالت لها: يا أمه لا تضيفيه فإن الخيـث عينه فراره، فلما أظلم الليل راود المرأة عن نفسها، وكانت عفيفة، فقالت لأمها: لولا حق الضيافة لانقلبت محروباً، فاستحيا الرجل فولّى وهو يقول:

تقول أم عامرٍ للغمر قل ... فإن تقل فعندنا ماءٌ وظلٌّ

ولبنٌ تنهل منه وتعل ... أما الذي سألتنا فلا يحل وقولهم:

خلا لك الجو فيضي واصفري ... ونقرّي ما شئت أن تنقرّي

قد رفع الفخ فماذا تحذري

قيل: كان طرفة بن العبد البكري مع عمه وهو صغير في بعض أسفارهما فنزلا على ماء فنصب طرفة فخه للقنابر وقعد لها وهنّ يجذرن الفخّ وينفرن مما حوله، فقال:

قاتلكن الله من قنابر ... منتبذاتٍ في الفلا نوافر

وأخذ فخه ورجع إلى عمه. فلما تحملوا أقبلت القنابر تلتقط ما كان ألقاه هن من الحب، فالفت فرآهن فقال:

يا لك من حمرةٍ بمعمر ... خلا لك الجو فيضي واصفري

ونقرّي ما شئت أن تنقرّي

وقولهم: لو ترك القطا لنام، كانت حذام بنت الريان ملك معدّ وإن رجلاً من حمير سار إلى أبيها في حمير،

فلقبهم الريان في أحياء ربيعة فالتقوا في أرض تدعى المرامة فاقتلوا يومين وليلتين ثم رجع الحميري إلى

عسكره وهرب الريان وسار يومه وليلته، فلما أصبح الحميري ورأى عسكر الريان سار في طلبه، وجعلوا

يمرون ويثيرون القطا وجعلت القطا تمر على عسكر الريان، فانتبهت ابنته فقالت لقومها:

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا ... فلو ترك القطا ليلاً لناما

فارتحلوا واعتصموا برؤوس الجبال ورجع القوم، ففي ذلك يقول حميد:

إذا قالت حذام فصدقوها ... فإن القول ما قالت حذام

### محاسن الجواب

قيل: دخل رجل على كسرى أبرويز فشكا عاملاً له غصبه على ضيعة له.

قال كسرى: منذ كم هي في يدك؟ قال: منذ أربعين سنة. فقال: أنت تأكلها منذ أربعين سنة ما عليك أن



يأكل منها عاملي سنة! فقال: ما كان على الملك أن يأكل بهرام جوبين الملك سنة واحدة! فقال: ادفعوا في قفاه واخرجوه. فأخرج، فأمكنته الثفاعة فقال: دخلت بمظلمة وخرجت بشننين. فقال كسرى: ردوه، وأمر برد ضيعته وجعله في خاصته.

ويقال: إن سعيد بن مرة الكندي حين أتى معاوية قال له: أنت سعيد؟ فقال: أمير المؤمنين سعيد وأنا ابن مرة.

قيل: ودخل السيد بن أنس الأزدي على المأمون فقال: أنت السيد؟ فقال: أنت السيد يا أمير المؤمنين وأنا ابن أنس.

وقيل للعباس بن عبد المطلب: أنت أكبر أم رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ فقال: هو، عليه السلام، أكبر مني وولدت قبله. وقيل: إنه قال وأنا أسنّ منه.

قيل: وقال الحجاج للمهلب: أنا أطول أم أنت؟ فقال: الأمير أطول وأنا أبسط قامة.

قال: ووقف المهدي على امرأة من بني ثعل فقال لها: ممن العجوز؟ قالت: من طيء. قال: ما منع طيئاً أن يكون فيها آخر مثل حاتم؟ فقالت: الذي منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك. فأعجب بقولها ووصلها. قال: وقدم وفد من العراق على عمر بن عبد العزيز، فظفر عمر إلى شاب فيهم يريد الكلام، فقال عمر: أولو الأسنان أولى. فقال الفتى: يا أمير المؤمنين إن الأمر ليس بالسن ولو كان كذلك لكان في المسلمين من هو أسن منك، فقال: صدقت، تكلم. قال: يا أمير المؤمنين إنا لم نأتك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقدمت علينا في بلادنا، وأما الرهبة فقد آمننا الله بعدلك من جورك. قال: فما أنتم؟ قال: وفد الشكر. قال: لله أنت ما أحسن منطقك! وقيل: إنه لما استوسق أمر العراق لعبد الله بن الزبير وجّه مصعب إليه وفداً، فلما قدم عليه الوفد قال: وددت أن لي بكل خمسة منكم رجلاً منهم. فقال رجل من أهل الشام: بل وددت أن لي بكل عشرة منكم رجلاً منهم. فقال رجل من أهل العراق: يا أمير المؤمنين علقناك وعلقت بأهل الشام وعلق أهل الشام آل مروان، فما أعرف لنا ولك مثلاً إلا قول الأعشى:  
عَلَّقْتَهَا عَرْضاً وَعَلَّقْتَ رَجُلًا ... غَيْرِي وَعَلَّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلَ  
فما وجدنا جواباً أحسن من هذا.

وقيل: إنه عزم الفضل بن الربيع على تطهير بعض ولده فأتى الرشيد فقال: يا سيدي قد عزم عبدك على تطهير ولده خلمك فإن رأى أمير المؤمنين أن يزين عبده بنفسه ويصل نعمته هذه بنعمته المتقدمة ويتم سروره فعل متفضلاً على عبده متمناً بذلك. فقال: نعم. فغدا إليه وقد أصلح جميع ما يحتاج إليه ووضعت الموائد وقعد الناس يأكلون وأقبل الرشيد يدور في داره، فرأى صبيّاً صغيراً أول ما نطق فقال: يا صبي أيما أحسن داركم هذه أم دار أمير المؤمنين؟ فقال: دارنا هذه أحسن ما دام أمير المؤمنين فيها فإذا صار أمير المؤمنين إلى داره فداره أحسن. فضحك منه الرشيد وتعجب من نجابته ووهب له عشر قريات ومائة ألف درهم.

وقال مسلمة بن عبد الملك: ما شيء يؤتاه العبد بعد الإيمان بالله أحب إليّ من جواب حاضر، فإن الجواب

إذا تعقب لم يك شيئاً. وأنشد في مثله في مالك بن أنس صاحب الفقه:  
يا أبي الجواب فما يراجع هيبه ... والساتلون نواكس الأذقان  
هذا التقى وعز سلطان التقى ... فهو المطاع وليس ذا سلطان

### مساوي الجواب

قيل: إنه اجتمع عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الزبيرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم، فذكر عمرو الزبيرقان فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إنه لمطاع في أدانيه شديد العارضة جواد الكف مانع لما وراء ظهره. فقال الزبيرقان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، والله إنه ليعرف مني أكثر من هذا ولكنه يحسدني. فقال عمرو: والله يا نبي الله إنه لزمر المروعة ضيق العطن لئيم العم أحق الخال، والله ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخرى ولكني رضيت فقلت بأحسن ما أعلم وسخطت فقلت بأسوأ ما أعلم. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحراً.

وذكروا أن الوليد بن عقبة قال لعقيل بن أبي طالب: غلبك أبو تراب على الثروة والعدد. فقال له: نعم وسبقني وإياك إلى الجنة. فقال الوليد: أما والله إن شديك لتوضمتان من دم عثمان. فقال عقيل: ما لك ولقريش وإنما أنت فيهم كمنيع الميسر. فقال الوليد: والله إني لأرى لو أن أهل الأرض اشتركوا في قتله لوردوا صعوداً. فقال له عقيل: كلا ما ترغب له عن صحبة أهلك.

قال: وقال المنصور لقواده: صدق القائل أجمع كليك يتبعك. فقال أبو العباس الطوسي: يا أمير المؤمنين أخاف أن يلوح له رجل برغيف فيتبعه ويدعك.

قال: وقال رجل من قريش لخالد بن صفوان: ما اسمك؟ قال: خالد بن صفوان بن الأهتم. قال: إن اسمك لكذب ما أنت بخالد، وإن أباك لصفوان وهو حجر، وإن جدك لأهتم والصحيح خير من الأهتم. فقال له خالد: من أي قريش أنت؟ قال: من بني عبد الدار من هاشم. قال: لقد هشمتك هاشم، وأمتك أمية، وجهحت بك جمح، وخزمتك مخزوم، وأقصتك قصي فجعلتك عبداً وعبداً دارها تفتح إذا دخلوا وتغلق إذا خرجوا.

قيل: ومرّ الفرزدق بالمربد فرأى خلف بن خليفة الشاعر، فقال للفرزدق: يا أبا فراس من القائل: هو القين وابن القين لا قين مثله ... لقطع المساحي أو لقد الأدهم فقال الفرزدق: الذي يقول:

هو اللص وابن اللص لا لص مثله ... لقطع جدارٍ أو لطرّ دراهم

قيل: ودخل أبو العتاهية على المأمون حين قدم العراق فأنشده شعراً يمدحه به، فأمر له بجمال جزيل وأقبل عليه يمدته إذ ذكر أبو العتاهية القدرية، فقال: يا أمير المؤمنين ما في الأرض فنة أجهل ولا أضعف حجة من هذه العصابة. فقال المأمون: أنت رجل شاعر وأنت بصناعتك أعلم فلا تتخطها إلى غيرها فلست تعرف الكلام. فقال: إن جمع أمير المؤمنين بيني وبين رجل منهم وقف على ما عندي من الكلام. قال ثمامة: فوجه

إليّ رسولاً، فلما دخلت قال: يا ثمامة زعم هذا أنه لا حجة لك ولا لأصحابك! قلت: فليسل عما بدا له. فقال المأمون: سله يا إسماعيل. قال: أقطعه يا أمير المؤمنين بحرف واحد.

قال: شأنك. فأخرج أبو العتاهية يده من كمه وحركها وقال: يا ثمامة من حرك يدي هذه؟ قلت: حركها من أمه زانية. قال: فضحك المأمون حتى فحص برجله وتمرغ على فراشه وقال: زعمت أنك تقطعه بكلمة واحدة! فقال أبو العتاهية: شتمني يا أمير المؤمنين. قلت: ناقضت يا عاضّ بظر أمه! قال: فعاد المأمون في الضحك حتى خفت عليه من ضحكه وشدة ما ذهب له، ثم قلت: يا جاهل تحرك يدك وتقول من حركها! فإن كنت أنت الحرك لها فهو قولي وإن تكن الأخرى فما شتمتك! فقال المأمون: يا إسماعيل عندك زيادة في الكلام؟ فإن الجواب قد مضى فيما سألت. فما نطق بحرف حتى انصرف.

### محاسن المسائرة

قال: فيما يُحكى عن أنوشروان أنه بينما هو في مسيرة له كان لا يسايره أحد من الخلق مبتدئاً وأهل المراتب على مراتبهم، فإن التفت يميناً دنا منه صاحب الحرس وإن التفت شمالاً دنا منه الموبد فأمره بإحضار من أراد مسائرتة. فالتفت في مسيره هذا يمينه فدنا منه صاحب الحرس فقال: فلان. فأحضره. فقال: عرفت حديث أردشير حين واقع ملك الخزر؟ وكان الرجل قد سمع من أنوشروان هذا الحديث مرة فاستعجم عليه وأوهمه أنه لا يعرفه، فحدثه أنوشروان هذا بالحديث وأصغى إليه الرجل بجوارحه كلها، وكان مسيرهما على شاطئ نهر، وترك الرجل النظر إلى موطيء قوائم دابته لإقباله على حديث أنوشروان، فرّلت إحدى رجلي دابته فمالت بالرجل إلى النهر فوقع في الماء ونفرت دابته فابتدرا حاشية الملك وغلماه حتى أزالوها عن الرجل وجذبوه من تحتها وحملوه على أيديهم، فاغتم لذلك أنوشروان ونزل عن دابته وبُسط له هناك وأقام حتى تغدّى موضعه ذلك ودعا للرجل بثياب من خاص كسوته وألقيت عليه وأكل معه.

وقال: كيف أغفلت النظر إلى موطيء حافر دابتك؟ قال: أيها الملك إن الله جل وعز إذا أنعم على عبد بنعمة قابله بمحنة، وإنه جل ذكره أنعم عليّ نعمتين عظيمتين منهما إقبال الملك عليّ بوجهه من بين هذا السواد الأعظم، والأخرى هذه الفائدة وإقبال هذا الجيش الذي حدث فيه عن أردشير، حتى لو رحلت من حيث تطلع الشمس إلى حيث تغرب فيه كنت راجحاً، فلما اجتمعت عليّ هاتان النعمتان الجليلتان في وقت واحد قابلتهما هذه المحنة، ولولا أساورة الملك وخدمه كنت بعرض هلكة، ولو غرقت حتى أذهب عن جديد الأرض كان الملك قد أبقى لي ذكراً مخلداً باقياً ما بقي الضياء والظلام. فسر بذلك أنوشروان وقال: ما ظننتك بهذه المنزلة! فحشا فمه جوهرًا ودرًا ثمينًا واستبطنه حتى غلب على أكثر أمره.

وحكي عن يزيد بن شجرة الرهاوي أنه بينما هو يسير مع معاوية ومعاوية يحدثه عن خزاعة ويومها وبني مخزوم وقريش، وكل هذا قبل الهجرة وكان يوم إشراف الفريقين على الهلكة حتى جاءهم أبو سفيان فارتفع بعبيره على رايته ثم أوماً بكمه إلى الفريقين فانصرفوا، فبينما معاوية يحدث يزيد بن شجرة بهذا الحديث إذ صك وجه يزيد حجر عائر فأدماه وجعلت الدماء تسيل من وجهه على ثوبه ما يمسه. فقال له معاوية: لله

أنت! أما ترى ما نزل بك؟ قال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا دم وجهك يسيل على ثوبك! فقال: أعتق ما أملك إن لم يكن حديث أمير المؤمنين الهلالي حتى غمر فكري وغطى على قلبي فما شعرت بشيء حتى نهني له أمير المؤمنين. فقال له معاوية: لقد ظلمك من جعلك في ألف من العطاء وأخرجك عن عطاء أبناء المهاجرين وحمة أهل صفين. وأمر له بمائة ألف درهم وزاد في عطائه ألف درهم وجعله بين ثوبه وجلده.

وحكي عن أبي بكر الهذلي أنه كان يساير أبا العباس السفاح إذ تحدث أبو العباس بحديث من أحاديث الفرس فعصفت الريح فرمت طستاً من سطح إلى طريق أبي العباس فارتاع من معه ولم يتحرك أبو بكر لذلك ولم تزل عينه مطابقة لعين أبي العباس. فقال له: ما أعجب شأنك يا هذا! لم ترع مما راعنا؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله جل وعز يقول: ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه، وإنما للمرء قلب واحد، فلما غمر السرور قلبي بفائدة أمير المؤمنين لم يكن لحادث فيه مجال، وإن الله جل وعز إذا تفرد بكرامة أحد وأحب أن يبقى له ذكرها جعل ذلك على لسان نبيه أو خليفته، وهذه كرامة خصصت بها مال إليها ذهني وشغل بها فكري، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها. فقال أبو العباس: لئن بقيت لك لأرفعن منك ما لا تطيف به السباع ولا تحط عليه العقبان.

وحكي عن قباد أنه ركب ذات يوم والموبذ يسايره إذ راث دابة الموبذ وفطن قباد لذلك فغم ذلك الموبذ، فقال له قباد في أول كلام مرّ: ما أول ما يستدل به على سخف الرجل؟ قال: أن يعلف دابته في الليلة التي يركب الملك في صبيحتها. فضحك قباد وقال له: لله أنت ما أحسن ما ضمّنت كلامك بفعل دابتك! وبحق ما قدمتك الملوك وجعلت أحكامهم في يدك! ووقف ودعا له بدابة من خاص مراكبه وقال: تحول من هذا الجاني عليك إلى ظهر هذا الطائع لك. وحكي عن معاوية بن أبي سفيان أنه بينما هو يسير وشرحيل بن السمط يسايره إذ راث دابة شرحيل وساء ذلك. فقال معاوية: يا أبا يزيد إنه كان يقال إن الهامة إذا عظمت دلت على وفور الدماغ وصحة العقل. قال: نعم يا أمير المؤمنين إلا هامتي فإنها عظيمة وعقلي ضعيف ناقص، فتبسّم معاوية وقال: كيف ذاك لله أنت؟ قال: لإعلافي دابتي مكوكين من شعير. فتبسّم معاوية وحمله على دابة من مراكبه.

ويقال: إن سعيد بن سلم بينما هو يساير موسى الهادي وعبد الله بن مالك أمامه والحربة بيده فكانت الريح تسفي التراب الذي تشيره دابة عبد الله في وجه موسى وعبد الله في خلال ذلك يلحظ موضع مسير موسى فيطلب أن يحاذيه فإذا حاذاه ناله من ذلك التراب ما يؤذيه حتى إذا كثر ذلك من عبد الله قال موسى لسعيد: أما ترى ما لقينا من هذا الخائن في مسيرنا هذا؟ فقال له سعيد: والله يا أمير المؤمنين ما قصر في الاجتهاد ولكنه حرم حظ التوفيق.

مساوى المسايرة

ذكر عن عبد الله بن الحسن أنه بينما هو يساير أبا العباس السفاح بظهر مدينة الأنبار وهو ينظر إلى بناء قد بناه إذ قال أبو العباس: هات ما عندك يا أبا محمد. وهو يستطعمه الحديث بالأنس منه. فأنشده:  
ألم تر حوشباً أمسى بيتي ... بناءً نفعه لبي بقبله  
يرجى أن يعمر عمر نوح ... وأمر الله يحدث كل ليله  
فتبسم أبو العباس وقال: لو علمنا لاشرطنا حتى المسايرة. فقال عبد الله: يا أمير المؤمنين بواذر الخواطر  
وأعقال المشايخ. قال: صدقت خذ في غير هذا.  
وذكر عن المدائني قال: بينما عيسى بن موسى يساير أبا مسلم في منصرفه عن أبي جعفر في اليوم الذي قتل فيه إذ أنشد:

سيأتيك ما أفنى القرون التي مضت ... وما حلّ في أكناف عادٍ وجرهم  
ومن كان أسنى منك عزاً ومفخراً ... وأهض بالجيش اللّهام العرمم  
فقال أبو مسلم: هذا مع الأمان الذي أعطيت. فقال عيسى: عتق ما يملك إن كان هذا لشيء من أمرك وما هو إلا خاطر. قال: فيس والله خاطر!

#### محاسن المسايرة

قال الكسائي: دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في إيوانه وبين يديه مال كثير قد شق عنه البدر شقاً وأمر بتفريقه في خدم الخاصة وبيده درهم تلوح كتابته وهو يتأمله، وكان كثيراً ما يحدثني، فقال: هل علمت من أول من سنّ هذه الكتابة في الذهب والفضة؟ قلت: يا سيدي هذا عبد الملك بن مروان. قال: فما كان السبب في ذلك؟ قلت: لا علم لي غير أنه أول من أحدث هذه الكتابة.  
فقال: سأخبرك، كانت القرايطيس للروم وكان أكثر من بمصر نصرانياً على دين الملك ملك الروم، وكانت تطرّز بالرومية وكان طرازها أبا وينا وروحا قديشا. فلم يزل كذلك صدر الإسلام كله يمضي على ما كان عليه إلى أن ملك عبد الملك فتنبه عليه وكان فطناً، فبينما هو ذات يوم إذ مرّ به قرطاس فنظر إلى طرازه فأمر أن يترجم بالعربية ففعل ذلك فأنكره وقال: ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام أن يكون طراز القرايطيس وهي تحمل في الأواني والثياب وهما تعملان بمصر وغير ذلك مما يطرّز من ستور وغيرها من عمل هذا البلد على سعته وكثرة ماله وأهله تخرج منه هذه القرايطيس فدور في الآفاق والبلاد وقد طرّزت بشرك مثبت عليها! فأمر بالكتاب إلى عبد العزيز بن مروان، وكان عامله بمصر، يبطل ذلك الطراز على ما كان يطرّز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك وأن يأخذ صنّاع القرايطيس بتطريزها بصورة التوحيد: وشهد الله أنه لا إله إلا هو. وهذا طراز القرايطيس خاصة إلى هذا الوقت لم ينقص ولم يزد ولم يتغير. وكتب إلى عمّال الآفاق جميعاً يبطل ما في أعمالهم من القرايطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منها بالضرب الوجيع والحبس الطويل.

فلما أثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد وحمل إلى بلاد الروم منها انتشر خبرها ووصل إلى ملكهم فترجم له ذلك الطراز فأنكره وغلظ عليه فاستشاط غضباً وكتب إلى عبد الملك: إن عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطراز الروم إلى أن أبطلته، فإن كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت فقد أخطأوا، فاختر من هاتين الخاتين أيتها شئت وأحببت، وقد بعثت إليك بهدية تشبه محلك وأحببت أن تجعل رد ذلك الطراز إلى ما كان عليه في جميع ما كان يطرز من أصناف الأعلاق حاجة أشكرك عليها وتأمّر بقبض الهدية. وكانت عظمة القدر.

فلما قرأ عبد الملك كتابه رد الرسول وأعلمه أن لا جواب له ولم يقبل الهدية. فانصرف بها إلى صاحبه، فلما وافاه أضعف الهدية ورد الرسول إلى عبد الملك وقال: إني ظننتك استقللت الهدية فلم تقبلها ولم تجبني عن كتابي فأضعفت لك الهدية وأنا أرغب إليك في مثل ما رغبت فيه من رد هذا الطراز إلى ما كان عليه أولاً. فقرأ عبد الملك الكتاب ولم يجبه ورد الهدية. فكتب إليه ملك الروم يقتضي أجوبة كتبه ويقول: إنك قد استخففت بجوابي وهديتي ولم تسعفني بحاجتي فبوهمتك استقللت الهدية فأضعفتها فحريت على سبيلك الأول وقد أضعفتها ثالثة، وأنا أحلف بالمسيح لتأمرن برد الطراز إلى ما كان عليه أو لآمرن بنقش الدنانير والدراهم، فإنك تعلم أنه لا ينقش شيء منها إلا ما ينقش في بلادي. ولم تكن الدراهم والدنانير نقشت في الإسلام.

فينقش عليها من شتم نبيك ما إذا قرأته ارفض جبينك له عرقاً، فأحب أن تقبل هديتي وترد الطراز إلى ما كان عليه وتجعل ذلك هدية بررتني بها ونبقي على الحال بيني وبينك.

فلما قرأ عبد الملك الكتاب غلظ عليه وضاق به الأرض وقال: احسبني أشأم مولود ولد في الإسلام لأني جنيت على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من شتم هذا الكافر ما يبقى غابر الدهر ولا يمكن محوه من جميع مملكة العرب. إذ كانت المعاملات تدور بين الناس بدنانير الروم ودرهمهم.

وجمع أهل الإسلام واستشارهم فلم يجد عند أحد منهم رأياً يعمل به. فقال له روح بن زنباع: إنك لتعلم الرأي والمخرج من هذا الأمر ولكنك تتعمد تركه. فقال: ويحك من؟ قال: الباقر من أهل بيت النبي، صلى الله عليه وسلم! قال: صدقت ولكنه أرتج عليّ الرأي فيه.

فكتب إلى عامله بالمدينة: أن أشخص إليّ محمد بن علي بن الحسين مكرماً ومتمّعه بمائتي ألف درهم لجهازه وبنلثمئة ألف درهم لنفقته وأزح علته في جهازه وجهاز من يخرج معه من أصحابه واحتيس الرسول قبله إلى موافاته عليّ. فلما وافى أخبره الخبر فقال له عليّ: لا يعظمنّ هذا عليك، فإنه ليس بشيء من جهتين:

إحدهما أن الله جل وعز لم يكن ليطلق ما يهددك به صاحب الروم في رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والأخرى وجود الحيلة فيه. قال: وما هي؟ قال: تدعو في هذه الساعة بصناع يضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير وتجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أحدهما في وجه الدرهم والدينار والآخر في الوجه الثاني، وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي يضرب فيها تلك الدراهم والدنانير، وتعمد إلى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الثلاثة الأصناف التي العشرة منها عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن ستة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل فتكون أوزانها

جميعاً واحداً وعشرين مثقالاً فتجزئها من الثلاثين فتصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل، وتصب سنجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان فتضرب الدراهم على وزن عشرة والدنانير على وزن سبعة مثاقيل.

وكانت الدراهم في ذلك الوقت إنما هي الكسروية التي يقال لها اليوم البغلية لأن رأس البغل ضربها لعمر بن الخطاب، رحمه الله، بسكة كسروية في الإسلام مكتوب عليها صورة الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية: نوش خر، أي كل هنياً. وكان وزن الدرهم منها قبل الإسلام مثقالاً. والدراهم التي كان وزن العشرة منها وزن ستة مثاقيل والعشرة وزن خمسة مثاقيل هي السميرية الخفاف والنقال، ونقشها نقش فارس.

ففعّل عبد الملك ذلك. وأمره محمد بن علي بن الحسين أن يكتب السكك في جميع بلدان الإسلام وأن يتقدم إلى الناس في التعامل بها وأن يتهددوا بقتل من يتعامل بغير هذه السكك من الدراهم والدنانير وغيرها وأن تبطل وترد إلى موضع العمل حتى تعاد على السكك الإسلامية. ففعّل عبد الملك ذلك وردّ رسول ملك الروم إليه يعلمه بذلك ويقول: إن الله جل وعز مانعك مما قدرت أن تفعله، وقد تقدمت إلى عمالي في أقطار الأرض بكذا وكذا وباطل السكك والطراز الرومية.

فقيل لملك الروم: افعل ما كتتمددت به ملك العرب. فقال: إنما أردت أن أغيظه بما كتبت به إليه لأني كنت قادراً عليه والمال وغيره برسوم الروم، فأما الآن فلا أفعل لأن ذلك لا يتعامل به أهل الإسلام. وامتنع من الذي قال وثبت ما أشار به محمد بن علي بن الحسين إلى اليوم.

قال: ثم رمى الدرهم إلى بعض الخدم وقال: عليّ بالخازن. فأقبل الخازن. فقال: اتني بالجيل. فأناه بحقّ فيه خاتم ياقوت يتقد كأنه مصباح، فقال للخادم: ضع لنا هذا على هذا الدرهم الذي معك وليكن على مقدار إصبعي. ثم قال: أتعرف هذا الخاتم؟ فقلت: لا يا سيدي.

قال: إن ملك الترك كان غزا في زمن أبي مسلم سمرقند وعليها عامل له يقال له صبيح بن إسماعيل ومع ملك الترك قائد لملك الصين كان جليلاً عنده عظيم القدر بمنزلة ولي العهد أمده به لصهر كان بينهما في سبعين ألف رجل، وإن صبيح بن إسماعيل ظفر بعسكر التركي وهزمه وغنم عامة ما فيه وأسر رجاله كافة وأسر القائد الصيني فيمن أسر فكان هذا الخاتم في إصبعه فأخذه منه وبعث به إلى أبي مسلم فبعث به أبو مسلم إلى أبي العباس فأعجب به إعجاباً شديداً ودعا له من يبصره من الجوهريين والمقومين وسأهم عن قيمته فلم يحسنوا أن يقوموه، فلم يزل مرفوعاً في خزانته إلى أن مات، فلما أخرج ما كان في خزانته من الجواهر والذخائر لتباع هذا الخاتم فنودي عليه وطلبه المنصور وعيسى ابن موسى وتزايدوا عليه فبلغ به المنصور أربعين ألف دينار وحرص على شرائه واشتدت عليه مزايده عيسى إياه فيه، فلما رأى عيسى أن ذلك قد أغاظه أمسك عن مزايده فاشتراه المنصور بأربعين ألف دينار، فما ظنك بشيء يشتريه المنصور بهذه الجملة في ذلك الزمان وكان الدرهم أعز من الدينار في زماننا؟ فلم يزل في خزانته إلى أن ولي المهدي فأخرجه ووهبه لي من دون أخي الهادي، وذلك أنه جعل ولاية العهد له فأرضاني عن ولاية العهد بهذا

الخاتم وبأشياء أخرى، فلما ولي الهادي طلب مني الخاتم فممنعته ولجّ فيه لجاجاً شديداً وبعث إليّ سعيد ابن سلم الباهلي يدعوني فعلمت لماذا يدعوني فأخذت هذا الخاتم وأخرجته من إصبعي، فلما توسطت الجسر قلت لسعيد: انظر إلى هذا الخاتم، ثم رميت به في دجلة. ومضى سعيد إلى الدار فأخبر الهادي بما كان مني. فبعث بالغواصين إلى الموضع الذي ألقيت فيه الخاتم فطلبوه أشد طلب فلم يقدروا عليه. فلما صار الأمر إلينا بعثنا بالغواصين فأخرجوه فيها هوذا عندي. ثم قال: يا علي أتعبناك بذكر هذه الأموال وقد عوضناك لإصغائك إلينا بخمسين ألف درهم. فحملت بين يدي. وحكي بعد ذلك أن هذا الخاتم صار إلى المأمون فوهبه لبوران ابنة الحسن بن سهل ذي الرياستين ثم صار إلى المعتصم ثم إلى المعتز والمستعين فنقشه المستعين ثم صار كل خليفة ينقش عليه اسمه حتى نقصت قيمته، وهو الآن عند الخليفة المقتدر بالله.

### مساوي المسامرة

علي بن محمد بن سليمان الهاشمي قال: حدثني أبي عن سليمان بن عبد الله قال: وفدت على أبي العباس، فكان يدعوني في كل ليلة مقامي عنده ويعقب بين أصحابه وأهل الأقدار والأدب ومن يحضر بابه فيسامرونه، فإذا كانت الليلة التي يحضره فيها سعيد بن عمرو بن جعلة بن هبيرة المخزومي وجدته أم هانيء بنت أبي طالب، وكانت قد كبرت سنّه وشهد عامة سلطان بني أمية، وكانت السن قد أرعشته، فقال له: يا سعيد حدث عن بني أمية فإنك لا تزال تحدث عنهم وعن جوهرهم. فقال: يا أمير المؤمنين حضرت الجمعة ونحن مع الوليد بن يزيد فمضينا نريد الجمعة فإذا سرادق قد ضُمَّت إليه سرادقات ومدت الحجر في جنبتيه ووضع المنبر وأخذ الناس يتطوعون ويتظرون الفريضة، فلما زالت الشمس أذن المؤذن فأذنه بالصلاة، فإذا أصوات الملاحى والمعازف والمزامير مقبلة من مضربه نحونا، فما راعنا إلا به على هذا الذي يسميه اللعابون الداربازي عليه غلالة وإزار مصبوغان بالزعفران لا يواريان عورته متشح يزار وهو متخلق في فمه مزمار حتى أشرف علينا وهو يقول: طوط طوط. وحكاة الشيخ برعشته، فضحك أبو العباس حتى استلقى على فراشه وضرب مرافقه برجليه.

### محاسن الإغضاء

حكى عن بهرام جور أنه خرج يوماً لطلب الصيد فاحتمله فرسه حتى دفع إلى راعٍ تحت شجرة وهو حاقن. فقال للراعي: احفظ عليّ عنان فرسي حتى أريق ماء. فأخذ بركابه حتى نزل وقبض على عنان الفرس، وكان عنانه ملبساً ذهباً، فوجد الراعي غفلة من بهرام فأخرج من خفه سكيناً قَطَعَ به أطراف اللجام، فرفع بهرام رأسه فظفر إليه فاستحيا ورمى بطرفه إلى الأرض وأطال الاستبراء ليأخذ الراعي حاجته من اللجام، وجعل الراعي يفرح بإبطائه عنه حتى إذا ظن أنه قد فرغ وأخذ من اللجام حاجته قال: يا راعي قدّم إليّ فرسي فإنه سقط في عينيّ شيء. وغمض عينه لتلا يوهمه أنه يتفقد حلية اللجام، ففرب الراعي منه فرسه



فركبه. فلما ولى قال له الراعي: أيها العظيم كيف آخذ إلى موضع كذا وكذا مكاناً بعيداً؟ قال بهرام: وما سؤالك عن هذا الموضع؟ قال: هناك منزلي وما وطئت هذه الناحية قط غير يومي هذا ولا أراني أعود إليه أبداً. فضحك بهرام ولفظن لما أراده الراعي وقال: أنا رجل مسافر وأنا أحق بأن لا أعود إلى ما هنا أبداً. ثم مضى، فلما نزل عن فرسه قال لصاحب مراكبه: إن معاليق اللجام وهبتها لسائل مرّ بي فلا تنتهم أحداً. وحكي عن أنوشروان أنه قعد في يوم نيروز أو مهرجان ووضعت الموائد ودخل وجوه الناس وكسرى بحيث يراهم ولا يرونه. فلما فرغ الناس من الطعام وجأوا بالشراب في آنية الفضة وجامات الذهب فشرّب الأساورة وأهل الطبقة العالية في آنية الذهب. فلما انصرف الناس ورفعت الموائد أخذ بعض أولئك القوم جام ذهب فأخفاه في قبائه وأنوشروان يلحظه فصرف وجهه عنه، وافتقد صاحب الشراب الجام فصاح: لا يخرج أحد من الدار حتى يُفتش! فقال كسرى: لا يعرضنّ لأحد. وانصرف الناس. فقال صاحب الشراب: إنا قد فقدنا بعض آنية الذهب. فقال الملك: صدقت، أخذها من لا يردها ورآها من لا يخبرك بها. وحكي عن معاوية بن أبي سفيان أنه قعد للناس في يوم عيد ووضعت الموائد وبلر الدراهم للجوائز والصلوات. فجاء رجل من الجماعة فقعد على كيس فيه دنانير والناس يأكلون. فصاح به الخدم: تنح فليس لك هذا الموضع! فسمع معاوية وقال: دعوا الرجل يقعد حيث أحب. وأخذ الكيس وقام فلم يجسر أحد أن يذنب منه. فقال الخدم: أصلح الله الأمير! إنه قد نقص من المال كيس فيه دنانير! فقال: أنا صاحبه وهو محسوب عليّ لكم.

وأحسن من هذا ما فعله جعفر بن سليمان بن عليّ وقد عثر برجل أخذ درّة رائعة ثمينة من بين يديه فطلب بعد أيام فلم يوجد فباعها الرجل ببغداد، وقد كانت وصفت لأصحاب الجوهر فأخذ وحمل إلى جعفر، فلما رآه وبصر به استحيا منه وقال: ألم تكن طلبت هذه الدرّة مني فوهبتها؟ قال: نعم. فقال: لا تعرضوا له. فباعها الرجل بالوف الدنانير.

## مساوي الإغضاء

قال: بعث زياد إلى رجال من بني تميم وجمع العرفاء فقال: أخبروني بصلحاء كل ناحية. فأخبروه. فاختر منهم رجلاً فضمّهم الطريق وحدّ لكل واحد منهم حداً، فكان يقول: لو ضاع بيني وبين خراسان شيء لعلمت من أخذه. وكان يدفن النباش حياً وينزع أضلاع اللصوص.

قيل: وقال عبد الملك للحجاج: كيف تسير في الناس؟ قال: أنظر إلى عجوز أدركت زياداً فأسأله عن سيرته ثم أعمل بما. قال عوف الأعرابي: فأخذ والله بسية أخلاقه وترك أحسنها.

قال: واختصم إلى زياد رجلان فقال أحدهما: أصلح الله الأمير! هذا يدل عليّ بخاصة زعم أنّها له منك. فقال: صدق وسأخبرك، إن كان الحق لك عليه قضيت عليه وقضيت عنه، وإن كان الحق له عليك أخذتك به أخذاً عنيفاً.

## محاسن التآني

قال بعض الحكماء: التؤدة يمن وفي اليمن النجح. وأنشد في ذلك القطامي:  
قد يدرك المتآني بعض حاجته... وقد يكون مع المستعجل الزلل  
وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: من حرم الرفق فقد حرم الخير.  
ولأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه:  
اصبر على مضض الإدلاج بالسحر... وفي الرواح على الحاجات والبكر  
لا تضجرن ولا يعجزك مطلبها... فالنجاح يتلف بين العجز والضجر  
إني وجدت، وفي الأيام تجرئة،... للصبير عاقبة محمودة الأثر  
وقل من جدّ في أمرٍ يحاوله... فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر  
وقال النبي، صلى الله عليه وسلم، لعائشة، رضي الله عنها: عليك بالرفق فإن الرفق لا يخالط شيئاً إلا زانه  
ولا يفارق شيئاً إلا شانته، وخلق الله جلّ وعزّ السموات والأرض في ستة أيام ولو شاء جلّ وعزّ قال لها  
كوبي فكانت، وفي المثل: رب عجلة تمب ريثاً، يقول: رب عجلة يراد بها صلاح الأمر فتنفسده حتى لا  
يصلح إلا بعد مدة طويلة، فكأنما كانت ريثاً. وهذا قريب من قول بزرجهر: إن شراً من التواني الاجتهاد في  
غير حينه. وأنشدنا ابن حمزة:  
الحرق شوّم والأناة سعادة... فاستأن حلمك في أمورك تسلم  
وكان يقال: إن من الحزم الأناة والتشبيت فإن العجلة لا تزال تورث أهلها حسرة وندامة. وأنشد:  
الرفق يمن والأناة سعادة... فاستأن في رفقٍ تلاقٍ نجاحا

## مساوي العجلة والحلة

قيل: سأل المأمون أحمد بن أبي خالد عن أخلاق أبي عباد ثابت الكاتب فقال: هو يا أمير المؤمنين أحد من  
سيف سعيد بن العاص وأترق من مجنون البكرات، قال: ما أتبين ذلك فيه. قال: لموضع الخلافة وعلى ذلك  
فإن حركته تحرك. فأراد المأمون أن يمتحنه فدخل عليه فعرض ما معه من الحوائج فأمره أن يوقع فيها ثم  
خرج. فلما صار بالباب قال: ردوه. فرجع. فقال: افعل في الأهوازيين ما قلت لك ولا تعرض فيه رقعة.  
قال: نعم. ثم خرج. فلما صار بالباب قال: ردوه. فأتاه الرسول فقال: ارجع. فرجع. فقال: قل لعمرو بن  
مسعدة آخر أمر أبي دلف حتى آمرك بما أريد. ثم خرج. فلما صار بالباب قال: ردوه. فأتاه الرسول فقال:  
ارجع. فتناول الدواة وقال: الساعة والله أضرب بها وجهك القبيح يا ابن الخبيثة! قال الغلام: ما ذنبي؟ قال:  
ينبغي أن تقول قد ذهب إلى النار. ورجع فقال: ارفع في غدٍ فيما تعرض قصة الهاشيين. قال: نعم. ثم قال:  
والله لا أرجع بعدها! فضحك المأمون حتى أمسك بطنه وقال: انطلق راشداً.

قال: وقعد المأمون ذات يوم وأبو عباد يكتب بين يديه إذ دخلت شعرة بين سني القلم فأهوى لإخراجها  
بأسنانه ثم كتب فإذا هي على حالها، فأهوى إليها ثانية فقطع طرفها وبقي أصلها ثم كتب فإذا هي قد أعمت

حروفه، فأخذ القلم فاتكى عليه بأسنانه وكسره وقال: لعنك الله ولعن من يراك ولعن من أنت له! فضحك  
المأمون وقال: بحق قيل فيك ما قيل.

### محاسن المكافأة

قال بعض الحكماء: لا يكون سلاحك على عدوك أن تكثر سبّه وشتمه فإنك إنما تخبر عن خبره فيك  
وعجزك عنه، ولكن عامله بالكظم وساتره بالحيلة، فإن أقدمت أقدمت مع الفرصة وإن غلبت على الظفر لم  
تغلب على ستر العجز.  
وقيل: الأدب الصبر على كظم الغيظ حتى تملك الفرصة.

وقال أبو عمرو بن العلاء: لما قدم عبد الملك المدينة خطب فقال: يا أهل المدينة إنا والله ما نحبكم ما ذكرنا  
ما فعلتم بنا ولا تحبونا ما ذكرتم ما فعلنا بكم! وإنما مثلنا ومثلكم كمثل حية كانت في جحر إلى جنبها خباء  
رجل فوثبت عليه فلسعته فقتلته فجاء أخو المقتول يطلب بثأر فقالت له الحية: لا تقتلني حتى أؤدي إليك  
دية أخيك. ففارقها على ذلك وعاهدها فكانت تؤدي إليه في كل يومين مالا، فلما استوفى أكثر الدية قال:  
والله لو قتلتها كنت قد أدركت ثأري وأخذت الدية. فعمل فأساً وحدها، فلما خرجت إليه أهوى إليها  
بالفأس فأخطأها ورجعت إلى جحرها فأسقط في يده. فقالت: والله ما الثأر أدركت ولا الدية استوفيت!  
فقال: تعالي أعاقدك أن لا ينداك مني مكروه حتى أستوفي منك الدية. فقالت: أما ما رأيت قبر أخيك تجاهك  
وذكرت أنا الضربة فلن أثق بك ولن تتق بي. ثم أنشده:  
ألا هل لنا مولىً يجب صلاحنا ... فيعذرنا من مرة المتناصره  
وأنشد في مثله:

ظلمت الناس فاعترفوا بظلمي ... فتبت فأزمعوا أن يظلموني  
فلمست بصائرٍ إلا قليلاً ... فإن لم ينتهوا راجعت ديني  
ولآخر:

إياك من ظلم الكريم فإنه ... مرٌ مذاقته كطعم العلقم  
إن الكريم إذا رآك ظلمته ... ذكر الظلامة بعد نوم الثوم  
فجفا الفراش وبات يطلب ثأره ... أنفاً وإن أغضى ولم يتكلم

### محاسن الشدة

ذكروا أن جندب بن العنبر كان شديد البأس وأن عوانة بن زيد عبّره يوماً فقال:  
هل يسود الفتى إذا قبح الوج ... ه وأمسى تراه غير عتيد  
وإذا ما تكلم القوم يوماً ... في الندى قال قولاً غير سديد  
وكان جندب فيه دمامة مع إمساك غير أنه كان لبيثاً في الحرب، فأجابه:

ليس زين القتي الجمال ولكن ... زينه الضرب بالحسام التليد  
وكان جندب عائفاً فقال: والله لا تموت حتى تنصر عليك ظعينة. وإن عوامة خرج يوماً يتصيد على فرسه  
ومعه قوسه فسار غير قليل إذ عرضت له جارية قد حملت وطباً من لبن فهمّ بها فدنا فقال: تمكّني طائفة أو  
تقهرين؟ فقالت: لا إحداهما. فنزل إليها فأخذت ساعديه بإحدى يديها فما زالت تعصرهما حتى تركتهما وما  
يستطيع أن يجرّكهما ثم كسفته بوتر قوسه وشدت حبل الفرس في جيده ثم قالت: خذ بنا نحو محلة جندب.  
فمرّ يقود الفرس في جيده حبل. فلما قارب الحي بصر بجندب مقبلاً فناداه: أيها المرؤ الكريم انصر أحك  
ظالمًا أو مظلوماً! فذهب مثلاً، فأطلقه.

ومنهم كليب بن شؤبوب الأزدي كان أخصب أهل زمانه في قطع الطريق وحده، وكان كثير الغارة على  
طيء، فدعا حارثة بن لأم الطائي رجلاً من قومه يقال له عبرم، وكان شجاعاً، فقال له: أما تستطيع أن  
تكفيني هذا؟ قال: نعم. فأرسل العيون حتى علم مكانه فانطلق إليه حتى وجده نائماً في ظل أراكة وفرسه  
مشدودٌ عنده، فنزل عبرم ورجل معه فمشيا حتى أخذ كل واحد منهما بإحدى يديه، فانبه ونزع يده  
اليمنى فقبض على حلق صاحب اليسرى وهو عبرم فما زال يخنقه حتى قتله. وقد كان أعدى قوماً فلحقوه  
وهم عشرة فوجدوه قتيلاً، وأخذوا كليياً فكنفوه وساقوه، وأنشأ خوذة بن عبرم يرثي أباه ويقول:

إلى الله أشكو أن أووب وقد ثوى ... قتيلاً وأودى سيد القوم عبرم  
فمات ضياعاً هكذا بيد امريء ... لئيمٍ فلو أدمي لما كنت أتلم  
ولكن ثوى لم يكلم السيف جيده ... ولا ناله رمحٌ ولم يرق الدم  
فأنت ابن شؤبوب فيا لهفتا له ... وما جزّ من أظفاره منك أكرم  
سأسقيك قبل الموت كأساً مزاجها ... ذعافٌ من السم النقيع وعلقم  
فأجابه كليب:

أخوذة إن تفخر وترعم بأني ... لئيمٌ ويأبي لي قتالي عبرم  
فأقسم بالبيت المحرم من منى ... وبرّ يميني صادقاً حين أقسم  
لضبّ بقفر من قفارٍ وضبعة ... هموعٌ ويروبوع الفلا منك أكرم  
ألا عجباً من فخر هذا وأمه ... سواديةٌ والجد علجٌ مكتم  
أتوعدي بالمنكرات وإنني ... صبور على ما ناب جلد مصمم

واعلم أي ميت لا محالة ... فلا جزعاً إن كنت ذلك تعلم  
فأراد خوذة قتله فمنعه أصحابه حتى يذهبوا به إلى حارثة. فلما انتهوا إليه قال له حارثة: يا كليب أنت  
أسير. فقال: من ير يوماً ير به! فذهبت مثلاً. فدفعه إلى خوذة فخنقه حتى مات.  
ومنهم هدبة بن خشرم قتل ابن عم له يسمى زيادة بن زيد فحبس ليقاد به، فلم يزل محبوساً حتى شبّ ابن  
المقتول فدخل عليه السجن وهو يلاعب صاحباً له بالشطرنج فقيل له: قم إلى القتل! فقال: حتى أفرغ من  
لعبتي. فلما فرغ خرج وجعل يهرول. فقيل له: ما بالك تأتي الموت هكذا؟ فقال: لا آتية إلا شداً. فلقية عبد

الرحمن بن حسان فقال: أنشدني. فأنشده:

ألا عللاني قبل نوح النوائح ... وقبل اطلاع النفس بين الجوائح  
وقبل غدٍ يا هلف نفسي على غدٍ ... إذا راح أصحابي ولست برائح  
إذا راح أصحابي وخُلفت ثاوباً ... بداويةٍ بين المتان الضحاح  
قال: ثم أقعد ليقاد فظفر إلى أبويه فقال:

أبلياني اليوم صبراً منكما ... إن حزناً منكما بادٍ لشرِّ  
لا أرى ذا الموت يبقي أحداً ... إن بعد الموت دار المستقرِّ  
ثم نظر إلى امرأته فقال لها:

لا تنكحي إن فرق الدهر بيننا ... أغمّ القفا والوجه ليس بأنزعا  
وكوني حبيساً أو لأروع ماجدٍ ... إذا ضنَّ أغساس الرجال تبرُّعا

فمالت زوجته إلى جزار فأخذت مديته فقطعت بها أنفها وجاءته مجدوعة فقالت: أتخاف أن يكون بعد هذا  
نكاح؟ فرسف في قيوده وقال: الآن طاب الموت. فلما قدّم ليقاد بآبن عمه وأخذ ابن زيادة السيف  
فضوعفت له الدية حتى بلغت مائة ألف درهم، فخافت أم الغلام أن يقبل ابنها الدية ولا يقتله فقالت:  
أعطي الله عهداً لمن لم تقتله لأتزوجنه فيكون قد قتل أباك ونكح أمك! فقتله.

قال: ولما واقع طلحة والزبير عثمان بن حنيف عامل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، على البصرة خرج  
حكيم بن جبلة العبدي فشدّ عليه رجل من أصحاب طلحة فقطع رجله، فزحف إلى رجله حتى أخذها  
ورمى بها قاطعها فقتله، ويقول: يا رجل لا تراعي، فإن معي ذراعي. ثم حبا إلى المقتول فاتكأ عليه. فقيل له:  
يا حكيم من ضربك؟ فقال: وسادتي.

وعن معاذ بن الجموح قال: سمعت الناس يوم بدر يقولون: أبو الحكم لا يخلصن إليه. يريدون أبا جهل. فلما  
سمعنها جعلته من شأني فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربتته ضربة أطننت قدمه بنصف ساقه،  
فوالله ما شبّهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضحة النوى. قال: وضربني عكرمة بن أبي جهل  
على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي فأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها  
خلفي، فلما آذنتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها حتى طرحتها.

قيل: ولما حمل رأس محمد بن عبد الله بن الحسن إلى المنصور من مدينة الرسول، عليه وعلى آله السلام، قال  
لمطير بن عبد الله: أما تشهد أن محمداً بايعني؟ قال: أشهد بالله لقد أخبرتني أن محمداً خير بني هاشم وأنتك  
بايعت له. قال: يا ابن الزانية أنا قلت؟ قال: الزانية ولدتك. قال: يا ابن الزانية الفاعلة أتدري ما تقول؟  
قال: التي تعني خير من أمك. فأمر به فوُتد في عينيه فما نطق.

قيل: وقدم أعرابي على عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يستحمله فقال: خذ بعيراً من إبل الصدقة. فظفر  
إلى بعير منها فعلق بذنبه ونازعه البعير فاقتلع ذنبه. فقال عمر: هل رأيت أشدّ منك؟ قال: نعم، خرجت  
بامرأة من أهلي أريد بها زوجها فنزلت منزلاً أهله خلوف، فدنوت من الحوض فإذا رجل قد أقبل ومعه ذود  
له فصرف ذوده إلى الحوض وأقبل نحو المرأة ولا أدري ما يريد، فلما قرب منها ساورها فنادتني فلما انتهيت

إليه كان قد خالطها فجئت أدفعه فأخذ رأسي فوضعه بين ذراعه وجنبه فما استطعت أن أتحرك حتى قضى ما أراد، ثم قام فاضطجع وقالت: نعم الفحل هذا لو كانت لنا منه سخلة. فأمهلت حتى امتلأ يوماً ثم قمت إليه فضربت ساقه بالسيف فأطنتتها، فوثب فهربت وغلبه الدم فرماني بساقه فأخطأني وأصاب بعيري فقتله. فقال عمر: فما فعلت المرأة؟ فقال: هذا حديث الرجل. فكرر عليه مراراً كل هذا يقول هذا حديث الرجل.

عمر بن شبة النميري أبو زيد قال: كان علي بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضوان الله عليهم أجمعين، من آل الأفسس وكان يلقب بالجزري، فتزوج رقية بنت عمرو العثمانية وكانت تحت المهدي، فبلغ ذلك الهادي فأرسل إليه فحمله وقال: أعيك النساء إلا امرأة أمير المؤمنين! فقال: ما حرم الله عز وجل على خلق إلا نساء جدي، صلى الله عليه وسلم، فأما غيرهن فلا ولا كرامة. فشججه بمخصرة كانت في يده وأمر بضربه خمس مائة سوط وأراد على أن يطلقها فلم يفعل، فحمل من بين يديه في نطع فألقي ناحية، وكان في يده خاتم سريّ فرآه بعض الخدم وقد غشي عليه فأهوى إلى الخاتم، فقبض على يد الخادم فدقّها، فصاح: الموت دقّ يدي! فسمعه الهادي فدعاه فرأى ما به فاستشاط فقال: تفعل هذا بخادمي مع استخفافك بي وقولك لي؟ قال: قل له وسله ومره أن يضع يده مرة على رأسك ليصدقنّ. ففعل ذلك موسى فصدقه الخادم. فقال: أحسن والله! أنا أشهد أنه ابن عمي، لو لم يفعل ذلك لانتفيت منه. وأمر بإطلاقه ووصله بمائة ألف درهم.

قيل: وخطب علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: تقول قريش جزع ابن أبي طالب من الموت، والله لعلي أنس بالموت من الطفل بثدي أمه. قيل: ولما كان في حرب صفين والناس في أشد ما يكون من الحرب قال علي: رضوان الله عليه: ألا ماء فأشتريه؟ فأتاه شاب من بني هاشم بشربة من عسل، فتناوله وقال: يا فتى عسلك هذا طائفيّ. قال: سبحان الله! في هذا الوقت تعرف الطائفي من غيره! فقال: إنه لم يملأ صدر ابن عمك شيء قط. وحكي عنه، رضوان الله عليه، أنه قال: ما أبالي وقعت في الموت أو وقع الموت عليّ.

حدثنا الواححي عن معمر بن وهيب قال: قال عبد الملك بن مروان عند موته للوليد وهو يبكي عند رأسه: ما هذا البكاء وحين النساء ثكلتك أمك! ألا تتأهب للخلافة بشدة سطوتك وقلة رحمتك لناقض بيعتك وتجريد سيفك للمبدي ذات طويته؟ فقال له قبيصة بن ذؤيب: ليس هذا أمر الله جل وعز. فقال: ما كنت لأمر بغيره. ثم قال:

بنو الحرب لا نعيًا بشيءٍ نريده ... ولسنا على ما أحدث الدهر نجزع  
جلادٌ على ريب الزمان فلن ترى ... على هالكٍ عيناٌ لنا الدهر تدمع  
وأنشدنا غيره في مثله:

وإنا لقومٌ ما تفيض دموعنا ... على هالكٍ منا وإن قصم الظهرا  
ولسنا كمن يبكي أخاه بعبرةٍ ... فيعصرها من جفن مقلته عصرا  
ولكننا نشفي الفؤاد بغارةٍ ... تلهّب من قطري جوانبه جمرا  
ولآخر في مثله:

سقياً ورعيّاً وإيماناً ومغفرةً ... للباقيات علينا يوم نرتحل  
يبكي علينا ولا نبكي على أحدٍ ... لنحن أغلظ أكباداً من الإبل  
ولآخر في نحوه:

إذا استلب الخوف الرجال قلوبها ... صبرنا على الموت النفوس الغواليا

حذار الأحاديث التي غبَّ يومها ... عقدن بأعناق الرجال المخازيا  
ولآخر في مثله:

مقتلون وقتالون ميبتهم ... كما تُقتل أسد الغاب في الأجم  
والقتل عادتهم والقتل مكرمة ... ولا يموتون من داءٍ ولا هرم  
وبالوجوه جراحٌ ما تشينهم ... وما بهم طعنةٌ في ظهرٍ منهزم  
ولآخر في مثله:

سدكت أنامله بقائم سيفه ... وينشر فائدةً وذروة منبر  
ما إن يزال إذا الرماح شجرته ... متسربلاً سربال طيب العنصر  
يلقى الرماح بصدرة وينحره ... ويقيم هامته مقام المغفر  
أوما إلى الكوماء هذا طارقٌ ... نحرني الأعداء إن لم تُنحر  
وللمأمون:

نحن الذين إذا تخمط عصبه ... من معشرٍ كنا لها أنكالا  
وترى القروم مخافةً لقرومنا ... قبل اللقاء تقطر الأبوالا  
نرد النية لا نخاف ورودها ... تحت العجاجة والعيون تلالا  
نعطي الجزيل فلا نمنّ عطاءنا ... قبل السؤال ونحمل الأثقالا  
وإذا البلاد على العباد تزلزلت ... كنا لزلزلة البلاد جبالا

### مساوي الجبن

قيل في المثل: هو أجبن من هجرس، وهو القرد، وذلك أنه لا ينام إلا في يده حجر مخافة أن يأكله الذئب.  
وحدثنا رجل بمكة قال: إذا كان الليل رأيت القرود تجتمع في موضع واحد ثم تبيت مستطيلة واحداً في إثر  
واحد في يد كل واحد منها حجر لنلا ترقد فيأتيها الذئب فيأكلها، فإن نام واحد وسقط الحجر من يده فزعت  
فتحول الآخر فصار قدامها فلا تزال كذلك طول الليل فتصبح وقد صارت من الموضع الذي باتت فيه على  
ثلاثة أميال وأقل وأكثر جبناً.

وقيل أيضاً: هو أجبن من صافر، وهو طائر يتعلق برجليه وينكس رأسه ثم يصفر ليلته كلها خوفاً من أن ينام  
فيؤخذ. ويقال أيضاً: إن الصافر هو الذي يصفر لريية. وذكروا أن رجلاً كان يأتي امرأة وهي جالسة مع بنيتها  
وزوجها فيصفر لها فتقوم وتخرج عجزها من وراء الباب وهي تحدث ولدها فتقضي حاجتها وحاجته وينصرف.  
فعلم بذلك بعض بنيتها فغاب عنها يومها ثم جاء في ذلك الوقت وصفر ومعه مسمار محمى، فلما جاءت لعادتها  
كواها به، فجاء الرجل بعد ذلك فصفر فقالت: قد قلينا صغيركم، فضربه الكمييت مثلاً في قوله:

أرجو لكم أن تكونوا في مودتكم ... كلباً كورهاء تقلي كل صفار  
لما أجابت صغيراً كان يألفها ... من قابسٍ شيط الوجعاء بالنار

وقيل أيضاً: هو أجبن من المنزوف شرطاً، وكان من جنبه أن نسوة من العرب لم يكن لهن رجل فتزوجت واحدة  
منهن برجل كان ينام إلى الضحى فإذا أتينه بصبوحة قلن له: قم فاصطبح، فيقول: لو لعادية تنبهني، فقلن: هذه



نواصي الخيل. فجعل يقول: الخيل الخيل! ويضرب حتى مات، فضرب به المثل.  
قيل: وخرج رهم بن خشرم الهلالي ومعه أهله وماله يريد النقلة من بلد إلى بلد، فلقيه قوم من بني تغلب فدهش  
ورعب رعباً شديداً فقال: يا بني تغلب شأنكم المال وخلّوا عن الظعينة. فقالوا: رضينا إن ألقيت الرمح. فرجع  
إليه عقله وقال: أومعي رمح! وحمل عليهم فقتل منهم رجلاً ثم صرع آخر وأنشأ يقول:

ردّا على آخرها الأتاليا ... إن لها بالمشرفي حاذيا

ذكرتني الطعن وكنت ناسيا

فأنزمت الباقون ونجا هو بالمال والظعينة ومرّ نحو وطنه سالماً.

قيل: وكان في بني ليث رجل جبان فخرج رهطه وبلغ ذلك ناساً من بني سليم كانوا أعداءهم فلم يشعر الرجل  
إلا بخيل قد أحاطت بهم فذهب يفرّ فلم يجد مفراً ووجدهم قد أخذوا عليه كل وجه، فلما رأى ذلك جلس ثم  
أبرز كنانته وأخذ قوسه وقال:

ما علّتي وأنا جلدٌ عابِل ... والقوس من نبع لها بلابل

يرنّ فيها وترٌ عابِل ... إن لا أقاتلكم فأمي هابِل

أكلّ يومٍ أنا عنكم ناكل ... لا أظن القوم ولا أقاتل

الموت حقّ والحياة باطل

فقاتلهم فأنزموا فصار بعد ذلك أشجع قومه.

قيل: وخرج أبو دلامة مع روح بن حاتم إلى بعض الحروب، فلما التقى الجمعان قال أبو دلامة لروح: أصلح الله  
الأمير! لو أن تحتي فرساً من خيلك وفي وسطي ألف دينار لأشجيت أعداءك نجدة وإقداماً. فقال روح: ادفعوا  
إليه ذلك. فدفع إليه فلما أخذه أنشأ يقول:

إني أعوذ بروح أن يقدمني ... إلى القتال فيشقى بي بنو أسدٍ

إن المهلب حبّ الموت أورثكم ... ولم أرث نجدة في الموت من أحد

فأجابه روح:

هون عليك فلن أريدك في الوغى ... لتطاعن وتنازل وضراب

كن آخراً في القوم تنظر واقفاً ... فإن أنزمت مشيت في الهراب

فأجابه أبو دلامة:

هذي السيوف رأيتها مشهورة ... فتركتها ومضيت في الهراب

ماذا تقول لما يجيء ولا يرى ... من بادرات الموت من نشاب

فضحك روح فأعفاه وانصرف.

وحدثني أبو مالك عبد الله بن محمد قال: لما توفي أبو العباس السفاح دخل أبو دلامة على أبي جعفر المنصور  
والناس عنده يعزونه فقال: يا أمير المؤمنين كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مريض  
فلم أقبضها. فقال المنصور للخازن: ادفعها إليه وسيره إلى هذا الطاغية، يعني عبد الله بن عليّ. فقال أبو دلامة:  
يا أمير المؤمنين أعينك بالله أن أخرج معهم فإني والله مشووم! فقال: لعله يغلب شوّمك فاخرج مع العسكر.

فقال: والله ما أحب لك يا أمير المؤمنين أن تجرّب ذلك فإني لا أدري على أي الفريقين يكون .  
فقال أبو جعفر: دعني من هذا ما نريد غير المسير . فقال: يا أمير المؤمنين والله لأصدقنك، إني شهدت تسعة  
عساكر كلها هزمت فأنا أعيدك بالله أن تكون العاشر . فاستفرغ أبو جعفر ضحكاً وأمره أن يتخلف .  
قال: وقيل لجبان: أتمزمت فغضب عليك الأمير . فقال: يغضب عليّ الأمير وأنا حيّ أحبّ إليّ من يرضى عني  
وأنا ميت .

قال: وقيل لبعض الجنان: ما لك لا تغزو؟ فقال: والله إني لأبغض الموت على فراشي فكيف أمرّ إليه ركضاً! قال:  
وقال الحجاج لحميد الأرقط وقد أنشده قصيدة يصف فيها الحرب: يا حميد هل قاتلت قط؟ قال: لا أبها الأمير  
إلا في النوم . قال: وكيف كان وقعتك؟ قال: انتهت وأنا منهزم .

وقال عمرو بن بحر الجاحظ: سمعت بلالاً يحكي عن أصحابه أن رئيسهم كان يسمى ابريقياء وأنهم خرجوا في  
سفر فإذا بعشرة نفر من اللصوص قد تعرّضوا لهم، قال: وكان أشدّ أصحابنا والمنظور إليه منا فتى يقال له  
دومني بطل شديد لا يهوله شيء مطاعن مسابق، فحمل على رجل منهم فعطف عليه الرجل فقطع أنف دومني  
ونزع خصييه وكسر أسنانه فرجع منهزماً، فعاظني ذلك فوثبت وأخذت كسائي وطويته بطاقيين ولففته على  
يديّ وأخذت عصاي وأخذ آخر ملحفة والدته فلفها على ذراعيه وأخذ آخر طبقاً كبيراً من أطباق الفاكهة  
فستر به وجهه وخرجنا وتقدم رئيسنا ابريقياء وقد لفّ على يده قטיפه وهو يقول:  
إن تنكروني فأنا ابن كلب

فقال له بعض اللصوص: ما ننكر ذلك عليك . فشدّ عليه ابريقياء بأسفل دنّ كان معه فلم يحك فيه، فأخذ  
اللس أسفل الدن فرمى به ابريقياء فهشم وجهه وكسر أسنانه، وتنحّى ابريقياء وأقبل منا آخر يسمى لقوة  
وأنشأ يقول:

إن عصاي فاعلموا مقيّره ... أضرب بها وجه اللصوص الكفرة

ثم شد على واحد منهم فضرب مفرق رأسه فلم يحك فيه واستلب العصا منه وطلاه بما طلياً فإذا هو قد خلع  
منكبه وكسر أضلاعه وبقي لا يحلي ولا يُمرّ . ثم أقبل فتى من أصحابنا وفي يده مجرفة وهو يقول:

أنا ابن الكهل في يدي مجرفه ... والله لو كان بكفّي مغرفه

وهي لعمرى قد كستني ملحفه ... والدي كريمةً منظفه

قتلتكم فكيف عندي مجرفه

فضرب بالمجرفة واحداً من اللصوص فأخطأه وعطف عليه اللص فأخذها من يده ثم ضربه بها ضربة فدار سبع  
مرات وسقط وقد غشي عليه . فلما رأيت ذلك عدت إلى الطعان وأنا أقول:

أنا فلان سيد الفتيان ... أنا ابن حمران فتى الميدان

أحلف بالله وبالفرقان ... لأضربن القوم بالمميان

ضرب غلام ماجد كشحان ... والعجز منسوب إلى الجبان

فأشدّ على واحد منهم فأضرب كفيه، فوثب قبل أن تصل إليه الضربة فضربني فهشم أنفي وكسر أسناني  
وخررت مغشياً عليّ ثم فتحت عيني فلم أر منهم أحداً ولا أدري كيف أخذوا، فالحمد لله على الظفر .

## ما قيل في ذلك من الشعر

ما أحسن الضربة في وجهه ... إن لم تكن رحمة بردون

ولآخر:

ويحسبها الشجاع قراع سيفٍ ... ويحسبها الجبان قراع ثور

ولآخر: جبان اللقاء وعند الحوا - ن أمضى وأشجع من رستم

فلو كنت تفعل ذا في الحروب ... أغرت على الترك والديلم

كاتب الحسن بن زيد:

ظلت تشجعني ضالاً بتضليل ... وللشجاعة خطبٌ غير مجهول

هاتي شجاعاً بغير القتل مصرعه ... أوجدك ألف جبان غير مقتول

الحرب توسع من يصلى بها حرباً ... يُتم البنين وإثكال المثاكيل

واسم الوغى اشتقّ من غوغاء تبصرها ... يغدون للموت كالطير الأبايل

والله لو أن جبريلاً تكفل لي ... بالنصر ما خاطرت نفسي بجبريل

هل غير أن يعذلوني أنني فشلٌ ... فكلّ هذا نعم فاغروا بتعذيلي

إن اعتذر من فراري في الوغى أبداً ... فكان ذلك عذراً غير مقبول

اسمع أخبرك عن بأسى بذي سلمٍ ... خلاف بأس المساعير البهاليل

لما بدت منهم نحوي عشوْزنةً ... تشرّع الموت في عرضي وفي طولي

فقلت: ويحكم لا تذهبوا جلدي ... رمحي كسيرٌ وسيفي غير مسلول

لما اتقيتهم طوراً بذات يدٍ ... وانصعت أطوي الفر ميلاً إلى ميل

الله خلّصني منهم وفلسفتي ... حتى تخلّصت مخضوب السراويل

ولآخر:

أضحت تشجعني هنئاً وقد علمت ... أن الشجاعة مقرونٌ بما العطب

لا والذي حجّت الأنصار كعبته ... ما يشتهي الموت عندي من له أرب

للحرب قومٌ أضلّ الله سعيهم ... إذا دعتهم إلى حوماتها وثبوا

ولست منهم ولا أهوى فعالمهم ... لا القتل يعجبني منهم ولا السلب

قطرب النحوي:

ما لي وما لك قد كلّفنتي شططاً ... هل السلاح وقول الدّارعين قف

أمن رجال المنايا خلّنتي رجلاً ... يمسي ويصبح مشتاقاً إلى التلف

تمشي المنون إلى غيري فأكرهها ... فكيف أمشي إليها عاري الكتف

هل خلّت أن سواد الليل غيرني ... وأن قلبي في جنبي أبي دلف

محاسن النظر في المظالم

قال: دخل رجل في جماعة من الناس على سليمان بن عبد الملك وهو جالس للعامّة فقال: يا سليمان أذكرك يوم الأذان. قال: فارتاع لما دعاه باسمه وقال: ويحك وما يوم الأذان؟ قال: قول الله جل ذكره: " فأذن مؤذناً بينهم أن لعنة الله على الظالمين ". فبكى سليمان وقال له: ما حاجتك؟ فقال: أنا جار في ضيعة الفلانية وقد ظلمني وكيلك فأضّرّ ذلك بي وبعيالي. قال: قد وهبت لك الضيعة. وكتب إلى وكيله بتسليمها إليه.

قيل: وقدم رجل من حلوان مصر على عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، فقال: يا أمير المؤمنين إن والدك ولي بلادنا فكتب إلى عبد الملك يخبره أن حلوان صافية وهي أرض خراج فأقطعها إياه فورثتها أنت وإخوتك فاتق الله ولا تظلمنا كما ظلمنا أبوك فإنه كان شيخاً ضعيف الخرج وأنت رجل مخرج.

فقال عمر: إن كان أبي كما ذكرت فهو أبي لا أبوك، نازعني منازعة جميلة ولا تشتتم عرضي فإن لي فيها شركاء إخوة وأخوات لا يرضون أن أقضي فيها بغير قضاء قاضٍ، أقوم معك إلى القاضي فإن قضى لي اضطرت وإن قضى لك سلّمت. قال: إن قمت معي إلى القاضي فقد أنصفتني. فقاما جميعاً إلى القاضي فقعدا بين يديه، فتكلم عمر بحجته وتكلم الرجل، فقضى القاضي للرجل. فقال عمر: إن عبد العزيز قد أنفق عليها ألف ألف درهم. فقال القاضي: قد أكلتم من غلتها بقدر ذلك. فقال عمر: وهل القضاء إلا هذا؟ لو قضيت لي وما وليت لي عملاً أبداً. فخرج إلى الرجل من حقه.

قال: ودخل نفر من القراء وفيهم رجل ذكر ظلامته له على عمر فقال: يا أمير المؤمنين اذكر مقامي هذا فإنه مقام لا يشغل الله جل وعز عنه كثرة من تخاصم إليه من الخلائق يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءة من الذنوب.

فقال عمر: ويحك اردد كلامك! فردده عليه، فجعل يبكي وينتحب حتى إذا أفاق قال: ما حاجتك؟ قال: عاملك على أذربيجان ظلمني وأخذ من مالي عشرة آلاف درهم، فكتب بردّ ذلك عليه وبغزل عامله وقال: انظروا هل اخلوق له من ثوب أو تقطّع له من حذاء. فحسب ذلك فبلغ عشرين ديناراً فأمر بدفعها إليه. قال: وبيننا عمر، رحمه الله، يسير على بغلته إذ جاء رجل فتعلق بلجامها فقال: أتيتك بعيد الدار مظلوماً! قال له: من أين أنت؟ قال: من حضرموت أرضي وأرض آبائي أخذها الوليد وسليمان فأكلاها. فنزل عمر عن بغلته يبكي حتى جلس على الأرض ثم قال: من يعلم ذلك؟ قال: أهل البلد قاطبة.

قال: يكفيني من ذلك شاهداً عدل، اكتبوا له إلى بلاده إن أقام شاهدي عدل أن الأرض له ولآبائه فادفعوها إليه. فلما ولي الرجل قال: انظروا هل هلكت له راحلة أم نفذ له زاد أو تحرق له من حذاء. فحسبوا ذلك فبلغ ثلاثين ديناراً فأتي بها فعدّت في يده.

قال ابن عياش: وخرج عمر ذات يوم من منزله على بغلة له وعليه قميص وملاءة إذ جاء رجل على راحلة حتى أناخها وسأل عن عمر فقيل له: قد خرج وهو راجع الآن. فأقبل عمر ومعه رجل يسايره، فقيل للرجل: هذا أمير المؤمنين. فقام فشكا إليه عدي بن أرطاة في أرض له، فقال عمر: قاتله الله! أما والله ما غرنا إلا بعمامته السوداء، أما إني قد كتبت إليه فضلاً عن وصيتي إن من أتاك ببينة على حق له فسلمه إليه، ثم قد عنّاك إليّ. فكتب إلى عدي بردّ أرضه وقال للرجل: كم أنفقت؟ قال: تسألني عن نفقتي وقد رددت عليّ أرضاً هي خير من مائة ألف درهم! قال: إنما ردها عليك حقك، أخبرني كم أنفقت؟ قال: ما أدري. قال: احرزوه، فإذا هو

ستون درهماً، فأمر له بها من بيت المال، فلما ولّى صاح به فرجع فقال: وهذه خمسة دراهم من مالي فكل بها لحماً حتى تبلغ.

الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت قال: أخبرني دهقان السيلحين قال: كان لسعيد بن مالك إلى جنبي ضيعة وكان رجلاً حديداً فأتيته فقلت له: أعدني على نفسك. فأمر بي فوجئت في عنقي، فقلت: لأرحلن إلى عمر. فدخلت على امرأتي فأعلمتها ذلك فقالت: إني أخاف أن لا تصنع شيئاً ويجتريء عليك. فقلت: إني أكره أن تحدث العجم بأني قلت شيئاً لم أفعله. قال: فخرجت حتى قدمت المدينة فسألت عن عمر، رحمه الله، فذلت عليه وأرشدت إليه.

فلما أتيت منزله دخلت فإذا عمر، رضي الله عنه، جالس على عباءة، فرفع رأسه إليّ وقال: كأنك لست من أهل الملة. فقلت: أنا رجل من أهل الذمة. قال: فما حاجتك؟ قلت: لسعيد بن مالك ضيعة إلى جانبي وإني أتيته أستعديه على نفسه فأمر بي فوجئت في عنقي فقلت لأرحلن إلى عمر. فقال: يا يرفا اتني بالدواة والمكتب. فأتاه بجراب، فأدخل يده وأخرج صحيفةً فكتب فيها، ثم أخرج سيراً يشدها به فلم يقدر عليه فتناول خيطاً من العباءة التي تحته وقد تنشّرت جوانبها فشدها به، فأردت أن لا آخذها ثم تناولتها متثاقلاً، فكأنه عرف ما في نفسي فقال: ائنه فإن كفاك وإلا فأقم واكتب إليّ. قال: فخرجت حتى قدمت على أهلي فقالوا: ما صنعت؟ قلت: أتيت رجلاً لم يقدر على سير يشده به صحيفته حتى تناول خيطاً من عباءة كانت تحته قد تفرّزت وتنشّرت جوانبها فشدها به. قالوا: وما عليك من ذلك إن نفذ أمره؟ قال: فأتيت سعيداً فناولته الكتاب، فلما قرأه أرعدت فرائسه حتى سقط الكتاب من يده وقال: ويحك ما صنعت؟ اذهب فالأرض لك. فقلت: لا أقبلها. فقال: لا والله لا أخذتها أبداً.

قال: وكان نسخة الكتاب: بسم الله الرحمن الرحمن. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سعيد بن مالك. سلام عليك. أما بعد فإن مهزاد دهقان السيلحين ذكر أن له ضيعة إلى جانبك وأنه أتاك يستعديك على نفسك فأمرت به فوجئت عنقه فإذا جاءك كتابي هذا فأرضه من حقه وإلا فأقبل إلي راحلاً، والسلام. قيل: ولما ولي المأمون الخلافة عرضت عليه سيرة أبي بكر، رحمه الله، وفي آخرها: وكان يأخذ الأموال من وجوهها ويضعها في حقوقها.

فقال: أمير المؤمنين لا يطيق ذلك. ثم عرضت عليه سيرة عمر، رضي الله عنه، وفي آخرها: وكان يأخذ الأموال من وجوهها ويضعها في حقوقها فقال: أمير المؤمنين لا يطيق هذا. ثم عرضت عليه سيرة علي، رضي الله عنه. وفي آخرها: وكان يأخذ الأموال من وجوهها ويضعها في حقوقها. فقال: أمير المؤمنين لا يطيق هذا. ثم عرضت عليه سيرة معاوية بن أبي سفيان وفي آخرها: وكان يأخذ الأموال من وجوهها ويضعها كيف شاء. فقال: إن كان فهذا.

وأخبرنا بعض أصحابنا قال: شهدت المأمون يوماً وقد خرج من باب البستان ببغداد فصاح به رجل بصريّ: يا أمير المؤمنين إني تزوجت بامرأة من آل زياد وإن أبا الرازي فرّق بيننا وقال هي امرأة من قريش. قال: فأمر عمرو بن مسعدة فكتب إلى أبي الرازي: إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزيادة وخلعك إياها إذ كانت من

قريش، فمتى تحاكت إليك العرب لا أم لك في أنسابها، ومتى وكلتك قريش يا ابن اللخناء بأن تُلصق بها من ليس منها؟ فخلّ بين الرجل وامرأته، فلئن كان زياد من قريش إنه لابن سمية بغي عاهرة لا يفتخر بقرابتها ولا يتناول بولادتها، ولئن كان ابن عبيد لقد باء بأمر عظيم إذ ادعى إلى غير أبيه لحظّاً تعجّلهُ ومُلْكٍ قهره. وحدثنا غيره قال: شهدت المأمون يوماً وقد ركب بالشماسية وخلف ظهره أحمد بن هشام، فصاح به رجل من أهل فارس: الله الله يا أمير المؤمنين! فإن أحمد بن هشام ظلمي واعتدى عليّ! فقال: كن بالباب حتى أرجع فأنظر في أمرك.

فلما مضى النفت إلى أحمد بن هشام فقال: ما يؤمنك منا أن نوقفك وصاحبك هذا على رؤوس هذه الجماعة وتقعّد مع خصمك حيث يقعد ثم يكون محقّقاً وتكون مبطلاً فكيف إن كنت في صفته وكان في صفتك؟ فوجّه إليه من يحوّلُه عن بابنا إلى رحلك وأنصفه من نفسك وأعطه ما أنفق في طريقه إلينا، ولا تجعل لنا ذريعة إلى لائمك، فوالله لو ظلمت العباس ابني كان أهون عليّ من ظلمك ضعيفاً لا يجديني في كل وقت ولا يخلو له وجهي، ولا سيما من كان ينتجشم السفر البعيد ويكابد حرّ الهواجر وطول المسافة. قال: فوجه إليه أحمد بن هشام فحوّلُه إلى مضربه وكتب إلى عامله برّد ما أخذ منه، ووصل الرجل بأربعة آلاف درهم.

قال: وتنازع رجلان بباب الجسر أحدهما من العظماء والآخر من السوقة فقنّعه الرجل فصاح السوقى: وا عمراه ذهب الإسلام! فأخذ الرجل وكتب بخبره إلى المأمون، فدعاه وقال له: ما كانت حالك؟ فأخبره. وأحضر خصمه وقال له: لم قنّعت هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين هذا رجل معاملي وكان سيء المعاملة وكنت صبوراً على ذلك منه، فلما كان في هذا اليوم مررت بباب الجسر فأخذ بلجام دابتي وقال: لا أفارقك حتى تخرج إليّ حقي. فقلت له: إني أبادر إلى باب إسحاق بن إبراهيم. فقال: والله لو جاء إسحاق ومن ولى إسحاق ما فارقتك. فما صبرت حين عرض بالخلافة أن قنّعت فصاح: وا عمراه ذهب الإسلام منذ ذهب عمر. فقال للرجل: ما تقول؟ قال: كذب عليّ وقال الباطل. فقال الرجل: لي جماعة يشهدون على مقاتله يا أمير المؤمنين، فإن أذنت لي أحضرتهم. قال المأمون للرجل: من أين أنت؟ قال: من أهل فامية. فقال: أما إن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان يقول: من كان جاره نبطياً واحتاج إلى ثمنه فليبعه. فإن كنت إنما طلبت سيرته فهذا حكمه في أهل فامية. ثم أمر له بألف درهم وأمر صاحبه أن ينصفه.

وحدثنا أبو الفضل الهاشمي عن قحطبة بن حميد بن قحطبة قال: قعد المأمون للمظالم ذات يوم فلم يزل قاعداً إلى أن قلنا قد فاتته الصلاة، فكان آخر من دعي امرأة فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم فقال: وعليك السلام، تكلمي يا أمة الله. فقالت:

يا خير منتصفٍ يُهدى به الرشد ... ويا إماماً به قد أشرق البلد  
أشكو إليك عقيد الملك أرملة ... عدا عليها فلا تقوى به الأسد  
فابتز مني ضياعي واستبد بها ... ففارق العيش مني الأهل والولد  
فقال المأمون:

في دون ما قلت عيل الصبر والجلد ... وقد تقطّع مني القلب والكبد  
هذا أو أن صلاة الظهر فانصري في ... وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد  
والجلس السبت إن يُقض الجلوس لنا ... ننصفك فيه وإلا المجلس الأحد

قال: فانصرفت فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول من دعا به المرأة، فسلمت فرد المأمون عليها السلام وقال: أين الخصم، رحمك الله؟ قالت: هو واقف على رأسك وقد حيل بيني وبينه. وأومات إلى العباس ابنه. فقال: يا أحمد بن أبي خالد خذ بيده فأقعه معها. قال: ففعل ذلك. فجعلت تعلقو على العباس بصوتها وتقول: ظلمتني واعتديت عليّ وأخذت ضيعتي. فقال لها أحمد: ما هذا الصياح؟ إنك بين يدي أمير المؤمنين تناظرين الأمير! فقال المأمون: دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها والباطل أحرصه. فلم يزالا يتناظران حتى حكم المأمون لها برد ضيعتها ثم قال: يا أحمد اردد عليها ما جباه العباس من ضيعتها وادفع إليها عشرة آلاف درهم ترمّ بها ما أراه من سوء حالها وكتب إلى والينا وقاضينا يرافقتها والنظر في أمرها وأوغر لها خراج ضيعتها بالشيء الطفيف وليكن ذلك في يومنا هذا. فما برحت حتى قضيت حوائجها وخرجت.

وعن الحسن بن سهل قال: جلس المأمون ذات يوم للمظالم وإذا هو برجل قد مثل بين يديه وفي يده رقعة فيها سطران: بسم الله الرحمن الرحيم. مظلمة من أمير المؤمنين أطال الله بقاءه. فقال: أمظلمة مني! قال: أفأحاطب بالخلافة سواك؟ قال له: وما ظلامتك هذه؟ قال: ثلاثون ألف دينار. قال: وما وجهها؟ قال: إن سعيداً وكيلك اشتري مني جوهرًا بثلاثين ألف دينار وحمله إلى منزلك ولم يوفر عليّ المال. قال: فإذا اشتري سعيد منك الجوهر تشكو الظلمة مني! قال: نعم إذا كانت الوكالة قد صحت له منك. قال: إن كلامك هذا يحتمل ثلاث جهات: أما أول ذلك فلعل سعيداً قد اشتري هذا الجوهر منك كما زعمت وحمله إلينا وأخذ المال من بيت المال ولم يوفره عليك، أو لعله قد وفره وادعيت باطلاً، أو اشتراه لنفسه. أما في العاجل فلا يلزمي لك حق ولا أعرف لك ظلامة.

فقال الرجل إن الله جل وعز قد أهلك لموضع رفيع واختصك بنسب جعلك أولى الخلق معه بالانصاف فإنك مناسب لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، واسترعاك على خلقه فهلا تحملي على كتاب الله جل وعز وسنة ابن عمك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسنة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في رسالته إلى أبي موسى الأشعري وهي التي اتخذتموها صدور أحكامكم ووصية لقضاتكم إذ يقول: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

قال المأمون: فإنك والله قد عدمت البينة فما يجب لك إلا حلفاً ولن حلفتها لأننا صادق إذ كنت لا أعرف لك حقاً يلزمي.

قال: فإذا أدعوك إلى الحاكم الذي نصبت له لرعتك. قال: نعم، يا غلام عليّ يبجي بن أكنم. فإذا هو قد مثل بين يديه. فقال: يا يبجي! قال: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: اقض بيننا. قال: في حكم وقضية! قال: نعم. قال: لا أفعل. قال: ولم؟ قال: لأن أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضائي. قال: قد فعلت. قال: فإني أبدأ بالعامّة أولاً ليصبح المجلس للقضاء. قال: افعل.

ففتح الباب وقعد في ناحية من الدار وأذن للعامّة ونادى المنادي وأخذ الرقاع ودعا بالناس ثم دعا الرجل المتظلم فقال له يبجي: ما تقول؟ قال: أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين المأمون. فدأى المنادي فإذا المأمون قد خرج في رداء وقميص وسراويل قد أرسلها على عقبها في نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يبجي وهو جالس. فقال له: اجلس. فطرح المصلى ليقعد عليه. فقال له يبجي: يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك شرف المجلس. فطرح له مصلى آخر فجلس عليه. وقال له يبجي: ما تقول؟ فقال: لي على هذا ثلاثون

ألف دينار. قال: ومن هذا؟ قال: أمير المؤمنين المأمون بالله. قال له يحيى: يا أمير المؤمنين قد سمعت ما يقول؟ قال: سله ما وجهها. فأعاد خبر الوكيل. فقال المأمون: ما أعرف له حقاً. فأقبل على الرجل فقال: قد سمعت، ألك بينة؟ قال: لا. قال: فما تريد؟ قال: ما يوجه الحكم لمن عدم البينة. قال المأمون: ويحك قد لججت في اليمين! قال: يا أمير المؤمنين أتخلف؟ قال: إي والله ولا أوطيء نفسي العشوة في إعطاء رجل ما لا يجب له ظلماً. فقال: قل والله. فاستحلفه غموساً.

ثم وثب يحيى عند فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه. فقال له المأمون: ما أقامك؟ فقال: إني كنت في حق الله جل وعز حتى أخذته منك وليس الآن من حقدك أن أتصدر عليك. وقبض على الرجل لنلا يخرج. فقال المأمون: ارفقوا به. ثم قال: يا غلام أحضري ما ادعى من المال. فلما أحضر قال: خذه إليك والله ما كنت أحلف على فجرة ثم أسمح لك فأفسد ديني ودنياي، والله يعلم ما دفعتُ إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعية لعلها ترى أن تناولتك من وجه القدرة وأني منعتك واجبك بالاستطالة عليك وإنما لتعلم الآن ما كنت أسمح لك باليمين. فقال: يا أمير المؤمنين أفأحاط في المال حتى أصل إلى حيث آمن عليه؟ قال: إي والله ولو بالتغرغز وأسبيحاب. فأخرج الرجل مع المال وبذرق به إلى أن بلغ مأمنه.

#### ومنه روايات

وروي عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: إن الرجل إذا ظلم فلم ينتصر ولم يجد من ينصره فرفع طرفه إلى السماء ودعا قال الله، جل وعز: لبيك عبدي أنصرك عاجلاً وآجلاً. وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في قولهم: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قال: تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه.

قال: وقال الفضيل بن عياض: بكى ابني فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي على من ظلمني وأخذ مالي ارحمه غداً إذا وقف بين يدي الله عز وجل وسأله فلا تكون له حجة.

قال: وقال الحسن البصري: يا أيها المصدّق على السائل ترحمه ارحم أولاً من ظلمت. وروي عن عبد الله بن سلام أنه قال: قرأت في بعض الكتب قال تبارك وتعالى: إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني.

وقال خالد: إياكم ومجانيق الضعفاء، يريد الدعاء.

#### ومنه توقيعات

قال: وقّع المأمون في كتاب متظلم من أحمد بن هشام: اكفني أمر هذا الرجل وإلا كفيته أمرك. ووقّع في رقعة رجل من العامة تظلم من عليّ بن هشام: يا أبا الحسن الشريف من يظلم من فوقه ويظلمه من دونه فاعلمني أي الرجلين أنت.

وقال عمرو بن مسعدة: كتبت إلى عامل دستي كتاباً أطلته فأخذه المأمون من يدي وكتب: قد كثر شاكوك فيما عدلت وإما اعتزلت.



ووقع في رقعة رجل تظلم من الرستمي: ليس من البر أن تكون آيتك ذهباً وقدورك فضة وجارك يطوي وغريمك يعوي.

قال: ووقع هشام بن عبد الملك في رقعة متظلم من العامة: أتاك الغوث إن كنت صادقاً وحل بك النكال إن كنت كاذباً، فتأخر أو تقدم.

قال: ورفع رجل إلى المنصور قصة يتظلم فيها من عامل فارس فوقع له: إن آثرت العدل صحبتك السلامة. ووقع لقوم متظلمين شكوا سيرة واليهيم: كما تكونون يوئى عليكم.

ووقع يحيى بن خالد المتظلم من بعض الولاة: أنصف من وليت أمره وإلا أنصفهم من ولي أمرك. ووقع بعضهم إلى صاحب مظالم: ما أراي سالماً من المآثم بتوليتي إياك المظالم. يا رديء المختبر اعتزل غير محمود الأثر.

قيل: وقال رجل للمعتصم: يا أمير المؤمنين ظلمي من وافق اسمه فعله. فقال المعتصم لبغا: سله ممن يتظلم فيني أراه يتظلم من ظلوم. فسأله فقال: من ظلوم. فتبسم المعتصم وقال لابن أبي دؤاد: ما أبعد الرجل في قوله، قل لها بجياقي أنصفيه.

قال: وأخبرنا إبراهيم بن محمد قال: كنا مع المتوكل في بعض متنزهاته فوقف على تلّ كله حصى قد غسله المطر فاستحسنه فنزل فصلى وسبح ثم قال في دعائه: اللهم إنك خلقتني ولم أك شيئاً ثم صيرتني فوق هذا الخلق وأنت قادر أن تزيل هذا كله فارزقي العدل والنصفة وألق في قلبي لهم الرأفة والرحمة. ثم بكى وأخذ كفاً من ذلك الحصى فجعله على رأسه وجعل يقلب خده ووجهه على الأرض ثم قام فركب.

#### مساوي أخذ الجار بالجار

قال: قال الحجاج بن يوسف: لآخذن السميّ بالسميّ والولي بالولي والجار بالجار، وقد لعن الناس قائل هذا البيت

أرى أخذ البريّ بغير جرمٍ ... تجب ما يحاذره السقيم

وقال الحارث بن عباد في هذا المعنى:

لم أكن من جناحها علم الل ... ه وإني بحرّها اليوم صالي

وقيل:

لعل له عذراً وأنت تلوم

وأنشد في مثله النابغة:

فحملتني ذنب امرئٍ وتركته ... كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع

وكانوا إذا أصاب إبلهم العرّ كروا السليم ليذهب العرّ عن السقيم فأسقموا الصحيح من غير أن يبرأ السقيم.

وكانوا إذا أوردوا البقر الماء فلم تشرب ضربوا الثور ليقحم الماء فتبعه البقر، فقال الشاعر في ذلك:

هجوئي إذ هجرت جبال سلمى ... كضرب الثور للبقر الظماء

وقال غيره:

كما ضرب اليعسوب إن عاف باقر... وما ذنبه إن عافت الماء باقر  
وقال غيره:

إذا عركت عجلٌ بنا ذنب طيء... عركنا بتيم اللات ذنب بني عجل  
وقال سعيد بن عبد الرحمن بن حسان:

وإن امرأً يمسي ويصبح سالماً... من الناس إلا ما جنى لسعيد  
قيل: وأتى عبد الصمد بن علي بأناسٍ من الشطار فأمر بضربهم وحلق رؤوسهم ولحاهم. ففعل بهم ذلك، وكان  
فيهم رجلٌ سناطٌ فقيل له: إن هذا ليست له لحية فهل تزيد في الضرب؟ قال: لا ولكن احلقوا لحية هذا  
الشرطي مكانه.

### محاسن السطوة

قيل: وبلغ من عدل هرمز بن كسرى أنوشروان أنه ركب ذات يوم إلى ساباط المدائن متنزهًا وكان ممره على  
كروم وبساتين وأن رجلاً من أساورته اطلع على كرم فرأى فيه حصراً غصاً فأمر غلامه فنزل إليه وأخذ من  
عناقيد، وقال له: انطلق به إلى المنزل ليطبخ مرقّة حصرمية. فأقبل حافظ ذلك الكرم فيتعلق بالغلام وصاح حتى  
بلغ ذلك صاحبه ففزع وتخوف عقوبة الملك فدفع منطقتة إلى حافظ ذلك الكرم، وكانت محلاة بالذهب مرصعة  
بالجوهر، فافندى بما نفسه من عقوبة الملك ورأى أن لحافظ ذلك الكرم عليه الفضل.

وبلغ من عدله أيضاً أن ابنه أبرويز وقع مركب من مراكبه في بعض مسيرته في زرع على طريقه فأفسده فأقبل  
صاحب الزرع إلى ذلك المركب فأخذه وصار إلى الموكل بالنظر في مظالم الرعية فرفع أمره إلى الملك، فأمر الملك  
بالفرس أن تجدع أذناه ويقطع ذنبه ويغرم صاحبه كسرى أبرويز مقدار مائة ضعف مما أفسد من ذلك الزرع.  
فخرج الموكل بذلك من عند الملك لينفذ أمر الملك في فرس ابنه، فتحمل عليه ابنه بنفرٍ من عظماء المرازبة  
وسألوه أن يصفح عما أمر به الملك على أن يغرم كسرى لصاحب الزرع ألفي ضعف ما أفسد المركب من  
زرعه. فلم يجيبهم الموكل إلى ذلك وأخذ الفرس فجعد أذنيه وقطع ذنبه وغرم كسرة مائة ضعف ما أفسد  
المركب من زرع الرجل وردّه عليه.

وحكي عن بهرام جوبين أن رجلاً من خاصته في مسيره إلى ملك الترك أخذ من امرأة آكار سيد تن، فشكت  
ذلك إلى بهرام. فأمر الرجل فضربت عنقه ودفع سلبه إلى المرأة بدلاً من تبناها.

قيل: وبلغ من عدل كسرى أنوشروان أنه اتخذ وصيفتين وأمر أن تقوم واحدة عن يمينه وتقوم الأخرى عن شماله  
بأيديهما قضبان من ذهب وهو جالس لينظر في أمور الناس. فكان إذا كاد أن تسهو حركتاه بالقضيب وقالتا  
له والرعية يسمعون: أيها الملك انتبه أنت مخلوق لا خالق، أنت عبد لا مولى، أنت فانٍ لا باقٍ، ليس بينك وبين  
الله جل وعز قرابة فانظر لنفسك وانصف الناس. فمضى على هذا حتى أتاه اليقين.

وقال أردشير: تعطيل الحدود تضرية للمجرمين، ويوم العدل على الظالم أمرٌ من يوم الظالم على المظلوم.  
المدائني قال: مرّ رجل من الدهاقين أيام زياد بحمار قد حمل عليه خمر، فأخذه الحرس وقالوا: ألم تعلم أن الأمير  
قد نهى عن إدخال الخمر إلى مصر؟ قال: بلى، وهذا الخمر للأمير.

فلما بلغ زياداً ذلك قال: هذا رجل احتمال للوصول إليّ. فدعا به وقال: ما أمرك؟ قال: لي أرض عند نهر المرأة

فيها نخل، فأرسل ابن المرأة غلمانها ليصروا بعض النخل فقلت لهم خذوا حاجتكم منها ولا تفسدوا، فأخذوا ما أرادوا وأتوه فأخبروه مقالتي، فأرسل إليّ وضربني وعقر نخلي .  
فأرسل زياد معه رجلاً وقال له: انطلق به فإذا كنت قريباً من الأرض التي يذكر فسل من لقيت من رجل وامرأة عما يقول فإن اجتمعوا على مقالة واحدة ورأيت النخل قد عقر فخذ الذي أمر بقطعها فأجله ثلاث ساعات، فإن أتاك بقيمة النخل لكل نخلة ألف درهم فخلّ سبيله، وإن مضت الثلاث الساعات ولم يأتك بذلك فاضرب عنقه وأتني برأسه. ومضى الرسول فسأل فكان الأمر كما حكاه، فأعرم قاطع النخل أربعين ألف درهم وحمل المال إلى زياد، فقال: لو أتيتني برأسه كان أحبّ إليّ. ودفع المال إلى صاحب النخل.

### محاسن العفو

قيل: أخذ مصعب بن الزبير رجلاً من أصحاب المختار بن أبي عبيد فأمّر بضرب عنقه فقال: أيها الأمير ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسننة فأنتعلق بأطرافك وأقول: يا رب سل مصعباً فيم قتلني. فقال: اطلقوه. فقال: أيها الأمير اجعل ما وهيت لي من عمري في خفض. فقال: اعطوه مائة ألف درهم. قال: بأبي أنت وأمي أشهدك أن لابن قيس الرقيات منها النصف لقوله:  
إنما مصعبٌ شهابٌ من الل ... ه تجلت عن وجهه الظلماء  
فضحك مصعب وقال: لقد تلطفت وإن فيك لموضعاً للصنعية! وأمر له بالمائة الألف ولا بن قيس بخمسين ألف درهم.

وذكر عن أبي العباس السفاح أنه غضب على رجل فذكره في ليلة من الليالي فقال له بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين إن فلاناً لو رآه أعدى خلق الله له لرحمه وأنغض قلبه له. قال: ولم ذلك؟ قال: بغضب أمير المؤمنين عليه. قال: ما له من الذنب ما تبلغ به العقوبة هذا المبلغ! قال: منّ عليه يا أمير المؤمنين برضاك. قال: ما هذا وقت ذاك. قال: يا أمير المؤمنين إنك لما صغرت ذنبه طمعت له في رضاك. فقال: إنه من لم يكن بين غضبه ورضاه فرجة لم يحسن أن يغضب ولا يرضى، وعلى هذا أخلاق الملوك.

قيل: وحضر صالح المرّي مجلس المنصور وعنده نفر من أهل بيته وقد ولي سعيد بن دعلج أحداث البصرة فدعا بنفر من أهل الجنائيات ليعاقبهم، فلما أتى بهم تحرك صالح ليقوم فقال له رجل ممن حضر: أين تقوم؟ والله ما أحتاج إلى جلوسك عنده إلا الساعة. فقال: صدقت. وقال: يا أمير المؤمنين إن الله جل وعز يقول في كتابه: " والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ". فبكى المنصور حتى اخضلت لحيته بالدموع وأمر بتخليتهم.

قيل: وأتى المنصور بجانٍ فأمّر فيه بعقوبة غليظة. فقال له العباس بن محمد: يا أمير المؤمنين إنك غضبت لله جل ذكره فلا تغضب له بأكثر مما غضب لنفسه، وقد تبين لك ما يجب على مثله من الحد. فأمر بإطلاقه.  
قال: وحدثنا المدائني قال: كان سهل بن سعد القشيري خرج مع محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن على المنصور، فقال المنصور: هذا كان عندنا من الفقهاء والعلماء فكيف خرج علينا؟ ثم قال له المنصور: والله لأقتلنك قتلة ما قتلتها أحداً! فقال: يا أمير المؤمنين أن تحنث في يمينك هذه خير لك عند الله من أن تبرّها، واعلم يا أمير المؤمنين أنك إن قتلتني قتلت أربعة آلاف حديث سمعتها من الضحّاك بن مزاحم عن جدك عبد الله بن

العباس عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لا يرويهما أحد غيري.

قال: فوضع يده على خدّه وقال: هات. قال: حدثني الضحّاك بن مزاحم عن جدك عبد الله بن العباس قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: عمل الجنة حزنٌ بريوة وعمل النار سهلٌ بسهولة، والسعيد من وقى شرّ الفتن، ومن ابتلي فصبر فيها لها ثمّ يا لها، وما امتلأ عبد غيظاً فكظمه إلا ملاءه الله إيماناً. قال: هات. قال: حدثني الضحّاك بن مزاحم عن جدك عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله: شرف المؤمن قيامه بالليل وعزلته عن الناس. فأمره بالجلوس ثمّ قال: هل من أحد يضمّنك على أن تلزمنّا فتسمر عندنا؟ وأقام معه. وقيل: إنه سخط المهدي على بعض القحاطبة فقال: لا أراه إلا والسيف مسلول والنطع منشور. فأتي به وقد سل السيّف ونشر النطع فبكى فقال: ألك مثل حركتك وتبكي؟ فقال: ما بكيت جزعاً من الموت ولكن بكيت أن ألقى الله وأنت ساخط عليّ. فقال المهدي: يا غلام ادرج النطع واغمد السيّف: إن الكريم إذا خادعته الخدعا

قيل: وعاتب المهدي شبيب بن شيبّة في شيء بلغه عنه. فاعتذر إليه وقال: والله لو كان لي ذنب لأقورت ولكن عفواً أمير المؤمنين أسرع إلي من براءتي. وقال موسى بن عبد الله: أتي موسى برجل فجعل يقرره بذنوبه ويتهدده، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين اعتذاري مما تفرعني به رد عليك وإقراري يوجب لي ذنباً ولكني أقول: إن كنت ترجو في العقوبة رحمةً... فلا تزهدن عند المعافاة في الأجر فأمر بإطلاقه.

وقال العباس بن قيس: أتي الهادي برجل أراد أن يضرب عنقه فقال: يا عدو الله ائتمناك فخنّت واستنجدناك فلم تنجدنا، وأعطيناك فلم تشكرنا! فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إن كلامي وحجتي رد عليك وفي أكثر مما قال أمير المؤمنين، وعفوه وإحسانه يأتیان على ذلك. فكأنما كان ناراً صب عليها الماء، فخلّى سبيله. وحكي عن الرشيد في عبد الله بن مالك الخزاعي حين غضب عليه فأمر أهله وحشمه وجميع قراياته أن يتجنبوا كلامه ومعاملته ومعاطاته حتى أثر ذلك في بدنه وتحاماه أقرب الناس إليه من ولد وأهل فلم يذن منه أحد ولم يطف به.

فجاءه محمد بن إبراهيم الهاشمي وكان أحد أودائه، في جوف الليل، فقال له: إن لك عندي يداً ما أنساها ومعروفاً ما أكفروه وقد علمت ما تقدم به أمير المؤمنين في أمرك وها أنا بين يديك ونصب عينيك فمرني بأمرك فوالله لأجعلن نفسي وقاية لك. فقال له عبد الله خيراً وأثنى عليه وأخبره بعذره فيما وجد عليه الرشيد. فلما دخل عليه قال له: أين كنت في هذه الليلة؟ قال: عبدك يا أمير المؤمنين عبد الله بن مالك كنت عنده وهو يلحف بطلاق نسائه وعتق مماليكه وصدقة ماله مع عشرين بدنة يهدبها إلى بيت الله الحرام حافياً راجلاً إن كان ما بلغ أمير المؤمنين سمعه الله جل وعز من عبد الله ولا اطلع عليه ولا همّ به أو أظهره. قال: فأطرق الرشيد ملياً مفكراً ومحمد يلحظه ووجهه يشرق مرة ويسفر أخرى وكان قد حال لونه حين دخل عليه، ثم رفع رأسه فقال: أحسبه صادقاً يا محمد فمره بالرواح إلى الباب. قال: وأكون معه؟ قال: نعم. فانصرف محمد إلى عبد الله فبشّره وأمره بالركوب رواحاً. فدخل جميعاً، فلما أبصر عبد الله بالرشيد انحرف نحو القبلة وخرّ ساجداً ثم رفع رأسه،

فاستدناه الرشيد فدنا وعيناه تمهلان فأكب عليه وقبّل بساطه ورجليه وموطيء قدميه ثم طلب أن يأذن له في الاعتذار. فقال: ما بك حاجة إلى أن تعتذر إذ قد عرفت عذرك.

قال: فكان عبد الله يرى بعد ذلك إذا دخل على الرشيد بعض الانقباض، فشكا ذلك إلى محمد، فقال محمد: يا أمير المؤمنين إن عبدك عبد الله يشكو أثراً باقياً من تلك النبوة التي كانت من أمير المؤمنين ويسأل الزيادة في بسطه. فقال الرشيد: إنا معشر الملوك إذا غضبنا على أحد من بطانتنا ثم رضينا عنه بقي لتلك الغضبة أثر لا يخرج له ليل ولا نهار.

قيل: ومدح شاعر أبا حاتم كاتب الديوان فلم يصله بشيء فأنشأ يقول:

لئنصفني يا أبا حاتم ... أو لأصيرن إلى حاكم

أول ما أتلفت من ماله ... خمسين ألفاً في شري هاشم

خمسين ألفاً وضحاً كلها ... من مال هذا الملك النائم

فاحتفظها صاحب الخبر ورفعها إلى الرشيد فقال: صدق، لولا أني نائم ما كانت أموري تجري على هذا السبيل: وأمر بإخراج الجرائد من الدار إليه. فأول ما وجد على منصور بن زياد عشرة آلاف ألف درهم.

فحدث صالح صاحب المصلّى قال: دعاني الرشيد وهو على كرسي فقال: اذهب الساعة فخذ منصور بن زياد بالخروج من عشرة آلاف ألف درهم فإن لم يوردها بينك وبين المغرب فاضرب عنقه وجثني برأسه وأنا نفي من المهدي لئن أنت دافعت عنه لأضربن عنقك. قلت: يا سيدي فإن أعطاني بعضها ووقت لي في بعضها وقتاً؟ قال:

لا. فخرجت فأعلمته الخبر فأسقط في يده وقال: ما أراد إلا قتلي لأنه يعلم أن مقدار مالي لا يبلغ ما به طالبني، ولكن تأذن لي أن أدخل بيتي فأودع أهلي؟ فأذنت له فدخل ودخلت معه وبقيت واقفاً فبعث إلى أمهات أولاده وبناته ونسائه أن اخرجن إلي كما كنتن تخرجن عند موتي فإن هذا آخر أيامي ولا ستر لكن بعدي. فخرجن إليه مشققات الجيوب مخمّشات الوجوه بصراخ شديد. فبكي إليهن وبكين إليه وبكيت معهن ثم ودعهن وخرج وهنّ في أثره واضعات التراب على رؤوسهن، ثم قال: يا أبا مقاتل لو أذنت لي في المصير إلى أبي عليّ يحيى بن خالد البرمكي فكنت أوصيه بولدي وأهلي؟ فقلت: امض.

وصرنا إليه وقد نزل في ساعته وهو على كرسي يغسل يده، فلما توسطنا الدار جعل منصور يبكي ويمشي إليه حتى دنا منه وهو يسأله عن الحال فيمنعه البكاء من إخباره، فأقصصت عليه قصته فقال: ارجع إلى أمير المؤمنين وسله أن يهبه لي. قلت: ما لي إلى ذلك سبيل ولا يراني إلا والمال معي أو رأس منصور كما أمرني. فقال لخادم له: انت فلانة فسلها كم لنا عندها من المال. فانصرف وذكر أن عندها خمسة آلاف ألف درهم. فقال لي:

احملها وابلغ أمير المؤمنين رسالتي في باقيها. فأعلمته أن لا سبيل إلى حمل بعضها دون بعض. فأطرق ثم رفع رأسه ثم قال: يا غلام انت دنانير فقل لها تبعث إلي بالجواهر الذي وهبه لها أمير المؤمنين. فبعثت إليه بحقّ فقال: هذا جوهر ابتعناه لأمر المؤمنين بمائتي ألف دينار وهو عارف به وقد جعلته له بمائة ألف دينار وهو ألفا ألف درهم، واحمل إليه هذه السبعة الآلاف الألف والرسالة. فأبيت.

فوجه إلى الفضل ابنه: إنك كنت أعلمتني أنك على ابتياع ضيعة نفيسة وقد أصبتها ولا يوجد مثلها في كل وقت وابتاعها فرصة فاحمل إلي مالها. فعاد الرسول ومعه ألفا ألف درهم. ووجه إلى جعفر ابنه أن يوجه إليه

بألف ألف درهم. فأنفذ إليه صكاً أو صكاً إلى الجهبذ بها. فقبضت المال ووافيت الرشيد قبيلاً المغرب وهو منتصب على حالته ينتظر رجوعي إليه. فأخبرته الخبر فلما انتهيت إلى خير الحقة قال: صدق وقد ظننت أنه لا ينجيه غيرهم، أحمل هذا المال أجمع إلى أبي عليّ وارده عليه وأعلمه أني قد قبلت ذلك عن منصور وردته عليه. ففعلت ذلك.

ولقيني بعد ذلك يحمي منصوراً من الدار ومنصور معه يسايره ويصاحبه والناس خلفه فقلت: والله لأنصحن هذا الشيخ الكريم. فدخلت معه ودخل منصور ودعا بغداده، فلما نهض منصور قلت: يا أبا عليّ إني والله ما رجعت معك إلا لنصحك وقد رأيت مكان هذا الرجل منك وكنا حين حملت المال أمهضته معي فوالله ما قطع نصف الصحن من الدار حتى تمثل بهذا البيت:

فما بقيا علي تركتني ... ولكن خفتما صرد النبال

فعارض أكرم فعلك بالألم خصلة فيه فدعاني الامتعاض من ذلك إلى إخبارك، فإني من تعلم في مودتك وطاعتك. فأكب على الأرض ساعة ثم رفع رأسه فقال: اعذره فقد كان عقله عزب عنه في ذلك الوقت. قال: فكان عذره له أحسن من إحيائه إياه.

قيل: وأمر الرشيد يحيى بن خالد بحبس رجل جنى جنايةً. فحبسه يحيى وسأله عنه الرشيد فقيل: هو كثير الصلاة والدعاء. فقال للموكل به: اعرض عليه أن يكلمني ويسألني إطلاقه. فقال له ذلك الموكل به فقال: قل لأمير المؤمنين إن كل يوم يمضي من نعمتك ينقص من محنتي والأمر قريب والموعد الصراط والحكم الله. فخرّ الرشيد ساجداً مغشياً عليه وأمر بإطلاقه.

قيل: وأتى الرشيد برجل قد وجب عليه الحد فأمر أن يضرب فضرب. فقال: يا أمير المؤمنين قتلتني! قال: الحق قتلك. قال: ارحمني! قال: لست بأرحم لك ممن أوجب عليك الحد. ثم أمر بإطلاقه.

قال: وقال الرشيد للجهجاه: أزدني أنت؟ فقال: كيف أنا زدني وقد قرأت القرآن وفرضت الفرائض وفرقت بين الحجّة والشبهة؟ قال: والله لأضربنك حتى تقر! قال: هذا خلاف ما أمر الله جل وعز به، أمر أن يضرب الناس حتى يقرّوا بالإيمان وأنت تضربني حتى أقر بالكفر! فالتفت للجهجاه إلى أبي يوسف القاضي فقال له: افته لا يهلك في دينه.

قال: وبلغ الرشيد أن عبد الملك بن صالح دعا إلى نفسه فأمر بحبسه ثم دعاه ذات يوم فقال: أكفراً للنعمة وإظهاراً للغدر؟ قال: كلا يا أمير المؤمنين ولكنه مقالة كاشح واحتيال حاسد. قال: هذا قمامة كاتبك يذكر صحة ذلك. قال: أسمعني يا أمير المؤمنين! قال: اخرج يا قمامة. وكان من وراء الستر. فخرج فقال له: لقد انطويت عليه وواطيت من خالفه.

قال: يا أمير المؤمنين كيف لا يكذب عليّ من خلفي من يبهتني في وجهي مع نعمتي عليه وإحساني إليه؟ قال: فهذا عبد الرحمن ابنك! فقال: هو بين مأمورٍ وعاقٍ، فإن كان مأموراً فلا ذنب له، وإن كان عاقاً فأقلّ عقوبته الشهادة بالزور عليّ. قال: فما الحكم؟ قال: أولى الناس بصفحك عنه من لا شفيح له إليك إلا حلمك. فقال الرشيد:

أريد حياته ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد

والله لكأني أنظر إلى شؤبونها قد همع وإلى عارضها قد لمع وكأني بالوعيد قد أورى ناراً فأقلع عن براجم بلا معاصم ورؤوس بلا غلاصم، مهلاً مهلاً بني هاشم في سهّل الله الوعر وصفى الكدر وألقت الأمور أزمتهها. نذار من حلول داهية خيوط باليد لبوط بالرجل. فقال عبد الملك: أفذأ أتكلم أم توأمأ؟ قال: بل توأمأ. فقال: يا أمير المؤمنين اتق الله فيما ولاك، وراقبه فيما استرعاك، ولا تجعل الشكر بموضع الكفر، ولا الثواب بمحلّ العقاب، والله الله في رحمك أن تقطعها بعد أن وصلتها بظن يؤثم ثم تقول باغ ينهس اللحم وولغ في الدم، فقد جمعت القلوب على محبتك وذلّت الرجال لطاعتك وكنت كما قال أخو كلاب لبيد بن ربيعة:

ومقام ضيق فرجته ... بلساني وبياني وجدل

لو يقوم الفيل أو قياله ... زلّ عن مثلي مقامي وزجل

فوثب الرشيد من مجلسه واعتنقه وجعل يقبل ما بين عينيه ويسترجع ويعتذر ثم خلع عليه حبل الرضى وتنفس الصعداء وقال: والله لقد دعوته وإني لأرى موضع السيف من قفاه وها أنا ذا نادم على ما كان مني، والله جل وعز يتجاوز بقدرته عن ذلك.

قال: وظفر المأمون برجل كان يطلبه، فلما دخل عليه قال: يا عدو الله أنت الذي تفسد في الأرض بغير حق، يا غلام خذه إليك واسقه كأس الموت.

فقال: يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تستبقيني حتى أؤيدك بمال؟ قال: ليس إلى ذلك سبيل. قال: يا أمير المؤمنين فدعني أصل ركعتين أحتم بهما عملي. قال: ليس إلى ذلك سبيل. قال: فدعني أنشد أبياتاً. قال: هات. فقال:

زعموا بأن الصقر صادف مرة ... عصفور برّ ساقه المقدور  
فتكلم العصفور تحت جناحه ... والصقر منقضّ عليه يطير  
ما كنت خاميزاً لملك لقمّة ... ولئن شويت فإني لحقير  
فتهاون الصقر المدلّ بصيده ... كرمأ وأفلت ذلك العصفور

فقال المأمون: أحسنت! ما جرى ذلك على لسانك إلا لبقية بقيت من عمرك. فأطلقه وخلع عليه ووصله. قال: وقال عبد الله صاحب المأمون: دخلت على المأمون فإذا نطع مبسوط ورجل فوقه على رأسه رجل مسلول سيفه. فلما نظر إليّ المأمون قال: يا عبد الله شأنك والرجل. فحسرت عن ذراعي وقمت فوق رأسه واخترطت سيفي، فسلط على المأمون النعاس فجعل يحنق برأسه ويقول: أستخير الله. فلما كان عند المساء قال لي: شأنك والرجل احفظه. فطرحت حمائل سيفي في عنقه وأردفته خلفي وذهبت به إلى منزلي ثم عدت اليوم الثاني إلى المأمون ففعل كفعله أمس. فلما كان اليوم الثالث قال لي المأمون: خلّ عن الرجل واعطه عشرة آلاف درهم. فأردفته خلفي ولم أجعل حمائل السيف في عنقه. فقال لي: ما لك لم تلق حمائل السيف في عنقي؟ قلت: إنه قد عُفي عنك. قال: فخلّ عني إذا. قلت: أمرني أن أعطيك عشرة آلاف درهم. قال: لا حاجة لي فيها، خلّ عني. قال: إذا أمرنا بأمر انتهينا إليه. ثم قلت له: كنت تمهم في فقاي إذا أنا أردفتك بشيء فما كنت تقول؟ قال: كنت أقول: اللهم أنت كل يوم في شأن لا يشغلك شأن عن شأن فاجعلني من شأنك حتى تنقل ما في قلب هذا الرجل من الغضب إلى الرضى ومن الغلظة إلى اللين والرقّة يا أرحم الراحمين.

وعن إبراهيم بن المهدي أنه بينما هو في مجلس المأمون إذ تكلم بكلام أسقط فيه وكان كلامه يحتمل أمرين. فقام وعلم أنه قد أخطأ فقال: إن رأى سيدي أن يأذن لي في الكلام. قال: قل. قال: نساؤه طوالق وماله صدقة

وعبيده أحرار وكل نذر وضعه الله جل وعز بين عباده ففي عنقه دون الخلق حتى يفى به إن كان ما تكلم به إلا لجهة كذا وكذا وتأويل كذا وكذا. قال: فنبسم المأمون وقال: اجلس، إني والله ما ذهبت حيث ظننت وما كنت لأعفو عن الكل وأخذ بالجزء، ولولا أنني في مجلس يرقّ عن الإغضاء على أكثر الحالات ثم بلغ مني رجل ما يبلغ من عبده ما وجد عندي إلا الصفح والعفو، وما أحسبني أوجر عليه إذ كان لا يؤثر في وإنما الأجر بقسط الألم وميزان المضض.

وعن بعضهم أن والياً أتى برجل قد جنى جناية فأمر بضربه، فلما مُدّ قال: بحق رأس أملك إلا عفوت عني! فأبى. فقال: بحق عينيه! قال: اضرب. قال: بحق خديها ونحرها! قال: اضرب. قال: بحق ثدييها! قال: اضرب. قال: بحق سرّتها! قال: دعوه لا ينحدر إلى أسفل.

### مساوئ تعدي السلطان

قال: قال جميل بن بصهري: إياك أن تصحب السلطان بالجرأة عليه والتقصير في المعرفة بقدره والنهوان بأمره، ولتكن صحبتك له بالحذر وشدة التوقي كما تصحب الأسد الضاري والفيال المغتلم والأفعى القاتلة، ولا تصحب الصديق إلا بالتواضع ولين الجانب، واصحب العدو بالحجة فيما بينك وبينه والإعذار عليه، واصحب العامة بالبر والبشر الحسن. وقد قيل: سيع غشوم خير من والٍ ظلوم. وحدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال: أتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج وعنده عمر بن عبد العزيز وخالد بن الريان فقال له الوليد: ما تقول في أبي بكر؟ قال: صاحب نبي الله في الغار وثاني اثنين رحمة الله وغفر له. قال: فما تقول: في عمر؟ قال: هو الفاروق رحمة الله وغفر له. قال: فما تقول في عثمان؟ قال: كان سنين من خلافته ملازماً للعدل. قال: فما تقول في مروان بن الحكم؟ قال: لعن الله ذاك. قال: فما تقول في عبد الملك؟ قال: ذلك ابن ذاك لعن الله ذاك. قال: فما تقول في؟ قال: بنيّ ذينك وأنت شرّ الثلاثة. فقال: يا عمر ما تقول فيما تسمع؟ قال: يا أمير المؤمنين ما أحد أعلم بهذا منك وأنت أعلى به عيناً. فألح عليه والله لتقولنّ، فقال: أما إذا أبيت يا أمير المؤمنين إلا أن أقول فسبّ إياه كما سبّ إياك وأن تعفو أقرب للتقوى. قال: ليس إلا هذا. قال: لا يا أمير المؤمنين إلا أن تدخلك جبرية، فأما الحق فليس إلا هذا.

فالتفت إلى خالد بن الريان وهو قائم على رأسه ثم قام وهو غضبان. فقال خالد: والله يا عمر لقد نظر إليّ أمير المؤمنين نظرة ظننت أنه سيأمرني بضرب عنقك. قال: ولو أمرك كنت تفعل؟ قال: إي والله. قال: أما إنه كان يكون شراً لكما وخيراً لي.

ثم سكت عنه وبقي ذلك في قلبه، فلما قام الوليد من مجلسه دخل على امرأته أم البنين بنت عبد العزيز وهي أخت عمر فقال: أخوك الحروري والله لأقتلنه.

فمكث أياماً وعمر في منزله لا يحضر الباب ولا يلتمس المعذرة، فأتاه رسول الوليد وقت القائلة فدعاه، فلما دخل من باب القصر عدل به إلى بيت فادخل فيه وطمّن عليه الباب. فرجع صاحب دابته إلى أهله فأخبرهم فأخبروا أخته بذلك فبحثت عن خبره فلم تجد أحداً يخبرها بخبره وذلك يوم الثالث. فقيل لها: إن فلاناً الخصي يعلم علمه. فأرسلت إليه فأعلمها بموضعه. فدخلت على الوليد فناشدته الله والرحم وقبّلت يده. فقال: قد وهبته لك إن أدركته حياً قال. ففتحوا عنه الباب فوجدوه قد انثنى عنقه فحملوه إلى منزله وعالجوه.



فلما توفي الوليد وكان سليمان بعده فهلك وتولى عمر الخلافة جاء خالد بن الريان في اليوم الذي استخلف فيه عمر، رحمه الله، متقلداً سيفه، فقال له عمر: يا خالد انطلق بسيفك هذا فضعه في بيتك واقعد فيه فإنه لا حاجة لنا فيك، أنت رجل إذا أمرت بشيء فعلته لا تنظر لدينك. فلما ولي خالد نظر عمر في قفاه فقال: اللهم يا رب إني قد وضعتك لك فلا ترفعه أبداً. فما لبث إلا جمعة حتى ضربه الفالج فقتله.

قال: ولما قالت التغلبية للجحاف بن حكيم في وقعة البشر: فضّ الله عمادك، وأطال سهادك، وسلبك حياتك، فوالله لئن قتلت إلا نساءً كالدمى أو أسافلهنّ دمي وأعاليهنّ تديّ. فقال لمن حوله: لولا أن يلد منها حكيم خلّيت سبيلها. فبلغ ذلك الحسن البصري فقال: إنما الجحاف جذوة من نار جهنم. قيل: ولما بنى زياد البيضاء بالبصرة أمر أصحابه أن يسمعوا من أفواه الناس، فأتي برجل قيل إنه تلا: " أتبنون بكلّ ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلّدون ". فقال: ما دعاك إلى هذا؟ قال: آية من كتاب الله عز وجل حضرت. قال: والله لأعلمنّ فيك الآية الثانية: " وإذا بطشتم ببطشتم جبارين ". فأمر فبني عليه ركن من أركان القصر.

قيل: إن الحجاج لما أتى المدينة أرسل إلى حسن بن حسن فقال: هات سيف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ودرعه. فقال: لا أفعل. قال: فجاء الحجاج بالسيف والسوط والعصا فقال: والله لأضربنك بهذه العصا حتى أكسرها! ثم قال: لأضربنك بهذا السوط حتى أقطعه، ثم لأضربنك بهذا السيف حتى تبرد أو تأتيني بهما! فقال الناس: يا أبا محمد لا تتعرض لهذا الجبار. قال: فجاء الحسن بسيف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ودرعه فوضعهما بين يدي الحجاج. فأرسل الحجاج إلى رجل من آل أبي رافع فقال له: هل تعرف سيف رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ فخلطه بين أسيفه ثم قال: أخرجه، فأخرجه. ثم جاء بالدرع فنظر إليها فقال: هناك علامة كانت على الفضل بن العباس يوم اليرموك فطعن بحربة فخرقت الدرع. فرفعناها فوجدنا الدرع على ما قال. فقال الحجاج للحسن: أما والله لو لم تجئني به وجئت بغيره لضربت به رأسك.

وذكروا أن الحجاج قال يوماً لحاجبه: اعسس الليلة بنفسك فمن وجدته فجئتني به، فلما أصبح أتاه بثلاثة نفر، فقال الحجاج لواحد منهم: ما كان سبب خروجك بالليل وقد نادى منادٍ ألا يخرج أحد ليلاً؟ فقال: أصلح الله الأمير! كنت سكران فغلبني السكر فخرجت ولا أعقل. ففكر الحجاج ساعة ثم قال: سكران غلبه سكره خلّوا عنه لا تعودنّ. وقال للآخر: فأنت ما كان سببك؟ قال: أصلح الله الأمير! كنت مع قوم في مجلس يشربون فوقع بينهم عريضة فخفت على نفسي فخرجت. ففكر الحجاج في نفسه ثم قال: رجل أحبّ المسألة خلّوا عنه. ثم قال للآخر: ما كان سبب خروجك؟ قال: لي والدة عجوز وأنا رجل حمّال فرجعت إلى بيتي فقالت والدي: ما ذقت اليوم طعاماً، فخرجت ألتمس لها ذلك فأخذني عسس الأمير. ففكر ساعة ثم قال: يا غلام اضرب عنقه. فإذا رأسه بين رجليه.

محاسن الخليم

حكى عن أنوشروان أن وفوداً وردوا عليه من قبل الملوك فأتوه واستأذنوا، فأمر رجلاً من بطانته أن يأتيه بتاجه. فأقبل الرجل بالتاج فارتعشت يده وسقط التاج من يده فانكسر وذلك بعين كسرى. فغض طرفه لئلا يريه.

فتناول الرجل التاج وقال له كسرى: لا بأس عليك! انطلق إلى الحاجب ومره أن يصرف الوفود في هذا اليوم. وحكي عنه أيضاً أنه دعا كاتبه وعرض عليه كتاباً ورد عليه من قبل أصهبذ خراسان فيه أخبار من أخبار الترك فجعل يؤامره فيها وإن رهطاً من خاصته قاموا خلف سريره فتسمعوا عليه فعطس واحد منهم فالتفت كسرى ونظر إليهم وقال: لا ينبغي أن تسمعوا سر الملك، وقد صفحت عنكم فلا تعودوا لمثل ذلك.

قال: وقال رجل من قريش: ما أظن معاوية أغضبه شيء قط. فقال بعضهم: إن ذكرت أمه غضب. فقال مالك بن أسماء المتى القرشي: أنا أغضبه إن جعلتم لي جعلاً. ففعلوا. فأتاه في الموسم فقال له: يا أمير المؤمنين إن عينيك لتشبهان عيني أمك. قال: نعم كانتا عينين طال ما أعجبتنا أبا سفيان. ثم دعا مولاه شقران فقال له: اعدد لأسماء المتى دية ابنها فإنني قد قتلته وهو لا يدري. فرجع وأخذ الجعل. فقيل له: إن أتيت عمرو بن الزبير فقل له مثل ما قلت لمعاوية أعطيناك كذا وكذا. فأتاه فقال له ذلك فأمر بضربه حتى مات. فبلغ معاوية فقال: أنا والله قتلته. وبعث إلى أمه بديته وأنشأ يقول:

ألا قل لأسماء المتى أم مالكٍ ... فإنني لعمر الله أهلكت مالكا

قيل: وجاء رجل إلى الأحنف بن قيس فلطم وجهه فقال: بسم الله يا ابن أخي ما دعاك إلى هذا؟ قال: آليت أن أطم سيد العرب من بني تميم. قال: فبرّ يمينك فما أنا بسيدها، سيدها حارثة بن قدامة! فذهب الرجل فلطم حارثة فقام إليه حارثة بالسيف فقطع يمينه. فبلغ ذلك الأحنف فقال: أنا والله قطعته.

وعن إسحاق بن إسماعيل قال: حدثني أبي أنه كان يتغدى مع يحيى بن خالد البرمكي يوماً إذ طلب أرزاً اشتهاها فأمر الطباخ باتخاذها بدهن النارجيل فغلط الطباخ وجعل مكان الدهن نفعاً وأتاه بما. فلما وضع يده فيها قال: ارفع. ولم يقل شيئاً سوى ذلك.

وحكى جعفر ابن أخت أبي العباس قال: دخلت على المأمون ويداها معلقتان من شيء رطب أكله قد مسته النار وهو يصيح: يا غلام. وكلهم يسمع صوته فما منهم أحد يجيبه. فخرجت إليهم وأنا أفور غضباً فإذا بعضهم يلعب بالشطرنج وبعضهم بالكعب وبعضهم يهارش الديوك. فقلت: يا بني الفواعل أما تسمعون أمير المؤمنين يدعوكم؟ فقال واحد: حتى أقيس هذا الكعب. وقال الآخر: قد بقيت على ضربه. وقال آخر: امض فإنني أتبعك. فما علمت ما أخاطبهم به من الحنق عليهم، فإذا المأمون قد صوّت بي وأنا أقذف أمهاتهم. فأتيته وهو يضحك. فقال: ارفق بهم فإنهم بشر مثلك. فقلت: تقول هذا وأنت معلق اليد؟ فقال: وهذا معاشرتك خدمك؟ فقلت: والله لو فعل بي هذا ولدي من دون خدمي لقتلته! قال: هذه أخلاق السوق وأخلاقنا أخلاق الملوك.

فقلت: لا والله ما هذه أخلاق الملوك ولا أخلاق الأنبياء عليهم السلام.

وقال ثمامة بن أشرس: والله إني لفي مجلس المأمون وعنده عمرو بن مسعدة وأبو عباد والعباسي ومحمد بن أبي محمد اليزيدي إذ دخل عليّ بن صالح فقال: محمد بن الفضل بن سليمان الطوسي بالباب. قال: يدخل. فدخل وسلم وفي يده كتاب فأشار به إلى المأمون. فقال المأمون: اذكر ما فيه. فقال: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك سر من أسرار الخليفة لا يحتمل إذاعته! قال: وإن كان ذلك فاذكره. قال: يا أمير المؤمنين لست فاعلاً! قال: يا هذا ما محضرتنا من نكتمه أسرارنا فأبد ما عندك. فأعاد محمد بن الفضل مثل قوله الأول والثاني. فقال المأمون إني لأعلم ما في كتابك! قال: هذه كهانة! قال: فنزل المأمون عن فرشه ورفع ستراً كان في ظهر مجلسه ودخل

وأشار إلينا وقال: لا تبرحوا. فجاء علي بن صالح فأخذ بيد الطوسي وقال: قم فأنت أشأم من البسوس. فأقعدته خلف حائط بقرب المجلس لكي إن خرج لا يراه وإن دعاه أحضره. قال: فجعل كل واحد منا يرجف بجنس من المكروه وكلنا خائفون عليه، فواحد يقول: يأخذ الساعة أمواله وينفيه. وآخر يقول: يضرب عنقه. قال: فأبطأ علينا المأمون ثم خرج ووجهه مسفر ضاحكة سنّه، فقال: سمعتم ما كلمني به هذا الخائن، إنه والله لما بلغ مني كلامه لم أجد بداً ولا دواء إلا ملاعبة الجواري والنساء ليزول عني ما قد تداخطني، وقد أسمعني ما أكره بضع عشرة مرة واحتملته.

### مساوي من سخط عليه وحبس

في الحديث المرفوع قال: شكوا يوسف، عليه السلام، إلى ربه جل وعز طول الحبس وأوحى الله تبارك وتعالى إليه: أنت حبست نفسك حيث قلت رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، ولو قلت العافية أحب إلي عوفيت.

قال: وكتب يوسف على باب السجن: هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء. ودعا لأهل الحبس بدعوتين هما معروفتان فيهم إلى اليوم: اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخيار. فكل الناس يرحمهم والأخبار من كل جهة عندهم.

قال: ولما خرج جعفر الأحمري من الحبس وأدخل على المهدي في الحديد قال له: يا فاسق أزلك الشيطان وأغواك، وفي غمرة الجهل أرداك، وعن الهدى بعد البصيرة أعماك، حتى تركت الطريقة ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة، كيف رأيت الله كشف أمرك وأعلن فسقك وأظهر ما كنت تخفي من سقم سريرتك وخبت نيتك فأوردك حوض منيتك وذلك بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد! قال جعفر: لا والذي لم يزل بعباده خبيراً، وبعث محمداً، عليه وعلى آله السلام، بالحق بشيراً، طهر أهله من دنس الريب تطهيراً، ووقفني بيد يديك أسيراً، وجعلك علينا سلطاناً أميراً، ما خنت الإسلام نقيراً، ولا أضللت الهدى منذ كنت بصيراً، فلا تقدم عليّ بالشبهة تقديراً، بسعي ساع سوف يجزي بسعيه سعيراً.

فقال المهدي: ما يغني عنك وسواسك، فما تهذي من أم رأسك، قد تناهت إلي أخبارك، وأداها من كان يقفو آثارك، ويعرف أسرارك، ومن بايعك من أعوانك الذين وازروك على ضلالك، فأقلل، لا أم لك، تشجعك، فقد حلّ قضاؤك، وحان حصادك.

فقال جعفر: إن تقتلني تقتل مني علماً فلا تجعل لي على ظهرك وزراً فأصير لك يوم القيامة خصماً، وأنت تعلم أنك لا تجيء بقتلي عدلاً ولا تنال به فضلاً، فاتق الذي خلقك وأمر عباده ملكك وبالعدل فيهم أمرك، ولا تحكم عليّ بحكم عن الهدى مائل، فإنك للدنيا مفارق وعنهما راحل، وكل ما أنت فيه فمضمحل زائل.

قال له المهدي: تطالبي وأنت المطلوب، وبياطلك تغلب حقي وأنت المغلوب، الآن ظهر فسادك، وبلغ غرسك، ودبت عقاربك، اللهم إلا أن تقرّ بذنبك وتعترف بجرمك وتتوب إلى ربك وتحقن بالإناة دمك، فإن فعلت ذلك أمهلنا أمرك وأطلنا حبسك وإلا فاحتسب نفسك ولا تلم إلا جهلك.

قال جعفر: ما لي ذنب فأستغفر ولا جرم فأعترف ولا لي بك قوة فأنتصر، وأنت على ظلمي مقتدر، فإن كنت

تعلم أن ما بعد الموت مصدر ولا للعباد بعد البلى محشر ولا للظالم موعد يخاف منه ويجذر فاعمل من هذا ما شئت واستكشر.

قال المهدي: لا والذي بمكة بيته الحرام، وحوله الشعث العاكفون قيام، ما أخشى في إقامة الأحكام عليك وعلى أشباهك إثماً ولا زوراً، فاستسلم للقتل ودع الكلام، فإنه إذا عقر الأساس تداعى النظام، وإذا انكسرت القوس تعطلت السهام، وأنت فطال ما أعنت على إطفاء النور بريح الظلام.

قال جعفر: اعف فإنك كريم جواد سامح، ولا تقبل في قول العدو الكاشح، فإني من الإسلام على الطريق الواضح، رفيق على أهله ولهم ناصح، أبرّ العالمين بفهم راجح، فلا تقدم عليّ بقول كلب نابح، فقتلك إياي عمل غير صالح.

قال المهدي: مذهبك واعتقادك تزعم أن الآخرة بعد فراق الساهرة، وأن الناس كانوا أعلاماً زاهرة، وأشجاراً ناضرة، وزروعاً غاضرة، تلبث يسيراً ثم تعود هشيماً، وإن من مات لا يعود كما أن ضوء المصباح إذا طفيء لا يرجع.

قال جعفر: لا والذي يخلق ويبيد، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، ما قلت ذلك وهو له شهيد، وإني أخلص له التوحيد والتفريد والمشية والتحديد، وأشهد أنه الغفور الودود، يعلم منقلب العبيد.

قال المهدي: إن كنت تحب خلاص نفسك ورقبتك فأحضري كتاب زندقتك الذي بالجهل ألفتته وبالباطل زينته وبالضلال زخرفته، سميته أسّ الحكمة وبستان الفلسفة، زعمته مستخرجاً من ديوان الإلهام منظماً بحسن الكلام، عتقت فيه الإسلام وأضللت فيه الأنام.

فقال جعفر: لا والذي خلق الظلمات والنور، ودبرّ الأمور وهو قادر على أن يبعث من في القبور، ما هذا إلا إفك مجترح وزور، وإن ديني لظاهر منير تقديمي ذرية من هو مع الله جل وعز في كل فرض لازم أمام النبيين في البيت المعمور، فاتق الذي خلقتك وأمر عبادك قلّدتك يعلم خفيات الأمور.

قال المهدي: وأصفح لك عن هذا فما حجبتك في كتابك الذي أضلّ أهل الشقاق والنفاق ومن منهم في الأندية والأسواق يقرأونه ويتدارسونه في الآفاق، أما بعد أعلمكم أن الله جل وعز عدل لا يوالي الظالمين ولا يرضى فعال الجاهلين، وأنه ليس لله بوليّ من رضي بأحكام الجائرين، فسيحوا في الأرض حيث لا تنالكم أيدي المعتدين، فإن بني العباس طغاة كفرّة، أولياؤهم فسقة وأعوأهم ظلمة، دولتهم شرّ الدول، عجّل الله بوارهم وهدم منارهم والعاقبة للمتقين.

قال جعفر: هذا والله بهتان عظيم جداً قدفني به قاذف عمداً وأنت تعلم أني ما خالفت لكم أمراً ولا غبت منكم أحداً، فاقبل المذرة وأقل العثرة وتغمد الهفوة واغتفر الزلة فإنك راعٍ مسؤول.

قال المهدي: أولم أبلغ أنك في الغوغاء تحثهم على شق العصا ومخالفة الأمر وتحيدهم عن طاعة الخلفاء، فأبي داهية أدهى منك؟ قال جعفر: ما بُلغت حقاً ولقد طوى النصيحة من أودع قلبك بهتاناً وإفكاً فلا تقبل في قول من ظلم واعتدى وبفسادي إليك سعي، فإن الله جلّ وعز سائله يوم يودّ الظالم يا ليتته لم يكن أميراً، ولا كان المضلّ له وزيراً.

قال المهدي: إنك لجاهل أن تقيم اعوجاجك بكثرة احتجاجك، هيهات لا يكدر صفوتي مزاجك، وقد قيل: من ظفر بحية لا يأمن لسعها ثم لم يشدخ رأسها كانت سبب حتفه، ولعمري إن من يكون له عدو مثلك يرقب غرّته

وينتظر فورته ولا يطلق يده بقتله لعاجز .

قال جعفر: وما بلغ الله بقدر النملة ونكاية الحلة وإنما يكتفي مثلي من مثلك بلحظة، فالكرماء رحماء بررة، والقسوة في اللثام الشررة. قال المهدي: من تنته أيامه لاحت في الظلام أعلامه وأسرع به أن يذوق حمامه، يا غلام سيفاً قاطعاً وضارباً حاذقاً! قال جعفر: إن كنت تؤمن بالمعاد وتتقي من الحشر يوم التناد، يوم يجمع الله فيه العباد، تعلم أن طالب ثأري لك بالمرصاد، ومن لم يكن له في الموت خير فلا خير له في الحياة، إن قدّمتني أمامك فأنا قاعد لك على الجادة التي ليس عنها مرحل الحاكم يومئذ غيرك .

قال: فسكت المهدي طويلاً ثم التفت إلى أصحابه فقال: كيف أقدم على قتل رجل لا يخاف مكيدتي ولا يرعبه سلطاني ولا يتقي سطوتي وأعواني، يناصيني كلامي ويفسخ احتجاجي، كيف ولو كنا بين يدي من لا يخاف جوره ولا يُتقى ميله وحيفه كان لسانه أمضى وقلبه أجرى وخصمه أذلّ! خلّوا سبيله. فمضى .  
وحكي عن عدي بن زيد أنه كان ترجماناً بين كسرى وبين العرب وأنه أشار على كسرى بتولية النعمان بن المنذر الملك، وكان له عبد يُعرف بعديّ بن قيس فوشى إلى النعمان بعديّ بن زيد وذكر أنه كان السبب في تمليكك، فسجنه النعمان وسخط عليه وتغير له وحبسه. فكتب عديّ بن زيد إلى النعمان يستعطفه:

أبا منذرٍ جازيتني الودّ سخطةً... فماذا جزاء الجرم المتبعض  
وإن جزاء الحرّ منك كرامةٌ... وليس بنصح فيك بالمتعرض  
فلم يحفل النعمان بقوله. فقال يذكر حيسه:

إن للدهر صولةً فاحذرئها... لا تبيتنّ قد أمنت الدهورا  
قد يبيت الفتى صحيحاً فيردى... ولقد بات آمناً مسرورا  
إنما الدهر لئبٌ ونطوحٌ... يترك العظم واهناً مكسورا  
فسل الناس أين آل قبيسٍ... طحطح الدهر قبلهم ساورا  
خطفته منيةً فتردى... وهو في ذاك يأمل التعميرا  
ولقد عاش ذا جنودٍ وتاجٍ... ترهب الأسد صوله والزئيرا  
وبنو الأصفر الكرام ملوك ال... روم لم يبق منهم مذكورا  
ثم إن عدياً كتب إلى صاحب له مقيم بباب كسرى يقال له أبيّ:

فأبلغ أيباً على نأيه... وهل ينفع المرء ما قد علم  
بأن أحاك شقيق الفؤاد... يكاد لنأيك أن يخترم  
لدى ملكٍ موثقٍ بالحدى... د إما بحقٍ وإما ظلم  
فلا تلفينّ كثير الرق... د بل اصرم الرأي ثم اعترم

فلما قرأ هذه الأبيات دخل على كسرى فأخبره بما كان من النعمان إلى عديّ، فغضب كسرى وبعث برجل من مرازبته إلى النعمان أن يطلق عدياً ويبعث به إليه. فأقبل الرسول حتى دخل إلى النعمان وأدى إليه رسالة كسرى.

فقال: نعم أنا أطلقه. ودسّ إلى عديّ من قتله ثم قال للرسول: ادخل السجن حتى تخرجه. فلما دخل إليه وجده

ميتاً، فرجع إلى النعمان وقال له: عجلت عليه وقتلته وأنا مخبر كسرى بذلك. فوصله بألف دينار وسأله تحسين أمره عند كسرى. فانصرف الرسول فأخبر كسرى بموته.

وكان لعديّ ابن يقال له زيد، فخاف النعمان على نفسه فهرب من الحيرة حتى أتى المدائن فدخل على كسرى وتعرّف له فقربه وبرّه. فقال لكسرى ذات يوم: أيها الملك إن لعبدك النعمان ابنة يقال لها حرقة وأختاً تسمى سعدى وابنة عم تسمى لباب وليس في جميع الأقاليم أحسن منهنّ. فكتب كسرى إلى النعمان أن يحمل إليّ ابنتك حرقة وأختك سعدى وابنة عمك لباب على يدي خادماً له. فقال زيد: أيها الملك ابعث بي مع الخصي.

فقال: اخرج على اسم الله وعجلّ علي بالنسوة. فخرجا حتى قدما الحيرة فدخلا على النعمان ودفعا إليه الكتاب. فلما قرأه قال: أما في عين السواد وفارس ما يغني الملك عن العربيات السود الأبدان الحمش السيقان؟ فقال الخادم لزيد: ما يقول النعمان؟ قال: يقول: ما في بقر فارس والسواد ما يغني الملك عن العربيات؟ فخرج الخادم حتى أتى كسرى فأخبره بما سمعه من النعمان وقال: أيها الملك إن الكلب الذي بعثت بي إليه قد سمن وتعدى طوره. فوقع ذلك في قلب كسرى وغضب على النعمان ودعا إياس بن قبيصة الكنانيّ وولاه مكان النعمان فأمره أن يكبل النعمان بالحديد ويبعث به إليه، فبلغ ذلك النعمان فاستودع أهله وولده وخزائنه وسلاحه وابنته حرقة وخيله عند هانيء بن مسعود المزدلف ثم خرج حتى أتى المدائن فلقي زيد بن عدي فقال له: يا ابن اللخناء لئن بقيت لك لألحقنك بأبيك! فقال له زيد: أما والله بنيت لك عند الملك بنية لا تصلح بعدها أبداً. ثم دخل على كسرى ودخل زيد بعده. فقال زيد: أيها الملك إن هذا العبد إذا جلس على سريره ووضع التاج على رأسه ودعا بشرايه لم يظن أن لك عليه سلطاناً. فأمر كسرى بالنعمان أن يلقي بين أرجل الفيلة، ففعل به ذلك فداسته الفيلة وقتلته، وهيح ذلك حرب ذي قار.

وحدث الهيثم بن الخليل الشيعي، وكان موثقاً بحبس البرامكة من قبل هرثمة بن أعين، قال: أتى مسرور الخادم الحبس يوماً ومعه خادم في يد بعضهم منديل ملفوف على شيء، فأمرني بإخراج الفضل بن يحيى، فأخرجته.

فقال: إن أمير المؤمنين يقول لك اصدقني وإلا فقد أمرت مسروراً أن يضربك مائتي سوط. فنكس رأسه ساعة. فقال له مسرور: يا أبا العباس الرأي لك أن لا تؤثر مالك على مهجتك فإني لا آمن إن نفذت ما أمرني به أن آتي عليك، ومع هذا فإن صرت إلى رضى أمير المؤمنين فإن المال يأتيك كما أتاك وإن يك غير ذلك فما حاجتك إلى المال؟ فرفع رأسه وقال: والله يا أبا هاشم ما كذبت أمير المؤمنين ولا كذبتك، لو كانت الدنيا لي ثم خيّرت بين الخروج منها وبين أن أقرع بمقرعة بسببها لاخترت الخروج منها، وأمير المؤمنين يعلم وأنت تعلم أي كنت أصون عرضي بمالي فكيف أصون الآن نفسي بمالي! فإن كنت أمرت بشيء فامض له.

فأمرنا بالمنديل فنفض وسقط منه سباط بشمارها، فضربه مائتي سوط، وتولى ضربه الخدم فضربوه أشدّ ضرب ولم يحسنوا أن يضربوه فضربته الحمرة وخيف عليه. فقيل له: هاهنا فتى كان في الحبس هو بصير هذا. فأتيته فسألته فقال: لعلك تعالج الفضل بن يحيى فقد بلغنا خبره. قلت: نعم. قال: فامض بي إليه. قلت: وتجسر على ذلك؟ قال: نعم والله لو قُطعت. فجئت به فلما رآه قال: ليس بشيء، ضرب خمسين سوطاً! قلنا: بل ضرب مائتين! قال: هذا أثر خمسين، واحتاج أن أنيمه على بارية وأدوس صدره. فجزع الفضل من ذلك وأبى أن يفعل، فخوفناه تلف نفسه وناشدناه حتى فعل، فأخذ بيده بعض من حضر وأخذت بيده الأخرى ثم جرناه على البارية

فإذا عليها صورته من لحم ظهره. فقال: لا بد لي من أن أعيده. فأعاده. ثم اختلف إليه، فبينما هو ينظر إليه يوماً إذ خرّ ساجداً فقلت: ما لك؟ قال: برأ أبو العباس بإذن الله. فدنوت فأراني في ظهره لحماً ناتماً كهيئة الدعاميص الحمر ثم قال: أتخفظ قولي إنه أثر خمسين سوطاً؟ لو ضرب ألف سوط ما كان أثرها بأشد من ذلك، ولكني قلت ما قلت لتقوى نفسه فيعيني على علاجه. وخرج.

وسألني الفضل أن ألقى بعض إخوانه وأعلمه أنه يحتاج إلى عشرة آلاف درهم. فأتيت بعض إخوانه وأعلمته أنه يحتاج إلى عشرة آلاف درهم. فسألني أن أحملها إليه وأمرني بدفعها إلى الرجل الذي عاجله. فلما مضيت بها إليه وجدته غائباً عن منزله ورأيت بابه مغلقاً فملت إلى مسجد هناك منتظراً له حتى عاد فقممت إليه ودخلت منزله فإذا بيت فيه حصيران ومسورتان وطبور وثلاث دساتيج وقناني وأقداح. فقال: ما حاجتك؟ فأقبلت أعتذر إليه وأذكر حاله ثم أعلمته ما وجهني له. فنخر نخرة حتى أفرغني ثم قال: عشرة آلاف! فجهدت الجهد كله به أن يقبلها فأبى، فعدت إلى الفضل فأعلمته. فقال: إنه استقلها والله! قلت: لا أظن. قال: بلى وإلا فما معنى قوله عشرة آلاف درهم! ولكن تعود إلى صاحبنا وتسأله عشرة آلاف أخرى وتحملها إليه.

فحملتها إلى الرجل فنخر نخرة أشد من نخرته الأولى ثم قال: أنا أعالج فتى من الأبناء بكراء، أنا طيب! والله والله لو كانت عشرة آلاف دينار ما قبلتها. فخرجت من عنده وسألت عن معيشتها فقيل: له برج يصعد إليه في كل يوم فيبيع فراخه وصيده ويعتكف على ما تراه. فرجعت إلى الفضل وأخبرته فتعجب ثم قال: أخبرني بأعجب ما رأيته منا وأحسنه. فاندفعت أحدثه. فلما رأى إطنابي قال: بالله أينما أحسن أفعالاً نحن أم هذا الفتى؟ فإذا هو يستقيح أفعالهم مع فعله ويستصغرها.

قال: ودخل ابن الزيات على الأفشين وهو محبوس مكبل بالحديد فقال:

اصبر لها صبر أقوام نفوسهم ... لا تستريح إلى عقل ولا قود

فقال الأفشين: من صحب الزمان رأى الكرامة والهوان. ثم قال:

لم ينج من خيرها أو شرها أحد ... فاذا شأبيها إن كنت من أحد

خاضت بك المنية الحمقاء غمرتها ... فتلك أمواجه ترميك بالزبد

الشعر الأول والثاني لأبي سعد المخزومي. قال حمدون بن إسماعيل: بعث الأفشين إلى المعتصم من الحبس أن يا أمير المؤمنين مثلي ومثلك مثل رجل ربى عجلاً له حتى أسمنه وكبر وحسنت حاله وكان له أصحاب اشتها أن يأكلوا من لحمه فعرضوا له بذبح العجل فلم يجيبهم إلى ذلك، فاتفقوا جميعاً على أن قالوا له ذات يوم: ويحك لم تر هذا الأسد وقد كبر؟ والسيح إذا كبر رجع إلى جنسه. فقال لهم: هذا عجل! فقالوا: هذا سيح سل من شئت عنه، وقد تقدموا إلى جميع من يعرفه أنه إن سأهم عنه قالوا هو سيح. فأمر بالعجل فذبح. ولكني أنا ذلك العجل كيف أقدر أن أكون أسداً؟ الله الله في أمري فقد وجب حقي وأنت سيدي ومولاي! فلم يلتفت المعتصم إلى رسالته، وغلظ عليه الأمر حتى قيل إنه قد مات، فقال المعتصم: أروه ابنه. فأخرجوه مكبلاً بالحديد فطرحوه بين يديه، فلما رآه نتف لحيته ودعا بالويل والثبور ثم ردوه إلى منزل إيتاخ، وكان يطعم في كل يوم رغيفاً حتى مات فأخرجوه وصلبوه على باب العامة ثم أحرق ورمي به في دجلة.

قيل: وكان العجيف بن عنبسة ممن خرج مع العباس بن المأمون على المعتصم وسعى في الخلاف عليه، قال:

فحدثنا أبو طالب قال: كنت مع محمد بن الفضل الجرجاني فالتفت إلى رجل عنده فقال: حدث أبا طالب بما حدثني به. فأقبل عليّ الرجل يحدثني. فسألت عنه فقيل: هو عمر بن عمرو القرقرارة الكاتب. قال: كنت أتقلد ضياع عجيف بناحية كسكر فرفع عليّ أي خربت ضياعه فكتب في حملي، فأدخلت عليه في داره التي بسر من رأى وهو يطوف على الضياع وعلى رأسه برطلة خوص، فلما نظر إليّ قال: أخربت ضياعي وأخذت أموالى والله لأقتلنك! ودعا بالسياط، فبلت فرقاً منه، فكأني أنظر إلى البول يأخذ في سراويلي يميناً وشمالاً، وأومأت إلى الكاتب فالتفت الكاتب إلى عجيف فقال: أيها الأمير أنت مشغول القلب بما يحتاج أن تأمر به وتشرف عليه وهذا في أيدينا فإن كان ما رفع عليه حقاً فالأمير من وراء ذلك وإن كان باطلاً لم تأثم فيه. فقال: الحبس. فلبثت في الحبس أياماً فوجه إليّ كاتب عجيف فأتيته، فقال لي: طاب لك المكان. ما معك؟ فبررته بشيء فأطلقني. فقلت لغلّامي: قد نالنا من الحبس والغرم ما نالنا، وصديقي فلان بن فلان صاحب الديوان أحتاج أن ألقاه لعل الله عز وجل أن يسهل عملاً.

فشخص فيه. فأتيت صديقي ذلك فقال لي: أنت في الحياة! هاهنا عملٌ في ديار ربيعة أقدكته. فتقلدته وخرجت أنا وغلّامي فما زلت أسير حتى أتيت باعيناثا، فغمزني البول في السحر وهي مقمرة فنزلت عن دابتي وجلست وأنا أبول فقلت لغلّامي: ويحك لكأني أبول في ثيابي فاطلب لي ماء. فقال: الناس نيام. فلم أزل واقفاً حتى خرج بعض أوائل الأنباط فطلب الغلام منه ماء فجاء به فجعل هو والغلام يصبان عليّ الماء وأنا أغسل ثيابي. فقال لي النبطي: وأين بلت؟ قلت: هاهنا. قال: هذا نطع عجيف! قلت: عجيف! قال: نعم. قلت: ما يعمل عجيف هاهنا؟ قال: أو ما بلغك أن أمير المؤمنين بعث إليه بشرية فأقامته ثلاثمائة مجلس فمات فلُفّ في نطع وما هوذا؟ فصبرت حتى أصبحت فنظرت إلى النطع فقلت: لا إله إلا الله! بينا أنا بالأمس بين يديه أبول من فرقة حتى جئت فبلت عليه.

قيل: وسخط المعتصم على الفضل بن مروان فأمر بحبسه وتقييده واستئذائه ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار ورفعت فيه القصص، فأقبل أحمد بن عمار يقرأها فوقعت في يده قصة في نصف طومار فإذا فيها شعر، فتوقف عن قراءتها. فقال: ما توقفتك؟ قال: إنه شعر. قال: هاته. فإذا فيها:

لا تعجبنّ فما بالدهر من عجب ... ولا من الله من حصنٍ ولاهرب  
يا فضل لا تجزعن مما ابتليت به ... من خاصم الدهر أجنّاه على الركب  
كم من كريمٍ نشأ في بيتٍ مكرمةٍ ... أتاك محتقناً بهمّ والكرب  
أوليته منك إذلالاً ومنقصَةً ... فخاب منك ومن ذي العرش لم يجب  
وكم وثبت على قومٍ ذوي سرفٍ ... فما تلعثمت عن زور وعن كذب  
خنت الإمام وهذا الخلق قاطبةً ... وجرت حتى أتى المقدور في الكتب  
جمعت شتى وقد أدبتها جملاً ... لأنت أخسر من حمالة الحطب

فقال المعتصم: لبدع صاحب القصة. فدعي فلم يجب. فقال: والله لو جاءني لدفعت إليه الفضل لينفذ فيه أمره. وقال بعضهم: رأيت على حائط دار الفضل بن مروان مكتوباً:

تفرعنت يا فضل بن مروان فاعتبر ... فمثلك كان الفضل والفضل والفضل



ثلاثة أملاكٍ مضوا لسبيلهم ... أبادهم التنكيل والحبس والقتل  
وإنك قد أصبحت في الناس لعنةً ... ستودي كما أودى الثلاثة من قبل  
قيل: وكان الواثق غضب على جعفر المتوكل أخيه لبعض أموره فأراد أن يقومه فوكل به عمر بن فرج، فأتى  
جعفر إلى محمد بن عبد الملك الزيات مستغيثاً به ليكلم أخاه، فدخل عليه فمكث ملياً واقفاً بين يديه لا يكلمه  
ثم أشار إليه أن يقعد، فقعد، فلما فرغ من نظره في الكتب التفت إليه شبيهاً بالمتهدد له فقال: ما جاء بك؟ قال:  
جئت لتسأل أمير المؤمنين الرضى عني. فقال لمن حوله: انظروا إلى هذا يغضب أخاه ثم يسألني أن أسترضيه!  
اذهب فإنك إذا أصلحت رضى عنك. فقام جعفر كئيباً حزيناً لما لقيه به من قبح اللقاء، فخرج من عنده.  
وكتب محمد بن عبد الملك إلى الواثق حين خرج جعفر من عنده: يا أمير المؤمنين أتاني جعفر بن المعتصم يسأل  
أن أسأل أمير المؤمنين الرضى عنه في زيّ المخنثين له شعر. فكتب إليه الواثق: ابعث إليه فأحضره ومر من يجزّ  
شعره ويضرب به وجهه.

فحدث عن المتوكل قال: لما أتاني رسوله لبست سواداً لي جديداً وأتيته رجاء أن يكون قد أتاه الرضى عني،  
فلما دخلت عليه قال: يا غلام علي بحجام. فدعي، فقال: خذ شعر هذا، فأخذه على السواد الجديد ولم يأتي  
بمديل، فأخذ عليه شعري وضرب به وجهي. فما دخلني شيء من الجزع مثل ما دخلني في ذلك اليوم. قال:  
فلما ولي جعفر الخلافة بعث إلى محمد بن عبد الملك فدعاه. فركب حتى أتى دار إيتاخ فأخذ سيفه وقلنسوته  
ودرّاعته فدفع إلى غلمانته وانصرفوا وهم لا يشكّون أنه مقيم عند إيتاخ. ثم سوهر ومنع النوم وسئل عن شيء  
يعذب به فدلّ على تنور من خشب فيه مسامير قيام. فحدثت عن أحمد بن أبي دؤاد أنه قال: هو أول من أمر  
بعمل التنور فابتلي به لصحة المثل: كما تدين تدان، وإن شئت: من يُر يوماً يُر به، وإن شئت: من حفر حفرة  
هوى فيها، فعذب في التنور.

فحدث المتوكل بعداه فقال: كنت أخرج وأقفل عليه الباب فيمد يديه إلى السماء جميعاً حتى يدق موضع كتفيه  
ثم يدخل التنور ويجلس وفي التنور مسامير حديد وفي وسطه خشبة معترضة يجلس المعذب عليها إذا أراد أن  
يستريح. قال المعذب له: فخاتلته يوماً وأريته أني قد أقفلت عليه ثم مكث قليلاً ودفعت الباب فإذا هو قاعد،  
فقلت: أراك تعمل هذا! فكنت إذا خرجت شددت خناقته، فما مكث بعد ذلك إلا أياماً حتى مات. فوجد على  
حائط البيت الذي كان فيه من قبل التنور:

لعب البلى بمعالي ورسومي ... ودُفنت حياً تحت ردم غموم  
وشكوت غمّي حين ضقت ومن شكاً ... كرباً يضيق به فغير ملوم  
لزم البلى جسمي وأوهن قوتي ... إن البلى لموكلّ بلزوم  
أبنيّ قلّي بكاءك واصبري ... فإذا سمعت بمالك مغموم  
فانعي أباك إلى نساته واقعدي ... في مآتم يبكي العيون وقومي  
قولِي له يا غائباً لا ترتجى ... حتى القيامة مخبراً بقدومي  
يا عين كنت وما أكلفك البكا ... حتى ابتليت فإن صبرت فدومي  
وقال في التنور الذي عذب فيه:

هيض عظمي الغداة إذ صرت فيه ... إن عظمي قد كان غير مهيض

ولقد كنت أنطق الشعر دهرًا ... ثم حال الجريض دون القريض  
وله أيضاً وهو يعذب في التنور، وقيل إنه آخر ما قاله:  
تمكنت من نفسي فأزمنت قتلها ... وأنت رخيّ البال والنفس تذهب  
كعصفورة في كف طفل يسومها ... ورود حياض الموت والطفل يلعب  
فلا الطفل يدري ما يسوم بكفه ... وفي كفه عصفورة تتصرب  
قال: وكان إسماعيل بن القاسم في حبس الرشيد فكتب إليه بسوء حاله. فكتب في رقعته: ليس عليك بأس.  
فكتب إليه:

أرقت وطار عن عيني النعاس ... ونام السامرون ولم يؤاسوا

أمين الله أمنك خير أمن ... عليك من التقى فيه لباس  
تساس من السماء بكل برّ ... وأنت به تسوس كما تساس  
كأن الخلق ركب فيه روح ... له جسد وأنت عليه راس  
أمين الله إن الحبس بأس ... وقد أرسلت ليس عليك باس  
فأمر بإطلاقه وصلته.

قيل: إنه لما غضب المتوكل على سليمان والحسن ابني وهب قال الحسن:  
أقول والليل ممدودٌ سرادقه ... وقد مضى الثلث منه أو قد انتصفا  
يا رب ألهم أمير المؤمنين رضى ... عن خادمين له قد شارفا التلغا  
لئن يكونا أساءا في الذي سلفا ... فلن يسيئا بإذن الله مؤتفا  
فرضي عنهما وأمر بإطلاقهما.

قال الكسروي: وقع كسرى بن هرمز إلى بعض المحتسبين: من صبر على النازلة كمن لم تنزل به، ومن طوّل له  
في الحبل كان فيه عطبه، ومن أكل بلا مقدر تلفت نفسه.

ووقع بعضهم لحبوس سأل الإطلاق: أنت إلى الاستيثاق أخرج منك إلى الإطلاق. وأنشد في هذا المعنى:  
ألا أحدٌ يدعو لأهل محلة ... مقيمين في الدنيا وقد فقدوا الدنيا  
كأنهم لم يعرفوا غير دارهم ... ولم يعرفوا غير الشدائد والبلوى  
وقال أعرابي:

ولما دخلت السجن كبر أهله ... وقالوا أبو ليلى الغداة حزين  
وفي الباب مكتوبٌ على صفحاته ... بأنك تنزو ساعةً وتلين  
ولا بن المعتز:

تعلمت في السجن نسج التكب ... وكنت امرأً قبل حبسي ملك  
وقيدت بعد ركوب الجياد ... وما ذاك إلا بدور الفلك  
ألم تبصر الطير في جوّه ... يكاد يلامس ذات الحبل  
إذا أبصرته خطوط الزما ... ن أوقعنه في حبال الشرك

فهذاك من حالق قد يصاد ... ومن قعر بحر يصاد السمك  
ووجدنا في أرض البيت الذي قتل فيه بخطه :

يا نفس صبراً لعل الخير عقباك ... خانتك من بعد طول الأمن دنياك  
مرّت بنا سحراً طيراً فقلت لها ... طوباك يا ليتني إياك طوباك

قال: وكتب يحيى بن خالد البرمكي إلى الرشيد: من الحبس لأمر المؤمنين وخلف المهديين وخليفة رب العالمين،  
من عبد أسلمته عيوبه وأوبقته ذنوبه وخذله شقيقه ورفضه صديقه وزال به الزمان ونزل به الحدثنان وحلّ به  
الضيق بعد السعة والشقاء بعد السعادة وعالج البؤس بعد الدعة ولبس البلاء بعد الرخاء وافترش السخط بعد  
الرضى واكتحل السهود وفقد الهجود، ساعته شهر وليته دهر، قد عاين الموت وشارف الفوت، جزعاً يا أمير  
المؤمنين قدمني الله قبلك من موجدتك وأسفاً على ما حرمته من قربك لا على شيء من المواهب، لأن الأهل  
والمال إنما كانا لك وعارية في يديّ منك، والعارية لا بد مردودة، فأما ما اقتصصته من ولدي فيذنيه وعاقبته  
بجرمه وجريته على نفسه فإنما كان عبداً من عبيدك لا أخاف عليك الخطأ في أمره ولا أن تكون تجاوزت به  
فوق ما كان أهله ولا كان مع ذلك بقاؤه أحبّ إلي من موافقتك، فتذكّر يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك  
وحجب عني فقدك، كبر سني وضعف قوتي وارحم شيبتي وهب لي رضاك عني ولتمل إليّ بغفران ذنبي، فمن  
مثلي يا أمير المؤمنين الزلل ومن مثلك الإقالة، ولست أعتذر إليك إلا بما تحب الإقرار به حتى ترضى، فإذا  
رضيت رجوت أن يظهر لك من أمري وبراءة ساحتي ما لا يتعاطمك معه ما مننت به من رأفتك بي وعفوك عني  
ورحمتك لي، زاد الله في عمرك يا أمير المؤمنين وقدمني للموت قبلك. وكتب في أسفله:

قل للخليفة ذي الصنا ... نع والعطايا الفاشيه  
وابن الخلائف من قري ... ش والملوك الهاديه  
ملك الملوك وخير من ... ساس الأمور الماضيه  
إن البرامكة الذي ... ن رموا لديك بداهيه  
عمّتهم لك سخطة ... لم تبق منهم باقيه  
فكأنهم مما بهم ... أعجاز نخلٍ خاويه  
صفر الوجوه عليهم ... خلع المذلة باديه  
متفرقين مشتتي ... ن بكل أرضٍ قاصيه

بعد الإمارة والوزا ... رة والأمر الساميه  
ومنازل كانوا بها ... فوق المنازل عاليه  
وتحرّم برضاع أو ... في مُرضعٍ لك فاديه  
فاليوم قد رموا لدي ... ك بما يشيب الناصيه  
أضحوا وجلّ مناهم ... منك الرضى والعافيه  
فإذا رضيت فإن أن ... فسهم بحكمك راضيه  
فاليوم قد سلب الزما ... ن كرامتي وبهائيه

واليوم قد ألقى الزما ... ن جرانه بفنائيه  
ورمى سواد مقلتي ... فأصاب حين رمانيه  
يا من يود لي الردى ... يكفيك ويحك ما بيه  
يكفيك ما أبصرت من ... ذلّي وذلّ مكانيه  
يكفيك أيّ مستبا ... ح معشري ونسائيه  
ورزئت مالي كله ... وفدى الخليفه ماليه  
إن كان لا يرضيك ! ... لا أن أذوق حماميه  
فلقد رأيت الموت من ... قبل الممات علانيه  
وفجعت أعظم فجعة ... وفنيت قبل فنائيه  
ولبست أثواب الذلي ... ل ولم تكن بلباسيه  
وعطبت في سخط الإما ... م على رفيع بنائيه  
فانظر بعينك هل ترى ... إلا قصوراً خاليه  
وذخائراً مقسومة ... قُسمن قبل مماتيه  
وحرائراً من بين صا ... رحة عليّ وبأكيه  
ونوادباً يندبني ... تحت الدجى بكنائيه  
يا با عليّ البرمك ... يّ فما أجيب الداعيه  
وبكاؤهن وقد سمع ... ت مقلقل أحشائيه  
أخليفة الله الرضى ... لا تشتمن أعدائيه  
اذكر عهدك لي وما أعطيتني بوفائيه  
اذكر مقاساتي الأمو ... ر وخدمتي وعنائيه  
ارحم جعلت لك الفدا ... كبري وشدة حاله  
ارحم أحاك الفضل وال ... باقين من أولاديه  
فلقد دعوك وقد دعو ... تك إن سمعت دعائيه  
أخليفة الرحمان ! ... نك لو رأيت بنائيه  
وبكاء فاطمة الكني ... بة والمدامع جاريه  
ومقالها بترجع ... وا شقوتنا وشقائيه  
من لي ولا من لي وقد ... فصم الزمان قناتيه  
وعدمت صفو معيشتي ... وتغيرت حالاتيه  
من لي وقد غضب الزما ... ن على جميع رجاله  
أودى الزمان بجوره ... بساستي وحماتيه  
يا عطفة الملك الرضى ... عودي علينا ثانيه

فوقّع الرشيد في رقعته: ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم

الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. وقد قلت :

يا آل برمك إنما ... كنتم ملوكاً عاديه

فطغيتم وبغيتم ... وكفرتم نعمائيه

هذا عقوبة من عصي ... من فوقه وعصانيه

كنتم كشيء قد مضى ... أحلام نوم ساريه

وتمثل بقول مهلهل:

بات ليلي بالأنعمين طويلاً ... أرقب النجم ساهراً أن يزولا

أزجر العين أن تُبكي الطلولا ... إن في الصدر من كليب غليلاً

إن في الصدر غلةً لن تقصّي ... ما دعا في الغضون داءً هديلاً

لم يطيقوا أن ينزلوا فنزلنا ... وأخو الحرب من أطاق النزولا

قال أبو أحمد بن القاسم بن واضح، رحمه الله: كان محمد بن الواثق وهو المهتدي بالله قبل الخلافة يكشر عند المعتز بالله الجلوس والخلافة يومئذ بسر من رأى فيرجع المعتز إلى قول محمد في أمره وما يمضيه ويبرمه، وكان كثير المعارضة لأمر المعتز فيما تأمر به وتنهى، فلم تنزل بالمعتز إلى أن أمر بإحدااره إلى مدينة السلام على كره منه، فلما أمر بذلك كان وزيره أحمد بن إسرائيل منحرفاً عن محمد بن الواثق وأحب أن يخرج مع حرمه نهاراً ليسوءه ويضع منه، فسأل محمد بن الواثق القاسم بن واضح حال كانت بينهما وزلفة كانت له عنده متقدمة أن يدخل مع صاحبه المعروف بالطوسي ويسأله أن يخرج مع حرمه ليلاً، ففعل وكلم أحمد بن إسرائيل ورققه ولاطفه، فغضب أحمد واحتد، وكان غير حافظ للسانه قليل الفكر في العواقب متهوراً، فأطلق لسانه بكلام بشع قبيح وقال: من هو ومن بناته وحرمه الكذا الكذا حتى لا يخرجون نهاراً! فقال القاسم: ليت أن رجلي انكسرت ولم أحضر هذا المجلس. وقام معه الطوسي رسول محمد بن الواثق وما زال يسأله أن لا يردّ خبر المجلس ولا يحكي الكلام الذي بدر من أحمد بن إسرائيل، فوعده وخالفه لما فارقه ولم يصبر حتى مضى فحكاه لمحمد بن الواثق، وأحدر محمد مع حرمه نهاراً إلى مدينة السلام، فوقر ذلك في نفس محمد وحقده على أحمد بن إسرائيل. فلم يمض إلا القليل حتى قعد محمد بن الواثق في الخلافة بعد قتل المعتز.

وكان رجلاً تقياً متألهماً يؤثر العدل والإنصاف ويتحرج ويجب إظهار السنن الحسنة وإقامة الدين على شرائعه المستويه وأعلامه القديمة من الخلفاء الذين عدلوا، إلا أن أيامه قصرت وكان الأثرak قد غلبوا على الخلافة لكثرة معارضتهم للخلفاء وإضعافهم أيديهم وإهانتهم أمرهم.

فأمر لما ولي الخلافة بالقبض على أحمد بن إسرائيل وأبي نوح الكاتب والحسن بن مخلد. وكانت عليهم تدور دولة المعتز من قبله. ورسم أن يضرب أحمد بن إسرائيل بباب العامة ألف سوط فإن مات وإلا زيد ضرباً حتى يتلف، وذلك لما كان منه من القول الذي كان سبب تلفه. فراسل أحمد القاسم بن واضح في أن يشفع له إلى المهتدي، ففعل وكتب إليه رقعة وصلت مع خادم له اسمه مستطرف، فوَقَّع المهتدي: هذا رجل لنا في جنبه حدود أنت شاهد ببعضها ولا سبيل إلى الصفح عنه. وكان ذلك تذكيراً له بأمر المجلس وقول أحمد ما قاله فيه وفي حرمه. وضرب أحمد إلى أن تلف. ثم كلم المهتدي في أمر أبي نوح الكاتب والحسن بن مخلد فقال: لأبي نوح

حرمةً وهي أن أمه كانت تمدي إلينا كأمحاً كالناطف المعقود وزيتوناً كأمثال البيض فاطلقوا عنه، وأما الحسن بن محمد فقد بلونا منه نصحاً وميلاً فردوه إلى منزلته. وتخلصاً جميعاً وعادا في الأمر. وكان المهتدي فصيحاً شجاعاً فطناً عارفاً بالتدبير لو أمهل ولم تعجل الأتراك إلى قتله. وكان خرج يوماً في هيج لهم ويده العقرب سيف عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وحمل على الأتراك ووسط منهم جماعة قدّمهم وقطعهم. وكان إذا جلس للمظالم أمر بأن توضع كوانين الفحم في الأروقة والمنازل عند تحرك البرد، فإذا دخل المتظلم أمر بأن يديء ويجلس ليسكن ويثوب إليه عقله ويتذكر حجته ثم يديه ويسمع منه، ويقول: كيف يدلي المتظلم بحجته إذا لم يفعل به هذا وقد تداخلته رهبة الخلافة وألم البرد؟ وكان الغالب على أمر الخلافة في أيامه وصيف الكبير وداره معروفة بمدينة السلام في مربعة الخرسى إلى اليوم.

### محاسن الحبس

لعلي بن الجهم:

قالت حبست فقلت ليس بضائري ... حبسي وأي مهند لا يغمد  
أوما رأيت الليث يحمي غيله ... كبراً وأوباش السباع تردد  
والنار في أحجارها محبوءة ... لا تصطلي إن لم تثرها الأزند  
والبدر يدركه السرار فتنجلي ... أيامه وكأنه متجدد  
والزاعبية لا يقيم كعوبها ... إلا الثقاف وجذوة تنوقد  
غير الليالي بادئات عود ... والمال عارية يفاد وينفد  
ولكل حال معقب ولربما ... أجلى لك المكروه عما محمد  
لا يؤيسك من تفرج كربة ... خطب أتك به الزمان الأنكد  
كم من عليل قد تحظاه الردى ... فنجا ومات طبيبه والعود

صبراً فإن اليوم يتبعه غد ... ويد الخليفة لا تطاؤها يد  
والحبس ما لم تغشه لدنية ... تزري فنعم المنزل المتورد  
لو لم يكن في الحبس إلا أنه ... لا يستذلك بالحجاب الأعبد  
بيت يجدد للكريم كرامة ... ويزار فيه ولا يزور ويحمد  
يا أحمد بن أبي دؤاد إنما ... تدعى لكل عظمة يا أحمد  
أبلغ أمير المؤمنين ودونه ... خوض العدى ومخاوف لا تنفد  
أنتم بنو عم النبي محمد ... أولى بما شرع النبي محمد  
ما كان من حسن فأنتم أهله ... طابت مغارسكم وطاب اختد  
أمن السوية يا ابن عم محمد ... خصم تقربه وآخر تبعد  
إن الذين سعوا إليك بباطل ... أعداء نعمتك التي لا تجحد  
شهدوا وغبنا عنهم فتحكموا ... فينا وليس لغائب من يشهد

لو يجمع الخصماء عندك مجلسٌ ... يوماً لبان لك الطريق الأقص  
والشمس لولا أنها محجوبةٌ ... عن ناظريك لما أضاء الفرق  
قال: فعارضه عاصم بن محمد الكاتب لما حبسه أحمد بن عبد العزيز بتغير حمولة له فقال:  
قالت حُبست فقلت خطبٌ أنكذ ... أنحى علي به الزمان المرصد  
لو كنت حراً كان سري مطلقاً ... ما كنت أُؤخذ عنوةً وأُقيد  
أو كنت كالسيف المهند لم أكن ... وقت الشديدة والكريهة أغمد  
أو كنت كالليث المصور لما رعت ... في الذئاب وجدوتي تتوقد  
من قال إن الحبس بيت كرامةٍ ... فمكاشرٌ في قوله متجلد  
ما الحبس إلا بيت كل مهانةٍ ... ومذلةٍ ومكارهٍ ما تنفذ  
إن زارني فيه العدو فشامتٌ ... بيدي التوجع تارةً ويفتد  
أو زارني فيه الصديق فموجعٌ ... يذري الدموع بزفرةٍ تتردد  
يكفيك أن الحبس بيت لا ترى ... أحداً عليه من الخلائق يحسد  
عشنا بخيرٍ برهةً فكبا بنا ... ريب الزمان وصرفه المتردد  
قصرت خطاي وما كبرت وإنما ... قصرت لأني في الحديد مصفد  
في مطبقٍ فيه النهار مشاكلٌ ... لليل والظلمات فيه سرمد  
تمضي الليالي لا أذوق لرقدةٍ ... طعماً فكيف حياة من لا يرقد  
فتقول لي عيني إلى كم أسهرت ... ويقول لي قلبي إلى كم أكمد  
وغذاي بعد الصوم ماءً مفردٌ ... كم عيش من يغذوه ماءً مفرد  
وإذا نهضت إلى الصلاة تمجرأً ... جذبت قيودي ركبتي فأسجد  
فإلى متى هذا الشقاء مؤكد ... وإلى متى هذا البلاء مجدد  
يا رب فارحم غريبي وتلافني ... إني غريبٌ مفرد متلدد  
ما لي مجبرٌ غير سيدي الذي ... ما زال يكفلني فنعم السيد  
غذيت حشاشة مهجتي بنوافلٍ ... من سيبه وصنائع لا تجحد  
عشرين حولاً عشت تحت جناحه ... عيش الملوك وحالي تتزيد  
إن حدث عن قصد المحجة قال لي ... مهلاً فذاك هو الطريق الأقص  
فيردني بترفقٍ نحو التي ... فيها السلامة والسييل الأرشد  
فبعدت عنه مجراً متكرهاً ... الله يعلم ما أقول ويشهد  
وخلا العدو بموضعي من قلبه ... فحشاه جمرأً ناره ما تحمد  
هيني أسأت فلم حقدت إساعتي ... ما إن عهدتك مذ صحبتك تحقد  
بل كنت تغتفر الذنوب تكراً ... وتظلّ تغفو دائماً وتغمّد  
فاغفر لعبدك ذنبه متطولاً ... فالحقد منك سجيةٌ لا تعهد  
واذكر خصائص حرمتي ومقاومي ... أيام كنت جميع أمري تحمد

يا أحمد بن محمد يا ذا الندى ... دم لي على ما كنت لي يا أحمد  
لا تشمتني بي العدو واخلني ... ببياض وجهك إن وجهي أسود  
ولغيره:

إلى الله فيما نابنا الشكوى ... في يده كشف الضرورة والبلوى  
خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها ... فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى  
إذا دخل السجن يوماً حاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا  
ونفرح بالرؤيا فجلاً حديثنا ... إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا  
فإن حسنت كانت بطياً مجيئها ... وإن قبحت لم تنتظر وأت عجلي

### محاسن بر الآباء

حكى عن ميمون بن مهران أنه قال: كنت عند عمر بن عبد العزيز فوجدته يكتب إلى ابنه عبد الملك: أما بعد  
فإن أحق من وعى عني وفهم قولي أنت، وإن الله، وله الحمد، قد أحسن إلينا في لطيف أمرنا وجليله، وعلى الله  
جل وعز تمام النعمة، فاذكر يا بني فضل الله عليك وعلى أبيك فإنك إن استطعت أن تصدق ذلك كله بعمل  
تعمله وصلاة أو صوم أو صدقة قبل ذلك منك، وإياك والعزة والعظمة والكبرياء فإنه من عمل الشيطان وهو  
عدو مضل مبين، وإن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي لغفور رحيم. واعلم أن الشباب إلا ما وقى  
الله ودفع عوناً على أمور كثيرة من السوء، وفيه لعمرى معونة كثيرة على الخير لمن رزقه الله، فاحذر شبابك  
وإياك أن تعلم في قلبك زهواً أو كبراً فإنه ما لم يكن من ذلك كان خيراً، واحفظ لسانك ونفسك حفظاً ترجو  
فيه رحمة الله جل وعز ومغفرته، واذكر صغر أمرك وحقارة شأنك ولا تبغ في ما أعجبك من نفسك وفيما  
عسيت أن تفرط فيه مما ليس معه غير الفكرة في أمرك وأمره، وليس كتابي هذا لأن يكون بلغني عنك إلا خيراً،  
غير أنه قد بلغني عنك شيء من بعض إعجابك بنفسك، ولو بلغني أن ذلك خرج عنك إلى أمر كرهته لبلغك  
عني أمر يشد عليك كراهته وعرفت مع ذلك أن الشباب والحرص والنعمة يحمل ذلك كله على أمر شديد إلا  
ما وقى الله ودفع، فكن يا بني على حذر، فإن الشيطان قلّ ما يصيب فرصته بمن احترس منه بدعاء الله جل اسمه  
والتواضع له، وأكثر تحريك لسانك في ليلك ونهارك بذكر الله فإن أحسن ما وصلت به حديثاً حسناً ذكر الله  
جل اسمه، وأحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً ذكر الله تبارك وتعالى، وأعن على نفسك بخير. نسأل الله لنا ولك  
حسن التوفيق والسلام.

قال ميمون: ثم قال لي عمر: إن ابني عبد الملك قد زين في عيني وأنا متهم لنفسي فيه وأخاف أن يكون هوأي  
فيه قد غلب على علمي به وأدركني ما يدرك الوالد من الإشفاق على ولده فأته واسيره ثم اتني بعلمه ثم انظر  
هل ترى منه ما يشاكل النخوة فإنه غلام حدث ولا آمن عليه الشيطان.

قال ميمون: فخرجت إلى عبد الملك حتى قدمت عليه فاستأذنت ودخلت، فإذا غلام ابن ست عشرة سنة  
جالس على حشية بيضاء أحسن الناس تواضعاً وإذا مرافق بيض وبساط شعر. فرحب بي ثم قال: قد سمعت أبي  
يذكر منك ما أنت أهله وإني أرجو أن ينفع الله بك وقد حسبت أن يكون قد غرني من نفسي حسن رأي



والذي فيّ وما بلغت من الفضل كل ما يذكر، وقد حذرت أن يكون الهوى قد غلبه على علمه فأكون أحد آفاته. قال ميمون: فعجبت من اتفاقهما فقلت له: أعلمني من أين معيشتك؟ قال: من عطايا ومن غلة زراعةٍ اشتريت عن ظهر يدٍ ممن ورثها عن أبيه فوهبها لي فأغنياني بها عن فيء المسلمين. قال: فقلت: فما طعامك؟ فقال: ليلة لحم وليلة عدس وزيت وليلة خل وزيت وفي هذا بلاغ. قال فقلت له: أفما تعجبك نفسك؟ فقال: قد كان في بعض ما كان فلما وعظني أبي في كتابه بصري نفسي وما صغر من شأني وحقّر من قدرني فنفعني الله جل وعز بذلك فجزاه الله من والدٍ خيراً. فقعدت ساعة أحدثه وأتسمع من منطقته فلم أر فتىً كان أجمل وجهاً ولا أكمل عقلاً ولا أحسن أدباً على صغر سنه وقلة تجربته منه.

قال ميمون: فلما كان آخر ذلك أتاه غلام فقال: أصلحك الله قد فرغنا. قال: فسكت. فقلت: ما هذا الذي فرغ منه؟ قال: الحمام أخلاه لي. قال فقلت: لقد كنت وقعت مني كل موقع حتى سمعت هذا. قال: فاسترجع وذعر وقال: وما ذاك يا عم، يرحمك الله؟ قلت: الحمام لك؟ قال: لا. قلت: فما دعاك إلى أن تطرد عنه غاشيته كأنك تريد بذلك الكبر فتكسر على صاحب الحمام غلته ويرجع من أتاه خائباً؟ قال: أما صاحب الحمام فيني أرضيه وأعطيه غلة يومه. قال قلت: هذه نفقة سرف خالطها الكبر، وما يمنعك أن تدخل الحمام مع الناس وإنما أنت كأحدكم؟ قال: يعني من ذاك أن أرى عورة مسلم ورعاع من الناس يدخلون بغير أزر فأكره رؤية عوراتهم وأكره أن أجبرهم على أزر فيضعون ذلك مني على حد هذا السلطان الذي خلصنا الله منه كفافاً، فعظني رحمة الله عظة أنتفع بها واجعل لي مخرجاً من هذا الأمر. فقلت له: ادخله ليلاً فإذا رجع الناس إلى رحابهم خلا لك الحمام. قال: لا جرم لا أدخله نهاراً أبداً ولولا شدة برد بلادنا هذه ما دخلته أبداً، فأقسمت عليك لتطوين هذا الخبر عن أبي فيني أكره أن يظل عليّ ساخطاً ولعل الأجل يحول دون الرضى منه. قال: فأردت أن أسبر عقله فقلت: إن سألتني هل رأيت منه شيئاً تأمرني أن أكذبه؟ قال: لا معاذ الله ولكن قل رأيت شيئاً فقطمته عنه وسارع إلى ما أردت من الرجوع، فإنه لا يسألك عن التفسير لأن الله جل وعز قد أعاده من بحث ما ستر. قال ميمون: فلم أر والدًا قط ولا ولدًا قط، رحمة الله وبركاته عليهم، مثلهما. وذكروا أن ضرار بن عمرو الضبي ولد له ثلاثة عشر ابناً كلهم بلغ ورأس فاحتمل ذات يوم. فلما رأى بنيه رجالاً معهم أهاليهم وأولادهم سره ما رأى من هيأهم ثم ذكر نفسه وعلم أنهم لم يبلغوا ذلك حتى أسن هو ورقاً وضعف فقال: من سره بنوه ساءتة نفسه. فذهبت مثلاً.

قيل: ودخل الأمين على أبيه الرشيد وقد عرضت له وصيفة جميلة فلم يزل محمد ينظر إليها وفطن له أبوه فقال: يا محمد ما ترى في هذه الوصيفة؟ قال: ما أرى بأساً. قال: فهل لك فيها؟ قال: أمير المؤمنين أحقّ بما مني. قال: فقد آثرك على نفسه فخذها. فأخذها. فقال الرشيد:

ولي ولدٌ لم أعصه مذ ولدته ... ولا شكّ في بري به مذ ترعرعا  
تخيرته للملك قبل فطامه ... وأقطعته الدنيا فطيماً ومُرضعاً  
فلا الملك يخلو باعه من محمدٍ ... ولا هو منه بل هما هكذا معاً  
فنهض محمد ومعه الجارية فأتبعه طرفه فلما غاب قال:

وإنما أودلانا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض

وحكي عن بعض الأعراب أنه كان يرقص ولده ويقول :  
كأنما ريح الولد ... ريح الخزامى بالبلد  
أهكذا كل ولد ... أم لم يلد قبلي أحد

#### محاسن تأديب الولد

قيل: نظر ابن عباس، رحمه الله، إلى بعض ولده نائماً بالعداء فركله برجله ثم قال: قم لا أنام الله عينك! أتنام في وقت يقسم الله جل وعز فيه الأرزاق؟ أو ما علمت أنها النومة التي قالت العرب فيها مكسلة ومانعة للحوائج؟ وقد قيل: النوم على ثلاثة أوجه: خرق وحُمق وخُلُق، فأما الخرق فنوم الضحى شغل عن أمر الدنيا والآخرة، والحُمق النوم بين العصر والمغرب فإنه لا ينامها إلا أحمق أو عليل أو سكران، وأما الخلق فنوم المهاجرة الذي أمر به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإنه قال: قبلوا فإن الشيطان لا يقبل. وقيل: إن نوم الغداة يمحق الرزق ويورث الصغار والكسل والبخر.

وذكروا عن عبد الملك بن مروان أنه مات بعض ولده فجاءه الوليد ابنه وهو صغير فعزاه فقال: يا بني لمصيبتي فيك أعظم وأفدح من مصيبي بأخيك، ومتى رأيت ابناً عزى أباه! فقال: يا أمير المؤمنين أمني أمرتني بذلك. قال: يا بني أهون عليّ وهو لعمرى من مشورة النساء.

#### مساوى جفاء الآباء

قال: فقال رجل لابنه: يا ابن الزانية! فقال: الزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك.  
وقال آخر لابنه: يا ابن الزانية! قال: لا تفعل، لقد كنت أحفظ لأهلك من أبيك لأهله.  
قال: وقال أعرابي لابنه:

وأملك قد روّيتها فشفيتها ... على حاجة مني وعينك تنظر  
فأجابه:

وجديّ قد روّى عجوزاً قبلها ... فما كنت ترعاه وما كنت تشكر

وقيل لأعرابي وقد تزوج بعدما كبر وأسن: لم تأخرت عن التزوج؟ قال: أبادر ابني باليتم قبل أن يسبقني بالعقوق.

قال: وقال رجل لأبيه: يا أبتنا إن عظيم حَقك لا يبطل صغير حَقّي، ولا أقول إني وإياك بالسواء، ولكن الله جل وعز لا يجب الاعتداء.

#### محاسن بر الأبناء بالآباء والأمهات

عن طاووس عن أبيه قال: كان رجل له أربعة بنين فمرض فقال أحدهم: إما أن تمرّضوه وليس لكم من ميراثه شيء وإما أن أمرضه وليس لي من ميراثه شيء. قالوا: بل تمرضه وليس لك من ميراثه شيء. فمرضه حتى مات

ولم يأخذ من ميراثه شيئاً.

قال: فأُتي في النوم فقيل له: ائت مكان كذا وكذا فخذ منه مائة دينار. فقال: أفيها بركة؟ قالوا: لا. فلما أصبح ذكر لك لامرأته فقالت: خذها فإن من بركتها أن نكتسي منها ونعيش بها. فلما أمسى أُتي في النوم فقيل له: ائت مكان كذا وكذا فخذ منه عشرة دنانير. فقال: أفيها بركة؟ قالوا: لا. فلما أصبح ذكر لك لامرأته فقالت له مثل ذلك، فأبى أن يأخذها. فأُتي في الليلة الثالثة فقيل له: ائت مكان كذا وكذا وخذ منه ديناراً. فقال: أفيها بركة؟ قالوا: نعم. قال: فذهب فأخذ الدينار ثم خرج به إلى السوق فإذا هو برجل يحمل حوتين. فقال: بكم هما؟ قال: بدينار. فأخذهما منه وانطلق بهما إلى بيته، فلما شقهما وجد في بطن كل واحد منهما درة لم ير الناس مثلها، فبعث الملك يطلب درة يشتريها فلم توجد إلا عنده فباعها بثلاثين وقرأ ذهباً. فلما رآها الملك قال: ما تصلح هذه إلا بأخت فاطلبوا أختها ولو أضعفتن الثمن. فجاؤوه وقالوا: أعندك أختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك؟ قال: نعم. فأعطاهم الثانية بضعف ما باع به الأولى.

قال: وذكر المأمون بر الأبناء بالآباء فقال: لم أر أحداً أبرّ من الفضل بن يحيى، فإنه بلغ من بره بأبيه أنهما حيث حبسا كان الفضل يسخن ليحیی الماء لوضوئه لأنه كان يتوضأ بالماء السخن، فمنعهم السجان ذات ليلة من إدخال الحطب والليل بارد فقام الفضل حين أخذ يحيى مضجعه إلى قمقم كان يسخن فيه الماء فملأه من الجبّ ثم جاء به إلى القنديل فأدناه منه فلم يزل قائماً والقمقم في يده حتى أصبح وقد سخن الماء، فأدناه من أبيه. قال: ولما وجه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الجيش إلى اليرموك قام إليه أمية بن الأسكر الكنايني فقال: يا أمير المؤمنين هذا اليوم من أيامي لولا كبر سني. فقام إليه ابنه كلاب، وكان عابداً زاهداً، فقال: لكني يا أمير المؤمنين أبيع الله نفسي وأبيع دنياي بآخري. فتعلق به أبوه وكان في ظل نخل له وقال: لا تدع أباك وأملك شيخين ضعيفين ربياك صغيراً حتى إذا احتاجا إليك تركتهما! فقال: نعم أتركهما لما هو خير لي. فخرج غازياً بعد أن أرضى أباه، فأبطأ وكان أبوه في ظل نخل له، وإذا حمامة تدعو فرحها، فرآها الشيخ فبكى، فرأته العجوز فبكت، وأنشأ يقول:

لمن شيخان قد نشدا كلاباً ... كتاب الله إن ذكر الكتابا  
أناديه ويعرض لي حنينٌ ... فلا وأبي كلابٌ ما أصابا  
تركت أباك مرعشةً يداه ... وأملك ما تسيغ لها شرابا  
فإن أباك حين تركت شيخٌ ... يطارد أينقاً شزباً جذابا  
إذا رُتّعن إرقالاً سراعاً ... أثرن بكل رابية تراها  
طويلاً شوقه يبكيك فرداً ... على حزنٍ ولا يرجو الإيابا  
إذا غنت حمامة بطن وجّ ... على بيضاها ذكرا كلابا

فبلغت هذه الأبيات عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فأرسل إلى كلاب فوافاه فقال: إنه بلغني أن أباك وجد لفرافك وجداً شديداً فيماذا كنت تبره؟ قال: كنت أبره بكل شيء حتى أتي كنت أحلب له ناقة فإذا حلبتها عرف حلي. فأرسل عمر، رحمه الله، إلى الناقة فجيء بها من حيث لا يعلم الشيخ فقال له: احلبها. فقام إليها وغسل ضرعها ثم حلبها في إناء. فأرسل عمر، رحمه الله، بالإناء إلى أبيه فلما أتي به بكى ثم قال: إني أجد في هذا اللبن ريح كلاب. فقال له نسوة كن عنده: قد كبرت وخرفت وذهب عقلك، كلاب بظهر الكوفة وأنت

ترعم أنك تجد ريجه! فأنشأ يقول:

أعاذل قد عدلت بغير علم... وهل تدري العواذل ما ألقى  
سأستعدي على الفاروق رباً... له حجُّ الحجيج على اتساق

إن الفاروق لم يردد كلاباً... إلى شيخين ما لهما تواقى

فقال له عمر: اذهب إلى أبيك فقد وضعنا عنك الغزو وأجريناك العطاء. قال: وتغنت الركبان بشعر أبيه. فبلغه  
فأنشأ يقول:

لعمرك ما تركت أبا كلاب... كبير السن مكثباً مصابا  
وأما لا يزال لها حيناً... تنادي بعد رقدتها كلابا

لكسب المال أو طلب المعالي... ولكني رجوت به الثوابا

وكان كلاب من خيار المسلمين، وقُتل مع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، بصفين وعاش أبوه أمية دهرًا  
طويلاً حتى خرف، فمرّ به غلام له كان يرعى غنمه وأمّية جالس يحتو على رأسه التراب فوقف ينظر إليه، فلما  
أفاق بصر بالغلام فقال:

أصبحت لهواً لراعي الضأن أعجبه... ماذا يربيك مني راعي الضان

انق بضأنك في أرض بمحضرة... من الأباطح واحسبها بجلدان

انق بضأنك إني قد فقدتهم... بيض الوجوه بني عمي وإخواني

قال: وحدثني من سمع أعرابياً حاملاً أمه في الطواف وهو يقول:

إني لها مطية لا أذعر... إذا الركاب نفرت لا أنفر

ما حملت وأرضعتني أكثر... الله ربي ذو الجلال أكبر

ثم التفت إلى ابن عباس، رحمه الله، فقال له: أتراني قضيت حقها؟ فقال: لا والله ولا طلقه من طلقاتها.

قال: ونحر أعرابي جزوراً فقال لامرأته: أطعمي أُمي منه. فقالت: أيها أطعمها؟ فقال: قطعي لها الورك. قالت:  
ظوهرت بشحمة وبُطنت بلحمة، لا لعمر الله! قال: فاقطعي لها الكتف. قالت: الحاملة الشحم من كل مكان،  
لا لعمر الله! قال: فما تقطعين لها؟ قالت: اللحي ظوهرت بجلدة وبطنت بعظم. قال: فتزوديهما إلى أهلك. وخلي  
سبيلها.

وروي أن الحسن بن علي، رضوان الله عليه، كان يمتنع من مؤاكلة أمه، صلوات الله عليها، فسئل عن ذلك  
وهو ابن ست سنين. فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى لقمة تقع عينها عليها فأكون قد عققتها.

### مساوي عقوق البنين

الأصمعي قال: حدثني رجل من الأعراب قال: خرجت من الحي أطلب أعق الناس وأبر الناس فكنت أطوف  
بالأحياء حتى انتهيت إلى شيخ في عنقه جبل يستقي بدلو لا تطيقه الإبل في الهاجرة والحر الشديد وخلفه شاب  
في يده رشاء من قد ملوى يضربه به قد شقّ ظهره بذلك الجبل. فقلت: أما تتقي الله في هذا الشيخ الضعيف؟  
أما يكفيه ما هو فيه من مدّ هذا الجبل حتى تضربه؟ قال: إنه مع هذا أبي. قلت: فلا جزاك الله خيراً! قال:

اسكت فهكذا كان يصنع هو بأبيه وكذا كان يصنع أبيه بجده. فقلت: هذا أعق الناس. ثم جلت أيضاً حتى انتهيت إلى شاب في عنقه زبيل فيه شيخ كأنه فرخ فيضعه بين يديه في كل ساعة فيزقه كما يزق الفرخ. فقلت له: ما هذا؟ فقال: أبي وقد خرف فأنا أكفله. قلت: فهذا أبر العرب. فرجعت وقد رأيت أعقهم وأبرهم. قيل: وكانت لخيزران في خلافة موسى الهادي كثيراً ما تكلمه في الحوائج فكان يجيبها إلى كل ما تسأل، حتى مضت لذلك أربعة أشهر من خلافته فاجتمع الناس إليها وطمعوا فيما قبلها فكانت المواكب تغدو إلى بابها وتروح، قال: فكلمته يوماً في أمر فاعتل بعلته، فقلت: لا بد من إجابتي. قال: لا أفعل. قالت: فإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك. قال: فغضب وقال: ويلى عليه ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها والله لا قضيتها له! قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً. فقال: إذاً والله لا أبالي. وهي وغضب ثم قال: مكانك حتى تستوعبي كلامي والله وإلا فأنا نفي من قرابتي من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي وخصتي وخدمي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إياك ثم إياك أن تفتحي بابك للملئ ولا ذمي! فانصرفت ما تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بجلوة ولا بجرة بعد ذلك.

قال يحيى بن الحسن: وحدثني أبي قال: سمعت خالصة تقول للعباس ابن الفضل بن الربيع: بعث موسى الهادي إلى أمه الخيزران بأرزة فقال: اشتيتها فأكلتها فكلي منها. قالت خالصة: فقلت: امسكي حتى ننظر فإني أخاف أن يكون فيها شيء. فأرسل إليها بعد ذلك: كيف رأيت الأرزة؟ قالت: وجدتها طيبة. فقال: لم لم تأكلي منها؟ والله لو أكلت لقد كنت استرحت منك، فما أفلح خليفة له أم! قيل: وضرب إبراهيم بن بهنك العكي ابنه فذهب الابن فوشى بأبيه إلى الرشيد وذكر أنه يريد اغتياله، فدفعه الرشيد إلى ابنه، فقيدته وحيسه في بيت ودعا بأمهات أولاده فجعل يشرب معهم ليغيظ أباه، فاستبطأ الرشيد فدعا به وقال له: إن كذبت على أبيك استرضيناك لك وإن كنت صدقت فلست أرى أفعالك تشاكل أفعال الصادقين. فلما انصرف من عنده دخل على أبيه بالسيف فضربه حتى قتله. ولذلك قيل: شر المرزئة سوؤ الخلف.

قال: ولما خلع شيرويه بن كسرى أباه وهم بقتله قال لعظيم من عظماء مرازبته: ادخل على أئبنا فاقتله. فانطلق المرزبان حتى دخل على كسرى فأخبره بما أمر به ابنه. فقال له كسرى: انصرف فلست بصاحبي. فانصرف المرزبان إلى شيرويه فأخبره بمقالة كسرى. فوجه رجلاً آخر فلما دخل قال له مثل مقالته للأول، فانصرف ولم يصنع شيئاً واعتل على شيرويه بأنه لم يطب نفساً بقتله.

فالتفت شيرويه إلى فتى يسمى هرمز بن مردانشاه وكان أبوه يقال له فاذوسبان بابل وخطرنية، وقد كان كسرى سأل المنجمين قبل ذلك بعامين عن ميته فأخبروه أنها على يدي رجل يكون عظيم بابل. فلما سمع ذلك وقعت همته على مردانشاه فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه. فلما قدم تجنى عليه ثم أمر بقطع يمينه، فقطعت، فتناولها بيده الأخرى ووضعها في حجره وجعل يكي ويتحجب. فسمع كسرى ذلك فرحمه ورق له فأرسل إليه أنه قد ندم على ما كان منه وأمره أن يسأله حاجة تكون له عوضاً من ذهاب يده. فأرسل إليه مردانشاه إن وثق لي بالأيمان الخرجة، ففعل كسرى ذلك وعاهده أن يجيبه إلى جميع ما سأل. فأرسل إليه أن حاجتي أن تأمر بقتلي فلا خير في الحياة بعد يميني. فأمر كسرى به فضربت عنقه. فلما دخل دخل ابنه هرمز على كسرى قال له: من

أنت؟ قال: أنا ابن مردان شاه فاذوسبان بابل. فقال: أنت لعمري صاحبي كنت قتلت أباك ظلماً فدونك وما أمرت به. وكان معه طبرزين، فضرب به كسرى على عضده فلم يحك فيه لأن كسرى كان في عضده خرزة لا يعمل الحديد فيه من أجلها، فضرب الشاب بيده إلى عضده وقطع تلك الخرزة ثم ضربه بالطبرزين حتى مات، وانصرف إلى شيرويه فأخبره، فأمر بقتله، ثم هلك شيرويه بعد قتل أبيه بثمانية أشهر.

وقد قالت الحكماء: ومن جرب من الأوائل أن الرجل إذا قتل أباه وأخاه لم يمتع بعدهما إلا أربعة أشهر أو ما هو فوق ذلك يبسير وربما سلط عليه السهر فلا يزال كذلك إلى أن يتلف.

قال: وقيل للمأمون: إن بني علي بن صالح مجان سفهاء. فقال المأمون: يا علي أحضر ولدك الأكبر والأصغر فإني أريد أن أرتبهم وأرشحهم للأمر الذي يصلحون له. فانصرف علي فأخبر ولده بذلك وأمرهم بالركوب. فاستعدوا وتزينوا بأحسن هيئة واستأذن لهم فدخلوا وسلموا. فقال لهم المأمون: تركتم الأدب واطرحتموه وآثرتم الجون والسفه، هذا وأبوكم أحد الفقهاء والعلماء يستضاء برأيه ويحمد مذهبه. فأقبل علي فقال: أما على ذلك فما الذنب إلا لك إذ تركتهم يتتابعون في الجون وتركوا ما كان أولى بك وبهم أن تأخذهم به. فقال علي: ولا سيما يا سيدي هذا الكبير فإنه باقعة لا والله ما لي بهم قوة ولا يد وهذا الكبير أفسدهم وهتكهم وزين لهم سوء أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون. فأطرق الأكبر ما يترمرم بحرف. فقال المأمون: تكلم. قال: يا سيدي بلساني كله أو كما يتكلم الذليل بين يدي مولاه حتى يترك حجته ويسكت عن إيضاح جوابه مهابة لسيده؟ قال: تكلم بما عندك. فقال: يا أمير المؤمنين هل حمدت رأي أيينا وحمدت مذهبه وعلمه؟ قال: نعم.

قال: فأعتق ما يملك وطلق ما يطأ طلاق الحرج والسنة وصدق بما حوى وعليه ثلاثون حجة مع ثلاثين نذراً يبلغ به الكعبة إن لم يكن أبوه على طلب سكر طبرزد فلم يوجد في خزانته ولم يكن وقتاً يوجد فيه سكر ولا يُقدر على ابتياع شيء منه. فقال: فيم يصلح للخزانة التي ليس فيها سكر؟ ثم قال: الحمد لله رب العالمين ولا أقول إنا لله وإنا إليه راجعون وإن كانت المصيبة لأن ذلك إنما يقال عند المصائب في الأنفس ولكني أحمده على السراء والضراء والشدة والرخاء كما حمده الشاكرون وأنا أرجو أن أكون منهم. ثم أقبل على الخازن فقال: ادع الوكيل. فدعا. فقال: ما منعك إذ فني السكر أن يُشترى لنا سكر؟ قال: لم يعلمني الخازن. فقال للخازن: لم لم تعلمه؟ قال: كنت على أن أعلمه. قال: ما ههنا شيء هو أبلغ في عقوبتكما من أن أقوم على إحدى رجلي وأن لا أضع الأخرى ولا أروح بينهما حتى تحضروني ألف من سكر طبرزد ليس بمضرس ولا وسخ ولا لين المكسر ولا بمحدث الصنعة ولا معوج القالب. ثم وثب فقال: يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً، والله والله لا أزال قائماً حتى أوفي بنذري. قال: فتبادر غلماناه ومواليه وبعض أولاده وعجائزه نحو السوق فواحد ينيبه حارساً وآخر يرمي كلباً وآخر يفتح درباً وآخر يوقظ نائماً وآخر يدعو بائعاً والغلمان والجواري والجيران والسوق والحراس في مثل صيحة يوم القيامة، ثم قال: يا قوم أما لي من أهلي مساعد؟ أين البنات العواتق والأبكار؟ أين اللواتي كنت أغذوهن بطيب الطعام ولين اللباس يسرحن فيما أذعن من خفض العيش وغضارة الزهر؟ أين أمهات الأولاد اللواتي اعتقدن العقد النفيسة وملكن الرغائب بعد الحال الحسيسة؟ أين الأولاد الذكور الذين لهم نسعى ونحفد ونقوم ونقعد وهم نروح ونغدو؟ فبادرت إليه بناته وأمهاتهن، فقامت

واحدة منهن على ساق فقال: أحسننّ أحسن الله جزاءكن، مثل هذا أردتكن. ولا حظ الكبرى من بناته وآخر من بنيه وهما يراو حان بين أقدامهما، فقال: يا فلانة تراو حين ولا أراوح، صدق الله جل وعز وبلغ رسوله، عليه وعلى آله السلام، حيث يقول: " إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم " ، حذرني ربي جل وتعالى منكم.

ثم قال: علي بن صالح ليس في خزانته سكر طبرزد وجائزته من أمير المؤمنين ألف ألف درهم وضيعته بالنهر وان تغلّ ثلاثمائة ألف درهم وضيعته بالكوفة المعروفة بالمغيرة من أبل ضيعة ما ملك مثلها أحد بسطوح الدسكرة ولولا أن سعيداً السعدي، أراح الله منه، قطع شربها وعور مجاري مياهها حتى اندفنت أنهارها وقلت عمارتها إضراراً بنا وتعدياً علينا ما كان لأحد مثلها وعلى أن أكرهها ومزارعيها من أخابث خلق الله، والله والله لو أمكنهم أن يقطعوا الحاصل وحاصل الحاصل ما أعطونا من ذلك شيئاً، ومن أخبرك أن الضيعة لرب الضيعة فقل له كذبت لا أم لك، الضيعة ثلاث أثلاث: فثلث للسلطان وثلث للوكيل وثلث للأكار، وإنما يأتي رب الضيعة صباية كصباية الإناء ومخة كمخة عرقوب، يجني الأكار وقت الديات فيمرّ بهم الأبرمد هذا يذبح له وهذا يجنز له وهذا يسقيه النبيذ، وما نيذهم إلا العكر الأسود ووضر الدنس وماء الأكشوت، قبح الله ذلك شرباً ما أنغله للجوف وأضره بالأعلاق النفيسة، ثم يأتي وقت الكيل فمن بين رقّام، رقم الله جلبابه وأعد له الهوان، ومن بين كيال، جعل الله له الويل لقوله جل وعز: ويل للمطففين ما يبالي أحد منهم على ما يقدم، لقد سمعت أمير المؤمنين يسأل قضاة وكلهم بالحضرة: هل عدلتم كيلاً قط؟ فكلهم يقول: لا، فإن أطعموا الجداء الرضع ونقي الخبز من دستميسان ووهبت لهم الدراهم ظفر الأكار بحاجته، فويل يومئذ لقبة السلطان ماذا يُحمل إليها من القشب والقصل والمدر والزوان ويحشى فيها التبن.

ثم قال: يا قوم لم أطببت في ذكر هؤلاء وما الذي هاج هذا في هذه الساعة حتى خضت فيه؟ أما كفاني أي قائم على رجلي على أحد جناحي؟ قالوا: هذا للسكر الذي ليس في خزانتك منه شيء. قال: أجل والله إذا كان وكيالي مشتغلاً بزوجته وبناته ومصالح حالته متى يفرغ للنظر في مصالح خزانتي؟ والله والله لقد حدثت أنه حلّي بناته بألوف دنانير وقال لزوجته اخرجي إلى الأعياد وادخلي الأعراس وسلي عن الرجال المذكورين واطلبي المراضع المعروفة والأنساب المرضية لبناتك وأخرجيهن في الجمعات يتصفحن محاسن الغرّات ويخترن أولي الأنساب، أو لم يرو عن الثقات أنهم كرهوا خروج الأبقار في الجمعات التي فرض الله جل وعز فيهنّ السعي إلى ذكره؟ فبيع قوم من هؤلاء المبتدعة خارجة خرجت ومارقة مرقت ورافضة رفضت الدين وأهل الدين فتركوا ما فرض الله جل وعز عليهم، فقاتلهم الله أنّى يؤفكون، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وقد روينا عن النبي، صلى الله عليه وسلم، من غير وجه ولا اثنين انه خطب الناس فقال في خطبته: إن الله جل وعز قد افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا في يومي هذا من عامي هذا إلى يوم القيامة، فمن تركها استخفافاً بها وجحوداً بما فلا جمع الله شمله ولا بارك له في أهله ولا حج له ولا جهاد حتى يتوب إلى الله جل وعز، فمن تاب تاب الله عليه.

ثم قال: يا قوم ما الذي حركنا على هذه الفضيلة في جوف هذه الليلة؟ قيل: السكر الطبرزد. قال: أجل والله فما أحضرتموني ألف من سكر إلى هذه الغاية! أيا نصح أيا فتح أيا صبح أيا لنجح تبادروا مولاكم فإنه قد نصب

وتعب من طول القيام! والله لأحسب الثريا مقابلة سمت رأسي، ذهب والله الليل وجاء الليل، ويلكم أدركوني فإني أريغ نومة ولا بد لي من البكور نحو الدار. فبادرت حرمة الخاصة فحثوا الباعة وانبهوا السوقة وأخذوا ما عندهم على غير سوم وجاؤوا به. فقال: ما هذا؟ قالوا: ما أمرت به. قال: فهل أخذتموه على الصفة التي وصفت لكم؟ قالوا: نعم. قال: فهل ورثتموه واستوجبتموه؟ قالوا: لا. قال: يا أعداء الله أردتم أن تفسدوا ديني! لا والله لا يطمع مني في هزيمة، لا والله لا تزال هذه حالي حتى تأخذوه بيعاً صحيحاً، لا شرط فيه ولا خيار ولا مثنوية ولا على حدّ تلجئة، هيهات يأبي الله جل وعز ذلك عليّ. قال: فرجعوا وساوموا الباعة وقطعوا ثمنه وأخبروه. فقال: يوزن بحضرتي. فأتوه بالقبان. فقال: من يزن منكم؟ قال: من أمرته. قال: زن يا نصح فقد دنا الصبح وأرجح فإن النبي، صلى الله عليه وسلم، اشترى فقال للوزان: زن وأرجح، والله لو لم يكن في الرجحان إلا تحلّة القسم لكان في ذلك ما يدعو العلماء والفقهاء في دين الله جل وعز إلى العمل به. فجعل الغلام يزن ويرجح وهو يقول: ويلك عجل فداك أهلك قد دنا الصبح أوه خرجت نفسي أو كادت! فلما استوى الوزن خرّ مغشياً عليه ما يدري أرضاً توسد أو وساداً، وكذلك كانت حال من كان في مثل حاله. فهذه يا أمير المؤمنين حال من أهدت علمه وفهمه ورأيه.

فقال المأمون: قاتلك الله ما أعجب أمرك! على كل حال والله لئن كنت ولدت هذا عن أبيك في مقامك ما في الأرض نظير ولا في السماء شبيه، وإن كنت حكيت عنه عياناً ووعيت فلقد أجدت الحكاية وأحسنّت العبارة وما لأبيك في الدنيا شبيه، وإنك لتغمر مساويك بمحاسنك فلا تذكر شيئاً من هذا بعد هذا المجلس فإن عيبه فينا أقدم منه في أبيك. قال: فذهب عليّ ليتكلم، فقال المأمون: لا تبصنّ لسانك بحرف واحد. ثم أمر بنيه بالانصراف.

### محاسن البنات

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: نعم الولد البنات مطلقاً تجهزات مؤنسات مباركات مفليات فاليات مندّبات نادبات.

قال: ودخل عبد الله بن الزبير على معاوية بن أبي سفيان وبنية له تمرغ على صدره فقال: أمطها عنك يا أمير المؤمنين فإنهم يقرين الأعداء ويورثن البعداء. فقال معاوية: مهلاً يا ابن الزبير فما مرض المرضي ولا ندب الموتى ولا برّ الأحياء كهن. فقال ابن الزبير: قد تركتهن آثر عندي من الأبناء. وحكي أنه قال: والله لقد دخلت يوماً وما أحدٌ أبغض إليّ منهنّ وإني أخرج وما أحدٌ أحبّ إليّ منهنّ.

وروي عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: ما من أحد أمتي ولدت له جارية فلم يتسخط ما خلق الله جل وعز إلا هبط ملك من السماء بجناحين أخضرين موشحين بالدر والياقوت في سلّم من درّ ويزفّ من درجة إلى درجة حتى يأتيه بالبركة فيضع يده على رأسها وجناحه على جسدها ثم يقول: بسم الله وبالله محمد رسول الله ربي وربك الله نعم الخالق الله ضعيفة خرجت من ضعيف المنفق عليها معان إلى يوم القيامة. وقال ابن المقفع لرجل ولدت له جارية: بارك الله لك في الابنة المستفادة وجعلها لكم زينةً وأجرى لكم عليها خيراً، فلا تكرهتهن فإنهم الأمهات والأخوات والعمات والخالات ومنهن الباقيات الصالحات، ورب غلام ساء



أهله بعد مسرّتهم، وربّ جارية فرّحت أهلها بعد مساءتهم، وأنشد في ذلك:  
سخطتَ نبيّةً عما قليلٍ ... تُسرّبها عيون الناظرات  
فبارك في فطيمة رب موسى ... وأنتها نبات الصالحات  
وزادك عاجلاً أخرى سواها ... لسخطك إذ سخطت على البنات  
قال: وكان لرجل امرأتان في دار واحدة فولدت إحداهما غلاماً والأخرى جارية فكانت أم الغلام تقول:  
عافاني اليوم من الجوّاري ... من كل سوداء كسّنيّ بالي  
لا تدفع الضيم عن العيال  
وقالت أمّ الجارية:

وما عليّ أن تكون جاريه ... تحفظ بيتي وترد العاريه  
تمشط رأسي وتكون الفاليه ... وتحمل الفاضل من حماريه  
حتى إذا بلغت ثمانيه ... وزيّنت بنقيّة يمانيه  
زوّجتها مروان أو معاويه ... أزواج صدقٍ بمهورٍ غاليه  
محاسن برّ البنات

عوانة قال: بلغنا أن شيخاً من أصحاب معاوية كان يكتاب علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه، وقد كان طعن في السن، فبلغ معاوية خبره، فدعاه فقال: أيها الشيخ إنك لتكتاب علياً، رضي الله عنه، ولولا سنّك لقتلتك فلا تفعل ولا تعد. فوقع كتاب له بعد ذلك إلى علي، رحمه الله، في يدي معاوية فدعاه وقال: أتعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم، كتب فأجبتّه، فأمر معاوية بقتله. فانتهى الخبر إلى ابنة له صغيرة، فجاءت حتى قامت بين يدي معاوية وأنشأت تقول:

معاوي لا تقتل أباً كان مشفقاً ... علينا فبقي إن فقدناه شرّداً  
وتوتّم أولادٌ صغاراً بقتله ... وإن تعف عنه كنت بالعفو أسعدا  
معاوي هبه اليوم لله وحده ... وللباقيات الصارخات تلددا  
معاوي منك العلم والحلم والتقى ... وكنت قد يمياً يا ابن حربٍ مسددا  
فعبج معاوية وأصحابه منها ودمعت عيناه ووهبه لها.

قيل: وكان المأمون وجد علي قائد من قواده فاستصفي ضياعه وداره وأهّب دوابه وماله، وكان شيخاً فانياً ولم يكن له من الولد إلا بنية صغيرة، فأجمع أن يضرب في الأرض ويطلب من فضل الله جل وعز ويخلف بنيته. فبكت الابنة وقبضت على أبيها وقالت: اقنع بما آتاك الله واصبر على محن الزمان ونوابب الدهر والزم الوطن وارحم وحدتي وضعفي وقلة حيلتي أو اذبحني فلا أبتلى بفراقك. فبكى الشيخ وقال:

تقول ابنتي لما أردت وداعها ... وقد حضرتني نبيّةً ورحيل:  
لعل المنايا في رحالك تنبري ... لنفسك ختلاً أو تغولك غول  
فتتركني أدعى اليتيمة بعدما ... تبين وعزّي بعد ذاك ذليل  
أفي طلب الدنيا وربك بالذي ... تسير له راعٍ عليك كفيل  
أليس ضعيف القوم يأتيه رزقه ... يُساق إليه والبلاد محول

ويحرم جمع المال من قد يرومه ... يكدّ عليه رحله وحلول  
فلو كنت في طودٍ على رأس هضبةٍ ... لها نجفٌ فيه الوعول ثقيل  
مضعدّة لا يستطاع ارتقاؤها ... ولا لنزول يستطاع سبيل  
إذا لأتاك الرزق يحدوه سائقٌ ... حثيثٌ ويهديه إليك دليل  
قال: فسمى الخبر إلى المأمون، فدعا بالشيخ فاستنشده شعره فأنشده، فرق له وأمر بردّ جميع ما أخذ منه وأعادته  
إلى مرتبته وزاده من عنايته .

قال: وعاش يزيد بن زبيبة الشيباني دهرًا طويلاً حتى لحق زمن الحجاج وسعى مع ابن الأشعث، فظفر به  
الحجاج وورد عليه كتاب عبد الملك بن مروان يأمره بقتله. فلما دعا به قال له: أيها الأمير اتق الله بسبع عشرة  
نسوة أو تسع عشرة نسوة ليس هن قيم غيري! قال: أحضرهن. فلما أحضرهن سألهن الحجاج عن شأنهن فما  
منهن امرأة إلا وهي تقول: اقتلني ودعه. فقامت بنية له صغيرة فبكت بكاء حاراً موجعاً محرّقاً وأنشأت تقول:  
أحجاج إما أن تجود بنعمةٍ ... علينا وإما أن تقتلنا معا  
أحجاج كم تفجع به إن قتلته ... ثلاثاً وعشراً واثنتين وأربعاً  
فمن رجل دانٍ يقوم مقامه ... علينا فمهلاً لا تزدنا تضعضعا  
فرحمه الحجاج وكتب إلى عبد الملك يسأله العفو عنه، فأجابته إلى ذلك، وأطلقه .

#### مساوي من كره البنات

قيل: وبُشر الأحنف بجارية فبكى. فقيل له: ما يبكيك؟ قال: لم لا أبكي وهي عورة، وبكاؤها عبرة، وهديتها  
سرقعة، ونصرتها البكاء، ومهناها لغيري! ومما قيل فيها من الشعر:  
لولا البنية لم أجزع من العدم ... ولم أجب في الليالي حندس الظلم  
وزادني رغبة في العيش معرفتي ... ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحم  
تموى بقاي وأهوى موتها شفقا ... والموت أكرم نزال على الحرم  
مخافة الفقر يوماً أن يلمّ بها ... فيكشف الدهر عن لحمٍ على وضم  
إذا تذكرت بنتي حين تندبني ... فاضت لرحمة بنتي عبرتي بدم  
ولآخر:

أحب بنتي ووددت أني ... دفنت بنتي في جوف لحد  
وما لي بغضها غرضاً ولكن ... مخافة ميتتي فتضيع بعدي  
مخافة أن تصير إلى ليئمٍ ... فيفضح والدي ويشين جدي  
فليت الله أكرمها بقبرٍ ... وإن كانت أعزّ الناس عندي  
فتستر عورتي وتكون أجراً ... إذا قدمتها وكتمت وجدي  
وتتبع بعد ذاك بأم صدقٍ ... فتؤنس بنتها وأعيش وحدي  
ولآخر:

فكلّ أبي بنتٍ يرّجّي ببعليها ... ثلاثة أصهارٍ إذا عدّد الصهر  
فزوجٌ يراعيهما وحننٌ يصونها ... وقبرٌ يواريهما وخيرهم القبر

### مساويّ البنات

ذكروا أن الضيزن الغساني ملك الحيرة سار إليه سابور ذو الأكتاف، فتحصن الضيزن وحاصره شهراً، وأن  
مليكة بنت الضيزن نظرت من ناحية السور إلى سابور فهويته وأرسلت إليه: إني قد هويتك وسأدلك على فتح  
هذه المدينة. فقال: افعلي وأنا لك وبين يديك. فأسكرت حفاظ السور وفتحت الأبواب، فدخل سابور فقتل  
من قدر عليه وأخذ أباهما أسيراً. فلما أصبح سابور أمر فأدخل إليه الضيزن وهو قاعد على سرير من ذهب  
والجارية إلى جنبه، فلما رآها ضرب بيده ورجله وغشي عليه، وقال لها حين أفاق: ما لك سوّد الله وجهك كما  
سودت وجهي وسلطه عليك؟ فأمر به سابور فضربت عنقه وغنم هو وأصحابه غنائم كثيرة وانصرف إلى دار  
ملكه وأمر للجارية بمقصورة فبنيت لها فأسكنها فيها وأعجب بها إعجاباً شديداً، فمكثت عنده حولاً ثم إنه  
دعاها ذات ليلة فباتت معه على فراش حشوه ريش فقلقت قلقاً شديداً. فقال لها: ما لك يا حبيبي؟ قالت: إن  
في الفراش شيئاً خشناً قد أقلقني. ففتش الفراش فوجد تحت الريش ورقة آس وإذا هي قد أثرت في جنبها بمقدار  
الورقة لرطوبة جسدها ولين بشرتها. فقال لها: ما الذي كان أبوك يغدوك به؟ قالت: بالمشّ ولباب الدرمك، وهو  
الحواري، بالسكر الطبرزد. فقال: والله لأكافئك! فأمر بها فشدّت ضفائرها إلى أذنان فرسين فركضا فتقطعت.

### محاسن الإخوان

قال بعض الحكماء: ليس للعقلاء تنعم إلا بمودات الإخوان.  
وقال آخر: الازدياد من الإخوان زيادة في الآجال وتوفير لحسن الحال.  
وقال المأمون: الإخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه، وطبقة كالدواء يحتاج إليه أحياناً، وطبقة  
كالداء الذي لا يحتاج إليه.

وقيل: أبعد الناس سفيراً من كان سفره في ابتغاء صالح.  
وكان يقال: أعجز الناس من فرط في طلب الإخوان. وأنشد:  
لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ... ولكن إخوان الثقات الذخائر

وقيل: صحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر، كالريح إذا مرت على النتن حملت نتناً، وإذا  
مرت على الطيب حملت طيباً.

وقال شيخ من الأعراب: عاشروا الناس معاشرَةً إن عشتم حنوا إليكم وإن متم بكوا عليكم. وقيل في ذلك:  
قد يمكث الناس حيناً ليس بينهم ... ودّ فيزرعه التسليم واللطف  
يسلي الشقيقين طول النأي بينهما ... وتلتقي شعبٌ شتى فتأتلف  
وقال آخر:

كم إخوة لك لم يلدك أبوهم ... وكأنما آباؤهم ولدوكا

وأقارب لو أبصروك معلقاً ... بنياط قلبك ما رؤوا رهموكا  
وقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، لابنه الحسن، صلوات الله عليه: ابذل لصديقك كل المودة ولا تطمئن  
إليه كل الطمأنينة، وأعطه كل المؤاساة ولا تُفرض إليه بكل الأسرار.  
وقال العباس بن جرير: المودة تعاطف القلوب وائتلاف الأرواح وأنس النفوس ووحشة الأشخاص عند تنائي  
اللقاء وظهور السرور بكثرة التزاور، وعلى حسب مشاكلة الجواهر يكون الاتفاق في الخصال.  
وكتب بعض الكتاب: إن فلاناً أولاني جميلاً من البشر مقروناً بلطيف من الخطاب في بسط وجهه ولين كنفه،  
فلما كشفه الامتحان بيسير الحاجة كان كالتابوت المطلي بالذهب المملوء بالعدرة، أعجبتك حسنه ما دام مطبقاً  
فلما فتح آذاك ننته، فلا أبعد الله غيره.  
وقال بعضهم: من لم يؤاخ من الإخوان إلا من لا عيب فيه قلّ صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره إياه  
على نفسه دام سخطه، ومن جانب على غير ذنب إخوانه كثر عدوّه.

### مساوي الإخوان

أنشد لبعضهم:

والله لو كرهت كفي منادمي ... لقلت للكفّ بيبي إذ كرهتيني  
ولآخر:

فإني لو تخالفني شمالي ... خلافك ما وصلت بما يميني  
إذاً لقطعها فقلت بيبي ... كذلك أجتوي من يجتويني  
ولآخر:

من لم يردك فلا ترده ... هبه كمن لم تستفده  
باعد أخاك إذا نأى ... وإذا دنا شبراً فزده  
قال: وسمعها الكسروي فقال:

في سعة الأرض وفي عرضها ... مستبدل بالأهل والجار  
فمن دنا منا فأهلاً به ... ومن تولى فألى النار  
ولآخر:

وقاتل كيف تماجرتما ... فقلت قولاً فيه إنصاف  
لم يك من شكلي فتاركته ... والناس أشكال وألأف  
ولآخر:

تودّ عدوي ثم تزعم أنني ... صديقك إن الرأي عنك لعازب  
وليس أخي من ودّي رأي عينه ... ولكن أخي من ودّي وهو غائب  
وقد قالت الحكماء الأوائل: نعوذ بالله من بوائق الثقات ومن الاغترار بظاهر المودّات. وأنشد الآخر:  
إن اختياريك على خبرة ... أعجب شيء مرّ في العالم  
وأنشد لآخر:

إن اختيارك لا عن خبرةٍ سلفت ... إلا الرجاء ومما يخطيء النظر  
كالمستغيث ببطن السيل يحسبه ... جزراً يبادره إذ بله المطر  
وأنشد لآخر:

إذا كنت في قوم فقارن سرائهم ... فإنك منسوبٌ إلى من تقارن  
وبيت عدي بن زيد في هذا المعنى مختار قديم:  
عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه ... فإن القرين بالمقارن يقتدي  
ولآخر في هذا المعنى:

مشي البري مع المقارف قهمة ... ويرى البري مع السقيم فيلصخ  
ولآخر في هذا المعنى:

إذا اعتذر الصديق إليك يوماً ... من التقصير عذر أخٍ مقرّ  
فصنه عن جوابك واغض عنه ... فإن العفو شمية كل حرّ  
ولبعض الكتاب:

وصاحب كان لي وكنت له ... أشفق من والد على ولد  
وكان لي مؤنساً وكنت له ... ليست بنا حاجة إلى أحد  
كنا كساقٍ تمشي بها قدم ... أو كذراعٍ نيطت إلى عضد  
حتى إذا أمكن الحوادث من ... حظي وحلّ الزمان من عقدي  
ازورّ عني وكان ينظر من ... عيني ويرمي عن ساعدي ويدي  
حتى إذا استرفدت يدي يده ... كنت كمسترفدٍ يد الأسد

### محاسن الخصيان

من مناقب الخصيان أن الخصي لا يصلح ومتى خصي قبل الإنبات لم يُنبت، وإذا خصي بعد استحكام الشعر في  
مواضع الشعر تساقط كله إلا شعر الرأس والحاجبين وأشفار العينين، وإنما يعرض لما يتولد من فضول البدن، ولم  
ير خصي قط مخنثاً ولا سمعنا به ولا ندرى كيف ذلك ولا نعرف المانع منه ما هو، وقد كان ينبغي أن يكون  
ذلك فيهم خلقةً ويشمل جماعتهم لشبههم بالنساء وقرههم من الصبيان، وقد رأينا غير واحد من الأعراب مخنثاً  
ورأينا عدة مجانين مخنثين وأخبرني من رأى كردياً مخنثاً.

ومن فضائل الخصي أن المرأة تميل إليه لأن أمره أستر وعاقبته أسلم وتحرص عليه لأنه ممنوع عنها وترغب في  
السلامة من الولد. والخصي إذا تنسك غزا ولزم الثغور وبادر بماله إلى طرسوس. وقيل فيهم:

ونساء لمطمئنٍ مقيم ... ورجالٍ إن كانت الأسفار

وقد يرى الخصي وكان السيوف تلمع في لونه وكأنه مرآة صينية وجمارة أو قضيب فضة قد مسه ذهب وكان  
في وجنتيه الورد، ويعرض له صبر على طول الركوب والقوة على كثرة الركض حتى يجاوز في ذلك رجال  
الأتراك وفرسان الخوارج، وهم أطول الناس أعماراً، وما ذلك فيما أرى إلا لعدم النكاح وقلة استنزاح النطف،  
ولذلك يقال: إن البغل أطول أعماراً من سائر الدواب والعصفور أقلها أعماراً، وما ذلك إلا لكثرة سفادة

العصفور وقلة نرو البغال. ولو أن أخوين أحدهما توأم أخيه خصي أحدهما لخرج الخصي منهما أجود خدمة وأفطن لأبواب المعاطاة وأذكي عقلاً عند المخاطبة من أخيه الذي ولد معه في وقت واحد.

### مساوي الخصيان

قيل: كل ذي ربح منتنة وكل ذي ذفر وصنانٍ كريبه المشم كالتيس وما أشبهه فإنه متى خصي نقص نتنه وذهب صنانه غير الإنسان فإن الخصي يعود أنتن ما كان وصنانه أحد، ويعتري الخصيان خبث العرق حتى توجد لأجسادهم رائحة لا تكون لغيرهم، وكل شيء من الحيوان يُخصى فإن عظمه يدق ويسترخي لحمه ويتبرأ من عظمه ويعود رخصاً رطباً بعد أن كان عضلاً صلباً، والإنسان إذا خصي طال عظمه وعرض ويعرض له طول القدم واعوجاج الأصابع ويعرض له سرعة التغير والتبدل والانقلاب من حدّ الرطوبة والبضاضة وملاسة الجلد وصفاء اللون ورقته والتقبّض إلى الهزال وسوء الحال، ويعرض للخصيان سرعة الرضى والغضب وحب النيمية وضيق الصدر لما أودع من سر، وما أكثر ما يعرض للخصيان البول في الفراش ولا سيما إذا بات أحدهم ممتلئاً من النيذ، ويعرض لهم حب الشراب والإفراط في شهوته، ويعرض لهم سرعة الدمعة والعبث واللعب بالطير والفحّ وما أشبه ذلك وجاء من أخلاق الصبيان، ويعرض لهم الشره عند الطعام والبخل عليه.

والخصي تسخن معدته وتلين جلده وتندحر شعرته ويتسع دبره. والخاصي ربما عمد إلى الصبي ليخصيه فتتقلص إحدى خصيتيه وتصير البيضة في موضع لا يمكنه ردها إلى مكانها فيقطع ما ظهر له ويبقى ذا بيضة واحدة فهو حينئذ لا امرأة ولا رجل ولا خصي وتخرج لحيته فلا يدعه الناس في دورهم فلا يكون مع الخصيان مقرباً ولا مع الفحول مستخدماً، وقد فاته غشيان النساء ولذّة النسل والتمتع بشم الأولاد. على أن في الخصيان شراً شديداً وميلاً عجيباً إلى النساء، من ذلك ما حكى عن أبي المبارك الخصي ومساعدته في حفظ النساء فقال: والله إني ربما أسمع نغمة المرأة فأظن أن كبدي قد ذابت وأن عقلي قد اختلس، وربما نزا فزادي عند ضحك إحدهن حتى أظن أنه قد خرج من فمي فكيف ألوم عليه غيري؟ قال: وكان الجمّاز يتعشق جارية لآل جعفر يقال لها طغيان، وكان لهم خصي يسمى سناناً يحفظها وكان يتعشق الجارية أيضاً، وحال بينها وبين الجمّاز ومنعها من الدنوّ منه. فقال الجمّاز:

ما للمقيت سنانٍ ... وللطباء الملاح

أليس زانٍ خصيٍّ ... غازٍ بغير سلاح

قيل: ودخل معاوية بن أبي سفيان على امرأته ميسون بنت بحدل وهي أم ابنه يزيد ومعه خصي فاستترت منه. فقال: لم تتسرين عنه وإنما هو بمنزلة المرأة؟ فقالت: كأنك ترى أن مثلتك به تحلل له ما حرم الله عليه مني.

قيل: وكان إسحاق بن مسلم العقيلي جالساً عند المنصور فمرّ خادم وضيء الوجه فقال: يا أمير المؤمنين أي ولدك هذا؟ قال: ما هو لي بولد. قال: فأبي إخوة أمير المؤمنين هذا؟ قال: ما هو لي بأخ. قال: فمن هو؟ قال: فلان الخادم. قال: يا أمير المؤمنين فيكم شمة هذا وضمته أحبّ إليها من شمتك وضمته! قال: فتدخل المنصور من ذلك أمر عظيم حتى تغير وجهه وأمر بمنع الخدم من دخول دار النساء.

## محاسن العبيد

قال: مرّ عبيد الله بن معمر بحبشي يأكل تمرّاً وبين يديه كلب، فلما وضع في فمه لقمَةً رمى إلى الكلب بلقمة وتمرّة. فقال له عبيد الله: هذا الكلب لك؟ قال: لا. قال: فكيف صرت تطعمه وأنت تأكل؟ قال: إني لأستحيي ذا عينين أن ينظر إلي وأنا آكل فلا أطعمه. قال له عبيد الله: أنت حرّ أم عبد؟ قال: عبد لبني غاضرة. فأتاهم فقال: لمن الحبشي؟ قال صاحبه: لي. فقال: بعه مني. قال: هو لك. قال: لا والله إلا أن تأخذ ثمنه أو غلاماً يكون محله. فاشتراه ثم قال: أشهدكم أنه حرّ لوجه الله جل وعز.

قيل: ومرّ عبد الله بن عمر براع مملوك يرعى غنماً فقال له: بعني شاة من هذه الغنم. فقال: إنها ليست لي. فقال: أين العدل؟ فقال: فأين الله جل وعز؟ فاشتراه ابن عمر وأعتقه. فقال: اللهم قد رزقني العتق الأصغر فارزقني العتق الأكبر، أو قال: فلا تحرمني العتق الأكبر.

قال: وكان لكثير عزة عبدٌ راع يتولى بيع غنمه فباع عزة وهو لا يعرفها شيئاً من غنمه، فقال يوماً وهو يتقاضاها:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه ... وعزة مطولٌ معنيٌّ غريمها  
فقال له امرأة: أتعرف عزة؟ قال: لا. قالت: فهذه والله عزة، فقال: لا والله لا آخذ منها شيئاً أبداً! ورجع إلى كثير فأخبره فأعتقه لما فعل.

## مساوي العبيد

وعن حميد الطويل: كان رجل له غلام فباعه وقال للمشتري: إني أبرأ إليك من كل عيب به إلا عيباً واحداً. قال: وما هو؟ قال: النميمة. قال: أنت بريء منه فإني لا أقبل قوله. قال: فما لبثت إلا قليلاً حتى أتى السيد السيد وقال: إن امرأتم بغيٌ وهي تريد أن تقتلك وتتزوج غيرك. قال: وما يدريك؟ قال: قد عرفت ذلك، فتناوم عليها فإنه سيظهر لك ما أقول.

وأتى المرأة فقال: إن زوجك يريد أن يخلعك ويتزوج غيرك فهل لك أن أرقبك فيرجع إليك حبه؟ قالت: نعم ولك كذا وكذا. قال: اتبني بثلاث شعرات من تحت حنكه. فلما دنت منه لتتناول الشعر قام إليها بالسيف ولم يشك فيما قاله الغلام فقتلها، وجاء إخوة المرأة فقتلوا الزوج فذهبا جميعاً بسوء صنيع عبدهما وقبولهما نميمته. ومما قيل فيهم من الشعر:

وإذا ما جهلت ودّ صديقٍ ... فاختبر ما جهلت بالغلما

إن وجه الغلام يخبر عما ... في ضمير المولى من الكتمان

قال: وكتب الطائي إلى بعض إخوانه يسأله نبيذاً، فأمر له بذلك ومنعه الغلام. فقال:

أبا جعفرٍ وأصول الفتى ... تدلّ عليه بأغصانه

أليس قبيحٌ بأن امرأاً ... رجاك لصالح أزمانه

فتأمر أنت بإعطائه ... ويأمر فتح بحرمانه

ولست أحب الشريف الظريف ... يكون غلاماً لغلما

## مساوئ سوء معاملات الموالي لعيبيدهم

قال: وقال أبو العباس الموصلي: كان لي جار فسمعت من داره استغاثة مضروبين، فلما سألت عن الخبر قيل: إنه فقد دجاجة. فكتبت أبياتاً في رقعة وشددتها في رجل دجاجة وألقيتها في داره وضمنتها: يا ذا الذي من أجل فرّوجة... أظهر للعالم أخلاقه ألقى على الغلمان من أجلها... بالضرب والتعذيب أرواقه رقفاً قليلاً يعقوباتهم... فإنهم لم يعقروا الناقه

قيل: وقدم أعرابي مصرّاً من الأمصار فدخل سوق النخاسين لبيتاع جارية فصادف جارية قد أقيمت لتباع يُبرأ فيها من الإباق والسرقه والسكر والفجور وقد تحامها الناس فاشتراها وأبرأهم من عيوبها، فقال له رجل: يا عبد الله لقد اشتريت بمالك ما لم يكن غيرك يأخذه بلا ثمن! فقال: إنا لسنا نكره من مثلها ما تكرهون، أما الإباق فوالله إن أدنى ماء من مياها لعلى مسيرة خمس ولربما سرى الرجل الهادي من حيث ينزل فيصبح بحيث يرى فأنى لها بالإباق؟ وأما السرقة فما عسى أن تسرق شاة أو بعيراً أو قتباً أو حلساً. وأما السكر فوالله ما نقدر على ربيها من الماء فكيف تصيب شراباً؟ وأما الفجور فإن لنا زنجراً يخدموننا فما نكره أن يقع عليها بعضهم فننتفع بولدها. ثم عمد إلى ثوبين مصبوغين كانا عليها فانترعهما منها وقال: مولاتك أحق بهما. وألبسها مدرعة. فبكت الجارية وقالت: قد كانت مولاتي تدعو علي وتقول: باعك الله في الأعراب. فقال: لأنا نجيع كبده ونعري جلده ونطيل كده.

## محاسن مطالبة المعلمين بالتعليم

قال: كان الرشيد جعفر محمدًا الأمين في حجر الفضل بن يحيى وعبد الله المأمون في حجر جعفر بن يحيى. فقال الفضل بن يحيى لهيثم بن بشير الواسطي: ليكن أكثر ما تأخذ به وليّ العهد تعظيم الدماء، فإني أحب أن يشرب الله قلبه الهيبة لها والعفاف عن سفكها. ثم إن الرشيد أرسل إلى الأحر النحوي فلما دخل عليه قال: يا أحر أن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه وصير يدك عليه مبسوطة ومقاتلك فيه مصدقة وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن وعلمه الآثار والأخبار والسنن وروّه الأشعار وبصره مواقع الكلام ومره بالرزانة في مجلس والاقتصاد في نظره وسمعه، فلا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتم فيها فائدة تفيده إياها وكلمة نافعة يعيها ويحفظها من غير أن تحرق به فتميت ذهنه وتملّه، ولا تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه بالتقريب والملاينة، فإن أبي فالشدة.

قال الأحر: فكنت كثيراً ما أشدد عليه في التأديب وأمنعه الساعات التي يتفرغ فيها للهو واللعب. فشكا ذلك إلى خالصة فأتتني برسالة من أم جعفر تعزم عليّ بالكف عنه وأن أجعل له وقتاً أجّه فيه لتوديع بدنه. فقلت: الأمير قد عظم قدره وبعد صوته، وموقعه من أمير المؤمنين ومكانه من ولايه العهد لا يَحْتَمِلان التقصير ولا يقبل منه الخطل ولا يرضى منه بالزلل في المنطق والجهل بشرائع الدين والعمى عن الأمور التي فيها قوام السلطان وإحكام السياسة.



قالت: صدقت غير أنها والدة لا تملك نفسها ولا تقدر على كف إشفاقها وحذرهما ومع حذرهما أمرٌ إن شئت حدثتك به. فقلت: وما ذلك؟ قات: حدثني السيدة أنها رأت في الليلة التي حملت فيها به كأن ثلاث نسوة دخلن عليها فقعدت منهنّ ثنتان واحدة عن يمينها وواحدة عن يسارها، فأمرت إحدى الثلاث يدها على بطنها ثم قالت: ملك رجلٌ عظيم البذل ثقيل الحمل سريع الأمر. وقالت الثانية: ملك قصير العمر سليم الصدر متهتك الستر. وقالت الثالثة: ملكٌ قصاف عظيم الإتلاف يسير الخلاف قليل الإنصاف. فانتبهت وأنا فرعة فلم أحس لهن أثراً حتى كانت الليلة التي وضعتها فيها أتيني في الخلق الذي رأيتهن فقعدن عند رأسه واطلعن جميعاً في وجهه ثم قالت واحدة منهن: شجرة نضرة وربحانة جنيّة وروضة زاهره وعين غدقة، قليل لبثها عجل ذهابها. وقالت الثانية: سفيه غارم وطالب للمغارم جسوراً على المخاصم. وقالت الثالثة: احفروا قبره وشقوا لحده وقربوا أكفانه وأعدوا جهازه فإن موته خير له من حياته. قالت: فبقيت متحيرة وبعثت إلى المنجمين والمعرين ومن يزرع الطير فكل يبشرنى بطول عمره وبعدي بقاءه وسعادته وقلبي بأبي إلا الحذر عليه والتهمة لما رأيت في منامي.

وبكت خالصة وقالت: يا أحمق وهل يدفع الإشفاق والحذر والاحترق واقع القدر أو يقدر أحدٌ على أن يدفع عن أحبائه الأجل؟ قلت: صدقت إن القضاء لا يدفعه شيء. ثم كان من أمره ما كان.

ثم اتخذ الرشيد قطرباً النحوي على الأمين، وكان حمّاد مجرد يتعشق الأمين ويطمع فيه أن يتخذه عليه مؤدباً فلم يتهياً له ذلك لتتهتكه وقبيح ذكره في الناس، وقد كان رام ذلك فلم يجب إليه، فلما سمع أن قطرباً قد استوى أمره وأجيب إلى ذلك لستره وعفافه أخذ حمّاداً المقيم والمقعد حسداً على ما ناله قطرب من ذلك وبلغه من المنزلة الرفيعة والدرجة السنية، فأخذ رقعة وكتب فيها أبياتاً ودفعها إلى بعض الخدم الذين يقومون على رأس الرشيد وجعل له على ذلك جعلاً وسأله أن يودع الرقعة دواة أمير المؤمنين. ففعل فما كان بأسرع من أن دعا الرشيد بالدواة فإذا فيها رقعة فيها هذه الأبيات:

قل للإمام جزاك الله مغفرةً ... لا يجمع الدهر بين السخل والذيب

السخل غرٌّ وهمُّ الذئب غفلته ... والذئب يعلم ما بالسخل من طيب

فلما قرأ الرشيد الرقعة قال: انظروا أن لا يكون هذا المعلم لوطياً انفوه من الدار. فأخرجوه عن تأديب الأمين واتخذ عليه حمّاداً، وجعل عليه ثمانين من الرقباء.

قال: ولما وُسم قطرب بهذه السمة القبيحة خاف أن يلحقه بعض ما يكره فهرب إلى الكرج وتوسل إلى أبي دلف ومعقل براءة الأدب، فلما عرفا غزارة فنه ووقفوا على معرفته اصطفاياه لأنفسهما وأحلاه محلاً رفيعاً وقدماه على جميع أهل الأدب وأرغدا له في العطية، فلما رأى قطرب برهما به وإلطافهما به رغب في المقام بالكرج وأثرى وكثر ماله.

فيقال: إن أصل هذه الآداب التي وقعت بالكرج إلى أبي دلف ومعقل من علم قطرب وتصنيفه الكتب. وإن

المأمون سأل أبا دلف: من خلّفت بالجلب منسوباً إلى الأدب؟ قال: ما خلّفت غير قطرب. فقال المأمون:

صدقت، إن لقطرب محلاً من هذا الشأن.

وعن أبي محمد اليزيدي قال: كنت أؤدب المأمون وهو في حجر سعيد الجوهري، فأتيته يوماً وهو داخل فوجّهت

إليه بعض غلماناه يعلمه بموضعي فأبطأ عليّ ثم وجهت إليه آخر فأبطأ، فقلت لسعيد: إن هذا الفتى ربما تأخر وتشاغل بالبطالة. قال: أجل ومع هذا إذا تأخر تعرّم على خدمه ولقوا منه أذىً فقومه بالأدب. فلما خرج أمرت بحمله وضربته تسع درر، قال: فإنه ليدلك عينه من أثر البكاء إذ أقبل جعفر بن يحيى فاستأذن وأخذ مندبلاً فمسح عينيه وجمع ثيابه وقام إلى فراشه وقعد عليه متربعاً ثم قال: يدخل. فدخل وقمت عن المجلس وخفت أن يشكوني إليه فألقى منه ما أكره. قال: فأقبل عليه بوجهه وحديثه حتى أضحكه وضحك. فلما هم بالحركة دعا بدابته وأمر غلماناه فسعوا بين يديه ثم سألت عني فجنّت فقال: خذ ما بقي من حزني. فقلت: أيها الأمير لقد خفت أن تشكوني إلى جعفر ولو فعلت ذلك لتكر لي. قال: إنا لله، أتراني يا أبا محمد كنت أطمع الرشيد في هذه فكيف جعفرأُطلع على أبي أحتاج إلى أدب؟ يغفر الله لك، خذ في أمرك فقد خطر ببالك ما لا تراه أبداً ولو عدت في كل يوم مرة.

وكان لسعيد الجوهري غلام قد لزم بالمأمون في الكتاب فكان إذا احتاج المأمون إلى محو لوحه بادر إليه فأخذ اللوح من يده فمحاها وغلب على غلمان المأمون ومسحه وجاء به فوضعه على المنديل في حجره، فلما سار المأمون إلى خراسان وكان من أخيه ما كان خرج إليه غلام سعيد فوقف بالباب حتى جاء أبو محمد اليزيدي فلما رآه عرفه فدخل فأخبر المأمون. فقال له مستبشراً بقدمه: لك البشري! ثم أذن له فدخل عليه فضحك إليه حين رآه ثم قال: أتذكر وأنت تبادر إلى محو لوحي؟ قال: نعم يا سيدي. فوصله بخمس مائة ألف درهم. ثم اتخذ الرشيد الحسن اللؤلؤي بعد أبي محمد اليزيدي على المأمون، فبينما هو يطارحه شيئاً من الفقه إذ نعى المأمون. فقال له اللؤلؤي: نعمت أيها الأمير! فقال المأمون: سوقني ورب الكعبة! خذوا بيده. فبلغ الرشيد ما صنع فقال متمثلاً:

وهل ينبت الخطيُّ إلا وشيجه ... وتُغرس إلا في منابتها النخل

### محاسن المعلمين

قال: شهد رجل عند سوار القاضي فقال: ما صناعتك؟ قال معلم. قال: فإننا لا نجيز شهادتك. قال: ولم؟ قال: أنك تأخذ على التعليم أجراً. قال: وأنت تأخذ على القضاء بين المسلمين أجراً. قال: أكرهت عليه. قال: فهبك أكرهت على القضاء فمن أكرهك على أخذك الأجر والرزق على الله؟ فقال: هلمّ شهادتك، فأجازها.

قال: وكان لشريح القاضي ابن يكشر البطالة فنظر إليه شريح يوماً وهو يهارش بكلب له فكتب رقعة إلى معلمه وفيها هذه الأبيات:

ترك الصلاة لأكلبٍ يسعى بها ... طلب المهراش مع الغواة الرُّجس  
فإذا أتاك فغطّه بملامة ... وعظنته موعظة الرفيق الأكيس  
فإذا هممت بضربه فبدره ... وإذا ضربت بها ثلاثاً فاحبس  
وليحملن مني إليك صحيفة ... نكراء مثل صحيفة المتلمّس  
اعلم بأنك ما أتيت بنفسه ... مع ما يجرعني أعزُّ الأنفس

فضربه المعلم عشراً عشراً. فقال له شريح: لم تثبت عليه الضرب؟ فقال: العشر الأولى للبطالة والثانية للبلادة حيث لا يدري ما يحمل.

### مساوي المعلمين

قيل: كان معلم يصلي بالناس في شهر رمضان وكان يقف على ما لا يوقف عليه، فقرأ: واتبعوا ما تنلو الشئ، ثم قال: الله أكبر، فركع ثم قام في الثانية. فقلت: ما تراه يصنع؟ فلما قال: ولا الصالين، فقال: ياطين على ملك سليمان.

قال: وسمعت معلماً يقرأ بالناس في شهر رمضان: وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً وأكيد كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً. وقال بعضهم: الله جل وعز أعان على عرامة الصبيان برقاعة المعلمين. وقال فيهم بعض الشعراء:

وهل يستفيد العقل من كان دهره ... يروح على أنثى ويغدو على طفل  
وقال آخر:

إذا كنت وراقاً فأنت محارف ... وحسبك نوكي أن تكون معلماً

### محاسن السؤال

قال الجاحظ: سمعت شيخاً من المكدين وقد التقى مع شاب منهم قريب العهد بالصناعة فسأله الشيخ عن حاله فقال: بعن الله الكدية ولعن أصحابها من صناعة ما أحسها وأقلها، إنما ما علمت تخلق الوجه وتضع من الرجال، وهل رأيت مكدياً أفلح؟ قال: فرأيت الشيخ قد غضب والتفت إليه فقال: يا هذا أقلل الكلام فقد أكثرت، منلك لا يفلح لأنك محروم ولم تستحكم بعد وإن للكدية رجلاً فما لك ولهذا الكلام! ثم التفت فقال: اسمعوا بالله يجيئنا كل نبطي قرنان وكل حائك صفعان وكل ضراط كشحان يتكلم سبعا في ثمان إذا لم يصب أحدهم يوماً شيئاً ثلب الصناعة ووقع فيها، أو ما علمت أن الكدية صناعة شريفة وهي محبة لذيدة صاحبها في نعيم لا ينفد فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض وخليفة ذي القرنين الذي بلغ المشرق والمغرب حيث ما حل لا يخاف البؤس، يسير حيث شاء، يأخذ أطايب كل بلدة؟ فهو أيام النرسیان والمهيرون بالكوفة، ووقت الشبوط وقصب السكر بالبصرة، ووقت البرني والأزاد والرازقي والرمان المرمز ببغداد، وأيام التين والجوز الرطب بلحوان، ووقت اللوز الرطب والسختيان والطبرزد بالجليل، يأكل طيبات الأرض، فهو رخي البال حسن الحال لا يغمم لأهل ولا مال ولا دار ولا عقار، حيث ما حل فعلفه طلي، أما والله لقد رأيتني وقد دخلت بعض بلدان الجبل ووقفت في مسجدها الأعظم وعلي فوطة قد ائترت بها وتعممت بجبل من ليف وييدي عكازة من خشب الدفلى وقد اجتمع إلي عالم من الناس كأني الحجاج بن يوسف على منبره وأنا أقول: يا قوم رجل من أهل الشام ثم من بلد يقال له المصيصة من أبناء الغزاة والمرابطين في سبيل الله من أبناء الركضة وحرسة الإسلام، غزوت مع والدي أربع عشرة غزوة سبعا في البحر وسبعا في البر، وغزوت مع الأرمني، قولوا رحم الله أبا الحسن، ومع

عمر بن عبيد الله، قولوا رحم الله أبا حفص، وغزوت مع البطال بن الحسين والرنداق بن مدرك وحمدان بن أبي قطفة، وآخر من غزوت معه يازمان الخادم، ودخلت قسطنطينية واصلت في مسجد مسلمة بن عبد الملك، من سمع باسمي فقد سمع ومن لم يسمع فأنا أعرفه نفسي، أنا ابن الغزِيل بن الركان المصيبي المعروف المشهور في جميع الثغور والضارب بالسيف والطاعن بالرمح، سدّ من أسداد الإسلام نازل الملك على باب طرسوس فقتل الذراري وسبى النساء، وأخذ لنا ابنان وهما إلى بلاد الروم فخرجت هارباً على وجهي ومعني كتب من التجار فقطع عليّ وقد استجرت بالله ثم بكم فإن رأيتم أن تردّوا ركناً من أركان الإسلام إلى وطنه وبلده!

فوالله ما أتممت الكلام حتى انمالت عليّ الدراهم من كل جانب وانصرفت ومعني أكثر من مائة درهم. فوثب إليه الشاب وقبل رأسه وقال: أنت والله معلم الخير فجزاك الله عن إخوانك خيراً.

### أصناف المكدين وأفعالهم

منهم المكّي وهو الذي يأتيك وعليه سراويل واسع ديبقيّ أو نرسي وفيه تكة أرمنية قد شدّها إلى عنقه فيأتي المسجد فيقول: أنا من مدينة مصر ابن فلان التاجر وجهني أبي إلى مرو في تجارة ومعني متاع بعشرة آلاف درهم فقطع عليّ الطريق وتركت على هذه الحال ولست أحسن صناعة ولا معني بضاعة وأنا ابن نعمة وقد بقيت ابن حاجة. ومنهم السحري الذي ييكر إلى المساجد من قبل أن يؤذن المؤذن. والشجوي الذي كان يؤثر في يده اليمنى ورجليه حتى يري الناس أنه كان مقيداً مغلولاً ويأخذ بيده تكة فينسجها يوهّمك أنه من الخلدية وقد حبس في المطبق خمسين سنة. ومنهم الدرارحي الذي يأخذ الدراريح فيشدها في موضع من جسده من أول الليل ويبيت عليه ليلته حتى يتيقظ فيخرج بالغدادة عرياناً وقد تنفّط ذلك الموضع وصار فيه القيح الأصفر ويصبّ على ظهره قليل رماد فيوهم الناس أنه محترق. ومنهم الحاجور وهو الذي يأخذ الحلقوم مع الرثة فيدخل الحلقوم في دبره ويشرح الرثة على فخذه تشريحاً رقيقاً ويذرّ عليه دم الأخوين. ومنهم الخاقاني الذي يحتال في وجهه حتى يجعله مثل وجه خاقان ملك الترك ويسوده بالصبر والمداد ويوهّمك أنه ورم. ومنهم السكوت الذي يوهّمك أنه لا يحسن أن يتكلم. ومنهم الكان وهو الذي يواضع القاص من أول الليل على أنه يعطيه النصف أو الثلث فيتركه حتى إذا فرغ من الأخذ لنفسه اندفع هو فتكلم.

ومنهم المفلل، الرفيقان يترافقان فإذا دخلا مدينة قصدا أنبل مسجد فيها فيقوم أحدهما في أول الصف فإذا سلم الإمام صاح الذي في آخر الصف بالذي في أول الصف: يا فلان قل لهم. فيقول الآخر: قل لهم أنت أنا أيش. فيقول: قل ويحك ولا تستح. فلا يزالان كذلك وقد علّقا قلوب الناس ينتظرون ما يكون منهما، فإذا علما أنّهما قد علّقا القلوب تكلما بجوائجهما وقالوا: نحن شريكان وكان معنا أحمال بزّ كنا حملناها من فسطاط مصر نريد العراق فقطع علينا وقد بقينا على هذه الحال لا نحسن أن نسأل وليست هذه صناعتنا. فيوهّمان الناس أنّهما قد ماتا من الحياء.

ومنهم زكيم الحبشة الذي يأتيك وعليه درّاعة صوف مضرّية مشقوقة من خلف وقدّام وعليه خفّ ثغري بلا سراويل يتشبه بالغزاة. ومنهم زكيم المرحومة المكافيف يجتمعون خمسة وستة وأقل وأكثر وقائدهم يبصر أذن شيء عينه مثل الخفاش يقال له الاسطيل فهو يدعو وهم يؤمنون. ومنهم الكاغايّ الذي يتجنن أو يتصارع

ويزبد حتى لا يشك أحد في جنونه وأنه لا دواء له لشدة ما ينزل به. ومنهم القرسى وهو الذي يعصب ساقيه أو ذراعيه عصباً شديداً ويبت على ذلك ليلة فإذا تورم واحتقن فيه الدم مسحه بشيء من صابون ودم الأخوين وقطر عليه من سمن البقر وأطبق عليه خرقة ثم كشف بعضه فلا يشك من رآه أنه آكلة نعوذ بالله منها. ومنهم المشعب الذي يمتل للصبي حين يولد بأن يزمنه أو يعميه ليسأل به الناس، وربما جاءت أمه أو يجيء أبوه فيتولى ذلك فيما أن يكسبها به أو يكرباه فإن كان عندهما ثقة وإلا أقام بالأولاد والأجرة كفيلاً. ومنهم الفيثور وهو الذي يمتل لخصيته حتى يريك أنه آدرٌ وربما أراك أن بهما شرطاً أو جرحاً، وربما أراك ذلك في دبره، وتفعل المرأة ذلك بفرجها. ومنهم الكاخان الغلام المكدي إذا واجر وعليه مسحة من جمال وعمل العملين جميعاً. والعواء الذي يسأل بين المغرب والعشاء ويطبّب في صوته. ومنهم الاسطيل وهو المتعامي الذي إن شاء أراك أنه أعمى وإن شاء أراك أنه ممن نزل في عينه الماء وإن شاء أراك أنه لا يبصر. ومنهم المزيدي وهو الذي يدور ومعه دربهات يقول: هذه دربهات قد جمعت لي في ثمن قطيفة فزيدوني فيها ورحمكم الله. ومنهم المستعرض الذي يعارضك وهو ذو هيئة في ثياب صالحة يريك أنه يستحي من المسألة ويخاف أن يراه معرفة فيعرض لك اعتراضاً ويكلمك خفتاً. ومنهم المطين وهو الذي يطين نفسه من قرنه إلى قدمه ويأخذ البلاذر يريك أنه يأكل البلاذر.

#### ومن نوادرهم

قيل: إنه أتى سائل داراً يسأل منها فأشرفت عليه امرأة من الغرفة فقال لها: يا أمة الله الله أن تصدّقي عليّ بشيء! قالت: أي شيء تريد؟ قال: درهماً. قالت: ليس. قال: فدائناً. قالت: ليس. قال: ففلساً. قالت: ليس. قال: فكسوة. قالت: ليس. قال: فكفاً من دقيق. قالت: ليس. قال: فزيت، حتى عد كل شيء يكون في البيوت وهي تقول: ليس. فقال لها: يا زانية فما يجلسك؟ مري تصدّقي معي.

قال الأصمعي: وقفت على سائل بالمربد وهو يقول:

قد رهنت القصاع من شهوة الخبز

فقلت له: أتمه. فقال: أتمه أنت. فقلت: فمن لي بمن يفك القصاعا فقال: اضمم إليه بيتاً. فقلت:

ما رهنت القصاع يا قوم حتى ... خفت والله أن أموت ضياعاً

فقال: أنت والله أحوج إلى المسألة وأحقّ بها مني.

ولأي فرون الأعرابي السائل:

وصبية مثل صغار الدرّ ... سود الوجوه كسواد القدر

كلهم ملتزقٌ بصدري ... حتى إذا لاح عمود الفجر

ولاحت الشمس خرجت أسري ... أسبقهم إلى أصول الجدر

ألا فتى يحمل عني إصري ... هذا جميع قصتي وأمري

فاسمع مقالتي وتوقّ شري ... فأنت أنت بغيي وذخري

كنت نفسي كنية في شعري ... أنا أبو الفقر وأم الفقر

قال: قال الأصمعي: رأيت سائلاً وقد تعلق بأستار الكعبة من بني تميم وهو يقول:

أيا رب رب الناس والمنّ والهدى ... أما لي في هذا الأنام قسيم

أما تستحي مني وقد قمت عارياً ... أناجيك يا ربي وأنت كريم  
أترزق أبناء العلوج وقد عصوا ... وتترك قرماً من قروم تميم  
قال: ورأيت رجلاً آخر من الأعراب وقد تعلق بأستار الكعبة وهو يقول:  
يا رب إني سائلٌ كما ترى ... مشتملٌ شميلي كما ترى  
وشيختي جالسةٌ فيما ترى ... والبطن مني جائعٌ كما ترى  
فما ترى يا ربنا فيما ترى  
قال: وأتى سائل من الأعراب إلى بني عبد العزيز بن مروان فقال: أتت علينا سنون لم تبق زرعاً حصيداً ولا مالاً  
تليداً إلا اجتاحتته بزوبره وأصله وأنتم أئمة أُملي وقصد تقني . فلم يعطوه شيئاً، فقال:  
بنو عبد العزيز إذا أرادوا ... سماحاً لم يلق بهم السماح  
لهم عن كل مكرمةٍ حجابٌ ... فقد تركوا المكارم واستراحوا  
قال: ومر سائل منهم برجل يكتنئ أبا الغمر ضخم عريض وكان بواباً لبعض الملوك فقال له: أعن المسكين  
الضعيف الفقير المحتاج. فقال: ما أخف جائعكم وأكثر سائلكم، أراحنا الله منكم! فقال السائل: اسكت فوالله  
لو فرّق قوت جسمك في عشرة أجسام منا لكفانا طعامك ليوم شهراً، وإنك لنبيه الضرطة لو ذري بها بيد  
لكفته الريح، عظيم السلحة لو ضربت لبناء لكفت سوراً.  
قال: وقال أعرابي وهو يسأل: رحم الله من أعطى من فضل وآثر من قلة وواسى من كفاف .  
قيل: ودخل رجل منهم على هشام بن عبد الملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين أتتنا سنون ثلاث، فأما الأولى  
فأذابت الشحم، وأما الثانية فأغضت اللحم، وأما الثالثة فهاضت العظم، وعندك أموال فإن كانت لله جل وعز  
فبئها في عباد الله، وإن كانت لهم فقيم تحبسها عنهم؟ وإن كانت لك فتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين.  
قال: ودخل أزهري السمان على المنصور فشكا إليه الحاجة وسوء الحال، فأمر له بألف درهم وقال: يا أزهري لا  
تأتنا في حاجة أبداً. قال: أفعل يا أمير المؤمنين. فلما كان بعد قليل عاد فقال له: يا أزهري ما حاجتك؟ قال: جئت  
لأدعو لأمر المؤمنين. قال: بل أتيتنا مثل ما أتيت. فأمر له بألف درهم وقال: يا أزهري لا أتنا ثلاثة فلا حاجة لنا  
في دعائك. قال: نعم، ثم لم يلبث أن عاد، فقال: يا أزهري ما جاء بك؟ قال: دعاء كنت سمعته منك أحب أن  
أخذه عنك. فقال: لا تردده فإنه غير مستجاب وقد دعوت به الله جل وعز أن يريحي من خلقتك فلم يفعل .  
ومن سأل الخلفاء أيضاً ربيعة بن ربيعة، ذكروا أنه دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال: يا أمير المؤمنين زوجني  
بعض بناتك. فقال: قد شغلناهن بأكفائهن. قال: فولّني شرطة البصرة. قال: قد وليتها من كفانا. قال: فهب لي  
قطيفة. قال: أما هذا فنعم.

ومنهم أبو دلامة دخل على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين تأمر لي بكلب صيد؟ قال: أعطوه. قال: كلب بلا  
صقر؟ قال: أعطوه صقراً. قال: كلب وصقر بلا بازبان؟ قال: أعطوه غلاماً بازباناً. قال: فلا بد لهم من دار!  
قال: أعطوه داراً. قال: فمن أي شيء يعيشون؟ قال: قد أقطعتك أربع مائة جريب منها مائتا جريب عامر  
ومائتان عامر. قال: وما العامر؟ قال: الخراب. قال: فأنا أقطعتك أربعة آلاف جريب بالدهناء عامرة. قال: فقد  
جعلتها كلها عامرة فهل بقي لك شيء؟ قال: نعم تدعني أقبل يدك. قال: ليس إلى ذلك سبيل. فقال: ما منعني

شيئاً أهون على عيالي من هذا .

قال: وبعث المنصور إلى زياد بن عبد الله مالا وأمره أن يفرقه في القواعد والأيتام والعميان، فدخل إليه أبو حمزة الرقي فقال: أصلح الله أمير المؤمنين! قد بلغني الكبر فاكتسبني في القاعدنين. قال: يغفر الله لك إنما القواعد النساء اللواتي قعدن عن الأزواج. قال: فاكتسبني في العميان فإن الله جل ذكره يقول: فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، وأنا أشهد أن قلبي أعمى، واكتب ولدي في الأيتام فإن من كنت أباه فهو يتيماً. قال: اكتبوه في العميان واكتبوا ولده في الأيتام.

قال وقالت أعرابية لحاتم بن عبد الله الطائي: أتيتك من بلاد نائية شاسعة تخفضني خافضة وترفعني رافعة للملمات من الأمور نزلن بي فبرين عظمي وأذهبن لحمي فرتكنني بالجريض قد ضاق بي البلد العريض، لم يترك لي سبداً ولم يبقين لي لبداءً، غاب الوالد وهلك الرفاد، وأنا امرأة من هوازن أقبلت في أفناء من العرب أسأل عن المرجو نائله والمحمود سائله والمأمون جانبه، فقيل لي أنت فاصنع بي إحدى ثلاث: إما أن تحسن صفدي، أو تقيم أودي، أو تردني إلى بلدي. فقال: أجمعهن لك وحباً. ففعل بها ذلك كله.

قال: وجاءت أعرابية تسأل فقالت: يا قوم طرائد زمان وفرانس نازلة ولحمان وضم، نبذتنا الرجال وأنشزتنا الحال وأطمعنا السؤال، فهل من مكتسب للأجر أو راغب في الذخر؟ وسأل أعرابي فقال: سنة جردت وحال جهدت وأيدي حمدت فرحم الله من رحم وأقرض من لا يظلم.

وسأل أعرابي فقال: أين الوجوه الواضحات الصباح، والعقول الراجحات الصحاح، والصدور الرحاب السماح، والمكارم الثمينة الرباح؟ وسأل أعرابي فقال: رحم الله امرأاً لم يمخّ أذنه كلامي وقدم لمعاذة من سوء مقامي، فإن البلاد مجدبة والحال مسغبة والحياة زاجر ينهي عن كلامكم والفقر عاذر يدعو إلى إخباركم فرحم الله امرأاً واسى بغير أو دعا بخير. فقال رجل: ممن يا أعرابي؟ فقال: أخ في كتاب الله وجار في بلاد الله وطالب خير من رزق الله.

وسأل آخر فقال: نقص الكيل وعجفت الخيل وقلّ النيل فهل من رحيم أجره الله فإنه غني عن الله لقوله جل وعز: " من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً " ، لم يستقرض ربنا جل وعز من عدم ولكن ليبلو ويختبر. وسأل آخر فقال: إني رجل من مدينة رسول الله، عليه وعلى آله السلام، مشيت حتى انتعلت الدم، فرحم الله من حملني على نعلين فكأنما حملني على ناقتين، فلا قليل من الأجر ولا غنى من الله جل وعز. وقيل لسائل أعرابي: أين منزلك؟ قال: ما لي منزل إنما أشتمل الليل إذا عسعس وأظهر بالنهار إذا تنفس.

### مساوي الثقلاء

قال بخنثشوع للمأمون: لا تجالس الثقلاء فإننا نجد في كتب الطب أن مجالسة الثقل حثي الروح. وقال بعضهم: سخنة العين النظر بها إلى الثقلاء.

قال: ونقش رجل على خاتمه: أبرمت فقم. فكان إذا جلس إليه الثقل ناوله إياه. قيل: ودخل أبو حنيفة على الأعمش يوماً فأطال جلوسه فقال: لعلني قد ثقلت عليك؟ قال: وإني لأستثقلك وأنت في منزلك فكيف وأنت عندي! قيل: واجتمع أصحاب الحديث عند شريك بن عبد الله، فترم بهم وأضجروه فصاح بهم وفرّقهم فلم يبرحوا. فقال بعضهم: أنا أطردهم عنك. قال: نعم، وانطرد معهم.

قيل: وأتى رجل ابن المقفع في حاجة فلم يصل إليه وكان مستثقلاً له فكتب بيتاً في رقعة وأرسل به إليه:  
هل لذي حاجة إليك سبيل ... وقليلٌ تلبي لا كثير  
فوقع إليه:

أنت يا صاحب الكتاب ثقيل ... وقليلٌ من الثقيل كثير  
فأجابه الرجل:  
قد بدأت الجواب منك بفحشٍ ... أنت بالفحش والبذاء جدير  
فضحك وقضى حاجته.

قال: وكتب أعرابي إلى حماد الراوية المعروف بعجرد، وكان حماد يستثقله:

إن لي حاجةً فرأيتك فيها ... لك نفسي الفدا من الأوصاب  
وهي ليست مما يُبلغها غي ... ري ولا أستطيعها في كتاب  
غير أني أقولها حين ألقا ... ك رويداً أسرها باكتتاب  
فكتب إليه: اكتب بالحاجة يا ثقيل. فكتب:

إني عاشقٌ لجبتك الدك ... ناء عشقاً قد حال دون الشراب  
فاكسنيها فدتك نفسي وأهلي ... أتمزى بها على أصحابي  
ولك الله والأمانة إني ... أجعلنها عمري أمير ثيابي  
وقد قيل: إذا علم الثقيل أنه ثقيل فليس بثقيل.  
ومما قيل فيهم من الشعر:

سألتك بالله إلا صدقت ... وعلمي بأنك لا تصدق  
أبغض نفسك من بغضها ... وإلا فأنت إذاً أحق  
ولآخر:

قل للبغيض أخي البغي ... ض ابن البغيض ابن البغيضه  
أنت الذي حملتك أ ... مك بين فاحشة وحيضه  
ضأقت على الثقيلين من ... بغضائك الأرض العريضة  
ودعت ملائكة السما ... عليك دعوى مستفيضة  
ولآخر:

يا من تبرمت الدنيا بطلعته ... كما تبرمت الأجنان بالسهد  
يمشي على الأرض مجتازاً فأحسبه ... من بغض طلعته يمشي على كبدي  
ولآخر:

شخصك في مقلة النديم ... أثقل من رعية النجوم  
يا راتحاً روحة علينا ... أثقل من سبة اللئيم  
إني لأرجو بما أقاسي ... منك خلاصاً من الجحيم



ولآخر:

يا مفرعاً في قالب البغض ... بغضك يشكوك إلى بغض  
كأنا تمشي على ناظري ... إذا تحطأت على الأرض

ولآخر:

يا من له حركاتٌ ... على النفوس ثقيله  
وليس يعرف معنى ... قصيرة من طويله  
أورثني بجلوسي ... إليك حمى مليله  
فاصفع لنفسك عني ... فإن كفي عليه

ولآخر:

أيا من أعرض الربُّ ... عن العالم من بغضه  
ومن عاذ مليك المو ... ت بالرحمن من قبضه  
ويا من بغضه يشه ... د بالبغض على بغضه

### مساوي الحمقى

قيل في المثل: هو أحمق من عجل، هو عجل بن لجم بن صععب بن علي بن بكر بن وائل، وذلك أنه قيل له: ما سميت فرسك؟ ففقاً عينه وقال: الأعور، أو قال: سميت أعور. وقال الشاعر فيه وفي قومه:

رمتني بنو عجلٍ بداء أبيهم ... وأي امرئٍ في الناس أحمق من عجل  
أليس أبوهم عار عين جواده ... فصارت به الأمثال تضرب في الجهل

ويقال: هو أحمق من هبنقة، وبلغ من حمقه أنه ضلّ له بعير فجعل ينادي: من وجد البعير فهو له. فقيل له: فلم تنشده؟ قال: وأين حلاوة الوجدان! واختصمت إليه بنو الطفاوة وبنو راسب في رجل ادعى هؤلاء وهؤلاء، فقالت الطفاوة: هذا من عرفتنا. وقالت بنو راسب: هذا من عرفتنا. ثم قالوا: قد رضينا بأول طالع علينا.

فطلع عليهم هبنقة، فلما رأوه قالوا: إنا لله! من طلع علينا؟ فلما دنوا قصّوا عليه قصّتهم فقال هبنقة: الحكم في هذا بين، يُذهب به إلى نهر البصرة فيلقى فيه فإن كان راسبياً رسب وإن كان طفاوياً طفا. فقال الرجل: لا أريد أن أكون من أحد هذين الحيين ولا حاجة لي في الديوان.

وكان هبنقة يرعى غنم أهله فيرعى السمان في العشب وينحّي المهازيل عنه. فقيل له: ويحك ما تصنع؟ فقال: أصلح ما أصلح الله وأفسد ما أفسد الله. أو قال: لا أفسد ما أصلح ولا أصلح ما أفسد الله. وقال الشاعر:

عش مجدٍ فلن يضرك نوكٌ ... إنما عيش من ترى بالجدود

عش مجدٍ وكن هبنقة العي ... سيّ نوكاً أو شيبه بن الوليد

رب ذي إربة مقلّ من الما ... ل وذي عنجهية مجدود

وكان شيبه من عقلاء العرب.

وقيل أيضاً: هو أحمق من دعة، وهي مارية بنت مغنج تزوجت في بني العنبر وهي صغيرة، فلما أصابها المخاض ظنّت أنّها تريد الخلاء فخرجت تبرّز فصاح الولد فجاءت منصرفةً فقالت: يا أمه هل يفتح الجعر فاه؟ قالت: نعم يدعوا أباه. فسبّت بنو العنبر بذاك فقالوا لهم بنو الجعراء.

وقيل أيضاً: هو أحمق من المهوراة إحدى خدمتيها، وهي امرأة أخذها رجل ليفجر بها فقالت: لا أمكنك من نفسي حتى تمهريني. فقال: قد مهرتك إحدى خدمتيك، وهما خلخالها، فرضيت ومكنته من نفسها. وقيل: هو أحمق من جهيزة، وهي عرس الذئب لأنها تدع ولدها وترضع ولد الضبع. وقال الكميّ: كما خامرت في حضنها أم عامرٍ ... لذي الحبل حتى عال أوسٌ عياها أوس هو الذئب.

وقيل: هو أحمق من نعامة، لأنها تدع الحضن على بيضتها وتحضن بيض نعامة أخرى، وقال ابن هرمة:

فإني وتركي ندى الأكرمين ... وقدحي بكفّي زناداً شحاحا

كتاركةٍ بيضها بالعرء ... وملبسةٍ بيض أخرى جناحا

وقيل: هو أحمق من باقل، وكان اشترى عنزاً بأحد عشر درهماً، فقالوا له: بكم اشتريت العنز؟ ففتح كفيه وفرّق أصابعه وأخرج لساناً، يريد أحد عشر درهماً، فعيّروه بذلك. وقيل: إن الذي اشتراه ظبي، فلما فتح أصابعه أفلت الظبي. وقالوا في باقل:

يلومون في حمقه باقلاً ... كأن الحماقة لم تُخلق

ولا تكثروا العذل في عيّه ... فللعيّ أجمل بالأموق

خروج اللسان وفتح البنان ... أحب إلينا من المنطق

قيل: وقدم وفد من العراق على سليمان بن عبد الملك فقصوا حوائجهم وانصرفوا. فقال رجل منهم: بلغني أن أمير المؤمنين يبرز للعامة فأنا أقيم بعدكم يوماً أو يومين فلعلي أن أراه وأسمع كلامه ثم أتبعكم. فلما كان في الغد برز سليمان للناس وجلس على سريره وأذن للعامة فدخلوا وفيهم العراقي. فجلس في سماط سليمان إلى جنب رجل أحمق من أهل الشام. فقال له الأحمق: ممن الرجل؟ قال: أنا من أهل العراق. وقال: فعل الله بك وفعل، وجعل يشتمه ويذكر أباه وعرضه، وقال: مثلك يقعد في سماط أمير المؤمنين! والعراقي يناشده الله ويسأله أن يكفّ عنه فإبى، إلى أن قال سليمان: أيكم يخبرني من الذي يقول:

أنحن القرون فعقلنّها ... كعطف العسيب عراجين ميلا

ويفسّر لنا قوله فله جارية برحالتها؟ والشامي مقبل على العراقي لا يفتر عن شتمه ويقول: يا جاسوس. فقال

له: كفّ عني فإني أنفعلك. قال: وهل معك خير؟ قال: نعم، قم فقل لأمرير المؤمنين أنا أعرف من قال هذا

وأفسره، فإذا قال: من قاله؟ فقل: امرؤ القيس، فإذا قال: ما عني به؟ فقل: البطيخ. فقال الشامي: يا أمير

المؤمنين أنا أعرف من قال هذا وأفسره. فقال: هات. قال: امرؤ القيس. فتبسم سليمان وقال: فما عني به؟

قال: البطيخ. فضحك سليمان حتى استلقى على فراشه ثم قال: ويحك عمّن أخذت هذا العلم؟ فقال: عن هذا

العراقي. فأشار سليمان إلى العراقي فأقبل إليه، فقال له: من أنت؟ قال: رجل من أهل العراق كنت قدمت مع

فلان وفلان فقصوا حوائجهم وانصرفوا فأقمت أرقب جلوس أمير المؤمنين فقعدت إلى هذا الشامي فلم يدع

سباً ولا شتماً إلا استقبلني به. فقلت له كفّ عني فإني أنفعلك، قل لأمرير المؤمنين كذا وكذا، فكان منه ما قد

سمعتَه. فضحك وقال: أتعرف أنت من قاله؟ قلت: كثير عزة. قال: وما عني به؟ قلت: قرون الرأس، والعسيب الخادم، والعراجين قد اختلفوا فيه فقال بعضهم عناقيد الكرم وقال بعضهم عراجين النخل. فأمر له بجائزة سنّية وقال له: الحق بأصحابك.

وحكي عن أبي عباد الكاتب أنه قال: كنت يوماً عند المأمون فدعنا بالغداء وكان يستنزل من قام من مجلسه عند ذكر الطعام ويقول: هذا من أخلاق اللثام، فقدموا إليه بطيخاً على أطباق جدد فجعل يقوّر بيده ويدوق البطيخة فإذا حمد حلاوتها قال: ادفع هذه بسكينتها إلى فلان. فقال لي وقد دفع إلي بطيخة كانت أحلى من الشهد المذاب: يا أبا عباد بم تستدل على حق الرجل؟ قلت: يا أمير المؤمنين أما عند الله فعلايات كثيرة وأما عندي فإذا رأيت الرجل يحب الشاهلوج ويبغض البطيخ علمت أنه أحمق. قال: وهل تعرف صاحب هذه الصفة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين الرستمي أحد من هذه صفته. قال: فدخل الرستمي على أمير المؤمنين، فقال له المأمون: ما تقول في البطيخ الرمشي؟ قال: يا أمير المؤمنين يفسد المعدة ويلطخها ويرقها، يرخي العصب ويرفع البخار إلى الرأس. قال: لم أسألك عن فعله إنما سألتك أشهي هو؟ قال: لا. قال: فما تقول في الشاهلوج؟ قال: سماه كسرى سيد أجناسه. قال: فالتفت المأمون إليّ وقال: الرجل الذي كنا في حديثه أمس من تلامذة كسرى في الحمق.

قال: ودخل أبو طالب صاحب الطعام على المأمون وكان أحمق فقال: كان أبوك يا أبا خيراً لنا منك وأنت يا أبا ليس تعدنا ولا تبعث إلينا ونحن يا أبا تجارك وجيرانك. قال: فجعل المأمون لا يزيد على التيسم. قال: وقال مروان بن الحكم لرجل: إني أظنك أحمق. فقال: ظنّ أو يقين؟ قال: بل ظنّ. فقال: أحمق ما يكون الشيخ إذا استعمل ظنه.

ومما قيل فيهم من الشعر:

يا ثابت العقل كم عاينت ذا حمقٍ ... الرزق أغرى به من لازم الجرب  
وإني واجدٌ في الناس واحداً ... الرزق أروغ شيءٍ عن ذوي الأدب  
وخصلةٌ ليس فيها من يخالفني ... الرزق والثوك مقرونان في سبب  
ولآخر:

أرى زمناً نوّكاه أسعد أهله ... على أنه يشقى به كلُّ عاقل  
سعى فوقه رجلاه والرأس تحته ... فكُبّ الأعمالي بارتفاع الأسافل  
ولآخر:

رأيت الدهر بالأحرار يكيو ... ويرفع رتبة القوم اللثام  
كأن الدهر مونتورٌ حقودٌ ... يطالب ثاره عند الكرام  
ولآخر:

كم من قويٍّ قويٍّ في تقلّبه ... مهذب اللبّ عنه الرزق منحرف  
ومن ضعيفٍ ضعيفٍ العقل محتلطٍ ... كأنه من خليج البحر يغترف

محاسن مضاحيك وألقاب

قال: كان اسم الأقيشر المغيرة بن الأسود وكان يغضب إذا دعي بالأقيشر، فمرّ ذات يوم بقوم من بني عبس فقال بعضهم: يا أقيشر. فنظر إليه طويلاً وهو مغضب ثم قال:

أتدعوني الأقيشر ذاك إسمي... وأدعوك ابن مطفئة السراج  
تناجي خدغها بالليل سراً... ورب الناس يعلم من تناجي

فسمي ذلك الرجل ابن مطفئة السراج وبذلك يعرف ولده إلى اليوم.

قال: وكان المغيرة بن عبد الله بن أبي عقيل عامل الحجاج على الكوفة، وكان يلقب أبا صفية، فاستعدت امرأة على زوجها، فأثاه صاحب العدوى عند المساء فأعلمه. فقال: نعم أغدو معها. فبات الرجل يقول لامرأته: لو قد أتيت الأمير لقلت أبا صفية إنما تفعل كذا وكذا، فيأمر من يوجعك ضرباً، وجعل يكرّر عليها بأبي صفية فحفظت الكنية وظنّت أنها كنيته، فلما تقدمت إليه قالت: أصلحك الله أبا صفية. فقال لها: أبو عبد الله عافاك الله. فأعادت. فقال لها: أبو عبد الله فأعادت. فقال: يا فاسقة أظنك ظالمة! خذ بيدها الخبيثة. وحكم للزوج عليها.

قال: وولّى يوسف بن عمر رجلاً من بني سليم يلقب بأبي العاج، وكان يغضب منه، فقدم إليه رجل خصماً له فقال: يا أبا العاج. فقال: أبو محمد يا ابن البطراء. فقال: أتقول هذا لأمي وقد حجّت! قال: لا يمنعها ما قلت من الحج.

فنّ منه في الطمع

قيل لأشعب: أي شيء بلغ من طمعك؟ قال: ناديت بصبيان ولعوا بي فقلت لهم لأنحّيهم عن نفسي: إن في دار بني فلان عرساً وهناك نثارٌ. فولوا عني مبادرين وجعلت أشند معهم طمعاً في النثار.

قال: وكان في دار بعض جيرانه عرس فتجوّع ولزم منزله طمعاً في أن يدعى. فلما تعالي النهار وجاع ولم يُدع قال: قبح الله هذا الخبز! وقام إلى طعام له فقدمه وجعل يأكل. فسمع وقع الباب فقال: من هذا؟ قال: من دار العروس. قال: اصبر فديتك! ودخل الخلاء فرمى بجميع ما كان أكله وغسل فمه وخرج إليه فقال: تقول لك مولاتي أعيرونا الماون ساعة. فقال: مرّ فأملك وأمّ مولاتك زانية يا ابن الفاعلة!

فنّ منه آخر

مرّ ضرير على رجل بصير فقال: أين الطريق؟ فقال البصير: خذ يمناً. فأخذ يمناً فسقط في بئر. فقال البصير: إنا لله! غلظت، أردت أن أقول يسرة فقلت يمناً. فقال الضرير من أسفل البئر: ويحك أهذا من الغلط الذي يستقال! قال: وقيل للعلاء بن عبد الكريم: بكم اكرت الدار؟ فقال: بدينارين وطعامهما. قالوا: ويحك وما طعامهما؟ فقال: صاحب الدار يأكل معي كلما أكلت.

قال: وسمع أعرابي إماماً يقرأ: إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه، فأرتج عليه فجعل يردد الآية. فقال: يا هذا إن لم يذهب نوح فأرسل غيره.

قال: وشرب أعرابي وعلى يساره ابن له فسقاه. فقال له جليسه: السنة أن تسقي من على يمينك. قال: قد علمت ولكنه أحب إلي من السنة.

قال: وقيل لابن رواح الطفيلي: كيف ابنك هذا؟ قال: ليس في الدنيا شيء مثله، سمع نادبةً خلف جنازة وهي

تقول: واسيدها! يُذهب بك إلى بيت ليس فيه ماء ولا طعام ولا فراش ولا وطاء، ولا غطاء ولا سراج ولا ضياء! فقال: يا ابيه يذهبون به إلى بيتنا.

وقال بعضهم: جاء جماعة من أصحاب مزيد إليه فقالوا: قم بنا ننتزه فإنه يوم طيب. فقال: هو يوم أربعاء. قالوا: فإن فيه وُلد يونس بن متى، عليه السلام. فقال: بأبي وأمي، صلى الله عليه، لا جرم أنه التقمه الحوت. قالوا: نُصر فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم. قال: أجل ولكن بعد إذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون.

وكان الحارث بن قيس الفزاري شيخاً أعمى وكان له ابن شيعي وابنة حرورية وامرأة ترى رأي المعتزلة، وكانوا جلوساً معه، فقال بيده عليهم وجسّهم ثم قال: إن الله جل وعز يحشرنى وإياكم يوم القيامة طرائق قديداً. وقال الجاحظ: قيل لرجل طويل اللحية: ما لك لا تأخذ من لحيتك؟ قال: لأصون بها عرضي، فإن الناس يقولون: انظر إلى لحيته كأنها طارئة، وخلق الله هذه اللحية، ولحيتيه كأنها جوالق، ولا بارك الله في هذه اللحية، فلما لي أعرض لشيء يصون عرضي؟ وحدث رجل من عامر بن لؤي قال: كان صبي منا ترك له أبوه غنماً وعبيداً فخرج يوماً فنظر إلى جارية في خبائها فهويها ومال إلى أمها وسألها أن تزوجها منه فقالت: حتى أسأل عن أخلاقك. فسأل عن أكرم الناس إليها فدل على شيخ كان معروفاً بحسن الخضر، فأتاه وسلّم علي. وقال: ما جاء بك؟ فأخبره. فقال: لا عليك فإن العجوز غير خارجة من رأيي فامض إلى منزلك وأقم يوماً أو يومين ومر بغمك أن تُساق وناد في أهلك: أما من أراد أن يجلب فليأتنا، ودعني والأمر. فشاع الخبر فخرجت العجوز مع من خرج والشيخ مع القوم فنظر إلى الشاب وقد كانت العجوز أخبرته بشأنه فقال: هو هو! فقالت: نعم. قال: لقد حُرمت حظك. قالت: إني أريد أن أسأل عن أخلاقه. قال: أنا ربيته. قالت: فكيف لسانه؟ قال: خطيب أهله والمتكلم عنهم. قالت: فكيف سماحته؟ قال: شمال في قومه وربيعهم. قالت: فكيف شجاعته؟ قال: حامي قومه والدافع عنهم. قال: فطلع الفتى، فقال: أما ترين ما أحسن ما أقبل ما انحنى ولا انثنى؟ فلما قرب سلّم، فقال: ما أحسن ما سلّم ما حار ولا ثار! ثم استوى جالساً، فقال: ما أحسن ما جلس ما ركع ولا عجر. قالت: أجل. فذهب يتحرك فضرط، فقال الشيخ: ما أحسن والله ما ضرط! ما أظنها ولا أغنها ولا نفخها ولا تترتها. فنهض الفتى خجلاً، فقال الشيخ: ما أحسن والله ما نهض ما انحتل ولا انفتل! قالت العجوز: أجل والله فصح به وردّه فوالله لزوّجناه ولو خريء.

## محاسن المزاح

قيل: أهدى نعيمان الأنصاري إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، جرة عسل وكانت فيه دعاية وكان اشتراها من أعرابي بدنيار وأتى بالأعرابي إلى باب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال له: خذ الثمن من هاهنا. فلما قسمها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بين نسائه، قال له الأعرابي: أعطني يا رسول الله ثمن العسل. فقال، عليه السلام: هذه إحدى هنات نعيمان. وسأله: لم فعلت؟ فقال: أردت أن أبرك يا رسول الله ولم يكن معي شيء. فتبسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأعطى الأعرابي حقه.

وعن الهيثم قال: قدم تميم الداري من الشام وكان تاجرًا فأتاه نعيمان وقال له: هل لك في غلام تاجر له فضل ودين؟ قال: وكيف لي به؟ قال: إنه إن علم ببيعنا إياه لم تنتفع به ولكن انطلق معي حتى أريكه فإنه عندنا بمنزلة

الولد. قال: فأدخله المسجد وأراه سويبط بن عبد العزى. فنظر إليه تميم فأعجبه فقال: بكم؟ قال: بمائة دينار. قال: هي لك. فأخذ منه المائة الدينار. فلما حضر شخوصه أتى نعيمان فقال: الغلام. فمضى معه إلى المسجد وقال: دونك الغلام. فجاء تميم وسويبط يصلي فصلى إلى جانبه ركعتين ثم قال له: خفف. فخفف وقال له: ما حاجتك؟ قال: قد باعك أهلك مني. قال: وأي أهلي؟ فارتفع الكلام بينهما حتى خرج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال: ما شأنكم؟ قال تميم: يا رسول الله باعني أهله. فقال، صلى الله عليه وسلم: إني لأظن أن نعيمان صاحبه، عليّ به. فلما جاء قال له: ويحك ما هذه؟ قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! تزوجت امرأة ولم يكن عندي نفقة ولا صداق أدفعه إليها ولم أجد إلا ما رأيت. فتبسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال لتميم: هي لك عندنا.

وذكروا أن نعيمان مرّ ذات يوم بمخرمة بن نوفل الزهري الضريبر في المسجد، فقال له مخرمة: خذ بيدي حتى أبول. فأخذ بيده حتى إذا كان في أقصى المسجد قال له: اجلس. فجلس يبول. فصاح به الناس: يا أبا المسور إنك في المسجد! قال: ومن قادي؟ قالوا: نعيمان. قال: والله لأضربنه بعصاي هذه إن وجدته. فأتاه نعيمان وقال له: يا أبا المسور هل لك في نعيمان؟ قال: نعم. قال: فأخذ بيده حتى أوقفه على عثمان بن عفان وهو خليفة وتنحّى عنه، فعلاه بعصاته ضرباً. فصاح به الناس: ضربت أمير المؤمنين! قال: ومن قادي؟ قالوا: نعيمان. قال: لا جرم لا تعرّضت له أبداً.

### مزاح الشعراء

قيل: دخل أبو دلامة على المهدي فسلم ثم قعد وأرخى عينيه بالبكاء. فقال له: ما لك؟ قال: ماتت أم دلامة. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ودخلت له رقة لما رأى من جزعه، فقال له: أعظم الله أجرك يا أبا دلامة! وأمر أن يعطى ألف درهم وقال له: استعن بما في مصيبتك. فأخذها ودعا له وانصرف. فلما دخل إلى منزله قال لأُم دلامة: اذهبي فاستأذي على الخيزران فإذا دخلت عليها فتباكي وقولي مات أبو دلامة. فمضت واستأذنت على الخيزران، فأذنت لها، فلما اطمأنت أرسلت عينها بالبكاء، فقالت لها: ما لك؟ فقالت: مات أبو دلامة. فقالت: إنا لله عظم الله أجرك! وتوجّعت لها ثم أمرت لها بألفي درهم، فدعت لها وانصرفت. فلم يلبث المهدي أن دخل على الخيزران، فقالت: يا سيدي أما علمت أن أبا دلامة مات؟ قال: لا يا حبيبتي إنما هي امرأته أم دلامة. قالت: لا والله إلا أبو دلامة. فقال: خرج من عندي الساعة آنفاً. فقالت: خرجت من عندي الساعة. وأخبرته بخبرها وبكائها. فضحك وتعجّب من حيلهما.

قال: وكان أبو نواس ولعاً بأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي، فكتب على أسطوانة في مسجد بمقدار قامة وبسطة:

صلى الإله على لوطٍ وشيعته ... أبا عبيدة قل بالله آمينا

فأنت عندي بلا شكٍ بقيتهم ... منذ احتلمت وجازوت الثمانينا

فقال لكيسان: ويحك أما رأيت هذا الفاجر وما صنع؟ قم بنا نحكه لنلا يراه الناس. فبرك أبو عبيدة وركبه كيسان ليحكه. فلما ثقل عليه قال له: أوجز. فقال له كيسان: قد بقي لوط. فقال: عجل حكه فهو المعنى وعليه تدور فضيحتي.

جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين | ٢٠١٠ ISLAMICBOOK.WS